

تعمير القلوب

إلى الأذهان

أبو الله العظيم الإمام

السيد محمد باقر الصدر

(عقل الله متناه)

المجلد الثاني

الطبعة الأولى

1400 هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريب القرآن الى الازهان

كاتب:

محمد الحسينى الشيرازى

نشرت فى الطباعة:

ايمان

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٦	تقريب القرآن الى الازهان المجلد ٢
٦	اشارة
٦	[تتمة سورة المائدة]
٢٢	٦ سورة الأنعام مكية- مدنية/ آياتها (١٦٦)
٧٠	٧ سورة الأعراف مكية/ آياتها (٢٠٧)
١٣٠	٨ سورة الأنفال مكية، مدنية/ آياتها (٧٦)
١٥٩	٩ سورة التوبة مدنية/ آياتها (١٢٩)
٢١٥	١٠ سورة يونس مكية/ آياتها (١١٠)
٢٥٠	١١ سورة هود مكية/ آياتها (١٢٤)
٢٨٩	١٢ سورة يوسف مكية/ آياتها (١١٢)
٣٠٦	تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

تقريب القرآن الى الازهان المجلد ٢

إشارة

سرشناسه : شیرازی، محمد
 عنوان و نام پدید آور : تقريب القرآن الى الازهان / محمد شیرازی
 مشخصات نشر : قم: ایمان، [١٣٣٠].
 مشخصات ظاهري : ١٦٨ ص.
 عنوان دیگر : تقريب القرآن الى الازهان
 موضوع : تفاسیر شیعه
 موضوع : تفاسیر -- قرن ١٤
 رده بندی کنگره : BP٩٨/ح٤٦٤٦١٥٧٠٤٢١٥٧٠٣٠٠ ی
 رده بندی دیویی : ٢٩٧/١٧٩
 شماره کتابشناسی ملی : م٦٥-٢١٧٦

[تنمة سورة المائدة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧

[سورة المائدة (٥): آية ٨٣]

وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)

[٨٤] هذه الآية و طرفها

وردت في قصة النجاشي ملك الحبشة، فإن الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم أرسل جعفر بن أبي طالب عليه السلام مع جماعة من المؤمنين إلى النجاشي فأكرمهم و أعز و فادتهم، ثم أنه بعث إلى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم ثلاثة من القسيسين فقال لهم: انظروا إلى كلامه و مصلاه. فلما وافوا المدينة دعاهم رسول الله إلى الإسلام و قرأ عليهم القرآن: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَى وَالِدَتِكَ إِلَى قَوْلِهِ- سِحْرٌ مُّبِينٌ «١»، فلما سمعوا ذلك من رسول الله بكوا و آمنوا و رجعوا إلى النجاشي و أخبروه خبر رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و قرءوا عليه ما قرأ عليهم، فبكى النجاشي و بكى القسيسون و أسلم النجاشي و لم يظهر للحبشة إسلامه و خافهم على نفسه و خرج من بلاد الحبشة يريد النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم فلما عبر البحر توفي، فنزلت هذه الآيات

: وَ إِذَا سَمِعُوا أَى هؤلاء النصارى ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ مِنَ الْقُرْآنِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أَى مِنَ الْبُكَاءِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ أَى لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّ الْمَتَلَوِّ عَلَيْهِمْ حَقٌّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَرَفَ الْحَقَّ، رَأَى الْخَارِجَ عَلَى خِلافِهِ، أَوْ رَأَى اضْطِهَادَ أَهْلِهِ، بَكَى رِقَّةً عَلَى الْحَقِّ أَوْ الْقَائِمِ بِهِ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِدِينِكَ وَ رَسُولِكَ فَاكْتُبْنَا أَى سَجَلْنَا، سِوَاءَ كَانَتْ حَقِيقَتُهُ أَوْ لَا مَعَ الشَّاهِدِينَ الَّذِينَ شَهِدُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٤ إلى ٨٧]

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)

بالحق، والمراد بهم المسلمون هنا.

[٨٥] وَمَا لَنَا أَى يَقُول هُوَ لاء النصارى: لأى عذر لا- نُؤْمِنُ بِاللَّهِ إيماننا حقيقيا كإيمان المسلمين وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ مِنَ الْقُرْآنِ وَ

الإسلام وَالْحَال أَنَا نَطْمَعُ أَى نرجو ونأمل أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ

[٨٦] وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ لَهُمُ الرَّجَاءَ الَّذِي رَجَوْهُ فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ أَى جازاهم وأعطاهم الثواب بِمَا قَالُوا أَى بسبب قولهم ذاك المنبتق عن

عقيدتهم الراسخة جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى بساتين تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَى لهم الخلود

فلا انقضاء للنعيم ولا زوال لهم وَذَلِكَ الثَّوَابِ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ الْعَقِيدَةَ وَالْقَوْلَ وَالْعَمَلَ.

[٨٧] وَالَّذِينَ كَفَرُوا كَالْيَهُودِ وَسَائِرِ الْمَسِيحِيِّينَ وَالْمَشْرِكِينَ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَمْ يَقْبَلُوها أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ الَّذِينَ يَلْزَمُونَ النَّارَ،

كما خلد أصحاب الجنة فيها.

[٨٨] وَفِي سِيَاقِ ذِكْرِ الرَّهْبَانِ وَهُمْ يَحْرَمُونَ الطَّيِّبَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَأْتِي النَّهْيَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩

للمسلمين عن تحريم ما أحلَّ الله، كما ينهى عن الإسراف والاعتداء، فإن كلا الطرفين منهى عنه مذموم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا

طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ أَى لا- تجعلوها بمنزلة المحرمات فتجنبوا عنها اجتنابكم عن المحرمات ولفظة «ما» موصولة، أى طيبات

الأشياء التى أحلها الله لكم، ولعلَّ الإتيان بها لإفادة العموم، إذ لو قال: «طيبات أحل الله لكم» كان المتبادر منه طيبات خاصة، وليست

إضافة طيبات إلى «ما» تفيد التقييد، بل هو من باب «قطيفة خز».

وقد نزلت هذه الآية فى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبلال و عثمان ابن مظعون،

فأما على عليه السلام فإنه حلف أن لا- ينام بالليل أبدا إلا ما شاء الله، وأما بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبدا، وأما عثمان بن

مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبدا- كل ذلك بقصد الامتناع عن شهوات الدنيا رجاء ثواب الله- فدخلت امرأة عثمان على عائشة و

كانت امرأة جميلة فقالت عائشة: ما لى أراك متعطله؟ فقالت: و لمن أترين، فو الله ما قربنى زوجى منذ كذا وكذا فإنه قد ترهب و

لبس المسوح و زهد فى الدنيا. فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرته عائشة، فخرج فنأدى الصلاة جامعة، فاجتمع

الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟! إني أنام بالليل و أنكح و أفطر بالنهار

فمن رغب عن سنتى فليس منى، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ

«١» (٢)

، و لا يخفى أن مثل ذلك لا يضر مقام عصمة الإمام لأنه:

أولا: قيد ب «إلا ما شاء الله».

(١) البقرة: ٢٢٦.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٣ ص ٢٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٨ الى ٨٩]

وَ كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) - لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

و ثانيا: أنه من قبيل يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ «١»، و لعل السر في المقامين أن الأمر كان جائزا قبل النهي، و لفظه «لم» ليس للتفريع، بل للإرشاد و إعطاء الحكم.

وَ لَا تَعْتَدُوا حَتَّى تَسْرِفُوا فِي تَنَاوُلِ الطَّيِّبَاتِ، أَوْ تَعْدُوها إِلَى الْخَبَائِثِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ قد تقدم أن معنى «لا يحب» في هذه المقامات: أنه يكرههم و يبغضهم.

[٨٩] وَ كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا أَى فِي حَالِ كَوْنِ الرِّزْقِ حَلالًا- أَى مباحا- طيبا، أَى لا ضرر فيه و لا خبث وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ أَى بِاللَّهِ مُؤْمِنُونَ فلا تخالفوا أوامره و لا ترتكبوا زواجره.

[٩٠] لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ اليمين التي أجازها الله سبحانه هي التي تكون منعقدة و تترتب على حثها الكفارة، أما اليمين اللفظية- التي تتداول على ألسنة الناس حيث يحلفون على كل صغيرة و كبيرة- و اليمين التي لم يعط الله الرخصة في متعلقها كيمين تحريم الطيبات على النفس زهدا، فهي لغو من اليمين لا- تترتب عليها كفارة، و لا- يكون نقضها حثا و لكن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ عَنْ قَصْدٍ وَ تَعَمُّدٍ مع

(١) التحريم: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١

صلاحية المتعلق للانعقاد، فقول الإنسان: «لا و الله» و «بلى و الله» لغو لم يقصد به عقد اليمين، كما يعقد العقد، بل هو من قبيل التأكيد كما أن عقده بدون صلاحية المتعلق لا يفيد شيئا. و قد سبق ذلك في سورة البقرة، لكن التكرار هنا فذلكه للحكم المتقدم و تمهيد للكفارة.

فَكَفَّارَتُهُ أَى كَفَّارَةُ ما عَقَدْتُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ، وَ سَمِيَتِ الْكَفَّارَةُ كَفَّارَةً لِأَنَّهَا تَكْفِّرُ الذَّنْبَ وَ تَسْتَرُهُ، وَ إِنَّمَا تَجِبُ الْكَفَّارَةُ إِذَا حَثَّ الْإِنْسَانُ مَقْتَضَى يَمِينِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَساكِينَ جَمْعِ مَسْكِينٍ، وَ الْمَرادُ بِهِ الْفَقِيرُ، يُعْطَى كُلُّ وَاحِدٍ مَدًا مِنَ الطَّعَامِ، وَ هُوَ ما يَقْرَبُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ الْأَوْقِيَةِ- بِحَقِّهِ كَرْبَلَاءَ- أَوْ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْكَيْلِو، أَوْ يُطْعَمُهُمْ إِطْعامًا مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ فلا يجب في إطعامهم الحد الأعلى و هو الأرز مثلا، و لا يجوز الأدنى كإطعامهم بالدخنه مثلا أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَى يَكْسِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ بِثَوْبَيْنِ «الْمِثْرُ وَ الْقَمِيصُ» بِأَى جِنْسٍ كان أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أَى عَتَقَ عَبْدًا أَوْ أُمَّةً لَوْجِهَ اللَّهِ سَبْحانَهُ، وَ إِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْإِنْسَانِ بِالرَّقَبَةِ، لِعَلَّاقَةِ الْكُلِّ بِالْجِزءِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ لِلْكَفَّارَةِ فَكَفَّارَتُهُ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتتَابِعَاتٍ- كما ذكر الفقهاء- وَ ذَلِكَ الْمُتتَابِعَاتُ مِنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ ثُمَّ الصِّيَامُ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ جَمْعُ يَمِينٍ وَ هُوَ الْحَلْفُ إِذَا حَلَفْتُمْ ثُمَّ حَنَنْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ فلا تحنثوها بل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٠ الى ٩١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)

أوفوا بها كَذَلِكَ الْبَيانِ، أَى مِثْلَ هَذَا الْبَيانِ الَّذِي بَيَّنَّ بِهِ الْكَفَّارَةَ، وَ حَكَمَ اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاضِحَةً لا لَبْسَ فِيهَا وَ لا غَمُوضَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اللهُ سَبْحانَهُ حَيْثُ أَرشَدَكُمْ إِلَى مِصالِحِكُمْ.

[٩١] و بعد ذكر تحليل الطيبات يأتي بيان تحريم الخبائث يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ هِيَ كُلُّ مَا أُسْكِرَ سِوَاءَ كَانِ مِنَ الْعَنْبِ أَوْ غَيْرِهِ وَ الْمَيْسِرُ هُوَ الْقِمَارُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَ الْأَنْصَابُ وَ هِيَ الْأَصْنَامُ كَانُوا يَذْبَحُونَ لَهَا الذَّبَائِحَ وَ يَلْطَخُونَهَا بِدِمَائِهَا وَ الْأَزْلَامُ قِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا الذَّبِيحَةَ وَ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْقِمَارِ خَصِّصَ بِالذِّكْرِ لِاشْتِهَارِهِ فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ سَابِقًا رَجَسُ أَيُّ خَبِيثٍ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِتَعَاطِيهَا، مُقَابِلَ عَمَلِ الرَّحْمَنِ، بِمَعْنَى: هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي عَمِلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِمَّا حَقِيقَةً كَمَا يَظْهَرُ مِنْ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَ إِمَّا مُجَازًا بِاعْتِبَارِ وَسُوسَتِهِ وَ إِقْنَانِهِ فِي قُلُوبِ الْفَاسِقِينَ فَاجْتَنَبُوا أَيُّ اجْتَنَبُوا تَعَاطَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فَلَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ وَ لَا تَضْرِبُوا الْمَيْسِرَ وَ لَا تَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ وَ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَيُّ كَيْ تَفُوزُوا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ.

[٩٢] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ بِوَسُوسَتِهِ وَ أَمْرِهِ بِشْرَبِ الْخَمْرِ وَ لَعِبِ الْمَيْسِرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣

أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْعِدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءَ وَ الْفِرْقَ بَيْنَهُمَا أَنْ أَصْلَ التَّعَدَى مِنْ فِعْلِ الْجَوَارِحِ، وَ أَصْلُ الْبُغْضَاءِ مِنْ فِعْلِ الْجَوَانِحِ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ أَيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا، فَإِنَّ «فِي» تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى «النِّسْبَةِ» كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِمْ: «الْوَاجِبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ فِي الْوَاجِبَاتِ الْعَقْلِيَّةِ» أَنْ «فِي» بِمَعْنَى النِّسْبَةِ، أَيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَاجِبَاتِ الْعَقْلِيَّةِ.

فِي الْمَجْمَعِ: أَنْ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَا مُوَاخِيَا لِسَعْدِ دَعَاهُ إِلَى طَعَامٍ فَأَكَلُوا وَ شَرَبُوا نَبِيذًا مَسْكِرًا فَوَقَعَ بَيْنَ الْأَنْصَارِيِّ وَ سَعْدِ مِرَاءٍ وَ مَفَاخِرَةٍ فَأَخَذَ الْأَنْصَارِيُّ لِحَى جَمَلٍ فَضْرَبَ بِهِ سَعْدًا فَفَزِرَ أَنْفَهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيهِمَا «١».

أَقُولُ: إِنَّ إِيقَاعَ الْعِدَاوَةِ بِوَسْطَةِ الْخَمْرِ ظَاهِرٌ، إِذِ السُّكْرُ الْمَوْجِبُ لِهَذَا الْعَقْلِ يُوْجِبُ كُلَّ شَيْءٍ، وَ إِيقَاعَهُ بِسَبَبِ الْقِمَارِ، مِنْ جِهَةِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا فَيَمُنُّ لَهُ الْغَلْبُ أَوَّلًا وَ بَغْضُ الْمَغْلُوبِ لِلْغَالِبِ ثَانِيًا.

وَ يَصِيدُكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِذِ الْإِسْكَارُ يُوْجِبُ عَدَمَ الْاِتِّفَاتِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ الْقِمَارُ يَشْغَلُهُ الْحَوَاسِ، مَنْسَى لَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ عَنِ الصَّلَاةِ لِمَا هُوَ وَاضِحٌ مِمَّا تَقَدَّمَ فَهَلْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مُتَّهَمُونَ عَنْهُمَا، فَتَرْتَكُونَهُمَا لِهَذِهِ الْمَضَارِ، وَ صِيغَةُ الْاِسْتِفْهَامِ بِمَعْنَى النَّهْيِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٤١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ اخِذُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

[٩٣] وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي الْأَمْرِ وَ النَّوَاهِي، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ طَاعَتَهُمَا وَاحِدَةٌ، وَ إِنَّمَا يَذْكُرُ اللَّهُ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ فِي الْإِطَاعَةِ، وَ يَذْكُرُ الرَّسُولَ لِأَنَّهُ الْمَبْلُغُ الَّذِي بَيْنَ الْأَمْرِ وَ النَّهْيِ وَ اخِذُوا مِنْ مَخَالَفَتِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِحَزِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَيُّ أَعْرَضْتُمْ عَنْ إِطَاعَتِهِمَا فاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ فَانظُرُوا الْعُقُوبَةَ حَيْثُ قَدْ بَلَّغَكُمْ الرَّسُولَ فَلَمْ يَنْفَعِكُمُ الْبَلَاغُ وَ تَجَاوَزْتُمُ الْحُدُ.

[٩٤] وَ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي إِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَضَوْا وَ هُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَ يَأْكُلُونَ الْمَيْسِرَ - يَرِيدُونَ هَلْ مِنْ إِثْمٍ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا قَبْلَ التَّحْرِيمِ، وَ هُمْ يَتَعَاوَنُهُمَا؟ - فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ أَيُّ إِثْمٌ وَ حَرَجٌ وَ عَصِيَانٌ فِيمَا طَعِمُوا سَابِقًا قَبْلَ التَّحْرِيمِ مِنَ الْخَمْرِ وَ تَعَاوَنُوا مِنَ الْمَيْسِرِ وَ غَلَبَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ تَخْفِيفًا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: «عَلَفْتَهَا تَبْنَا وَ مَاءَ بَارِدًا» إِذَا مَا اتَّقَوْا «مَا» زَائِدَةٌ، وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَيُّ إِذَا كَانَ طَعَامُهُمْ مُصَاحِبًا لِلتَّقْوَى وَ

الإيمان والعمل الصالح، ثم إن الإنسان قد يكون مؤمنا و عاملا للصالحات لكنه ليس متقيا، أى ليس فى نفسه حالة رادعة و ملكة الخوف من الله سبحانه، و لذا ذكر سبحانه التقوى فى عداد الإيمان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥

و العمل الصالح. ثم كرر سبحانه الجملة السابقة أى «اتَّقُوا و آمنوا و عملوا الصالحات» بتعبير ثم اتَّقُوا و آمنوا بلا ذكر العمل الصالح و ثم اتَّقُوا و أَحْسِنُوا بلا- ذكر الإيمان، و لا- يخفى أن الإحسان هو عبارة عن العمل الصالح. و لعل الوجه فى التكرار إفادة الدوام فى الصفات الثلاثة، أى أن عدم الجناح مشروط «بالإيمان و التقوى و العمل الصالح» سابقا، «و بالإيمان و التقوى و العمل الصالح» مستمرا فيما بعد، و قد كرر «التقوى» فى الجملة الثانية لتأكيد أن كلاً من الإيمان و العمل الصالح لا ينفع بدون التقوى، و الذى يقرب إرادة الدوام من الجملة الثانية دخول «ثم» فيها، فاستمرار التقوى مع الإيمان، و استمرار التقوى مع العمل الصالح، شرط فى عدم الجناح.

و هنا سؤال: إن ظاهر الآية «اشتراط عدم الجناح بالطعام، بالإيمان و التقوى و العمل الصالح» و إذا فرضنا أن الطعام كان محللا- كما عرفت فى شأن النزول، إذ كانت الخمر لم تحرم بعد- فما معنى هذا الشرط؟ فقد كان شرب الخمر- قبل تحريمها- مباحا حلالا للمسلم و الكافر، فأى معنى لتقييد التحليل بالإيمان؟

و الجواب: أن الشرط لا مفهوم له، فليس المعنى «الجناح إذا لم يؤمنوا» إذ الشرط كما يساق غالبا لبيان المفهوم، نحو «إن جاءك زيد فأكرمه» المفهوم منه «إن لم يجئك فلا- تكرمه» يساق أحيانا لبيان تحقق الموضوع، نحو: «إن رزقت ولدا فاختنه» فإنه لا مفهوم له ب «إن لم ترزق ولدا فلا تختنه» إذ أن «لم يرزق ولدا» يكون من السالبة بانتفاء الموضوع، و إنما الجملة «إن رزقت» معناها: «يجب الختن للولد» ..

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦

[سورة المائدة (٥): آية ٩٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِوْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)

و هنا كذلك، إذ الآية مسوقة لبيان «أن المؤمنين الذين شربوا و هم متقون عاملون بالصالحات ليس عليهم جناح» فى مقابل توهم الأصحاب أن عليهم الجناح، لا أنه سيق للمفهوم حتى يقال بعدم استقامته مفهومه ... ثم إنه من المحتمل أن يكون فى تناول الكفار للمباح حضر، كما دلّ الدليل أن فى تناول المباح للنصاب حضر، فمن شرب من نهر الفرات من أعداء الصديقه الطاهرة عليها السلام كان شربه محرما، و على هذا فلف مفهوم مجال واسع فى الآية.

و الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى أمورهم، و كأنه حث على الإحسان و إن لم يكن المحسن من أهل الإيمان. و لا يخفى أن من طعم محرما و تذرع لرفع الحد عنه بهذه الآية، فهو مخطئ إذ الآية تشترط فى عدم الجناح الإيمان و التقوى و العمل الصالح، و من المعلوم أن التقوى و العمل الصالح يتنافيان مع عمل المحرم.

[٩٥] و فى سياق التحليل و التحريم، و تميما لما تقدم فى أول السورة من قوله سبحانه: «عَيَّرَ مُحَلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ» و قوله: «إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» يأتى ذكر الصيد فى حال الإحرام و كفارته يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِوْكُمْ اللَّهُ من «بلا» بمعنى اختبر، يعنى ليختبركم الله و يمتحنكم بشيءٍ مِّنَ الصَّيْدِ أى ببعض الصيد المحرم على المتحرم تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ فىكون فى طريقكم إلى الحج بعض أقسام الصيد سهل تناول حتى أن أحدكم لو مدّ يده لتمكن من أخذه، و لو شرع رمحه لتمكن من صيده، و بالأخص فراخ الطير و صغار الوحش و بيض الطير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧

[سورة المائدة (٥): آية ٩٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِالْبَالِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامٌ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)

المحرم، فقد ابتلى المؤمنين في عمرة الحديبية بكثرة الصيد في طريقهم إلى مكة وقد كان ذلك اختباراً من الله لهم، أيهم يطيع فيتجنب و أيهم يعصى فيصيد؟! وإنما كان ذلك الاختبار ليُعلم الله مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ أَى بالسِرِّ والخلوَّة، و بعيداً عن أعين الناس، و قد تقدّم سابقاً أن اختبار الله ليس لأنه لا يعلم، و إنما لأجل أن يظهر معلومه، و يتم الحجة كما أن «ليعلم» يراد به «ظهور معلومه» فإن العلم حيث كان من الأمور ذات الإضافة صح أن يكون السبب له انكشاف المعلوم للعالم، و أن يكون وجود المعلوم في الخارج، و المراد بالغيب ما غاب عن الحواس، و هو إما بالنسبة إلى الله، أو بالنسبة إلى سائر الناس أى فى حال عدم رؤيتكم لله سبحانه، أو عدم رؤية الناس لكم فَمَنْ اغْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ أَى بعد النهى - المستفاد من الكلام - بأن صاد و خالف أوامر الله فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه.

[٩٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ أَى فى حال كونكم محرمين، و المراد بالصيد كل وحش أكل أم لم يؤكل إلا ما استثنى، و «حرم» جمع «محرم»، يقال: أحرم الرجل إذا دخل فى الحرم أو فى الإحرام، فالآية تدل على حرمة الصيد الحرمى، و الصيد الإحرامى، كما أن ذلك، عام للحج و العمرة و مَنْ قَتَلَهُ أَى قتل الصيد مِنْكُمْ أيها المحرمون مُتَعَمِّدًا و هذا القيد لا مفهوم له، لأنه من مفهوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨

اللقب الذى ثبت عند العلماء عدم المفهوم له، فإن للخطأ أيضاً كفارة، كما ثبت فى السنة، و لعل فائدة القيد كونه الغالب الذى يتناوله الإنسان، بالإضافة إلى أنه يترتب على ما يأتى من قوله: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» فَجَزَاءٌ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ «من» بيان لجزاء، أن جزاءه أن يكفر بإحدى النعم الثلاث المشابهة لذلك الصيد المقتول.

فمثلاً: الطيبى شبيه بالشاة، و حمار الوحش و بقرته شيهان بالبقرة، و النعامة شبيهة بالجزور يَحْكُمُ بِهِ أَى بالمثل ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَى رجلان عادلان، فيحكما أن الحيوان الفلانى الذى اصطيد هو مثل الحيوان الفلانى من الأنعام الثلاثة - الشاة و البقرة و الإبل - فكلما حكما بأنه مثل الصيد أخذ كفارة له.

و قد ورد فى الأحاديث: أن المراد بذوى العدل هم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الإمام عليه السلام «١» فما وجد من النصوص فى مورد المماثلة و جب الحكم به، و ما لم يرد فالظاهر عدم المانع فى التمسك بظاهر الآية من كفاية إخبار عادلين عارفين بالمماثلة، إن لم يوجد نص بالخلاف بالقيمة أو ما أشبه.

هَدِيًّا أَى فى حال كون الكفارة تهدي هدياً بِالْبَالِغِ الْكَعْبَةِ أَى يذهب بها إلى صوب الكعبة فإن أصاب الصيد و هو محرم بالعمرة ذبح جزاءه بمكة و إن كان محرماً بالحج ذبحه بمنى أو يكون جزاء الصيد كَفَّارَةٌ طَعَامٌ مَسَاكِينَ فإذا لم يجد الأنعام أخذ بقيمتها الطعام

(١) الكافى: ج ٤ ص ٣٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩

[سورة المائدة (٥): آية ٩٦]

أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

و تصدق به على المساكين أو يكون جزاء الصيد عَدْلٌ ذَلِكَ أَى معادل الإطعام صِيَامًا فَلِكُلِّ مَدِينٍ صَوْمٌ يَوْمٌ، و تفصيل هذه الأمور تطلب من الفقه فى كتاب الحج.

و إنما شرعت الكفارة لِيَذُوقَ الصَّائِدِ وَبَالَ أَى عقوبة أمره أى عمله و هو الاصطياد المنهى عنه عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ مِنَ الصَّيْدِ فَمَنْ صَادَ

متعمداً وكفر عفا سبحانه عن ذنبه وَمَنْ عَادَ إِلَى الصَّيْدِ مَتَعَمِداً مَرَّةً ثَانِيَةً فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ مِنْ عَظْمِ ذَنْبِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَغْسِلُ بِالْكَفَّارَةِ بَلْ يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ انْتِقَاماً لِهَيْتِكَ حَرَمَةُ الْإِحْرَامِ أَوْ حَرَمَةُ الْحَرَمِ.

هذا ما فسّرت به الآية الكريمة في الأحاديث، وإن كان لا يبعد انصراف الآية الكريمة إلى «ما سلف» قبل التحريم والعفو باعتبار أنه غير جائز حتى عند الجاهليين، وما أعيد بعد التحريم، فيكون العفو عما سلف من قبيل «الإسلام يجب عما قبله» والمراد بالانتقام الكفارة والعقاب والله عزيرٌ قادرٌ غالبٌ ذو انتقام ينتقم من كل من عصاه وخالفه.

[٩٧] أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَالْمَرَادُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَعْمِ مِنَ النَّهْرِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِي النَّهْرَ بَحْرًا، فَإِنْ صَيْدَهُ مَبَاحٌ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَ لَوْ فِي الْحَرَمِ - لَوْ صَارَ فِيهِ بَحْرٌ، أَوْ أَتَى بِصَيْدِهِ إِلَيْهِ - هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى صَيْدِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠

[سورة المائدة (٥): آية ٩٧]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)

وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩٧ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَ أَمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَكْلِهِ فَطَعَامُهُ أَى طَعَامُ الْبَحْرِ، قَدْ مَتَعْتُمْ بِهِ مَتَاعًا وَ الْمَتَاعُ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْإِنْسَانُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمَحْرَمُونَ وَ لِسَّيَّارَةِ أَى الْقَوَافِلِ السَّيَّارَةِ الَّتِي تَسِيرُ كَثِيرًا، فَإِنَّ السَّمَكَ يَجْفَى لِلسَّفَرِ، وَ إِنَّمَا خَصَّصَ بِالسَّفَرِ مَعَ أَنَّهُ طَعَامٌ لِلْحَضَرِّ أَيْضًا، لِكثْرَةِ انْتِفَاعِ الْمَسَافِرِ، إِذْ لَا يُمْكِنُ غَالِبًا ذَبْحُ الْأَنْعَامِ فِي السَّفَرِ، فَيَنْتَفِعُ الْمَسَافِرُ بِالسَّمَكِ الْمَجْفَفِ انْتِفَاعًا كَثِيرًا وَ حُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ الْأَعْمِ مِنَ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا جَمْعٌ «مَحْرَمٌ»، أَى مَا دُمْتُمْ فِي الْإِحْرَامِ وَ مَا دُمْتُمْ فِي الْحَرَمِ - كَمَا تَقْدَمُ - يُقَالُ: رَجُلٌ حَرَامٌ، إِذَا كَانَ مُحْرَمًا أَوْ كَانَ فِي الْحَرَمِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ أَى خَافُوا عِقَابَهُ، فَلَا تَرْتَكِبُوا نَوَاهِيَهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الْحَشْرُ هُوَ الْجَمْعُ، أَى يَكُونُ مُصِيرَكُمْ وَ حَشْرَكُمْ إِلَيْهِ، فَيَجَازِيكُمْ بِمَا اقْتَرَفْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ.

[٩٨] وَ فِي سِيَاقِ حُكْمِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، يَأْتِي الْكَلَامُ حَوْلَ مَا جَعَلَهُ سَبْحَانَهُ حَرَامًا مِنَ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ، لِيَهْدِيَ النَّاسَ فِي فِترَاتِ مَعِينَةٍ وَ أَمَا كُنْ مَعِينَةً عَنِ الْخِصَامِ وَ الْانْتِقَامِ، الَّذِي يَكْدُرُ الْحَيَاةَ الْبَشَرِيَّةَ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ سَمِيَّتِ الْكَعْبَةُ «كَعْبَةٌ» لِتَرْبِيعِهَا وَ إِنَّمَا قِيلَ لِلْمَرْبِيعِ: كَعْبَةٌ لِتَتَوَّأَ زَوَايَاهُ الْأَرْبَعِ، مِقَابِلِ الْمَدْوَرِّ، وَ الْكَعْبُ هُوَ التَّوَّأُ وَ الْارْتِفَاعُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَطْفٌ بَيَانٌ عَلَى الْكَعْبَةِ، وَ إِنَّمَا جِيءَ بِهَذَا الْعَطْفِ، لِأَنَّهُ كَانَتْ لَدَى الْجَاهِلِيِّينَ، كَعْبَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَ كَانُوا يَحْجُونَ إِلَيْهَا وَ يَطُوفُونَ بِهَا، فَهَدَمَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ سَمَّى الْبَيْتَ الْحَرَامَ، لِحَرَمَتِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١

وَلِأَنَّهُ يَحْرَمُ فِيهِ الْقِتَالُ وَ الصَّيْدُ وَ غَيْرَهَا قِيَامًا لِلنَّاسِ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِ «جَعَلَ» أَى جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ لِقِيَامِ النَّاسِ، بِأَن تَقُومُ أُمُورُهُمْ، وَ تَسْتَقِيمُ أحوَالُهُمْ، اِقْتِصَادِيًّا وَ اجْتِمَاعِيًّا، وَ غَيْرَهُمَا، كَمَا ذَكَرَ فِي فِلسَفَةِ الْحَجِّ «١».

وَ جَعَلَ اللَّهُ الشَّهْرَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ، فَأَشْهَرُ الْحَرَمِ:

وَ هِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ مُحْرَمٌ وَ رَجَبٌ، تَقُومُ أُمُورُ النَّاسِ وَ اجْتِمَاعُهُمْ، إِذْ تَخَفُّفٌ عَنِ كَوَالِهِمْ عِبَاءِ الْحُرُوبِ، وَ الْمَخَاصِمَاتِ وَ تَسَبُّبِ الْأَمْنِ وَ الْهَدْوِءِ، مِمَّا يَرْوِجُ الْاِقْتِصَادَ، وَ يَهَيِّئُ الْجَوَّ الْمَلَائِمَ لِلتَّفَاهَمِ وَ غَيْرِهَا، فَالْبَيْتُ الْحَرَامُ أَمْنٌ فِي الْمَكَانِ، وَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ أَمْنٌ فِي الزَّمَانِ، وَ قَدْ جَعَلَ سَبْحَانَهُ الْأَمْنَ مُتَعَدِّدًا إِلَى خَارِجِ هَذِهِ الْحُدُودِ فَجَعَلَ وَ الْهُدْيَ أَى مُحْرَمًا لَا يَمَسُّ بِسُوءٍ، وَ هُوَ مَا يَهْدِي إِلَى الْكَعْبَةِ بِأَشْعَارٍ أَوْ تَقْلِيدٍ وَ الْقَلَائِدُ جَمْعُ قَلَادَةٍ أَى مَا تَقْلُدُهَا - بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ - أَى جَعَلَ الْقَلَائِدَ مُحْرَمَةً لَا تَمَسُّ بِسُوءٍ. وَ الْمَرَادُ بِالْقَلَائِدِ إِذَا الْحَيَوَانَ الَّذِي يَقْلُدُ، أَوِ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَحْرَمُ فَيَقْلُدُ نَفْسَهُ. قَالُوا: كَانَ الرَّجُلُ يَقْلُدُ بَعِيرَهُ أَوْ نَفْسَهُ قَلَادَةً مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ فَلَا يَخَافُ.

و لا يقال: أن غير الهدى و القلائد أيضا محترم لأنه لا يجوز لأحد أن يتصرف فى مال غيره أو بدن غيره فما معنى الاختصاص هنا؟ لأن الجواب ظاهر: فإن الهدى لا يجوز أن يمس، و إن جاز مسه لو لا كونه هديا بسبب الاقتصاص و الإفلاس و نحوهما، كما أنه لا يجوز أن يتعدى على المحرم بما يجوز التعدى عليه فى غير حال الإحرام، فلا يجوز أخذ المحرم و حبسه و لو كان بحق - إذ الواجب إتمام العمرة

(١) راجع كتاب «عبادات الإسلام» للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) و الحج لله - فكما لا يجوز لنفسه الإبطال لا يجوز لغيره الإبطال.

ذَلِكَ أى إنما جعل سبحانه هذه المحرمات لِتَعْلَمُوا أيها الناس أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فإنه عالم بأحوال الإنسان و ما يكتنفه من العدا و الشر و أنه يحتاج إلى هدوء و سكينه فى المكان و فى الزمان، و أن الناس يحتاجون إلى ما يقيم معاشهم و معادهم، و لذا جعل هذه المحرمات للاستراحة و الاستجمام، و لعل ذكر السماوات استطراد، فإن ما ذكر مرتبط بالأرض، لكن لو ذكرت وحدها لأوهم عدم علمه سبحانه بما فى السماوات و أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ من أحوال الإنسان و الحيوان و الأزمان و الأماكن و غيرها.

[٩٩] و لما تقدم بعض الأحكام عقبه سبحانه بذكر الوعد و الوعيد اعلموا أيها الناس أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لمن عصاه و خالفه و أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن تاب و آمن و عمل صالحا، فإنه يغفر ذنوبكم و يرحمكم بفضله و سعته.

[١٠٠] مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ أى أداء الرسالة و بيان الشريعة، أما القبول من الناس فليس من شأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و لا يرتبط به و اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ أى تظهرون من الأقوال و الأعمال و مَا تَكْتُمُونَ من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)

النيات و الأعمال، فإنه لا يخفى عليه شىء و يجازيكم بكل ذلك، فأحسنوا و لا تخالفوا.

[١٠١] و لما بين سبحانه الحلال و الحرام ذكر أنهما لا يستويان، فلا يتناول أحد خبيثا مدعيا أنه لا فرق بين هذا و غيره، كما نرى اليوم كثيرا من الناس يتناولون المحرمات مدعين عدم الفرق بينها و بين المحللات قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ الْمَحْرَمُ وَالطَّيِّبُ الْمُحَلَّلُ، فإنهما ليسا متساويين و لَوْ أَعْجَبَكَ أيها السامع كَثْرَةُ الْخَبِيثِ و زيادته على الطيب، كما نرى من أن أنواعا من الحيوان المحرم أكثر من المحلل، فإن كثرة الخبيث لا تسبب طيبه و لعل قوله «و لو» لدفع استبعاد بعض الناس: أنه كيف يمكن أن يكون هذا الشىء الكثير حراما؟: فَاتَّقُوا اللَّهَ أى خافوا عصيانه و لا تخالفوه يا أُولِي الْأَلْبَابِ أى أصحاب العقول لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى كى تفوزوا بالثواب العاجل و الآجل.

[١٠٢] قلنا سابقا قد جرت عادة القرآن الحكيم، بعدم إطالة أمر واحد، فيمل السامع فهو إذا أراد الإطالة، ذكر فى الأثناء ما يلطف الجوى و يرفع الملل من السامع، ببيان حكم جديد متبه، و هكذا أتت آية السؤال هنا فى وسط الحرام و الحلال، بالإضافة إلى ارتباط الآية بالحج، حيث أنها وردت فى باب السؤال عن الحج.

فقد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام أن الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ خطب فقال: إن الله كتب عليكم الحج. فقام سراقه بن مالك فقال: في كل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤

عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثا فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ: ويحك و ما يؤمنك أن أقول: نعم، و لو قلت: نعم، لوجبت، و لو وجبت ما استطعتم، و لو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم و إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه «١». فنزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْئَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ مُتَّصِفَةٌ بِأَنَّهَا إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ أَى تَظْهَرُ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ أَى تَسْبَبُ سَوْءًا أَوْ حَزَنًا وَ صَعُوبَةً عَلَيْكُمْ وَ إِن تَسْئَلُوا عَنْهَا أَى عَن تِلْكَ الْأَشْيَاءِ حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ أَى فِي فِتْرَةِ الْوَحْيِ وَ وَجُودِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ تُبَدَّلَ لَكُمْ لِأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِي إِلَيْهِ بِالْجَوَابِ فَيَكُونُ مُوجِبًا لِلصَّعُوبَةِ عَلَيْكُمْ بِتَشْرِيعِ أَحْكَامٍ جَدِيدَةٍ أَنْتُمْ فِي غَنَى عَنْهَا.

و هنا سؤال: كيف يمكن عدم السؤال إن كان من الأمور المرتبطة بالدين؟ و هل أن أحكام الله اعتباطية حتى يشرعها السؤال؟ أليس كل حكم تابع للمصلحة و المفسدة، و يبين الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ ذلك لإيصال الناس إلى مصالحهم و مفسدهم؟ و ما خصوصية «حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ» فإن الأئمة عليهم السلام أيضا بتلك المثابة حيث أنهم يعلمون جميع الأحكام؟ و الجواب: أن الأحكام الشرعية تابعة للمصالح و المفسدات التي منها مصلحة التسهيل على المكلفين، فكثيرا ما لا يشرع حكم - كعدم وجوب السواك - لمصلحة التسهيل، و من المعلوم أن هذه المصلحة قد

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥

عَفَا اللهُ عَنْهَا تَرْتَفِعُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ لِحَاجٍ وَ عِنَادٌ وَ ظُلْمٌ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ «١»، و بهذا ظهر الجواب عن السؤال الثاني.

و أما السؤال الأول: فإن الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ إذا كان في مقام بيان جميع الأحكام، و ليست القضية شخصية، كابتلاء يارث لا يعلم تقسيمه، أو زوجة لا يعرف حقها، أو ولد عاص لا يدرى كيف يعاشره أو أشباه ذلك، لم يكن وجه للسؤال، لأنه تعنت و إرهاب.

و أما السؤال الثالث: فلأن المصالح التشريعية قد كملت في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ حتى أنه لا تشريع جديد بعده، و لذا فلم يكن الأئمة عليهم السلام بمثابة الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ في إمكان تشريع الحكم، و إن كان من الممكن التشريع لو حدث في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ شيء، و هذه المصلحة و هي انسداد باب التشريع حتى لا يكون لأحد ذلك - بعد الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلمَ - و إن كان موقوفًا لمصالح واقعية - مثلا - لكنها أقوى في الاعتبار من مراعاة مصالح لأحكام جديدة.

و لعل الجواب على الإشكال الثاني يستفاد من حديث

ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام قال «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، و حد لكم حدودا فلا تعتدوها، و نهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، و سكت لكم عن أشياء و لم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها» «٢».

عَفَا اللهُ عَنْهَا أَى عَن تِلْكَ الْأَشْيَاءِ فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيَّةً وَلَا حَامٍ وَلَا كِنٍّ الَّذِينَ كَفَرُوا
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)

رَجَحَ مصلحة التسهيل عليكم على مصلحة تلك الأحكام، فإن تسألوا عنها و تعاندوا ترفع تلك المصلحة التسهيلية فتبتلون بها والله
عَفُورٌ يغفر ما سلف حليمٌ يمهلكم فلا يعجل في عقابكم.

[١٠٣] قَدْ سَأَلَهَا أى سأل عن تلك الأشياء التى إن تبد تسمى السائل قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ من الأمم السابقة، كما سأل اليهود عيسى عليه
السلام المائدة، ثم كفروا، و سأل بنو إسرائيل القتال، فلما أجيوا ولّوا إلا قليلا منهم، و سأل قوم صالح الناقة ثم عقروها، أو «من
المشركين» حيث سألوا من النبى أشياء ثم لما بدت لهم كفروا و لم يؤمنوا ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ فازدادوا عذابا على عذابهم، و هذه
الآية كالتعليل للنهى فى الآية السابقة.

[١٠٤] ثُمَّ يرجع السياق إلى ذكر بعض الأمور المحللة التى حرّمها أهل الجاهلية ما جَعَلَ اللَّهُ أى لم يحرم الله - كما يزعم أهل
الجاهلية - مِنْ بَحِيرَةٍ هى الناقة إذا شقت أذنها، من «البحر» بمعنى الشق و لا سَائِبَةٍ من «ساب الماء» إذا جرى، أى الناقة السائبة التى
تجرى على الأرض بدون أن يمسه أحد - كما سيأتى - و لا وَصِيَّةً من «الصلة» ضد القطيعة و هى قسم من الناقة و الشاة كانوا
يحرّمونها و لا حَامٍ من «حمى يحمى» إذا حفظ، و هو قسم من الإبل كانوا يحرمونه لأنه حمى نفسه، فقد كان أهل الجاهلية إذا ولدت
الناقة خمسة أبطن خامسها أنثى بحروا أذنها أى شقوها و حرّموها على النساء فإذا ماتت حلت، و إذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٤]

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ
(١٠٤)

ولدت عشرا جعلوها سائبة لا يستحلون ظهرها و لا أكلها، و ربما تسيب بنذر، فكان ينذر أحدهم إن برئ مريضه أو جاء مسافره فناقته
سائبة، و إذا ولدت ولدين فى بطن واحد، أو الشاة ولدت فى السابع ذكر أو أنثى فى بطن واحد قالوا: وصلت فلم تذبج و لم تؤكل و
حرّموا ولدى الشاة على النساء حتى يموت أحدهما فيحل. و الحام الفحل إذا ركب ولد ولده أو نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا: قد
حمى ظهره فلا يركب و لا يمنع من كلاً و ماء، فأنزل الله عزّ و جلّ أنه لم يحرم من هذه الأمور شىء.

وَ لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ فينسبون تحريم هذه الأشياء إلى الله سبحانه كذبا و بهتاناً و أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ أى ليس
لهم عقل يميزون به بين الحرام و الحلال و الحق و الباطل.

[١٠٥] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أى لهؤلاء الذين يحرمون أشياء افتراءً تعالوا أى هلموا إلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ من الأحكام فى القرآن و إلى الرَّسُولِ كى
تصدقوه و تتبعوا سنته قالوا فى الجواب حَسْبُنَا أى يكفيننا لمصالحنا ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا من العقائد و الأقوال و الأعمال و العادات.
و هنا يسأل سبحانه سؤال إنكار و تعجب بقوله: أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا من الحق و الباطل و لا يَهْتَدُونَ إلى الحق، أى:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٥ الى ١٠٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُجْزِيكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ

فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ إِرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦)

فهل يتبعونهم ولو كانوا جهالا ضالين؟

[١٠٦] و لما بين سبحانه أحوال الكفار و أنهم ضالون أمر المسلمين باتباع الحق، و أنهم لا يضرهم ضلال من ضل، بينما هم مهتدين يا أيها الذين آمنوا عَلَيْكُمْ «عليك» اسم فعل بمعنى: الزم و احفظ، أي احفظوا أَنْفُسَكُمْ عن الضلال و الانحراف لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ أَي إِذَا كُنْتُمْ مَهْتَدِينَ. و من المعلوم أن من شروط الاهتداء الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الإرشاد و سائر الواجبات التي هي من هذا القبيل.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ أَيهَا النَّاسُ جَمِيعًا فَإِنَّ مَصِيرَ الضَّالِّ وَ الْمَهْتَدِي إِلَىٰ سَبْحَانِهِ فَيَبَيِّنُكُمْ أَي يَخْبِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ وَ الْقَبِيحَةِ، وَ لَيْسَ كَالدُّنْيَا يَخْتَلَطُ فِيهَا الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ فَتَوْخَذُونَ أَنْتُمْ بِذُنُوبِ الضَّالِّينَ اسْتِبَاهًا وَ تَعْمَدًا، أَوْ يَشْتَبِهُ أَمْرَ الضَّالِّينَ، فَلَا يَجَازُونَ بِالْعُقَابِ.

[١٠٧] ثم تعرض سبحانه لبيان تشريع جديد ورد في قصة خاصة، يرجع إلى سن بعض الأحكام، بعد ما فرغ من بعض أقسام الحلال و الحرام.

فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أن ثلاثة نفر خرجوا من المدينة تجارا إلى الشام: تميم بن أوس الداري و أخوه عدى، و هما نصرانيان، و ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص السهمي و كان مسلما، حتى إذا كانوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩

ببعض الطريق مرض ابن أبي مارية فكتب وصيته بيده و دسها في متاعه و أوصى إليهما و دفع المال إليهما و قال: أبلغا هذا إلى أهلي. فلما مات فتحا المتاع و أخذوا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال إلى الورثة، فلما فتش القوم المال فقدوا بعض ما كان قد خرج به صاحبهم فنظروا إلى الوصية فوجدوا المال فيها تاما فكلموا تميما و صاحبه فقالا: لا علم لنا به و ما دفعه إلينا، أبلغناه كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم «١».

فزلت الآية

، و ستأتى تتمه القصة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ «شهادة» مرفوع بالابتداء خبره «اثنان» أي الشهادة المعبرة شرعا فيما بينكم شهادة نفرين إذا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ بَانَ ظَهَرَ عَلَيْهِ آثَارُ الْمَوْتِ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَي فِي وَقْتِ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَي رَجُلَانِ عَادِلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ آخِرَانِ أَي شَخْصَانِ آخِرَانِ لِتَحْمِلِ الشَّهَادَةَ مِنْ غَيْرِكُمْ أَي مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَ «أَوْ» هُنَا لِلتَّرْتِيبِ لِأَنَّ التَّخْيِيرَ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَي سَافَرْتُمْ وَ لَمْ تَجِدُوا مُسْلِمِينَ لِلإِشْهَادِ عَلَى الْوَصِيَّةِ فَأَشْهَدُوا نَفَرَيْنِ آخَرَيْنِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ بَانَ ظَهَرَ عِلَالِمُهُ، وَ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ لِتَقْيِيدِ قَوْلِهِ «آخِرَانِ» فَإِنَّ إِشْهَادَهُمَا مَشْرُوطٌ بِالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ، وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَوْرَدِ، وَ إِلا فَالْمَعْيَارُ عَدَمُ وَجُودِ مُسْلِمِينَ، وَ إِنْ كَانَ فِي الْحَضَرِ، فَإِذَا تَحَمَّلَا الشَّهَادَةَ، وَ أَرَادَا الْإِدْلَاءَ بِهَا

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠

فهو بهذه الكيفية تَحْسِبُونَهُمَا أَي تَقْفُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ أَي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَ ذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ وَ تَكَاثُرِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَ لَعَلَّهُ لِيَكُونَ أَرْدَعًا لِلْكَذِبِ إِذَا اجْتَمَعَ يَسَبُّبُ الْهَيْبَةِ فِي قَلْبِ الْمَدْلِيِّ لِلشَّهَادَةِ فَيُقْسِمَانِ أَي الشَّاهِدَانِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ بِاللَّهِ وَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُعْتَرِفًا بِاللَّهِ كَأَهْلِ الْكِتَابِ إِنْ إِرْتَبْتُمْ أَي شَكَكْتُمْ فِي شَهَادَتِهِمَا وَ احْتَمَلْتُمْ التَّبْدِيلَ وَ التَّغْيِيرَ وَ التَّرْيِيفَ فِي الْأَمْرِ،

و هذا شرط للقسم، أى أنهما يقسمان فى حال شككم، و إلا فيدليان بالشهادة بدون القسم لا نَشْتَرِي بِهِ أى بما ندلى من الشهادة تَمَنَّا و هذا هو المقسم به، فلا نغَيِّر الشهادة و لا نبدل و لا نزيّف الواقع، ابتغاء تحصيل ثمن، أى مال و لَوْ كَانَ المشهود له ذا قُرْبَى أى من أقربائنا، و خصص بالذكر لأن الناس دائما يميلون إلى أقربائهم فيشهدون بالباطل لنفعهم، و هذا كالتأكيد، و إلا فليس هنا مشهودا له. و المعنى: أن لا ندلى شهادة باطله حتى لأقربائنا و لا نُكْتُمُ أى لا نخفى شَهَادَةَ اللَّهِ أى الشهادة التى أمرنا الله بأدائها. و الإضافة تعظيمية إِنَّا إِذَا لَوْ كَتَمْنَا شهادة الله لَمِنَ الْأَثَمِينَ أى العاصين.

و حاصل الحكم أن الإنسان إذا أراد أن يوصى فعليه أن يشهد على وصيته شاهدين مسلمين عادلين، فإن كان فى سفر و ظهرت عليه أمارات الموت، و لم يكن هناك مسلمون لتحمل الشهادة، يشهد على وصيته شاهدين كتابيين، و تقبل شهادتهما بدون اليمين إن لم يشك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٧]

فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧)

الوارث بهما، أما إذا شك بهما و احتمل أنهما يكذبان فى الشهادة، فالحاكم الشرعى يحضرهما بعد صلاة العصر، و يحلفهما أولا بهذا الحلف: «و الله إنا لا نبتغى بالشهادة مالا و لا نبدل الشهادة حتى لأقربائنا و لا نكتم الشهادة التى ألزمها الله إيماننا و لو فعلنا ذلك لكننا آثمين» و بعد أداء هذا القسم أو شبهه فى المعنى، يدلان بشهادتهما حول الوصية، و تقبل شهادتهما حينئذ.

[١٠٨] لما نزلت الآية الأولى صلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم صلاة العصر و دعا بتميم و عدى فاستحلفهما عند المنبر بالله ما قبضنا غير هذا و لا كتنا فحلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سيبلهما، ثم اطلعوا على إناء من فضة منقوش بذهب و قلادة من جوهر معهما من مال الميت فقال أولياء الميت: هذا من متاع الميت. فقال النصرانيان: اشتريناه منه و نسينا أن نخبركم، فرفعوا أمرهما إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فنزل قوله «فإن عثر» فقام رجلان من أولياء الميت عمرو بن العاص و المطلب بن أبى وداعة فحلفا بالله أن النصرانيين خانا و كذبا، فدفع الإناء إلى أولياء الميت، و بعد مدة أسلم تميم الدارمى فكان يقول: صدق الله و صدق رسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله و أستغفره.

فَإِنْ عَثَرَ يُقَالُ: «عثر الرجل على الشيء» إذا اطلع عليه، ف «عثر» مبنى للمجهول بمعنى: «ظهر» عَلَى أَنَّهُمَا أى الوصيين غير المسلمين اسْتَحَقَّا أى استوجبا إِثْمًا أى ذنبا، بَأَن ادَّعَى الأولياء أنهما كذبا فى اليمين و الشهادة بل خانا الوصية فشهدان آخران مسلمان يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا أى مقام غير المسلمين مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٨]

ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعِيدٌ أَيْمَانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمِعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

عَلَيْهِمْ أى من أولياء الميت الذين استحقت عليهما الوصية، و كان المال لهم الْأَوْلِيَانِ تثنية «أولى»، بدل من قوله «آخران» أى يقوم شاهدان كل واحد منهما أولى بالميت، أى من أقربائه و ذى ولايته، و هذان ينقضان شهادة الوصيين الكاذبين غير المسلمين فَيُقْسِمَانِ أى وليا الميت بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا نحن أولياء الميت- فى تكذيب الوصيين- أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا أى من شهادة الوصيين الكاذبين، و كلمة «أحق» جَرَدَتْ من معنى التفضيل- كما سبق- وَ مَا اعْتَدَيْنَا أى ما تجاوزنا الحق بل نطلب مال الميت إِنَّا إِذَا لَوْ اعْتَدَيْنَا كُنَّا لَمِنَ الظَّالِمِينَ لنفوسنا حيث قسمنا كذبا، و إذا حلف وليا الميت كذلك نقض حلف الوصيين، و أخذ المال منهما و أعطى إلى ولي الميت.

[١٠٩] ذَلِكَ الَّذِي تَقْدَمُ مِنْ كَيْفِيَّةِ إِحْلَافِ الْوَصِيِّينَ بَعْدَ الصَّلَاةِ أَذْنَى أَيْ أَقْرَبُ أَنْ يَأْتُوا أَيْ يَأْتِيَ الْوَصِيَّانَ بِالشَّهَادَةِ عَلَيَّ وَجْهَهَا فَإِنَّ الْيَمِينَ رَادِعَةٌ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَنِ الْكُذْبِ أَوْ يَخَافُونَ إِذَا عَلِمُوا بِأَنَّهُمْ إِنْ حَلَفُوا كَاذِبِينَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَيْتِ فَيَحْلِفَانِ عَلَيَّ كَذِبَهُمَا وَيَكُونُ الْحَقُّ لِهَمَا دُونَ الْوَصِيِّينَ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ فَضِيحَةِ الْكُذْبِ وَالسَّرْقَةِ، وَفَضِيحَةِ الْحَلْفِ الْكَاذِبِ وَاتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَحْلِفُوا بِهِ كَذِبًا وَاسْمَعُوا هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا- عَلِمْنَا لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْمَاكِمَةَ وَالْمَأْبَرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)

يفسقون بالخروج عن طاعته، وارتكاب معصيته، فإنه لا يُلطف بهم اللطف الخاص بالمطيعين.

[١١٠] قد سبق جانب من قصص اليهود والنصارى، و يأتي هنا جانب آخر من قصة النصارى في ثوب بديع يوم يجمع الله الرسل أي اتقوا يوم الحشر الذي يجمع الله فيه الأنبياء المرسلين جميعاً فيقول لهم:

ما ذا أُجِبْتُمْ أي بماذا أجابكم الأمم هل بالإيمان والتصديق أم بالكفر والتكذيب؟ قالوا أي قال الرسل في جوابه: سبحانه لا علم كامل لنا فإننا لم نر منهم إلا الظواهر، أما البواطن والخفايا فأنت العالم بها وحدك إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ أي الأشياء الغائبة عن الحواس، و قصد الآية هنا الإجمال، أو ذلك في موقف من مواقف القيامة، إذ لها مواقف كل موقف منها يخالف الموقف الآخر في الخصوصيات والمزايا- هذا جواب الأنبياء بصورة عامة- أما جواب عيسى عليه السلام ففيه تفصيل و سيأتي بعد آيات من قصة عيسى عليه السلام.

[١١١] إِذْ قَالَ اللَّهُ أَيْ «يقول» فَإِنَّ الْمَضَارِعَ الْمُتَحَقِّقَ الْوَقُوعَ يَنْزِلُ مِنْزَلُهُ الْمَاضِي، وَ مَحَلُّ «إِذْ» النَّصْبُ عَلَيَّ «اتقوا» أَيْ: اتقوا زمان يقول الله:

«يا عيسى»، أو على تقدير «اذكر» يا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ وَ ذَكَرَ «ابن مريم» استنكار لقول النصارى إنه «ابن الله». اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ وَ الْمَرَادُ بِالنِّعْمَةِ جَنْسُهَا، لَا نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَ مَعْنَى ذَكَرَ النِّعْمَةَ شَكَرَهَا، وَ الْإِيتَانُ بِمَا يَسْتَحِقُّ الْمَنْعَمُ بِهَا. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النِّعْمَةَ عَلَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤

الوالدة بالعفاف والطهارة وغيرهما، من أعظم النعم على الولد، فهي مما تستحق الشكر. ثم فسر سبحانه بعض نعمه بقوله: إِذْ أَيَّدتُّكَ أَيْ قُوَّتِكَ وَ نَصْرَتِكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَيْ الرُّوحِ الْمُنَزَّلِ مِنَ الْأَدْرَانِ، وَ هُوَ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ مَلِكٌ آخَرٌ، أَوْ رُوحٌ مَنْفُوخَةٌ فِيهِ تَحْفَظُهُ عَنِ الزَّلْزَلِ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَ الْأُئِمَّةَ مَزُودُونَ بِرُوحٍ طَاهِرَةٍ تَحْفَظُهُمْ وَ تَرْشُدُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ أَيْ فِي حَالِ كَوْنِكَ صَبِيًّا فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا* وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمِيتُ حَيًّا ... «١» وَ كَهْلًا أَيْ فِي حَالِ كَوْنِكَ كَهْلًا، وَ هُوَ قَبْلَ سِنِّ الشَّيْخُوخَةِ، وَ هَذَا مِنْ تَمَمِّهِ الْكَلَامِ، يَعْنِي أَنَّكَ تَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْحَالِينَ، لَا كَسَائِرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا فِي حَالِهِ وَاحِدَةً.

وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ أَيْ جَنْسَ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِنَّهُ كَانَتْ كَتَبَ نَازِلَةً عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ وَ قَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعَلَّمَهَا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ الْحِكْمَةَ وَ هِيَ مَعْرِفَةُ الْأَشْيَاءِ عَلَيَّ وَاقِعًا، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْكُتُبِ غَيْرُ مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ، وَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ بِحَيْثُ يَعْلَمُ الْأُمُورَ وَ مَوَاضِعَهَا وَ التَّوْرَةَ وَ هِيَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ عَلَيَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْإِنْجِيلَ وَ هُوَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ عَلَيَّ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ إِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ أَيْ عَلَيَّ قَالِبِ الطَّيْرِ وَ هَيْكَلِهِ. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا النَّحْوَ مِنْ

(١) مريم: ٣١ و ٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥

[سورة المائدة (٥): آية ١١١]

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١)

التجسيم لم يكن حراماً لأنه كان بأمر الله، وليس التحريم عقلياً حتى لا يمكن التخصيص فيه بإذني و لعل «ياذني» إشارة إلى ذلك، أو أن الخلق إنما كانت بقدرته، إذ لو لم يأذن الله لم يتمكن أحد من خلق شيء و صنعه فتنفخ فيها أي في تلك الهيئة التي خلقتها. و لا يخفى أن الروح جسم لطيف فيمكن أن ينفخ المسيح عليه السلام بإذن الله ذلك الجسم في الهيكل المصنوع فتكون طيراً بإذني أي طيراً حقيقياً كسائر الطيور، بأمرى و إرادتي و تبرئ الأكمة أي تشفى الذي ولد أعمى و الأبرص الذي به البرص بإذني أي بأمرى و إرادتي و إذ تخرج الموتي من القبور فتجعلهم أحياء بإذني و إرادتي، فإنك تدعوني لهذه الحوائج و أنا أستجيب دعاءك و إذ كففت أي منعت بنى إسرائيل اليهود عنك فلم يقدروا على قتلك إذ جثتهم أي حين أتيت إليهم بالبينات أي بالأدلة القاطعة على صحة نبوتك و صدق كلامك فقال الذين كفروا بك و جحدوك و لم يؤمنوا بما جئت به منهم أي من بنى إسرائيل إن هذا أي ما هذا الذي نرى من خوارقك إلا سحرٌ مبينٌ أي سحر واضح.

[١١٢] و اذكر نعمتى عليك يا عيسى ابن مريم إذ أوحيت إلى الحواريين «الوحي» هنا بمعنى الإلقاء إليهم، و لو كان ذلك بواسطة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦

[سورة المائدة (٥): آية ١١٢]

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)

نفس عيسى أو يحيى عليهما السلام أو المراد الإلهام إلى قلوبهم، بواسطة العقل الذي هو حجة باطنه. و المراد بالحواريين أصحابه الخاصون به، و سبق وجه تسميتهم بالحواريين أن آمنوا بي و برسولي المسيح عليه السلام، فإن الإيمان بالله نعمه على المسيح، كما أن تصديقه عليه السلام نعمه عليه، إذ الأمران موجبان لقربه عليه السلام إلى الله سبحانه حيث تمكن من هدايتهم، بالإضافة إلى لزوم ذلك الاحترام الظاهري قالوا أي الحواريون:

آمَنَّا أي بالله و رسوله و أشهد يا ربنا، أو المراد الاستشهاد بعيسى عليه السلام بأننا مسلمون لله فيما يأمر و ينهى.

[١١٣] و اذكر نعمتى عليك يا عيسى ابن مريم حينما جرى الحوار بينك و بين الحواريين حول إنزال الله المائدة فطلبت من الله فاستجاب لك و أنزل المائدة إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم و لعلمهم ذكروا اللفظ بتأدب. و إنما نقل سبحانه المعنى، أو كان مثل هذا الخطاب بأمر عيسى عليه السلام نفسه، أو كان لديهم متعارفاً هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء إما المراد: الاستطاعة بحسب القدرة، و كان ذلك حين عدم كمال إيمانهم، و إما المراد: الاستطاعة بحسب الإرادة، أي: هل يريد؟ و كان سؤال استعطاف، و «المائدة» مشتقة من «ماد يميد» إذا تحرك، فهي فاعله، سمي بها الخوان، لأنه يميد و يتحرك من مكان لآخر وقت البسط و الجمع، و قد أرادوا إتيان عيسى بهذه المعجزة ليروها و يلمسوها و يأكلوا منها، فلا يبقى محل ريب عندهم في صدق الدعوة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٣ الى ١١٤]

قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صِدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوْلَانَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)

و لعل ذلك كان قبل سائر الآيات من إبراء الأكمة و الأبرص، و لذا قال لهم عيسى عليه السلام: اتَّقُوا اللَّهَ أي خافوه فلا تسألوا سؤال

جاهل ذى ريب إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بالله بما له من صفات الكمال التي منها الاستطاعة على مثل هذا الأمر الهين.

[١١٤] قالوا أى قال الحواريون: نُريدُ أن نَأْكُلَ مِنْهَا أى من المائدة وَ تَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا إما الاطمئنان بأصل المبدأ و أنك رسولهُ، أو الاطمئنان بالرؤية، كما قال الخليل عليه السّلام: قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيَطْمِئِنَّ قَلْبِي «١» وَ نَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا بما أخبرت من الشريعة. و هذا محتمل أيضا لإرادة العلم العيانى، و لإرادة أصل العلم لكونهم فى شك وَ نَكُونُ عَلَيْهَا أى على المائدة مِنَ الشَّاهِدِينَ الذين يشهدون لمن لم يحضر بأنه قد نزلت المائدة و رأيناها عيانا.

[١١٥] قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ دَاعِيَا اللَّهِ سُبْحَانَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا- وَ كَانَ الْإِتْيَانُ بِلَفْظِ الرَّبِّ، للمبالغة فى الدعاء- أنت الذى رَبَّيتَنَا، فتفضل علينا بإتمام التربية أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ أى خوانا عليه طعام، يأتى من طرف العلو تَكُونُ المائدة لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَ آخِرِنَا أى نتخذ ذلك اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيداً، فإن الأعياد فى الأمم،

(١) البقرة: ٢٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨

[سورة المائدة (٥): آية ١١٥]

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

إنما هى بمناسبة ذكريات انتصاراتهم. و من المعلوم أن تكريم جماعة ينزل المائدة عليهم من قبل الله سبحانه من أعظم الذكريات التى ينبغى أن يحتفل بها،- أول القوم- الذين نزلت عليهم، و- آخر القوم- أى من يأتى من بعدهم من أبنائهم. وَ آيَةٌ مِنْكَ أى دليلا و علامة من قبلك على التوحيد و النبوة و ما أشبههما و أَرْزَقْنَا مِنَ المائدة وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فإنك تتفضل بالنعيم كرما وجودا و لا تريد عوضا تنتفع به بخلاف الناس إذا أعطوا شيئا فإنهم يريدون بدلا عنه يصل إليهم.

[١١٦] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فى جواب عيسى عليه السّلام: إِنِّي مُنَزَّلُهَا أى أَنْزَلَ المائدة عَلَيْكُمْ أَيُّهَا السَّائِلُونَ لها فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ أى بعد إنزالها عليكم فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ أى لا أعذب مثل ذلك العذاب أحدا من العصاة الذين هم فى ذلك الزمان، فإن إطلاق «العالمين» غالبا، يكون على عالم زمان واحد. و السبب فى شدة العذاب أنهم كفروا بعد ما آمنوا و طلبوا المعجزة، و قبل منهم و لئبى طلبهم.

ورد عن أهل البيت عليهم السّلام أن المائدة كانت تنزل عليهم فيجتمعون عليها و يأكلون منها ثم ترتفع فقال كباروهم و مترفوهم: لا ندع سفلتنا يأكلون منها معنا. فرفع الله المائدة بيغيهم و مسحوا قرده و خنازير «١».

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩

[سورة المائدة (٥): آية ١١٦]

وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)

[١١٧] تقدم أن الله سبحانه يسأل الأنبياء عن جواب الأمم لهم، ثم ذكر جملة من معجزات عيسى المقتضية لإيمان الناس به إيمانا عادلا، لكن النصرارى رفعوه فوق مقامه إذ جعلوه إلهاً، و لذا يتوجه السؤال إليه عليه السّلام فى مشهد القيامة حول هذا الافتراء الذى نسب إليه عليه السّلام حتى تظهر براءته من ذلك، فيكون المجال فسيحا أمام عقاب من ادعى ذلك كذبا و بهتاناً، فى يوم يجمع الله

الرسول فيقول: «ماذا أجبتم؟»

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ أَى «يقول» فَإِنِ الْمُسْتَقْبَلُ الْمَتَحَقَّقُ وَقَوْعُهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْمَاضِي يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ أَى: هل أنت، على نحو الاستفهام التوبيخي لمن ادعى ذلك، و التقريري بالنفى بالنسبة إلى المسيح عليه السلام قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى سوى الله، لا أنهم لا يعتقدون بألوهية الله تعالى قال عيسى عليه السلام في جواب ذلك: أسبحك سُبْحَانَكَ أَى أنزهك يا رب ترتبها عن مثل هذا الكلام ما يَكُونُ لِي أَى ليس يجوز بالنسبة لى أن أقول ما ليس لى بِحَقِّ فَأَمَرَ النَّاسَ بِاتِّخَاذِي إِلَهًا إِنِ كُنْتُ قُلْتُهُ أَى قلت للناس: اتخذوني و أمى إلهين فَصَدَّ عَلِمَتُهُ لَكِنِ لَا- تعلم ذلك- على نحو السالبة بانتفاء الموضوع- فلست قائلة تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي أَى سريرتى، فكيف بأقوالى العلانية؟ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ وَ هَذَا عَلَى جِهَةِ الْمَقَابَلَةِ، وَ إِلَّا فَلَيْسَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَفْسًا، وَ قَوْلُهُ «وَ لَا أَعْلَمُ» لِيَان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٧ الى ١١٨]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا- مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَ إِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ضراعتة عليه السلام إليه سبحانه و إلا- فلم يكن الكلام مسوقا إليه إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ أَى تعلم كل غيب عن الحواس، و لست أنا كذلك، فأنت تعلم أنى لم أقل «اتخذوني و أمى إلهين» للناس.

[١١٨] ثم بين عليه السلام ما قاله لقومه زيادة في التبري من هذا القول المختلق المنسوب إليه ما قُلْتُ لَهُمْ أَى للناس إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنَ الْإِقْرَارِ لَكَ بِالْعِبَادِيَّةِ، فَقَدْ قُلْتُ لَهُمْ: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ فَأَنَا وَ أَنْتُمْ مُتَسَاوُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَ كونه ربنا و خالقنا وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا شَاهِدًا أَرَى أَقْوَالَهُمْ وَ أَعْمَالَهُمْ مَا دُمْتُ كُنْتُ فِيهِمْ أَى فى وسطهم فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي أَى أخذتنى مستوفى كاملا إلى السماء- و قد سبق وجه ذلك- كُنْتُ أَنْتَ يَا إِلَهِي الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ أَى المراقب لهم فيما يعملون و يعتقدون و يقولون وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَى شاهد حاضر.

[١١٩] إِنْ مَبْدَأُ الْقَوْمِ هُوَ أَنْتَ «ربى و ربكم» و معادهم بيدك و حدك إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ لَا- يقدرون على رفع شىء من أنفسهم و لا يقدر غيرك على نجاتهم وَ إِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا طَبَقَ الْحِكْمَةَ وَ الْمَصْلِحَةَ، وَ فى هذا تسليم الأمر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٩ الى ١٢٠]

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) لمالكة و تفويض الأمر إلى مدبره، و هذا التعبير لا ينافى علم عيسى عليه السلام بأنهم معذبون، فإنه كما يقول أحدنا لمالك الأمر: «إنه بيدك إن شئت فعلت و إن شئت تركت» حتى مع علمنا أنه يفعل أحدهما لا محالة. هذا بالإضافة إلى أن بعضهم- و هم القاصرون- قابلون للغفران.

[١٢٠] قَالَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَوَارِ، فى مشهد القيامة هذا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ فَلَا الْكَاذِبَ الْمَغَالِي الْقَائِلَ «المسيح ابن الله»، أو «هو الله»، ينفعه كذبه، و لا الكاذب المغالى القائل «بأن المسيح بشر غير نبي» ينفعه كذبه، إنه يوم الصدق، و ينفع الصادق صدقه لَهُمْ أَى للصادقين جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَى تحت قصورها و أشجارها الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا مما لا نهاية له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بما عملوا فى دار الدنيا وَ رَضُوا عَنْهُ بما أعطاهم من الجزاء و الثواب ذَلِكَ الْمَقَامُ الَّذِي حَصَلُوهُ بِمَا عَمَلُوا الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا فَوْزَ بَعْدَهُ أَعْظَمُ

منه.

[١٢١] إن النصارى كذبوا في جعل الشريك لله، ف لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لا شريك له فيهن، و لا ملك غيره و ما فيهن مما يوجد فيهما من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد أو غيرها و هو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يمتنع عليه شيء، و من هذه صفته لا يكون له شريك في الملك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢

٦ سورة الأنعام مكيّة - مدنية / آياتها (١٦٦)

سميت بذلك لاشتغالها على كلمة «الأنعام».

و في حديث: أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، و شيعها سبعون ألف ملك لعظمتها
«١».

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد و يعطف عليهم.

(١) وسائل الشيعة: ج ٦ ص ٢٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

[٢] و لما كان ختام السورة السابقة أن «لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ابتدأت هذه السورة بمثل ذلك الختام الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللام في الحمد للجنس، أي أن جنس الحمد لله إذ جميع المحامد راجعة إليه، و «السماوات» غالباً تأتي بصيغة الجمع بخلاف الأرض التي تأتي مفردة إشعاراً بأكثرية السماوات على الأرض، و إلا فالأرضون أيضاً سبعة كما قال سبحانه: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلُهَا (١) وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ أي كونهما، و «الظلمة» إن كانت عدم ملكة، فمكون الملكة مكون العدم لأن أعدام الملكات لها حظ من الوجود كما قالوا. و قد أتى بالظلمات جمعاً بخلاف النور، للتناسب مع الجملة السابقة «السماوات و الأرض» و لعل سر الإتيان بصيغة الجمع انقسام الظلمات حوالى النور فإن النور يشق طريق الظلمة، كلما قرب النور كان أرق.

ثم أظهر سبحانه التعجب من الذين يتخذون من دون الله أندادا بينما كان كل شيء لله سبحانه ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بعد كل هذه الآيات و الدلائل بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ أي يسوونه بغيره و يجعلونه عدلاً و شريكاً و مثيلاً لأشياء أخرى مما لا أثر لها و لم تخلق شيئاً.

[٣] و حيث أن الجو العام في هذه السورة حول العقيدة مبدءاً و معاداً، و الأمور الكونية التي خلقها سبحانه تنتقل بالآيات من عقيدة إلى

(١) الطلاق: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤

[سورة الأنعام (٦): آية ٣]

وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

عقيدته، و من خلق إلى خلق هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ إما باعتبار أبينا آدم عليه السّلام و إما باعتبار خلق كل فرد من التراب و الماء، فإن الإنسان من النطفة و هي من النبات و الحيوان و هما من الأرض و الماء ثُمَّ قَضَى أَى قَدَّر و كتب أَجَلًا أَى مدة للإنسان عامّة، حتّى تنقضى الدنيا، أو لكل فرد حيث أن لكل فرد مدة لا يتجاوزها و أَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ إما تفصيل ل «أجلا» أَى أن الله سبحانه هو مصدر الأجل المسمّى الذى سُمى لكل شخص فليس بيد غيره الآجال، و إما المراد أن البعث الذى هو أجل و مدة لبقاء الإنسان فى الدنيا حيا و ميتا عِنْدَهُ فيئده قيام الساعة ثُمَّ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ تَمْتَرُونَ أَى تشكّون فى الله سبحانه. إنه بيده الخلق و الموت و البعث لا بيد غيره، فكيف تشكّون فيه و تتخذون غيره شريكا له؟! [٤] وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ أَى أن الخالق و المتصرف فى هذا الكون ليس إلا- الله، خلافا لمن كان يجعل للسماء إليها خاصا، و للأرض إليها غيره. و معنى «فى» الظرفية المجازية، و إلا فليس لله سبحانه مكان، إذ المكان يوجب التحديد، و التحديد يوجب التجزئة، و التجزئة من صفات المصنوع لا الصانع يَعْلَمُ سِرُّكُمْ الْخَفَى المكنوم، أعم مما فى الصدور، أو من الأسرار وَ جَهْرَكُمْ مقابل ذلك بالمعنيين وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ أَى ما تعملون من الأعمال، فإن العمل من كسب الإنسان. و فى هذه الآيات ردّ على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤ الى ٦]

وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدَّ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)

الدهرية القائلين بقدم السماوات و الأرض، و الثنوية القائلين بالهين:

نور و ظلمة، و المشركين الذين يجعلون له سبحانه شريكا، و الجهال من الفلاسفة الذين يقولون بعدم عموم علمه أو قدرته، و من أشبههم من أصحاب العقائد الزائفة حول إله الكون.

[٥] ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين تقدم ذكرهم فى أول السورة، قال:

وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ أَى معجزه و دليل و برهان و حجة مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ الدالة على وجوده و صدق رسالتك يا رسول الله إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ لا يقبلونها و لا ينظرون إليها نظر منصف معتبر.

[٦] فَقَدَّ كَذَّبُوا أَى الكفار بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ من القرآن و الرسول و سائر الآيات فَسَوْفَ فى القيامة، أو فى الدنيا حين ظهور الرسول و وضوح صدقه بالسيطرة و الغلبة- كما أخبر- يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ أَى أخبار ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ من الحق. و فى الآية تهديد، كما تقول للمجرم: «سوف تعلم إجرامك» تريد أنه يلاقى جزاءه، إن كان المراد ب «سوف» القيامة.

[٧] ثم حذرهم سبحانه أن يصيبهم ما أصاب الأمم السالفة حيث كذبوا و عصوا و عتوا عن أمر ربهم أَلَمْ يَرَوْا استفهام تذكيرى توبيخى، أَى «ألم يعلموا»- فإن الرؤية تستعمل بمعنى العلم- كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ أَى من الأمم، و «القرن» أهل كل عصر، و سموا بذلك لأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦

بعضهم يقترن ببعض، و لذا اختلف فى المدة المراد به، لاختلاف الاعتبار مَكَّنَّاهُمْ أَى تلك الأمم فى الأرض بأن جعلناهم ملوكا و قادة و ساسة ذا عدد و عدد و إمكانيات ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ حيث كانوا هم أكثر تمكنا منكم. و الظاهر أن الخطاب خاص بالكفار فى زمن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث كان السابقون أكثر تمكنا منهم. لا- يقال: إن من المحتمل كون بعض الأمم السالفة أكثر تمكنا من جميع من يأتى إلى يوم القيامة حتى يكون الخطاب عاما؟ لأن الجواب ظاهر، إذ قوله: «ألم يروا» ينافى ذلك فإن الناس لم يعلموا أخبار هكذا أمه- كما تقولون- بل ما رواه إنما هو أخبار الأمم التى كانت أقوى من الكفار فى زمانه صلّى الله عليه و آله و

سَلَّمَ وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا هُوَ مِنْ «دَرَّ إِذَا هَطَلَ»، و «مِدْرَار» صِيغَةٌ مَبَالِغَةٌ، أَى كَثِيرَةٌ الْهَطُولِ، حَتَّى عَمَّهِمُ الْخَيْرُ وَ الْبِرْكَةُ وَ الثَّرْوَةُ. وَ الْمَرَادُ بِالسَّمَاءِ: الْمَطَرُ، بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه و إن كانوا غضابا

وَ جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ أَى مِيَاهَهَا بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَى تَحْتِ قُصُورِهِمْ وَ أَشْجَارِهِمْ، أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتِ سَطْحِ الْأَرْضِ الَّتِي يَمْشُونَ عَلَيْهَا. وَ كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَفِدْهُمْ فِي بَقَائِهِمْ وَ حَسَنَ ذِكْرِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ الْمَرَادُ: هَلَاكِهِمْ بِذَهَابِ أَثَرِهِمْ وَ انْقِطَاعِ نَسْلِهِمْ وَ عَقْبِهِمْ، وَ فَنَاءِ حَضَارَتِهِمْ، بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَ كُفْرِهِمْ مُقَابِلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ بَقُوا إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَ إِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧ الى ٨]

وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ قَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقَضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨)

صَلَاحِهِمْ وَ حَسَنَ أَعْمَالِهِمْ سَبَبِ بَقَاءِ آثَرِهِمْ وَ بَقَاءِ ذِكْرِهِمْ وَ بَقَاءِ مَنَاجِيهِمْ وَ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخِرِينَ أَى خَلَفْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ أُمَّةً أُخْرَى وَ جَمَاعَةً أُخْرَى.

[٨] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار معاندون في كفرهم، لا لأنهم لم يعملوا الحق و لو نزلنا عليك يا رسول الله كتاباً في قِرطاسٍ أى مكتوباً في ورق يشهد لك بصدقك فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ أى مسوه بيدهم، حتى يتيقنوا بأن ذلك ليس من الشعوذة و ستر العيون لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا أَى مَا هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أى سحر ظاهر، فلا يصدقونك.

قالوا: نزلت هذه الآية في جماعة من الكفار قالوا: يا محمد لا تؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله معه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله و أنك رسوله.

[٩] وَ قَالُوا أَى قَالَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ لَوْ لَا أَى هَلَّا، وَ لِمَاذَا مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ أَى عَلَى الرَّسُولِ، مَلَكٌ نَشَاهِدُهُ فَنُصَدِّقُ بِهِ، ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَقَالَتَهُمْ بِأَنَّهُ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا كَمَا اقْتَرَحُوهُ لَقَضِيَ الْأَمْرُ أَى انْتَهَى أَمْدُهُمْ وَ أَجْلُهُمْ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ أَى يَهْلِكُونَ وَ يَمُوتُونَ، وَ ذَلِكَ لِمَا جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنْ لَا تَنْزِلَ الْمَلَائِكَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُعَانِدِينَ، إِلَّا وَقْتُ مَوْتِهِمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨

[سورة الأنعام (٦): آية ٩]

وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩)

وَ هُنَا سُؤَالٌ: إِنْ هَذَا لَا يَكُونُ جَوَابًا لِلْكَفَّارِ- عَلَى هَذَا الْمَعْنَى- إِذْ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: فَلْيُغَيِّرِ اللَّهُ سُنَّتَهُ، بِأَنْ يَنْزِلَ الْمَلَكُ وَ يَبْقِينَا حَتَّى نُؤْمِنَ؟

وَ سُؤَالٌ ثَانٍ: لِمَاذَا جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، أَلَيْسَ هِدَايَةُ النَّاسِ غَايَةُ الْخَلْقَةِ، فَمَا الْمَانِعُ مِنْ تَوْفُرِ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ بِانزَالِ الْمَلَكِ؟

وَ الْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ: إِنْ سُنَّةُ اللَّهِ جَرَتْ عَلَى الْهَلَاكِ عَقِبَ مَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا جَرَتْ سُنَّتُهُ عَلَى الْإِحْرَاقِ عَقِبَ الْإِلْقَاءِ فِي النَّارِ، وَ لَيْسَ لِلْكَفَّارِ أَنْ يَشْكُلُوا بِهَذَا الْإِشْكَالِ، إِذْ يَقُولُ النَّبِيُّ: وَ لِمَاذَا تَرِيدُونَ نَزُولَ الْمَلَائِكَةِ؟ أَلِلْعِنَادِ؟ فَلَا دَاعِيَ إِلَى إِجَابَتِكُمْ، أَمْ لِأَنَّهُ خَارِقٌ

وَ الْإِتْيَانُ بِالْخَارِقِ مُوجِبٌ لِلتَّصَدِيقِ؟ فَقَدْ أَتَيْتُ بِالْخَوَارِقِ، أَمْ لِأَنَّهُ خَارِقٌ خَاصٌّ؟

فَالْخَارِقُ الْخَاصُّ لَا يَلْزَمُ إِجَابَتَهُ لَدَى الْعَقْلِ وَ الْعَقْلَاءِ، وَ هَذَا كَمَا إِذَا حَمَلَ الطَّبِيبُ شَهَادَةَ الْكَلِيَّةِ فَيَقُولُ لَهُ الْمَرِيضُ: ائْتِنِي بِشَهَادَةِ رَئِيسِ الْحُكُومَةِ، إِنَّهُ سُؤَالٌ سَخِيفٌ لَدَى الْعَقْلَاءِ ..

وَ الْجَوَابُ عَنِ الثَّانِي: إِنَّهُ سَبْحَانَهُ عِلْمُ عِنَادِهِمْ وَ أَنَّهُ لَا يَفِيدُ مَعَهُمْ انزَالِ الْمَلَكِ، كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا «١»، وَ مَا كَانَ يَمْنَعُهُمْ أَنْ يَقُولُوا أَنْ مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنْ صُورَةِ الْمَلَكِ إِنَّمَا هُوَ سِحْرٌ مُبِينٌ! [١٠] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ وَجْهًا آخَرَ لِعَدَمِ إِجَابَةِ اقْتِرَاحِهِمْ وَ لَوْ

جَعَلْنَاهُ أَى الرَسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَلَكًا مِّنْزَلًا مِنَ السَّمَاءِ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا أَى فِى صُورَةِ رَجُلٍ، فَإِنَّ خَلْقَهُ الْبَشَرِ غَيْرِ مُسْتَعْدَّةٍ لِرُؤْيَةِ الْمَلِكِ فِى صُورَتِهِ، إِلا إِذَا بَدَّلَتْ صُورَتَهُ إِلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ وَوَأَقَعَ مَلِكًا، وَذَلِكَ لَا يَفِيدُ اقْتِرَاحَهُمْ، فَإِنَّ الْمَلِكَ جَرَمٌ لَطِيفٌ لَا تَرَاهُ أَعْيُنُ الْبَشَرِ، كَمَا لَا يَرَى

(١) الأنعام: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠ الى ١١]

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكُمْ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١١)

الإِنْسَانُ الْهَوَاءُ وَلَلْبَشَرِ مِنَ الْبَلْبَسِ بِمَعْنَى الْإِسْتِهْبَاءِ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى هَوْلَاءِ الْمُقْتَرِحِينَ إِنْزَالَ الْمَلِكِ مَا يَلْبَسُونَ أَى كَمَا يَلْبَسُونَ الْيَوْمَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَمْرَ النَّبِيِّ لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ مِثْلَهُمْ، فَكَانَ إِنْزَالُ الْمَلَائِكَةِ فِى صُورَةِ بَشَرٍ مُّوجِبًا لِأَنَّ نَلْبَسُ نَحْنُ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ - مِثْلَ لِبْسِهِمْ هَذَا الْيَوْمَ - وَحَاصِلُ جَوَابِ الْإِقْتِرَاحِ:

أولاً: أن الملك لا ينزل إلا لأمر خاصة، كما نزل فى قصة إبراهيم عليه السلام و لوط عليه السلام.

ثانياً: إن الملك إذا نزل، نزل فى صورة بشر، فىبقى شكهم على حاله.

[١١] ثم قال سبحانه على سبيل التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكُمْ اسْتَهْزَأْتُمْ بِهِمْ أَمَمَهُمْ وَ سَخِرُوا مِنْهُمْ، فَلَسْتِ أَنْتِ بِأَوَّلِ رَسُولٍ يَسْتَهْزَأُ بِكَ وَ يَقْتَرِحُ عَلَيْكَ اقْتِرَاحَاتٍ عَن عِنَادٍ وَ سَخِرِيَهُ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ أَى: فَحَلَّ وَ أَحَاطَ بِالسَّخِرِينَ بِالرُّسُلِ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَى أَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِى هُوَ جَزَاءُ سَخِرِيَتِهِمْ، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا يَتَوَعَّدُونَهُمْ بِالْعَذَابِ فَكَانُوا يَسْخَرُونَ بِوَعِيدِهِمْ، فَحَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ الْمَسْتَهْزَأُ بِهِ.

[١٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: سِيرُوا فِى الْأَرْضِ أَى سَافَرُوا فِيهَا ثُمَّ انظُرُوا إِذَا مَرَرْتُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَ تَفَكَّرُوا كَيْفَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٩٩

قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِىهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)

كَانَ عَاقِبَتُهُ الْمُكْذِبِينَ أَى الْأَمَمُ الَّتِى كَذَبَتْ أَنْبِيَاءَهُمْ، كَيْفَ أُبِيدَتْ وَ لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ، فَإِنَّ دِيَارَ الْأَمَمِ السَّابِقَةَ حِوَالَى سُورِيَا وَ لُبْنَانَ وَ الْأُرْدُنَّ وَ فِلَسْطِينَ وَ مِصْرَ كَانَتْ بَاقِيَةٌ وَ آثَارُ الْخَسْفِ وَ الْهَلَاكِ عَلَى بَعْضِهَا، وَ أَخْبَارُ الْهَلَاكِ وَ التَّدْمِيرِ كَانَتْ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورَةً، فَإِذَا سَافَرُوا وَ سَأَلُوا عِلْمُوا ذَلِكَ، وَ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُدْعِهِمْ عَنِ تَكْذِيبِ الرُّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْإِسْتِهْزَاءِ بِالْقُرْآنِ.

[١٣] ثم احتج سبحانه على المكذبين بحجة أخرى فقال: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْمَكْذِبِينَ: لِمَنْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِذَا لَا يَتِمُّونَ أَنْ يَجِيبُوا بِأَنْهَا لَهُمْ، وَ لَا أَنَّهَا لِأَصْنَامِهِمْ، وَ إِذْ يَتَحَيَّرُونَ بِالْجَوَابِ قُلْ أَنْتِ: إِنَّمَا هِىَ كُلُّهَا لِلَّهِ فَلَمَّا ذَا تَتَخَذُونَ إِلَهًا غَيْرَهُ؟ وَ إِذْ سَبَقَ التَّهْدِيدُ وَ الْوَعِيدُ جَاءَ هُنَا بِالتَّبَشِيرِ كِى تَلِينَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِالتَّهْدِيدِ مَرَّةً وَ التَّبَشِيرِ أُخْرَى كَتَبَ أَى أَوْجَبَ سَبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ عَلَى الْخَلْقِ وَ اللَّطْفِ بِهِمْ، وَ إِجَابَ ذَلِكَ مِنْ مَقْتَضِيَاتِ الْحِكْمَةِ لِكِى تَطْلُبُوا أَيُّهَا النَّاسُ رَحْمَتَهُ الْوَاسِعَةَ بِالْإِطَاعَةِ وَ الْإِمْتِنَانِ، لِأَنَّهُ إِلَهُ الْكُونَ وَ رَاحِمُهُمْ فِى هَذِهِ النِّشَاءِ وَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَى جَمَعًا يَنْتَهَى إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ تَدْرِيجًا لَا دَفْعَةً، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يُولَدُ فِى الْوِلَادَةِ مُقَدَّمَةً لِلْمَوْتِ الَّذِى - بِدَوْرِهِ - يَجْمَعُ النَّاسَ فَرْدًا فَرْدًا حَتَّى يَنْتَهَى الْجَمْعُ فِى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُبْدِئُ سَبْحَانَهُ الْمَعَادَ أَيْضًا لَا رَيْبَ فِيهِ أَى مَحَلِّ رَيْبٍ، وَ إِنْ أَرْتَابَ الْمَبْطُولُونَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣ إلى ١٤]

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)

و إذا كان المبدأ و الوسط و المعاد بيده تعالى ف الذين خسرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أى أن غير المؤمنين يكونون قد خسروا أنفسهم حيث باعوها و اشتروا عوضها العذاب، بينما باع المؤمنون أنفسهم و اشتروا بها الجنة و الثواب.

[١٤] وَلَهُ أى الله سبحانه ما سَكَنَ و هدأ فى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أو المراد ب «ما سكن» مطلق الأشياء الساكنة و المتحركة، من قولهم: فلان يسكن بلد كذا، أى يستقر فيه، فله كل ما استقر و حلّ فى هذين الزمانين «الليل و النهار»، أما على الثانى فوجه الكلام واضح، و أما على الأول فلعل التخصيص بالساكن - مقابل المتحرك - لإلقاء الرهبة فى النفس حيث أن الساكن يلقى ظلال الموت الرهيب، و لذا يرى الإنسان نفسه تهدأ و تسكن إذا صار فى محل ساكن لا حسّ فيه و لا حركة و هُوَ السَّمِيعُ لأقوال العباد و لكل صوت العليم بكل شىء.

[١٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: أَعْيَرَ اللَّهُ أى هل غير الله سبحانه اتَّخَذَ وَلِيًّا أى مالكا و مولى و ربا؟! و هو المتصف بكونه فاطرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أى خالقهما و مبدعهما و منشئهما، إنه من السخافة أن يترك الإنسان الخالق و يتمسك بذيل المخلوق و هُوَ أى الله سبحانه يُطْعِمُ فَإِنِ الْأَطْعَمَةُ و الأرزاق من عنده و لا يُطْعَمُ أى لا يرزقه أحد، فهل من المنطق أن يترك الإنسان الخالق الرازق و يتخذ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥ إلى ١٦]

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)

المخلوق المرزوق وليا من دون الله، الذى ليس بيده أى شىء؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: إِنِّي أُمِرْتُ أَمْرِي اللهُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ اللهُ وَ صَدَّقَ بِكَلِمَاتِهِ وَ اتَّبَعَ أَمْرِهِ، وَ كُونِي أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لِعَلِمِي التَّامَ بِالْخَالِقِ سَبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ: «إِنِّي أَوَّلَ مَنْ يَجَاهِدُ»، «وَ إِنِّي أَوَّلَ مَنْ يَسَافِرُ» دَلَالَةٌ لَامْتِلَاءِ النَّفْسِ بِذَلِكَ الشَّيْءِ وَ أَمْرِي اللهُ بِأَنْ لَا تَكُونَنَّ التَّأَكِيدَ لِلنَّفْسِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا. وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّرِكِ أَعْمَ مِمَّنْ يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا مَعَ الْإِعْتِقَادِ بِهِ سَبْحَانَهُ، أَوْ بِدُونِ الْإِعْتِقَادِ بِهِ، وَ الْمَعْنَى: إِنِّي أُمِرْتُ بِالأَمْرَيْنِ، الْإِسْلَامِ، وَ عَدَمِ الشَّرِكِ.

[١٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَهُ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى عذاب يوم القيامة، و إنما قال «أخاف» مع أنه متيقن إما من جهة التعبير بالخوف حتى عن المتيقن، كما يقول من حكم عليه بالإعدام: «إني أخاف الموت» أى أربه، و إما لاحتمال النجاة لأن رحمته وسعت كل شىء، فمعنى الخوف على هذا الاحتمال رجاء العفو و الرحمة.

[١٧] مَنْ يُضْرَفْ الْعَذَابَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ أى فى ذلك اليوم العظيم فَقَدْ رَحِمَهُ إِذْ لَا أَحَدٌ - باستثناء المعصومين - إلا - و يكون مستحقا للعذاب، و لذا كان الصبر عنه بمقتضى الرحمة و ذَلِكَ الصبر، أو الرحمة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٧ إلى ١٩]

وَ إِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)

الْفَوْزُ وَ الْفَلَاحُ الْمُبِينُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا فَوْزَ مِثْلَهُ.

[١٨] وَ يَسْتَطِرِدُ السِّيَاقُ بِذِكْرِ بَعْضِ صِفَاتِهِ سَبْحَانَهُ فِي مِقَابِلِ الْمَعَانِدِينَ الْمُنْكَرِينَ وَ إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ مِنْ «مَسِّ أَى أَمْسَكٍ» بِمَا هُوَ ضَرَرٌ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا فَلَا كَاشِفَ لَهُ أَى دَافِعَ لَهُ إِلَّا هُوَ فَلَا أَحَدٌ مُؤَثِّرٌ فِي الْكُونَ، وَ إِنَّمَا الْعِلَلُ تَوَثَّرُ فِي الْمَعْلُولَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ إِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ غَنَى أَوْ صَحَّةٌ أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّهُ الْقَادِرُ الْمَطْلُوقُ عَلَى الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ، أَمَا مِنْ سِوَاهُ فَقَدَرْتَهُ مِنْ قَدَرْتِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِلا قَدْرَةٌ نَاقِصَةٌ لِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ.

[١٩] وَ هُوَ تَعَالَى الْقَاهِرُ أَى الَّذِي يَقْهَرُ وَ يَغْلِبُ فَوْقَ عِبَادِهِ أَى الْجَمِيعِ تَحْتَ تَسْخِيرِهِ وَ سَيْطَرْتِهِ، لَا الْفَوْقِيَّةَ الْمَكَانِيَّةَ، فَإِنَّهُ أَجَلٌ مِنَ الزَّمَانِ وَ الْمَكَانِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ، فَلَيْسَ كَوْنُهُ قَاهِرًا مُوجِبًا لِلْخَوْفِ مِنْ ظَلَمِهِ، كَسَائِرِ الْجَابِرَةِ الْقَاهِرِينَ الْخَبِيرُ بِمَا يَصْدُرُ مِنَ الْعِبَادِ، فَلَا يَأْخُذُ أَحَدًا بِجْرَمٍ أَحَدٌ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْقَاهِرِينَ مِنَ الْبَشَرِ، حَيْثُ يَشْتَبِهُونَ كَثِيرًا لَجْهَلِهِمْ.

[٢٠] فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَتَوْا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمُوا فَقَالُوا: أَمَا وَجَدَ اللَّهُ رَسُولًا -رَسُولًا- غَيْرَكَ، مَا نَرَى أَحَدًا يَصْدُقُكَ فِيمَا تَقُولُ، وَ لَقَدْ سَأَلْنَا عَنكَ الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى فَرَزَعُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدَهُمْ ذِكْرٌ، فَأَرْنَا مِنْ يَشْهَدُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤

أَنَّكَ رَسُولَ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمُ «١»، فَتَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً أَى أَعْظَمُ مِنْ حَيْثُ الشَّهَادَةُ، حَتَّى آتَيْكُمْ بِهِ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِي وَ صَحَّةِ نَبَوْتِي، إِنَّهُمْ يَتَحَيَّرُونَ فِي الْجَوَابِ طَبْعًا، وَ يَفَكِّرُونَ فِي النَّاسِ الْعِظْمَاءِ بِنَظَرِهِمْ لِيَقُولُوا: «فَلَان»، لَكِنِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَقْطَعُ تَحْيِيرَهُمْ وَ تَفَكُّرَهُمْ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أَى هُوَ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بِصِدْقِ نَبَوْتِي. وَ قَدْ مَرَّ سَابِقًا أَنَّ شَهَادَةَ اللَّهِ هِيَ إِجْرَاءُ الْإِعْجَازِ عَلَى يَدِهِ الْكَرِيمَةِ وَ أَوْحَى إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ تَعَالَى عَلَى لِيَأْذُرَكُمْ بِهِ أَى لِأَخَوْفِكُمْ بِهَذَا الْعِقَابِ، وَ أَخَوْفٌ مِنْ كُفْرٍ وَ عَصْيٍ وَ مَنْ بَلَغَ عَطْفَ عَلِيٍّ «كَم» أَى أَنْذَرَ بِهِ مِنْ بَلْغِهِ هَذَا الْقُرْآنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَ رَوَى عَنِ الْبَاقِرِ وَ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ «مَنْ بَلَغَ» مَعْنَاهُ: مَنْ بَلَغَ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ فَهُوَ يَنْذِرُ بِالْقُرْآنِ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ «٢».

وَ عَلَيْهِ فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي «أَنْذَرَ» أَى أَنْذَرَ أَنَا الرَّسُولُ وَ الْأُئِمَّةُ -الَّذِينَ هُمْ مَصْدَاقُ «مَنْ بَلَغَ»- النَّاسِ أَيْ أَنْكُمْ أَى: هَلْ إِنَّكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ الْكُفَّارَ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى اسْتَفْهَامُ إِنْكَارِي، أَى: كَيْفَ تَشْهَدُونَ بِذَلِكَ بَعْدَ وَضُوحِ أَدْلَةِ التَّوْحِيدِ وَ قِيَامِ

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٢ و تفسير القمي: ج ١ ص ١٩٥.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٤١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)

الْحِجَّةُ وَ الْبِرْهَانُ عَلَى بَطْلَانِ كُلِّ شَرِيكٍ؟ وَ الْمَرَادُ الشَّرِيكَ مَطْلَقًا وَ لَوْ كَانَ وَاحِدًا، وَ ذَكَرَ «آلِهَةً» مِنْ بَابِ الْمُرَادِ قُلْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا لَمْ يَعْتَرَفْ أَوْلِيكَ بِالتَّوْحِيدِ: لَا أَشْهَدُ أَنَا بِمِثْلِ شَهَادَتِكُمْ بِالشَّرِيكِ، وَ إِنَّمَا أَنَا لَا أَعْتَقِدُ إِلا إِلَهًا وَاحِدًا قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ أَى مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي تُشْرِكُونَ بِسَبَبِهَا، وَ تَدْخُلُونَ أَنْفُسَكُمْ فِي زَمْرَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَجْلِهَا.

[٢١] ثم ذكر سبحانه أن أهل الكتاب كسائر المشركين يعلمون الحق لكنهم يتجاهلون الذين آتيناهم أى أعطيناهم الكتاب يراد به جنس الكتاب الأعم من التوراة والإنجيل وغيرهما يعرفونه أى يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم فكما يعرف الشخص ابنه بحيث لا يمكن أن يشتبهه غيره، كذلك لا يشتبه أهل الكتاب بمعرفة الرسول بوصفه ومزاياه الموجودة فى كتبهم الذين حَسَبُوا أَنفُسَهُمْ بِأَن باعواها بالكفر، الذى عاقبته فهُم لا يُؤْمِنُونَ إن عدم الإيمان مترتب على الخسران، فالخاسر لا يؤمن و الرابع يؤمن.

[٢٢] وَمَنْ أَظْلَمُ أَى من يكون أكثر ظلماً و تعدياً عن الحق مِمَّنْ افترى عَلَى اللَّهِ كَذِباً! بأن جعل له شريكا و زعم أن الله أمره بذلك، كأهل الكتاب و قسم من المشركين الذين كانوا يقولون: إن الله أمرنا باتخاذ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)

الأنداد و الشركاء أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ كما لو كذب بالقرآن أو بالرسول أو بالمعجزات، فإنها كلها من آيات الله سبحانه، لكن الكتاب آية صامته، و الرسول آية ناطقه إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ إنهم لا يفوزون بخير الدنيا، و لا سعادة الآخرة.

[٢٣] و اذكر يا رسول الله يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً و هو يوم القيامة الذى يجمع فيه هؤلاء المشركون و سائر المكذبين ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا و جعلوا الله شريكا أَيْنَ شُرَكَائِكُمْ أى الشركاء لله الذين زعمتم أنهم كذلك. و الإضافة إلى «كم» باعتبار أنهم اتخذوها، كما تضاف إلى «الله» باعتبار أنه سبحانه المجمعول فى رديفهم فيقال «شركائى» الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم شركاء الله سبحانه؟ و الاستفهام إنكارى للتوبيخ و التقرير.

[٢٤] ثُمَّ بَعْدَ هَذَا السُّؤَالِ مِنْهُمْ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ أَى معذرتهم، فإن الفتنة على معان، منها: المعذرة، أو هو على سبيل المجاز، أى: لم تكن نتيجة فتنتهم بالأصنام، إلا- التبرؤ منها، كما يقال: «لم يكن درسهم و قضاؤهم إلا رشوة و خيانة» يراد أن عاقبتهم كانت الرشوة و الخيانة إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ فيحلفون بالله كذبا أنهم ما كانوا مشركين، كما اعتادوا فى الدنيا أن يحلفوا كذبا حينما يقعون فى المشاكل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)

[٢٥] أَنْظُرْ يا رسول الله إلى حلف هؤلاء كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ بأنهم ما كانوا مشركين، و هذا أمر يقصد به التعجب و الاستغراب وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أى ضلت عنهم أو ثانهم التى كانوا يعبدونها من دون الله، و يفترون الكذب على الله بقولهم: هذه شفعاؤنا عند الله، فلم يجدوها و لم ينتفعوا بها و إنما الأمر لله وحده.

[٢٦] قيل: إن نفرا من مشركى مكة جلسوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو يقرأ القرآن، فقال بعضهم لبعض: ما يقول محمد؟ قال: أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. فنزلت هذه الآية و مِنْهُمْ أَى من الكفار و المشركين مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ أى إلى كلامك يا رسول الله و لكن حيث أنهم أعرضوا عن الحجج بعد ما بينت لهم جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً هى جمع «كنان» و هى ما ستر شيئا، فإن الإنسان إذا أعرض عن الحق غشيت على قلبه غشاوة، إذ صار الإعراض له ملكة و عادة، و نسبتبه إلى الله سبحانه باعتبار أنه سبحانه هو الذى جعل الإنسان هكذا، فإنه علة كل شىء، و إن كان السبب المباشر هو الشخص أن يَفْقَهُوهُ أى حتى لا يفقهوه بمعنى لا يفهموه و جعلنا فى آذَانِهِمْ وَقْرًا «الوقر» هو الثقل فى الأذن، فهم كمن لا يسمع، حيث أنهم لا يستفيدون من سماعهم

وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ وَمُعْجِزَةً خَارِقَةً عَلَى نُبُوتِكَ وَصَدَقَكَ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا أَى بَتَلِكْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)

الآيات، إذ قد ران على قلوبهم ما كانوا يعملون حتّى إذا جاؤك لا يطلبون الحق بل يُجادِلُونَكْ و يناقشونك يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا أَى مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ «أساطير» جمع أسطورة، بمعنى الخرافة، من سطر إذا كتب، يعنى: ما فى القرآن من القصص و الأحكام و غيرها ليست إلا أخبار الأقسام السابقة و ترها تهم.

[٢٧] وَهُمْ أَى هؤلاء الكفار الذين سبق ذكرهم يَنْهَوْنَ عَنْهُ أَى عن النبى، أو القرآن، يعنى: ينهون الناس عن اتباع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو القرآن، وَيَنْأَوْنَ مِنْ «نأى» بمعنى تباعد، أى يتباعدون عَنْهُ أَى عن الرسول أو القرآن، فهم يجمعون بين رذيلتى الكفر و الأمر بالمنكر وَإِنْ أَى: و ما يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ فإنهم لا يضررون النبى صلى الله عليه و آله و سلم بل يضررون أنفسهم بخزى الدنيا و عذاب الآخرة و ما يَشْعُرُونَ أَى لا يعلمون أنهم بذلك يهلكون أنفسهم.

[٢٨] وَلَوْ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أحوالهم فى الآخرة و كيف أنهم يندمون على ما فَرَطُوا فى دار الدنيا إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ أَى أشرفوا و اطلعوا و وقفوا على حافتها لدخولها فقالوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ أَى يرجعوننا إلى الدنيا و لا- نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبَّنَا دلائله و براهينه وَ نَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بالله و الرسول و ما جاء به. و جملتا «لا نكذب» و «نكون» من مدخول التمنى،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

بَلْ يَدَّبَّرُوا لَهْمَ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) و التقدير: «يا ليت لنا انتفاء التكذيب، و الكون من المؤمنين».

[٢٩] بَلْ يَدَّبَّرُوا لَهْمَ أَى ظهر لهؤلاء الكفار الحق جليا بحيث لا- مجال لإخفائهم له ما كانوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ فى دار الدنيا حيث كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. و لعل وجه الإضراب ب «بل» بيان أنه ليس الأمر على ما قالوه من أنهم: لو ردوا إلى الدنيا لآمنوا، فإن التمنى الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين فى الإيمان، بل لأجل خوفهم من العقاب الذى يعاينوه و لو رُدُّوا إلى الدنيا كما تمنوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ أَى لرجعوا إلى كفرهم و عصيانهم و إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فى أنهم لو ردوا لعملوا صالحا كما فى آية أخرى: رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ «١»، و لا- يخفى أن الإنسان إذا كان ذا طبع عنادى لا ينفك عن طبيعته حتى و لو رأى المشاهد العظيمة من عناده كما هو المشاهد المجزّب.

[٣٠] و قد كان هؤلاء الكفار ينكرون المعاد و هم فى دار الدنيا وَقَالُوا إِنْ هِيَ أَى ما هى إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا أَى الحياة القريبة التى نحن فيها و ليس ورائها شىء و مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد الموت. و «البعث» هو الإرسال و الإحياء.

[٣١] وَلَوْ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أحوال هؤلاء الكفار يوم القيامة إِذِ وَقَفُوا

(١) سورة المؤمنون: ١٠٠ و ١٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠

[سورة الأنعام (٦): آية ٣١]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)

على رَبِّهِمْ أى فى معرض خطابه و حسابه، كالشخص الذى يقف عند الملك و هو مجرم، فإنه فى حال يأس و اضطراب ممّا ينطق الملك فى حقه من العقاب. و من المعلوم أن الله لا يرى، و ليس بجسم، و لا له مكان، فالمعنى على سبيل المجاز قال ربهم لهم أليس هذا اليوم الذى كان يخبر به الأنبياء و كنتم تنكرونه بِالْحَقِّ و هو استفهام توبيخ و تفرغ قائلوا مقرين مدعين بلى هو حق و رَبَّنَا و إنما حلفوا خوفاً، فإن الخائف يردف كلامه بالحلف استماله لقلب المخوف منه و إظهاراً بأنه يوافق كلام المتكلم قال الله سبحانه فَذُوقُوا الْعَذَابَ و المراد ب «الذوق» ليس الذائقة اللسانية، بل ذوق الجسد فإنه يطلق عليهما بما كُنتُمْ تَكْفُرُونَ أى بسبب كفركم، و كان السؤال للإهانة و الإذلال.

[٣٢] ثم أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفار بقوله: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ المراد بِلِقَاءِ اللَّهِ جزاؤه و عقابه، كما يقال: فلان لقى عمله، أى جزاء عمله، و إلا فليس لله مكان يرى حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ أى يوم القيامة بَغْتَةً أى فجأةً من «بغت ببغت» بمعنى فاجأ، و إنما ذكر ذلك لأنهم فى دار الدنيا كانوا لا يحسبون حساب يوم القيامة حتى يستعدوا له. و هل المراد ب «الساعة» الموت- كما ورد: من مات قامت قيامته

«١»- حتى يلائم ما بعده، أم المراد القيامة و يكون المراد

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٢]

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)

العذاب الشديد لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب القبر، احتمالان.

قَالُوا أى قال هؤلاء الكفار عند معانئة الأهوال و العذاب: يَا حَسْرَتَنَا الحسرة شدة الندم يعنى: أيتها الحسرة احضرى فهذا وقتك على ما فَرَّطْنَا فِيهَا أى على ما تركنا و ضيعنا فى الدنيا من أعمارنا و لم نقدم عملاً صالحاً ننتفع به فى هذا اليوم وَ هُمْ أى هؤلاء الكفار يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ «الوزر» الثقل، و حيث إن للذنوب ثقلاً تسمى أوزاراً على ظُهُورِهِمْ هذا من باب التشبيه، فكما أن من يحمل ثقلاً على ظهره يكون فى تعب و حرج، كذلك من يحمل ذنباً، و منه: «عليه دين» ألا- للتنبيه ساء أى بس ما يَزِرُونَ أى ما يحملون من وزر، بمعنى: ثم و حمل خطأ.

[٣٣] وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا أى ليست الحياة القريبة التى اغتر بها الكفار فعملوا لها و تركوا آخرتهم إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ «اللهو» هو ما يلهى الإنسان عن الجد إلى الهزل، فإن الدنيا ليست إلا ألعاباً و ملهيات و إنما كانت كذلك لأنه لا حقيقة لأعمالها فهى فانية زائلة، و إذا بالإنسان يرى نفسه و لم يحصل شيئاً. و غير خاف أن ذلك بالنسبة إلى الأعمال التى لا تعقب ثمرةً صالحه، و إلا فالدنيا مزرعة الآخرة. و نعم متجر العقلاء وَ لَلْآخِرَةُ «اللام» للتأكيد، أى أن الدار الثانية التى هى الجنة و نعيمها خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ معاصى الله، و قد جرد «خير» عن معنى التفضيل، أو بملاحظة أن فى الدنيا أيضاً خيراً فى الجملة، ثم إنها خير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٣]

قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيُخْزِنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)

للمتقين، أما غيرهم فالدنيا خير لهم. و لذا

ورد: «إن الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر»

«١» أَفَلَا تَعْقُلُونَ أَيُّهَا الْبَشَرُ، فَإِنَّ مِنْ عَقْلِ وَأَدْرَكَ عِلْمَ أَنَّ الْبَاقِيَ السَّرْمَدِي الَّذِي لَا يَشُوبُهُ حُزْنٌ وَ هَمٌّ خَيْرٌ مِنَ الْفَانِي الْمَمْزُوجِ بِأَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ وَالرِّزَايَا.

[٣٤] ثم سأل سبحانه نبيه على تكذيبهم إياه و عدم انصياعهم لأوامره و إرشاده بقوله: قَدْ نَعَلَمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ «قَدْ» تَسْتَعْمَلُ فِي الْمَضَارِعِ لِلتَّحْقِيقِ إِلَّا أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّهَا فِيهِ لِلتَّقْلِيلِ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ مِمَّا يَنْسِبُونَهُ إِلَيْكَ مِنْ أَنْكَ شَاعِرٌ وَ كَاهِنٌ وَ مَجْنُونٌ، وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ السَّبَابِ وَ الْاسْتِهْزَاءِ الَّذِي كَانُوا يَكِيلُونَهُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَإِنَّهُمْ أَى الْكُفَّارِ لَا يُكْذِبُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِمْ، لَعَلَّهُمْ أَنْكَ صَادِقٌ، وَ هَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّسْلِيَةِ إِذِ الْإِنْسَانُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ عُدُوهُ يَجْلَهُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ، كَانَ ذَلِكَ سَلْوَةً لَهُ لِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْإِحْتِرَامِ الْكَامِنِ.

قالوا التقى الأحنس بن شريف و أبو جهل بن هشام فقال الأحنس:

يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحد غيري و غيرك يسمع كلامنا فقال أبو جهل: ويحك! و الله إن محمدا لصادق و ما كذب قط، و لكن إذا ذهب بنو قصي باللواء و الحجابة و السقاية و الندوة و النبوة فما ذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية.

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٤]

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَ أَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصِيرُنَا وَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)

و روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام معنى آخر للآية حاصله

«إنهم لا يكذبونك بحجة و لا يتمكنون من إبطال ما جئت به من برهان»
«١».

وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ وَ هُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ، وَ غَيْرُهُمْ بِالْمَنْعِ عَنِ الْإِسْلَامِ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أَى يَنْكُرُونَ آيَاتِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ «٢».

[٣٥] ثم ذكر سبحانه تسلياً للنبي أنه ليس بأول رسول يكذب، بقوله:

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ لَيْسَ تَنْكِيرُ «الرسل» لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ رَسُولٌ يَكْذِبُ، حَتَّى يَنْفَى قَوْلَهُ: يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ «٣»، الْمَفِيدُ لِتَكْذِيبِ كُلِّ رَسُولٍ، وَ إِنَّمَا الْكَلَامُ حَيْثُ جَرَى مَجْرَى التَّسْلِيَةِ كَانَ يَكْفِي ذَلِكَ الْإِلْمَاعَ إِلَى أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ أَيْضًا فِي مَعْرِضِ التَّكْذِيبِ وَ الْإِزْدِرَاءِ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا أَى عَلَى تَكْذِيبِ النَّاسِ لَهُمْ وَ أَوْذُوا إِمَّا عَطْفَ عَلَى «كذبوا» أَوْ عَلَى «كذبت» حَتَّى أَتَاهُمْ أَى جَاءَهُمْ نَصِيرُنَا إِيَّاهُمْ عَلَى الْمَكْذِبِينَ، فَاصْبِرْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى يَأْتِيكَ النَّصْرُ وَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ أَى لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ نَصْرِ الرَّسْلِ، وَ إِهْلَاكَ

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٨٦.

(٢) النمل: ١٥.

(٣) يس: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٥]

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سِيلًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)

أعدائهم ولقد جاءك يا رسول الله من نبي المرسلين أي بعض أخبار الرسل السابقين كيف نصرناهم على أعدائهم.

[٣٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار لا يؤمنون فلا- تعب نفسك لأجلهم، ولا تحزن. وهنا نكتة بلاغية لا بأس ببيانها، وهي أن الألفاظ والجمل وضعت للمعاني الخاصة، لكنها كثيرا ما تستعمل لإنشاء مفهومها الموضوع له، لكن يراد غير ذلك، كما يستعمل الاستفهام والتعجب بالنسبة إليه سبحانه، مع العلم أنه لا يجهل شيئا، ولا يتعجب من شيء، وإنما استعمال الاستفهام والتعجب بداعي التحريض أو الردع أو نحوهما، وهكذا الخطاب الغليظ أو الرقيق لأحد، قد يراد به المعنى الموضوع له، وقد يراد به داع آخر يفرغ في مثل هذا القلب، فإنك إذا أردت تنبيه أحد من جيرائك، تغلظ لولدك في الخطاب مع أنك لا تريده بالذات، فمثلا تقول: «لو أنك ألفت النفاية باب الدار لحبستك» فإنك لا تريده بل تنشئ هذا الكلام بداعي زجر الجار عن القيام بمثل هذا العمل، بل قد يكون عمل يستفاد منه شيء- حسب المتعارف- يأتي به الإنسان لغرض آخر، كما لو أردت تأديب ولدك لما اقترفه من عمل سيئ، فإنك تعمل إلى خادمك وترفسه برجلك- في هدوء- قائلا: لماذا فعلت هذا الفعل، وإنك لا تريده إطلاقا، وإنما تريد إفهام ولدك أن هذا العمل له هذا الجزاء.

وعلى هذا الوجه جرى الكلام في هذه الآية الكريمة وإن كان كبر إنه سبحانه يريد بيان غلظة قلوب الكفار وعنادهم، لكنه يصوغه في أسلوب خطاب للنبي، بأنك توصلت بكل الوسائل من الصعود في السماء، وجعل النفق في الأرض- مما يتوسل الناس بهما في مآربهم-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥

فإن الكفار لا يؤمنون .. كما أن قصة موسى عليه السلام وأخذ برأس أخيه يجره إليه «١»، من هذا القبيل أيضا.

وإن كان يا رسول الله كبر أي عظم واشتد عليك إعراضهم أي إعراض هؤلاء الكفار عن الإسلام فإن استطعت أي قدرت أن تبتغي أي تطلب وتتخذ نفقا أي سربا في الأرض تشبيه للمعقول بالمحسوس، فكما أن من يريد فتح مدينه، يتخذ الإنفاق من خارج المدينه إلى داخلها ثم يدخلها فجاء ليستولى عليها، فكذلك إن تمكنت أن تصنع مثل ذلك للسيطرة على أرواح هؤلاء وقلوبهم أو تبتغي أي تطلب سيلما أي مصعدا و مرقاة في السماء لتصعد عليه فتأتيهم بآية أي حجة و برهان، غير ما أنزلنا عليك. و جواب «إن» محذوف، أي «فافعل» حذف لدلالة الكلام عليه، كما تقول: «إن تمكنت أن تصدق» و تحذف قولك: «فافعل».

ولو شاء الله لجمعهم أي الناس على الهدى بأن يلجئهم إلى قبول الإيمان، لكنه لا يشاء ذلك لأنه حينئذ يبطل الامتحان والاختبار فلا تكونن من الجاهلين فإن الجاهل هو الذي يظن أن بالإمكان العادي اجتماع الناس كلهم على أمر، أما العاقل المجرب فيعلم أنه ما من شيء إلا وفيه خلاف و خصام حتى البديهيات الأولى

(١) الأعراف: ١٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٦]

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

كنور الشمس، فإن السفسطائين ينكرونه، و لم يكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم في معرض الجهل حتى يكون الكلام ردعا له، و

إنما صيغ الكلام لداعي تأنيب الكفار حتى أن قصد هدايتهم يكون من أعمال الجاهلين.

وهنا سؤال: كيف تقولون في الآيات النازلة بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثل هذه المحامل، ولا تقولون في ما أشبهها من الآيات في غيره صلى الله عليه وآله وسلم بمثل ذلك؟
والجواب: القرينة الخارجية- وهي أن النبي معصوم- أوجبت ذلك، كما أن القرينة الخارجية أوجبت حمل «الاستفهام» من الله تعالى على معنى آخر، بينما الاستفهام من غيره سبحانه يحمل على معناه الحقيقي.

[٣٧] إن الذين يستجيبون لك يا رسول الله هم الأحياء الذين لم يميت الضمير في جوفهم، والذين يكفرون فهم الأموات، فكما أن الميت لا يسمع ولا ينتفع كذلك هؤلاء إنما يستجيب الذين يسمعون أي يقبل الإيمان من كان حيا يسمع والموتى لا يسمع لهم حتى يبعثهم الله في الآخرة فيسمعون، إنهم لا علاج لهم، يقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياو لكن لا حياة لمن تنادي

ثم بعد البعث والحساب إليه يرجعون أي يرجعون إلى حكمه وقضائه، وهذا لتأكيد أن الكفار أموات، كقول الإمام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

على عليه السلام «يا أشباه الرجال ولا رجال»

«١»، فإن «ولا رجال» لتأكيد الجملة الأولى.

[٣٨] وقالوا أي قال الكفار: لولا أي هلا نزل عليه آية أي معجزة خارقه من ربه فإنهم بعد ما عجزوا عن مقابلة القرآن قالوا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: أنزل علينا مثل عصا موسى وناقة صالح وأشباههما حتى تؤمن بك، فردهم سبحانه بقوله: قل يا رسول الله: إن الله قادر على أن ينزل آية كما تقترحون ولكن أكثرهم لا يعلمون قدرة الله، بل إنه ليس في إنزالها مصلحة، فإنهم معاندون والمعاند لا تفيده ألف آية، كما لم تفد مع فرعون عصا موسى عليه السلام ومع قوم صالح عليه السلام الناقة، ولو لم يكن هؤلاء معاندون لكفاهم الكتاب الحكيم. ثم إن إتيان آية موسى عليه السلام أو ما أشبهها أبعد لقبولهم، إذ القرآن الذي هو على لسانهم ينسبونه إلى السحر، فكيف بالعصا التي ليست من مهنتهم؟! [٣٩] وحيث أن جو هذه السورة حول التوحيد وشؤونه والآيات الكونية ودرع الكفار بمختلف أصنافهم عن عقائدهم الباطلة، بين سبحانه بعض مخلوقاته الدالة على وجوده وصفاته الكمالية بقوله: وما من دابة في الأرض من «دب يدب» إذا تحرك، ثم عم كل حيوان ولو لم يتحرك،

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٧ ص ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٩]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

كما أنه يشمل حيوانات البر، لمقابلته بالطائر، وذكر «في الأرض» للتعميم، ولا طائر يطير بجناحيه كما أن ذكر «يطير بجناحيه» للتعميم أيضا، والسر أنه كثيرا ما يعبر بمثل هذا التعبير ويراد به العموم مبالغة، فإذا جاء القيد أفاد العموم الاستغراقى إلا أمم أمثالكم أيها البشر فإن كل نوع منهما أمة مستقلة وهي مثلكم في الإبداع ولطف الصنع ودقة التركيب ما فرطنا أي ما تركنا في الكتاب أي كتاب

الكون، فإن الكون كتاب الله و الموجودات كلماته، و إنما سَمِيَ الكون كتاباً، لأن الكتاب بمعنى الجمع، من كتب بمعنى جمع، و هذا الكون قد جمع الأشياء فهو كتاب الله التكويني مِنْ شَيْءٍ فِهَذَا الْكِتَابِ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَ مُخْتَلَفِ الْأَصْنَافِ، فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ يَطْلُبُ أَحَدٌ دَلِيلًا عَلَى وَجُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ هَذِهِ الْأُمَمُ كُلُّهَا بَعْدَ الْمَمَاتِ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ أَيَّ يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمِيعًا، كَمَا قَالَ: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ «١»، فَمِنْهُ سَبْحَانَهُ بِدَوِّهَا وَ إِلَيْهِ عَوْدُهَا.

[٤٠] وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَيُّ بَدَلَاتِنَا الدَّالَّةِ عَلَى وَجُودِنَا وَ سَائِرِ صِفَاتِنَا، بَعْدَ هَذِهِ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ صُمِّمَ جَمْعُ «أَصْم» وَ هُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ وَ بُكْمٌ جَمْعُ «أَبْكُم» وَ هُوَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ، فَهَمَّ كَالَّذِي لَا يَسْمَعُ وَ لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يَكْتَسِبَ الْعِلْمَ وَ يَدْرِكَهُ فَإِنَّ الْعِلْمَ يَأْتِي مِنَ الْأُذُنِ وَ يَخْرُجُ

(١) التكوير: ٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩

[سورة الأنعام (٦): آية ٤٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠)

من اللسان في الظلمات فلا يبصر حتى يرى الأشياء، فإن الكافر مثل هذا الشخص لأنه قد عطل جوارحه فلا يدرك شيئاً كما لا يدرك الأعمى الأبكم الأصم شيئاً مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ أَيَّ يتركه و لا يجبره على الهداية حتى يضل الطريق و ذلك بعد ما بين له الحجة فلم يقبل بل أعرض عنها- و قد تقدم معنى ذلك- وَ مَنْ يَشَأُ يُجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِاللطف الخفى به، كما قال سبحانه: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى «١»، وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا «٢».

[٤١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الكفار: أَرَأَيْتُمْ أَيُّ أَخْبَرُونِي؛ فَإِنَّ «أَرَأَيْت» بمعنى «أخبر»، و «كم» للخطاب، و هو يتغير حسب أفراد المخاطب و تثنيته و جمعه، كقوله سبحانه: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ «٣»، إِنْ أَتَاكُمْ أَيُّ جَاءَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَنْ نَزَلَتْ صَاعِقَةٌ أَوْ خَسَفَتْ بِكُمْ الْأَرْضُ أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا- كما حدث في الأمم السابقة- أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَيُّ الْقِيَامَةُ بِأَهْوَالِهَا وَ عَذَابِهَا أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ لِكَشْفِ الْعَذَابِ وَ الْأَهْوَالِ عَنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ آلِهَةٌ؟! وَ هُمْ بَفِطْرَتِهِمْ يَجْبِيُونَ بِالنَفْسِ، وَ أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ، بَلْ يَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَ فِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى بَطْلَانِ الْأَصْنَامِ وَ عِبَادَتِهَا.

(١) محمد: ١٨.

(٢) العنكبوت: ٧٠.

(٣) الإسراء: ٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤١ إلى ٤٣]

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانَا تَضَرَّعُوا وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)

[٤٢] وَ لَذَا قَالَ سَبْحَانَهُ بَلْ إِيَّاهُ أَيُّ اللَّهِ سَبْحَانَهُ تَدْعُونَ وَ يَقْبَلُونَ عَلَيْهِ فِي شِدَائِكُمْ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ أَيُّ يرفع الضر الذي دعوتموه من أجله إِنْ شَاءَ الْكَشْفِ عَنْكُمْ وَ تَنْسَوْنَ فِي وَقْتِ الشَّدَةِ مَا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

[٤٣] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ لَمَّا أَتَتْهُمُ الرِّسَالُ وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَصَابَهُمْ أَنْوَاعُ الْبَلَاءِ، وَ أَنَّ حَالَ هَؤُلَاءِ كَحَالِ أَوْلَادِكَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَيُّ أَخَذْنَا تِلْكَ الْأُمَمَ بِالْبَأْسَاءِ أَيُّ الْفَقْرِ وَ الْبُؤْسِ وَ

الضَّرَاءِ أَى الأَوْجَاعِ وَ الأَسْقَامِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ أَى كَى يَتَضَرَّعُوا إِلَى اللّهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنِ الْإِنْسَانُ إِذَا ابْتَلَى بِالْبَلَاءِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى اللّهِ سَبْحَانَهُ، وَ فَى ذَلِكَ لَطْفٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ.

[٤٤] لكنهم لم يتضرعوا و حتى فى هذه الحالة ركبو العناد و سلكوا سبيل اللجاج فلو لا أى هلا- و هى كلمة توبيخ- إذ جاءهم أى جاء تلك الأمم بأُسُنَا تَضَرَّعُوا وَ خَضَعُوا لِلّهِ وَ لَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ بِسَبَبِ اسْتِمْرَارِهِمْ فَى الْكُفْرِ وَ الْعَصِيَانِ فَلَمْ تَجِدِ الْهَدَايَةَ إِلَى قُلُوبِهِمْ سَبِيلًا وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَأَوْ أَعْمَالِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٤ الى ٤٦]

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) حسنة، و لذا لم يتركوها.

[٤٥] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَى تَرَكَوا مَا ذُكِّرْنَاهُمْ مِنْ أَوْامِرِنَا وَ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا دَعَاهُمْ الرَّسُلُ إِلَيْهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ النِّعَمِ حَيْثُ قَدْ أُقْبِلَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي بَعْدَ تِلْكَ الْبَاسَاءِ وَ الضَّرَاءِ.

و ذلك لأجل احتمال إفادة التذكير بالنعم حتى يشكروا بارئها و المتفضل بها عليهم حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أى بما أعطاهم الله من النعم و اشتغلوا بالتلذذ و لم يقبلوا أمر الرسل، بل صار ذلك سببا لزيادة طغيانهم و كفرهم أَخَذْنَاهُمْ بِالْهَلَاكِ وَ النِّكَالِ بَغْتَةً أَى فَجَاءَهُمْ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ مِنْ «بلس» إِذَا تَحَسَّرَ، أَى أَنَّهُمْ مَتَحَيِّرُونَ آيسُونَ مِنَ النِّجَاةِ.

[٤٦] فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا «الدابر» الأصل، أَى اسْتَوْصَلَ وَ قَطَعَ أَصْلَ الْقَوْمِ بِسَبَبِ الْعَذَابِ وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَهْلَكَ الْكُفْرًا وَ أَرَاخَ الْبِلَادِ وَ الْعِبَادِ مِنْهُمْ.

[٤٧] ثم احتج الله على الكفار بحجة أخرى تدل على بطلان أصنامهم و أن الأمر لله وحده قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهَوْلَاءِ الْكُفْرَانِ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللّهِ سَبْحَانَهُ: أَرَأَيْتُمْ أَى أَخْبَرُونِي، فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْ «أرأيت» بِمَعْنَى أَخْبَرْنِي إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ أَى أَذْهَبَ بِهَا فَصَرْتُمْ صَمًّا وَ عَمَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)

وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ أَى سَلَبَ عَقُولَكُمْ حَتَّى صَرْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ، أَوِ الْمَرَادُ الطَّبَعُ عَلَيْهَا حَتَّى تَبْتَعِدَ عَنِ الْخَيْرِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَى بِذَلِكَ الشَّيْءِ الْمَأْخُوذِ مِنْكُمْ، فَإِنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَتِمَّكُنْ مِنْ إِعَادَةِ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ أَنْظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ أَى نَبِّينَ لَهُمْ فَى الْقُرْآنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَ «تصريف الآيات» تَوَجِيهَهَا، مِنْ «صرف» إِذَا أُرْسِلَ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ مِنْ «صدف» بِمَعْنَى أَعْرَضَ، أَى يَعْرُضُونَ عَنِ الْحَقِّ وَ عَنِ الْقَائِلِ فَى الْآيَاتِ.

[٤٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهَوْلَاءِ الْكُفْرَانِ: أَرَأَيْتُمْ أَى أَخْبَرُونِي إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْدَ مَا أَنْذَرْتَكُمْ وَ لَمْ تُؤْمِنُوا بَغْتَةً أَوْ مَفْاجَأَةً خَفِيَةً، فَإِنَّ الْفَجَاءَةَ تَلْأَزِمُ الْخَفِيَةَ أَوْ جَهْرَةً عَلَانِيَةً بَلَا- فَجَاءَهُ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَ الْعَاصُونَ، وَ الْمَرَادُ بِالْهَلَاكِ مَا يَسَبِّبُ خَسَارَةَ الدَّارَيْنِ، أَمَا الْمُؤْمِنُ لَوْ هَلَكَ، فَإِنَّهُ لَا يَخْسِرُ إِلَّا الدُّنْيَا، وَ يَعْوِضُ عَنْهَا بِأَنْوَاعِ الْإِنْعَامِ، وَ فَى هَذَا الْاسْتِفْهَامِ يُقَاطُ وَ تَنْبِيهِ وَ رَدْعٍ لَهُمْ مِنَ الظُّلْمِ، فَأَى أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَهْلِكَ إِذَا أَتَى الْعَذَابَ.

[٤٩] وَ مَا نُزِّلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ وَ الثَّوَابِ لِمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٤٩]

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

وَ مُنذِرِينَ بِالنَّارِ وَ الْعِقَابِ لِمَنْ كَفَرَ أَوْ عَصَى فَمَنْ آمَنَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ وَ أَصْلَحَ أَعْمَالَهُ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ لَا فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَوَاضِحٌ، وَ أَمَا فِي الدُّنْيَا فَلَأَنَّ الْخَوْفَ وَ الْحُزْنَ الْحَقِيقِيِّينَ مَا كَانَ مَعَ الْإِنْقِطَاعِ عَنِ الْعَوْضِ وَ الثَّوَابِ وَ مَا أَشْبَهَهَا، وَ لَيْسَ الْمُؤْمِنُ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَا يَصِيبُهُ يَعْقِبُهُ الثَّوَابُ وَ الْأَجْرُ. وَ لَذَا قَالَ الْإِمَامُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ: «هُوَ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينُ اللَّهِ»

«١»، وَ الْإِرْتِبَاطُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَاضِحٌ فَإِنَّ الْعَذَابَ لِمَا وَعَدَ بِهِ الْكُفَّارَ بَيْنَ أَنْ الرِّسْلَ شَأْنُهُمُ التَّبَشِيرُ وَ الْإِنْذَارُ.

[٥٠] وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ أَى يَصِيبُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أَى بِسَبَبِ فَسُقَتِهِمْ وَ خُرُوجِهِمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. ثُمَّ لَا يَخْفَى أَنَّ الْغَالِبَ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْعَذَابِ بَعْدَ الْآخِرَةِ، مَعَ أَنَّ الْإِطْلَاقَ خِلَافَ ذَلِكَ، فَإِنَّ مِنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ يَصِيبُهُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: «مَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» (٢)، وَ سَبَبُهُ وَاضِحٌ فَإِنَّ الْمَنَاجِحَ الَّتِي يَتَّبِعُهَا الْإِنْسَانُ مِمَّا وَضَعَهَا غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا بَدَّ وَ أَنَّ تَكُونَ مُنْحَرِفَةً، وَ هَذَا الْإِنْحِرَافُ يَسَبِّبُ الْفَوْضَى وَ الْإِسْتِبْدَادَ وَ مَا أَشْبَهَهُ،

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٤٥.

(٢) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٤

[سورة الأنعام (٦): آية ٥٠]

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)

مما يؤذى الإنسان و ينغص عيشه.

[٥١] إِنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَسْتَعْظَمُونَ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ رَسُولًا- بَدُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَالٌ عَرِيضٌ أَوْ عِلْمٌ غَيْبٌ ذَاتِي يَعِينُهُ فِي أُمُورِهِ وَ حَوَائِجِهِ، وَ يَرُدُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، بِأَنَّ الرِّسَالََةَ لَا تَرْتَبِطُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ، وَ إِنَّمَا هِيَ هِدَايَةٌ وَ نُورٌ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَا أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ الَّتِي يَهَبُ مِنْهَا لِمَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ خَزَائِنُ الْمَتَعَارِفِ لَدَيْنَا، بَلْ خَزَائِنُهُ الْأَرْضُ وَ الشَّمْسُ وَ الْمَعَادِنُ وَ مَا أَشْبَهَهُ، مِمَّا تَفِيضُ ثَرَوَهُ وَ مَالًا.

وَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ «إِنَّمَا خَزَائِنِي إِذَا أُرِدْتُ شَيْئًا أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»

«١».

وَ الْمُرَادُ بِ«عَدَمِ الْقَوْلِ» عَدَمُ الْوُجُودِ، فَهُوَ مِنَ السَّالِبَةِ بِاتْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ وَ لَا أَقُولُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ كَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، بَلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ بِمَا يُوحَى إِلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَ أُتِّبْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» (٢)، وَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (٣)، وَ لَا- أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ كَمَا أَنْتُمْ تَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مَلَكًا إِنْ أَتَّبَعُ أَى لَيْسَ لِي شَأْنٌ إِلَّا أَنْ أَتَّبِعُ، وَ «إِنْ» بِمَعْنَى «مَا» إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ وَ النِّوَاهِي لِأَجْلِ الْإِرْشَادِ وَ الْإِصْلَاحِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: إِنْ مِثْلَ الْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ كَمِثْلِ الْبَصِيرِ الَّذِي يَبْصُرُ الْأَشْيَاءَ

(١) بحار الأنوار: ج ٤ ص ١٣٥.

(٢) آل عمران: ٥٠.

(٣) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٥

[سورة الأنعام (٤): الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)

والأعمى الذى لا يبصر هل يشترى الأعمى والبصير؟ كلا، إن كل أحد يعلم بأنهما ليسا متساويين. ولعل تقديم الأعمى لأن الخطاب كان مع الكفار الذين هم بمنزلة الأعمى أفلا تتفكرون فى الأمر و أن مقام الرسالة لا يرتبط بما ذكرتم من الأشياء.

[٥٢] وَأَنْذِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِهِ أَى بِالْقُرْآنِ، فإنه قد تقدم ذكره بلفظ «ما يوحى إلى» الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ والخوف هنا ليس بمعنى الاحتمال، كقولك: «أخاف أن يهدم البناء»، بل بمعنى الخوف القطعى، فهو كقولك: «أخاف من الجراد» وهو يريد القتل. والمراد بـ «الذين يخافون» المعترفون بالبعث، وإنما قد أنذر هؤلاء مع أن الإنذار عام، لأن هؤلاء هم المنتفعون بالإنذار، أما من أعرض فلا ينتفع به لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ أَى من دون الله تعالى وَلِيٌّ يلى أمورهم هناك وَلَا شَفِيعٌ وليس المراد أن الله يشفع إذ لا معنى لشفاعته، بل المراد أن الشفاعة بيده، فلا يشفع أحد إلا بإذنه، كما قال سبحانه: لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى (١)، لَعَلَّهُمْ أَى هؤلاء الذين أنذرتهم يَتَّقُونَ معاصى الله، و يأترون بأوامره.

[٥٣] إن من يخاف الحساب، أنذره يا رسول الله ولا تطرده من عندك و إن طلب الأشراف ذلك ولا تطرد من مجلسك الَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) الأنبياء: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٦

[سورة الأنعام (٤): آية ٥٣]

وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أ هَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ أَى صباحا وَالْعَشِيِّ طرف العصر يُرِيدُونَ بالدعاء والضراعة وَجْهَهُ أَى ذاته سبحانه خالصا مخلصا. وقد ورد أنه مر ملا من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده صهيب و خباب و بلال و عمار و سلمان وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أ هؤلاء الذين من الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم تبعناك. فنزلت الآية.

و فى بعض التفاسير أنه طعن أولئك الأشراف فى سيرة هؤلاء الفقراء و أعمالهم، كى يدفعوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لإبعادهم عنه، فرد عليهم سبحانه بقوله: ما عَلَيْكَ أَى ليس عليك مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَأنت لا تتحمل تبعه سيرتهم و ما مِنْ حِسَابِكَ يا رسول الله عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لا يطالبون بحسابك، بل كل و عمله، فسيرتهم لو كانت كما يقولون لا تضرك فَتَطْرُدَهُمْ فَإِنَّ الشَّخْصَ إنما يطرد من تضره سيرته، أما من كان قلبه عامراً بالإيمان و صلواته دائمة طرفى النهار فإن فقره و سيرته لا يوجبان طرده— لو فرض أن فى سيرته ميل— فَتَكُونَ بسبب طردهم مِنَ الظَّالِمِينَ لهم، أو لنفسك، فإن الإنسان إذا ظلم غيره فقد ظلم نفسه أيضاً، و سيقته هذه الجملة مبالغة فى ردع من طلب طرد أولئك.

[٥٤] وَكَذَلِكَ أَي هَكَذَا فَتَنَّا أَي ابْتَلَيْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ حَيْث ابْتَلَيْنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٧

[سورة الأنعام (٦): آية ٥٤]

وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)

الأشراف و الفقراء ليقولوا أولئك الأشراف: أ هؤلاء أي هل هؤلاء الفقراء من الله عليهم من بيننا حتى عمهم النبي بلطفه، و جعلهم ندماء و موضع سره؟ نعم، ليس الإسلام ينظر للناس كما ينظر أهل الدنيا أ ليس الله بأعلم بالشاكرين أنهم شاكرون، و الشاكر أفضل من غيره عند الإسلام، و إن كان غيره في نظر الناس شريفاً، فإن الميزان عند الإسلام التقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم «١».

[٥٥] و الإسلام لا يسد الأبواب على العاصي، و إنما يفتح له باب التوبة.

و قد ورد أن جماعة جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظيماً، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا، فنزل قوله تعالى وَ إِذَا جَاءَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا أَي بدلائلنا و براهيننا فقل لهم: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَي أتم في سلام لا في عذاب و عقاب، يقبل عذرهم و يغفر ذنبكم كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَي أنه فرض على نفسه - حسب حكمته - أن يرحم العباد و يشملهم بلطفه و إحسانه أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ و المراد بالجهالة هنا ليس الجهل مقابل العلم، بل عدم المبالاة، و إنما سمي بذلك لأن العالم التارك

(١) الحجرات: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٥ إلى ٥٦]

وَ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ وَ لَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)

لعلمه هو و الجاهل سواء، و كأنه للجهل بالتناج و العواقب المرتبة على العمل، و إلا فالآية تشمل العمل، بل هو موردّها.

ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ أَي بعد العمل وَ أَصْلَحَ أَي عمل صالحاً فَأَنَّهُ أَي الله سبحانه غَفُورٌ لذنوبه رَحِيمٌ به. و كان الإتيان ب «رحيم» بعد «غفور» غالباً، لإفادة الفضل في لطفه و إحسانه.

[٥٦] وَ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ أَي كما سبق فنصل الأدلة و البراهين الدالة على التوحيد و سائر شؤون المبدأ و المعاد، و نشرحها و نبينها، حتى يتضح سبيل المهتدين وَ لَتَسْتَبِينَ أَي تظهر سبيل المجرمين المعاندين، فإن في بيان الحق و صوح الأمرين؛ سبيل المحق و سبيل المبطل. و لفظه «سبيل» مما يجوز التذكير و التأنيث، و لذا قال: «تستبين» بالتأنيث.

[٥٧] ثُمَّ أَمَرَ سَبْحَانَهُ رَسُولُهُ بِالْبَرَاءَةِ مِمَّا يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ بقوله: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يعنى الأصنام التي كانوا يعبدونها، و المراد ب «من دون الله» ما خلا عبادة الله، فإن النهي أعم من عبادة الأصنام وحدها أو بالاشتراك مع عبادة الله، فإن عبادة الأصنام إنما أتت من هوى النفس لا - من دليل عقلي أو منطقي قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهم: لا - أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ في عبادة الأصنام قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا إِذَا فعلت أنا ذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٧ إلى ٥٨]

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي

مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لِقَضَى الْأَمْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ لَوْ عَبَدتِ الْأَصْنَامَ.

[٥٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ: إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ أَى أَمْرٍ وَاضِحٍ بَيْنَ لَا غَمُوضَ فِيهِ مِنْ رَبِّي أَى أَنْ تَلِكِ الْبَيِّنَةُ أَتَتْنِي مِنْ جَانِبِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، لَا مِثْلَكُمْ أَتَبِعُ هَوَى النَّفْسِ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ أَى بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ الدَّلِيلِ وَ الْبَيِّنَةِ، وَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ - اسْتِهْزَاءً - أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ الَّذِي يَعْدَهُمْ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ «١»، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: مَا عِنْدِي أَى لَيْسَ بِاخْتِيَارِي وَ أَمْرِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ أَى الَّذِي تَطْلُبُونَ سُرْعَتَهُ إِنْ الْحُكْمُ أَى لَيْسَ الْحُكْمُ فِي بَابِ الْعَذَابِ إِلَّا لِلَّهِ فَهُوَ وَحْدَهُ يَقْضِي الْحَقَّ أَى بَيْنَهُ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ الَّذِي يَفْضِلُ الْأُمُورَ، فَإِذَا اقْتَضَتْ الْمَصْلَحَةُ أَتَاكُمْ بِالْعَذَابِ وَ يَفْضِلُ الْأَمْرَ وَ تَنْتَهَى الْمَشْكَلَةُ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنْ إِنْزَالَ الْعَذَابَ لَهُ مَقَائِسَ خَاصَةً، وَ أَوْقَاتَ مُحَدَّدَةً، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْعَذَابَ يَجَابُ فُورًا وَ إِنْ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِجْرَامًا.

[٥٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ سُرْعَةَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ عِنْدِي أَى بِأَمْرِي وَ إِرَادَتِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ

(١) الحج: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٠

[سورة الأنعام (٦): آية ٥٩]

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)

بِكُمْ لِقَضَى الْأَمْرِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِذْ أَهْلَكْتُمْ فَأَسْتَرِيحُ مِنْكُمْ، لَكِنْ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَشِيئَتِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ وَ بِمَقْتَضَى عَمَلِهِ يَقْدَمُ الْعَذَابُ تَارَةً وَ يُؤَخَّرُهُ أُخْرَى.

[٦٠] وَ حَيْثُ ذَكَرَ عِلْمَهُ سَبْحَانَهُ بِالظَّالِمِينَ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيَذْكَرَ الْكَافِرِينَ بِعِلْمِهِ سَبْحَانَهُ وَ قُدْرَتِهِ وَ أَعْمَالِهِ، فِي أَنْفُسِهِمْ وَ فِي الْآفَاقِ، إِنَّهَا أَقْوَى الْأَدْلَةُ عَلَى وَجُودِهِ وَ سَائِرُ صِفَاتِهِ الْكَلَامِيَّةِ، وَ هَلْ مِنْ حَاجَةٍ بَعْدَهَا إِلَى الْخَوَارِقِ الَّتِي كَانُوا يَقْتَرِحُونَهَا لِإِثْبَاتِ كَلَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ عِنْدَهُ أَى عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَفَاتِيحُ جَمْعُ «مَفْتَحٍ» بِمَعْنَى الْمَفْتَاخِ الْغَيْبِ أَى مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ وَ الْمَشَاعِرِ، فَكَأَنَّ الْغَيْبَ قَدْ سَدَّتْ أَبْوَابُهُ وَ أَقْفَلَتْ فَلَا يَتِمَكَّنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرَى مَا وَرَائِهَا، وَ لَيْسَ بِيَدِ أَحَدٍ مَفَاتِيحُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ لِيَفْتَحَهَا وَ يَرَى الْغَيْبَ، وَ إِنَّمَا هِيَ بِيَدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَحْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ كُلَّهُ وَ يَتِمَكَّنُ أَنْ يَفْتَحَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ: فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنْ أَرَضَى مِنْ رَسُولٍ «١»، لَا يَعْلَمُهَا أَى لَا يَدْرِي مَا هِيَ تِلْكَ الْمَفَاتِيحُ إِلَّا هُوَ أَى إِلَّا اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ حَيْثُ أَنْ كَشَفَ الْغَيْبَ يَحْتَاجُ إِلَى الْعِلْمِ بِالْكَشْفِ وَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْكَشْفِ، وَ كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ بَيَانِ عَمَلِهِ سَبْحَانَهُ، قَالَ سَبْحَانَهُ «لَا يَعْلَمُهَا» فَلَا يَقَالُ أَنْ الْأَنْسَابُ أَنْ يَقُولَ: «لَا - يَقْدَرُ عَلَيْهَا» لَا أَنْ يَقُولَ «لَا يَعْلَمُهَا». فَالْأَرْزَاقُ وَ الْأَجَالُ وَ مَا أَشْبَهَهُمَا، الَّتِي تَأْتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ

(١) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨١

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٠]

وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)

وَ الْبَحْرِ الْمُرَادُ بِالْبُرِّ: الْأَعْمُ مِنَ الْمَدِينِ، وَ الْبَحْرِ: الْأَعْمُ مِنَ الْأَنْهَارِ، بِقَرِينَتِهِ الْمَقَابِلَةُ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَ لَا

من حَبِّهِ كَامِنَةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ أَى جوفها، أو لا تسقط حبة في باطن الأرض مما تزرع أو غيره. وقد كان التقابل بين «ما تسقط من ورقة» وبين «و لا حبة» لطيفا جدا، حيث أن الأول حركة الحياة إلى الموت، و السقوط الثانى حركة الموت إلى الحياة و الارتفاع و لا من رطب و لا يابس من جميع الأشياء و الأصناف. و هذا و إن كان أخص من الموجودات، لأن من الأشياء ما لا يتصف برطوبة لا ببوسة كالعقل، إلما أن العموم يشمل الفحوى، و كثيرا ما يقال اللفظ الأخص و يراد الأعم حيث أن الأخص صار مثلا، كقوله: إن تَسِيغُفُو لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً «١»، فإن الأكثر داخل بالفحوى إلما فى كتاب مُبِينِ أَى إن جميع الأشياء محفوظة عند الله سبحانه فى كتاب واضح جلى، و هو اللوح المحفوظ، أو المراد بالكتاب علمه الشامل. و لعل التعبير بالكتاب لأجل بيان أنه محفوظ لا يزول، كما أن الكتاب كذلك.

[٦١] وَ هُوَ سَبْحَانَهُ كَمَا يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ كَذَلِكَ تَجْرَى الْأَشْيَاءُ بِقُدْرَتِهِ وَ إِرَادَتِهِ، فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِي قَبْضَتِهِ وَ طَوْعِ أَمْرِهِ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ بِاللَّيْلِ أَى يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ عَنِ التَّصَرُّفِ، وَ «التوفى» أخذ

(١) التوبة: ٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٢

[سورة الأنعام (٦): آية ٦١]

وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ (٦١)

الشيء كاملا و منه الوفاة، فإن الإنسان إذا نام أخذ الله روحه المتصرفه التى تبصر و تسمع و تذوق و تلمس و تشم، و هذه الآية كقوله سبحانه:

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا «١»، و إنما الفرق أن الموت توف بمعنى أتم من التوفى، بمعنى النوم و يعلم ما جرحتم أى ما كسبتم و فعلتم، أى عملتم بجوارحكم بالنهار و هذا التفصيل خارج مجرى الغالب، و إلا فهو يتوفى بالنهار لمن نام فيه، و يعلم ما جرح الإنسان بالليل لمن عمل فيه ثم بعد توفيكم بالليل يبعثكم أى يوقظكم و ينهكم من نومكم فيه أى فى النهار ليُقضى أى لينهى أجل مُسمى أى أمدكم الذى سماه سبحانه فى اللوح المحفوظ، يعنى أنه إنما يوقظكم فى النهار حتى لا يموت الإنسان قبل وقته ثم إليه مرجعكم بعد تمام المدة و انتهاء الأمد، ترجعون إليه سبحانه فى الآخرة، و المراد: إلى حسابه، و إلا فليس له سبحانه محل، فإنه منزّه عن الزمان و المكان ثم يُبثِّتكم أى يخبركم - بعد رجوعكم إليه - بما كنتم تعملون ليعطى كل ذى جزاء جزاءه، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر.

[٦٢] وَ هُوَ سَبْحَانَهُ الْقَاهِرُ أَى الْقَادِرُ الَّذِي يَقْهَرُ وَ يَجْبِرُ كَمَا يَشَاءُ فَوْقَ عِبَادِهِ أَى مُسْتَعْلٍ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ مِنْ يَتَصَرَّفُ فِي الْإِنْسَانِ يَكُونُ

(١) الزمر: ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٢]

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)

فوقه رتبة، و ليس المراد الفوقية الحقيقية، فإنه منزّه عن المكان و يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً جمع حافظ، و هم الملائكة الذين يبعثهم الله تعالى لحفظ الإنسان عن العطب، و حفظ أعماله فى دفاتر سجلات ليجزى كلّا حسب ما عمل حتى إذا جاء أحدكم الموت و صار وقت أن يموت تركه الحافظ له و أسلمه إلى حتفه توفته أى قبضت روحه كاملة رُسُلْنَا أى الملائكة المرسله لأجل هذه الغاية و هم لا يُفْرَطُونَ بأن يقدموا أخذ الروح أو يؤخروها، أو يشددوا فى النزاع أو يخففوا، بل يفعلون ما يؤمرون، و إنما أتى بلفظ «رسلنا» جمعا، لأن لملك الموت أعوانا، كما ثبت من السنة، و لعل فى قوله: الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ «١»، دلالة عليه.

[٦٣] ثُمَّ بَعْدَ مَا أَخَذَتِ الْمَلَائِكَةُ أَرْوَاحَهُمْ رُدُّوا أَى رَجَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى اللَّهِ أَى فِي الْمَكَانِ الْمَهِيأِ لَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ أَى سَيِّدِهِمْ بِالْحَقِيقَةِ، لَأ- مِثْلَ سَيَادَةِ الْأَصْنَامِ عَلَيْهِمْ أَلَا- فَلْيَنْتَبِهِ النَّاسُ أَنَّ اللَّهَ لَهُ وَحْدَهُ الْحُكْمُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ، حَتَّى قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ وَمَحَاسِبَتِهِمْ هُنَاكَ وَهُوَ أَشْرَعُ الْحَاسِبِينَ وَحَسَابُهُ سَرِيعٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ حِسَابُ الْمُحَاسِبِينَ مِنَ الْوَقْتِ وَنَحْوِهِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ بَطْءٌ فِي الْحِسَابِ حَتَّى يَكُونَ لِلْمَحَاسِبِ مَجَالٌ

(١) النساء: ٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٤

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٣ الى ٦٥]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)

واسع لكي يتم حسابه.

[٦٤] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ، دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَتِهِ سَبْحَانَهُ الْكَامِلَةُ:

مَنْ يُنَجِّيكُمْ وَيَخَلِّصُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أَى مِنْ شِدَائِدِهِمَا وَأَهْوَالِهِمَا، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلْيَوْمِ الشَّدِيدِ: «يَوْمٌ مُظْلَمٌ» تَشْبِيهَا، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَهْتَدِي طَرِيقَهُ فِي اللَّيْلِ وَالظُّلْمَةِ، كَذَلِكَ لَا يَهْتَدِي طَرِيقَهُ فِي الشَّدَائِدِ تَدْعُونَهُ أَى تَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الشَّدَةِ وَالظُّلْمَةِ تَضَرُّعًا ضِرَاعَهُ وَاسْتِكَانَةً بِلِسَانِكُمْ وَخُفْيَةً وَسِرًّا فِي نَفُوسِكُمْ، فَتَتَوَافَقُ الظُّوَاهِرُ وَالْبَوَاطِنُ فِي الضِّرَاعَةِ وَالْمَسْأَلَةِ لِكَيْ يَنْجِيَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، قَائِلِينَ: لَّئِنْ أَنْجَانَا رَبَّنَا مِنْ هَذِهِ الشَّدَةِ وَالْكَارِثَةِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ نِعْمَاتِهِ عَلَيْهِمْ مُعْتَرِفِينَ بِهِ وَبِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ.

[٦٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ: اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا أَى مِنْ هَذِهِ الشَّدَةِ وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ أَى يَخَلِّصُكُمْ مِنْ كُلِّ غَمٍّ وَهَمٍّ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى شِرْكِكُمْ وَعَصِيَانِكُمْ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ «١».

[٦٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ: اللَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى

(١) العنكبوت: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٥

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٦]

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦)

أَنْ يُبْعَثَ أَى يَرْسَلُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ كَالصَّوَاقِقِ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ كَالْخَسْفِ أَوْ يَلْبَسَكُمْ مِنْ «لِبَسِ عَلَيْهِ الْأَمْرُ» إِذَا خَلَطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ أَى يَخْلُطُكُمْ شَيْعًا جَمْعَ «شَيْعَةٍ» أَى فِرْقًا، مُخْتَلِفِي الْأَهْوَاءِ لَا تَكُونُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً، بَلْ أَحْزَابًا وَأَهْوَاءَ وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فِي عِدَاءٍ مُسْتَمِرٍّ وَحُرُوبٍ دَائِمَةٍ، وَإِنَّمَا يَنْسَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ يَكْلَهُمْ إِلَى أَمْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَعْرَضُوا عَنْ طَرِيقِهِ، وَتَرَكَوا مِنْهَا جِهَةً أَنْظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَالْمُرَادُ بِالنَّظَرِ التَّأَمُّلُ وَالتَّفَكُّرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ نَرْدُدُ الدَّلَائِلَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَنَكْرُهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ أَى يَفْهَمُوا الْحَقَّ، وَيَدْعُونَا لِلْخَالِقِ وَيَتَجَنَّبُوا الْكُفْرَ وَالْبَاطِلَ.

[٦٧] وَكَذَّبَ بِهِ أَى بِمَا نَصَرَّفُ مِنَ الْآيَاتِ قَوْمِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ إِمَّا قَرِيشَ، وَإِمَّا الْعَرَبَ، وَإِمَّا النَّاسَ الْمَبْعُوثَ إِلَيْهِمْ بِصُورَةٍ عَامَةٍ، وَالْمُرَادُ بِالتَّكْذِيبِ: تَكْذِيبُ أَغْلِبِهِمْ لَأ- جَمِيعَهُمْ، لَوْضُوحِ إِيمَانِ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ مِنَ الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ

آله و سلم حين نزول الآية وَ هُوَ الْحَقُّ أَي ما نصرفه من الآيات حق لا مريه فيه قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار: لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أَي موكل إلى أمركم حتى يضرني تكذيبكم، بل أنا مبلغ، وقد بلغت ما أمرت بتبليغه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٦

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسَدِّتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)

[٦٨] ثم بين سبحانه أن ما أخبر به الرسول من وعيد المكذبين بشر الدنيا والآخرة لا بد وأن يظهر، وهناك يعلم المكذبون أنهم خسروا، وأن تكذيبهم عاد بالوبال عليهم لكل نبي أي لكل خبر مُسَدِّتَقَرٌّ أي محل استقرار يظهر هناك صدقه، فما كان في الدنيا يظهر أثره في الدنيا وما كان في الآخرة يظهر أثره في الآخرة وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ أيها المكذبون عاقبه أمركم.

[٦٩] إن أول حركة لا- بد وأن يختلط المؤمنون بها و المناوئون لها، و لا بد وأن يكون ضعاف النفوس من المؤمنين يكتسبون من المعاندين بعض الأفكار المعادية، و لا- أقل من أن يجنبوا عن الاستمرار و التظاهر، و لذا فمن اللازم أن يجنب القادة أتباعهم عن الاختلاط خصوصاً حالة التهجم من المعاندين و إذا رَأَيْتَ يا رسول الله الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا حَوْضِ الْمُنَاقَشَةِ و الاستهزاء، و الخطاب و إن كان موجهاً إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إلا- أنه عام لجميع المسلمين فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أَي فاتركهم و لا تجالسهم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ أَي غير ما خاضوا فيه أولاً، بأن يتكلموا في سائر المواضيع فلا بأس حينئذ من مجالستهم و التكلم معهم وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ بَأَن نَسَى الْمُسْلِمَ وَ جَلَسَ مَعَ الْخَائِضِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَ الْجُمْلَةُ شَرْطِيَّةٌ، أَي: و إن أنساك، و «ما» زائدة، و من المعلوم أن الشرط لا ينافي العصمة، فإن الجملة الشرطية تأتي حتى مع استحالة طرفيها نحو:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٧

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٩]

وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَ لِمَدِّ قَاتِنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «١»، فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى أَي بعد التذكرة، لكون مجالستهم محرمة منهي عنها مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا.

[٧٠] وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَي هل على المؤمنين المتقين مِنْ حِسَابِهِمْ أَي حساب الكفار الخائضين في آيات الله مِنْ شَيْءٍ؟

فإنهم ليسوا بمسؤولين عن خوضهم في الآيات وَ لَكِنْ قيامهم عن المجالس إذا خاضوا ذكراً أي تذكرة للخائضين بأنهم يعملون عملاً سيئاً، و إنما قال «ذكراً» لأن الخائض يعلم سوء فعله في قرارة نفسه، لكنه يغفل غالباً حين الخوض، فأمر المسلم أن يقوم من مجلسه ليتذكر لَعَلَّهُمْ أَي لكي ينتهي الخائضون وَ يَتَّقُونَ وَ يتورعون عن الخوض.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لما نزلت «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» قال المسلمون: كيف نضع إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا و تركناهم فلا ندخل المسجد الحرام و لا نطوف بالبيت الحرام؟ فأُنزل الله سبحانه: «وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أمرهم بتذكيرهم و تبصيرهم ما استطاعوا «٢».

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١٢ ص ٣١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٨

[سورة الأنعام (٦): آية ٧٠]

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

[٧١] وَذَرِ أَيَّ اتْرَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا الْمُرَادُ مِنْ «دِينِهِمْ»: الَّذِي يَتَدِينُونَ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَالْمَسِيحِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَ مَا أَشْبَهَهُ، وَالْمُرَادُ بِاتَّخَاذِهِمْ لَعِبًا وَلَهْوًا: أَنَّهُمْ كَالْأَطْفَالِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ آلَةَ اللَّعْبِ وَاللَّهْوِ فَلَا عِلَاقَةَ لَهُمْ بِهَا إِلَّا عِلَاقَةُ التَّلَاعِبِ، لِأَنَّهُ دِينٌ وَصَلَ إِلَى أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ وَأَخَذَ يُوَجِّهُ حَيَاتِهِمْ، وَأَمَّا دِينُهُمْ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَدِينُوا بِهِ - أَيْ الْإِسْلَامَ - وَنَسَبَتَهُ إِلَيْهِمْ لِأَجْلِ وَجُوبِ اتَّخَاذِهِ دِينًا، وَاتَّخَاذِهِمْ لَعِبًا وَلَهْوًا اسْتَهْزَأُوا بِهِ كَأَنَّهُ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا زَاعِمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَائِهَا شَيْءٌ، وَشَغَلَتْهُمُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ وَذَكَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ بِهِ أَيَّ بِالَّذِينَ أَنْ تَبَسَّلَ مِنْ «بَسَلٍ» بِمَعْنَى اسْتَسْلَمَ، أَيَّ لَكِي لَا تَسْلَمُ نَفْسٌ لِلْهَلَكَةِ بِمَا كَسَبَتْ أَيَّ بِسَبَبِ عَمَلِهَا، فَإِنَّكَ إِنْ ذَكَرْتَ لَعَلَّهَا تَعُودُ إِلَى الرَّشْدِ وَتَنْقُذُ مِنَ الْهَلَكَةِ حَيْثُ لَيْسَ لَهَا أَيُّ لِلنَّفْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيَّ غَيْرِ اللَّهِ وَلِيٌّ نَاصِرٌ يَنْصُرُهَا وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهَا، فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا أَيَّ تَفَدَى بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ جَعَلَهُ فِدْيَةً، لِتَنْقُذَ نَفْسَهَا مِنَ الْعَذَابِ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا إِذْ لَيْسَ الْمِيزَانُ هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَحْدَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا هُمُ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا أَيَّ أَهْلَكُوا «ب» سَبَبٌ «مَا كَسَبُوا» مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ لَهُمْ شَرَابٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٩

[سورة الأنعام (٦): آية ٧١]

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعِيدٍ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا يُسَلِّمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)

مِنْ حَمِيمٍ أَيَّ: الْمَاءِ الَّذِي يَشْرَبُونَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَمِيمٍ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْمَاءُ الْمَغْلَى الْحَارُّ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ أَيَّ مَوْلَمٌ مَوْجِعٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ أَيَّ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ.

[٧٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا أَيَّ هَلْ نَدْعُو الْأَصْنَامَ الَّتِي لَا تَنْفَعُنَا إِنْ عِبَدْنَاهَا وَلَا يَضُرُّنَا إِنْ تَرَكْنَا عِبَادَتَهَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا أَيَّ نَرْجِعُ الْقَهْقَرَى، فَإِنَّ مِنْ أَتَى إِلَى مَكَانٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَحَلِّهِ الْأَوَّلِ كَانَ خَاسِرًا، وَ«الْأَعْقَابُ» جَمْعُ «عَقَبٍ» بَعِيدٌ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ إِلَى دِينِهِ وَصِرَاطِهِ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ أَيَّ اسْتَعْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ أَيَّ الْغِيْلَانِ فِي الْأَرْضِ أَيَّ الْبَيْدَاءِ، بِأَنَّ أَخْرَجَتْهُ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْجَادَةِ إِلَى الْمَهْلَكَةِ حَيْرَانَ لَا يَدْرِي أَيَّ يَتَّبِعُ أَصْحَابَهُ أَمْ يَتَّبِعُ الشَّيَاطِينُ لَهُ أَيَّ لِهَذَا الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَى إِلَى الْجَادَةِ، وَأَنْ لَا يَتَّبِعُ الشَّيَاطِينُ، قَائِلِينَ لَهُ:

إِثْنًا أَيَّ جِنًّا وَكُنْ مَعْنَى. فَإِنَّ قَسْمًا مِنَ الْغُولِ - وَهُمُ سَحْرَةُ الْجِنِّ - يَكُونُونَ فِي الصَّحْرَاءِ، يُؤْذُونَ بَعْضَ الْمَارَّةِ، فَإِذَا رَأَى الشَّخْصَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ يَسْتَهْوُونَهُ قَائِلِينَ لَهُ: مِنْ هُنَا الْجَادَةُ - وَيدُلُّونَهُ إِلَى الْمَفَاوِزِ الْمَهْلَكَةِ - فَهُوَ يَتَحَيَّرُ بَيْنَ أَنْ يَسِيرَ مَعَ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَصْبِغُ نَفْسَهَا بِصَبْغَةِ أَدْلَاءِ الطَّرِيقِ وَ أَنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

غَيْرِهِ، أَمْ يَسِيرُ مَعَ رِفَاقِهِ الَّذِينَ خَرَجَ مَعَهُمْ، حَيْثُ أَنَّهُمْ رِفَاقُهُ، لَكِنَّهُمْ - بِزَعْمِهِ - يَمْشُونَ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ وَيَصِيْبُهُمُ الْعَطْبُ أَخِيرًا. وَ هُنَاكَ قَسَمَ مِنَ النَّاسِ يَنْكُرُونَ الْجِنَّ وَالْغُولَ وَالشَّيْطَانَ، لَكِنَّهُ مِنْ ضَيْقِ الْأَفْقِ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ الْقَدِيمَ وَالْحَدِيثَ أَيْدَا الدِّينِ وَالْقِصَصَ الْمُؤَكَّدَةَ لَوْجُودِ ذَلِكَ «١».

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى الَّذِي يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَ يَتْرَكَ غَيْرَهُ وَ أَمْرُنَا أَى أَمْرُنَا اللَّهُ وَ أَرْشَدُنَا الْعَقْلَ لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِي جَمِيعِ شُؤُنَانَا.

[٧٣] وَ أَمْرُنَا أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ أَى بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، فَإِنْ حَذَفَ حَرْفَ الْجَرِّ، مَعَ أَنْ «وَ أَنْ» مَطْرَدٌ شَائِعٌ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

وَ الْخَوْفُ مَعَ أَنْ وَ إِنْ يَطْرُدُ مَعَ أَمْنٍ لِبَسِّ كَعَجَبْتَ أَنْ يَدُو

وَ اتَّقَوْهُ أَى احذروا عقاب الله تعالى وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أَى تَجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَحَاسِبَكُمْ عَلَى مَا عَمَلْتُمْ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرِّ.

[٧٤] وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْمَرَادُ بِالسَّمَاوَاتِ: إِمَّا الْأَجْرَامَ هُنَاكَ، أَوِ الْمَدَارَاتِ لِلْكَوَاكِبِ بِالْحَقِّ أَى لَيْسَ بِالْبَاطِلِ فَإِنْ

(١) أَنْظَرَ كِتَابَ «عَلَى حَافَةِ الْعَالَمِ الْإِثِيرِي» لِفَرِيدِ وَجَدِي، مَادَّةُ «اسْبِرْتَرَم».

تَقْرِيبُ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ٩١

مِنْ يَصْنَعُ شَيْئًا قَدْ يَصْنَعُهُ عِبْنَا وَ بَاطِلًا وَ قَدْ يَصْنَعُهُ لِغَايَةٍ وَ حِكْمَةٍ، فَمَعْنَى بِالْحَقِّ: أَنْ الْخَلْقَ لَيْسَ عِبْنَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ «١»، وَ يَوْمٌ يَقُولُ سُبْحَانَهُ لَشَيْءٍ كُنُّ وَ أَخْرَجَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ فَيَكُونُ وَ يَوْجَدُ قَوْلُهُ الْحَقُّ الظَّاهِرُ أَنَّهُ الْعَامِلُ فِي «يَوْمٍ» أَى أَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى يَكُونُ وَ يَتَحَقَّقُ فِي أَى يَوْمٍ قَالَ لَشَيْءٍ «كُنَّ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَهُ بِالْحَقِّ، وَ قَوْلُهُ حَقٌّ، أَى مُتَحَقِّقٌ ثَابِتٌ لَا خَلْفَ فِيهِ، وَ لَيْسَ كَأَقْوَالٍ مِنْ تَذَهَبُ أَقْوَالُهُ بَاطِلَةٌ.

وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ الصُّورُ هُوَ الْآلَةُ الَّتِي يَنْفَخُ فِيهَا لِأَجْلِ هَلَاكِ النَّاسِ جَمِيعًا، وَ هُوَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، أَوْ لِأَجْلِ أَحْيَائِهِمْ جَمِيعًا، وَ هُوَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، يَعْنِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَلِكُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَا يَوْجَدُ مَلِكٌ غَيْرُهُ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَ الْفُقَرَاتُ الثَّلَاثَةُ فِي الْآيَةِ لِبَيَانِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ، الْخَلْقُ لِلْأَشْيَاءِ، وَ التَّصَرُّفُ فِي الْكُونِ بِمَا يَشَاءُ اللَّهُ، وَ كَوْنُ الْمَعَادِلَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ أَى يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ، لِعَدَمِ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِ لَهُ، أَوْ لِكُونِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْلَةِ وَ الشَّهَادَةِ أَى مَا يَشَاهِدُهُ النَّاسُ، وَ أَتَى بِهَذِهِ الْجُمْلَةَ هُنَا، لِتَنَاسُقِ الْعِلْمِ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَ هُوَ الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ الْخَيْرِ بِالْأَشْيَاءِ، فَلَا يَعْمَلُ شَيْئًا عِبْتَابًا وَ عِبْنَا

(١) آل عمران: ١٩٢.

تَقْرِيبُ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ٩٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥)

[٧٥] وَ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ الْأَدْلَةَ حَوْلَ التَّوْحِيدِ، أَتَى بِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، لِيُمَثِّلَ الْأَدْلَةَ فِي قِصَّةِ حَوَارِيَّةِ جَذَابَةٍ وَ أَذَكَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ وَ الْمَرَادُ بِالْأَبِ هُنَا الْعَمُّ، كَمَا وَرَدَ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِي الْعَمَّ أَبًا، كَمَا تَسْمِي الْخَالَهَ أَمَا،

وَ قَدْ وَرَدَ فِي زِيَارَةِ الشَّهِيدِ عَلَى الْأَكْبَرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَنَ الْحَسَنِ وَ الْحُسَيْنِ»

أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِنكَارِ وَ التَّوْبِيخِ، أَى كَيْفَ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَ تَجْعَلُهَا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ إِنِّي أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَى وَاضِحٍ، فَإِنَّ الْإِلَهَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا رَازِقًا فَكَيْفَ تَكُونُ الْأَصْنَامُ آلِهَةً؟

[٧٦] وَ كَذَلِكَ أَى بِمِثْلِ هَذِهِ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ الَّتِي رَأَى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَطْلَانَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى آثَارَ الْمَلِكِ الْمَوْجُودَةَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مِنَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ النُّجُومِ وَ الْجِبَالِ وَ الْبَحَارِ وَ الْأَشْجَارِ وَ الدُّوَابِّ وَ غَيْرِهَا، مِمَّا تَدُلُّ كُلُّهَا عَلَى وَجُودِ إِلَهٍ حَكِيمٍ عَلِيمٍ خَالِقٍ قَادِرٍ، وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْإِرَاءَةَ إِلَى نَفْسِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي فَتَقَّ بِصِيرَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

للتأمل في الآيات الكونية. وفي الأحاديث أنه عليه السلام كان يرى أغوار الأرض و آفاق السماء فقد كشف عن عينه الحجاب و كان يرى ما لا يدركه البصر الإنساني.

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ أَي الْمُتَقِينِينَ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْخَالِقُ وَالْإِلَهَ، أَرِيْنَاهُ الْمَلَكُوتَ، فَجَمَلُهُ «وَلِيَكُونَ .. إلخ» مستأنفة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٦ إلى ٧٨]

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُنَبِّئَنَّكُمْ بِمَا لَهُمْ بَلَاءٌ وَلَكِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِمَا كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)

[٧٧] إن إبراهيم عليه السلام اصطدم بأصناف ثلاثة يعبدون من دون الله الكواكب، فكان بعضهم يعبدون «الزهرة» و بعضهم يعبد «القمر» و بعضهم يعبد «الشمس» فأراد الاحتجاج عليهم فلما جن عليه الليل رأى الزهرة فقال لعبادها مستنكرا: هل هذا ربي؟ ثم رد عليهم بأنه آفل ذاهب متحرك، و هذا من شأن المخلوق لا الخالق فإن الخالق لا يتغير و لا يتحرك، و بعد ما طلع القمر، قال لعباده على وجه الاستنكار: هل هذا ربي؟ ثم أبطل ألوهيته بما سبق و بين أن إلهه هو الله وحده لا شريك له.

فَلَمَّا جَنَّ أَي أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَ سَتَرَ بِظِلَامِهِ كُلَّ شَيْءٍ رَأَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَوْكَبًا وَ جَمَاعَةً يَعْبُدُونَهُ قَالَ مُسْتَنْكِرًا عَلَيْهِمْ: هَلْ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ وَ غَرَبَ النِّجْمُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ أَي لَا أَحِبُّ أَنْ أُتَّخَذَ الشَّيْءَ الَّذِي يَغْرُبُ إِلَهًا.

[٧٨] فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقَمَرَ بَازِغًا أَي طَالِعًا مُنِيرًا وَ جَمَاعَةً يَعْبُدُونَهُ قَالَ مُسْتَنْكِرًا عَلَيْهِمْ: هَلْ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ وَ غَرَبَ الْقَمَرَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْرِيفِ بِأَوْلِيَّتِكَ لِئِنَّ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الَّذِينَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَ اتَّخَذُوا آلِهَةً بَاطِلَةً.

[٧٩] فَلَمَّا أَصْبَحَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً طَالِعَةً وَ جَمَاعَةً يَعْبُدُونَهَا قَالَ مُسْتَنْكِرًا عَلَيْهِمْ طَاعِنًا فِي حُجَّتِهِمْ: هَلْ هَذَا رَبِّي هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٤

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٩ إلى ٨٠]

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) أَكْبَرُ؟ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَدْلُونَ بِكِبَرِهَا عَلَى أَنَّهَا الرَّبُّ دُونَ سِوَاهَا فَلَمَّا أَفَلَتْ الشَّمْسُ وَ غَرِبَتْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا قَوْمِ الْعِبَادِ لغير الله تعالى إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ أَي مَا تَجْعَلُونَهُ مِنَ الْكُوكَبِ شَرِيكًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٨٠] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ وَ الْمَرَادُ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ، لَكِنْ حَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَمَا يَخْلُصُ لِشَيْءٍ وَ يَرِيدُ اسْتِقْبَالَه، يُوَجِّهُ وَجْهَهُ إِلَيْه، وَ اسْتَعْمَلَ الْوَجْهَ فِي الذَّاتِ مَجَازًا لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَي خَلَقَهَا وَ أَوْجَدَهَا حَنِيفًا أَي مَائِلًا عَنِ الشَّرْكِ إِلَى الْإِحْلَاصِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ.

[٨١] و لما جادل إبراهيم حول الأصنام و الكواكب التي يعبدها قومه، فشى أمره فجاء إليه الناس يحاجونه و حاجه قومه أي خاصموه و جادلوه في باب الألوهية قال إبراهيم أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ أَي تَجَادَلُونِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَ قَدْ هَدَانِ إِلَى الْحَقِّ بِلُطْفِهِ وَ إِحْسَانِهِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ أَي لَا أَخَافُ مِنْ آلِهَتِكُمْ أَنْ يَسْبِيوا لِي ضُررًا، فَإِنَّه لَيْسَ الصَّنَمُ وَ النِّجْمُ يَضُرُّانِ الْإِنْسَانَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا أَي ضُررًا بِي، وَ الْاسْتِثْنَاءُ مَنْقُطِعٌ، وَ قَدْ مَرَّ سَابِقًا أَنَّ هَذِهِ الْاسْتِثْنَاءَاتُ إِنَّمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨١ الى ٨٢]

وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)

هى لأجل إفادة تمام الطلب بعد جعل المستثنى منه الإطلاق، فالأصل مثلا، ولا أخاف ضررا إلا من الله سبحانه.

ولست أعلم ما يشاء ربي من ضررى أو نفعى بل وسع ربي كل شئ علما أى سبحانه المحيط بالأشياء بعلمه الواسع و اطلاعه الشامل
أفلا تتدكرون أيها المشركون و تتدبرون لتعرفوا أن الأمر كما قلت لكم.

[٨٢] وَ كَيْفَ أَخَافُ أَنَا الْمَعْتَقِدُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ الضَّرَرُ مِنْ قَبْلِ مَا أَشْرَكْتُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالنُّجُومِ وَ هِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الضَّرَرِ وَالنَّفْعِ وَ
الحال أنكم لا تخافون أنكم أشركتم بالله الذى بيده كل ضرر و نفع ما لم ينزل به عليكم سلطانا أى جعلتم النجوم و الأصنام شركاء
لله و التى لم يدل دليل من قبل الله سبحانه على صحتها، فإن «ما» موصولة مصداقها «الأصنام و النجوم» فأى الفريقين نحن و أنتم أحق
بالأمن بأن لا يخاف الضرر إن كنتم تعلمون أى تستعملون عقولكم و علومكم فتميزون الحق من الباطل؟

[٨٣] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ مِنْ لَهُ الْأَمْنُ بِقَوْلِهِ: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَ لَمْ يَلْبِسُوا أَى لَمْ يَخْلُطُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ بِأَنْ لَمْ يَشْرِكُوا فَإِنَّ الشَّرْكَ
ظلم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٦

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ
نُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)

كما قال سبحانه: لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «١» أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ فإِنَّهم لا يخافون عقاب الآخرة، و لا ضرر الدنيا بلا
عوض وَ هُمْ مُهْتَدُونَ أى مهديون إلى الحق. و هذه الآية و إن كان موردها قصة إبراهيم عليه السلام و الإيمان و الشرك إلا أنها عامة
تشمل كل إيمان لم يلبس بظلم، و لذا ورد فى مصداقها الولاية لأهل البيت عليهم السلام «٢».

[٨٤] وَ تِلْكَ الْحُجَّةُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَا سَبَقَ حُجَّتُنَا أَى الْأَدْلَةُ الَّتِي آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ أَعْطَيْنَاهَا لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
و لِقْنَاهُ إِيَّاهَا عَلَى قَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ إِبْرَادِهَا عَلَيْهِمْ وَ أَنْ يَغْلِبَهُمْ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ كَمَا رَفَعْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
دَرَجَاتٍ حَيْثُ كَانَ مُؤْمِنًا مُوَحَّدًا مُجَاهِدًا إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فبحسب حكمته البالغه يرفع الدرجات، و بحسب علمه الشامل يعلم
الأشياء.

[٨٥] وَ وَهَبْنَا لَهُ أَى لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ إِسْحَاقَ هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ سَارَةَ، وَ يَعْقُوبَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ لَمْ
يَذْكَرْ إِسْمَاعِيلَ وَ هُوَ ابْنُهُ مِنْ هَاجِرٍ لِإِرَادَةِ ذِكْرِهِ مُسْتَقِلًا حَتَّى يَظْهَرَ لَهُ مِنَ الشَّأْنِ مَا لَا يَظْهَرُ لَوْ أُدْرَجَ فِي جَمَلَةِ «وَهَبْنَا» وَ قَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ
الشجرة النبوية من إبراهيم عليه السلام و من نوح عليه السلام فلا يفوت ذكره حيث يذكرون

(١) لقمان: ١٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٦ ص ١١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِيَّاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)
كُلًّا مِنَ الثَّلَاثَةِ هَدَيْنَا إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ نُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ هُوَ لَمْ يَلْبَسْ ظُلْمًا وَ لَمْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ وَ هُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوْحٍ

عليه السلام أو المراد كلا منهما، فإنه يجوز ذلك بإرجاع الضمير إلى كل واحد، كما قال سبحانه: فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٗ «١» داودَ وَسُلَيْمَانَ وَهُوَ ابْنُ دَاوُدَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ابْنَ يَعْقُوبَ بَنِي إِسْحَاقَ بَنِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى بَنِي عِمْرَانَ وَهَارُونَ أَخُو مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَذَلِكَ أَى هَكَذَا يجعل النبوة في ذريته، تكريماً له نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَحْسِنُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَا نَكْرِمُهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُونَ.

[٨٦] وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ابْنِ زَكَرِيَّا وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ أَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الَّذِينَ أَصْلَحُوا.
[٨٧] وَإِسْمَاعِيلَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَدُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَرَادَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ صَادِقُ الْوَعْدِ الَّذِي أَشِيرَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ «٢»، وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ ابْنَ مَتَّى صَاحِبَ الْحَوْتِ وَلُوطًا وَالكَلَامَ فِي «اللام» فِي «اليسع»،

(١) البقرة: ٢٤٠.

(٢) مريم: ٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٧ إلى ٨٨]

وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)

و المنصرف و غير المنصرف من الأسماء مرتبط بالمفصلات و كلاً أَى كل واحد منهم فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ أَى عالم زمانهم، فَإِن كل نبي كان أفضل من جميع الناس، باستثناء النبي الذي في عهده، فلوط كان في عهد إبراهيم و لم يكن أفضل منه.
[٨٨] وَكَذَلِكَ فَضَّلْنَا جَمَاعَةً مِنْ آبَائِهِمْ أَى من آباء هؤلاء الأنبياء وَذُرِّيَّاتِهِمْ أَى أولاد هؤلاء الأنبياء وَإِخْوَانِهِمْ أَى إخوان هؤلاء الأنبياء وَاجْتَبَيْنَاهُمْ أَى اصطفيناهم و اخترناهم للرسالة وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَ ذَلِكَ لَا يَلْزَمُ سَبْقَ الضَّلَالَةِ، كَمَا لَا يَخْفَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ الْعَقِيدَةُ وَالسُّلُوكُ وَالْقَوْلُ.

[٨٩] ذَلِكَ الْهُدَى الَّذِي هَدَيْنَا بِهِ الْأَنْبِيَاءَ هُدَى اللَّهِ وَ إِرْشَادَهُ الَّذِي يَأْتِي بِأَكْمَلِ السَّعَادَةِ وَ أَوْفَرَ الْخَيْرِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ المراد إما الهدى الخالص، و من المعلوم أنه لا يلزم في الحكمة بالنسبة إلى كل أحد، و إما الهدى العام و ذلك و إن لزم بالنسبة إلى كل أحد لكن المراد هنا الإيصال إلى المطلوب لا إراءة الطريق، أو يقال: إن الذي دلّ عليه الدليل أن العقاب لا يجوز بلا بيان، أما الهداية فلا دليل عقلي على إيجابها بالنسبة إلى كل أحد، نعم في لزوم خروج الخلق عن العبث يلزم الإرشاد في الجملة و لَوْ أَشْرَكُوا أَى لو أشرك هؤلاء الأنبياء لَحَبِطَ أَى لبطل عَنْهُمْ فَإِن الحبط لما أشرب معنى الزوال و الذهاب عدى ب «عن»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٩ إلى ٩٠]

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

ما كانوا يَعْمَلُونَ من الأعمال السابقة على الشرك. ثم إن الآية في مقام بيان أن الشرك موجب لحبط الأعمال مهما كانت سوابق الشرك، إذ من المعلوم الضروري عدم شرك الأنبياء، فإن الشرط يأتي حتى في مستحيل الطرفين، كقوله: قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «١»، و من هذا القبيل أيضا قوله: لئن أشركت ليحبطن عملك «٢».

[٩٠] أُولَئِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هُم الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ أَى أعطيناهم الْكِتَابَ المراد به الجنس وَ الْحُكْمَ أَى منصب

الحكم بين الناس، فإن هذا المنصب ليس إلّا لله و لمن أعطاه إياه وَ النَّبُوءَ حَيْثُ كَانُوا أَنْبِيَاءَ، وَ ذَكَرَ النَّبُوءَ بَعْدَ الْكِتَابِ، لِدَفْعِ تَوْهَمِ أَنْ يُعْطَى الْكِتَابَ لَيْسَ مِنْ قِبَلِ إِعْطَاءِ الْكِتَابِ لِلْإِسْمِ، كَقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ «٣»، فَإِنْ يَكْفُرُ بِهَا أَى بِالْكِتَابِ وَ الْحُكْمِ وَ النَّبُوءِ هُوَ لِأَيِّ الْكُفَّارِ الَّذِينَ جَحَدُوا بِنُبُوتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا أَى بِالْإِيمَانِ بِهَا، وَ الْمُرَادُ إِكْثَارُ أَمْرِ دَعَايَةِ النَّبُوءِ وَ الْإِيمَانِ بِهَا، وَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهَا، كَالْوَكِيلِ الَّذِي يِرَاعَى أُمُورَ الْمُوَكَّلِ قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ فَهَمَّ يَقُومُونَ بِوَجِبِ أَمْرِ النَّبُوءِ خَيْرَ قِيَامٍ.

[٩١] أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذِينَ سَبَقَ ذَكَرَهُمُ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ أَى

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) الزمر: ٦٦.

(٣) البقرة: ٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٠

[سورة الأنعام (٦): آية ٩١]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ١٤٩

وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأَيْسَ تُبَدُونَهَا وَ تَخْفُونَ كَثِيرًا وَ عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

هداهم الله، و التكرار هنا مقدمة لقوله سبحانه فبهدهمهم يا رسول الله اقتده في أسلوب الدعوة و الصبر على الأذى و الاهتمام بالأمر، و هذا كتسليية للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و إشارة إلى أن الأنبياء السابقين ابتلوا بما ابتلى به، بالإضافة إلى أن الاقتداء بهم في هدى الله سبحانه، لا- فيما هو من عند أنفسهم، حتى يقال: كيف يؤمن النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالاقتداء بمن هو دونه في الفضيلة.

إنه قيام بالوظيفة لأمر الله سبحانه و لحسابه الخاص، فالأجر منه وحده قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ تَبْلَغُهُمْ: لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا أَى لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَ أَدَاءِ الْوَحْيِ ثَمْنَا وَ أَجْرَهُ إِنْ هُوَ أَى مَا تَبْلِيغِ الْوَحْيِ إِلَّا ذِكْرِي أَى تَذْكِيرًا لِلْعَالَمِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي زَمَانِي وَ بَعْدَ زَمَانِي. وَ كَوْنُهُ تَذْكِيرًا بِاعْتِبَارِ مَا أُوْدِعَ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْفِطْرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ سَبْحَانَهُ.

و هنا سؤال: كيف يمكن الجمع بين هذه الآيه و بين قوله: لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى «١».

و الجواب: إن إطلاق الأجر على المودة مجاز، و قد كان إرجاع الناس إليهم لصالح الناس، حيث إنهم الهداة المصلحون.

[٩٢] و حيث ذكر سبحانه أنه أعطى الأنبياء الكتاب، ردّ على من زعم أنه سبحانه لم ينزل كتابا.

فقد ورد أن حبرا من أحبار اليهود جاء إلى

(١) الشورى: ٢٤. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠١

النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال له النبي: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله سبحانه يبغض الحبر السمين- و كان اليهودى سمينا- فغضب و قال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه: ويحك و لا موسى؟ فأنزل الله هذه الآية

«١» وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أَى مَا عَظَمُوهُ سَبْحَانَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ إِذْ نَسَبُوا إِلَيْهِ الْكُذْبَ فِ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ أَى لَمْ يَنْزِلْ عَلَيَّ رَسُولٌ كَتَابًا مِنَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ الْيَهُودِي. إِنْ مَعْنَى عَدَمِ إِرْسَالِ الرِّسَالِ، وَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ عِبَاً وَ اعْتِبَاً. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ نَسْبَةَ الْعَبَثِ إِلَى شَخْصٍ عَادِيٍّ مُوجِبٌ لِإِهَانَتِهِ وَ عَدَمِ تَقْدِيرِهِ، فَكَيْفَ بِاللَّهِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ؟! قُلْ يَا رَسُولَ

الله لإبطال كلامهم ف مَنْ أُنزِلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَيْسَتِ التَّوْرَةُ مِنْ أَنْزَالِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ إِنَّمَا ذَكَرَهَا لِكَوْنِ طَرَفِ الْكَلَامِ يَهُودِيًّا نُورًا وَ هُدًى أَى فِي حَالِ كَوْنِ كِتَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ نُورَ يَهْدِي النَّاسَ إِلَى مَنَهِجِ الْحَيَاةِ الصَّحِيحَةِ، وَ هِدَايَةً لِلنَّاسِ إِلَى الْحَقِّ تَجْعَلُونَهُ أَى تَجْعَلُونَ ذَلِكَ الْكِتَابَ قَرَاطِيسَ أَى تَكْتَبُونَهُ، وَ هَذَا لَزِيَاذَةُ التَّأَكِيدِ، أَى: فَكَيْفَ تَنْكُرُونَ مَا تَلْقَيْتُمُوهُ أَنْتُمْ بِالْقَبُولِ، وَ كُنْتُمْ تَكْتَبُونَهُ فِي قَرَاطِيسَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ كِتَابُ سَمَاوِيٍّ مَنزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ؟

تَبْدُونَهَا أَى تَظْهَرُونَ بَعْضَهَا، حَيْثُ كَانُوا يَكْتَبُونَ بَعْضَ الْأَحْكَامِ

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٨٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٢

[سورة الأنعام (٦): آية ٩٢]

وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)

الموجودة في التوراة في أوراق و يعطونها بيد الناس وَ تُخْفُونَ كَثِيرًا مِنَ التَّوْرَةِ لِأَجْلِ كَوْنِهَا خَطَرًا عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ أَوْ جَاهِهِمْ، أَوْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

وَ عَلَّمْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ بِيرَكَةَ التَّوْرَةِ الْمَنْزَلَةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا- أَبَاؤُكُمْ فَإِنَّكُمْ لَوْ لَا كِتَابَ اللَّهِ الْمَنْزَلَ لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، فَكَيْفَ تَنْكُرُونَ أَنْزَالَ اللَّهِ الْكِتَابَ، وَ تَقُولُونَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: اللَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ مُوسَىٰ ثُمَّ ذَرَهُمْ أَى دَعَاهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ فَهَمُ وَ مَا خَاضُوا فِيهِ مِنَ الْبَاطِلِ وَ الْكُذْبِ، إِنَّهُمْ يَلْعَبُونَ بِالذِّمَنِ، فَذَرَهُمْ وَ مَا هُمْ فِيهِ [٩٣] وَ كَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَىٰ مُوسَىٰ كَذَلِكَ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُبَارَكٌ يُوجِبُ الْبِرَكَةَ وَ السَّعَادَةَ مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أَى قَبْلَهُ، مِنَ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَصَدِيقَ أَصْلِ الْكِتَابِ لَا يَلْزَمُ تَصَدِيقَ التَّحْرِيفَاتِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَيْهِ، وَ لِنُنذِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمَّ الْقُرَىٰ أَى مَكَّةَ، وَ إِنَّمَا سَمِيَتْ بِهَا لِأَنَّ الْأَرْضَ دَحِيَّتٌ مِنْ تَحْتِهَا وَ مَنْ حَوْلَهَا مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ غَيْرِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَى بِالْقُرْآنِ الْمَنْزَلَ عَلَيْكَ، فَإِنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٩٣]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

الإيمان بالآخرة يوجب خوفًا في القلب، ينبعث منه اتباع الحق أينما وجد، وفيه تعريض بمن لا يؤمن من أهل الكتاب، فإنه غير مؤمن بالآخرة وَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ فيؤدونها لأوقاتها، فمن يترك الصلاة ليس بمؤمن بالآخرة وَ الْقُرْآنَ، وَ إِن ادَّعَى الْإِيمَانَ.

[٩٤] وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ حَوْلَ الْوَحْيِ، وَ مِنْ قَالَ بَعْدَ الْوَحْيِ إِطْلَاقًا، نَاسِبٌ ذَلِكَ التَّنْذِيرُ بِمَنْ قَالَ بِالْوَحْيِ كَذِبًا، وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

نزلت في ابن أبي سرح الذي استعمله عثمان على مصر و قد هدر رسول الله دمه و كان حسن الخط من كتابه الوحي فإذا قال له الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: اكتب: «أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» كتب: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»

وَ هَكَذَا، وَ كَانَ يَقُولُ لِلْمَنَافِقِينَ: إِنِّي أَقُولُ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ مَا يَجِيءُ بِهِ. ثُمَّ ارْتَدَّ كَافِرًا إِلَى مَكَّةَ وَ صَارَ مِنَ الطَّلَقَاءِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ. ثُمَّ لَا يَخْفَى أَنَّ قَوْلَهُ سَبْحَانَهُ «وَ مَنْ أَظْلَمُ» عَلَى سَبِيلِ الْحَصْرِ الْإِضَافِي، كَقَوْلِهِ: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَّ مَسَاجِدَ اللَّهِ (١)»، وَ غَيْرِهِ.

أَوْ قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ كَمَسِيلْمَةُ الْكَذَابِ الَّذِي ادَّعَى النَّبُوَّةَ كَذِبًا، وَكَغَيْرِهِ مِمَّنْ ادَّعَى هَذَا الْمَنْصِبَ افْتِرَاءً، نَحْوُ: وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْآيَاتِ أَوْ الْأَحْكَامِ. فِي «الْمَجْمَعِ»: قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ،

(١) البقرة: ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٤

أَمَلَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ إِلَى قَوْلِهِ- ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ «١»، فَجَرَى عَلَى لِسَانِ ابْنِ أَبِي سَرْحٍ: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فَأَمَلَاهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: هَكَذَا أَنْزَلَ فَارْتَدَّ عَدُوُّ اللَّهِ وَقَالَ: لئن كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَقَدْ أَوْحَى إِلَيَّ كَمَا أَوْحَى إِلَيْهِ وَلئن كَانَ كَاذِبًا فَلَقَدْ قَلتَ كَمَا قَالَ «٢».

وَلَوْ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ أَى فِي شِدَائِدِ الْمَوْتِ عِنْدَ النَّزْعِ، كَأَنَّ الْمَوْتَ بِشِدَائِدِهِ يَغْمَرُهُمْ مَرَّةً فَمَرَّةً، كَمَا يَغْمَرُ الْمَاءُ الْغَرِيقَ وَالْمَلَائِكَةُ الْقَابِضَةُ لِأَرْوَاحِهِمْ بِأَسْطُورٍ أَيْدِيَهُمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ بِأَبْشَعِ الْوَسَائِلِ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، قَائِلِينَ لَهُمْ: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَجْسَادِكُمْ، وَهَذَا لِلْإِذْلَالِ وَالْإِهَانَةِ، وَإِلَّا فليس خُرُوجَ أَنْفُسِهِمْ بِإمكانِهِمْ، بَلْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْيَوْمَ تُجْرُونَ أَيُّهَا الظَّالِمُونَ عَذَابِ الْهُونِ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَذَابًا جَسَدِيًّا فَقَطْ بَلْ مَعَهُ ذُلٌّ وَهُوَ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ أَى جَزَاكُم بِعَذَابِ الْهُونِ بِسَبَبِ مَقَالَتِكُمْ الْكَاذِبَةَ عَلَى اللَّهِ حَيْثُ كُنْتُمْ تَقُولُونَ: «أَوْحَى إِلَيْنَا وَلَمْ يُوحِ إِلَيْكُمْ» وَمَعْنَى «عَلَى اللَّهِ» أَى بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ وَبِمَا كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَدَلَالَتِهِ

(١) المؤمنون: ١٣-١٥.

(٢) مجمع البيان: ج ٤ ص ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٤ إلى ٩٥]

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥)

تَسْتَكْبِرُونَ فَلَا تَخْضَعُونَ لِأَحْكَامِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَجَوَابِ «لَوْ» مَحذُوفٍ لِلتَّهْوِيلِ، أَى: لَوْ رَأَيْتَ ذَلِكَ لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَظِيحًا مَرِيحًا.

[٩٥] وَهنا يُوَجِّهُ الْبَارِي سَبْحَانَهُ كَلَامَهُ إِلَيْهِمْ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا أَيُّهَا الظَّالِمُونَ فُرَادَى أَى فِي حَالِ كَوْنِكُمْ وَحِدَانًا لَا مَالَ لَكُمْ وَلَا مَدَافِعَ، بَلْ وَاحِدًا وَاحِدًا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ حِينَ جِئْتُمْ إِلَى الدُّنْيَا وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ أَى مَا أَعْطَيْنَاكُمْ مِنَ الْمَالِ وَالْأَقْرَبَاءِ وَالْخُدَمِ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِاعْتِبَارِ إِقْبَالِهِ عَلَى الْآخِرَةِ تَكُونُ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ لِأَنْفُسِكُمْ شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ أَى الْأَصْنَامُ الَّتِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا شُرَكَاءُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَوَرَدَ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّضْرَ قَالَ: سَوْفَ يَشْفَعُ لِي اللَّاتُ وَالْعِزَّى.

لَقَدْ تَقَطَّعَ أَيُّهَا الظَّالِمُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ فَلَا مَوَاصِلَ تَنْفَعُ لِلشَّفَاعَةِ وَضَلَّ عَنْكُمْ أَى ضَاعَ وَتَلَاشَى مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ مِنَ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ فَلَا تَجْلِبُ نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ خَيْرًا.

[٩٦] إِنَّ أَصْنَامَكُمْ لَا تَشْتَرِكُ مَعَ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَلَا فِي أَى شَيْءٍ مِنَ الشُّؤْنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٦

[سورة الأنعام (٦): آية ٩٦]

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)

بل إنَّ اللهَ وحده فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى أى يشق الحب اليابس الميت ويخرج منه النبات ويشق نواة الثمر فيخرج منها النخل يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ فالنبات حي يخرج من الحبة التي لا حياة فيها، والفرخ حي يخرج من البيض الميت، والولد الحي يخرج من الأم الميتة، والبعوض وأشباهه يخرج من الماء الميت، وهكذا وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ كالحبة من النبات، والبيض من الدجاج، والجنين الميت من الأم الحية، والفضلات الميتة من الحي، وكان التغيير في العبارة «يخرج» و«مخرج» للتفنن في العبارة الذي هو نوع من أنواع البلاغة ذَلِكَ اللهُ أى ذلك الذى يفعل كل ذلك- أيها البشر- هو الله وحده فَأَنَّى تُؤَفَّكُونَ أى تصرفون عن الحق إلى الباطل.

[٩٧] فَالِقُ الْإِصْبَاحِ أى يشق عمود الصبح عن ظلمة الليل، ويخرج الضياء من الظلمة وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا تسكنون فيه وتهدؤون عن العمل إذا أظلم وَجَعَلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا تجريان في أفلاكهما بحساب دقيق، و«حسبان» مصدر، وكونهما حسابان أى مصدرى حساب وتوقيت، نحو: «زيد عدل»، مما حمل المصدر على الذات مبالغة، فمن الشمس تتولد الأيام، ومن القمر تتولد الشهور والأعوام ذَلِكَ الْمَذْكُورُ من فلق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حساباً تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ فى سلطانه الْعَلِيمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٧ إلى ٩٩]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسِدَّتْكُمْ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

بمصالح العباد، فأى شىء يرتبط بأصنامكم أيها الضالون.

[٩٨] وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ أَيُّهَا الْبَشَرُ النُّجُومَ فى السماء لِتَهْتَدُوا بِهَا فى ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَعْرِفُ طَرِيقَهُ مِنَ النُّجُومِ فى الليالى، فمن قصد مدينة نحو المشرق جعل النجم المشرقى أمامه، ومن قصد مدينة نحو المغرب، جعله خلفه، وهكذا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ الدالة على الخالق وصفاته لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى لهم علم ومعرفة بالأوضاع.

[٩٩] وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ أى خلقكم وأبدعكم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ هى آدم عليه السَّلام ومن فضل طينته خلقت حواء عليها السَّلام، إنه سبحانه القادر لمثل هذا الأمر العظيم فلکم مستقر فى بطون الأمهات وَمُسِدَّتْكُمْ فى أصلاب الآباء، وإنما سُمي ذلك مستودعاً لأن المنى يبقى قليلاً فى الصلب حتى ينزل، فهو أشبه بالوديعة قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ أى الأدلة والحجج لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ أى يفهمون الأدلة، كى يعلمون أن الله سبحانه هو الذى صنع كل ذلك.

[١٠٠] وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً هو المطر، والمراد بالسماء جهة العلو، فإن ما علاك فأظلك هو السماء- فى لغة العرب- فَأَخْرَجْنَا بِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٨

نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ أى أخرجنا بسبب الماء نبات كل شىء قابل للإنبات من مختلف أقسام النباتات فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ أى من الماء، والتكرار، لأنه أجمل أولاً، ثم أريد التفصيل، أو الضمير عائد إلى النبات، فإن النبات أولاً ليس أخضر، وإنما أبيض صغير ثم يصير أخضر خَضِرًا هو بمعنى أخضر، أى نخرج من ذلك زرعاً رطباً أخضر نُخْرِجُ مِنْهُ من ذلك الزرع الأخضر حَبًّا مُتَرَاكِبًا قد تركب بعضه على بعض كحب الحنطة والشعير وَيَخْرِجُ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا بدل «من النخل» قِنْوَانٌ أى أعذاق الرطب، فإن «قنوان»: جمع «قنو» بكسر القاف و

ضمها، و هو «العذق» بالكسر دائيةً أى قريبه التناول و أخرجنا منه جَنَاتٍ أى بساتين مِنْ أَعْنَابٍ جمع «عنب» و أخرجنا منه الزَيْتُونَ وَ الرُّمَانَ أى شجريهما مُشْتَبِهًا وَ غَيْرَ مُشَابِهٍ فبعض الأشجار و الأثمار و الأوراق و الأزهار و الحبات متشابهة و بعضها غير متشابهة، فى اللون و الطعم و الحجم و الخاصية و غيرها. و الاختلاف بين لفظي «مشتبه و متشابه» من أحسن أنواع البلاغة، لتطابق اللفظ و الخارج انظروا أيها الناس إلى ثمره أى ثمر كل واحد من المذكورات إذا أتمر فإن فى ذلك دلالة عجيبة على الصانع تعالى و انظروا إلى ينعه أى نضجه إذ نضج، فإن من نظر إلى ذلك نظر تأمل و اعتبار، عرف عظيم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَہُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)

الصنعة و جليل الخلقه، و دقيق الحكمة، و «ينع» فى اللغة بمعنى «النضج» و قيل: جمع «يانع»؛ كصحب و صاحب إن فى ذلكم أى فيما تقدم من الخلقه لآيات لقوم يؤمنون بالحقائق، و يتجنبون السخافة.

[١٠١] إن الله هو خالق كل شىء و هو الإله الواحد الذى لا شريك له و لكن الكفار جعلوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ فقالوا بأن الله شركاء فى الألوهية هم من الجن و الحال أنه سبحانه هو الذى خَلَقَهُمْ أى خلق الجن، فكيف يكون المخلوق شريكا مع الخالق فى الألوهية و خَرَقُوا أى جعلوا، و لا يخفى ما فى التعبير بلفظ «خرقوا» من اللطافة. لهُ تَعَالَى بَنِينَ وَ بَنَاتٍ فقد قال اليهود: عزيز ابن الله، و قالوا: نحن أبناء الله، و قالت النصارى: المسيح ابن الله، و جعل المشركون الملائكة بنات الله، كما قال سبحانه: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً (١)، بِغَيْرِ عِلْمٍ فإن ذلك منهم كان ظنا و توهما سُبْحَانَہُ منصوب بفعل محذوف، أى: «أنزله تنزيها له» و تعالى أى تقدس و ترفع عَمَّا يُصِفُونَ أى الأوصاف التى يلصقونها بساحه قدسه، من جعل الشريك و الأولاد.

[١٠٢] إنه وحده هو بَدِيعُ أى مبدع السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ خالقهما بلا

(١) الزخرف: ٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

شريك أو ظهير، و هذا رد على من جعل له شريكا أنى أى كيف يكون له وَلَدٌ وَ لَدَدٌ وَ الحال أنه تعالى لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ أى زوجة؟ و هذا رد لمن جعل له أولادا وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فهو الخالق المطلق، وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فهو العالم المطلق.

[١٠٣] ذَلِكُمْ أى ذلك المذكور له الصفات المتقدمة هو الله تعالى، و «كم» للخطاب إلى السامعين رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فلا شريك له خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فلا شىء خارج من خلقه، حتى يكون له شريكا فَاعْبُدُوهُ وحده وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أى حفيظ و مدبر و قائم، فلا حافظ غيره، و لا قائم بالأمر أحد سواه.

[١٠٤] لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ فإنه سبحانه ليس بجسم حتى يكون مرثيا، و هذا لا فرق فيه بين الدنيا و الآخرة، فهو لا يبصر فى الدنيا و لا يبصر فى الآخرة وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ روعى فى الكلام التجانس اللفظى، و إلا فهو يدرك كل شىء الأبصار و غيرها وَ هُوَ اللَّطِيفُ لَا يراد به اللطف بالمعنى فى الأجسام، المراد به النافذ فى الأجسام، و الرقيق، و ما أشبهه، بل من باب «خذ الغايات و اترك المبادئ» فعلمه نافذ فى الأشياء، و قدرته سارية فى الأكوان الْخَبِيرُ العالم بكل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٤ الى ١٠٦]

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِتُبَيِّنَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)

[١٠٥] قَدْ جَاءَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ «بصائر» جمع «بصيرة» وهى الدلالة البينة التى يبصر بها الشئ، أى جاء تكم دلالات من قبل الله سبحانه، على الأصول، والأحكام فَمَنْ أَبْصَرَ أى من تبين هذه الدلالات و نظر فيها نظر معتبر بصير فَلِنَفْسِهِ فإنه يعود خير ذلك إلى ذاته و شخصه وَمَنْ عَمِيَ عنها فلم ينظر فيها و أعرض عنها فَعَلَيْهَا أى أن وبال الإعراض يعود على نفسه و ما أَنَا المراد بالضمير الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِحَفِيظٍ أحفظكم عن الخطأ و الانحراف، و إنما أنا مبلغ مرشد، من آمن فلنفسه و من ضل فعليها.

[١٠٦] وَكَذَلِكَ أى مثل تصرفنا الآيات من ذى قبل نُصَرِّفُ هذه الآيات نرسلها و نبينها وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ أى يقول الكفار:

درست هذه الآيات و تعلمتها من غيرك، كما كانوا ينسبون القرآن إلى تعلمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الراهب فى طريق الشام، أو من سلمان، أو من بعض اليهود و لِيُبَيِّنَ أى نوضح ما تقدم من الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى للعلماء الذين يعلمون الآيات، فإن هؤلاء هم المنتفعون بالآيات، و لذا خصهم بالذكر.

[١٠٧] اتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَهُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٧ الى ١٠٨]

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسْتَبُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْتَبُؤُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

هُوَ وَذُرِّ الْأَصْنَامِ وَالأوثان، فإن صاحب الدعوة لا يبالي بما قاله المغرضون، و لا يضره انحراف المنحرفين و أعرض عَنِ الْمُشْرِكِينَ فلا تتعرض لهم، و ليس المراد عدم دعائهم إلى الإسلام، أو عدم القتال معهم، بل معناه: «أعرض عن أقوالهم و طريقتهم»، و هذا كما يقال: «أعرض عن فلان» يراد عدم الاهتمام بقوله و الاعتناء بشأنه، و أنه لا بد من سلوك الطريق المستقيم أحب أم كره.

[١٠٨] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْرَهُهُمْ عَلَىٰ عَدَمِ الشَّرْكِ مَا أَشْرَكُوا وَلَكِنْ الدُّنْيَا دُنْيَا إِحْتِبَارٍ وَامْتِحَانٍ، و إنما يريهم الله سبحانه الطريق، فمن شاء آمن و من شاء أشرك و مَا جَعَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا تحفظهم عن الشرك، حتى يكون إثم الشرك عليك و مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى لست بموكل عليهم فى ذلك، و إنما عليك البلاغ و الإنذار، و لعل الفرق بين الحفيظ و الوكيل، أن الحفيظ هو الذى يحفظ الشئ عن الضرر، و الوكيل هو الذى يناط به أمره، فيجب عليه دفع الضرر عنه و جلب النفع إليه، فهو أعم من الحفيظ.

[١٠٩] وَلَا تَسْتَبُؤُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْآلِهَةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ هَا الْكُفْرَانَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى سِوَى اللَّهِ فَيَسْتَبُؤُوا اللَّهَ مَقَابِلَهُ بِالْمِثْلِ عَدُوًّا أَى ظُلْمًا، بمعنى التعدى عن الحق بِغَيْرِ عِلْمٍ فإنهم جاهلون بالله، و إلا لماذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٣

[سورة الأنعام (٦): آية ١٠٩]

وَاقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) كانوا يسبون، و يتخذون آلهة سواه؟ كَذَلِكَ الاعتقاد بالآلهة الباطلة زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ فإن كل إنسان يرى عمله حسنا، و لو تفكر و قارن رأى الصحيح من عمله و أباطيله. و نسبة التزيين إلى الله سبحانه لأنه هو الذى يخالف الخلق و سبب الأسباب، و ذلك للامتحان، و ليتبين من يخالف نفسه و من يتبع هواها ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فإن الجميع يرجعون إلى حساب الله سبحانه، و ثوابه و عقابه فَيُنَبِّئُهُمْ

أى يخبرهم بما كانوا يَعْمَلُونَ من الأعمال الحسنه و القبيحه، و معنى ذلك أنه يجازيهم بأعمالهم، كما تقول لابنك العاصي: «أخبرك بما عملت...» تريد التهديد و الوعيد.

و هنا سؤال: كيف نهى الله عن سب الأصنام، و فى القرآن كثير من القدح فيهم؟

و الجواب: إن الفرق بين سب الحكيم و سب الجاهل أن الأول يعرف موقع السب، بخلاف الثانى، كما لو نهى القاضى عن ضرب الناس، و رأينا أنه يضرب بنفسه لحدّ أو قصاص، فإن الأمرين لا يتنافيان.

[١١٠] وَأَقْسَمُوا أى حلف الكفار بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أى أيمانهم الغليظة لئن جاءتهم آيَةٌ أى معجزه خارقه حسب ما طلبوا من مقترحاتهم لَيُؤْمِنَنَّ بها أى بتلك الآيه قل يا رسول الله لهم:

إِنَّمَا الْآيَاتُ الْخَارِقَةُ عِنْدَ اللَّهِ و من لدنه، و ليس لدى منها شىء،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٤

[سورة الأنعام (٦): آيه ١١٠]

و نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

فإن عرف الله الصلاح فى الإتيان بها أظهرها، و إن عرف الصلاح فى عدم الإتيان لم يأت بها و ما يُشْعِرُكُمْ أيها المؤمنون أنّها أى الآيات إذا جاءت لا يُؤْمِنُونَ كما جاءت الآيات من قبل فلم يؤمنوا.

و السر أن المعاند لا تفيده الآيه، و الطالب للحق تكفيه ما تقدم من الآيات، فإنزال الآيات المقترحة لا فائده فيها.

[١١١] وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ جمع «فؤاد» و هو القلب وَ أَبْصَارَهُمْ جمع «بصر» و هو العين كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أى بالقرآن أَوَّلَ مَرَّةٍ فإنهم جوزوا

بإنكارهم أول الأمر الذى استلزم عنادهم و تماديهم فى غيهم، بأن أزعجت نفوسهم، فجعلت قلوبهم تخفق، و أبصارهم تتحرك زائغة، كما هو شأن كل مبطل أمام الحق أنه لا يدري ما يصنع، و عينه تتلفت هنا و هناك تبحث فى الأرض و السماء عن طريق المهرب و الخلاص من الأزمة التى وقع فيها وَ نَذَرُهُمْ أى ندعهم فى طُغْيَانِهِم الذى طغوا و تعدوا فيه الحق يَعْمَهُونَ يترددون فى الحيرة.

و

قد روى أنهم لما طلبوا الآيات، أراد النبى أن يسأل ربه بتلك الآيات، فجاء جبرئيل و قال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً، و لكن إن لم يصدقوا، عذبوا، و إن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: بل أتركهم حتى يتوب تائبهم «١». فأنزل الله تعالى هذه الآيه.

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٩١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٥

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء الثامن من آيه ١١٢ من سورة الأنعام إلى آيه ٨٨ من سورة الأعراف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٦

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١١ الى ١١٢]

و لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عِدْوًا شَيْطَانِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ

فَذَرَهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١١٢)

[١١٢] ثم بين سبحانه أن هؤلاء معاندين لا- يريدون بالآيات إلا- الاقتراح، و لو أنزلت إليهم لم يكونوا مؤمنين و لو أننا نزلنا إليهم الملائكة حتى يرونهم مشاهدة، و يشهدون لك بالرسالة و كلمتهم الموتى أى أحيينا الأموات حتى تكلمهم و حشرنا أى جمعنا عليهم كل شئ قُبلاً أى مقابلة و معاينة، بأن جئنا لهم بما طلبوا من الآيات، أو المراد:

جمعنا حولهم الأشياء الكونية، بأن يأتيهم الشجر و الحجر و الماء و الحيوان، و كان ذلك لبيان حشر صور مدهشة مرعبة ما كانوا ليؤمنوا لعنادهم و إصرارهم إلا أن يشاء الله أن يجبرهم على الإيمان، و لكن الله لا- يشاء ذلك لأنه خلاف الحكمة و لكن أكثرهم يجهلون أنهم لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا، بل يزعمون أنهم يؤمنون إن رأوا، لجهلهم بعنادهم الكامن فى نفوسهم، الذى لا ينفع معه كل آية.

[١١٣] و كذلك أى كما جعلنا لك يا رسول الله أعداء معاندين جعلنا لكل نبيّ عدواً و معنى «الجعل» التخليه بينهم و بين اختيار العداوة، و ذلك اختبار لهم، و رفعا لدرجات الأنبياء. و قد سبقت الإشارة إلى أن الأمور الاختيارية للناس تنسب إلى الله سبحانه باعتبار جعله الأسباب و التخليه بين الناس و بينها، كما تنسب إلى فاعليها لأنهم السبب المرید لها شياطين الأانس و الجن نصب «شياطين» لأنه بدل «عدوا»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٨

[سورة الأنعام (٦): آية ١١٣]

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)

و المراد به الجنس لا الواحد، و المراد بشياطين الإنس، إما الشياطين الموكلة بالإنسان التى تغويه و تأمره بالقبائح، و إما من قبيل «خاتم فضة» أى المردة من أفراد الإنسان، فإن الشيطان بمعنى المارد من «شطن»، قال الشاعر:

أيا شاطن عصاه عكاه ثم يلقى فى السجن و الأغلال

و هكذا يقال بالنسبة إلى شياطين الجن يوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أى يوسوس خفيه زُخْرَفَ الْقَوْلِ أى: القول المزخرف، الذى يستحسن ظاهره و لا حقيقة له و لا أصل غُرُوراً أى لأجل الغرور و الإضلال و لو شاء رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ أى لو أراد جبرهم على عدم هذه الأعمال العدوانية ضد الأنبياء، لتمكّن من ذلك، لكنه لم يشأ، لأنه خلاف الحكمة فَدَرُّهُمْ أى دعهم و ما يَقْتَرُونَ أى افتراؤهم، فأعرض عنهم، و لا تتعرض لهم، بل خذ طريقك، و بلّغ رسالات ربك.

[١١٤] إن الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول لأجل الغرور و لتصغى لأجل أن تميل إليه أى إلى هذا الوحي بزخرف القول أَفئِدَةُ أى: قلوب الذين لا- يؤمنون بِالْآخِرَةِ فإنهم يوسوسون ليغروا الناس و ليستميلوا أفئدة الكفار إلى مكائدهم و ليَرَوْهُ أى يرضى من لا يؤمن بِالْآخِرَةِ، بالوحي و الوسوسة، بمعنى إرضاء الكفار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١١٥]

أَفَعَيِّرَ اللَّهُ أَتْبَغَىٰ حَكْمًا وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا- وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ (١١٤) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)

بمنهجهم فلا يميلوا إلى الحق و ليَقْتَرِفُوا أى يرتكبوا من الكفر و المعاصى ما هُم مُّقْتَرِفُونَ أى الشئ الذى يرتكبون. و جملة المعنى أن وسوسة الشياطين لأجل أن يغروا الناس، و يستميلوا قلوبهم، و يرضون عن طريقتهم، و يرتكبون الآثام.

[١١٥] إن هناك شخصين متعادين الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و الذى لا- يؤمن بِالْآخِرَةِ، فمن الحكم بينهما؟ و هنا يأتي الجواب أن الحكم هو الله وحده، قل يا رسول الله لهؤلاء: أفعيّر الله أتبعي حكماً أى أطلب سوى الله حاكماً و هو أعلم الحكام الذى أنزل إليكم الكتاب مُفَصَّلًا فيه ما يحتاج إليه الإنسان، يفصل بين الحق و الباطل، و معنى التفصيل: تبين المعانى بما يوجب رفع

الاشتباه. و من المعلوم أن القادر على تنزيل الكتاب، هو الذي يتخذ حكماً و الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ أَى أُعْطِينَاهُمْ الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى يَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَى الْكِتَابِ وَ هُوَ الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ وَ لَيْسَ كَلَامَ الْآدَمِيِّينَ، وَ تَخْصِيصُ أَهْلِ الْكِتَابِ، لِأَنَّ عِلْمَهُمْ يَقْتَضِي أَنْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ، فَإِنَّهُ «إِنَّمَا يَعْرِفُ ذَا الْفَضْلِ مِنَ النَّاسِ ذُوهُ» فَلَا تُكُونَنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمُتَمَتِّرِينَ أَى الشَّاكِينَ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَشْكُ وَ إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ السَّمْعُ، وَ إِنْ كَانَ الْخُطَابُ مُوجَّهًا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[١١٦] وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١١٦]

وَ إِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)

البشر، تم بإنزال هذا الكتاب، فليس وراءه كتاب آخر و كلمته أخرى صدقاً و عدلاً فما فيه من الأخبار صدق لا يشوبه كذب، و عدل لا يشوبه انحراف و زيغ، فكل خبر يخالف إخباره عن المبدأ و عن المعاد و عن الرسالة و عن العدل و عن الخلافة و عن غيرها، فهو كذب، و كل حكم يخالف حكمه فهو زيغ و باطل لا مبدل لكلماته فإن كلمات الله سبحانه هي الميزان لكل شيء فلا أحد يبذل كلماته تعالى بالزيادة و النقصان، تبديلاً صحيحاً، و من بدل فهو المنحرف الضال و هو السميع لأقوال الناس العليم بكل ما يفعلون فيجازيهم حسب أعمالهم و أقوالهم.

[١١٧] إِنْ الْمِيزَانَ هُوَ كَلِمَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَيْسَ هُنَاكَ حَقٌّ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ وَ لِذَا إِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِأَنَّ غَالِبَ النَّاسِ كَفَّارٌ أَوْ ضَالِّينَ، فَاتَّبَاعُهُمْ مُوجِبٌ لِلْكَفْرِ وَ الضَّلَالِ، نَعْمَ هُنَاكَ قَلَّةٌ لَمْ يَخْلُ مِنْهُمْ زَمَانٌ، هُمْ الْآخِذُونَ بِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، فِإِطَاعَتِهِمْ هِيَ إِطَاعَةُ اللَّهِ، وَ لَا- يُوْجِبُ اتِّبَاعُهُمْ ضَلَالًا وَ زِيغًا إِنْ يَتَّبِعُونَ أَى مَا يَتَّبِعُ هَؤُلَاءِ الْكَثْرَةُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا الظَّنَّ فَلَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ وَ بَرَهَانٌ فِي كُفْرِهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ، وَ إِنَّمَا يَرْتَجِحُونَ ظَنًّا مَا يَعْتَقِدُونَهُ، أَوْ يَعْمَلُونَ بِهِ وَ إِنْ هُمْ أَى مَا هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ «الخرص» هُوَ التَّخْمِينُ، أَى يَقُولُونَ تَخْمِينًا لَا اعْتِقَادًا وَ جِزْمًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٧ الى ١١٩]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ مَا لَكُمْ أَلَّا- تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَانِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)

[١١٨] إِنْ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ أَى أَعْلَمُ مِنَ سَائِرِ النَّاسِ بِمَنْ يَسْلُكُ سَبِيلَ الضَّلَالِ، فَقَوْلُهُ: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ وَ مَعْرِفَةٍ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِنْ الْكُفَّارَ يَعْتَقِدُونَ اعْتِقَادًا جَازِمًا بِمَا أَشْرَكُوا، وَ يَقُولُونَ مَا يَقُولُونَ عَنْ قَطْعٍ وَ جِزْمٍ. فَذَلِكَ غَيْرُ عَارِفٍ بِأَحْوَالِهِمْ، وَ رَبِّكَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ بِهِمْ وَ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ سَبِيلَ الْهُدَى وَ الرِّشَادِ.

[١١٩] إِذَا فَالْحَكْمُ كُلُّهُ لِلَّهِ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، وَ قَدْ كَانَ الضَّالُّونَ يَجَادِلُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي شُؤْنٍ كَثِيرَةٍ، وَ مِنْهَا أَمْرُ الذَّبَائِحِ، فَقَدْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ، وَ يَتْرَكُونَ الْمَذْبُوحَ، وَ كَانُوا يَحْتَجُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَائِلِينَ:

أ تَأْكُلُونَ أَنْتُمْ مَا قَتَلْتُمْ وَ لَا تَأْكُلُونَ مَا قَتَلَ رَبِّكُمْ؟ يَرِيدُونَ الْإِعْتِرَاضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي عَدَمِ أَكْلِهِمْ لِلْمَيْتَةِ فَكُلُّوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ عِنْدَ الذَّبْحِ، وَ اجْتَمَعَ فِيهِ سَائِرُ الشَّرَائِطِ، وَ الْأَمْرُ لِلِإِبَاحَةِ لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ تَوْهَمِ الْحَضَرِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ بِأَنَّ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ صَدَقْتُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[١٢٠] وَ مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَلَّا تَأْكُلُوا أَى شَيْءٍ لَكُمْ فِي أَنْ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَى لَمْ لَا تَأْكُلُونَهُ، هَلْ أَنْ ذَلِكَ بَزَعَمَ

التحريم لأنكم تقتلونه؟ وَ قَدْ فَضَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٠ إلى ١٢١]

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

على لسان رسوله ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وليست الذبيحة منها إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ فَإِن كُمْ إِذَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَى مَا حَرَّمَ لَكُمْ أَكَلَهُ بِقَدَرِ الضَّرُورَةِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ فإلى حيث مال هواهم ساقوا الناس إليه، فذلك يسبب إضلال الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ يهديهم إلى الحق، وإن تحريم المشركين للمذكي من هذا القبيل، فإنه من الهوى، لا- من علم وصلاح إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ الَّذِينَ يَتَجَاوَزُونَ الْحَقَّ، ويتعدونه إلى الباطل.

[١٢١] وفي عداد ذكر الحرام والحلال، ينهى سبحانه عن كل محرم وَ ذَرُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ أَيُّ مَا ظَهَرَ مِنَ الْمَعَاصِي وَمَا بَطَنَ مِمَّا يُؤْتَى بِهِ سِرًّا.

قيل: إن أهل الجاهلية كانوا يقولون: إذا زنا الإنسان علنا كان آثماً، وإن زنا سرا لم يكن به بأس، وبهذه المناسبة نزل هذا التعميم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ أَيُّ يَعْمَلُونَ بِالْمَعَاصِي سَيُجْزَوْنَ أَيُّ يَعَاقِبُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ أَيُّ يَرْتَكِبُونَ، يقال: «اقترب الإثم» أى ارتكبه.

[١٢٢] وَلَا تَأْكُلُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مِمَّا لَمْ يَذْكَرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٣

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٢]

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الذَّبَائِحِ الَّتِي تَذْبَحُ بِدُونِ التَّسْمِيَةِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَخُرُوجٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ أَيُّ يَلْقُونَ خَفِيَّةً إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ أَيُّ: فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ لِيُجَادِلُوكُمْ قَائِلِينَ: كَيْفَ تَأْكُلُونَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مِمَّا تَقْتُلُونَهُ أَنْتُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَهُ اللَّهُ، وَقَتِيلَ اللَّهِ أَوْلَى بِالْأَكْلِ مِنْ قَتِيلِكُمْ؟ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ لِأَنَّ اسْتِحْلَالَ الْمَيْتَةِ يُوجِبُ الْكُفْرَ، أَوْ الْمَرَادُ: أَنْكُمْ مِثْلُهُمْ، لَا مِثْلَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا تَعْبِيرٌ خَطَابِيٌّ، وَ لَعَلَّ هَذَا أَقْرَبُ لِأَنَّ اسْتِحْلَالَ الْكُفْرِ لَا الشَّرْكَ.

[١٢٣] ثم ذكر سبحانه مثل الفريقين، المؤمنين والكفار أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا بِالْكَفْرِ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْكُفْرَ شَبَهَ الْمَوْتَ حَيْثُ أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَأْتِي مِنْهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالْإِيمَانُ شَبَهَ الْحَيَاةَ لِذَلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا مِنْهَا جَانِبًا يَنْبُرُ بِهِ دُرُوبَ الْحَيَاةِ يَمْشَى بِهِ أَيُّ بِذَلِكَ النُّورِ فِي النَّاسِ فَيَعْرِفُ كَيْفَ يَمْشَى وَكَيْفَ يَعَاشِرُ، لَا كَالْأَعْمَى الَّذِي يَصْطَدِمُ بِهِذَا وَذَاكَ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ أَيُّ كَالْكَافِرِ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الشَّخْصِ الَّذِي لَا نُورَ لَهُ بَلْ يَمْشَى فِي الظُّلُمَاتِ، فَمَنْ فِي الظُّلْمَةِ شَبَهَ بِالْكَافِرِ، لِأَنَّ الظُّلْمَةَ الْكُفْرَ أَشَدَّ مِنْ الظُّلْمَةِ عَدَمِ النُّورِ، وَإِنَّ الْكَافِرَ لَا يَعْرِفُ سَبِيلَ الْحَيَاةِ السَّلِيمَةِ وَلِذَا فَهُوَ دَائِمُ الْمَشَاكِلِ وَالْمَصَادِمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا إِذْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٤

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٣]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

الخروج من الظلمة لا يكون إِلَّا بانتهاج منهاج الإيمان، وإلا فمن ظلمة إلى ظلمة، وهذا سرٌّ ما يشاهد من ازدياد مشاكل العالم يوماً بعد يوم، وكلما عدلوا القوانين، وبدلوا المناهج لم يزددهم إلا مشكلته وإعضالا.

والاستفهام إنكارى، يراد أنهما ليسا بمتساويين، بل الحي ذو النور أفضل من الميت في الظلمة كَذَلِكَ أَيُّ كَمَا زَيْنٌ لِلْمُؤْمِنِ بِالْإِيمَانِ

كذلك زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَ الَّذِي زَيْنَ لَهُمْ هُوَ الشَّيْطَانُ وَ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، أَوْ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْمَعْنَى الْمَتَقَدِّمِ فِي قَوْلِهِ: كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ «١»، أَى خَلِينَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَزِينُ لَهُمْ عَمَلَهُمْ.

[١٢٤] وَ كَذَلِكَ أَى كَمَا تَرَكْنَا الْكُفَّارَ فِي ظَلْمَتِهِمْ يَعْهَدُونَ، أَوْ كَمَا زَيْنَا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُّجْرِمِيهَا فَتَرَكْنَا الْمَجْرِمِينَ عَلَى حَالِهِمْ لِيَمْكُرُوا فِيهَا أَى فِي الْقَرْيَةِ، وَ «اللام» لِلْعَاقِبَةِ، أَى أَنَّ عَاقِبَةُ تَرَكْنَا إِيَّاهُمْ مَكْرَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: فَالْتَقَطُوهُ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا «٢»، أَوْ الْمَرَادُ: كَمَا جَعَلْنَا ذَا النُّورِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ جَعَلْنَا ذَا الظُّلْمَةِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّ عَاقِبَةَ مَكْرِهِمْ وَ وَبَالَ طَغْيَانِهِمْ لَا يَرْجِعُ إِلَّا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَى لَا يَدْرُونَ أَنَّ مَكْرَهُمْ يَعُودُ بِالْوَبَالِ

(١) الأنعام: ١٠٩.

(٢) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٥

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٤]

وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) السَّيِّئِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ.

[١٢٥] وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ أَى جَاءَتْ هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ آيَةٌ دَلَالَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ الرِّسَالَةِ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَ بِمَا جَاءَتْ مِنْ أَجْلِهِ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَى تَأْتِي عَلَى أَيْدِينَا الْمَعْجِزَةُ، وَ يُوْحَى إِلَيْنَا حَتَّى نَكُونَ كَالرِّسْلِ. قَالُوا: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ حَيْثُ قَالَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: وَ اللَّهُ لَوْ كَانَتْ النَّبُوَّةُ حَقًّا لَكُنْتُ أَوْلَى بِهَا مِنْكَ، لِأَنِّي أَكْبَرُ مِنْكَ سَنًا وَ أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا. وَ قِيلَ:

نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ حَيْثُ قَالَ: زَا حَمْنَا بَنِي عَبْدِ مَنْفَى فِي الشَّرَفِ حَتَّى إِذَا صَرْنَا كَفَرْنَا رَهَانَ قَالُوا: مَنَّا نَبِيٌّ يُوْحَى إِلَيْهِ، وَ اللَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ لَا تَتَّبِعُهُ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَا وَحَى كَمَا يَأْتِيهِ.

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ بِمَوْضِعِ الرِّسَالَةِ، وَ لَيْسَتْ هِيَ بِالْمَالِ وَ الْكِبَرِ وَ السَّنِ، بَلْ بِالْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ وَ الْقَابِلِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا أَى عَمَلُوا الْجَرَائِمَ وَ الْمَوْبِقَاتِ صِغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ أَى يَكُونُوا أَذْلَاءً فِي الْآخِرَةِ، أَوْ الْمَرَادُ: الْأَعْمُ مِنَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، وَ مَعْنَى «عِنْدَ اللَّهِ» أَنَّ ذَلِكَ الصِّغَارُ مِنْ عِنْدِهِ سَبْحَانَهُ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ أَى بِسَبَبِ مَكْرِهِمْ، فَإِنَّ الصِّغَارَ وَ الْعَذَابَ جَزَاءً لِأَعْمَالِهِمْ الْقَبِيحَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٦

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٥]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)

[١٢٦] إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِذَا جَاءَ بِالْإِسْلَامِ، فَمَنْ حَكَّمْ عَقْلَهُ وَ آمَنَ لَهُ مِنَ اللَّهِ اللَّطْفَ الْخَفِيَّ وَ شَرَحَ الصِّدْرَ، وَ مِنْ أَعْرَضَ وَ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ أَعْرَضَ سَبْحَانَهُ عَنْهُ وَ خَلَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَ مَا يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ بِهِ مِنْ تَضْيِيقِ الصِّدْرِ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الْإِيمَانِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ «الشرح» هُوَ: التَّوْسِعَةُ، وَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ، فَكَمَا أَنَّ الشَّيْءَ الْوَاسِعَ لَهُ مَجَالٌ أَنْ يَنْفِذَ فِيهِ شَيْءٌ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ الْمُنْشَرَحُ لَهُ مَحَلٌّ أَنْ يَنْفِذَ فِيهِ الْإِسْلَامُ وَ مَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يُضِلَّهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ الْإِيمَانَ وَ عَانَدَ، فَاقْتَضَتْ الْمَشِيئَةُ أَنْ يَخْلَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الضَّلَالِ حَتَّى تَكُونَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خَسْرًا، وَ يَذُوقُ وَبَالَ إِعْرَاضِهِ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا لَا يَنْفِذُ فِيهِ الْإِسْلَامُ حَرَجًا هُوَ أَضْيِيقُ الضِّيْقِ - كَمَا

قالوا- كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ فَإِنِ الْإِنْسَانُ إِذَا جَزَّ إِلَى السَّمَاءِ جَزًّا، أَحْسَ بَضِيقِ شَدِيدٍ فِي صَدْرِهِ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْهَوَاءَ كَلِمًا لَطْفًا، كَانَ التَّنَفُّسُ فِيهِ أَصْعَبَ، وَمَعْنَى «فِي السَّمَاءِ» الْوُلُوجُ فِي طَبَقَاتِ السَّمَاءِ، لِيُعْطَى مَعْنَى الشَّدَّةِ أَكْثَرَ مِنْ «إِلَى» وَكَذَاكَ التَّشْدِيدُ فِي «يَصَّعَّدُ». كَذَلِكَ أَى كَمَا ذَكَرَ مِنْ تَضْيِيقِ الصَّدْرِ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ وَهُوَ الْعَذَابُ، وَالصَّعُوبَةُ، أَوْ الْمَرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الظَّاهِرَى لَهُ، فَإِنِ الْكُفْرَ رَجَسًا عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَالْعُقُوبَةُ لِمَنْ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَجْعَلَ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا، فَلَيْسَ ذَلِكَ ابْتِدَاءً مِنْهُ سَبْحَانَهُ، كَمَا قَدْ يَزْعُمُ النَّازِرُ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، وَهَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٦ الى ١٢٨]

وَ هَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَ لِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

كقولك: «إن من يريد خيره من أبنائي أعطه المال، وإن من يريد شره أقطع عنه المال، وهكذا أعمل بمن لا ينصاع إلى أوامري».

[١٢٧] وَ هَذَا أَى الْإِسْلَامِ صِرَاطُ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ وَ لَا انْحِرَافَ، فَمَنْ لَمْ يَقْبَلْهُ لَمْ يَفْرَ مِنْ الْانْحِرَافِ، وَ إِنَّمَا زَاغَ وَ انْحَرَفَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ أَى بَيْنَاهَا وَ شَرَحْنَاهَا لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أَصْلَهُ «يَتَذَكَّرُونَ» ثُمَّ أَدغمت التاء في الذال، وَ الْمَرَادُ: أَنَّهُ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ مَا أُوْدِعَ فِيهِ مِنَ الْفِطْرَةِ الْأَمْرَةَ بِاتِّبَاعِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ.

[١٢٨] لَهُمْ أَى لِلَّذِينَ تَذَكَّرُوا وَ عَرَفُوا الْحَقَّ دَارُ السَّلَامِ وَ هِيَ: الْجَنَّةُ، فَإِنَّهَا دَارُ السَّلَامَةِ الَّتِي لَا حَرْبَ فِيهَا، وَ لَا بَغْضَاءَ، وَ لَا مَرَضَ، وَ لَا هَمَّ، وَ لَا مَا يَنْغُصُ الْعَيْشَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أَى أَنْ تَلْكَ الدَّارَ عِنْدَ كَرَامَةِ اللَّهِ وَ لَطْفِهِ، وَ فِي ضَمَانِهِ وَ عَهْدِهِ وَ هُوَ أَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ لِيَهُمْ الَّذِي يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَى بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَ اتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ.

[١٢٩] وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا أَى يَجْمَعُهُمْ، وَ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ، الَّذِينَ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَنْهُمْ، بِأَنَّهُمْ يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زَخْرَفَ الْقَوْلَ غُرُورًا، وَ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْهُمْ، وَ إِذْ يَجْمَعُونَ يُقَالُ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أَى اتَّخَذْتُمْ أَتْبَاعًا كَثِيرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٨

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٩]

وَ كَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)

مِنْهُمْ وَ احْتَشَدْتُمْ حَشْدًا عَظِيمًا مِنَ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكُمْ فِي وَسَاوِسِكُمْ وَ غُرُورِكُمْ. وَ لَفْظُهُ «يَوْمَ» مَنْصُوبَةٌ، بِ «يُقَالُ» الْمَقْدَرِ، وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ أَى أَتْبَاعِ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ وَ أَخَذُوا بِوَسَاوِسِهِمْ وَ إِيْحَاءِ اتِّبَاعِهِمْ: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ فَلَقَدْ كَانَ الْإِغْوَاءُ نَاقِضًا مَتَاعًا وَ اسْتَمْتَعًا، فَإِنِ الْإِنْسَانُ الَّذِي لَمْ يَمَلَأْ فَرَاغَ قَلْبِهِ الْحَقَّ يَطْلُبُ مَتْعَةً يَسْتَمْتَعُ بِهَا، وَ مَا أَجْدَرُ بِالْإِغْوَاءِ وَ الْإِيْحَاءِ أَنْ يَمَلَأَ ذَلِكَ الْفَرَاغَ، وَ هَذَا كَالْإِعْتِدَارِ مِنَ الْأَتْبَاعِ الْإِنْسِيِّينَ، كَمَا يَقُولُ أَحَدُ النَّاسِ إِذَا سئِلَ عَنْ عَمَلِهِ الْبَاطِلِ؟ أَنَّهُ اتَّخَذَهُ وَسِيلَةً لِلتَّسْلِيَةِ وَ سَدَ الْفَرَاغَ وَ بَلَّغْنَا أَجَلَنَا أَى الْمَوْتَ الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا أَى وَقْتَهُ وَ جَعَلْتَهُ مَدَّةً، فَقَدْ أَدْرَكْنَا الْمَوْتَ وَ نَحْنُ فِي الْاسْتِمْتَاعِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: النَّارُ مَثْوَاكُمْ أَى مَقَامِكُمْ، وَ «الثَّوَاءُ»: الْإِقَامَةُ، وَ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ خَالِدِينَ فِيهَا أَى فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَنْقَطِعَ النَّارُ وَ ذَلِكَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَكِيمٌ وَ بِمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ جَعَلَ النَّارَ مَثْوَى لَهُمْ عَلِيمٌ يَعْلَمُ الصَّالِحَ مِنَ الْفَاسِدِ.

[١٣٠]- وَ كَذَلِكَ أَى كَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخَلَّةِ بَيْنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ، لِيُغْوَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا فَجَعَلَ الظَّالِمَ وَلِيًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٠ الى ١٣١]

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذِذُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) للظالم في الدنيا وفي الآخرة بما كانوا يَكْسِبُونَ أى بسبب كسبهم الأعمال السيئة وإعراضهم عن الحق.

[١٣١] ثم يخاطب الجن الذين أوحوا إلى الإنس وأصلوهم بهذا الخطاب:

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ «المعشر» هو الجماعة أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ على وجه الاستفهام الإنكارى، و«منكم» باعتبار أن الإنس والجن من مادة سفلية، فبعضهم من بعض، أو باعتبار أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أرسل رسلا من الجن إليهم يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ أى يتلون عليكم آياتي أى حججى ودلائلى وَيُذِذُونَكُمْ أى يخوفونكم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا أى يوم القيامة قَالُوا أى قالت الجن فى جواب هذا الاستفهام: شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا بما تستحق من العقاب حيث خالفنا وعصينا، فإننا معترفون بالجرائم، ثم يقول سبحانه: وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا أى تزينت لهم وأغوتهم وشهدوا على أنفسهم فى الآخرة أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ فى الدنيا فاستحقوا العقاب.

[١٣٢] إن هؤلاء الجماعة الذين حكم عليهم بالنار لم يكن اعتبارا، وإنما كان بعد الإنذار والتبليغ وذلك الإرسال والإنذار لأجل أن لَمْ يَكُنْ أى لأنه ليس رَبُّكَ يا رسول الله مُهْلِكَ الْقُرَى أى يهلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٢ الى ١٣٤]

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ الْعَنِيِّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنَّ يَسْأَلُ يُدْهِبُكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)

ويعذب أهل المدن بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ عن الدين والطريق، بل إنما يهلكهم إذا أتم الحجة عليهم، ثم خالفوا وعصوا.

[١٣٣] ثم إنه ليس التعذيب اعتبارا بأن يحشرون جميعا فى درجة واحدة- كما قد ينساق من الآيات السابقة- بل وَلِكُلِّ مِنَ الْمَجْرِمِينَ، أو الأعم منهم و من المطيعين دَرَجَاتٍ أى مراتب خاصة بهم مِمَّا عَمِلُوا «من» للإشياء، أى: تنشأ تلك الدرجات من أعمالهم فى الدنيا وَمَا رَبُّكَ يا رسول الله بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ فلا يدرى من عمل وما عمل، بل كل شىء عنده محفوظ بقدره و خصوصياته.

[١٣٤] إن هذه الأوامر و تلك العقوبات، ليست لاحتياج الله سبحانه إلى هذه أو تلك وَرَبُّكَ يا رسول الله الْعَنِيُّ الذى لا يحتاج إلى شىء إطلاقا ذُو الرَّحْمَةِ و من رحمته جعل الأوامر ليرحم العباد بها إِنَّ يَسْأَلُ يُدْهِبُكُمْ أى يهلككم أيها البشر وَيَسْتَخْلِفُ أى يجعل خليفته لكم و فى محلهم مِنْ بَعْدِكُمْ أى بعد الإذهاب بكم ما يَشَاءُ من أنواع المخلوقات كما أَنْشَأَكُمْ و أوجدكم مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ حيث أذهبهم و أتى بكم، فإن ذلك عليه يسير.

[١٣٥] إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ أيها البشر من القيامة و الحساب و الثواب و العقاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٥ الى ١٣٦]

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)

لَأْتِ أى يأتى لا محالة و ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أى لستم تقدرُونَ أن تسبوا عجزه سبحانه حتى لا يتمكن من إعادتكم و الإنيان بكم لساحة الحساب.

[١٣٦] قُلْ يا رسول الله لهؤلاء: يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ أى منزلتكم و مقدار تمكنتكم من الدنيا، و هذا الأمر للتهديد، أى: اعملوا الكفر و المعاصى بما تتمكنون إِنِّي عَامِلٌ بما أمرنى الله سبحانه- فلکم دينکم ولى دين- فَسَوْفَ فى الآخرة تَعْلَمُونَ جزاء أعمالكم مَنْ

تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ أَي العاقبة المحمودة في دار السلام، هل أنتم أم أنا؟ لكن اعلموا أن عاقبة الدار لي ف إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ وَلَا يَفُوزُ بالسعادة الظَّالِمُونَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي.

[١٣٧] ثم يعود السياق إلى معالجة العقيدة في بعض نواحيها فيحكي سبحانه ما كان يفعله أهل الجاهلية من تقسيم ما ينفقوه من الزرع والأنعام بين الله وبين الأصنام وَ جَعَلُوا أَي جعل الكفار لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ أَي خلق مِنَ الحَرْثِ أَي الزرع وَ الْأَنْعَامِ أَي المواشى من الإبل والبقر والغنم نَصِيباً أَي حظاً وقسماً، وجعلوا للأصنام نصيباً فقالوا هذا القسم لله تعالى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٢

بِزَعْمِهِمْ و إنما نسبهم إلى الزعم لأنه لم يكن لله، فإن الله لا يقبل الشيء الذي أشرك معه فيه وَ هذا القسم لِشُرَكَائِنَا أَي الأوثان، الشركاء الذين نحن أشركناهم مع الله- و في الإضافة تكفي أدنى ملابسة، ككوكب الخرقاء- فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ من الأنعام والحرث فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ أَي أن الله لا يقبله، و كُنِيَ بالإيصال لتشبيه المعقول بالمحسوس تقريبا للمعنى إلى الأذهان وَ مَا كَانَ لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ وَ هذا مجاز، أي أن الأصنام تنتفع بهذا النصيب من خلال ما يترسخ لها في قلوب المشركين من المكانة والاحترام، أو المراد أنهم كانوا إذا خصصوا نصيباً للشركاء لا يأخذون منه الله شيئاً، أما الحصة المخصصة لله سبحانه فقد يأخذون منها ليوفروا المأخوذ مع حصة الأصنام.

روى عن أهل البيت عليهم السلام أن المشركين كانوا يعينون قسماً من الحرث والأنعام لله و ينفقونه على الضيوف والمساكين و قسماً منهما لآلهتهم و ينفقونه على سدنتها و يذبحون عندها ثم إن رأوا أن ما عتبتوا لله أركى بدّلوه بما لآلهتهم، و إن رأوا أن ما لآلهتهم أركى تركوه لها حبا لآلهتهم و عللوا ذلك بأن الله غنى.

و روى أيضاً: أنه كان إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله ردّوه، و إذا اختلط ما جعل لله بما جعلوه للأصنام تركوه، و قالوا: الله غنى، و إذا انخرق الماء الذي لله في الذي للأصنام لم يسدوه، و إذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٣

[سورة الأنعام (٦): آية ١٣٧]

وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)

انخرق من الذي للأصنام في الذي لله سدوه و قالوا: الله غنى ..

فرد عليهم سبحانه بقوله: ساء ما يحكمون أي أن حكمهم بالتشريك أو عند الاختلاط، و التزكية، سيئ، فإن الله و إن كان غنياً، لكن هذا العمل مخالف لجلال شأنه و عظيم كبريائه.

[١٣٨] وَ كَذَلِكَ أَي كما جعل المشركون في الحرث و الأنعام ما لا يجوز، كذلك فعلوا بالنسبة إلى أولادهم ما لا يجوز زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فاعل «زين» «شركاؤهم» أي أن الشياطين الذين اتخذهم المشركون شركاء لله زينوا لهم قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ مفعول «زين» شُرَكَائِهِمْ فقد كان كثير من المشركين يعبدون الجن، و هي توحى لهم بالأعمال السيئة. فقد كانوا يقتلون البنات خوفاً من العار، كما قال سبحانه: وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ * ..

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ «١»، و قال: وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ «٢»، و كانوا يقتلون البنين خوف الفقر، كما قال سبحانه: وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ «٣»، لِيُزِدُوهُمْ مِنْ «أرادهم» بمعنى:

«أهلكه» أي أنه كانت غاية الشياطين- الشركاء- الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم، إرادة إهلاك الأولاد بالقتل، و إهلاك الآباء بالذنب وَ لِيُلبسوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ أَي يخطوا عليهم الحق بالباطل حتى

(١) النحل: ٥٩ و ٦٠.

(٢) التكويز: ٩ و ١٠.

(٣) الأنعام: ١٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٤

[سورة الأنعام (٦): آية ١٣٨]

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعَمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)

لا يعرفوا أحدهما من الآخر، وفي الغالب يأتي أهل الباطل بضغث من الحق وضغث من الباطل، حتى لا يصغر الحق، فيتبعه الناس ولو شاء الله ما فعلوه أى ما قتلوا أولادهم، و مشيئة الله إنما هي بجبرهم على الهدى، لكنه لا يشاء لأن الدنيا خلقت للاختبار فعدوهم أى دعهم و اتركهم يا رسول الله و ما يفترون أى افتراؤهم على الله سبحانه، فقد كان المشركون ينسبون أباطيلهم إليه سبحانه، و «ذرهم» تهديدا لهم، لا أن معناه عدم وجوب ردعهم و نهيهم.

[١٣٩] وَقَالُوا أَيْ قَالَ الْمُشْرِكُونَ فِي قِسْمٍ آخَرَ مِنْ خَزَعِلَاتِهِمْ: هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ أَيْ مَوَاشٍ وَزَرْعٌ حِجْرٌ أَيْ حَرَامٌ لَا يَطْعَمُهَا أَيْ لَا يَأْكُلُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ وَهِيَ الَّتِي خَصَّصَهَا لِأَصْنَامِهِمْ فَقَدْ كَانَتْ خَاصَّةً لِلسُّدْنَةِ لَا يَشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ بَزْعَمِهِمْ أَيْ قَدْ كَانَ هَذَا التَّحْرِيمُ زَعْمًا مِنْهُمْ، إِذْ لَمْ يَنْزِلْ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ وَعَمِدُوا إِلَى قِسْمٍ ثَانٍ مِنَ الْأَنْعَامِ فَحَجَرُواهَا وَقَالُوا: هَذِهِ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا أَيْ لَا تَرْكَبُ، لِأَنَّهَا نَذِرَتْ لِلْأَلْهَةِ، أَوْ لِأَنَّهَا وَلَدَتْ كَذَا وَلَدًا، أَوْ لِأَنَّهَا حَمَتْ ظَهْرَهَا، مِنَ السَّائِبَةِ وَأَخْوَاتِهَا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَعَمِدُوا إِلَى قِسْمٍ ثَالِثٍ مِنَ الْأَنْعَامِ فَهِيَ أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا عِنْدَ الرُّكُوبِ، أَوْ عِنْدَ الذَّبْحِ، أَوْ لَا يَحْجُونَ عَلَيْهَا، وَقَدْ كَانُوا يَنْسُبُونَ كُلَّ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ افْتِرَاءً عَلَيْهِ فَقَدْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٩ إلى ١٤٠]

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

هذه النسب سيجزيهم الله سبحانه بما كانوا يفترون أى بسبب افترائهم على الله سبحانه كذبا و زورا.

[١٤٠] وَقَالُوا أَيْ قَالَ الْمُشْرِكُونَ فِي قِسْمٍ آخَرَ مِنْ أَبَاطِيلِهِمْ: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ مِنَ الْأَجْنَةِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا أَيْ نِسَائِنَا، إِنْ كَانَتْ حَيَّةً وَإِنْ يَكُنْ مَا فِي بُطُونِ الْأَنْعَامِ مَيْتَةً بَأَنْ خَرَجَ الْجَنِينُ مَيْتًا فَهُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً فِيهِ شُرَكَاءُ يَجُوزُ لِلنِّسَاءِ أَكْلُهُ كَمَا يَجُوزُ لِلرِّجَالِ سَيَجْزِيهِمْ اللَّهُ تَعَالَى وَصَفَهُمْ أَيْ هَذَا الْوَصْفُ الَّذِي كَانُوا يَصِفُونَ بِهِ الْجَنِينَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَ«وَصَفَ» مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَيْ «بِوَصْفِهِمْ» إِنَّهُ سُبْحَانَهُ حَكِيمٌ يَحْكُمُ عَنْ حِكْمَةٍ وَمَصْلَحَةٌ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصْدُرُ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَجَازِيهِمْ حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ وَ الْحِكْمَةِ.

[١٤١] ثُمَّ يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: قَدْ خَسِرَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ خَوْفَ الْعَارِ أَوْ الْفَقْرِ أَوْ لِلنَّذْرِ— فَقَدْ كَانُوا يَنْذِرُونَ قَتْلَ الْأَوْلَادِ— سَفَهًا أَيْ جَهْلًا وَسَفَاهَةً، فَإِنَّهُمْ اشْتَرَوْا بِذَلِكَ النَّارَ بِغَيْرِ عِلْمٍ بِمَا يَعْمَلُونَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَزْعُمُونَ صِحَّةَ عَمَلِهِمْ هَذَا وَحَرَّمُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٦

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤١]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالتَّحْلِ وَالتَّحْلِ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)

مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَيَّ خَسْرًا بِتَحْرِيمِهِمْ قَسَمًا مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ حَجَرٌ لِأَصْنَامِهِمْ أَفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ حَيْثُ كَانُوا يَنْسُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ قَدْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ.

[١٤٢] وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي أَنْشَأَ أَيَّ خَلْقٍ وَأَبْدَعَ جَنَاتٍ أَيَّ بَسَاتِينَ مَعْرُوشَاتٍ أَيَّ مَجْعُولَاتٍ لَهَا عُرُوشٌ مِنَ الْكُرُومِ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ مِنَ الْأَشْجَارِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْعُرُوشِ بَلْ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِهَا وَأَنْشَأَ النَّخْلَ لِلتَّمْرِ وَالزَّرْعَ مِنْ مَخْتَلَفِ الْمَزْرُوعَاتِ فِي حَالِ كَوْنِ جَمِيعِ ذَلِكَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ أَيَّ ثَمَرِهِ الَّذِي يُؤْكَلُ، وَالْاِخْتِلَافُ فِي اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالشَّكْلِ وَالْخَوَاصِّ وَأَنْشَأَ الزَّيْتُونَ وَالزَّمَانَ وَذَكَرَهُمَا لِكَثْرَتِهِمَا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ فِي حَالِ كَوْنِ ذَلِكَ كَلَّهُ، أَوْ الْأَخِيرِينَ مُتَشَابِهًا يَشْبَهُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ مِنْ حَيْثُ اللَّوْنُ وَالرَّوْقُ وَالشَّجَرُ وَغَيْرَهَا كُلُّوْا أَيَّهَا الْبَشَرُ مِنْ ثَمَرِهِ أَيَّ ثَمَرِ هَذَا الْمَنْشَأِ إِذَا أَثْمَرَ فَإِنَّ ذَلِكَ مَبَاحٌ لَكُمْ وَأَتَوْا حَقَّهُ أَيَّ الْحَقِّ الْمَجْعُولِ عَلَيْهِ، وَهُوَ إِعْطَاءُ الْفُقَرَاءِ مِنْهُ شَيْئًا، حَفْنَةً حَفْنَةً، أَوْ كَفَا كَفَا يَوْمَ حَصَادِهِ أَيَّ جَنِيهِ وَقَطَعَهُ وَلَا تُسْرِفُوا فِي بَابِ مَا رَزَقْنَاكُمْ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٢ إلى ١٤٣]

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُّوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ بَيَّنُّونِي بَعْلَمِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣)

بأن تعطوا الجميع، أو تصرفوه فيما لا يعنى، أو ما أشبه إنَّه سبحانه لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ أَيَّ يَكْرَهُهُمْ.

[١٤٣] وَأَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ حَمُولَةً هِيَ الْإِبِلُ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ كُلَّ مَا يَحْمِلُ مِنَ الْخَيْلِ وَالْبَعَالِ وَالْحَمِيرِ وَالْإِبِلِ وَفَرْشًا أَيَّ مَا يَفْتَرَشُ مِنْ جُلُودِهَا كَالْغَنَمِ، أَوْ الْمَرَادُ بِالْفَرْشِ صِغَارُهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ صَالِحَةً لِلْحَمْلِ، كُلُّوْا أَيَّهَا الْبَشَرُ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَحْرَمُوا شَيْئًا مِنْهَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْرَمُونَ بَعْضَ الطَّيْبَاتِ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ كَأَنَّ الْعَاصِيَ يَضَعُ قَدَمَهُ حَيْثُ وَضَعَ الشَّيْطَانُ قَدَمَهُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أَيَّ وَاضِحُ الْعَدَاوَةِ، لِأَنَّهُ يَسَبِّبُ ذَهَابَ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ.

[١٤٤] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَنْعَامِ مُحْرَمًا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ اخْتِلَاقٌ مِنَ الْجَهَالِ، إِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْشَأَ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْأَنْعَامِ الثَّلَاثَةَ، وَ«الزَّوْجِ» يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ الَّذِي يَقَعُ مَعَهُ الْآخَرُ، وَعَلَى الْاِثْنَيْنِ، فَالزَّوْجُ زَوْجٌ وَالْمَرْأَةُ زَوْجٌ، كَمَا أَنَّ كِلَيْهِمَا زَوْجٌ مِنَ الضَّأْنِ وَهِيَ الشَّاةُ اِثْنَيْنِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى وَ«اِثْنَيْنِ» بَدَلٌ مِنْ «ثَمَانِيَةَ» وَمِنَ الْمَعْرِ وَهِيَ السَّخْلُ اِثْنَيْنِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهَوْلَاءِ الَّذِينَ يَحْرَمُونَ بَعْضَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ: أَلَذَّكَرَيْنِ دَخَلَتْ هَمْزَةٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٨

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤٤]

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)

الاستفهام على همزة الوصل وفصل بينهما بالألف، ولم تسقط همزة الوصل لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر وإن جاز الحذف لقرينه «أم» أي:

هل أحد الذكركين من الضأن والمعز حرم الله أم إحدى الأنثيين منها أم حرم سبحانه ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أي الجنين الذي اشتمل عليه رحم الضأن والمعز، فإنهم كانوا يقولون: إن ما فى بطون هذه الأنعام محرم على الإناث وخالص للذكور بئنونى أى: أخبرونى أيها الكفار المحرمون لبعض هذه الأقسام بعلم أى: عن دليل عملى، لا- الأوهام والظنون إن كنتم صادقين فى تحريم الله سبحانه لهذه الأقسام.

[١٤٥] وَمِنَ الْإِبِلِ اِثْنَيْنِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى «مِنَ الضَّأْنِ اِثْنَيْنِ» وَمِنَ الْبَقَرِ اِثْنَيْنِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، وَهَذَا تَمَامُ الثَّمَانِيَةِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهَوْلَاءِ: أَلَذَّكَرَيْنِ أَيَّ: هَلْ أَنْ وَاحِدًا مِنَ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمْ إِحْدَى الْأُنثَيْنِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ

الْأُنثَيْنِ مِنَ الْجَنَسَيْنِ - كما تقدم - أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ أَى:

حضوراً - مقابل «نبئوني بعلم» - أَى: هل علمتم أو حضرتم التحريم؟

إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا التَّحْرِيمِ، وَ إِذْ لَا دَلِيلَ لَكُمْ لَا سَمَاعًا وَلَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٩

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤٥]

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)

حضوراً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ مِنْ يَنْسِبُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَكْمًا بِالْكَذِبِ هُوَ أَظْلَمُ النَّاسِ لِنَفْسِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ التَّفْضِيلَ هُنَا نَسْبِي لَا وَاقِعِي لِئَصِلَ النَّاسُ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيُوقِعُ النَّاسَ فِي الضَّلَالَةِ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِصِحَّةِ عَمَلِهِ، بَلْ يَعْلَمُ بِطِلَانِهِ أَوْ يظُنُّ مَا يَقُولُهُ ظَنًّا إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ بَلْ يَتْرَكُهُمْ وَ شَأْنَهُمْ حَتَّى يَتِمَادُوا فِي غِيهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ.

[١٤٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ: لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَى مَا أُوحِيَ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي بَابِ تَحْرِيمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَنَاوَلُونَهَا أَنْتُمْ وَ الَّتِي تَحْرِمُونَهَا مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ أَى عَلَى آكَلٍ يَأْكُلُهُ، فَكُلُّ مَا تَذْكُرُونَ تَحْرِيمَهُ بَاطِلٌ، بَلْ هُوَ حَلَالٌ طَيِّبٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً غَيْرَ مَذْكُورٍ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَى مَسْفُوحًا، وَ إِنَّمَا خَصَّ الْمَسْفُوحَ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّ مَا اخْتَلَطَ بِاللَّحْمِ مِمَّا يَعْسُرُ تَخْلِيصَهُ مِنْهُ مَحَلٌّ مَبَاحٌ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ ذِكْرَ اللَّحْمِ مِنْ بَابِ الْمَثَالِ، وَ إِلَّا فَشَحْمَهُ وَ سَائِرَ أَجْزَائِهِ أَيْضًا حَرَامٌ فَإِنَّهُ أَى كَلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ، أَوْ خُصُوصَ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ رِجْسٌ أَى قَدْرٌ مَنْفُورٌ مِنْهُ أَوْ فِسْقًا عَطْفٌ عَلَى «مَيْتَةٍ» أَى لَحْمًا يَكُونُ أَكْلُهُ فِسْقًا، لِأَنَّهُ خِلَافٌ إِبَاحَةَ اللَّهِ، وَ ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤٦]

وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)

فِيمَا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ أَى: ذَكَرَ عَلَيْهِ اسْمَ الْأَصْنَامِ حِينَ الْقَتْلِ، وَ لَمْ يَذْكُرْ عَلَيْهِ اسْمَ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ إِلَى تَنَاوُلِ أَحَدِ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ غَيْرَ بَاغٍ فِي أَكْلِهِ وَ لَا عَادٍ مِنَ التَّعَدَى، بِأَنَّ لَمْ يَكُنْ طَالِبًا لِأَكْلِ الْحَرَامِ، وَ مُتَعَدِيًا حُدَّ سَدِّ الرَّمَقِ - وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْمَعْنَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ - فَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ غَفُورٌ يَغْفِرُ لِمَنْ تَنَاوَلَ مَضْطَرًا رَحِيمٌ بِالْعِبَادِ حَيْثُ رَخَّصَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ عَدَمُ الْمَنَافَاةِ بَيْنَ عَدَمِ الْمَعْصِيَةِ وَ الْغَفْرَانِ.

[١٤٧] كَانَ هَذَا الْحُكْمُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِ الْيَهُودِ وَ أَمَا عَلَى الَّذِينَ هَادُوا فَقَدْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ مِنْ دَابَّةٍ لَيْسَتْ مَشْقُوقَةُ الرَّجْلِ كَالْإِبِلِ وَ النَّعَامِ، أَوْ الطَّيْرِ كَالْأَوْزِ وَ الْبَطِّ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا كُلَّ شَحْمٍ فِي بَدَنِهِمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَى الشَّحْمَ الَّذِي كَانَ عَلَى ظَهْرِهِمَا أَوْ مَا حَمَلْتَهُ الْحَوَايَا مِنَ الشَّحْمِ، وَ هِيَ: جَمْعُ «حَاوِيَةٌ»، وَ الْمُرَادُ بِهِ الْأَمْعَاءُ، وَ هُوَ الشَّحْمُ الْمَلْتَفُ بِالْأَمْعَاءِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ كَشَحْمِ الْجَنْبِ وَ الْإِلْيَةِ وَ نَحْوَهُمَا ذَلِكَ التَّحْرِيمُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ لِأَجْلِ ضَرَرٍ فِي الْمَحْرَمَاتِ عَلَيْهِمْ بَلْ جَزَيْنَاهُمْ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ أَى ظَلَمَهُمْ حَيْثُ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٧ إلى ١٤٨]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)

الله و يقتلون الأنبياء بغير حق وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِي إِخْبَارِنَا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا فَعَلُوا وَمَا فَعَلْنَا بِهِمْ، وَ ذَلِكَ بِخِلَافٍ كَثِيرٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ حَيْثُ يَلْفَقُونَ أَخْبَارًا مَكْدُوبَةً عَلَى أَعْدَائِهِمْ لِحَطِّهِمْ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ.

[١٤٨] فَإِن كَذَّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرْتَ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ، حَيْثُ قَالُوا: إِن حَرَامَ اللَّهِ وَ حَلَالَهُ كَمَا نَقُولُ، أَوْ فِيمَا ذَكَرْتَ عَنِ الْيَهُودِ مِنَ تَحْرِيمِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الْمَذْكُورَاتِ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ فَقُلْ لَهُمْ:

رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْهُ يَرْحَمُ جَمِيعَ ذَوِي الرُّوحِ، وَ لَذَا لَا يَعَاجِلُكُمْ بِالعُقُوبَةِ لِكِي تَتُوبُوا وَ لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُرَدُّ بِأَسْأَةِ أَي: لَا يَدْفَعُ عَذَابَهُ إِذَا جَاءَ وَقْتَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ ارْتَكَبُوا الْجَرَائِمَ.

[١٤٩] سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ اتَّخَذُوا شَرِيكًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، لِلدَّفَاعِ عَنِ أَنْفُسِهِمْ، وَ تَبْرِيرِ شُرَكَاهُمْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا نَشْرَكَ مَا أَشْرَكْنَا نَحْنُ وَ لَا- أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِ وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ إِذَا أَشْرَكْنَا وَ حَرَمْنَا وَ سَكَتَ اللَّهُ عَنَّا فَهُوَ يَرْضَى بِذَلِكَ وَ يَرِيدُ شُرَكَانَا وَ تَحْرِيمِنَا كَذَلِكَ أَي كَتَاكُذِبِ هَؤُلَاءِ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي قَوْلِكَ:

إِن اللَّهَ لَا يَرْضَى بِالشَّرْكِ وَ لَمْ يَحْرَمْ مَا حَرَّمْتُمُوهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ حَتَّى ذَاقُوا بِأَسْنَانِي أَي: حَتَّى نَالُوا عَذَابَنَا وَ نَكَالَنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٢

[سورة الأنعام (٤): الآيات ١٤٩ الى ١٥٠]

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ، رَدًّا عَلَى حِجَّتِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِلْمٍ بِأَنَّ اللَّهَ يَرِيدُ شُرُكَكُمْ وَ تَحْرِيمَكُمْ لِلْمَحَلَّاتِ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا وَ إِذْ لَيْسَ لَكُمْ دَلِيلٌ فَكَلَامِكُمْ خَالَ عَنِ الْحُجَّةِ إِنْ تَتَّبِعُونَ أَي مَا تَتَّبِعُونَ فِي أَقْوَالِكُمْ وَ أَعْمَالِكُمْ إِلَّا الظَّنَّ فَإِنَّكُمْ تَظُنُّونَ مَا تَقُولُونَ لِمَا اعْتَدْتُمْ عَلَيْهِ وَ إِنْ أَنْتُمْ أَي: مَا أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ الْخُرُصَ، هُو: التَّخْمِينُ.

[١٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: إِنَّكُمْ إِذَا عَجَزْتُمْ عَنِ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى عَقِيدَتِكُمْ وَ مَدْعَاكُمْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ الَّتِي بَلَّغْتُمْ، بِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ الشَّرْكَ، وَ لَمْ يَحْرَمْ الْمَذْكُورَاتِ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ بِالْجَبْرِ وَ الْإِكْرَاهِ، لَكِنَّهُ لَا يَشَاءُ ذَلِكَ حَتَّى يَجْرَى الْاِخْتِيَارُ وَ الْاِخْتِيَارُ.

[١٥١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَمُوا الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ: هَلَمْ أَي: أَحْضَرُوا شُهَدَاءَ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ حَرَمْتُمْ مِنْ أَقْسَامِ الْحَيَوَانِ وَ الزَّرْعِ، إِنَّهُ طَالِبُهُمْ بِالْعِلْمِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ طَالِبُهُمْ بِالشَّاهِدِ، لَكِنَّهُ لَا شَاهِدَ عِنْدَهُمْ، وَ لَكِنَّهُمْ قَدْ يَأْتُونَ بِشُهُودٍ زُورٍ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَعَهُمْ فَإِنْ شَهِدْتُمْ بِاطْلَعَهُ.

وَ إِنْ قِيلَ: كَيْفَ دَعَاهُمْ إِلَى الشَّهَادَةِ، ثُمَّ لَمْ يَقْبَلْ شَهَادَتَهُمْ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٣

[سورة الأنعام (٤): آية ١٥١]

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَنْزُرُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَ لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَ صَاكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)

قلنا: إنه دعاهم إلى أن يأتوا بالشهود العدول لا من أنفسهم، و إلا فالمدعى لا يكون شاهداً، فإن شهدوا بأنفسهم لم تقبل شهادتهم.

وَ لَا تَتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَي هَوَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِالْحَقِّ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَكُونَ مَتَبَعًا لَهُوَاهُ، وَ حَيْثُ يَرِشِدُهُ الْهَوَى إِلَيْهِ وَ لَا- تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا- يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ كَالْكَفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا عَلَى قَسْمَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ كَأَهْلِ الْكِتَابِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا كَالدَّهْرِيَّةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ أَي: يَجْعَلُونَ لَهُ عَدْلًا وَ شَرِيكًا.

[١٥٢] وَ بَعْدَ اسْتِنْكَارِ مَا حَرَمَهُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَ اسْتِنْكَارِ اسْتِحْلَالِهِمْ لِبَعْضِ الْمَحْرَمَاتِ، يَأْتِي السِّيَاقُ لِبَيَانِ الْمَحْرَمَاتِ الْوَاقِعِيَّةِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ:

تَعَالَوْا أَي أَقْبِلُوا وَاحْضَرُوا أَتْلُ أَي أَقْرَأُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ «مَا» مفعول «أتل» أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ أَي بِاللَّهِ شَيْئًا أَي لَا تَجْعَلُوا لَهُ شِرْكَانَهُ شَرِيكًا. وَ الْجُمْلَةُ فِي تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ، فَيَكُونُ بَدَلًا مِنْ «مَا حَرَّمَ» أَي أَتْلُ تَحْرِيمِ الشَّرْكِ. فَلَا يُقَالُ: إِنْ النِّفْيَ فِي النِّفْيِ يَفِيدُ الْإِثْبَاتَ. وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أَي أَوْصَاكُمْ بِهِمَا إِحْسَانًا، إِذْ فِي «حَرَّمَ» مَعْنَى الْإِيصَاءِ، وَ «إِحْسَانًا» مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ، تَقْدِيرُهُ: «أَحْسِنُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٤

بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا». وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَرْكَ كُلِّ وَاجِبٍ حَرَامٌ، وَ لِذَا صَحَّ تَعْدَادُهُ فِي جُمْلَةِ «مَا حَرَّمَ» وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ مِنْ إِمْلَاقٍ هُوَ الْفَقْرُ، أَي مِنْ جِهَةِ الْفَقْرِ، فَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ، خَوْفَ أَنْ يَفْتَرُوا فَلَا يَجِدُوا مَوْتَهُمْ. نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْآبَاءُ وَ إِيَّاهُمْ أَي الْأَبْنَاءَ، فَلَيْسَ رِزْقُهُمْ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ إِنْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرِّزْقَ يَحْتَاجُ إِلَى جَدِّ وَ تَعْبٍ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِرِزْقِهِ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ يَنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ فِي الدَّلْوِ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ جَمْعَ فَاحِشَةٍ، صِفَةٌ لِلْمَقْدَرِ أَي «الصفة الفاحشة» مَا ظَهَرَ مِنْهَا لِلنَّاسِ وَ مَا بَطَّنَ أَي أَتَى بِهِ سِرًّا، وَ هَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمَحْرَمَاتِ غَيْرِ الْمَذْكُورَةِ بِالنَّصِّ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِ وَ الْمَعَاهِدِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الِاسْتِثْنَاءَاتِ مِنَ أَصْلِ الْكَلَامِ، لَا مِنْ قَيْدِهِ، أَي لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَ الْحَقُّ فِي الْقَتْلِ فِي مَوَارِدٍ خَاصَّةٍ، كَالْجِهَادِ، وَ الزَّانِي الْمَحْصَنِ، وَ الْمُرْتَدِ الْفَطْرِيِّ، وَ الْمَهَاجِمِ وَ الْقِصَاصِ، وَ مَا أَشْبَهَ. ذَلِكَ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهِ أَي أَمَرَكُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْوَصِيَّةَ بِمَعْنَى الْأَمْرِ لَعَلَّكُمْ أَي تَحْكُمُونَ عَقُولَكُمْ فِي الْمَحْرَمِ وَ الْمَحَلِّ، فَلَا تَقُولُوا شَيْئًا عِبْطًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٥

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٢]

وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ بَعِّهْدُ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)

[١٥٣] وَ لَا- تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ وَ هُوَ مَنْ فَقَدَ الْأَبَّ وَ الْجَدَّ، أَوْ الْأَعْمَ مِنْهُ وَ مَنْ فَقَدَ الْأُمَّ، وَ كَلِمَةُ «لَا تَقْرَبُوا» لِلْمَبَالِغَةِ فِي الْاجْتِنَابِ، وَ تَخْصِيصِ الْيَتِيمِ بِالذِّكْرِ، مَعَ عَدَمِ جَوَازِ التَّصَرُّفِ فِي مَالِ كُلِّ أَحَدٍ بَدُونِ رِضَا، لِأَجْلِ أَنَّ الْيَتِيمَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ نَفْسِهِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَي بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنَ سَائِرِ الطَّرِيقِ، بَأَنَّ يَحْفَظُ لَهُ مَالَهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ ضَرُورِي لِمَعَاشِ الْيَتِيمِ حَيْثُ يَنْفَقُ عَلَيْهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ «الأشد»: جمع «شد» نحو: أضمر، جمع: ضرر، و الشد: القوة، و هو استحكام قوة الشباب، أي حتى يبلغ إلى قوة شبابه، و هو إنما يحصل بالبلوغ و الرشد، و البلوغ في الولد كمال خمس عشرة سنة، أو الإنبات، أو الاحتلام، و في البنت غالبًا كمال التسعة و الدخول في العاشرة و أوفوا الكيل و الميزان فلا تنقصوا الكيل و الميزان عند البيع، و لا تزيدوهما عند الشراء بالقسط أي بالعدل، فلا إفراط و لا تفريط.

لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أَي بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَسْعَاهَا، وَ لَا يُوجِبُ ضَيْقًا وَ حَرْجًا عَلَيْهَا، فَهَذِهِ التَّكَالِيفُ السَّابِقَةُ، لَا حَرْجَ فِيهَا عَلَى النَّفْسِ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْكَيْلِ وَ الْوِزْنَ حَسَبِ الْمَتَاعِ، لَا الدَّقَّةَ الْعَقْلِيَّةَ حَتَّى يُوجِبَ عَسْرًا وَ حَرْجًا.

وَ لَا يُقَالُ: فَكَيْفَ كَلَّفَ الْإِنْسَانَ بِالْجِهَادِ؟

لأننا نقول: إن الجهاد خارج عن هذا العموم، فإنه لإرساء قواعد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٦

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٣]

وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

الإسلام، و العموم إنما هو في مقابل التكليف في سائر الشرائع - المنحرفة - و القوانين المرهقة، فإنه يريد بيان سهولة أحكام الإسلام و سماحتها.

وَ إِذَا قُلْتُمْ شَيْئًا فَاعْدِلُوا فِي الْقَوْلِ، وَ الْعَدْلُ فِيهِ أَنْ لَا يَمِيلَ الْقَائِلُ نَحْوَ الْبَاطِلِ. فَالغيبه، و السب، و القضاء بغير الحق، و ما أشبهها، ظلم،

ليس بعدل و لو كان المقول فيه ذا قُربى فإن الناس غالباً يقولون الباطل لصالح ذوى قرباهم، و لذا يأمرهم سبحانه بالعدل بالنسبة إليهم وَ بَعَثَ إِلَهُ أَوْفُوا وَ المراد جميع معاهداته، كما قال: أَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ «١»، فالمراد الإتيان بالواجبات و ترك المحرمات ذلِكُم الذى تقدم ذكره من الأحكام وَ صَاكُم بِهِ على طريق اللزوم و الحتم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى لكى تتذكروا و تأخذوا به، و التذکر باعتبار ما هو كامن فى الفطرة من حسن هذه الأشياء، كما سبق.

[١٥٤] وَ صِيَاكُم سبحانه أَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا أى أن الأحكام التى أنزلتها توصل إلى السعادة، فهى طريق إليها بالاستقامة، لا كسائر الطرق الملتوية، التى قد لا توصل، و قد توصل بالتواء و عناء فَاتَّبِعُوهُ أى سيروا عليه و انتهجوه وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الأخرى من سبل الكفر و البدع

(١) البقرة: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٤ الى ١٥٥]

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَ هذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)

و الشبهات فَتَفَرَّقْ أى تتفرق تلك السبل بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ فتشتتكم، و تلهيكم عن طريقه سبحانه ذلِكُم الاتباع لسبيله وَ صَاكُم الله بِهِ إلزاماً لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أى لكى تتقوا عقابه و تحذروا الخسران.

[١٥٥] إن هذا الصراط كان قديماً قبل موسى و عيسى و محمد عليهم السّلام، و إن الجميع كانوا مأمورين باتباعه ثم بعد سبق هذا الصراط عند الأنبياء السابقين آتينا موسى الكتاب أى أعطيناها التوراة تماماً على الذى أحسن أى لأجل إتمام عمل موسى عليه السّلام الحسن الذى أداه؛ من القيام بالتبشير و الهداية، أو لأجل إتمام النعمة على موسى الذى أحسن الخدمة لله سبحانه، فإن إنزال الكتاب على النبى من أعظم المفاسخ بالنسبة إليه وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ مما يحتاج إليه الناس وَ هُدًى أى دلالة على الحق وَ رَحْمَةً يرحم الله بسببه على عباده حيث ينقذهم من الشقاء إلى السعادة لَعَلَّهِمْ أى لعل الناس بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ أى بملاقاة جزائه و ثوابه و عقابه يُؤْمِنُونَ فيسعدون.

[١٥٦] وَ هذا القرآن كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ لَهُ بَرَكَةٌ يَأْتِي مِنْهُ الخير الكثير فَاتَّبِعُوهُ أيها الناس وَ اتَّقُوا معاصى الله سبحانه، و مخالفه كِتَابَهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى لكى تشملكم الرحمة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٦ الى ١٥٧]

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَيَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

[١٥٧] و إنما أنزلنا هذا الكتاب أن تقولوا أى لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب من قبل الله سبحانه على طائفتين اليهود و النصرى من قبلىنا و لم يرتبط الكتاب بنا حتى نؤمن به و إن كُنَّا «إن» مخففة من المثقلة، أى أنه كُنَّا نحن العرب عَنْ دِرَاسَتِهِمْ أى دراسته أولئك الطوائف المنزلة عليهم الكتب، أى لغتهم لَغَافِلِينَ فلم نعرف ما فى كتبهم حتى نؤمن بها، فقد أنزلنا إليكم الكتاب حتى لا يكون لكم عذرا فى عدم الإيمان.

[١٥٨] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنا الْكِتَابَ الَّذِي نَفْهَمُهُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ أى أكثر هداية فى التمسك و العمل على طبق الكتاب لأننا أليين

عريكه، و أكثر تمسكا بالمعتقدات فَعَدَّ جَاءَ كُمْ أَيَّتْهَا الْأُمَّةُ المعاصرة للرسول يَبِيْنُهُ أَي دلاله واضحة مِنْ رَبِّكُمْ و هو القرآن وَ هُدًى يهتدى به إلى الحق وَ رَحْمَةً يرحم بها الله من تمسك به، إذ يسعده في الدنيا و الآخرة.

فَمَنْ أَظْلَمُ أَي من يكون أكثر ظلما لنفسه مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ! و هو القرآن وَ صَيَّدَفَ أَي أَعْرَضَ عَنْهَا أَي عن الآيات سَيَنْجِزِي فِي الْآخِرَةِ، أو الأعم منها و من الدنيا الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٩

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٨]

هَيْلٍ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُمْتَضِرُونَ (١٥٨)

آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ أَي العذاب الشديد بما كانوا يَصْدِفُونَ أَي بسبب إعراضهم عن الحق و الآيات.

[١٥٩] ما ينتظر هؤلاء الكفار بعد نزول القرآن؟ هَلْ يَنْظُرُونَ أَي هل ينتظرون للإيمان إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَ ذلك لا يمكن في دار التكليف أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ وَ ذلك مستحيل لأن الله لا- مكان له و لا حركة أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ أَي العذاب، حتى يروا العذاب فيؤمنوا يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا- يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ فَإِنَّ الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ لَا تَقْبَلُ التَّوْبَةَ، لأن العذاب لا ينزل إلا بعد تمام الحجة و المخالفة، و حين ذاك قد تم الاختبار و صار موعد المجازاة أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا عطف على «لم تكن آمنت»، و المعنى: أنه لا ينفع في ذلك اليوم إيمان نفس إذا لم تكن آمنت قبل ذلك اليوم، أو ضمت إلى إيمانها أفعال الخير، فإنها إذا آمنت فقد نفعها إيمانها، و كذلك إذا ضمت إلى الإيمان طاعة لنفعها أيضا، فلا ينفع إيمان الكافر، و لا طاعة المؤمن عند حلول العذاب، و إنما النافع الإيمان السابق، و الطاعة السابقة قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ: انْتَضِرُوا إِنِّي أَنَا مُمْتَضِرُونَ ذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٩]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ١٩٩

إِنَّ الَّذِينَ فَزَعُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) حتى يرى كل واحد منا جزاءه العادل و ما قدم لنفسه.

[١٦٠] ثم يقرر سبحانه أن الإسلام إنما هو دين واحد لا تفرقه فيه، فالذين يتفرقون ليسوا من الإسلام، كما أن من أشرك ليس من الإسلام إِنَّ الَّذِينَ فَزَعُوا دِينَهُمْ تفريقا بالأهواء كالكفار المختلفين، أو بالأديان كاليهود و النصارى و فرقهم، أو بالضلالة و الشبهات و لو في دين الإسلام، كالفرق المبتدعة، فإن الذين يفعلون ذلك وَ كَانُوا شِيعًا جمع «شيعه» أي طوائف مختلفة لَسْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ فلا ربط بينكما أبدا، و إنما هم في جهة و أنت في جهة.

و ليس معنى أن الجميع على باطل، بل المعنى أن ما ليس فيه الرسول باطل، و إلا فالحق دائما مع إحدى الطوائف إِنَّمَا أَمْرُهُمْ أَي أمر هؤلاء الذين فزَعُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيعًا إِلَى اللَّهِ فهو الذي يجازيهم لسوء أفعالهم ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ أَي يخبرهم بما كانوا يَفْعَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ. و هذا تهديد، كقولك: «الأعلمنك غدا» لمن خالف أمرك، تريد أنك تعاقبه بفعله.

و هنا سؤال: إذا علمنا نحن المسلمين بطلان سائر المذاهب و الطوائف، فماذا نفعنا بهذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم؟

و الجواب: إن الكتاب و السنه يأمرنا باتباع على و أهل بيته الأئمة الأحد عشر عليهم السلام، و بعد ذلك فقد عين الفقهاء الراشدون لمرجعية الأمة، في

قوله عليه السلام: «من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥١

[سورة الأنعام (٦): آية ١٦٠]

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)
مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه» (١).

و

قوله عليه السلام: «أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم و أنا حجة الله» (٢).

أما الاختلاف بين الفقهاء في بعض الفروع فليس ذلك اختلافا يذكر، بل هو كالاختلاف بين كل مهندسين، أو طبييين، أو حاكمين، مع إخلاص كل منهما و اتحاد منهجهما.

ثم إنه قد يستغرب: كيف يكون مصير هذه الكثرة من الناس الذين ليسوا بمسلمين، و كثير من المسلمين المنحرفين، النار، و من يبقى للجنة إذا؟

و الجواب: إن ما يستفاد من الآيات و الروايات أن الخلود في النار إنما هو للمعاند، و لا دليل على أنه لا يمتحن القاصر من البشر في الآخرة ليدخل الجنة، بل دلّ الدليل على ذلك، كما هو مذكور في علم الكلام. و من المعلوم عدم كون أكثر الناس مقصرين معاندين، إذا فليس بالبعيد دخول كثرة هائلة من البشر الجنة، للإيمان و حسن العمل في الدنيا، أو حسن الامتحان في الآخرة.

[١٦١] و إذ تقدم الكلام حول الجزاء يقرر السياق القاعدة العامة له و أنه مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ التَّاءِ إما للمبالغة، و إما للتأنيث أى طاعه حسنة فَلَهُ من الثواب عَشْرُ أَمْثَالِهَا على الأقل و إلا فقد يبلغ الثواب إلى سَبْعِ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ «٣»، وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فِي التَّاءِ القَوْلَانِ، و إذا كانت للتأنيث فهي صفة «خصلة» فلا

(١) تفسير الإمام العسكري: ص ٢٩٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٤٠.

(٣) البقرة: ٢٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٦١ إلى ١٦٢]

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِن صَّلَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَعْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)

يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا سِئَةً واحدة و إن كانت عظيمة جدا، فلا يقال: ما فائدة «الواحدة» فيما لو كانت أعظم من المعصية ككذبة واحدة جزاؤها سنة في النار - مثلا -؟ فمثلا - جزاء من يسب الملك بلفظة مائة سوط، و هو جزاء واحد، و إن كان عظيما في نفسه و هم لا يُظْلَمُونَ في مقدار ما استحقوا من السيئات بل جزاء وفاقا.

[١٦٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: إِنِّي هَدَانِي رَبِّي أَي أُرْشِدُنِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ الْمُرَادُ: الصِّرَاطُ الْمَوْصِلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَى الْحَقَائِقِ وَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ دِينًا مَنْصُوبًا عَلَى تَقْدِيرِ هِدَانِي، أَي هِدَانِي دِينًا، أَوْ عَلَى الْحَالِ أَي أَنَّ الصِّرَاطَ فِي حَالِ كَوْنِهِ دِينًا قِيمًا أَي مُسْتَقِيمًا، وَ هُوَ مُصَدَّرٌ، كَ «الصَّغْرِ وَ الْكَبِيرِ» مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ بَدَلُ مِنْ «دِينًا» وَ الْمِلَّةُ: هِيَ الشَّرِيعَةُ، مَأْخُودَةٌ مِنْ «الْإِمْلَاءِ» لِأَنَّ الشَّرْعَ يَمْلِيهِ الرَّسُولُ عَلَى أُمَّتِهِ، وَ إِنَّمَا نَسَبَ الدِّينَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ عَلَى جَلَالَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ صِحَّةِ دِينِهِ، وَ قَدْ كَانَتِ الْأَدْيَانُ كُلُّهَا دِينًا وَاحِدًا فَلَا مَانِعَ أَنْ يَنْسَبَ الْإِلَهِ إِلَى السَّابِقِ حَنِيفًا أَي فِي حَالِ كَوْنِ تِلْكَ الْمِلَّةِ مِثْلَهُ عَنِ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ، مِنْ «حَنْفٍ» بِمَعْنَى «مَالٍ» وَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا كَمُشْرِكِي مَكَّةَ وَ لَا

يهوديا و لا نصرانيا، فكلاهما مشركان.

[١٦٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤَلَاءِ: إِنَّ صَلَاتِي وَ هِيَ الصَّلَوَاتُ الَّتِي يَأْتِيهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٦٣ الى ١٦٤]

لَا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذَلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

الإنسان واجبه أو مندوبة و نسبي النسك: العبادة، يقال: رجل ناسك أى متعبد، و يقال للأضحية: النسكية، للتقرب بها إلى الله، فهى عبادة و محياى و مماتى أى حياتى و موتى لله رب العالمين فإن عبادتى له وحده بلا شريك، و أموالى ملكه و بقدرته لا بشركه أحد معه.

[١٦٤] لَا شَرِيكَ لَهُ لَا أَشْرَكَ أَحَدًا بِهِ فِي الْعِبَادَةِ، وَ لَا أَزْعَمُ أَنْ لَهُ شَرِيكًا فِي حَيَاتِي وَ مَوْتِي وَ بِذَلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَوْ الْمَرَادُ رَتْبُهُ إِسْلَامِي مِنْ أَوَّلِ الرَّتْبِ.

[١٦٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤَلَاءِ: أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ الْإِسْتِفْهَامُ لِلإِنْكَارِ، أَيْ كَيْفَ أَتَّخِذُ غَيْرَ اللَّهِ إِلَهًا - بِالْإِسْتِقْلَالِ أَوْ بِالشَّرْكَ - وَ الْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟

وَ لَا - تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا فَإِذَا اِكْتَسَبَتِ الْمَعْصِيَةَ بِالشَّرْكَ، لِحَقْنِي جَزَائِي السَّيِّئِ، وَ لَا تَزِرُ أَيْ لَا تَحْمِلُ مِنْ «وِزْرِ» بِمَعْنَى حَمْلِ الإِثْمِ وَازِرَةٌ أَيْ نَفْسٌ حَامِلَةٌ وَزْرَ أَيْ مَعْصِيَةَ نَفْسٍ أُخْرَى بَلْ عَصِيَانٌ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى نَفْسِهِ وَ هُوَ يَحْمِلُ تَبِعْتَهُ.

قيل: إن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: اتبعنا و علينا وزرك إن كان خطأ، فأنزل الله هذه الآية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٤

[سورة الأنعام (٦): آية ١٦٥]

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ أَيْ إِلَىٰ حِسَابِهِ مَصِيرُكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، أَوْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فَيُنَبِّئُكُمْ أَيْ يُخْبِرُكُمْ بِمَا أَيْ بِالشَّيْءِ الَّذِي كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ لِيَجَازِيَ كُلَّ إِنْسَانٍ وَ مَا عَمَلَهُ مِنْ إِحْسَانٍ وَ إِسَاءَةٍ.

[١٦٦] وَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَإِنكُمْ تَخْلِفُونَ أَهْلَ الْعَصْرِ السَّابِقِ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ وَ مَا عَلَيْهَا، كَمَا أَنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ يَخْلَفُكُمْ وَ يَرِثُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ وَ أَمْوَالِكُمْ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ذَكَاءً، وَ عِلْمًا، وَ مَالًا، وَ مَنْصَبًا، وَ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ، فَإِنَّ

الأُمُورَ التَّكْوِينِيَّةَ وَ التَّقْدِيرِيَّةَ كُلَّهَا بِيَدِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ لِيُبْلِغُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ أَيْ اسْتَخْلَفَكُمْ وَ أَعْطَاكُمْ عَطَاءً مُتَفَاوِتًا لِيُخْتَبِرَكُمْ، وَ يَظْهَرُ سَرَائِرَكُمْ، وَ هَلْ أَنْتُمْ تَطِيعُونَ أَمْ تَعْصُونَ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ فَلَا يَظُنُّ الْكَافِرُ وَ الْعَاصِي، أَنَّ الْعِقَابَ بَعِيدٌ، فَإِنَّ أَمَدَ الدُّنْيَا قَصِيرٌ مَهْمَا

طَالَ، أَوْ الْمَرَادُ سُرْعَةُ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا، وَ قَبْلَ الْآخِرَةِ، إِذِ الْمَعْصِيَةُ تَوْجِبُ آثَارَ وَخِيْمَةَ فُورًا فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ رَحِيمٌ يَرْحَمُ الْعِبَادَ، وَ يُتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ مِنْ وَاسِعٍ فَضْلُهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٥

٧ سورة الأعراف مكية / آياتها (٢٠٧)

سميت السورة بهذا الاسم لوجود كلمة «الأعراف» فيها. و لما ختم سبحانه «الأنعام» بالرحمة، افتتح هذه السورة بأنه أنزل كتابا فيه معالم الدين و الحكمة.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أبتدئ بها السورة، و أجعل الإله الرحمن الرحيم، قدام قراءة تى لها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)

[٢] المص قد تقدم تفسير فواتح السور المقطعة، و أنها رموز بين الله و الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أو أن من جنس هذه الحروف.

[٣] كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَهُوَ الْقُرْآنُ فَلَيْسَ حُرُوفُهُ أَمْراً خَارِقاً، و إنما التركيب أمر خارق فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَرَجٌ وَضَيْقٌ مِنْهُ أَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، حيث ترى أن قومك يكذبوك و يؤذوك في سبيله، بل اطمئن بنصر الله سبحانه و حسن ثوابه، و إنما أنزل الكتاب إليك لِيُنذِرَ بِهِ أَى بِهَذَا الْكِتَابِ، الكافرين و العصاة، بعقاب الله تعالى و ليكون ذِكْرًا و تَذَكُّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ فيتذكرون به الدين و الأصول و الفروع، ليعملوا بما فيه.

[٤] اتَّبِعُوا أَيُّهَا النَّاسُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَ الْأَحْكَامِ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَى غَيْرَ رَبِّكُمْ تَعَالَى أَوْلِيَاءَ كَالْأَوْثَانِ، و الكفار قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَى قَلِيلًا - أَيُّهَا الْبَشَرُ - تَذَكَّرْكُمْ و اتعاضكم.

[٥] وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَى كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَهْلَكْنَاهَا عَثَرَ بِالْقَرْيَةِ وَ أَرِيدُ أَهْلَهَا بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، و المراد بالإهلاك إرادته، فإنه كثيرا ما يقال الفعل و يراد مقدماته - كما قرر في علم البلاغة - فَجَاءَهَا بِأَسْنًا أَى عَذَابُنَا بَيَاتًا أَى بِاللَّيْلِ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ أَى فِي وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ وَ هِيَ نِصْفُ النَّهَارِ، من «أقال» بمعنى «أراح»، و من المعلوم أن العذاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥ الى ٨]

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَ الْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨)

في هذين الوقتين أشد وقعا لغفلة الناس و راحتهم.

[٦] فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ أَى دَعَاءُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ، و كلامهم إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا وَقْتِ مَجِيءِ الْعَذَابِ إِلَّا الْاعْتِرَافَ بِذُنُوبِهِمْ بَأَنَّ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فاعترفوا بما كان منهم حين رأوا العذاب.

[٧] لكن الاعتراف لم ينفعهم فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَى الْأُمَمَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرسل، يسألهم عن أعمالهم، و ما أجابوا به الرسل لما بعثوا إليهم وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ أَى الْأَنْبِيَاءِ، فإن كل واحد من الرسل و الأمم لا بد و أن يحضر في محضر الحساب.

[٨] و ليس السؤال لجهلنا بما صدر من الطرفين فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ أَى نَقْصَ مَا كَانَ مِنَ الطَّرْفَيْنِ قِصَّةً صَادِرَةً عَنْ عَلْمِنَا بِأَحْوَالِهِمْ، فليس السؤال إلا التقرير و التأكيد على أنفسهم وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ حِينَ عَمِلُوهَا بَلْ كُنَّا شُهُودًا عَلَيْهِمْ حَاضِرِينَ - علما - عند أعمالهم.

[٩] وَ الْوِزْنَ لِلْأَعْمَالِ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَلَا يَنْقُصُ حَقٌّ وَ لَا يَزِيدُ عَلَى حَقٍّ، و إنما توزن الأعمال بموازين عادلة فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ الصالحة، و إنما جمع «الميزان»، باعتبار كل عمل عمل الذين ثقلت موازينهم هُمُ الْمُفْلِحُونَ الَّذِينَ فَازُوا بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩ الى ١٠]

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)

[١٠] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ الصالحة بأن ثقلت موازين سيئاته فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فإن النفس كانت لتحصيل الجنة، فقد حصل الإنسان بها النار بما كانوا أى بسبب كونهم بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ أى بسبب جحودهم بما جاء به الرسل من الآيات.

و هنا سؤال: ما هى طبيعة «الموازن» فى الآية؟

و الجواب: من المحتمل أن يراد بها الموازين المعقولة لا المحسوسة، كما يقال: و زنت فلان، أو فلان خفيف الوزن، أو فلان له وزن، وهكذا. و الله سبحانه يعلم قيمة الأعمال، كما أننا نعرف قيم بعض الأعمال، فنقدر المهندس و عمله أكثر مما نقدر العامل. كما أن من المحتمل أن يراد بها الموازين المحسوسة بأن تتجسم الأعمال، فللصلاة صورة و وزن، و هكذا لسائر الأعمال الخيرية و الشريفة، ثم توزن فى موازين كموازين الدنيا.

[١١] وَ كَيْفَ لَا- تخضعون لله سبحانه، و الحال أنه بالإضافة إلى نعمة إرسال الرسل و الهداية، ابتدأ عليكم بنعمة الحياة؟ ف لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ أيها البشر فى الْأَرْضِ بأن جعلنا الأرض تحت إرادتكم تبون و تررعون و تخرجون كنوزها وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ أى ما تعيشون به من أنواع الرزق قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أى أن شكركم للنعم قليل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١ الى ١٢]

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)

[١٢] وَ قَبْلَ ذَلِكَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أى أوجدنا أصلكم الذى هو التراب، أو المنى، أو الدم، بعد العدم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ أفضنا عليكم الصورة الإنسانية، فى رحم الأمهات ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ إن أريد ب «ثم» معناها الظاهر، كان المراد من «خلقناكم» خلقنا أسلافكم، أى آدم عليه السلام، و من البلاغة أن ينسب الإنسان ما للآباء إلى الأبناء، كما قال: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ «١»، بالنسبة إلى اليهود المعاصرين للرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و إن أريد بها الترتيب فى الكلام، نحو «إن من ساد ثم ساد أبوه» كان الخطاب فى «خلقناكم» على ظاهره.

و قد كان أمرنا بالسجود لآدم- جدكم- نعمة و تشريفا لكم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ الشيطان، و يسمى إبليس لأنه «أبلس» و حرم من رحمة الله سبحانه لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ فإنه أبى و استكبر، و هو لم يكن من الملائكة، و إنما كان معهم فشملة الخطاب.

[١٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «لا» زائده فى الكلام، أى ما منعك أن تسجد، و إنما يؤتى بها لنكتة بديعة، هى قطع الكلام عما سبقه و الابتداء بالكلام التالى، ليتكرر التوبيخ كأنه قال «ما منعك»؟ و حذف المتعلق ثم سكت هنيئة، و ابتدأ «أن لا تسجد». و مثل هذا فى المحاورات كثير إِذْ أَمَرْتُكَ بالسجود قَالَ إبليس:

(١) البقرة: ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣ الى ١٥]

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ أى من آدم، فلا ينبغى للأرفع أن يسجد و يتواضع للأخفض، ثم علل كونه خيرا بقوله: خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ أى خلقت

آدم مِنْ طِينٍ و النار مضيئة و الطين كدر. لكن قياسه كان باطلا إذ مجرد الإضاءة لا تكون سبب الأفضلية، و إنما الأشياء بالكسر و الانكسار، و إعدام النار للأشياء بعكس الأرض المحيية لها جهة نقص فيها، سبب لرفعها الأرض عليها، بالإضافة إلى أن التواضع كان للآمر لا لآدم، فمن أمر عبده بأن يحمل طبقا من طين على رأسه كان عمل العبد امتثالا للسيد لا تواضعا للطين.

[١٤] قال الله سبحانه لإبليس: فَاهْبِطْ أَي اخرج خروجا انحداريا- إما منزلة أو حقيقة- مِنْهَا أَي من الجنة فَمَا يَكُونُ لَكَ أَي ليس لك حق أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا أَي في الجنة لأنها ليست موضع المتكبرين فَأَخْرَجَ إِيَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ من «الصغار» و هو «الذلة»، فَإِنَّكَ ذَلِيلٌ فِي مَقَامِ قَرِينَا، حقير عندنا.

[١٥] قال إبليس لله سبحانه: أَنْظِرْنِي أَي أمهلني لأن أبقى حيا إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ أَي يوم القيامة الذي يبعث فيه الخلق للجزاء.

[١٦] قال الله سبحانه: إِيَّاكَ يَا إِبْلِيسَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ أَي من الذين يمهلون و لا- يعجل لهم بالموت، و لعل المراد بسائر المنظرين «الملائكة»- أي أنت أيضا مثلهم في الإمهال- و لكن من المعلوم أنه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦ الى ١٧]

قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)

ليس الإنظار إلى يوم القيامة بل «إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

[١٧] قال إبليس بعد إمهال الله سبحانه له فِيمَا أُغْوِيْتَنِي أَي بسبب إغوائك لي، و ليس المراد إغواءه سبحانه، بل المراد الإتيان بسبب، و أمره بأمر سبب غوايته، و قد ذكرنا سابقا أن الأفعال إنما تنسب إليه سبحانه لأنه الخالق المهيئ للأسباب و الوسائل لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ أَي للبشر صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ أَي أقعد في طريقك لأغوى البشر عنه إلى الضلال و الانحراف، فإن إغوائى للبشر مقابل إغوائك لي، و قد كان هذا القياس من الشيطان أيضا باطلا، و هو مثل أن يعطى الأب و لديه رأس مال، فيأخذ أحدهما رأس المال و يذهب به نحو الفساد، ثم لما أتم ماله، و بقى رأس مال أخيه يقول لأبيه، كما سببت فسادى أسباب فساد أخى، و هذا الكلام خارج عن المنطق، إذ الأب لم يسبب فساده و إنما أراد صلاحه، بخلاف عمله في فساد أخيه فإن الفاسد يسبب فساده.

[١٨] ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ أَي من قدامهم وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ و هذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فكما يجلس اللص في طريق المسافرين، ثم يهاجمهم من جميع جوانبهم الأربعة ليسرق ما معهم، كذلك الشيطان يطوق الإنسان ليضله عن طريق الله سبحانه و لا تَجِدُ يَا رَبُّ أَكْثَرَهُمْ أَي أكثر البشر شاكرين لك و لنعمك، بل يتبعون طريق الكفران، فإن من عصى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨ الى ١٩]

قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)

الله سبحانه فقد كفر بنعمه و فضله.

و هنا سؤال: لم أطلق الله سبحانه إبليس ليضل البشر؟

و الجواب: لأن الدنيا وضعت للاختبار، و لو لم يكن الأمر بالشكر كانت الدنيا جبر و إكراه، و لم يكن للمطيع فضل يستحق به الجنة.

و سؤال ثان: أليس من الممكن أن يتفضل الله بالجنة على البشر بدون اختبار؟

و الجواب: كلا، إن الإنسان بالإطاعة يكون قابلا للدرجات، كالتلميذ الذي يكون قابلا للتعليم- بالقراءة و الامتحان- فلو لم تكن إطاعة لم تكن قابلية، و من المعلوم أن حرمان القابل لأجل غيره ظلم، ألا ترى لو أن الحكومة لم تفتح المدرسة لتهديب النفوس المستقيمة

الذكية، إشفاقا على البليد الذي يرسب، كان ظلما للذكي النابه.

و الكلام طويل مذكور في كتب الكلام و الفلسفة.

[١٩] قَالَ اللهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ: أَخْرِجْ مِنْهَا أَيَّ مِنَ الْجَنَّةِ مَيِّدُومًا مِّنْ «ذَامٍ يَدَامُ» فَهُوَ «مَذْءُومٌ» بِمَعْنَى: عَابٌ، فَإِنَّ الذَّامَ وَالذَّيْمَ أَشَدَّ الْعَيْبِ مَيِّدُورًا أَيَّ مَطْرُودًا، مِّنْ «دَحْرٍ» بِمَعْنَى: طَرَدَ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَيَّ: أَوْ كَدَّ أَنْ مِّنْ تَبِعَكَ مِنَ الْبَشَرِ لِأَمْلَائِنَ أَيَّ أَمْلًا بِالتَّأَكِيدِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ مِّنَ التَّابِعِ وَالتَّبَوُّعِ أَجْمَعِينَ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ.

[٢٠] وَبَعْدَ تَمَامِ الْكَلَامِ مَعَ الشَّيْطَانِ تَوَجَّهَ الْخَطَابُ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي خَلَقَهُ سَبْحَانَهُ لِلِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حَوَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٣

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠]

فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)

الْجَنَّةُ هُوَ أَمْرٌ مِنَ «السَّكَنِ» دُونَ السَّكُونِ، وَالتَّقْدِيرُ «وَلِتَسْكُنَ زَوْجُكَ» فَكَلَامٌ مِنْ حَيْثُ شَتَّتُمَا مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ بِالْأَكْلِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْإِقْتِرَابِ مَبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ الْأَكْلِ، نَحْوُ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ «١»، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ حَوْلَ مَا هِيَ الشَّجَرَةُ، فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِكُمَا، وَ الظُّلْمُ كَانَ لِأَجْلِ أَنْ الْأَكْلَ يَسَبِّبُ خُرُوجَهُمَا.

[٢١] فَوَسَّوَسَ لَهُمَا أَيَّ لآدَمَ وَ حَوَاءَ، وَ مَعْنَى الْوَسْوَسَةِ: الْإِلْقَاءُ فِي الذَّهْنِ إِلقاءَ مَرْدَدًا، هَلْ يَفْعَلُ أَوْ لَا يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ فِي أَكْلِ الشَّجَرَةِ لِيُبْدِيَ لَهُمَا أَيَّ لِيُظْهِرَ لَهُمَا، وَ «اللام» لِلْعَاقِبَةِ، نَحْوُ: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَيْدًا وَ حَزَنًا «٢»، مَا وُورِيَ أَيَّ مَا سَتَرَ مِنْ «وَارِي» عَلَى وَزْنِ «فَاعِلٍ» عَنْهُمَا أَيَّ عَنِ آدَمَ وَ حَوَاءَ مِنْ سَوَاتِيهِمَا أَيَّ عَوْرَتَيْهِمَا، فَقَدْ كَانَ آدَمُ وَ حَوَاءُ مُسْتَوْرَيْنِ بِالسُّوءِ الْجَنَّةِ وَ كَانَ لِأَزْمِ إِخْرَاجَهُمَا إِذَا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَنْزِعَ عَنْهُمَا اللَّبَاسَ، فَكَانَ عَاقِبَةُ أَكْلِهِمَا إِظْهَارَ عَوْرَتَيْهِمَا، وَ سَمِيَتِ الْعَوْرَةُ «سُوءَةً» لِأَنَّهَا يَسُوءُ الْإِنْسَانَ ظَهْرَهَا.

وَ قَالَ الشَّيْطَانُ فِي وَسْوَسَتِهِ لَهُمَا مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ

(١) الإسراء: ٣٥.

(٢) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢١ إلى ٢٢]

وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِيهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِمَا فَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَ أَقْبَلْتُ لَكُمَا إِنْ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوًّا مُّبِينًا (٢٢)

الشَّجَرَةُ أَيَّ عَنِ أَكْلِهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ فَلَيْسَ النَّهْيُ لِأَجْلِ تَحْرِيمِ الْأَكْلِ عَلَيْكُمَا، بَلْ لِأَجْلِ أَنْ تَبْقِيَا فِي صُورَةِ الْبَشَرِ - الْمُحِبَّةِ إِلَيْكُمَا - أَمَا إِذَا لَمْ تَشَاءَ فَلَا مَانِعَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ عَنِ أَكْلِكُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ، وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُ أَوْهَمَهُمَا أَنَّ النَّهْيَ لَيْسَ وَرَاءَهُ لَوْمٌ، وَ إِنَّمَا هُوَ نَهْيٌ صَلاَحٌ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ فَمَنْ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ إِمَّا أَنْ يَصْبِحَ مَلَكًا، أَوْ يَكُونَ إِنْسَانًا خَالِدًا.

[٢٢] وَ قَاسَمَهُمَا أَيَّ حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ «قَاسَمَ» وَ «أَقْسَمَ» بِمَعْنَى الْحَلْفِ إِنِّي لَكُمَا يَا آدَمَ وَ حَوَاءَ لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَإِنِّي أَنْصَحُكُمْ بِالْأَكْلِ لِتَكُونَا كَسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ تَبْقِيَا مَخْلُودِينَ فِي الْجَنَّةِ.

[٢٣] فَدَلَّاهُمَا أَيَّ دَلَّى الشَّيْطَانُ آدَمَ وَ حَوَاءَ، مِّنْ «تَدْلِيَّةِ الدَّلْوِ» وَ هُوَ أَنْ تَرْسَلَهَا فِي الْبَثْرِ، بِمَعْنَى دَلَّاهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ بِغُرُورٍ أَيَّ

بما غرهما من الكلام و القسم فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَانَ أَكَلَا مِنْهَا شَيْئًا يَسِيرًا انترعت ملابسهما و بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا أى ظهرت عورتاهما وَ طَفِيقًا أى شرعا يَخْصِفَانِ أى يجمع عليهما أى على أنفسهما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ فقد أخذنا من أوراق شجرة التين، و جعلنا يلفان على عورتيهما وَ نادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٥

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٣]

قالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) أَنَّهُكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ أى عن تناول هذه الشجرة، فلما ذا أكلتما منها؟ وَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ أى عدو ظاهر، فلم سمعتما كلامه؟

و هنا سؤال: كيف يمكن لمثل آدم النبي المعصوم عليه السلام أن يترك قول الله سبحانه: لا- تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ «١»، و يأخذ بقول الشيطان القائل: إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ

و الجواب: إن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، و لعل آدم و حواء ظنا أن المراد بالظلم أن يكونا ملكين و بالأخص لما حلف الشيطان لهما، فإنهما لم يكونا يحتملان أن أحدا يحلف بالله كاذبا- كما في الحديث-

و قد تكرر استعمال الظلم لوضع الشيء في غير موضعه، و إن لم يكن فيه غضاضة أصلا، كما قال سبحانه حكاية عن موسى: ظَلَمْتُ نَفْسِي «٢»، و لعلهما ظنا أن الأصل بحالهما أن يبقيا بشرا- حسب كلام الله- لكنهما شاءا الجائر، كما يترك الإنسان كثيرا ما الأصلح لما يجده أوفق بحاله، و هذا مما لا ينافي مقام العصمة إطلاقا.

[٢٤] قالوا أى قال آدم و حواء عليهما السلام: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا بِارْتِكَابِ

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) القصص: ١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٦

المنهى عنه و أكل الشجرة وَ إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا أى تستر علينا، و هو كناية عن العفو عما صدر وَ تَرْحَمْنَا أى تتفضل علينا برحمتك لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ الذين خسروا بعض درجاتهم. و حيث تقرر عقلا و نقلا أن الأنبياء معصومون، كان اللازم القول بعدم كون أكل الشجرة معصية إطلاقا، و إنما كان النهي للإرشاد، كما يقول الطبيب للمريض:

«لا تشرب هذا المائع فيطول مرضك»، فإنه نهى للإرشاد، و يكون ارتكابه موجبا لطول المرض فقط، و ليس هذا مما يوجب العقاب. و كذلك كان النهي بالنسبة إلى أكل الشجرة، لأنه كان لإرشادهما إلى البقاء في الجنة أبدا، كما قال سبحانه: إِنْ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى وَ أَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَصْحَى «١»، و كان الأكل موجبا للخروج من الجنة، و لقاء مشاكل الدنيا، و الظلم- كما تقدم- هو وضع الشيء في غير موضعه و يلائم ارتكاب المنهى إرشادا، كما يلائم القبيح، كما أن الغفران هو الستر، و هو يلائم العصيان و يلائم ارتكاب المنهى الإرشادي، و الخسران يلائم عدم الربح المتوقع، و لذا يقول التاجر: «خسرت» فيما إذا لم يربح المتوقع.

ألا ترى أن المريض إذا ارتكب ما يسبب طول مرضه، يقول للطبيب: «اشتبهت، فتدارك الأمر، و إلا خسرت صحتك في هذه المدة» و لم يكن ذلك عصيانا إطلاقا. و من هنا اشتهر في تسمية هذا النوع من الخلاف ب «ترك الأولى» أى أن الأولى كان عدم الارتكاب، و هنا سؤالان:

(١) طه: ١١٩ و ١٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٧

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٤]

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُشْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤)

الأول: كيف يصدر مثل هذا الترك من الأنبياء ولهم المقام الرفيع؟

الثاني: إن هذا فتح لباب التأويل وارتكاب خلاف الظاهر ولا داعي له؟

والجواب عن الأول: أن ذلك لئلا يعتقد البشر ألوهية الأنبياء، فإن من عادة البشر الغلو بالنسبة إلى القديسين، وذلك ضد الغلو، وإن غالى بعض الضعاف أيضا.

والجواب عن الثاني: إن فتح هذا الباب مما لا بد منه، فإن الكلام مشتمل على المجاز والكناية وما أشبهه - حتى بالنسبة إلى كلام البشر العادي، فكيف بالبلغاء - وإلا لزم القول بالتجسيم لقوله سبحانه: «إلى ربها ناظرة» (١)، والظلم لقوله: «مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ «٢»، والكذب لقوله:

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ «٣»، إلى غير ذلك. وقد جرت قوانين البلاغة على أن يصرف الكلام إلى المراد منه، وإن كان خلاف الظاهر اللفظي، إذا دل دليل من العقل والنقل على المراد، أما إذا لم يكن هناك دليل، أخذ بظاهر الألفاظ.

[٢٥] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَآدَمَ وَحَوَاءَ وَإِبْلِيسَ: اهْبِطُوا مِنَ الْجَنَّةِ هَبوطاً نحو الأسفل حيث كانت الجنة أعلى من الأرض، أو هبوطاً رتيباً، إن كانت من جنان الدنيا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فالشيطان عدو لهما و هما عدوان له، وبين المرأة والرجل تنافس وتجادب وَلَكُمْ جميعاً فِي الْأَرْضِ مُشْتَقَرٌّ أى محل قرار وَمَتَاعٌ تتمتعون به من المأكل

(١) القيامة: ٢٤.

(٢) النساء: ٨٩.

(٣) الأنفال: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشًا وَ لِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

والملبس وغيرهما إلى حين الموت أو حين البعث.

[٢٦] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ثانياً: فِيهَا أى فى الأرض تَحْيَوْنَ أى تعيشون، أو المراد يحيى لك نسل وَ فِيهَا تَمُوتُونَ جميعاً وَمِنْهَا أى من الأرض تُخْرَجُونَ يوم القيامة للحساب والجزاء.

[٢٧] ثم خاطب الله سبحانه البشر، بمناسبة نزع الشيطان لباس أبيهم، وبمناسبة ما وعد من أن لهم فى الأرض متاع، بقوله: يَا بَنِي آدَمَ والخطاب بهذا اللفظ للتذكير بجدهم آدم عليه السلام - لمناسبة الموضوع - قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا إما المراد «الإنزال» حقيقة، بأن أنزل اللباس من الجنة، أو «الإنزال» مجازاً بنزول المطر الذى هو سبب نبات القطن وما أشبهه، ورعى الحيوانات ذات الأصواف، أو المراد «التعظيم» لعظم المعطى، كما يقال: «رفعت عريضتى إلى القاضى» تعظيماً لمقامه وأنه أرفع منزله من صاحب العريضة، ومثله وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ «١»، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ «٢»، أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا* رَسُولًا «٣»، يُؤَارِي أى يستر سَوْآتِكُمْ أى عوراتكم وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ رِيشًا أى أثاثاً مما تحتاجون إليه، و«الريش» ما فيه الجمال، ومنه ريش الطائر وَ لِبَاسُ التَّقْوَىٰ أى الاجتناب عن معاصى الله سبحانه، وسمى لباساً لأنه يستر الشر الكامن فى نفس الإنسان، كما يستر اللباس

(١) الزمر: ٧.

(٢) الحديد: ٢٦.

(٣) الطلاق: ١١ و ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٩

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٧]

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

مواضع القبح من بدن الإنسان، فمثلا من يغتاب غيره يظهر قبح نفسه، فإذا اتقى سترت هذه التقوى قبحه النفسى ذلك خَيْرٌ من جميع أنواع اللباس الظاهرة، إذ القبايح النفسية أكثر وأبشع من القبايح البدنية، لأن القبايح الكامنة إذا ظهرت توجب النار و الخزي بخلاف قبايح الجسد ذلك أى لباس التقوى من آيات الله «من» إما للإنشاء، أى أن لباس التقوى ينشأ من الآيات و الحجج التى أنزلها الله سبحانه، و إما تبعيضية أى أن التقوى من جملة آيات الله و علاماته، لأنه هو الذى أمر بالتقوى لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أى جعل الله التقوى آية لكى يتفكر الإنسان، و يتذكر فيما أودع فى فطرته، فيسعد.

[٢٨] يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ أَي لَا يَضَلُّكُمْ بِأَنْ يَدْعُوَكُمْ إِلَى الْمَعَاصِي فَتَجِيبُوهُ فَيَحْرِمَكُم مِّنَ السَّعَادَةِ وَ الْجَنَّةِ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ آدَمَ وَ حَوَاءَ مِنَ الْجَنَّةِ وَ نَسَبَهُ الْإِخْرَاجَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ بِإِغْوَائِهِ وَ وَسْوَسَتِهِ، إِخْرَاجًا بِصُورَةٍ بَشَعَةٍ حَيْثُ كَانَ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا وَ النَّزْعَ وَ إِنْ كَانَ مِنْ فَعْلِهِ سَبْحَانَهُ، إِلَّا أَنَّهُ حَيْثُ كَانَ بِسَبَبِ الْوَسْوَسَةِ، صَحَّ الْإِنْتِسَابُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ عَنْ فِرْعَوْنَ: يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ «١»، مَعَ أَنَّ الذَّبْحَ كَانَ مِنْ فِعْلِ جُنُودِ فِرْعَوْنَ لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا أَي عَوْرَتَيْهِمَا. وَ لَعَلَّ السَّرْفَ فِي تَكَرُّرِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ تَرْكِيزُ الْبِشَاعَةِ فِي نَفْسِ السَّامِعِ، فَمَنْ يَرِغَبُ فِي أَنْ تَبْدُو سَوْءَةً؟

(١) القصص: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٠

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٨]

وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ آمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)

و حيث كان هنا محل سؤال: أنه كيف يفتن الشيطان الإنسان و لا يراه؟ قال سبحانه: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ أَي نسله، فإن للشيطان نسلا كما للإنسان، كما قال سبحانه أ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ «١»، مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْ جِنْسٍ لَطِيفٍ لَا يَرَى بِالْعَيْنِ الْمَجْرُدَةَ، كَالهَوَاءِ اللَّطِيفِ الَّذِي لَا يَرَى، وَ إِنْ أَحْسَسَ بِهِ الْإِنْسَانُ.

و من قال: إنه كيف يأمر بذلك؟

فالجواب: إن هذه الإلقاءات فى القلب بالشر، كلها منه، كما أن الإلقاءات الخيرة من الملائكة- كما فى الأحاديث- و إلا فمن أين هذه الإلقاءات؟! إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ مَعْنَى «جَعَلَهُ» سَبْحَانَهُ: التَّخْلِيفُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ، وَ مَعْنَى كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءَ: أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ، وَ يَتَّخِذُونَهُمْ مَحَلَّ الْوَلِيِّ الْحَمِيمِ فِي التَّضَادِقِ مَعَهُمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ.

[٢٩] وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ وَلِيًّا، إِنَّهُمْ مَقْلِدُونَ تَقْلِيدًا أَعْمَى، كَاذِبُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ، عَالِمُونَ بِالْفَحْشَاءِ، فَهَم مَجْمَعُ الرِّذَالِ حَيْثُ تَرَكُوا الْإِيمَانَ وَ إِذَا فَعَلُوا أَي فَعَلَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَاحِشَةً أَي خَصَلَهُ فَاحِشَةً، مُتَعَدِيَةً عَنِ الْحَقِّ، فَإِنَّ «فَحْشًا» بِمَعْنَى «تَعَدَّى»، وَ هَذَا عَامٌ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْمَعَاصِي قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا

(١) الكهف: ٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧١

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٩]

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)

أى على هذه الفاحشة آباءنا فإننا نقلبدهم فى عملهم هذا واللّه أمرنا بها أى بهذه الفاحشة- و كان قولهم هذا كذبا- قُلْ يا رسول الله لهم: إن الله لا يأمر بالفحشاء ثم رد عليهم من وجه آخر هو: أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ على نحو الاستفهام الإنكارى.

وقد ورد فى التفسير: أن الآية نزلت بمناسبة ما كان يفعله المشركون، فإنهم كانوا يبدون سوءاتهم فى طوافهم، فكان يطوف الرجال والنساء عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ولا نطوف فى الثياب التى قارفنا فيها الذنوب، و كانت المرأة تضع على قبلها السعة فى الطواف و تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

تعنى «العورة»، فكان التذكير بذلك بمناسبة إنعام الله على بنى آدم باللباس، و فى سياق نزع إبليس لباس آدم و حواء عليهما السلام. [٣٠] قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الذين إذا فعلوا الفاحشة قالوا إن الله أمرنا بها: أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ أى بالعدل و الحق، لا بالفحش و التجاوز و أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ فلا تتخذوا الشيطان وليا، كالمشركين، و هذا إما عطف على «أمر ربى» أى قل: أقيموا، و إما عطف على «لا يفتننكم الشيطان». و لعله المناسب للمعنى، و هو أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٠ إلى ٣١]

فَرِيقًا هَادِيًا وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٠) يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)

الله يأمر بالقسط، و بالإخلاص، أو للقصة، و هو أن اللازم إقامة الوجه، لا إقامة الفرج- كما كانوا يطوفون عراة-

و ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية هدم لما كان أهل الجاهلية يلتزمون به من اختصاص الشعائر بقبيلة دون قبيلة، فكان لهذا صنم و لذلك صنم و لهذه كعبة و لتلك كعبة، فإن الإسلام يرى المساجد كلها لله، و اللازم على المسلم أن لا يفرق بينها، أو أنه فى قبال المسيحيين الذين كان لكل طائفة منهم كنيسة.

و ادعوه أى ادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى ليكن دعاؤكم فى حال كونكم أخلصتم له دينكم كما يَدَأُكُمْ أى خلقكم تَعُودُونَ فهو وحده الذى خلق و يعيد، فلا معنى لأن يشرك به غيره.

[٣١] إنكم ستعودون فريقين فريقاً هادياً أى هداه الله سبحانه و فريقاً حَقَّ أى ثبت عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ لأنهم أعرضوا عن الهداية و سلكوا سبيل الغواية، و إنما ضلوا بسبب إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فكانوا يتبعون أوامر الشياطين لا أوامر الله سبحانه، و لذا ضلوا و من اللطيف أنهم يَحْسَبُونَ أى يظنون و يزعمون أَنََّّهُمْ مُّهْتَدُونَ و أن طريقتهم حق.

[٣٢] و بمناسبة ذكر المسجد يأتى الحكم حول أمر مرتبط بالمسجد كما أن بمناسبة ذكر المحرمات سابقاً يأتى بيان الحرام و الحلال، و بيان أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٣

الطيب غير محرم و إنما حرم الخبيث لمصلحة الإنسان يا بَنِي آدَمَ خطاب لكل مكلف من أبناء آدم و حواء خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أى ثيابكم التى تترينون بها، خذوها و ألبسوها إذا أردتم الذهاب إلى المسجد.

روى أن الحسن بن علي عليهما السلام كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه. فقيل له: يا بن رسول الله! لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: «إن الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربي، وهو يقول: خذوا زينتكم عند كل مسجد، فأحب أن ألبس أجود ثيابي» (١).

و الظاهر أن الآية عامة تشمل غير الثياب أيضا و لذا

روى عن الصادق عليه السلام تفسيرها ب «التمشيط» (٢).

و كَلُّوا وَ اشْرَبُوا أى مباح لكم المأكل و المشروب، فإن الأمر هنا للإباحة و لا تُشِرُّفُوا فى الأكل و الشرب، أو فى كل شىء، و الإسراف هو التجاوز، فقد يصل إلى حد المكروه، و قد يصل إلى حد الحرام إنَّه تعالى لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ أى يكرههم و يبغضهم. و لعل التعبير ب «لا يحب» لبيان أن الله سبحانه لعلو مقامه و عظمته فيجب على الإنسان أن يجتنب ما لا يحبّه، فكيف بما يكرهه، و قد جرى ديدن العظماء أن يعبروا ب «لا أحب» فيما لا يريدونه.

(١) وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٤٥٥.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢ ص ١٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٤

[سورة الأعراف (٧): آية ٣٢]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

[٣٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ جميع أنواع الزينة من المساكن و المنتزهات و الحلى و الملابس و المراكب و غيرها وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ المأكَل الحلال، أو المراد: كل رزق، و الاستفهام على سبيل الإنكار، أى أنها ليست بمحرمة و لا حق لأحد فى تحريمها، فما يفعله الرهبان ليس صحيحا.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هِيَ أى الزينة و الطيبات - باعتبار كل واحد منهما - لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فما يتناوله الكفار منها حرام لا يجوز، فى حال كونها خَالِصَةً للمؤمنين بلا مشاركة الكافرين لهم إطلاقا - حتى على وجه الحرام - يَوْمَ الْقِيَامَةِ فإن الطيبات للمؤمنين فى الدنيا و فى الآخرة، لكن الكفار يشاركون المؤمنين زورا فى الدنيا، و لا - يقدررون على ذلك فى الآخرة، و هناك احتمال آخر: أى أن الطيبات خالصة فى الآخرة لمن آمن فى الدنيا، فتكون جملة واحدة، لا جملتان، ثم لا يخفى أن كون الطيبات للمؤمنين فى الدنيا - على المعنى الأول - لا - يقتضى جواز تناولها من يد الكافر غير الحربى، بحجة أنها ليست له، فإن الله سبحانه جعل فى الدنيا لغير الحربى حرمة، لأجل استقامته أمور العالم.

كَذَلِكَ أى كما فصلنا الأمور السابقة، و واضحة لا لبس فيها نُفَصِّلُ الْآيَاتِ الدالة على الأصول و الفروع لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فإن العلماء هم الذين يستفيدون من هذه الآيات.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

[٣٤] و لما بيّن سبحانه المحللات عطف عليها المحرمات، فقال: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ جمع «فاحشة» أى الخصلة الفاحشة، المتعدية عن الحق، من «فحش» بمعنى تعدى، و المراد بها:

كل منكر ما ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ أى ما أعلن أو أخفى.

ثم بين سبحانه بعض أفراد الفاحشه لأهميتها والأثم أى الخمر، فإنه من أسمائها قال الشاعر:

شربت الإثم حتى زال عقلى كذاك الإثم يفعل بالعقول

وَالْبَغَىٰ أَى الظلم بِغَيْرِ الْحَقِّ هذا قيد توضيحي، لإفاده أن البغى ليس بحق، كقوله سبحانه: وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ (١)، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ أَى حرم سبحانه الشرك ما لم يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا أَى لم يقم له دليل، و كل شرك كذلك، فالقيد توضيحي لبيان أن الإشراك ليس بأمر الله، خلافا لما كان المشركون ينسبون شركهم إليه سبحانه وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَى أنه تعالى حرم نسبة ما لا تعلمون إليه، خلافا للكفار حيث أنهم كانوا يفعلون المعاصى ويقولون: «أمرنا الله بها».

[٣٥] ثم سلى سبحانه نبيه، بأن لا يضيق صدره بما يفعله الكفار، من

(١) آل عمران: ٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٦

[سورة الأعراف (٧): آية ٣٥]

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)

اقتراف هذه الجرائم كلها بقوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ أَى لكل جماعة و أهل عصر و مصر مدة لا يتجاوزونها، و لهؤلاء مدة، ثم يلقهم الموت، و ينسيهم البلى، و ستطهر الأرض منهم فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ بأن توجه الأجل إليهم لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً أَى لا يتأخرون مقدارا من الزمن، فإن «الساعة» فى اللغة بمعنى: مقدار الزمان قصر أم طال و لا يَسْتَفِدُّونَ أَى لا يتقدمون على مواعدهم، فإذا قدر هلاك أمة فى الساعة الرابعة من يوم الجمعة، فإذا توجه الأجل إليهم فى الصباح لا يتأخرون إلى الساعة الخامسة، و لا يتقدمون إلى الساعة الثالثة. و الظاهر أن الفعلين بمعنى «الاستفعال»، أى لا- يطلبون- طلبا مفيدا- التقديم و التأخير، و ليس «جاء» بمعنى «وقع» حتى يقال: إن التقديم و التأخير لا يعقل بالنسبة إلى الأمر الواقع، و ليس فى الكلام مجاز المشاركة، إذ «جاء» لفظ يقع بالنسبة إلى الواصل، و بالنسبة إلى من فى الطريق.

[٣٦] يَا بَنِي آدَمَ خُطَابٍ لِعُمُومِ الْمَكْلُفِينَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ أَى إن أتاكم، فإن «إما» مركبة من «إن» الشرطية و «ما» الزائدة رُسُلٌ مِنْكُمْ لا يقال: لا رسول بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم فما معنى ذلك؟ قلت: إن الشرط قد يصاغ لإفاده التحقيق، فهو إنشاء مفهوم الشرط لغرض آخر، كما ينشأ مفهوم التعجب و الأمر و الاستفهام، لأغراض أخرى، فالمراد- هنا- أن الرسل تأتي لتبين للناس، فمن أطاع سعد، و من خالف شقى يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ أَى يخبرونكم آياتى و أحكامى فإن «قص» بمعنى «اتبع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصَبٌ مِنْهُمُ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)

الأثر»، فالنقل عن الله سبحانه قصة عنه فَمَنِ اتَّقَىٰ إِنْكَارِ الرُّسُلِ وَ الْآيَاتِ، أو اتقى المعاصى و أَصْلَحَ عمل صالحا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ كخوف سائر الناس و لا- هُمْ يَحْزَنُونَ كحزنهم، فإن أهل التقوى يعلمون أن ما يصيبهم إنما هو بإذن الله، و أن الله أعد لهم أعظم الجزاء، و لذا لا يكون للكوارث عليهم وقع، كما أنهم يكونون مطمئنين بثواب الله فى الآخرة و رحمته، و لذا لا يكون لهم خوف من العقاب كخوف غيرهم.

[٣٧] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَى حججنا و دلائلنا، و أنكروا الأنبياء و الرسل وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا بأن رأوا أنفسهم فوق الرسل، و فوق

الإذعان لآيات الله أولئك أصحاب النار الملامون لها، فإن الملام للشيء يقال له صاحب هم فيها خالدون إلى الأبد.

[٣٨] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَى لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ، فهو إخبار في صورة استفهام، ليكون أبلغ، إذ السامع يعد نفسه ليجيب بجواب يرضى المتكلم، فهو إخبار مع أخذ الموافقة من السامع أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الدالَّة على الألوهية، أو الرسالة، أو المعاد، أو سائر الشؤون الحقَّة أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب فينالهم جميع ما كتب لهم من الخير والشر، والرزق والعمر، في دار الدنيا، فلا يقطع تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٣٨]

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨)

عنهم ما كتب لهم، بسبب كفرهم حتى إذا جاءتهم رسلنا أى ملائكة الموت لتقبض أرواحهم، بعد أن أتموا مدتهم المكتوبة لهم يتوفونهم أى يقبضون أرواحهم قالوا أى الملائكة، لهم: أين ما كنتم تدعون من دون الله أى أين ذهبت أصنامكم التى تجعلونها شريكه لله؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وبيان أنها لم تنفعكم فى دفع العذاب الآن قالوا يعنى الكفار: ضلوا تلك الأصنام عنا فقد افتقدناهم فلا- يقدرون على دفع العذاب عنا وشهدوا أى الكفار على أنفسهم أنهم كانوا كافرين وأخذ بإقرارهم ليجزون بكفرهم.

[٣٩] وإذا كان يوم القيامة قال الله سبحانه لهم: ادخلوا فى أمم أى جماعات وطوائف من الكفار السابقين قد خلت أى مضت و سبقتكم من قبلكم من الجن والإنس فى النار وهذا نوع من عذاب آخر لأن الإنسان بحشره مع المجرمين يعذب نفسياً، كما يعذب جسدياً بإدخاله النار، وهؤلاء لا صفاء بينهم، فاجتماعهم فى الدنيا على الكفر لا يسبب ارتياح بعضهم مع بعض هناك، بل بالعكس، فكلما دخلت أمة من تلك الأمم الكافرة، النار لعنت أختها أى الأمة السابقة التى هى أختها فى الكفر، فإن النار محل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٩

خصام و تضارب بعكس الجنة التى دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحييتهم فيها سلام «١»، إخواناً على سرر متقابلين «٢».

حتى إذا آذركوا أى تلاحقوا واجتمعوا، أصله «تدارك» قلبت التاء دالا، وأدغمت الدال فى الدال، و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن فيها أى فى النار جميعاً أى جميع الأمم الكافرة قالت أخراهم أى الطائفة التى دخلت النار متأخرة وهم الأتباع لأولاهم أى بالنسبة إلى الرؤساء الذين دخلوا أولاً: ربنا هؤلاء الطائفة الأولى أضلونا حيث أغرونا لتتخذ معك شريكا ونخالف أوامر رسلك فآتهم أى أعطهم عذاباً ضِعْفًا أى مضاعفا: عذابا لكفرهم، و عذابا لإغوائهم إيانا من النار وبهذا يريدون الانتقام من القادة المغوين.

قال الله تعالى فى جوابهم: لكل منهم و منكم ضعف أى عذاب مضاعف، فلرؤساء الضعف للكفر والإغواء، و للتابعين الضعف للكفر و تقوية مكانة الرؤساء، فإنه لو لا التابعين لم يتمكن المتبوعون من السيطرة و إقصاء الحق، كما

قال الإمام عليه السلام لتابعى بنى أمية «لو لا أنتم لما غصبوا حقنا»

و لكن لا تعلمون أيها الضالون

(١) يونس: ١١.

(٢) الحجر: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

و قالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون (٣٩) إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا

تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)

والمضلون مقدار عذاب كل واحد منكم، ولا الفرق بين الضعف في المتبوع، وبين الضعف في التابع.

[٤٠] وحينما يسمع القادة جواب الله سبحانه للتابعين، يتوجهون إليهم بالشماتة، قائلين: لسنا أولى منكم بالعذاب ليكون لنا ضعف، فكلنا سواء في الكفر وقالت أولاهم القادة لأخراهم التابعين: فما كان لكم أيها التابعون علينا من فضل و تفاوت في الكفر، بأن يكون كفركم أخف من كفرنا، حتى تستحقون عذابا أقل فذوقوا أيها التابعون العذاب بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والمعاصي.

[٤١] إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَمْ يَقْبَلُوها وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أَى تَكْبَرُوا عَنِ الْخُضُوعِ لَهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أما المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ السماء نادى مناد اهبطوا به إلى سجين»

وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ أَى يَدْخُلَ الْبَعِيرُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ أَى ثَقِبَ الْإِبْرَةُ، فكما يستحيل دخول الجمل في ثقبها، كذلك يستحيل دخول الكافر في الجنة، وهذا تمثيل بديع للاستحالة، وقيل المراد بـ «الجمل» الحبل الغليظ وكذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤١ إلى ٤٣]

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

أى كما جزينا هؤلاء المكذبين نجزي سائر المجرمين وإن كان اختلاف بين أنواع الجزاء، فكل إجرام له جزاء خاص، و عقوبته مخصوصة.

[٤٢] لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ أَى فِرَاشٌ وَمُضْجَعٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ جَمْعُ «غَاشِيَةٌ»، أَى لِحْفٌ مِنْ نَارٍ، فَالنَّارُ مُحِيطَةٌ بِهِمْ سَفَلًا وَعُلَا وَ كَذَلِكَ أَى كَمَا جَزَيْنَا الْمَكْذِبِينَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِاتِّبَاعِ أَمْرِ الشَّيْطَانِ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ.

[٤٣] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَن صَبَحَتْ عَقِيدَتُهُمْ وَعَمَلُهُمْ، وَ لَا يَرَادُ بِأَنَّهُمْ عَمِلُوا كُلَّ الصَّالِحَاتِ، بَلْ قَدَرُ طَاقَتِهِمْ وَسَعْيِهِمْ، لِأَنَّا لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا مَقْدَارَ وَسْعِهَا وَ الْوَسْعُ دُونَ الطَّاقَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْمَلَاذِمُونَ لَهَا أَبَدَ الْأَبْدِينَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

[٤٤] وَ هُنَاكَ لَا تَنَازُعٌ وَ لَا تَخَاصُمٌ - كَمَا كَانَ عِنْدَ أَهْلِ النَّارِ - وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ أَى: أَخْرَجْنَا مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حَقْدٍ وَ حَسَدٍ وَ عَدَاوَةٍ حَتَّى لَا يَحْسُدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا كَانَ تَقِيًّا لَا يَخْلُو قَلْبُهُ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَ هُنَاكَ تَصَفَّى قُلُوبُهُمْ، لِيَكُونُوا إِخْوَانًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٤٤]

وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)

قلبا و قالبا تجرى من تحت قصورهم و بساتينهم الأناهار هذه جملة مستأنفة، أى أنهم يكونون هكذا فى الجنة فى قبال الكفار الذين «لهم من جهنم مهاد» و قالوا الحمد لله الذى هدىنا لهذا أى أوصلنا إلى هذا النعيم، بما هدىنا سابقا فى الدنيا للعقيدة الصحيحة، و العمل الصالح و ما كنا لنهتدى أى لم نقدر على الهداية بأنفسنا لو لا أن هدىنا الله فإن الإنسان لا يهتدى إلا بإرسال الله الرسل، و تبليغه الأحكام، و هذا شكر من أهل الجنة، و تقدير لنعم الله عليهم، فى الدنيا بالهداية، و فى الآخرة بالجنة لقد جاءت رسل ربنا بالحق و أنهم أرسلوا من قبله سبحانه، و كان ما قالوه حقا، و ها نحن نرى صدق ما قالوا و نودوا أى أهل الجنة ينادون من قبل الله

سبحانه: أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدْتُمُوهَا فِي الدُّنْيَا، هِيَ هَذِهِ الَّتِي دَخَلْتُمُوهَا، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَرَادَ كَوْنُ النَّدَاءِ قَبْلَ دُخُولِهَا- فَإِنَّ الْوَاوَ لِمَطْلُوقِ الْعَطْفِ أَوْرَثْتُمُوهَا أَيَّ أُعْطِيتُمْ إِيَّاهَا إِرْثًا، وَ صَارَتْ إِلَيْكُمْ كَمَا يَصِيرُ الْمِيرَاثُ لِأَهْلِ الْمَيْتِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَيَّ جِزَاءَ لِأَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا.

[٤٥] وَ حَيْثُ يَسْتَقِرُّ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ، فِي مَقَرِّهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ، يَقَعُ بَيْنَهَا الْحَوَارِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي وَ نَادَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٣

[سورة الأعراف (٧): آية ٤٥]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)

أَيُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَهْلُ النَّارِ، وَ الْإِتْيَانُ بِلَفْظِ الْمَاضِي «نَادَى» لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الْمَتَحَقَّقَ الْوَقُوعَ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْمَاضِي: أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبُّنَا حَقًّا فَقَدْ أُعْطِينَا الثَّوَابَ وَ الْجَنَّةَ كَمَا كُنَّا نُوْعِدُ فِي الدُّنْيَا فَهَلْ وَجَدْتُمْ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ النَّارِ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِقَابِ حَقًّا وَ الْوَعْدُ وَ إِنْ كَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ إِلَّا أَنْ انْحَرَفَ الْعَاصِينَ وَ إِعْرَاضَهُمْ، وَ اهْتَدَاءَ الْمُطِيعِينَ إِلَى الطَّرِيقِ، أَوْرَثَ تَوَجُّهَ الْوَعْدِ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَ الْوَعْدِ إِلَى أَهْلِ النَّارِ قَالُوا أَيُّ قَالَ أَصْحَابُ النَّارِ:

نَعَمْ وَجَدْنَا وَعَدَ رَبُّنَا حَقًّا فَادَّنْ مُؤَدَّنْ أَيُّ نَادَى مَنَادٍ بَيْنَهُمْ أَيُّ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَ أَهْلِ النَّارِ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ وَ

فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُؤَدَّنَ هُوَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

«١»-، وَ الْمَرَادُ بِ«لَعْنَةُ اللَّهِ» غَضَبُهُ وَ انتِقَامُهُ وَ طَرْدُهُ وَ عَذَابُهُ، وَ إِنَّمَا يَنَادِي الْمَنَادِي بِهَذَا النَّدَاءِ لِذِكْرِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، وَ مِنْ أَجْلِهِ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ.

[٤٦] وَ مِنْ هُمُ الظَّالِمُونَ؟ إِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ أَيُّ يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، لِيَسْعَدُوا بِسُلُوكِهِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا أَيُّ يَطْلُبُونَ الطَّرِيقَ الْمَعْوَجَ، فَلَا يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَالضَّمِيرُ فِي «يَبْغُونَهَا» رَاجِعٌ إِلَى الْمُضَافِ وَ هُوَ «السَّبِيلُ» لَا الْمُضَافِ وَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَ قِيلَ:

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٤

[سورة الأعراف (٧): آية ٤٦]

وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمًا بِسِيمَاهُمْ وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)

مَعْنَاهُ يَطْلُبُونَ لَطْرِيقَ اللَّهِ الْعِوَجَ بِالشَّبهِ الَّتِي يَلْتَبِسُونَ بِهَا وَ يُوْهَمُونَ أَنَّهَا تَقْدَحُ فِيهَا وَ هُمْ بِالْدارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ لَا يَعْتَقِدُونَ بِهَا.

[٤٧] وَ بَيْنَهُمَا أَيُّ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَ أَهْلِ النَّارِ حِجَابٌ أَيُّ فَاصِلٌ وَ سِتْرٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ الْأَعْرَافُ: هِيَ الْأَمْكَنَةُ الْمُرْتَفَعَةُ، أَخَذَ مِنْ «عَرَفَ الْفَرَسَ» وَ مِنْهُ «عَرَفَ الدِّيكَ» وَ كُلُّ مَوْضِعٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عَرَفٌ، لِأَنَّهُ بظُهُورِهِ أَعْرَفَ مِمَّا انْحَفَضَ، وَ هُوَ لِأَنَّ الرِّجَالَ يَعْرِفُونَ كَلِمًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَ أَهْلِ النَّارِ بِسِيمَاهُمْ «السِّيَمَاءُ» الْعَلَامَةُ، وَ هُوَ فِعْلٌ مِنْ «سَامَ إِبْلَهُ» إِذَا أَرْسَلَهَا فِي الْمَرْعَى مَعْلَمَةً، وَ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ كَلِمًا بِسِيمَاهُمْ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَعْلَمُونَ بِبَيَاضِ الْوَجْهِ وَ الْجَلَالِ وَ الْحِفَاوَةِ، وَ أَهْلَ النَّارِ مَعْلَمُونَ بِعَلَامَةٍ عَلَى أَنْوْفِهِمْ- كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: سَسِسْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ «١»-، وَ الْهَيْئَةُ الْمُنْكَرَةُ، وَ الْغُبَارُ عَلَى الْوَجْهِ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَ وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ «٢»، وَ غَيْرَهَا.

وَ نَادَوْا هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ عَلَى الْأَعْرَافِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَرُونَهُمْ مِنْ هُنَاكَ آخِذِينَ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَوْ الْمُسْتَقْرِينَ فِيهَا أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ تَهْنِئَةٌ لَهُمْ بِفَوْزِهِمْ بِالْجَنَّةِ لَمْ يَدْخُلُوهَا أَيُّ لَمْ يَدْخُلْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ الْجَنَّةَ بَعْدَ وَ هُمْ يَطْمَعُونَ كَمَا قَالَ

(١) القلم: ١٧.

(٢) عبس: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٧ إلى ٤٨]

وَإِذَا صُيرِفتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨)

سبحانه عن لسان إبراهيم عليه السلام: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي «١»، فإنه يستعمل لليقين والرجاء.

[٤٨] وَإِذَا صُيرِفتْ أَبْصَارُهُمْ توجَّهت أنظار أصحاب الأعراف تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ الَّذِينَ أَخَذُوا فِي الذَّهَابِ إِلَىٰ جَهَنَّمَ، أو المستقرين فيها قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فلا تدخلنا النار، ولا تجعلنا من أهلها. وقد وردت أحاديث متعددة أن المراد بأصحاب الأعراف الأنبياء والأئمة عليهم السلام وظاهر الآية لا ياباه «٢».

[٤٩] وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ الَّذِينَ عَلَيْهَا رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ بعلاماتهم، وأنهم من رؤساء المشركين، و المراد بالعلامات، إما العلامات التي كانوا معلِّمين بها في الدنيا، أى صورهم التي كانوا يعرفونهم بها، وإنما عبر بلفظ «سيماهم» لأنهم تغيروا هناك فلا يعرفون إلا السحنة و سائر العلامات، وإما العلامات التي و سموا بها في الآخرة، من الزرقه، و غبار الوجه و تشويه الخلقه.

قَالُوا أَىٰ قَالَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ لِأَوْلئِكَ الْمُجْرِمِينَ: مَا أَغْنَىٰ

(١) الشعراء: ٨٣.

(٢) ورد كلمة الأنبياء عن العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ج ٨ ص ٣٣١، و كما ورد كلمة الأئمة

في رواية عن أبي عبد الله عليه السلام قال نحن أصحاب الأعراف: راجع بصائر الدرجات ص ٤٩٩. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٩ إلى ٥٠]

أَهْؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)

عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ أَى اجتماعكم و كثرتم، أو جمعكم الأموال والأولاد و الخدم والأصدقاء و ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَى استكباركم على الله و الرسول، ما أغنى عنكم كل ذلك، فلم يدفع العذاب عنكم.

[٥٠] ثم يقول أصحاب الأعراف لأهل النار: أ هؤلاء المراد ب «هؤلاء» أهل الجنة الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ فقد كان الكفار يحلفون- فى الدنيا- أن الله لا- ينال المؤمنين برحمه منه، و هناك يريهم أصحاب الأعراف أن المؤمنين دخلوا الجنة، و أنالهم الله رحمته.

ثم يتوجه أصحاب الأعراف إلى المؤمنين قائلين لهم: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ و بهذا النحو يقرع أهل النار، فى قبال ما كانوا يقرعون المؤمنين فى الدنيا.

[٥١] و حينما يستقر الفريقان فى مقامهما من الجنة و النار يقع حوار بين الجانبين بهذه الكيفية: وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَى «ينادون»، و إنما أتى بلفظ الماضى، لأن المستقبل المتحقق وقوعه ينزل بمنزله- كما سبق-: أَنْ أَفِيضُوا أَى صبوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ لنسكن به حر النار، أو نرؤى به العطش و الظمأ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من الطعام و اللباس و غيرهما، لنتنفع به فى محلنا الحار الفاقد لكل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٧

[سورة الأعراف (٧): آية ٥١]

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)

شئ من وسائل الراحة قالوا أى قال أهل الجنة فى جواب أهل النار: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا أَى حَرَّمَ الْمَاءَ وَالرِّزْقَ عَلَى الْكَافِرِينَ فَلَا يَبَاحُ لَنَا إِعْطَاؤُكُمْ مِنْهُمَا شَيْئًا.

[٥٢] ثم وصف الكافرين بأنهم الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا فدينهم الذى اختاره الله لهم- و هو الإسلام- اتخذوه أداة تلهى و لعب، فكانوا به يستهزئون، أو المراد أن دينهم كان لهوا و لعبا، فيكون التبيكيت لاتخاذهم أصل الدين- الكفرى- لا اتخاذه لهوا. و ظاهر الكلام المعنى الأول، كما تقرر فى علم البلاغة أن القيد إذا كان فى الكلام توجه النفى و الإثبات إليه.

وَغَرَّتُهُمْ أَى خدعتهم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فظنوا أنهم يبقون فيها إلى الأبد، و أن نعيمها يكفيهم عن نعيم الجنة فَالْيَوْمَ فى الآخرة نَسَاهُمْ أَى نتركهم فى العذاب، كفعل الناسى الذى لا- يعنى بالمنسى، و إن أصابه ما أصابه كما نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا أَى كما نسوا فى الدنيا التأهب ليوم القيامة وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ «ما» مصدرية، أَى لسبب نسيانهم، و بسبب جحودهم، و إنكارهم لآيات الله و أحكامه. و من هذه الجملة يعلم أن قوله: «الذين اتخذوا» من كلام الله استثناء، لا من تمتة كلام أهل الجنة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٢ إلى ٥٣]

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

[٥٣] إن أهل النار وقعوا فيها بعد البيان و إتمام الحجة، فلم يكن هذا العذاب ظلم بالنسبة إليهم و لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ و هو القرآن فَصَّلْنَاهُ تفصيلا فلم يكن مجملا- لا- يستفاد منه المطلب على علم أى كنا عالمين بما أنزلنا، فلم يكن الكتاب كتاب جاهل لا يدرى المصالح و المفساد، و يحكم اعتباطا هُدًى أى جئنا به لأجل الهداية وَرَحْمَةً و لأجل الرحمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ و إنما اختص بهم لأن الفائدة تعود إليهم و حدهم، و إن كان الكتاب للكل.

[٥٤] هَلْ يَنْظُرُونَ أى هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا بالكتاب إِلَّا تَأْوِيلَهُ أى مآل الكتاب، بمعنى: المآل الذى أخبر به الكتاب، من العذاب و العقاب النازل بالكفار. و هذا تهديد كما يقال للعاصى أمر المولى: «هل تنتظر عقابه؟» يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ و ما حذر منه يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ أى تركوه، و فعلوا به فعل الناسى مِنْ قَبْلُ فى الدنيا:

قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِالْحَقِّ وَ هُنَاكَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا أَنْكَرُوا فى الدنيا، حيث لا فائدة فى الاعتراف فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا حتى نتخلص من العقاب أَوْ نُرَدُّ إِلَى الدنیا فَنَعْمَلْ عملا صالحا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ سابقا من المعاصى و الآثام؟ لكن ليس لهم شفيع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٩

[سورة الأعراف (٧): آية ٥٤]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)

و لا يردون، ف قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ أهلكوها بالعذاب و العقاب، و أعطوها بمقابل النار، حيثما أعطى أهل الإيمان نفوسهم فى مقابل الجنان، و ربحوا أكبر ربح وَضَلَّ عَنْهُمْ أَى ذهب و غاب ما كانوا يَفْتَرُونَ أى افتراؤهم على الله بالشرك، فإن الأصنام التى جعلوها شريكه لله، و كانوا يقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى «١»، ضلت عنهم فلم يجدوها، و لا شفعت لهم هناك.

[٥٥] ثم بين سبحانه أن الله واحد لا شريك له، وأنه الذى خلق وكون، لا شريك له فى شىء من الأمور الكونية إِنَّ رَبَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ أَنْشَأَهَا وَكَوْنَهَا وَالْأَرْضَ أَوْجَدَهَا. ولعل ذكر «السموات» غالباً بلفظ الجمع، و«الأرض» بلفظ المفرد، مع أن كليهما متعددة، كما قال سبحانه: وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ «٢»، أن تعدد السموات كان مألوفاً لديهم، لما يخبر به المنجمون، من أفلاك الكواكب السيارة، بخلاف تعدد الأرض، ومن البلاغة أن يكلم الإنسان المخاطبين قدر عقولهم فى سِتَّةِ أَيَّامٍ أى فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وإن لم تكن أيام ذلك الوقت، حيث لا شمس ولا قمر ولا حركة، أما مصلحة خلقها فى ستة أيام مع قدرته سبحانه فى

(١) الزمر: ٤.

(٢) الطلاق: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٠

إنشائهما دفعة، فهى كمصلحة خلق الجنين والنبات تدريجاً، مع قدرته على الإيجاد دفعة.

ثم بعد خلق السموات والأرض استولى أى استولى عَلَى الْعَرْشِ والمراد: جعل تدبير الأمر من هناك، كما يقال:

«استوى الملك على العرش» يراد استيلائه على الملك، و«العرش» محل تشرifi خلقه سبحانه وأضافه إلى نفسه، كما خلق الكعبة فى الدنيا، وجعلها بيته، وكان ذلك لألفة الأجسام بمصدر للأحكام والتوجه يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ أى يلبس النهار، ويمد رواق الليل المظلم على النهار المستنير، كما يغشى الإنسان العباءة على المصباح يَطْلُبُهُ أى يطلب الليل النهار طلباً سريعاً بكل جد، كأن النهار يرفض الليل، لكن الليل يطارده مطاردة الطالب للمطلوب الهارب وخلق الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ فى حال كونها مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ فهى تسرى وتدور وتشرق وتغرب حسب أمره سبحانه ألا أى تنبهوا أيها البشر أن له سبحانه الخلق للأشياء كلها وَالْأَمْرُ النَّاظِرُ فِيهَا، فما يكون من تغيير وتبدل إلا بأمره وإرادته، وهكذا لا أمر صحيح فى التشريعات إلا له، أما أمر سائر الأمور، فليست لهم قيمة واعتبار واقعى، إلا إذا كانوا تبعاً لأمره تعالى تَبَارَكَ اللَّهُ أى تعالى عن الشريك وسائر النقائص رَبُّ الْعَالَمِينَ لا رب سواه، ولا إله إلا هو.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ إِضْلَاحٍهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

[٥٦] ادْعُوا رَبَّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ تَضَرُّعًا أى تخشعاً، فإن التضرع هو التذلل والتخشع، وهو فى موضع الحال، أى فى حال كونكم متضرعين وَخُفْيَةً أى فى حال الاختفاء، فإن الضراعة المخفية أقرب إلى تركيز التوحيد فى النفس. ولا يخفى أن هذا فى مورد، وفى مورد آخر يستحب الإجهار.

فقد نزل جبرئيل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى حال الحج قائلاً: «إن ربك يأمرك بالعج والنج» (١)

و«العج» من العجيج. كما أن فى الروايات استحباب الإجهار بالصلوات على محمد وآله الطاهرين فإنه موجب لذهاب النفاق، وكان الجهر والإخفات فى الدعاء، كالإعلان والإسرار بالصدقة، الذى لكل واحد منهما مورد. و

قد روى على بن إبراهيم أن المراد بالتضرع: العلانية،

أى: «ادعوه علانية و سرا» (٢).

إِنَّهُ سبحانه لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ الذين يتجاوزون الحد، إنه سبحانه يحب الخشوع والانكسار، لا التجاوز والاعتداء.

[٥٧] وبمناسبة كراهيته سبحانه للاعتداء يقول تعالى: وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ إِضْلَاحٍهَا فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأُتَمَّةَ أَصْلَحُوا الْأَرْضَ

بمنهاج السماء، و جعل كل شىء فى موضعه، فالتجاوز عن ذلك إفساد فى الأرض و شقاء للبشر.
قال الباقر عليه السلام: «إن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله بنبيه» (٣).

(١) راجع معانى الأخبار: ص ٢٢٤.

(٢) نقلا عن مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٧١.

(٣) الكافى: ج ٨ ص ٥٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٥٧]

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)

و اذعوه خوفاً وطمعاً أى فى حال كونكم خائفين و طامعين، خوفاً من عقابه و طمعاً فى ثوابه إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
فإنكم إذا لم تفسدوا و دعوتموه خوفاً و طمعاً جعلكم الله من المحسنين، فتكون رحمته قريباً منكم، و ذلك يوجب استجابته دعائكم،
و لطف الله بكم.

[٥٨] وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا أَى يطلقها و يجريها لأجل البشارة بالمطر بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَى أمام رحمته- التى هى
المطر- فإن الرياح إذا هبت فى أيام السحاب، دلت على نزول المطر حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ أَى حملت تلك الرياح سَحَابًا ثِقَالًا بالماء سُقِنَاهُ أَى
دفعنا السحاب لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ و موت البلد: تعفَى مزارعه و دروس مشاربه، لا نبات فيه، و لا عيون و أنهار فَأَنْزَلْنَا بِهِ أَى بالبلد، أو بالسحاب،
و «الباء» على الأول بمعنى «فى»، و على الثانى بمعنى «السبب» الماء و هناك خلاف فى تكوّن المطر، لكن ذلك لا يهم التفسير، و
كيف كان فإنه بقدره الحكيم القدير فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَى بسبب الماء مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ المتداوله هناك، لا أن المراد جميع أنواع الثمرات،
إلا إذا أخذ الماء و السحاب بصورة عامة لا بالنسبة إلى بلد معين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبَثَ لَآ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَيِّرُهُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى
قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)
كَذَلِكَ أَى كما أخرجنا بالماء الثمرات نُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنَ الْأَرْضِ، فنحييهم.

و فى بعض الأحاديث «تمطر السماء ماء، فيسبب ذلك الماء إحياء الأموات، بقدره الله سبحانه»

«١» لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ المعاد و الآخرة، و كأن «لعل» تفرغ على إنبات الثمر من ماء السماء فى الأرض الميتة، بأن يكون ذلك سبباً
لتذكيركم بالآخرة.

[٥٩] وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ ترابه الصالح للزرع يَخْرُجُ نَبَاتُهُ «نبات» فاعل «يخرج»، أى يخرج زرعه حسناً نامياً بِإِذْنِ رَبِّهِ و أمره سبحانه، بلا نكد
و لا عناء و لا تعب و البلد الَّذِي خَبَثَ ترابه بأن كان سبخاً أو ما أشبه لا يَخْرُجُ النَبَاتُ إِلَّا نَكِدًا قليلاً عسراً لا ينتفع به، و هكذا القلب
الطيب ينمو فيه الخير و الفضيلة نمواً سريعاً ممرعاً، و القلب الخبيث لا ينمو فيه الخير إلا قليلاً عسراً كَذَلِكَ أَى كما بيّننا هذه الآية الدالة
على كمال قدرة الله سبحانه نُصَيِّرُهُ الْآيَاتِ أى نقلها و نبينها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ أى للشاكرين الذين يشكرون نعم الله سبحانه، فإنهم
المنتفعون بتصرف الآيات، فغاية التصريف لهم دون غيرهم.

[٦٠] و إذ تمّ الدليل على وجوده سبحانه بما له من الصفات، و أنه لا شريك له، يأتى الكلام حول الأنبياء السالفين الذين بلغوا

(١) راجع بحار الأنوار ج ٧ ص ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٠ الى ٦٢]

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)

رسالات ربهم، و لم يقبل قومهم منهم، فأخذوا بالعذاب، كما سبق في أول السورة «وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا» لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ حَيْثُ كَانَ الْقَوْمُ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأوثان ما لكم أى ليس لكم من إلهٍ غَيْرُهُ فهو خالقكم الذى لا شريك له إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ، إن لم تؤمنوا عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ إما المراد يوم القيامة، أو عذابهم فى الدنيا بالطوفان.

[٦١] قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أَيُّ الْأَشْرَافِ، وَ سَمَّوْا بِهِ لِأَنَّهُمْ يَمَلَأُونَ الْعْيُونَ وَالصُّدُورَ هَيْبَةً وَجَمَالًا: إِنَّا لَنَرَاكَ يَا نُوحُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَيُّ انْحِرَافٍ وَاضِحٍ حَيْثُ تَذَرُ الْأَصْنَامَ وَتَعْبُدُ الْإِلَهَ الَّذِي لَمْ تَرَهُ.

[٦٢] قَالَ نُوحٌ لَهُمْ: يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ فَلَمْ أَضِلَّ طَرِيقَ الْحَقِّ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَ مَا لَشَيْءٍ سِوَاهُ مَلِكٍ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ.

[٦٣] أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي أَيُّ أَوْدَى إِلَيْكُمْ مَا أَمَرَنِي رَبِّي بِتَبْلِيغِهِ، وَ إِنَّمَا جَمَعْتَ الرِّسَالَاتِ، بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَحْيٍ وَحْيٍ وَ أَنْصَحُ لَكُمْ أَيُّ أَنْصَحُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)

لفائدتكم وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَمْرِهِ وَ نَهْيِهِ، وَ مِنْ صِفَاتِهِ وَ آثَارِهِ، وَ مِنْ ثَوَابِهِ وَ عِقَابِهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَاتَّبِعُونِي حَتَّى أَهْدِيَكُمْ إِلَى الْحَقِّ.

[٦٤] وَ قَدْ كَانَ الْقَوْمُ يَبْدُونَ التَّعَجُّبَ مِنْ أَقْوَالِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَيْفَ يَدَّعَى هَذَا الْمَنْصَبَ الْخَطِيرَ؟ وَ كَيْفَ يَخْبِرُ عَنْ أَشْيَاءٍ لَمْ يَعْلَمُهَا؟ فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ: أَوْ عَجِبْتُمْ الْهَمْزَةَ لِلِاسْتِفْهَامِ، أَيُّ هَلْ تَتَّعَبُونَ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ أَيُّ بَشَرٍ مِنْ جِنْسِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَ يَخَوْفَكُمُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ تَمَرَّدْتُمْ وَ كَفَرْتُمْ وَ لَتَتَّقُوا أَيُّ جَاءَكُمْ الذِّكْرُ لَتَتَّقُوا وَ تَجْتَنِبُوا عِقَابَ اللَّهِ وَ الْكُفْرَ وَ الْمَعَاصِيَ وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَيُّ لِكِي يَرْحَمُكُمْ رَبُّكُمْ؟

[٦٥] فَكَذَّبُوهُ أَيُّ كَذَّبَ الْقَوْمُ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يُوسِعُونَهُ ضَرْبًا، وَ كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي بَابَنِهِ إِلَى نُوحٍ، وَ يَقُولُ لَهُ: يَا بَنِي لَا تَوْمَنُ بِهَذَا فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: أَنَّهُمْ كَانُوا ثَمَانِيَةً- فِي الْفُلْكِ أَيُّ السَّفِينَةِ، حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَعَمَلُ سَفِينَةٍ وَ رَكْبٌ هُوَ وَ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا، ثُمَّ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ، وَ تَفَجَّرَتِ الْعْيُونَ، حَتَّى أَخَذَ الْمَاءُ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَ هَلَكَ الْكُفْرُ بِأَجْمَعِهِمْ، ثُمَّ يَبَسَتِ الْأَرْضُ وَ خَرَجَ نُوحٌ وَ الْمُؤْمِنُونَ، يَعْمُرُونَ الْأَرْضَ بِتَقْوَى اللَّهِ مِنْ جَدِيدٍ وَ أَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَيُّ بَدَلْنَا الدَّالَّةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦)

على التوحيد و النبوة و المعاد إِنَّهُمْ أَى المَكذِبُونَ كانوا قَوْمًا عَمِينَ يقال: «رجل عم» إذا كان أعمى القلب، و رجل أعمى إذا كان أعمى البصر، و ستأتى جوانب أخرى من قصة نوح عليه السلام فى بعض السور الآتية، كسورة هود و غيرها، و حيث كان المقصود فى الكتاب تفسير الآيات - حسب ظواهرها - نظوى القصة طيا.

[٦٦] و أرسلنا إلى عادٍ أى قبيلة عاد، من أحفاد نوح عليه السلام أخاهم فى النسب هوداً و هو من أحفاد نوح عليه السلام، و قد كان هود النبى من نفس القبيلة ليكون أقرب إلى القبول، فإن غالب النفوس تأبى عن إطاعة غير بنى قومهم قال هود لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ما لكم من إله غيرة فإن الأصنام ليست بآلهة أفلا تتقون استفهام إنكارى، أى لماذا لا تتقون الشرك و المعاصى؟ [٦٧] قال المملأ الأشراف الذين كفروا من قوميه و التعبير ب «كفروا» إما لتجريد الفعل عن معنى الحدوث، و إما باعتبار الفطرة الإيمانية، كما

قال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «كل مولود يولد على الفطرة»

«١»، و إما باعتبار المجموع فإن قومه - إذا اعتبروا من زمان نوح عليه السلام - كان فيهم بعض المؤمنين إننا لَنراك أى نعلمك، يا هود فى سفاهة فأنت سفيه، و «السفيه» هو

(١) بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

قال يا قوم ليس بى سفاهة و لكنى رسول من رب العالمين (٦٧) أبلغكم رسالات ربى و أنا لكم ناصح أمين (٦٨) أ و عجبتم أن جاءكم ذكركم من ربكم على رجل منكم لئليذركم و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح و زادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (٦٩)

الذى ليس له ملكة إصلاح لنفسه أو ماله و إننا لنظنك من الكاذبين فتكذب فى دعوى النبوة، و أنه ليس للعالم إلا إله واحد.

[٦٨] قال هود عليه السلام فى جوابهم: يا قوم ليس بى سفاهة فإنى لست سفيها و هل السفيه من ينطق بالحق الذى دل عليه العقل و الفطرة؟! و لكنى رسول من رب العالمين و كلام السفيه غير كلام الرسول العاقل.

[٦٩] أبلغكم رسالات ربى أودى إليكم ما أوحى إلى من الرسالات، و الجمع باعتبار كل رساله رساله فى مختلف الأصول و الفروع و أنا لكم ناصح أنصحكم لئلا تقعوا فى العقاب و العذاب أمين فى تأديه الرساله فلا أكذب و لا أغير.

[٧٠] و حيث كان القوم يظهرون عجبهم من رساله هود عليه السلام قال لهم:

أ و عجبتم أى هل تتعجبون أن جاءكم ذكركم و وحى من قبل ربكم على لسان رجل منكم من قبيلتكم لئليذركم و يخوفكم من بأس الله سبحانه و اذكروا أيها القوم نعمه الله عليكم إذ جعلكم خلفاء فى الأرض، أى تخلفون من سبقكم فى أموالهم و مساكنهم من بعد قوم نوح فقد أهلكهم و أتى بكم مكانهم، أ فلا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٠ الى ٧١]

قالوا أ جئنا لنعبد الله وحده و نذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٧٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس و غصب أ تجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إننى معكم من المنتظرين (٧١)

تخافون أن يصيبكم ما أصابهم، أم لا تشكرون ما وهب الله لكم من البلاد و الأموال و زادكم الله سبحانه فى الخلق بصطة هيكل و قوه. فقد كانوا أقوياء ذوى هياكل كبيرة عظيمة فاذكروا آلاء الله آلاء جمع «إلى» بمعنى «النعم» لعلكم تفلحون أى تفوزون بنعيم الدنيا و

سعادة الآخرة.

[٧١] قالوا أى قال قوم هود: أ جِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَخِيدَهُ بِلَا شَرِيكَ وَ نَدَّرَ أَى نَدَعَ عِبَادَهُ مَا كَانَ يُعْبُدُ آبَاؤُنَا مِنَ الْأَصْنَامِ، وَ كَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟ فَإِنَّا لَن نَتْرَكَ الْأَصْنَامَ فَأَتْنَا أَى ادْعَ رَبَّكَ لِأَيَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنَ الْعَذَابِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي أَنَّهُ إِنْ لَمْ تَأْمَنْ نَزَلَ عَلَيْنَا الْعَذَابُ. [٧٢] قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ أَى وَجِبَ أَنْ يَقَعَ - فَإِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الْمَتَحَقَّقَ الْوَقُوعَ يَنْزِلُ مِنْزِلَهُ الْمَاضِي - مِنْ رَبِّكُمْ رَجَسٌ أَى عَذَابٌ وَ غَضَبٌ حَيْثُ لَمْ تَأْمَنُوا بَعْدَ إِيْتَانِ الْحُجَّةِ، وَ وَضُوحِ الْأَدْلَى، وَ حَيْثُ أَنْ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ مِنْزَهُ عَنِ الْأَحْوَالِ الزَّائِدَةِ، كَانَ الْمُرَادُ ب «غضب» عاقبة الغضب، وَ هُوَ الْعَذَابُ، كَمَا قِيلَ: «خِذِ الْغَايَاتِ وَ اتْرَكَ الْمُبَادِيءَ». وَ عَلَيْهِ فَالْفَرْقُ بَيْنَ الرَّجْسِ وَ الْغَضَبِ أَنْ الثَّانِي أَعْمُ مِنَ الْأَوَّلِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)

ثم ذكر هود عليه السلام بطلان أصنامهم قائلا: أ تُجَادِلُونِي أَى هَلْ أَنْتُمْ تَنَاطُرُونَ مَعِيَ وَ تَخَاصِمُونِي فِي أَسْمَاءِ سَيِّمْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ أَى فِي أَصْنَامٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ رَبًّا، وَ إِلا فِهِيَ أَحْجَارٌ مَنْحُوتَةٌ، وَ إِنَّمَا قَالَ «فِي أَسْمَاءٍ» إِشَارَةً إِلَى أَنَّ رِبُوبِيَّتَهَا مَجْرَدُ اسْمٍ لَا أَكْثَرَ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا أَى بَتَلَكِ الْأَصْنَامِ وَ الْأَسْمَاءِ مِنْ سُلْطَانٍ أَى مِنْ دَلِيلٍ دَالٍ عَلَى كَوْنِهَا تَصْنَعٌ شَيْئًا، أَوْ كَوْنِهَا آلِهَةٌ وَ أَرَبَابًا. وَ قَدْ كَانَ الْاِحْتِجَاجُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوِيًّا جَدًّا، إِذْ مَدَعَى الْأَلِهَةَ الزَّائِدَةَ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَ بَرَهَانٍ فَانْتَهَرُوا عَذَابَ اللَّهِ وَ نَكَالَهُ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ لِنَزُولِ الْعَذَابِ بِكُمْ، وَ سَتَرُونَ صِدْقَ مَقَالَتِي.

[٧٣] فجاء العذاب الموعود إليهم، و ذلك أنه سبحانه ساق إليهم سحابة أمطرتهم بالعذاب حتى هلكوا جميعا و أنجيناها أى هودا عليه السلام و الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا فَلَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْمُؤْمِنُونَ فِي حَظِيرَةِ لَا يَمُرُّ بِهِمُ الْعَذَابُ وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا «الدابر» الْأَصْلُ، أَى قَطَعْنَا أَصْلَهُمْ، كَمَا يَقْطَعُ أَصْلَ الشَّجَرَةِ، وَ ذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنِ إِهْلَاكِهِمْ بِأَجْمَعِهِمْ وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ أَى لَمْ يَكُونُوا لِيُؤْمِنُوا مِنْ بَعْدِ، فَقَدْ عَرَفْنَا حَالَهُمْ، وَ عَلِمْنَا نَوَايَاهُمْ وَ ضَمَائِرَهُمْ وَ مُسْتَقْبَلَهُمْ.

[٧٤] وَ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ وَ هِيَ قَبِيلَةٌ مِنْ آلِ رَجُلٍ يُسَمَّى «ثَمُودًا» مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٢٤٩

أحفاد نوح عليه السلام أخاهم فى النسب صالحاً حيث كان صالح من نفس القبيلة قال صالح عليه السلام لهم: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَ لَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَتَعْبُدُوهُ مَعَهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ أَى دَلَالَةٌ وَ مُعْجَزَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ شَاهِدَةٌ عَلَى صِدْقِ ادْعَائِي لِلنَّبُوَّةِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ الْإِضَافَةُ إِلَى اللَّهِ تَشْرِيْفِيَّةٌ، كَإِضَافَةِ مَكَّةَ إِلَى اللَّهِ يُقَالُ: «بَيْتُ اللَّهِ»، وَ إِضَافَةِ دَمِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ، يُقَالُ: «ثَارَ اللَّهُ» لَكُمْ آيَةٌ دَالَةٌ عَلَى صِدْقِ كَلَامِي.

وَ قَدْ كَانَ مِنْ قِصَّةِ صَالِحٍ مَا

ورد: أَنَّهُ بَعَثَ إِلَى قَوْمِهِ وَ هُوَ ابْنُ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَبِثَ فِيهِمْ حَتَّى بَلَغَ عَشْرِينَ وَ مِائَةَ سَنَةٍ لَا يُجِيبُونَهُ إِلَى خَيْرٍ، وَ كَانَ لَهُمْ سَبْعُونَ صَنَمًا، يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ شِئْتُمْ فَاسْأَلُونِي حَتَّى أَسْأَلَ إِلَهِي فَيُجِيبِكُمْ فِيمَا سَأَلْتُمُونِي السَّاعَةَ، وَ إِنْ شِئْتُمْ سَأَلْتُ آلِهَتِكُمْ، فَإِنْ أَجَابَتْنِي بِالذِّى أَسْأَلُهَا خَرَجْتَ عَنْكُمْ، فَقَدْ سَأَلْتُمْ وَ سَأَلْتُمُونِي، فَقَالُوا: قَدْ أَنْصَفْتَ، فَدَعَاهَا كُلَّهَا بِأَسْمَائِهَا فَلَمْ يَجِبْهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَفَتَحُوا بَسْطَهُمْ وَ فَرَشَهُمْ وَ ثِيَابَهُمْ وَ تَمَرَّغُوا عَلَى التُّرَابِ وَ طَرَحُوا التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَ قَالُوا لِأَصْنَامِهِمْ: لَنْ لَمْ تَجِيبُوا صَالِحًا الْيَوْمَ

لنفتضحن، ثم دعوه فقالوا: يا صالح ادعها، فدعاها فلم تجبه. قال صالح: فاسألوني حتى أدعو إلهي يجيبكم الساعة، فقالوا: ادع لنا ربك يخرج لنا من هذا الجبل الساعة ناقة حمراء شقراء وبراء عشراء بين جبينها ميل، فقال لهم: سألتوني شيئاً يعظم عليّ و يهون على ربي تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠١

[سورة الأعراف (٧): آية ٧٤]

وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنَ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)

تعالوا، فسأل الله ذلك، فانصدع الجبل صدعا كادت تطير منه عقولهم لما سمعوا ذلك، ثم اضطرب ذلك الجبل اضطراباً شديداً كالمرأة إذا أخذها المخاض، ثم لم يفاجتهم إلا رأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع فما استتمت رقبته حتى اجتزت، ثم خرج سائر جسدها، ثم استوت قائمه على الأرض، فلما رأوا ذلك قالوا: يا صالح ما أسرع ما أجابك ربك، ادع لنا يخرج لنا فصيلها، فسأل الله ذلك فرمت به فذبّ حولها، فقال لهم: يا قوم أبقى شيء؟ قالوا: لا، انطلق بنا إلى قومنا نخبرهم بما رأينا و يؤمنون بك. قال الراوي: فرجعوا فلم يبلغ السبعون إليهم حتى ارتد منهم أربعة و ستون رجلاً، و قالوا: سحر و كذب.

قال: فانتبهوا إلى الجميع فقال الستة: حق، و قال الجميع: كذب و سحر، فانصرفوا على ذلك ثم ارتاب واحد فكان فيمن عقرها «١». فذروها أي دعوها و اتركوها و شأنها تأكل في أرض الله من نبات الأرض و لا تمسوها بسوء و أذية فيأخذكم أي ينالكم و يصيبكم عذاب أليم مؤلم موجه.

[٧٥] وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ بِأَنْ أَوْرَثَكُمْ إِيَّاهَا وَ مَكَّنْكُمْ فِيهَا مِنْ بَعْدِ عَادِ الَّذِينَ أَهْلَكُوا حَيْثُ عَصُوا رَبَّهُمْ وَ بَوَّأَكُمْ أَى جَعَلَ لَكُمْ بُيُوتًا وَ مَسَاكِنَ فِي الْأَرْضِ بَحِيث

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٧٥]

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥)

تَتَخَذُونَ مِنَ سُهُولِهَا أَى سهول الأرض قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا وَ هذه نعمه كبرى إذ جعل لكم الأرض ذلولا سهولها و جبالها فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ أَى نعم الله عليكم، و قد تقدم أن «آلاء» جمع «إلى» بمعنى النعمة و لا تَعْتُوا أَى: لا تطغوا و تسعوا، من «العتا» بمعنى شدة الفساد في الأرضِ مُفْسِدِينَ فلا تثيروا الفساد في الأرض.

[٧٦] قَالَ الْمَلَأُ أَى جماعة الأشراف الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، و رفعوا أنفسهم عن ذلك مِنْ قَوْمِهِ أَى من قوم صالح لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ أَى للمؤمنين الذين نظر إليهم المستكبرون بنظر الضعف و الضعة لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من قوله: «لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ» وإنما جىء به لئلا يظن أن المراد «المستضعف في الدين»: - أ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ وَ أنه رسول من الله.

و كان هذا السؤال منهم مقدمة لكلامهم أنهم غير مؤمنين به قالوا أَى: المؤمنون: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ صَالِحٌ بِهِ مُؤْمِنُونَ فنعتقد بإله واحد و برسالته و بما جاء به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٦ إلى ٧٧]

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ

الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

[٧٧] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّائِلُونَ - بعد سماعهم لكلام المؤمنين -:

إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ كَافِرُونَ جاحدون منكرون.

[٧٨] فَعَقَرُوا النَّاقَةَ أَي: قتلوها، و«العقر» الجرح الذي يأتي على أصل النفس.

ورد أن الله أوحى إلى صالح عليه السلام: قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة من الماء شرب يوم، و لكم شرب يوم، فكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت ذلك اليوم، فيحلبونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل و أصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم و لم تشرب الناقة ذلك اليوم، فمكثوا بذلك إلى ما شاء الله ثم أنهم عتوا على الله و مشى بعضهم إلى بعض و قالوا: اعقروا هذه الناقة و استريحوا منها لا نرضى أن يكون لها شرب يوم و لنا شرب يوم، فجعلوا حبلا لرجل أحمر أشقر أزرق من ولد الزنا لا يعرف له أب يقال له: «قدار» شقى من الأشقياء مشؤوم عليهم فقتلها و هرب فصيلها، و اقتسموا لحمها فيما بينهم، فأوحى الله إلى صالح: قل لهم: إني مرسل إليكم عذابي إلى ثلاثة أيام، فإن تابوا و رجعوا قبلت توبتهم عنهم، و إن لم يتوبوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث «١».

وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أَي تجاوزوا الحد في الفساد و قالوا

(١) الكافي: ج ٨ ص ١٨٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٨ إلى ٧٩]

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَ نَصَيْحَتُ لَكُمْ وَ لَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

يا صالح اتينا بما تعدنا من العذاب على قتل الناقة و البقاء في الكفر إن كنت من المرسلين ثم أخبر سبحانه بما حل بهم من العذاب.

[٧٩] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ «الرجف» الاضطراب فأصبحوا في دارهم أي في محلهم، يقول الحاضر: «أنا في داري» أي بلدي و محلتي جاثمين أي صرعى ميتين ساقطين لا حركة لهم.

ورد أن صالح لما وعدهم بالعذاب و أمهلهم ثلاثة أيام، قال صالح عليه السلام: إنكم تصبحون و جوهكم مصفرة، و اليوم الثاني محرمة، و الثالث مسودة. فجاءهم ما قاله لهم فلم يتوبوا و لم يرجعوا، فلما كان منتصف الليل أتاهم جبريل فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم.

و في بعض التفاسير: إن النار كانت تصحب الصيحة حيث أخذتهم. و لعل تسمية ذلك بالرجفة لأجل الاضطراب الحاصل للإنسان حينما يسمع صيحة مهولة «١».

[٨٠] فَتَوَلَّى أَي أعرض صالح عليه السلام عنهم حين رأى إصرارهم على الكفر و قال يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَ نَصَيْحَتُ لَكُمْ أَدَيْتِ النَّصْحَ الَّذِي يَسْعِدُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَ آخِرَاكُمْ

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٠ إلى ٨١]

و لَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ سَهْوَةً مِنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

مُسْرِفُونَ (٨١)

وَ لَكِنَّ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ فلا تقبلون نصحي. و لعل سر تأخير هذه الجملة، عن جملة «فأخذتهم الرجفة» مع تقديمها في ظرف الوقوع عليها، إيهاً السياق سرعة الخاتمة، حتى لا يكون فصل بين الإعراض و بين العذاب في اللفظ، و هذا من فنون البلاغة، لكن حيث أن مصير صالح عليه السلام لم يعلم مما قبل، استأنف السياق ذكر مصيره و أنه نفض يديه منهم، و تركهم ليلاقوا ما جلبوه على أنفسهم، دونه.

[٨١] و اذكر لوطاً و لعل اختلاف السياق هنا عمياً سبقه، حيث كان يقول: «و إلى»، تنبيه عدم التعرض لمن توسطهما من الأنبياء، كإبراهيم عليه السلام الذي كان معاصراً للوط، و إنما لم يذكر إبراهيم عليه السلام لعله لعدم نزول عقاب على قومه كما نزل على قوم لوط، و قوم الأنبياء السابقى الذكر إذ قال لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟

على نحو الاستفهام الإنكارى، و المراد ب «الفاحشة» المعصية المتجاوزة للحدود، و هى اللواط بالرجال ما سَبَقَكُمْ بِهَا أى بهذه الفاحشة مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ فإن قوم لوط أول من تعاطى هذا العمل الشنيع.

[٨٢] إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً أى إتيانا شهوياً، فإن لفظ «أتى» بدون هذا القيد «الشهوة» يكون بمعنى «جاء» مِنْ دُونِ النِّسَاءِ فلا تأتون المباح، و تأتون المحرم، و لعل عدم الإتيان لهن كان أيضاً محرماً، كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٢ الى ٨٤]

وَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

أنه كذلك عندنا، بعد أربعة أشهر بل أنتم قومٌ مُسْرِفُونَ متجاوزون في الظلم و الفساد، فإن الإسراف بمعنى التجاوز.

[٨٣] وَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ أى جواب القوم للوط عليه السلام الذى كان ينهاهم عن اللواط إِلَّا أَنْ قَالُوا أى قال بعضهم لبعض أَخْرِجُوهُمْ أى أخرجوا لوطاً و أهله مِنْ قَرْيَتِكُمْ أى مدينتكم، و هى «سدوم» إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أى يتحرجون عن هذا العمل، من أجل الطهارة و النزاهة.

[٨٤] فَأَنْجَيْنَاهُ أى خلصنا لوطاً و أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ من العذاب النازل بقومه، حيث أمرناهم بالسير و الفرار من المدينة، ففروا جميعاً إلا زوجته كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ أى الباقين فى قومه المتخلفين عن لوط، و إنما بقيت و هلكت لأنها كانت على طريقتهم، كما قال سبحانه فى آية أخرى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا «١»، إذ لم تؤمنا بما آمن به زوجيهما.

[٨٥] وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا أى أرسلنا عليهم الحجارة كالمطر، كما قال

(١) التحريم: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٧

[سورة الأعراف (٧): آية ٨٥]

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)

تعالى فى آية أخرى: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «١»، ثم قلبت مدينتهم حتى جعل عاليها سافلها فَانظُرْ أى فاعلم يا رسول الله، أو أيها الناظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ المرتكبين للسيئات.

[٨٦] وَ أَرْسَلْنَا إِلَى مَدْيَنَ هِم قَبِيلُهُ سَمِيَتْ بِاسْمِ جَدِّهِمْ «مَدْيَنَ» حَفِيدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا وَ هُوَ مِنْ أَحْفَادِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، فَهُوَ أَخُ الْقَبِيلَةِ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِي. وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ «الْمَعْجِزَةَ»، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا مَزُودِينَ بِالْإِعْجَازِ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ أَخَذُوا وَ عَطَاءً، فَلَا تَأْخُذُوا زَائِدًا وَ لَا تَعْطُوا نَاقِصًا وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ مِنْ «بَخْسٍ» بِمَعْنَى «نَقْصٍ» أَشْيَاءَهُمْ أَى لَا تَعْطُوهُمْ نَاقِصًا حَيْثُ إِنَّ الشَّيْءَ الْمَبْعُوعَ هُوَ مَلِكُ الْمُشْتَرَى، فَيَكُونُ الشَّيْءُ لِلنَّاسِ، وَ لَذَا أُضِيفَ إِلَيْهِمْ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَأَن

(١) الحجر: ٧٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٨٦]

وَ لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ أذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَ أَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)

تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها لا يراد بذلك الإصلاح التام، بل المعنى أن لا تأتوا بالفاسد مكان الصالح، فإن الفساد إنما يتدرج إلى المجتمع، أو المراد: لا تفسدوا بعد ما أصلح الأنبياء الأرض.

ذِكْرُكَ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ مِنْ إِيْتَانِ الْوَاجِبَاتِ وَ تَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ خَيْرٌ لَكُمْ أَى أَنْفَعُ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَ كَأَنَّ الْإِيْتَانَ بِصِفَةِ التَّفْضِيلِ فِي أَمْثَالِ الْمَقَامِ، لِلْفَضْلِ الْمَتَّوِّهِمْ فِي الْغُرَفِ الْآخِرِ، مِثْلًا: كَانَ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَا يَعْمَلُونَهُ فِي الْفَضْلِ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنْ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ هَؤُلَاءِ وَ إِنْ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ لَكِنِ الشَّرْطُ فِي أَمْثَالِ الْمَقَامِ مُرْتَبِطٌ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ، أَى إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لَعَلِمْتُمْ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ - كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْأَدَبِ -.

[٨٧] وَ لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا قِطَاعَ طَرِيقٍ، يَقْعُدُونَ فِي الطَّرِيقِ، يُوْعِدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ وَ الْإِيذَاءِ إِنْ لَمْ يَرْضَحُوا لِلنَّهْبِ وَ السَّلْبِ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَى تَمْنَعُونَ عَنِ إِيْمَانِ النَّاسِ، فَقَدْ كَانُوا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيْمَانِ بِشُعَيْبٍ مَنْ آمَنَ بِهِ أَى مَنْ أَرَادَ الْإِيْمَانَ، أَوِ الْمَرَادُ صَدِّ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْقِيَامِ بِوِظَائِفِ الْإِيْمَانِ وَ تَبْغُونَهَا أَى تَطْلُبُونَ السَّبِيلَ عِوَجًا أَى تَرِيدُونَ الطَّرِيقَ الْمَعْوَجَ، وَ لَا تَرِيدُونَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ، أَوِ الْمَرَادُ تَصْيِيدُونَ الْإِعْوَجَاجَ لِسَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ دَائِمًا يَفْكُرُونَ فِي نَقْدِ الْحَقِّ، حَتَّى يَرَوْهُ لِلنَّاسِ أَعْوَجَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٩

[سورة الأعراف (٧): آية ٨٧]

وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) وَ أذْكُرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فِي الْعَدَدِ فَكَثَرْتُمْ اللَّهُ فَإِنَّ جَدَّهُمْ «مَدْيَنَ» كَانَ وَاحِدًا، ثُمَّ كَثُرُوا، كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ قَبِيلَةٍ، فَاشْكُرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَ أَنْظُرُوا تَفَكَّرُوا وَ تَدَبَّرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي تَقْدَمْتُمْ، حَيْثُ أَهْلَكْتَ بِعَذَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَمَّا فَسَدُوا وَ أَفْسَدُوا وَ خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَخَافُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ نَكَالَ اللَّهِ وَ عِقَابَهُ.

[٨٨] وَ لَا - يَغْرَنَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ تَفَرَّقِ النَّاسَ عَنِّي بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَ كَافِرٍ، فَإِنَّ الْمَصْلِحِينَ يَتَفَرَّقُ النَّاسُ عَنْهُمْ فَرَقَتَيْنِ دَائِمًا، وَ قَبْلَ شُرُوعِهِمْ فِي الْإِصْلَاحِ، وَ يَكُونُ النَّاسُ حَوْلَهُمْ فَرَقَةٌ وَاحِدَةٌ مَوَالِيَةً، وَ لَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ سَبَبًا لِأَنَّ يَزْعُمُ كُلُّ مَنْ تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ فَرَقَتَيْنِ أَنَّهُ مَصْلِحٌ وَ عَلَى حَقِّ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْحَقِّ وَ الضَّمَائِرُ تَشْهَدُ بِالصِّدْقِ وَ الْكُذْبِ، وَ هَاتَانِ عَلَامَتَانِ مُمَيِّزَتَانِ بَيْنَ الْمَحْقُوقِ وَ الْمَبْطُلِ، وَ لَذَا تَمَسَّكَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «فَاصْبِرُوا».

وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ بِأَنَّ صِدْقُونِي وَ قَبِلُوا رِسَالَتِي وَ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُؤْمِنُوا بَلْ جَحَدُوا وَ بَقُوا عَلَى كُفْرِهِمْ

فَاصْبِرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ، الْمُؤْمِنُ مِنْكُمْ وَ الْكَافِرُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا بِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ وَ إِبْطَالِ كَلِمَةِ الْكَافِرِينَ، أَمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٠

الْآخِرَةُ فَهُوَ شَيْءٌ وَاضِحٌ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ لِأَنَّهُ لَا يَجُورُ فِي الْحُكْمِ، عَنِ عَمْدٍ أَوْ غَيْرِ عَمْدٍ، بَلْ يُعْطَى كُلُّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ، وَ إِنْ كَانَ مُثْقَلًا حَبْتًا مِنْ خَرَدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١﴾.

(١) الأنبياء: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء التاسع من آية ٨٩ من سورة الأعراف إلى آية ٤١ من سورة الأنفال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عَترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٨ إلى ٨٩]

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

[٨٩] قَالَ الْمَلَأُ جَمَاعَةَ الْأَشْرَافِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا رَفَعُوا أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ مَقْدَارِهَا وَ عَتَوْا وَ طَغَوْا مِنْ قَوْمِهِ أَى مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ لَنُخْرِجَنَّكَ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ يَا شُعَيْبُ وَ لَنُخْرِجَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَى بَلَدِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا «الملة» هى الطريقة، أَى ارجعوا كفارا كما كنتم، و العود فى الملة إما باعتبار الغالب، فأدخل فيه شعيبا عليه السلام تغليبا، فإن المؤمنين به كانوا كفارا ثم آمنوا، أو لزعمهم أن شعيبا عليه السلام كان منهم حيث كان أحدهم قبل ادعاء النبوة، و إما بمعنى الصيرورة، فإن «عاد» يستعمل بمعنى «صار»، كما قال الشاعر:

تلك المكارم لا ثعبان من لبن شيئا بماء فعادا بعد أبوالا

قَالَ شُعَيْبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: أَ تَعِيدُونَنَا فِي مِلَّتِكُمْ وَ تَدْخُلُونَنَا إِلَيْهَا أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ لِلدُّخُولِ فِيهَا؟ أَى: أَ تَجْبِرُونَنَا عَلَى ذَلِكَ؟ وَ لَعَلَّ الْقَصْدُ: إِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ فِي حِينِ كَرَاهِيَتِنَا لِذَلِكَ، فَإِنَّ الْعُقَائِدَ لَا تَزُولُ بِالْإِكْرَاهِ وَ الْإِجْبَارِ.

[٩٠] ثُمَّ قَالَ شُعَيْبُ: إِنَّهُ مِنَ الْمَسْتَحِيلِ أَنْ نَتَّخِذَ طَرِيقَتِكُمْ، إِذْ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بِأَنْ نَجْعَلَ اللَّهُ شَرِيكًا، وَ نَحْلَلَ حَرَامَهُ، وَ نَحْرَمَ حَلَالَهُ وَ نَنْسِبَ كُلَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٤

بأن أوضح الحق و أقام الحجة عليه و ما يكون لنا أى لا يجوز لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا و هذا من التعليق على المحال، لأن الله لا يشاء الكفر و العصيان، كما قال: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَمَّا فَآنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿١﴾، و قال: حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴿٢﴾، أو المراد مشيئة الله بسلب التوفيق منهم، و هذا ممكن بالنسبة إلى بعض المؤمنين الذين لا رسوخ لإيمانهم، كما ارتد بعضهم بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ حَيْثُ أَنْ الْعُودَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ صَحَّ ذَلِكَ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَى وَسِعَ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِالصَّلَاحِ وَ أَعْلَمُ بِالْوَقْعِ وَ الْحَقِيقَةِ، فَمَا كَانَ مِنْ عِبَادَتِنَا لِتَوْحِيدِهِ، بِأَمْرِهِ وَ نَهْيِهِ، هُوَ الصَّحِيحُ دُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ وَ الْعِنَادِ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا فِي أُمُورِنَا، فَلَا نَخَافُ مِنْ تَهْدِيدِكُمْ بِإِخْرَاجِنَا.

ثم دعا شعيب عليه السلام قائلا: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ مَعْنَى «الفتح» النجاة و وضوح الحق، إذ الواقع فى المشكلة كأن الطريق مسدود أمامه، كما أن من يريد الهداية يرى الضلال حاجزا، فيطلب الفتح لهذا الحاجز و إزالته ليرى الحق، و قيد «بالحق»

توضيحي، لإفادة أن فتحه سبحانه بالحق، أو احترازي لأن الفتح يطلق على الفتح بالباطل - كما يفتح الكافر مدينه ما- و الفتح بالحق و أنت يا إلهنا

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) الأعراف: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٠ الى ٩١]

وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)

خَيْرُ الْفَاتِحِينَ فَإِنْ سَئِرَ الْفَاتِحِينَ قَدْ يَظْلَمُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً أَوْ جَهْلًا، أَمَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَلَا يَحِيدُ فَتَحَهُ عَنِ الْحَقِّ، قِيدَ شَعْرَةً.

[٩١] ثم بين سبحانه ما قالت جماعه شعيب بعضهم لبعض وَ قَالَ الْمَلَأُ أَى جماعه الأشراف الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أَى من قوم شعيب،

بعضهم لبعض: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا فِي دِينِهِ وَ طَرِيقَتِهِ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ خسرتم منافعكم و طريقه آبائكم.

[٩٢] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أَى الزلزلة، أَو الصيحة، الموجبة للرجف و الاضطراب فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ أَى محلهم و بلدهم جَاثِمِينَ أَى ميتين

ملقين لا حراك فيهم.

في المجمع: قيل: أرسل الله عليهم رمده «أى هلاكاً جعلهم كالرماد» و حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فدخل

عليهم البيوت، فلم ينفعهم ظل و لا ماء و أنضجهم الحر، فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح و طيبها و ظل السحابة

فتنادوا: «عليكم بها» فخرجوا إلى البرية فلما اجتمعوا تحتها ألهبها الله عليهم نارا و رجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد

المقلى و صاروا رمادا و هو عذاب يوم الظلة «١».

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٣٠٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٢ الى ٩٣]

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي

وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

ثم

روى عن أبى عبد الله عليه السلام: «أنه بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا» «١».

[٩٣] الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا و لم يؤمنوا به و برسالته كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا «غنى بالمكان» يعنى: «أقام فيه» أَى: كَأَن الْمَكْذِبِينَ لم يقيموا فى

دارهم أصلا، حيث ذهبت أخبارهم و آثارهم الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا عاد اللفظ تأكيدا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فقد خسروا دينهم و دنياهم و

آخرتهم، و هذا فى قبال قولهم: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ

[٩٤] فَتَوَلَّى عَنْهُمْ شُعَيْبًا، أَى أعرض عنهم، إما قبل الهلاك- و تأخير هذه الجملة لما تقدم فى قصة قوم صالح- و إما حين الهلاك

إذ أخذهم العذاب وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي و جمع «رسالات» باعتبار كل رساله من مختلف الشؤون وَ نَصَحْتُ لَكُمْ بِأَن

تتبعونى حتى تكونوا فى أمن و سلامة فَكَيْفَ آسَى أَى أحزن على قوم كافرين بعد أن قمت بواجب النصح و الإرشاد. و المراد

بالاستفهام «كيف» النفى، أَى: لا أحزن، فإنهم استحقوا العقاب بإعراضهم و استكبارهم و تمردهم.

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٤ إلى ٩٥]

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ (٩٥)

[٩٥] ثم ذكر سبحانه أنه هكذا جرت عادة الناس بالنسبة إلى الأنبياء، وهكذا جرت سنة الله بالنسبة إلى المكذبين، تسلياً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإيقاظاً لمن أراد القيام بالأمر والنهي في سبيل الله تعالى وما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ الْمُرَادُ بِهَا الْمَدِينَةُ مِنْ نَبِيِّ لِإِرشادهم، فلم يؤمنوا به إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا أَى أَهْلَ تِلْكَ الْقَرْيَةِ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ الْبَأْسَاءُ: الشدة، والضراء: سائر أنواع الضرر لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ أَى يَتَضَرَّعُونَ، بأن يتنبهوا ويتوبوا عن شركهم وكفرهم ومعاصيهم.

[٩٦] ثم بعد أخذهم بالبأساء والضراء بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ بأن رفعنا عنهم الشدة وجعلنا الرفاه والرخاء مكانها لعلهم يشكرون، كما قال سبحانه: فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ «١»، فإن الله سبحانه يوقظ العصاة أولاً بالشدة، فإن لم تنفع يوقظهم بالرفاه، فإن لم ينفع عذبهم، حيث لم يفدهم لا الخوف ولا الإحسان حَتَّى عَفَوْا «العفو» هو:

الإغضاء عن الذنب، أى فعلوا الذنوب غاضين عنها، تاركين أنفسهم وشهواتها.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ الشدة والرخاء للابتلاء والإيقاظ، لم يصدقوا، بل قالوا: هذه عادة الدنيا دائماً ف قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ

(١) الأنعام: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٩٦]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) وَالسَّرَّاءُ مَا يَضُرُّ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَ مَا يَسِرُّ مِنَ الرَّفَاهِ، وَ لَيْسَا لِلْإِبْتِلَاءِ وَ الْإِيقَاطِ فَانْسَدَّتْ جَمِيعُ أَبْوَابِ الْهُدَايَةِ فِي وَجُوهِهِمْ، وَ لَمْ يَنْفَعِهِمْ إِرشاد الأنبياء، وَ لا الضراء وَ لا السراء فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ أَى فَجَأَهُ بَدُونِ إِمهال وَ هُمْ لَا يُشْعُرُونَ بِالْعَذَابِ إِلَّا حِينَ يَرُونَهُ، وَ رُبَّمَا كَانَ هُنَاكَ إِحْتِمَالُ إِقْلَاعِ، وَ هُنَا يَأْتِي الْعَذَابُ تَدْرِيجِيًّا، كَمَا حَصَلَ لِقَوْمِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ إِبْلَاغًا لِلْحِجَّةِ إِلَى أَقْصَاهَا، كَمَا صَنَعَ بِقَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم إن المؤمن والكافر كلاهما يتبلان بالضراء والسراء، لكن هناك فرق؛ فضرء المؤمن مع صبر وارتياح، وضرء الكافر مع جزع و كمد، و سراء المؤمن مع بركة و أمن و اطمئنان، و سراء الكافر مع محق و قلق و اضطراب.

[٩٧] وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَ بِأَنْبِيَائِهِ وَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَهُ وَ عَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ «البركات» الخيرات النامية، و فتح الخير من السماء بكثرة الأمطار، و طيب الهواء، و فتحه من الأرض بإخراج النبات و الثمار، و تفجير العيون، إلى غيرهما من الخيرات المادية و المعنوية كاستجابة الدعاء و نحوها، و هذا إلى جنب كونه معنوية بلطفه سبحانه، كذلك يكون بالأسباب الظاهرة، فإن الإيمان و التقوى يوجبان سيادة مناهج الله تعالى و هى توجب الأخوة و التعاون مما يسببان ازدهار الحياة و تعميم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٧ إلى ٩٩]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ

اللَّهُ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)

الرفاه والأمن، كما أن الكفر والعصيان سببان لعكس ذلك وَلَكِنْ كَذَّبُوا الرِّسْلَ وَلَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخَذْنَا هُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أى بسبب كسبهم المعاصي والآثام.

[٩٨] ثم ذكر سبحانه أن أهل المعاصي لا بد لهم أن يترقبوا العقاب والنكال أَفَأَمِنَ أى هل يأمن أهل القرى المكذبون للرسول العاصون لله سبحانه أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا أى عذابنا بيئاتاً أى ليلاً وَهُمْ نَائِمُونَ فى أمن وراحة واطمئنان؟ والمعنى: أنهم يجب أن لا يأمنوا ذلك.

[٩٩] أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى الْهَمَزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ، وَ الْوَائِ لِلْعَطْفِ، أى و هل يأمن أهل البلاد أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا نكالنا و عقابنا ضحى نهارا عند ارتفاع الشمس وَهُمْ يَلْعَبُونَ فى أمن و اطمئنان، أنهم إن عصوا فلن يكونوا آمنين فى أحسن أوقات أمنهم ليلاً و لا نهاراً.

[١٠٠] أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ الْمَكْرُ: الْعَلَاجُ الْخَفِيُّ، وَ إِنْ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ عَرَفَا فى معالجة الأشياء بالباطل، أى يجب أن لا يأمن أحد من مكر الله، و تسببه الأسباب للنكال به فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَ لَا يَنْكُرُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَ إِلا فَالْمُؤْمِنِينَ يَخَافُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصِيبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبُعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)

سوء العاقبة الموجب للنكال و العقاب، و المعصومون خارجون عن العموم لأن مصب الكلام حول العصاة- فإنه عبارة أخرى عن وجوب حذر العصاة- أو داخلون باعتبار احتمال صدور ترك الأولى منهم، الموجب لعدم بلوغ بعض الدرجات الرفيعة، كما قال سبحانه: وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً «١».

[١٠١] أَوْ لَمْ يَهْدِ أى: ألم يتبه و يرشد للَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أى الذين صاروا خلفاء لآبائهم و أجدادهم، من بعد ما أفينا أولئك، و أبحنا الأرض لهؤلاء، أى أليس يعرف الناس مما رأوه من عذاب الأمم السابقة- حينما عصوا- أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصِيبْنَاهُمْ وَ أَخَذْنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ كما أهلكنا الأمم السابقة وَ نَطْبُعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ بأن نعلمها بعلامه الكفر، أو نغفلها حتى لا تعقل شيئاً، و ذلك بسبب اقترافهم الجرائم والآثام- كما سبق- فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ الْوَعْدَ وَ لَا يَقْبَلُونَهُ.

[١٠٢] تِلْكَ الْقُرَى الَّتِي هَلَكَتْ وَ اضْمَحَلَتْ نَقُصُّ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَنْبَاءِهَا أى أخبارها لتنظر فيها بنظر الاعتبار، و تخبر بها المسلمين و غير المسلمين حتى يعتبروا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أى الأدلة

(١) طه: ١١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

وَ مَا وَحَدَّثْنَا لِلْكَثِيرِ مِنْهُمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَحَدَّثْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)

الواضحة الدالة على المرسل و الرسول فأهلكناهم لأنهم تمادوا فى غيهم و لم يكن احتمال إقلاعهم عن كفرهم و عصيانهم إذ ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ إنهم كانوا كذلك حسب علمنا بكامن قلوبهم كَذَلِكَ أى كما طبع على قلوب هؤلاء، بمعنى أنها لم تكن

قابله للهداية بسوء صنيعها، كمن صارت المعصية ملكة له فلا يقدر عادة على تركها كذلك يَطِيعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ و قد مرّ مرارا معنى «الطبع» و أنه بسوء اختيار الشخص، لا أنه ظلم من الله- تعالى عن ذلك- بالنسبة إلى الكافر.

[١٠٣] وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ أَى أَكْثَرَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا مِنْ عَهْدٍ أَى كَانُوا يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ وَ الْمَوَاقِيقَ، يُقَالُ: «لَا عَهْدَ لِفُلَانٍ»، أَى لَا يَفِي بِعَهْدِهِ، وَ الْمَرَادُ بِ «الْعَهْدِ»، إِمَا مَا أَوْدَعُ فِي فِطْرَةٍ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَ إِمَا مَا كَانَ مَأْخُذًا مِنَ النَّاسِ عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ، وَ تَصَحُّ نَسْبُهُ عَدَمَ الْعَهْدِ إِلَى الْأَنْبَاءِ، بِمَلَا حِظَةَ التَّعْهُدِ مَعَ الْآبَاءِ، وَ لِذَا مِنْ عَاهِدِ قَبِيلِهِ أَنْ لَا يَحَارِبُهَا خَمْسِينَ سَنَةً، كَانَ الْأَبْنَاؤُ مُلْزَمِينَ بِمَا التَّرْتَمَ بِهِ آبَاؤُهُمْ وَ إِنْ وَجَدْنَا أَى قَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لِفَاسِقِينَ خَارِجِينَ مِنَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، فَإِنَّ الْفَسْقَ بِمَعْنَى الْخُرُوجِ عَنِ الطَّاعَةِ.

[١٠٤] ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ أَى بَعْدَ الرِّسَالِ الَّذِينَ تَقَدَّمَتْ أَسْمَاؤُهُمْ، أَوْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٤ إلى ١٠٥]

وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)

بعد هلاك الأمم السالفة موسى عليه السلام يأتينا أى مع دلائلنا و حججنا إلى فرعون و ملائجه أى قومه، أو الأشراف منهم، و إنما خصوا لأنه عليه السلام قصدهم أولا و بالذات فظلموا أى ظلم فرعون و ملأه أنفسهم بها أى بسبب تلك الآيات، فإن نزولها صار سببا لظلم أنفسهم، و لو لا أنها نزلت لم يظلموا، لأنه لم تكن حينئذ شريعة أصلا، و هذا مجاز فى النسبة كقوله سبحانه: وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (١)، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أى انظر يا رسول الله، أو كل من يأتى منه النظر، و المراد ب «النظر» التدبر و التفكير، فيما آل إليه أمر المفسدين، من الهلاك و الغرق.

[١٠٥] وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَى إِنِّي رَسُولٌ إِلَيْكَ، مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَ قَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَقُولُ أَنَّهُ الْإِلَهُ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: فَحَسَّرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (٢).

[١٠٦] حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا- أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ أَى وَاجِبٌ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ، وَ لَا- أَنْسِبُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الصِّدْقَ، فَإِنَّ الْجَدِيرَ بِالنَّبِيِّ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَهُ سَبْحَانَهُ، لَا أَنْ يَنْسِبُ إِلَيْهِ تَعَالَى الْبَاطِلَ وَ الْكُذْبَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ

(١) الإسراء: ٨٣.

(٢) النازعات: ٢٤ و ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٦ إلى ١٠٨]

قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (١٠٨)

مِنْ رَبِّكُمْ أَى بِحِجَّةٍ دَالَّةٍ عَلَى صِدْقِ كَلَامِي، وَ الْمَرَادُ بِهَا الْجِنْسَ لَا حِجَّةً وَاحِدَةً فَأَرْسِلْ يَا فِرْعَوْنُ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ سَخَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْأَعْمَالِ كَالْبَنَاءِ وَ نَحْوِهِ. وَ الْمَرَادُ بِإِرْسَالِهِمْ:

التخليه بين بنى إسرائيل و بين موسى عليه السلام ليوجههم حسب الشريعة.

و فى بعض التفاسير أنه عليه السلام أرادهم ليذهب بهم إلى الأرض المقدسة موطن آبائهم و أجدادهم.

[١٠٧] قَالَ فِرْعَوْنُ: إِنْ كُنْتُ يَا مُوسَى جِئْتُ بِآيَةٍ أَى حِجَّةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ نَبِيِّتِكَ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ فِى أَنْكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

[١٠٨] فَأَلْقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَاهُ الَّتِي كَانَتْ بِيَدِهِ، وَكَانَتْ مِنَ الْجَنَّةِ فَإِذَا هِيَ تَنْقَلِبُ إِلَى ثُعْبَانٍ مُبِينٍ أَى حِيَةً كَبِيرَةً عَظِيمَةً فَتَحْتُ فَاهَا لِتَلْتَمِسَ قَصْرَ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَوْلُهُ ثَمَانِينَ ذِرَاعًا. وَهنا خاف فرعون والحاشية، و هربوا، و أحدث فرعون من الخوف، و التمس موسى أن يردّها، فردّها و إذا بها ترجع عصا كالسابق.

[١٠٩] وَ نَزَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدَهُ أَى جَعَلَهَا تَحْتَ إِبْطِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ أَى صَارَتْ الْيَدُ أَكْثَرَ ضِيَاءً مِنَ الشَّمْسِ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى إِبْطِهِ وَ أَخْرَجَهَا فَإِذَا بِهَا كَحَالَتِهَا السَّابِقَةَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٩ إلى ١١٣]

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَ جَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) [١١٠] وَ لَمَّا رَأَوْا هَاتَيْنِ الْمَعْجِزَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ تَحِيْرُوا، وَ هُنَا تَدَخَلَتِ الْحَاشِيَةُ فِي الْأَمْرِ لِيُخَفِّفُوا مِنْ رُوعِ فِرْعَوْنَ قَالَ الْمَلَأُ أَى جَمَاعَةُ الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا أَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ بِالسَّحْرِ، وَ أَنَّهُ صَنَعَ مَا صَنَعَ سَحْرًا لَا مَعْجِزَةَ.

[١١١] يُرِيدُ أَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِاسْتِمَالَةِ قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ سَائِرِ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْكُمْ. وَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ شَخْصًا إِذَا غَلِبَ يَهْرَبُ أَعْضَاءَ الْحُكُومَةِ السَّابِقَةَ خَوْفًا مِنْهُ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ أَنْ نَصْنَعَ لِتَقَاءِ خَطَرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ؟

[١١٢] قَالُوا أَى قَالَ الْمَلَأُ فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ الَّذِي سَأَلَ «مَاذَا تَأْمُرُونَ»:

أَرْجِهْ أَمْرًا مِنْ «أَرْجَأُ» بِمَعْنَى «أَخَّرَ»، أَى أَخَّرَهُ وَ اضْرَبْ مَعَهُ مَوْعِدًا، وَ لَا تَعْجَلْ فِي الْحُكْمِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ وَ أَخَاهُ أَى وَ أَخْرَ أَخَاهُ هَارُونَ مَعَهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ الَّتِي حَوْلَكَ، جَمْعُ «مَدِينَةٍ» أَى ابْعَثْ إِلَى الْبُلْدَانِ الْأُخْرَى حَاشِرِينَ أَى أَنَا سَا جَامِعِينَ لِلْسَّحْرِ لِأَتَاوَا وَ يَقَابِلُوهُ بِمِثْلِ سَحْرِهِ.

[١١٣] يَا تَأْتُوكَ أَوْلَيْتُكَ الْمَبْعُوثُونَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَاسْتَحْسَنَ فِرْعَوْنَ رَأْيَهُمْ وَ أَرْسَلَ فِي طَلْبِ السَّحْرِ.

[١١٤] وَ جَاءَ السَّحْرَةُ وَ فِي عَدَدِهِمْ خِلَافٌ: مِنْ سَبْعِينَ، إِلَى ثَمَانِينَ أَلْفِ فِرْعَوْنَ أَى جَاءُوا إِلَيْهِ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا أَى عَوْضًا عَلَى عَمَلِنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١٤ إلى ١١٧]

قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَزْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ عَلَى مُوسَى.

[١١٥] قَالَ فِرْعَوْنَ: نَعَمْ لَكُمْ الْأَجْرُ إِنْ غَلِبْتُمُوهُ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى، فَأَكْرَمَكُمْ وَ أَجْعَلَكُمْ فِي عِدَادِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى.

[١١٦] قَالُوا أَى قَالَ السَّحْرَةُ: يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى عَصَاكَ أَنْتَ أَوْلَا وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ لَمَّا مَعْنَا مِنَ السَّحْرِ؟

[١١٧] قَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلْقُوا مَا مَعَكُمْ أَوْلَا فَلَمَّا أَلْقَوْا جَبَالَهُمْ وَ عَصِيَهُمْ الَّتِي كَانَتْ آلَةُ سَحْرِهِمْ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ فَقَدْ احْتَالُوا فِي تَحْرِيكِ الْعَصَى وَ الْجِبَالِ بِمَا جَعَلُوا فِيهَا مِنَ الزَّبَقِ حَتَّى تَتَحَرَّكَ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّمْوِيهِ، وَ خِيَلٌ إِلَى النَّاسِ أَنَّهَا تَتَحَرَّكُ، وَ قَدْ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهَا حَيَاتٌ تَتَحَرَّكُ، وَ مَا شَعَرُوا أَنَّهَا جِبَالٌ تَحْرُكُهَا حَرَارَةُ الشَّمْسِ بِمَا فِيهَا مِنَ الزَّبَقِ وَ اسْتَزْهَبُوهُمْ أَى أَرَهَبُوهُمْ، فَإِنَّ النَّاسَ خَافُوا مِنْ حَيَاتِهِمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ فَإِنَّ الْجِبَالَ الْكَثِيرَةَ الْمَخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانَ وَ الْكَيْفِيَّةَ إِذَا صَارَتْ كُلُّهَا حَيَاتٍ - فِي أَعْيُنِ النَّاسِ - تَرَكِبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ يَكُونُ عَظِيمًا لَدَى النَّظَرِ.

[١١٨] وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ ذَاكَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ الَّتِي هِيَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١٨ الى ١٢١]

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَعَلَّبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١)

معك، فألقاها فصارت ثعبانا مدهشا فإذا هي تَلْقَفُ أى تلتقم وتأكل ما يَأْفِكُونَ أى إفكهم، والمراد به حياتهم وعصيتهم، فإن العصا أخذت تأكل الحبال ثم توجهت إلى الناس، فأخذوا فى الهرب، وقتل تحت الأيدي والأرجل جمع كثير، ثم أخذها موسى عليه السلام فإذا بها عصا، وهناك قال السحرة: لو كان هذا سحرا لم تأكل حبالنا، فلا بد وأن يكون إعجازا من رب السماء. [١١٩] فَوَقَعَ أى ظهر الحق وهو أمر موسى عليه السلام ونبوته وبطل ما كانوا يَعْمَلُونَ من التمويهات، أى ظهر بطلانها. [١٢٠] فَعَلَّبُوا أى غلب موسى عليه السلام فرعون وملائه، وبهت أولئك هُنَالِكَ أى من ذلك المكان وانقلبوا أى انصرف فرعون وملائه صَاغِرِينَ أذلاء مقهورين.

[١٢١] وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ فإن السحرة لما شاهدوا تلك الآيات، وعلمو أن موسى عليه السلام نبي من عند الله تعالى، لم يتمالكوا أنفسهم إلا وسجدوا إذعانا لله سبحانه، والتعبير بـ «ألقى» مبنى للمجهول، لأجل إفادة معنى عدم تمالك النفس، وأن ما رأوا من الآيات هي التي سببت أن يسجدوا.

[١٢٢] قَالُوا أى قال السحرة: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ صدقناه واعترفنا بوجوده، وكفرنا بألوهية فرعون.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٢٢ الى ١٢٤]

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)

[١٢٣] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ وإنما خصوهما بالذكر، بعد قولهم «رب العالمين» لأنهما دعيا إلى الإيمان بالله.

[١٢٤] قَالَ فِرْعَوْنُ حين رأى إيمان السحرة: آمَنْتُمْ بِهِ أى بموسى عليه السلام والاستفهام للتوبيخ والإنكار قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أى قبل أن تحصلوا على إذني، فإنه كان يرى نفسه المستحق لأن يأذن بالإيمان، وأن الإيمان بدون إذنه موجب للعقوبة إن هذا أى هذا الإيمان بهذه الكيفية لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فى الْمَدِينَةِ فإنه أراد أن يلبس على الناس أن إيمان السحرة ليس على علم واعتقاد، وإنما عن تواطؤ من موسى والسحرة لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا أى صنعتهم هذا المكر لأن تسودوا أتمتم فى البلاد، وتخرجوا من المدينة أهلها، والمراد بهم فرعون وملائه، فإنه إذا جاءت سلطة جديدة، تجبر أهل السلطة القديمة بالفرار وقاية لأنفسهم من السجن والقتل فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أيها السحرة عاقبه أمركم وجزاء عملكم.

[١٢٥] لَأَقْطَعَنَّ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ أيها السحرة مِنْ خِلَافٍ أى من كل شق طرفا، كاليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بالعكس. و كانوا يعملون ذلك لبقاء التوازن فى الجملة للجسد، إذ لو كان القطع من طرف واحد، لم يكن لذلك الطرف رجل يمشى بها، ولا يد يتكئ بها على العصا ثُمَّ بعد القطع لَأَصْلَبَنَّكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٢٥ الى ١٢٧]

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)

و «الصلب» هو الشد على الخشبة حتى يموت، وقد كان يطول بقاء المصلوب يوما وأكثر أَجْمَعِينَ فلا أدع منكم أحدا.

[١٢٦] قالوا أى قال السحرة: إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ «الانقلاب» هو الرجوع، والمعنى: إنك إن صلبتنا فإننا إلى جِزاء الله و ثوابه نرجع، فلا يضرنا شىء. و غرضهم بيان صبرهم على ما ينزل بهم من الشدة، و أنهم مصممون على استمرارهم فى الإيمان.

[١٢٧] وَ مَا تَنْقِمُ «النقمة» الإنكار، أى: ما تكره منّا و ما تطعن فينا إلّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا أى دلائله و حججه لَمَّا جَاءَنَا فليس لنا ذنب سوى ذلك رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا أى اصعب علينا الصبر عند ما يفعل بنا من القطع و الصلب وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ أى وَفَّقَنَا للثبات على الإسلام إلى وقت الوفاء حتى نموت على الإيمان و الإسلام. و فى أن فرعون صلب هؤلاء أم لا، خلاف بين المفسرين.

[١٢٨] وَ قَالَ الْمَلَأُ أى جماعة الأشراف مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بعد أن رأوا غلبه موسى عليه السلام و إيمان جمع به أ تَدْرُ أى هل تبقى يا فرعون موسى وَ قَوْمَهُ و هم بنو إسرائيل لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بإظهار التوحيد، و أنك لست بإله وَ يَذْرُكَ أى يتركك موسى، فلا يعنى تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٩

[سورة الأعراف (٧): آية ١٢٨]

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)

بك و يذر آلِهَتَكَ جمع «إله»، فقد كان يدعى الربوبية، و جعل لهم آلهة أيضا، فكانوا يعبدون البقر و الأصنام. و قد كان الاستفهام منهم تحريضا لفرعون، حتى يقضى على موسى عليه السلام قال فرعون فى جوابهم: سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ أى سوف نكثر فى أبناء قوم موسى القتل حتى لا يبقى منهم أحد يصلح للقتال و الإفساد وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ أى نستبقيهن أحياء للخدمة و الاستمتاع إذلالا لهم، و إماتة لكلماتهم وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ بيدنا القوة و الجند و السلاح و الملك فلا يتمكنون من مقاومتنا.

[١٢٩] قد كان فرعون يفعل ذلك بنى إسرائيل، لما علم أن زوال ملكه بيد أحدهم، و لما ظهر موسى عليه السلام كَفَّ عن ذلك خوفا، و بعد ما حثه قومه على الانتقام، عزم على العودة إلى ما كان يفعله سابقا، و لما علم بذلك بنو إسرائيل شكوا إلى موسى عليه السلام ف قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ فى دفع بلاء فرعون عن أنفسكم وَ اصْبِرُوا على أذى فرعون أياما قليلة، فلا ترجعوا عن دينكم، و لا- تظهروا الجزع إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ تَعَالَى يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أى ينقلها ياماتة السابقين أو إقصائهم، و يجعلها فى أيدي الآخرين، كما أن الإرث كذلك فى الجملة وَ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ لِلْمُتَّقِينَ الذين يتقون الله تعالى، فإنهم يجلبون بذلك خير الدنيا و سعادة الآخرة، مع رضا الله سبحانه عنهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٢٩ إلى ١٣١]

قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَ إِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)

[١٣٠] قالوا أى قال بنو إسرائيل، لما سمعوا جواب موسى بالصبر، و أنه لا يريد دفع فرعون عاجلا: أُوذِينَا أى عذبنا من قبل فرعون مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا و تبعث فينا بالرسالة وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا و بعثت إلينا رسولا، فلم ننتفع بك فى دفع الأذى قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ و اعدا إياهم بالنجاة: عَسَى رَبُّكُمْ أى لعل الله سبحانه أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ فرعون و ينقذكم منه وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ أى يجعلكم خلفاءه و القائمين مقامه فى البلاد فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ بعد ما ملكتم الأرض، هل تفسدون كما أفسد فرعون أم تصلحون، فإن الله سبحانه يجازى البشر بعملهم لا بعلمه فيهم.

[١٣١] ثم بين سبحانه ما فعله بال فرعون من النكال و العقاب جزاء بما كانوا يقترفونه من المعاصى و الآثام وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ «السنين» الأعوام المقحطه، يقال: «أخذتهم السنة» إذا كانت سنة مقحطه مجدبه، أى عاقبناها بالجذب و القحط وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ فإن أشجارها كانت تحمل أثمارا قليلة، و هذا غير جذب أراضيهم لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أى لكى يذكروا عذاب الله فيرجعوا إلى

الإيمان.

[١٣٢] فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ أَى أَصَابَهُمُ الْخَيْرُ كَالْخِصْبِ وَالسَّعَةِ وَالصَّحَّةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣١

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٢]

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

و ما أشبه قالوا لنا هذه أى إنا نستحق ذلك، وهذا من حسن حظنا، و علو طالعنا، فلم يكونوا يشكرون الله سبحانه على ما أنعم عليهم و إن تصب بهم سيئته كالجوع و القحط و المرض و نحوها يطيروا أصله «يتطير» فأدغمت التاء فى الطاء بموسى و من معه من المؤمنين، فكانوا يقولون: هذا من شؤم موسى و سوء طالعه، و الأصل فى التطير ما كان العرب تزعمه من أن الطير إذا جاء من طرف شمال الإنسان كان شرا و إذا جاء من طرف يمينه كان خيرا، ثم غلب التطير فى القسم الأول، فإذا قيل: «تطير» أريد أنه «تشاءم».

فكان آل فرعون يرون البلاء من موسى عليه السلام و لم يكونوا يعلمون أنها من سوء أعمالهم ألا أى تنبيه أيها المخاطب إنما طائرهم و الشؤم الذى كان يلحق بهم لم يكن من عند موسى و لأجله بل من عند الله فإنه كان يضربهم بالبلاء عقوبة لأعمالهم و لكن أكثرهم لا يعلمون ذلك بل كانوا يزعمون الشؤم من موسى عليه السلام.

[١٣٣] وَقَالُوا أَى قَالَ فرعون و ملأه لموسى عليه السلام: مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا: أى شىء من المعجزات لتموه علينا بها بسببها، تريد بذلك أن تؤمن بما تدعو إليه فما نحن لك بمؤمنين و لا نصدقك فيما جئت به من الألوهية و الرسالة و الوعد و الوعيد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٢

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٣]

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجَرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣)

[١٣٤] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ هو الماء الغالب على أبنيتهم و أشجارهم حتى خربها و الجراد حتى أكل أشجارهم و زرعهم و القمل هو السوس الذى يخرج من الحنطة و نحوها و الضفادع جمع «ضفدع» حتى كان يشب فى أوانيتهم و قدورهم و يكثر فى بيوتهم و محلاتهم حتى عجزوا عنها و الدم فقد انقلب ماء النيل دما فكانوا لا يتمكنون من شرب و لا يهنئون بأكل و طعام آياتٍ مُفَصَّلَاتٍ أى معجزات فضيلت بعضها عن بعض، ظاهرات واضحات فاستكبروا أى تكبروا عن قبول الحق بعد كل ذلك و كانوا قوماً مجرمين عاصين ذوى كفر و إجرام.

روى أن السحرة لما سجدوا و آمن بموسى جمع من آل فرعون قال هامان لفرعون- و كان وزيره-: إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل فى دينه فاحبسه، فحبس كل من آمن به من بنى إسرائيل، فجاء إليه موسى، فقال له: خلّ عن بنى إسرائيل، فلم يفعل، فأنزل الله عليهم فى تلك السنة الطوفان، فخرّب دورهم و مساكنهم حتى خرجوا إلى البرية و ضربوا الخيام، فقال فرعون لموسى: ادع ربك حتى يكف عنا الطوفان فأخلى عن بنى إسرائيل و أصحابك، فدعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان و هم فرعون أن يخلى عن بنى إسرائيل، فقال له هامان: إن خليت عن بنى إسرائيل غلبك موسى و أزال ملكك، فقبل منه و لم يخلّ عن بنى إسرائيل، فأنزل عليهم فى السنة الثانية الجراد فجردت كل شىء كان لهم من النبت و الشجر حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٣

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٤]

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤)

كانت تجرد شعورهم و لحاهم، فجزع فرعون من ذلك جزعا شديدا، و قال: يا موسى ادع ربك أن يكف عنا الجراد حتى أخلى عن

بنى إسرائيل و أصحابك، فدعا موسى ربه فكف عنهم الجراد.

فلم يدعه هامان أن يخلي عن بنى إسرائيل فأنزل الله عليهم القمل فذهب زرعههم و أصابتهم المجاعة فقال فرعون لموسى: إن دفعت عنا القمل كففت عن بنى إسرائيل، فدعا موسى ربه حتى ذهب القمل، فلم يخلي عن بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم بعد ذلك الضفادع فكانت تكون فى طعامهم و شرابهم، فجزعوا من ذلك جزعا شديدا، فجاءوا إلى موسى فقالوا: ادع الله يذهب عنا الضفادع فإننا نؤمن بك و نرسل معك بنى إسرائيل، فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم ذلك، فلما أبوا أن يخلوا عن بنى إسرائيل حوّل الله ماء النيل دما فكان القبطى يراه دما و الإسرائيلى يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلى كان ماء و إذا شربه القبطى كان دما، فجزعوا من ذلك جزعا شديدا فقالوا لموسى: لئن رفع عنا الدم لنرسلن معك بنى إسرائيل، فلما رفع الله عنهم الدم غدروا و لم يخلوا عن بنى إسرائيل.

[١٣٥] وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ «الرجز» العذاب، فقد أصابهم ثلج أحمر و لم يروه قبل ذلك فماتوا فيه و جزعوا و أصابهم ما لم يعهدوا من قبل قالوا أى فرعون و ملاه: يا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ أَي بما تقدم إليك أن تدعوه به، فإنه يجيبك كما أجابك سابقا لئِنْ كَشَفْنَا عَنْكَ هَذَا الرِّجْزَ لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ بما جئت به من التوحيد و النبوة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٥ الى ١٣٦]

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)

و لَتُرْسَلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فنطلق سراحهم من السجون و من تسخيرهم بالأعمال الشاقة.

[١٣٦] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ بدعاء موسى عليه السلام، و معنى «كشف الرجز» رفع العذاب إلى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ أى: إن رفعنا العذاب كان لأجل أن يبلغوا المدّة المحدودة المقدره لهم، إذ لم يقدر موتهم فى ذلك الوقت الذى نزل بهم الرجز فيه إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ أى يخالفون و ينقضون عهدهم فلا يؤمنون و لا يطلقون بنى إسرائيل.

[١٣٧] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ أى عدّناهم جزاء بما فعلوا من الكفر و المعاصى فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ أى فى البحر بِأَنَّهُمْ أى بسبب أنهم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا أى عن الآيات غَافِلِينَ بمعنى أنهم كانوا يعملون عمل الغافل عن الآيات، إذ الملتفت العاقل لا يخالف و لا يكذب، أو المراد غافلين عن عواقب الآيات، كما يقال: «فلان غافل عن أمر السلطنة» أى عن عواقبه السيئه فيما إذا خالف.

و فى بعض الروايات: أنه بعد نزول الثلج خلى عن بنى إسرائيل فاجتمعوا إلى موسى فى مصر و اجتمع إليه من كان هرب من مصر و بلغ فرعون ذلك، فقال هامان: قد نهيتك أن تخلى عن بنى إسرائيل فقد استجمعوا إليه، فجزع فرعون، و فرّ موسى إلى الخارج و اتبعهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٥

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٧]

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

فرعون، حتى وصلوا إلى البحر، فدخل موسى و من معه البحر بعد ما انشق لهم طرقا، و لما بلغوا منتصف البحر- و هو البحر الأحمر- دخل فرعون و جنوده البحر و لما بلغ موسى آخر البحر و خرجوا، كان فرعوا قد بلغ منتصفه- و عرضه أربع فراسخ تقريبا- و هناك أطبق الماء على أصحاب فرعون، و أغرقوا أجمعين.

[١٣٨] وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ يعنى: أعطينا بنى إسرائيل الذين كانوا مستضعفين، فإن القبط كانوا يستضعفونهم، فأورثهم الله مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا أى مشارق الأرض التى كانوا فيها، و مغاربها يعنى أرض الشام، فإن بنى إسرائيل ملكوها بعد

الفراعنة و العمالقة التي بارَكنا فيها بإخراج الزرع و الثمار و سائر صنوف النبات و الأشجار و تَمَّتْ و ثبتت كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى صفة «كلمة» أى الكلمة الحسنه التى وعدها الله على بنى إسرائيل فإنه أنجز وعده بإهلاك أعدائهم و استخلافهم فى الأرض و كان تمام الكلمة الحسنى بسبب ما صَبَرُوا على أذى فرعون متمسكين بدينهم، و قيل المراد ب «الكلمة الحسنى» ما بينه سبحانه فى محل آخر بقوله:

و نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ إِلَى قَوْلِهِ - يَحْذَرُونَ «١».

(١) القصص: ٦ و ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٣٩]

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَبِرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)

و دَمَرْنَا أَى نَسَفْنَا و أهلكنا ما كان يصنع فرعون من الأبنية و القصور و ما كان يصنعه قومه من المنازل و المزارع و ما كانوا يعرشون من الأشجار و الأعناب و الثمار، أى يجعلون له عريشا و سقفا.

[١٣٩] وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ أَى قطعنا لهم بحر مصر الأحمر بأن جعلنا لهم فيه طرقا يابسه ليعبروا فلما عبروا فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ أَى مرّوا على جماعة يعكفون على أصنام لهم أى يقبلون عليها ملازمين لها مقيمين عندها قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا مجسما حتى نعبده كما لهم آلِهَةٌ يعبدونها قال موسى عليه السلام: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ربكم و لا تعظمونه فإنه لا يجوز أن تعبد الأصنام، لأنه شرك بالله سبحانه.

[١٤٠] إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ مُتَّبِعٌ أَى مدمر مهلك، من «التبار» بمعنى الهلاك ما هم فيه من عبادة الأصنام، أى أن هذه العبادة توجب الهلاك و الدمار و باطل ما كانوا يعملون أى أن عملهم باطل لا نصيب له من الحق و الحقيقة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٠ الى ١٤١]

قَالَ أَغْيَرِ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

[١٤١] ثم قال موسى عليه السلام لقومه على نحو الاستنكار و التوبيخ:

أَغْيَرِ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا أى ألتمس و أطلب لكم إلها غير الله، إن هذا لا يكون أبدا و الحال أنه إلهكم الوحيد و هو الذى فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ أى عالمى زمانهم، فإنه هو المعطى المفضل، فكيف أتخذ إلها غيره؟! [١٤٢] ثم خاطب الله سبحانه بنى إسرائيل الموجودين فى زمان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليعدّد نعمه عليهم، استدراجا لهم إلى الإيمان، و تذكيرا بما سبق لهم منه سبحانه من الإحسان و أذكروا يا بنى إسرائيل إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَلَصْنَاكُمْ مِنْهُمْ، و المراد ب «آل فرعون» قومه و ذوا السلطة فى ملكه، حين كانوا يَسُومُونَكُمْ أى يولونكم و يفعلون بكم- من «سام فلانا» إذا عذبه و أذله- سُوءَ الْعَذَابِ أى العذاب السيئ.

ثم بين سبحانه طرفا من ذلك العذاب بقوله: يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ «التقتيل» تفعيل من القتل، أى يكثرون القتل فى الذكور منكم. فقد كان فرعون يقتل أولاد بنى إسرائيل، لئلا يولد فيهم مولود ذكر يذهب بملكه- حسب ما أخبره المنجمون- ثم بعد ذلك و إن علم بموسى و أرسل إليه، أخذ يقتل الذكور ثانية، لئلا يجتمعون حول موسى و تقوى شوكته فيعارضوه فى سلطانه و يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٨

[سورة الأعراف (٧): آية ١٤٢]

وَ وَاَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ اَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِاَخِيهِ هَارُونَ اَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَ اصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

يستبقونهن أحياء للخدمة و الاستمتاع و الإذلال و في ذلكم أي في تخليه فرعون و ما يفعل بكم بلاء أي ابتلاء من ربكم من قبله سبحانه ليجازي الصابرين عظيم أو المعنى: في طرف ما فعل بكم من النجاة «بلاء» أي نعمه، فإنه يأتي بمعناها «من» طرف ربكم «عظيم» حيث تفضل عليكم بنعمه النجاة من ذلك الشقي.

[١٤٣] ثم ذكر سبحانه تمام نعمه على بني إسرائيل فقال: وَ وَاَعَدْنَا أَي وَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً فَقَدْ رَوَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَانَ بِمِصْرَ وَعَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ إِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ أَتَاهُمْ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِيهِ بَيَانٌ مَا يَأْتُونَ وَ مَا يَذْرُونَ، فَلَمَّا هَلَكَ فِرْعَوْنُ سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ الْكِتَابَ، فَوَعَدَ اللَّهُ مُوسَى أَن يَأْتِيَ إِلَى الطُّورِ وَ يَصُومُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ يُعْطِيهِ الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ الشَّرَائِعُ. وَ لَعَلَّ ذِكْرَ «لَيْلَةً» دُونَ «يَوْمٍ» لِأَجْلِ أَنَّ اللَّيْلَ أَقْرَبُ إِلَى الْمُنَاجَاةِ، فَإِنَّ الظُّلْمَةَ تَشَعُّ فِي النَّفْسِ الْانْقِطَاعَ وَ الْخَوْفَ وَ الرَّجَاءَ، مِمَّا يُجْعَلُ الْإِنْسَانَ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ النَّهَارِ، وَ لِذَا كَانَ الْعِبَادُ يَتَّخِذُونَهَا مِيقَاتًا لِعِبَادَتِهِمْ وَ اَتَمَمْنَا الثَّلَاثِينَ لَيْلَةً بِعَشْرِ لَيَالٍ حَتَّى صَارَ الْمَجْمُوعُ اَرْبَعِينَ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَي الْوَقْتُ الْمَضْرُوبُ لِإِعْطَاءِ الْكِتَابِ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَدْ كَانَ ذَلِكَ لِأَجْلِ تَهْيِئَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَهْلِيهِ إِعْطَاءَ الْكِتَابِ، وَ لَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ عِظَمَ الْكِتَابِ حَتَّى أَنْ مِثْلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُعْطَى لَهُ إِلَّا بَعْدَ الصِّيَامِ وَ الْقِيَامِ.

وَ لَا يَخْفَى أَنَّ الْإِتْمَامَ عَشْرًا لَا يَنَافِي وَعَدَهُ ثَلَاثِينَ، فَإِنَّ الْمَقْرَّرَ كَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٩

[سورة الأعراف (٧): آية ١٤٣]

وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

إعطاء الكتاب بعد إتمام الثلاثين، لا بمجرد إكمال الثلاثين، و إنما قال: «فتم ميقات ربه» لثلا يوهم أن المعنى: أكملنا الثلاثين بعشر حتى كملت ثلاثين، نحو: «أكملت العشرة بدرهمين».

وَ حِينَ أَرَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْخُرُوجَ إِلَى مِيقَاتِ رَبِّهِ أَوْحَى إِلَى أَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اَخْلُقْنِي أَي كُنْ خَلِيفَتِي فِي قَوْمِي فَإِنَّ هَارُونَ وَ إِنْ كَانَ نَبِيًّا لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَئِيسًا، فَفُوضَ إِلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْصِبَ الرَّئِيسَةِ وَ اصْلِحْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَ اصْلِحْ لَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْفِسَادِ وَ يَفْسُدُونَ النَّاسَ، وَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ إِنْ كَانَ مِنْهَا عَنْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَتَنْبِيهِ الْقَوْمَ وَ إِرْشَادِهِمْ إِلَى عَمَلِ هَارُونَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُوصَى لِأَجْلِ الْوَصِيِّ، وَ قَدْ يُوصَى لِأَجْلِ مَنْ يَسْمَعُ.

[١٤٤] وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمِيقَاتِنَا «المِيقَاتِ» هُوَ الزَّمَانُ أَوْ الْمَكَانُ الَّذِي قَدَّرَ لِيَعْمَلَ فِيهِ، وَ لِذَا يُقَالُ: «مِيقَاتُ الْحَجِّ» لِلْمَكَانِ الْمَقْدَّرِ فِيهِ الْإِحْرَامُ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمَّا انْتَهَى مُوسَى إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَقَّتْنَا لَهُ وَ أَمْرَانَهُ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهِ لِتَنْزِيلِ عَلَيْهِ التَّوْرَةِ، أَوْ الْمَرَادُ الْمِيقَاتِ الزَّمَانِي، أَي لَمَّا انْتَهَى إِلَى زَمَانِ الْمَوْاعِدَةِ وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ بِأَنَّ خَلْقَ الْكَلَامِ فِي الْفِضَاءِ حَتَّى سَمِعَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مِنْزَهُ عَنِ اللَّسَانِ وَ اللَّهَاءِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْكَلامِ الْجَسَدِيِّ.

قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ أَرِنِي نَفْسَكَ أَنْظُرْ إِلَيْكَ نَظْرًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٠

العيان. وَ قَدْ كَانَ هَذَا السُّؤَالُ مِنْ مُوسَى إِجَابَةً لَطَلَبِ قَوْمِهِ،

فَقَدْ رَوَى أَنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَ قَرَّبَهُ نَجِيًّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتَهُ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ فَأَقَامَهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ وَ صَعَدَ إِلَى الطُّورِ وَ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَكَلِّمَهُ وَ يَسْمَعَهُمْ كَلَامَهُ، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ فَسَمِعُوا

كلامه من فوق و أسفل و يمين و شمال و وراء و أمام، لأن الله أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثا منها حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه من جميع الوجوه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم و استكبروا و عتوا بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا. فقال موسى: يا رب ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم و قالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك؟

فأحياهم و بعثهم معه فقالوا: لو أنك سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو و نعرفه حق معرفته، فقال: يا قوم إن الله لا يرى بالأبصار و لا- كيفية له و إنما يعرف بآياته و يعلم بعلاماته، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بنى إسرائيل و أنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله إليه: يا موسى سلوك فلن أؤاخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى: رب أرني انظر إليك

قال الله تعالى في جواب موسى: لَنْ تَرَانِي أَبَدًا، فَإِنْ «لَنْ» لِنَفِي الْأَبَدِ، وَ ذَلِكَ لِاسْتِحَالَةِ رُؤْيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ لِلرُّؤْيَةِ شُرَاطِئَ كُلِّهَا مَفْقُودَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْمَرْتِي جَسْمًا أَوْ عَرْضًا، وَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ بِجَسْمٍ وَ لَا عَرْضٍ وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤١

الذي كان هناك فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ مَكَانِهِ حَالِ التَّجَلِّي فَسَوْفَ تَرَانِي وَ قَدْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّعْلِيْقِ بِالْمَحَالِ، فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ الْجَبَلِ مَكَانَهُ مَعَ إِرَادَةِ اللَّهِ عَدَمَ الْاسْتِقْرَارِ لَهُ كَانَ مُسْتَحِيلًا. فَيَكُونُ التَّعْلِيْقُ عَلَى ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ: حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ «١»، وَ قَوْلِهِ: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَ لَحْدًا فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «٢»، لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا «٣»، مِمَّا جَرَى الْعَرَفُ بِالتَّعْلِيْقِ عَلَى شَيْءٍ لَا يَكُونُ، فِي بَيَانِ أَنَّ الشَّيْءَ الْفُلَانِي لَا يَكُونُ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ أَي رَبِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ ذَكَا أَي مُسْتَوِيًا مَعَ الْأَرْضِ، وَ الْمُرَادُ بِالتَّجَلِّي: خَلَقَ نُورَ يَشِعُّ عَلَى الْجَبَلِ، أَوْ إِظْهَارَ قُدْرَةِ وَ عِظَمِهِ لَهُ وَ خَرَّ مُوسَى صَبِيحًا أَي وَقَعَ مَغْشِيًا عَلَيْهِ مِنَ الرَّعْبِ وَ الْخَوْفِ فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ غَشِيَتِهِ وَ رَجَعَتْ قَوَاهِ إِلَيْهِ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُبْحَانَكَ أَي أَنْزَهَكَ تَنْزِيهَا عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِكَ مِنْ رُؤْيِهِ وَ غَيْرِهَا مِنَ النُّوَاقِصِ تُبَيِّنُ إِلَيْكَ أَي رَجَعَتْ إِلَيْكَ فِي أُمُورِي، وَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَوْبَةً عَنِ الذَّنْبِ بَلْ إِنَّهُ عَلَى وَجْهِ الْانْقِطَاعِ وَ التَّخَضُّعِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى الْأُمُورَ الْجَلِيلَةَ يَذْكُرُ اللَّهَ بِالتَّسْبِيْحِ وَ التَّقْدِيْسِ وَ الْاسْتِغْفَارِ، وَ السَّرُّ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ صَارَتْ إِعْلَامًا لِلتَّخَضُّعِ وَ الْخُشُوعِ، لِكَثْرَةِ مَا اسْتَعْمَلَتْ فِيهِمَا.

و منه الحديث: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر الله من غير ذنب»

«٤» و إن شئت قلت: إنه إنشاء مفهوم التوبة

(١) الأعراف: ٤١.

(٢) الزخرف: ٨٢.

(٣) الأنبياء: ٢٣.

(٤) راجع وسائل الشيعة: ج ٧ ص ١٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٤ إلى ١٤٥]

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

بداعي التعظيم، كما أن أدوات الاستفهام في كلامه سبحانه هي لإنشاء مفهوم الاستفهام بداعي آخر، كالمفاضلة في قوله: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «١»، وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَ بِمَا يَلِيْقُ بِكَ مِنَ الصِّفَاتِ.

[١٤٥] قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ أَيِ اخْتَرْتُكَ عَلَى النَّاسِ وَفَضَّلْتُكَ عَلَيْهِمْ بِرِسَالَتِي حَيْثُ أَلْقَيْتَ إِلَيْكَ أَنْوَاعَ الرِّسَالَةِ فِي الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ وَبِكَلَامِي حَيْثُ كَلَّمْتُكَ دُونَ سَائِرِ خَلْقِي.

و العطف إما للبيان، أو المراد من الرسالة غير ما كلم فيه، بل كانت بالإلهام، و من الكلام غير ما أرسل به، بل كان لسائر الأمور فخذ يا موسى ما آتيتك أي أعطيتك من التوراة و تمسك به و كن من الشاكرين لنعمتي، و الشكر إما بالجنان بأن يعرف الإنسان قدر المنعم و فضله، و إما باللسان بأن يعترف بجميله، و إما بالأركان بأن يأتي الإنسان بما يستحق المنعم من التعظيم و الإجلال و الخضوع، قال تعالى: اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴿٢﴾.

[١٤٦] وَكَتَبْنَا لَهُ أَيِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْأَلْوَا حِ جَمْعُ «لَوْحٍ»، وَ هِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الْخَشَبِ أَوْ نَحْوِهَا، وَ قَدْ نَزَلَتْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَا حِ

(١) الزمر: ١٠.

(٢) سبأ: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٣

[سورة الأعراف (٧): آية ١٤٦]

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَنَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)

مكتوب فيها التوراة من كل شئ مما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم و دنياهم موعظة هذا تفسير لقوله «كل شئ»، و هي عبارة عن التحذير عن القبيح، و التبصير بمواقع الخوف و تفصيلاً لكل شئ أي بيانا و توضيحا لكل أمر كانوا محتاجين إليه. و من المعلوم أن المراد بيان الخطوط العامة للحياة الدينية، لا كل جزئ جزئي، و هذا هو المراد من قوله: لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ «١»، لو أريد بالكتاب القرآن، و هو المراد من

قول الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «ما من شئ يقربكم إلى الجنة، إلا و قد أمرتكم به، و ما من شئ يباعدكم عن النار إلا و قد نهيتكم عنه»

«٢»، فخذها أي الألواح بقوة أي بجهد و اجتهاد، و المراد بأخذها: العمل بما فيها، كما قال سبحانه: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ «٣»، و أمر قومك أي بني إسرائيل يأخذوا بأحسنينها و هذا تحريض بالأخذ بالفضائل، فإن الشريعة لها عرض كبير للأمر يتدئ من الواجبات و ينتهي إلى أكمل الفضائل و هذا من باب شدة الجذب بقصد الاعتدال، كما يشد الحمل من جانب كثيرا ليعتدل سائر يكمن دار الفاسقين أي جهنم، فاحذروا أن تخالفوا و تفسقوا حتى تكونوا منهم.

[١٤٧] سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ أَيِ أَصْرِفُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، أَوْ أَصْرِفُهُمْ عَنِ

(١) الأنعام: ٦٠.

(٢) راجع مستدرک وسائل الشيعة: ج ١٣ ص ٣٠.

(٣) مريم: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٤

النيل منها الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فعلى المعنى الأول: أن ذلك لكونهم تكبروا، فلم يلفظ بهم الله سبحانه لطفه الخفى بل صرفهم عن الإيمان و خلئ بينهم و بين إضلال الشيطان، كما يصرف الإنسان ولده العاصي عن لطفه فلا يعنتى بشأنه. و على

المعنى الثانى: يكون المعنى حفظ الآيات عن الزيادة و النقصان كما قال سبحانه: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** «١»، و الأول أقرب، و قوله: **بَغَيْرِ الْحَقِّ** ليس قيده احترازيا، بل لبيان أن التكبر لا يكون إلا بغير الحق، نحو: **يَقْتُلُونَ النَّبِيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** «٢». ثم وصف سبحانه أولئك بقوله: **وَإِنْ يَرَوْا آيَةً** و معجزة دالة على صدق الأنبياء و سائر الأمور الحقة لا يؤمنوا بها حيث قد لجوا فى الفساد و استحوذ عليهم الشيطان **وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ** أى طريق الهدى و الحق، الموجب للرشد و النمو العقلى و المادى، فإن الرشد بمعنى النمو لا يتخذوه سبيلا فلا يسلكوه **وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَى** أى طريق الغواية و الضلال يتخذوه سبيلا لأنفسهم فيسلكوه ذلك أى سبب صرفهم عن الآيات - على المعنى الأول - أو سبب اجتنابهم طريق الرشد و اتخاذهم طريق الغى

(١) الحجر: ١٠.

(٢) البقرة: ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٧ الى ١٤٨]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) **وَآتَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** (١٤٨) **بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** أى بحججنا و معجزات رسلنا **وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** لا يتفكرون فيها و لا يتعظون بها، و المراد تشبيهمم بالغاغل الذى يغفل عن صلاحه فلا يعمل بمقتضاه.

[١٤٨] **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** أى المعجزات و الحجج و كذبوا ب لقاء الآخرة بأن أنكروا القيامة و البعث و النشور **حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** التى عملوها، فإن كل إنسان يعمل بعض الأعمال الخيرة، فإذا كان مؤمنا يثاب عليها، و إن كان كافرا لم يثب عليها، و هذا لا ينافى خفة العذاب، كما ورد فى حاتم و أنوشروان و غيرهما **هَلْ يُجْزَوْنَ** أى لا- يجزى هؤلاء المتكبرون، فإن الاستفهام للإنكار إلا ما كانوا **يَعْمَلُونَ** فليس حبط أعمالهم ظلما لهم.

[١٤٩] ثم يبين سبحانه طرفا آخر من قصة بنى إسرائيل، و هى قصة عبادتهم للعجل حين كان موسى عليه السلام فى الطور **وَآتَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ** أى من بعد خروج موسى عليه السلام إلى ميقات ربه من حليهم الذهبية التى كانت لهم، من سوار و خلخال و قلادة و غيرها **عِجْلًا** أى صبوا الحلى فى صورة العجل و هو ولد البقر **جَسَدًا** أى لا روح فيه، فكان تمثال العجل و صورته، لا واقعه و حقيقته، و لعل هذا القيد لئلا يتوهم أن القوم ألبسوا الحلى عجلا حقيقيا، فإن موسى عليه السلام لما أبطأ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٦

أشاع رجل من بنى إسرائيل و اسمه «السامرى» أن موسى قد مات ثم جمع حلى القوم و صاغها عجلا، و قال لبنى إسرائيل: إن هذا إلهكم، و قد كان العجل من آلهة مصر، و كانوا يألون عبادته، و لذا قبلوه، و قد طلبوا سابقا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهها. و فى بعض التفاسير: إن القوم الذين رآهم بنو إسرائيل على البحر كانوا يعبدون العجل، حين قالوا لموسى: **اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** «١»، و كان العجل الذى صنعه السامرى له خور أى صوت كصوت العجل. و قد اختلف فى ذلك، ففى بعض التفاسير أن السامرى صنعه بحيث إذا هبت عليه الريح دخلت فى جوفه فأحدثت صوتا. و فى تفسير آخر: إن «السامرى» رأى جبريل عليه السلام راكبا فرسا حين عبروا البحر، فأخذ من تحت حافر فرسه التراب، فأدخله جوف العجل، و كان منه الخوار، أو أن الخوار كان منه سبحانه حيث خلقه فيه للابتلاء.

و لا يستشكل: أنه كيف يخلق ذلك، و هو موجب لافتتان الناس؟

فإن الجواب واضح: إذ المحل لم يكن محل اشتباه فقد علموا جميعا أن الله سبحانه لا- يرى و ليس بجسم، فكان ضلالهم بسوء

اختيارهم.

أَلَمْ يَرَوْا أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ عَابَدُوا الْعِجْلَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ فَمَنْ هُوَ عَاجِزٌ عَنْ أَقْلٍ شَيْءٍ وَهُوَ الْكَلَامُ كَيْفَ يَكُونُ إِلَيْهَا؟ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَى لَا يَرشدهم إلى خير ليأتوه ولا إلى شر ليجتنبوه

(١) الأعراف: ١٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٩ إلى ١٥٠]

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيمًا قَالَ بِئْسَ مَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)

اتخذوه أى اتخذوا العجل إليها، فإن كثيرا منهم أطاعوا السامري في عبادة العجل، و لم يطيعوا هارون فيما وعظهم و أنذرهم و كانوا ظالمين لأنفسهم بهذه العبادة حيث حرموها من خير الدنيا و سعادة الآخرة.

[١٥٠] وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ أَى سقط البلاء في يدهم، و هذا من باب التمثيل و التشبيه، فإن الإنسان إذا عمل عملا فندم، يقال: «سقط في يده» كأن الشيء الذى اكتسبه لم يرج، و لم يذهب كما هو عادة المتاع الجيد، بل سقط في يده و بقى عنده، و كأن الأصل فيه أن المتاع يسقط من محله إلى مستقره، و هو الذى يصرفه لأجل حوائجه، فإذا بقى عند الواسطة- و هو التاجر- كان ساقطا في يده، دون يد المستهلك و رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا فَإِنَّهُمْ بَعْدَ مَا عَابَدُوا الْعِجْلَ نَدَمُوا فِيمَا أَفْرَطُوا، كما هو شأن غالب الحركات الاعتبارية فإن الناس يأتون بها من فورهم ثم يندمون حينما يتفكرون قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا يَقْبَلْ تَوْبَتَنَا وَيَغْفِرْ لَنَا مَا فَعَلْنَا مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ بِاسْتِحْقَاقِ الْعِقَابِ، و فوت الثواب.

[١٥١] وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى مِنَ الْمِيقَاتِ إِلَى قَوْمِهِ وَعَرَفَ الْأَمْرَ صَارَ غَضْبَانَ أَسِيمًا أَى حزينا على ما صدر منهم من عبادة العجل، أو المراد رجع غضبان آسفا، لما أعلمه الله سبحانه من عبادتهم العجل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٨

قَالَ لَهُمْ: بِئْسَ مَا خَلَقْتُمُونِي أَى عملتم خلفى من بَعْدِي أَى بعد ذهابى إلى الميقات، فإن عملكم بعدى كان عملا سيئا أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ أَى استعجلتم قضاء الله و عقابه، فكان العاصى لا بد و أن يلقى العقاب، فإذا فعل فعلا شنيعا استعجل العقاب و أَلْقَى الْأَلْوَاحَ المكتوب فيها التوراة من يده تضجرا من عملهم و أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ هَارُونَ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ إما لينحيه ناحية فيناجيه فى أمر القوم، و إما إظهارا للغضب، و لم يكن ذلك إلا استنكارا عمليا لعمل القوم، كما يصيح الوالد على ولده البرىء، فيما إذا عمل بعض أهل البيت عملا مخالفا، يريد بذلك إظهار غضبه على عملهم.

قَالَ هَارُونَ: يَا ابْنَ أُمَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لِلْإِسْتِعْطَافِ لِأَنَّ ذِكْرَ الْأُمِّ يَشْعُرُ فِي النَّفْسِ حَنَانًا وَ لِينًا، و قد قصد هارون بهذا التعبير التسكين من غضب موسى عليه السلام إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي أَى اتخذونى ضعيفا، فلم يعملوا بكلامى و كَادُوا يَقْتُلُونَنِي أَى هموا بقتلى حين شددت عليهم فى استنكارى عليهم عبادة العجل فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ فَإِنَّ فِعْلَكَ هَذَا يُوْهِمُ أَنَّكَ غَاضِبٌ عَلَيَّ فَيَفْرَحُ الْأَعْدَاءُ حَيْثُ يظنون أنهم ألقوا الخلاف بين الأخوين و جعلونى مغضوبا عليه فى نظرك. و معنى الشماتة: إظهار الفرح بوقوع عدوهم فى المحذور وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥١ إلى ١٥٢]

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)

الذين عبدوا العجل، فلا تشملني معهم في الغضب علينا جميعا، فإن ذلك من عملهم.

إن هذا النحو من إظهار الغضب على الحبيب البريء، لتنبية العدو الآثم، من أساليب البلاغة العملية حيث أن الحبيب لا يحمل موجدة على حبيبه بسبب هذا العمل، بخلاف ما لو عمل بالآثم فإنه يجعله أبعد من الصواب، إذ يسبب مثل ذلك في نفسه بغضا و عداوة زائدة، و مثل خطاب البريء، ما يفعله الإنسان بنفسه عند إرادة إظهار الغضب من ضرب نفسه، أو نتف شعره، أو شق جيبه، أو ما أشبه ذلك.

[١٥٢] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي قَالَ عَلِيٌّ وَجَهَ الْانْقِطَاعَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ صَدَرَ مِنْهُمَا عَصِيَانٌ أَوْ ذَنْبٌ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَقَالُ عِنْدَ إِظْهَارِ الْخُضُوعِ وَ الْخُشُوعِ، وَ إِنْ كَانَ الْأَصْلُ فِيهَا طَلَبَ غَفْرَانِ الذَّنْبِ وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ أَي لَطْفِكَ أَوْ جَنَّتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَإِنَّ رَحْمَتَكَ أَكْبَرَ مِنْ رَحْمَةِ كُلِّ رَاحِمٍ، وَ هَذَا يُذَكِّرُ فِي آخِرِ الدُّعَاءِ اسْتِعْطَافًا، كَمَا يُقَالُ: «أَنْتَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ» لِاسْتِدْعَاءِ الْجُودِ، لِأَنَّهُ اعْتَرَفَ بِالْأَفْضَلِيَّةِ.

[١٥٣] ثُمَّ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ اسْتِثْنَاةً مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا مَعْبُودًا سَيِّئًا لَهُمْ أَي يَلْحَقُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَ هُوَ مُوجِبٌ لِلنَّارِ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٢٩٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٣ إلى ١٥٤]

وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ (١٥٤)

يصبحون أذلاء، يكثر فيهم القتل و الطرد، و يذكرون بسوء أبدا. و قد مر تفسير قوله تعالى: ضُربَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ «١»، و كما جازينا اليهود بهذا الصنيع كَذَلِكَ نَجْزِي سَائِرَ الْمُفْتَرِينَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِاتِّخَاذِ الْأَصْنَامِ شَرِيكًا لَهُ، فَإِنَّهُ افْتَرَأَ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَ الْوَاقِعِ.

[١٥٤] وَ لَكِنَّ الْمَعْصِيَةَ لَا تَسْبَبُ يَأْسَ صَاحِبِهَا، فَإِنَّ مِنْ تَابٍ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ أَي الشَّرْكَ وَ الْمَعَاصِيَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا أَي بَعْدَ السَّيِّئَاتِ وَ آمَنُوا إِيمَانًا صَادِقًا إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهَا أَي بَعْدَ السَّيِّئَاتِ، أَوْ بَعْدَ التَّوْبَةِ، وَ لَعَلَّ التَّكْرَارَ لِإِفَادَةِ عَدَمِ قَبُولِ التَّوْبَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، كَمَا أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ مَعَ الْإِصْرَارِ لَغَفُورٌ يَغْفِرُ الذَّنْبَ رَحِيمٌ يَرْحَمُ التَّائِبَ بِفَضْلِهِ وَ لَطْفِهِ.

[١٥٥] وَ لَمَّا سَكَتَ أَي: سَكَنَ، وَ فِيهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا لَا يَخْفَى عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ بِأَنَّ زَالَتِ فُورَتُهُ، فَإِنَّ فُورَةَ الْغَضَبِ تَكُونُ أَوَّلَ مَلَاقَةِ الْمَكْرُوهِ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَمَاهَا إِظْهَارًا لِضَجْرِهِ، مِمَّا فِيهَا التَّوْرَةُ وَ فِي نُسْخَتِهَا أَي مَا نَسَخَ وَ رَقْمَ فِيهَا هُدًى يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ رَحْمَةٌ مُوجِبَةٌ تَرْحَمُ وَ تَنْعَمُ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ أَي

(١) البقرة: ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥١

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٥]

وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ أَ تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَ لِيُنَّا فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)

يخشونه ولا يعصونه.

[١٥٦] ثم بين سبحانه قصة سبق الإشارة إليها، وهي قصة طلب القوم أن يروا الله جهرة وقد كررت أولاً لأجل ذكرها في قصة موسى، وثانياً لأجل بيان أنها كانت من قومه، وقيل: إنها قصة ثانية، ذهبوا معه عليه السلام للاعتذار من عبادة العجل، فإنهم طلبوا من موسى أن يصحبهم ليسمعوا كلام الله سبحانه واختار موسى قومه أي من قومه سبعة رجلاً لميقاتنا ليسمعوا كلام الله سبحانه بأسماعهم، فيزدادون إيماناً، ولما سمعوا كلام الله سبحانه، لم يقنعوا وطلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، رؤية الأبصار، لا رؤية العلم بالقلب فلما أخذتهم الرجفة الصاعقة التي رجفت بسببها أبدانهم وقلوبهم وهلكوا جميعاً لسؤالهم الشنيع وعنادهم في الأمر بعد ما نصحهم موسى عليه السلام، إن ذلك غير ممكن كما تقدمت الإشارة إليه. وهنا خاف موسى عليه السلام أن يتهمه بنو إسرائيل أنه هو الذي قتلهم، لئلا لم يتمكن من إسماعهم كلام الله سبحانه، فيرتدوا عن الدين، ولذا قال موسى عليه السلام لله: يا رب لو شئت أهلكتهم من قبل هذا الموقف حين كانوا في بلادهم، لكن الآن ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا قالوا إنك قتلتهم؟ وإيائى وهذا للتخضع والاستكانة، وتسليم الأمر إليه سبحانه، فإنه تعالى لو شاء أهلك الجميع وأماتهم، فكلنا تحت إرادتك وفي قبضتك.

أَتُهْلِكُنَا يَا رَبِّ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا وَقَدْ جَاءَ الرَّجَاءُ بِصِغَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٢

الاستفهام، كما أنك إذا رجوت الأمير في سماع كلامك تقول: «هل يسمع الأمير كلامي»، أى أن الإهلاك بسبب ما طلبه السفهاء من الرؤية، خلاف رجائنا فيك، وإن كان بالاستحقاق، حيث أن مثل هذا الطلب من السفهاء وسكوت العقلاء عنهم - بعدم إنكار المنكر - موجب لاستحقاق العقوبة، وإضافة الهلاك إلى ضمير المتكلم مع الغير «نا» باعتبار كون موسى عليه السلام ومن معه كتلة واحدة، فهلاك بعضهم هلاك للجميع - مجازاً -.

ثم بين عليه السلام أن ذلك الهلاك لم يكن اعتباراً، حتى لا يظن الظان أن موسى عليه السلام في مقام الاعتراض إن هي ما هذه الرجفة التي أصابتهم إلاً فنتتكتك واختبارك، إنك يا رب صنعت ذلك لأجل الامتحان، والإهلاك امتحان للناس ليعتبروا، ولنفس الهالكين بعد حياتهم تفضل بها أى بالفتنة من تشاء ممن لم تنفع الهداية، حيث تتركه وشأنه ليضل. وقد سبق أن الفعل ينسب إلى الله تعالى، لأن الأسباب والآلات منه تعالى، كما يقال: «أفسد فلان ولده» إذا أعطاه المال ولم يؤاخذه بعمله الفاسد وتهدى من تشاء لم يذكر هنا «بها» لأن الهداية تكون بدون الاختبار أيضاً، فالهداية أعم من الابتدائية ومما تتعقب الاختبار أنت يا رب ولئنا مولانا وأولى بالتصرف فينا فلنك ما تفعل ولا تسأل عن فعلك فأغفر لنا بستر ذنوب من أذنب منا وأرحمنا بفضلك ورحمتك وأنت خير الغافرين فإن غفرانك بلا منة وذل. ثم إنه سبحانه أحى السبعين الذين هلكوا، كما تقدم في سورة البقرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٣

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٦]

وَ اَكْتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ اِنَّا هُدْنَا اِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي اُصِيبُ بِهِ مَنْ اَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُوْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)

[١٥٧] وَ اَكْتُبْنَا لَنَا يَا رَبِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً الشَّيْءِ الْحَسَنِ، وَ هُوَ جِنْسٌ شَامِلٌ لِأَنْوَاعِ الْحَسَنَاتِ مِنْ أَمْنٍ وَ صِحَّةٍ وَ رِفَاهٍ وَ فَضِيلَةٍ وَ غَيْرِهَا وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، بِالْجَنَّةِ وَ الرِّضْوَانِ اِنَّا هُدْنَا اِلَيْكَ مِنْ «هَادٍ» بِمَعْنَى «رَجَعٍ» أَيْ رَجَعْنَا بِتَوْبَتِنَا اِلَيْكَ، فَكَأَنَّ الْعَاصِيَ يَتَّعِدُ عَنْهُ سَبْحَانَهُ، ثُمَّ اِذَا تَابَ يَرْجِعُ اِلَيْهِ، تَشْبِيهَا لِلْبَعْدِ وَ الْقُرْبِ عَنِ الرَّحْمَةِ، بِالْقُرْبِ وَ الْبَعْدِ الْحَسَنَيْنِ.

و موسى عليه السلام وإن لم يكن داخلًا في العصيان لكن العادة جرت على أن يتكلم الرؤساء عن جماعتهم قال الله سبحانه في جواب موسى و طلبه التوبة: عَذَابِي اُصِيبُ بِهِ مَنْ اَشَاءُ مَنْ اسْتَحَقَّ ذَلِكَ بِالْكَفْرِ وَ الْمَعْصِيَةِ، فَالْمَشِيئَةُ لَيْسَتْ بِاعْتِبَارِ الزِّيَادَةِ عَمَّنْ اسْتَحَقَّ، بَلْ بِاعْتِبَارِ النِّقْصَانِ، فَانَّهُ تَعَالَى لَا يَعْذِبُ بَعْضَ الْمُسْتَحَقِّينَ، لِأَنَّهُ يَعْذِبُ الْمُسْتَحَقِّينَ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَإِنَّ الْخَلْقَ وَ

الرزق وغيرهما كلها رحمة منه سبحانه،

و في الدعاء: «يا من سبقت رحمته غضبه»

«١»، باعتبار أن الغضب لا يكون إلا بعد الخلق و الرزق و العصيان، فالرحمة سابقة.

و في هذا الجو الرقيق، الذي ترققت فيه قلوب بنى إسرائيل يشير سبحانه إلى النبي الأمي، ليرتكز في قلوبهم، فإن الأمور تتركز في

(١) مصباح الكفعمي: ص ٦٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٤

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٧]

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

القلوب أكثر إذا رقت فساكتها أي اكتب رحمتي. و هذا على سبيل الاستخدام، فإن المراد بالرحمة أولا جميع أقسام الرحمة، و المراد بها من الضمير ثانيا: الرحمة الخاصة الزائدة للذين يتقون الكفر و المعاصي و يؤتون الزكاة أي يعطونها و الذين هم بإياتنا أي بحججنا و دلالاتنا يؤمنون ثم بين أولئك بقوله:

[١٥٨] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ أَي أَنْ الَّذِينَ تَكْتَبُ لَهُمُ الرَّحْمَةُ الْكَامِلَةُ هُمُ التَّابِعُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ الْأُمِّيَّ نَسَبَهُ إِلَى أُمِّ الْقُرَى «مَكَّة» وَ بِمَعْنَى الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ عِنْدَ مُعَلِّمٍ - وَ إِنْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ بِوَحْيِ اللَّهِ وَ إِرَادَتِهِ - وَ الْعَرَبُ تَسْمَى مَنْ لَمْ يَتَعَلَّمْ بِ «الأمي»، نَسَبَهُ إِلَى الْأُمِّ، كَأَنَّهُ بَقِيَ مِثْلَ مَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فَإِنَّ الْكُتَابِينَ بَشَّرَا بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَخْبَرَا بِنَعْتِهِ، وَ إِنَّمَا حَرَّفَهُمَا - بَعْدَ ذَلِكَ - الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى.

و للشيخ محمد صادق فخر الإسلام، في كتابه «أنيس الأعلام» قصة طويلة حول هذا الموضوع، و لم يكن هذا بدعا، فقد كان كل نبي سابق يبشر بالنبي اللاحق، كما أن كل نبي لا حق يصدق النبي السابق، و نحن اليوم نرى صفة الإمام المهدي عليه السلام في كتبنا، حيث وعدنا بظهوره «عجل الله فرجه».

ثم بين سبحانه سائر صفاته التي تجعل من دينه دين الفضيلة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٥

و الحرية الصحيحة و السعادة يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ يَكُونُ مَعْرُوفًا يَقْبَلُهُ عَرَفُ الْعُقَلَاءِ وَ يَرْضِيهِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ فَمَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ يَكُونُ مُنْكَرًا عِنْدَ عَرَفِ الْعُقَلَاءِ، فَأَمْرُهُ وَ نَهْيُهُ حَسَبَ الْمَوَازِينِ الْعَرَفِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، لَأَنَّ اعْتِبَاطًا وَ اشْتِهَاءً وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ الْمُسْتَلَذَاتِ الْحَسَنَةَ، مِنْ مَأْكَلٍ وَ مَشْرَبٍ وَ مَنْكَحٍ وَ مَسْكَنِ وَ مَرْكَبٍ وَ غَيْرِهَا وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ الْقَبَائِحَ الَّتِي تَعَافَهَا النَّفْسُ الْمُسْتَقِيمَةُ، فَتَحْلِيلُهُ وَ تَحْرِيمُهُ لَيْسَا اعْتِبَاطِينَ، بَلْ لَشَيْءٍ فِي ذَاتِ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ، بِخِلَافِ تَحْلِيلِ سَائِرِ النَّاسِ وَ تَحْرِيمِهِمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَحْرُمُونَ الطَّيِّبَ، كَمَا حَرَمَتِ الْجَاهِلِيَّةُ السَّائِبَةَ وَ مَا إِلَيْهَا، وَ قَدْ يَحْلِلُونَ الْخَبِيثَ كَمَا أَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَ النَّصْرَانِيَّةَ وَ مِنْ إِلَيْهِمَا يَحْلِلُونَ الْخَمْرَ وَ لَحْمَ الْخَنزِيرِ. ثُمَّ لَا يَخْفَى أَنَّ الْأَمْرَ وَ النَّهْيَ أَعْمَ مِنَ التَّحْلِيلِ وَ التَّحْرِيمِ، لَكِنْ حَيْثُ تَقَابَلَا، كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَصْدَاقٌ غَيْرُ مَصْدَاقِ الْآخَرِ.

وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ أَي ثِقْلَهُمْ، فَإِنَّ الْإِصْرَ هُوَ الْحَمْلُ الثَّقِيلُ وَ مَعْنَى «وَضَعَهُ» أَنْ مَنَاهِجَهُ سَهْلَةٌ سَمِحَةٌ لَا تَقْثُلُ فِيهَا وَ لَا صَعُوبَةٌ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ أَغْلَالَ جَمْعَ «غَلٍّ»، وَ هُوَ مَا يَقْبِدُ يَدَ الْإِنْسَانِ أَوْ رِجْلَهُ أَوْ غَيْرَهُمَا، فَإِنَّ مِنْ خَوَاصِّ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ يُطْلَقُ الْحَرِيَّاتِ الْمَعْقُولَةُ، فَالسُّفْرُ وَ الْإِقَامَةُ وَ التَّجَارَةُ وَ الزَّرَاعَةُ وَ الصَّنَاعَةُ وَ الْبَيْعُ وَ الشِّرَاءُ وَ الْكَلَامُ وَ الْكِتَابَةُ وَ التَّجَمُّعُ وَ غَيْرُهَا، كُلُّهَا مَبَاحَةٌ لَا قِيُودَ عَلَيْهَا إِلَّا بَعْضَ الشَّرَائِطِ الطَّيِّفَةِ الَّتِي هِيَ فِي صَالِحِ الْمَجْتَمَعِ وَ الْفَرْدِ، وَ لَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٦

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٨]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

يعلم مدى ذلك إلا بالمقاييس إلى الأنظمة و المناهج الدنيوية التي كلها كبت و استعباد و استغلال فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أى بالرسول محمد صلى الله عليه و آله و سلم و عَزَّرُوهُ أى عَظَّمُوهُ و وقروه و نَصَرُوهُ على أعدائه و اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أى القرآن، فإنه نور يهتدى به فى مسالك الحياة المظلمة، كما أن الضياء يهتدى به فى مسالك الليل المظلم، أو المراد: على و الأئمة عليهم السلام كما فى بعض الأحاديث، أو الجميع، لأنه لفظ عام، و كل واحد من هذه الأمور مصداق، و «الإنزال» بالنسبة إلى الأئمة ليس فيه محذور، لما سبق، أن التعبير بالإنزال فى مثل هذه الموارد من جهة الله سبحانه الواهب لهذه الأشياء كما قال: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ «١»، و كما قيل فى قوله سبحانه: اهْبُطُوا «٢»، أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بهذا النبي هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بخير الدنيا و الآخرة.

[١٥٩] و قبل أن يرجع السياق إلى تتيم قصة موسى عليه السلام، تتيمًا لما سبق من وصف النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فيخاطبه سبحانه بقوله: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا أُرْسَلُنِي إِلَيْكُمْ لِأَدْعُوَكُمْ إِلَى اللَّهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ الْمَالِكُ لَهَا

(١) الحديد: ٢٦.

(٢) البقرة: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٧

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٩]

وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

المتصرف فيهما لا-إله إلا هو فلا-شريك له يحيى و يميت فالحمام يجعله حيا نباتا أو إنسانا أو حيوانا، و الأحياء يميتهم، و لعل ذكر هذه الصفات لرد النصارى و اليهود الذين جعلوا الله شريكا و ولدا، و لرد المشركين الذين كانوا ينسبون الإحياء و الإماتة إلى الأصنام فأَمَّنُوا أيها الناس بِاللَّهِ إيمانا صحيحا وَ رَسُولِهِ محمد صلى الله عليه و آله و سلم النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ و كأنه أتى بهذا الوصف للتناسب مع ما فى الكتابين السابقين الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ فإنه آمن أولا- ثم أمركم بالإيمان، لا- مثل كثير من الرؤساء الذين هم أنفسهم لا يطبقون المبادئ التي يدعون إليها.

و لعل المراد بالكلمات: الكتب السابقة و القرآن الكريم وَ اتَّبَعُوهُ فيما يأمركم و ينهاكم لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أى لتكونوا مهتدين، فإن الفعل قد ينسلخ من معناه الزمنى ليدل على أصل المعنى المادى، أو المراد تهتدون إلى الجنة و الرضوان، حتى يصح تعقب الاهتداء لما تقدم.

[١٦٠] و حيث فرغ السياق عن الفذلكة المرتبطة بذكر النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم رجع إلى قصة موسى عليه السلام و قومه، و لما أن وصف سبحانه قوم موسى عليه السلام بالكفر و عبادة العجل و غير ذلك، ذكر أن منهم من بقوا على الإيمان و الطاعة وَ مِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أُمَّةٌ أى جماعة يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ أى يدعون إلى الحق و يرشدون إليه وَ بِهِ أى بالحق يَعْدِلُونَ أى يحكمون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٨

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦٠]

وَ قَطَعْنَا هُمْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ

عَلِمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَشْرَبُهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

بالحق و يعدلون في حكمهم. وهذا واضح، فإن كل أمة انحرفت لا بد وأن يبقى فيها أناس معتدلون، وكذلك كان قوم موسى عليه السلام في زمانه و بعده إلى زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكانوا إذا رأوا عيسى نبيا آمنوا به، وإذا رأوا الرسول مبعوثا صدقوه و اتبعوه، لكن الكثرة الساحقة منهم لمّا كانت منحرفة، كانت «عمومات الخطاب القرآني» تنصب عليهم، فإن البلغاء غالبا يتكلمون حول الأمور بمراعاة الغالب، فيقال: «أهل مدينة كذا حسان الوجوه، أو قباج، أو كرماء، أو بخلاء أو جناء، أو ما أشبه» وهم يريدون الكثرة الغالبة، لا الجميع.

[١٦١] وَقَطَعْنَا هُمْ أَي فَرَقْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفْرِيقًا قَبِيلًا ائْتَنَى عَشْرَةَ أَشْبَاطًا كُلَّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ قَبِيلَةٌ تَنْتَهَى إِلَى سَبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ كَانَ لَهُ اثْنِي عَشَرَ وَلَدًا، كُلُّ وَلَدٍ قَبِيلَةٌ أُمَّامًا بَيَانٌ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَشْبَاطًا، فَكُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ أُمَّةٌ. وَهَذَا مِنْ نِعْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَنَّ الْقَبَائِلَ الْمُتَعَدِّدَةَ تَمْشِي أُمُورَهَا بِخِلَافٍ مَا لَوْ كَانَ الْجَمِيعُ قَبِيلَةً وَاحِدَةً، فَإِنَّ الرُّؤْسَاءَ إِذَا تَعَدَّدُوا تَنَافَسُوا فِي الْمَكَارِمِ، وَ سَهْلٌ مَرَاجَعَةُ المَرُؤُسِينَ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (١).

وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَي طَلَبُوا مِنْهُ السَّقِيَا، وَ أَنْ يَسْقِيَهُمْ مَاءً، وَ ذَلِكَ حِينَمَا كَانُوا فِي التِّيهِ أَنْ اضْرَبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ وَ هُوَ حَجَرٌ كَانَ مَعَهُ فَإِذَا أَرَادُوا المَاءَ وَضَعُوهُ، وَ ضَرَبَهُ مُوسَى

(١) الحجرات: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٩

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦١]

وَ إِذِ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سِجِّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)

بعصاه التي كانت تنقلب ثعبانا متى ما أراد فأنبجست أي انفجرت. و لعل الفرق بينهما أن الانبجاس خروج الماء بقلته، و الانفجار خروجه بكثرة. و في بعض التفاسير: إن الماء كان يخرج من الحجر أولا بقلته ثم بكثرة.

منه أي من الحجر اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين، حتى لا يزاحم بعضهم بعضاً في الشرب قد علم كل أناس من الأسباط مشربهم أي محل شربهم و أخذ الماء منه و ظللنا عليهم الغمام حيث كان يؤذيهم حرّ الشمس فتأتى سحابة تظللهم ليستريحوا تحت ظلها و أنزلنا عليهم المَنَّ هو شيء حلو كالسكر و السَّلْوَى هو الطير السمانى - كما تقدم ذلك في سورة البقرة - كُلُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اتْرَكُوا خِبَائِهِ وَ مَا ظَلَمُونَا إِذْ كَفَرُوا وَ عَصَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضُرُّهُ كُفْرُ الْكَافِرِ وَ عَصِيَانُ الْعَاصِي وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث حرموها من خير الدنيا و سعادة الآخرة.

[١٦٢] وَ اذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قِيلَ لَهُمْ أَي لَبْنِي إِسْرَائِيلَ، وَ الْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ أَوْ أَرِيحَا وَ كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَأْكَلِ وَ مُخْتَلَفِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٢ إلى ١٦٣]

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَ سَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَ يَوْمَ لَا يَشِيبُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبَلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)

المزارع والمواضع وَقُولُوا حِطَّةً إِذْ نَطَلَبُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ حِطَّ ذُنُوبِنَا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ أَيَّ بَابِ الْقَرْيَةِ سَيَجِدُكُمْ جَمْعَ «سَاجِدٍ»، أَيُّ: فِي حَالِ السُّجُودِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ إِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى الْبَابِ اسْجُدُوا وَادْخُلُوا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ مَتَّعِلِقُ بِقَوْلِهِ: «قُولُوا حِطَّةً» أَيُّ إِنْ قَلْتُمْ وَسَجَدْتُمْ نَغْفِرْ لَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ عَلَى غَفْرَانِ الْخَطَايَا بِالْتَفَضُّلِ وَالتَّكْرَمِ. وَبَيْنَ سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَ مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ خِلَافَ جَزْئِيٍّ، وَ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَ أَوْجِهَ الْإِعْجَازِ.

[١٦٣] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ أَيُّ غَيْرِ الْعَاصُونَ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قُلُوبُهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَبَدَّلَا مِنْ أَنْ يَقُولُوا: «حِطَّةً» قَالُوا: «حِطَّةٌ حَمْرَاءُ خَيْرٌ لَنَا» فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا أَيُّ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوقِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ أَيُّ بِسَبَبِ ظَلَمِهِمْ. [١٦٤] وَسَيُنَلِّهُمْ أَيُّ اسْأَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ، لِأَجْلِ تَذْكِيرِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ فَاذْبَلُوا بِعَذَابِ اللَّهِ، حَتَّى لَا يَتَكَرَّرَ مِنْهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ أَيُّ مَجَاوِرَةَ لِلْبَحْرِ وَ قَرِيْبَهُ مِنْهُ، مِنْ «حَضَرَ» ضِدَّ «غَابَ». وَ قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ أَنَّهَا كَانَتْ «إِيلَهُ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦١

إِذْ يَعِدُونَ مِنَ التَّعْدَى أَيُّ يَتَجَاوَزُونَ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَمْرِ يَوْمِ السَّبْتِ فَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ صَيْدَ الْأَسْمَاقِ فِي هَذَا الْيَوْمِ - اِخْتِبَارًا - وَ حَلَّلَ عَلَيْهِمْ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ، وَ قَدْ كَانُوا يَتَوَصَّلُونَ إِلَى حَيْلَةٍ لِيَحْلُوا بِهَا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَحَفَرُوا أَخَادِيدَ تُوْدَى إِلَى حِيَاضٍ يَتَهَيَّأُ لِلْحَيْتَانِ الدَّخُولِ فِيهَا مِنْ تِلْكَ الْأَخَادِيدِ وَ لَا يَتَهَيَّأُ لَهَا الْخُرُوجُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ السَّبْتِ جَاءَتِ الْحَيْتَانُ جَارِيَةً عَلَى أَمَانٍ لَهَا فَدَخَلَتِ الْأَخَادِيدَ وَ أَصْبَحَتِ فِي الْحِيَاضِ وَ الْغَدْرَانِ، فَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةَ الْيَوْمِ هَمَّتْ بِالرُّجُوعِ مِنْهَا إِلَى اللَّجْجِ لِتَأْمَنَ مِنْ صَائِدِهَا، فَلَمْ تَقْدِرْ فَبَقِيَتْ لَيْلَهَا فِي مَكَانٍ يَتَهَيَّأُ أَخَذَهَا بِلَا اِصْطِيَادٍ، وَ كَانُوا يَأْخُذُونَهَا يَوْمَ الْأَحَدِ وَ يَقُولُونَ مَا اِصْطَدْنَا فِي السَّبْتِ إِنَّمَا اِصْطَدْنَا فِي الْأَحَدِ، وَ لَكِنْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَخَذُوا يَوْمَ السَّبْتِ وَ إِنَّمَا الْقَبْضُ كَانَ يَوْمَ الْأَحَدِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيْثَانُهُمْ جَمْعَ «حَوْتٍ»، وَ الْعَرَبُ تَسْمِي السَّمَكِ حَوْتًا وَ نَوْنًا يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا أَيُّ ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، مِنْ «الشَّرْعِ» بِمَعْنَى الظُّهُورِ، جَمْعَ «شَارِعٍ»، كَ «كَتَبَ جَمْعَ كَاتِبٍ»، وَ إِنَّمَا كَانَتْ تَأْتِي فِي هَذَا الْيَوْمِ لِمَا عَلِمْتَ مِنْ كَوْنِهَا آمِنَةً لَا تَوْخِذُ، وَ لَمَّا كَانَ مِنْ عَادَةِ الْحَيَوَانَ أَنْ يَأْلَفَ مَحَلَّ الْأَمَانِ وَ يَوْمٌ لَا يَسْتَيْتُونَ أَيُّ لَا يَكُونُ السَّبْتِ، وَ التَّعْبِيرُ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ لَا تَأْتِيهِمْ لِمَا عَرَفْتَ مِنْ عَدَمِ أَمْنِهَا، وَ لَعَلَّ الْأَمْرَ كَانَ خَارِقًا لِلْاِمْتِحَانِ، أَوْ لَعَلَّهُ أُخْرِي لَا نَعْرِفُهَا كَذَلِكَ أَيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْاِخْتِبَارِ الشَّدِيدِ نَبَلُّوهُمْ أَيُّ نَحْتَبِرُهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٤ إلى ١٦٥]

وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعِدْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصْيَانِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أَيُّ بِسَبَبِ فَسْقِهِمْ وَ عَصْيَانِهِمْ، فَإِنَّهُ إِذَا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْاِصْطِيَادَ فِي السَّبْتِ، أَوْ إِذَا كَانَ تَظْهَرُ يَوْمَ السَّبْتِ دُونَ غَيْرِهِ، بِسَبَبِ فَسْقِهِمْ لِيَشْتَدَّ الْاِمْتِحَانُ عَلَيْهِمْ.

[١٦٥] وَ قَدْ انْقَسَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَمَامَ هَذَا الْعَمَلِ إِلَى ثَلَاثَةِ فِرْقٍ أَحَدُهَا:

الصَّائِدَةُ، الثَّانِيَةُ: السَّاكِنَةُ، الثَّلَاثَةُ: النَّاهِيَةُ عَنِ ذَلِكَ وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ أَيُّ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَيُّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ هِيَ السَّاكِنَةُ، قَالُوا لِلْفِرْقَةِ الثَّلَاثَةِ النَّاهِيَةَ عَنِ الْمُنْكَرِ: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَيُّ أَيُّهُ فَائِدَةٌ فِي وَعْظِكُمْ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَرْتَدُّونَ حَتَّى يَعْذِبَهُمُ اللَّهُ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا دُونَ الْهَلَاكِ قَالُوا أَيُّ قَالَ الْوَاعِظُونَ فِي جَوَابِ الْمَعْتَرِضِينَ:

مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ أَيُّ أَنْ مَوْعِظَتُنَا لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ لَنَا عَذْرٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَنَقُولُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «يَا رَبُّ إِنَّا نَهَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا»، حَتَّى لَا يَقُولَ لَنَا سُبْحَانَهُ: لِمَاذَا لَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ وَ لَعَلَّهُمْ بِالْوَعْظِ يَتَّقُونَ وَ يَرْجِعُونَ عَنْ غِيْبِهِمْ وَ عَمَلِهِمُ الْمَحْرَمِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَدْرِي مِنْ يَبْقَى إِلَى الْآخِرِ فِي عَصِيَانِهِ وَ مِنْ يَرْجِعُ عَنْ طَغْيَانِهِ.

[١٦٦] فَلَمَّا نَسُوا أَى نَسَى الْعَاصُونَ مَا ذُكِّرُوا بِهِ مَا ذُكِّرْهُمْ بِهِ الْوَاعِظُونَ، بِأَنْ فَعَلُوا فَعَلَ النَّاسَى، فَلَمْ يَبَالُوا بِالنَّهَى، بَلِ اسْتَمَرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الْإِصْطِيَادِ يَوْمَ السَّبْتِ بِتِلْكَ الْحِيلَةِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْءِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٦ الى ١٦٧]

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذِ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)

وهم الواعظون و أخذنا الذين ظلموا و هم الصائدون و الساكتون، فإن السكوت عن المنكر ظلم يرجع إلى الإنسان و باله بعذاب يئس هو «فعليل» من «بئس»، بمعنى الشديد البأس، أى: بعذاب شديد بما كانوا يفسقون أى بسبب فسقهم.

[١٦٧] فَلَمَّا رَأَيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَفِدْهُمْ الْوَعْظُ وَ لَا الْعَذَابُ الشَّدِيدَ الَّذِي عَذَّبْنَا بِهِمْ - لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ غِيهِمْ - وَ عَتَوْا أَى تَكَبَّرُوا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ أَى عَنْ قَبُولِ الْوَعْظِ قُلْنَا وَ الْمُرَادُ بِالْقَوْلِ هُنَا التَّكْوِينُ: لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ أَى مَسْخَنَاهُمْ قُرُودًا، وَ مَعْنَى «خَسَاءً» ابْتَعَدَ عَنِ الْخَيْرِ.

ورد أن الواعظين خرجوا من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء، فنزلوا قريبا منها، فلما أصبحوا غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية، فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت، فدقوه فلم يجابوا و لم يسمعوا منها حس لأحد، فوضعوا سلما على سور المدينة ثم أصعدوا رجلا منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قرده يتعاونون، لها أذنان، فكسروا الباب و دخلوا المدينة، قال الراوى: فعرفت القرده أنسابها من الإنس، و لم يعرف الإنس أنسابهم من القرده فقال القوم للقرده: ألم ننهكم؟

[١٦٨] وَ أَذْكَرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذِ تَأَذَّنَ رَبُّكَ أَى أَعْلَمَ رَبُّكَ، فَإِنْ «تَأَذَّنَ وَ أَذَّنَ» بِمَعْنَى وَاحِدٍ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ أَى يَرْسِلُنَا عَلَى الْيَهُودِ إِلَى يَوْمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٤

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦٨]

وَ قَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَ بَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ أَى مَنْ يَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ. وَ قَدْ دَلَّ التَّارِيخُ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا أَذْلَاءَ مُضْطَهَدِينَ، وَ مَا تَارِيخُ «هتلمر» مَا بِيَعِيدَ، وَ مَا يَرَى أَحْيَانًا مِنْ دَوْلَتِهِمْ فَهِيَ مَلِيئَةٌ بِالْقَلْقِ وَ الرَّعْبِ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْقَاضِيَةُ.

ثم أن إرساله سبحانه العذاب إنما هو بسبب عمل كل جيل جيل، لا لأعمال آباءهم إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ فَإِنَّ الْعِقَابَ اللَّاحِقَ سَرِيعٌ وَ إِنْ أَمَهَلَ اللَّهُ الظَّالِمَ أَيَّامًا.

روى أنه سئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن القريب و الأقرب؟

فقال: «كل آت قريب و الموت أقرب»

و لعله يريد عليه السلام أن «الآتى» يحتمل فوته، بخلاف الموت.

وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فَلَا يَأْسَ لِلْعَاصَى أَنَّهُ إِذَا تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا أَذْنَبَ وَ رَحِمَهُ.

[١٦٩] وَ قَطَعْنَا لَهُمْ أَى فَرَقْنَا الْيَهُودَ فِي الْبِلَادِ فَرَقًا مُخْتَلِفَةً فِي الْأَرْضِ أَمَّا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَ اتِّجَاهٍ، وَ ذَلِكَ إِذْ لَاحَظْنَا لَهُمْ، فَإِنَّ الْجَمَاعَ وَ الْوَحْدَةَ يَوْجِبَانِ الْعِزَّةَ وَ السَّعَادَةَ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا الْحَقَّ آمَنُوا بِهِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَ غَيْرِهِ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ أَى دُونَ الصَّلَاحِ يَعْنِي الْمَفْسُدُونَ وَ بَلَّوْنَاهُمْ أَى اخْتَبَرْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ تَارَةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٥

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦٩]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)

وَالسَّيِّئَاتِ أُخْرَى، أى بالنعم والنعم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى لكى يرجعوا، فإذا جاءتهم الحسنات شكروا، وإذا أتتهم السيئات استغفروا، فإن كلاً من النعمة والبلاء، رحمة من جهة التذكير والإيقاظ.

[١٧٠] أولئك اليهود الذين كان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ذهبوا و ماتوا فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ قام مقامهم ورثوا الكتابَ يعنى التوراة، و «الميراث» هو ما صار للخلف من السلف، لكن هؤلاء غير صالحين - إن وجد فيهم صالح فهو نادر - يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى أى ما وجدوه من الدنيا أخذوه بلا مراعاة للشريعة، و سمي «عرضاً» لأن الدنيا فانية فما فيها عارض زائل، و سمي «أذنى» لأنه أقرب إلى الإنسان من الآخرة وإذا قيل لهم بأن فيه الإثم يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا و نتوب بعد ذلك و هم لا يستغفرون و لا يتوبون، بل يصرون على تعاطى الحرام بدليل أنهم إِنْ يَأْتِهِمْ بعد ذلك عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أيضاً.

ثم ينكر الله عليهم ذلك بقوله: أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ و لم يقل «منهم»، لإفادة أن الأخذ كان بإكراههم ميثاق الكتاب أى العهد الموجود فى كتاب التوراة أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ فلا يحرموا حلاله و لا يحللوا حرامه، فكيف يأخذون الرشوة و سائر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٠ الى ١٧١]

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ (١٧٠) وَإِذْ تَتَّقِنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

المحرمات و يقولون أنها محللة عليهم؟ و دَرَسُوا ما فِيهِ أى قرءوا ما فى الكتاب فهم عالمون بذلك، و لا مجال لهم أن يقولوا: ما كنا عالمين بالميثاق و الدائر الأخره خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أى أن الثواب الذى وعده الله خير من عرض هذه الدنيا الفانية، و هى و إن كانت خيراً لمطلق الناس إلا أن تخصيص «المتقين» بلحاظ انتفاعهم به فقط دونه غيرهم أَفَلَا تَعْقِلُونَ أيها اليهود أن الأمر على ما أخبرنا به و الاستفهام للإنكار.

[١٧١] وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ أى يتمسكون بالكتاب بأن عملوا بما فيه من الميثاق و الأحكام و أقاموا الصلوة و تخصيصها بالذكر لأنها تنهى عن الفحشاء إذا أتى بها على وجهها، فكأنها جعلت علماً لسائر الأعمال إنا إلى آخر الجملة، خبر «و الذين» لا- نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ الذين يصلحون أنفسهم و يقومون بما يجب عليهم، فثيبهم بما عملوا و أصلحوا.

[١٧٢] وَاذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ تَتَّقِنَا «النتق» قلع الشىء من الأصل الجبل أى قلعناه، و جعلناه فَوْقَهُمْ أى فوق بنى إسرائيل كَأَنَّهُ أى كأن الجبل ظُلَّةٌ أى غمامة، أو سقيفة ذات ظل. و قد كان الجبل كبيراً حتى أن فى بعض التفاسير أنه كان فرسخاً فى فرسخ و ظَنُّوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٧

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٢]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)

بأن رجح فى نفوسهم أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ أى واقع عليهم، و لعل الإتيان ب «الباء» لإفادة أن وقوعه عليهم يسبب وقوعهم أيضاً، و حينما رفع الجبل فوقهم قيل لهم: خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ من الأحكام بِقُوَّةٍ أى بشدة و جهد و اجتهاد. و ذلك أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة لم يقبلوها فقطع جبرئيل عليه السلام قطعة من جبل الطور و رفعها فوق رؤوسهم، مهدداً أنهم إن لم يقبلوا ألقتها عليهم حتى يهلكوا عن آخرهم، و لما رأوا ذلك خافوا و قبلوا بكل كره و إجبار وَاذْكُرُوا ما فِيهِ أى من العهود و المواثيق لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أى لكى يحصل منكم التقوى، أو لكى تخافوا عقاب الله، فتجنبوا المعاصى، فإن من بنى على العمل بالكتاب يشع فى نفسه جو من الرهبة يبعثه على التقوى.

[١٧٣] و حين انتهت قصص موسى عليه السلام مع قومه يبدأ السياق ليفتح قصصاً جديدة حول التوحيد، و إذ انتهى من الكلام السابق

حول أخذ الله الميثاق من بنى إسرائيل، تأتي هنا قصة أخذ الله سبحانه الميثاق من البشر جميعا حول الوحدانية. و في الآية قولان:

الأول: ما

روى أنه أخرج الله من ظهر آدم عليه السلام ذريته كالذّرّ يوم القيامة فخرجوا مثل الذر فعرفهم نفسه و أراهم صنعه، و لو لا ذلك لم يعرف أحد ربه فثبتت المعرفة و نسوا الموقف.

الثاني: إن الآية جارية مجرى الكلام العرفى البلاغى على طريقة التمثيل.

و من المعلوم أن القول الأول لا مانع فيه إطلاقا، فإن الله قادر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٨

على كل شيء و أذكر يا رسول الله إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ أَي أَخْرَجَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ بَدَلًا مِنْ «مَنْ بَنَى آدَمَ» أَي أَخْرَجَ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ ذُرِّيَّتَهُمْ أَوْلَادَهُمْ وَ ذُرَارِيَهُمْ وَ بَعْدَ مَا أَخْرَجَهُمْ وَ أَكْمَلَهُمْ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَي جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ مِنْ اعْتَرَفَ بِشَيْءٍ كَانَ شَهِيدًا عَلَى نَفْسِهِ، قَائِلًا لَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ عَلَى نَحْوِ الِاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ، وَ قَدْ كَانَ ذَلِكَ بِلِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، مِثْلُ: وَ قَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ «١»، وَ الْمَرَادُ: الْقَوْلُ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا بَلَى أَنْتَ رَبَّنَا.

و هذا اعتراف بالفطرة، فإن الفطرة أذعنت بذلك، كما

قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ إِلَّا أَنْ أَبُويهِ هُمَا اللَّذَانِ يَهُودَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ أَوْ يَمَجْسَانِهِ» وَ مِنْ قَبِيلِ ذَلِكَ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَسْفَقْنَ مِنْهَا «٢»، وَ قَالَتْ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ أَيْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ «٣»، وَ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٤»، وَ أَشْبَاهَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: «أَيَا جَبَلِي نَعْمَانَ بِاللَّهِ خَلِيًّا»، وَ قَوْلِهِ: «أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مَوْرِقًا» وَ قَوْلِهِ:

قال الحبيب و كيف لي بجوابكم و أنا رهين جنادل و تراب

(١) الإسراء: ١٠٥.

(٢) الأحزاب: ٧٣.

(٣) فصلت: ١٢.

(٤) النحل: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٩

فإن الغالب أن يصوغ البلغ الكلام في قالب جذاب لبيان المراد.

شَهِدْنَا فَالْغَرَضُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْفِطْرَةَ تَشْهَدُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِمَا أَوْدَعُ فِيهَا مِنْ دَرَكِ الْحَقِيقَةِ وَ فَهْمِ الْوَاقِعِ. وَ إِنَّمَا أَوْدَعْنَا فِي الْفِطْرَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةَ لِأَنَّ لَا تَقُولُوا أَيُّهَا الْبَشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَعْتَابُ الْمُشْرِكُ عَلَى شِرْكِهِ، وَ الْجَاهِدُ عَلَى جِحُودِهِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَ هُوَ التَّوْحِيدُ غَافِلِينَ فَقَدْ أَوْدَعْنَا فِيكُمْ مَا يَزِيلُ غَفْلَتَكُمْ.

لا يقال: فعل هذا يلزم صحه العقاب حتى بالنسبة إلى من لم تبلغه الدعوة؟

لأنه يقال: هو كذلك، إلا أن الله سبحانه بلطفه لا يعذب حتى يتم الحجة الظاهرة، كما قال سبحانه: وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»، وَ هَذَا التَّفْسِيرُ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي الَّذِي يَأْخُذُ بِالظَّاهِرِ مَعَ غُضِّ النَّظَرِ عَنْ أَخْبَارِ «عَالَمِ الذَّرِّ» وَ الَّذِي أَظُنُّ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَ دَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَيْهِمَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَدُلْ دَلِيلٌ عَلَى امْتِنَاعِ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَعْنَى، بَلِ الَّذِي يَظْهَرُ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ بَعْضَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ تَدُلُّ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ مَعْنَيْنِ سِوَاءِ كَانِ الْمَعْنِيَانِ مِنْ بَابِ الْمَصْدَاقِ أَوْ لَا، كَمَا أَنَّ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ «إِنَّا عَرَضْنَا..» يُمْكِنُ الْأَمْرَانِ، وَ كَانَ الظَّاهِرُ اللَّفْظِيُّ الْبَلَاغِيُّ يُؤَكِّدُ كَوْنَ الْأَلْفَاظِ مَسْوُوقَةً لِلْمَعْنَى الْعَرْفِيِّ، لَا الْخَارِجِيِّ - وَ اللَّهُ أَعْلَمُ -.

(١) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٣ إلى ١٧٤]

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

[١٧٤] أَوْ تَقُولُوا أَى: لئلا تقولوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ شَرَكْنَا وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فلم نكن نعرف الحق من الباطل، فقلدنا آباءنا باعتقاد أنهم أعقل منا وأدري، فلا بد وأن يكون شركهم على علم ودراية فلا تقصير لنا أَفَتُهْلِكُنَا يَا رَبِّ بِمَا لَا جرم لنا فيه، فإننا قد اتبعنا ما فعل آباؤنا الْمُبْطِلُونَ أَى الذين هم على الباطل؟ فإننا قد جعلنا فيكم هذه الفطرة لتكون حاكمة وشاهدة على بطلان فعل الآباء، فلا يكون للمشرك عذر يوم القيامة بأنه لم يدر.

وهنا سؤال: إن الفطرة سواء جعلت في الإنسان أم لم تجعل، لم يصح احتجاج المشرك، إذ لو لا الأنبياء لم يعذب المشرك، و مع وجود الأنبياء يكون احتجاج الله على المشرك بأنه لم يؤمن بالنبى، لا لم لم يسمع نداء فطرته؟ فكيف يعلل العقاب بجعل الفطرة؟ والجواب: إنه تعليل بجزء العلة، فإنه لو لا الفطرة لم يكن الإنسان عارفا بصحة كلام الأنبياء، إذ ما لم يدل الباطل على شىء لا يؤخذ الإنسان بما قام عليه الدليل، و لذا

ورد أن لله حجتين: ظاهرة هى الأنبياء، و باطنه هى العقول.

و عليه فالتعليل إنما هو بجزء العلة، كما يقول القائل: «هيات لك دارا لتسعد»، مع العلم أن الدار بعض من علة السعادة لا كلها.

[١٧٥] وَ كَمَا بَيَّنَّا لَكُمْ هَذِهِ آيَةَ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ سَائِرَ الْآيَاتِ وَ الْبَرَاهِينَ وَ نَوْضِحُهَا جَلِيَّةً، لِيَعْرِفَهَا كُلُّ أَحَدٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧١

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٥]

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَى لكى يرجعوا عن غيرهم إلى الحق و الرشاد.

و الظاهر أن «الواو» فى «و لعلهم» عطف على المعنى المستفاد من «نفصل» أَى «ليعرفونها» و «لكى يرجعوا».

[١٧٦] إنا جعلنا هذه الفطرة فى الإنسان ليكون انحراف المشرك بلا عذر، و يكون انحراف من انحراف بلا مبرر، و قد وقع مثل هذا الانحراف فى بعض الأفراد و هو «بلعم بن باعورا» فقد أعطى «الاسم الأعظم» الذى يستجاب به الدعاء، و كان يدعو به فيستجيب الله سبحانه له، فمال إلى فرعون، فلما مرّ فرعون فى طلب موسى عليه السلام و أصحابه، قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى و أصحابه ليحبسه الله علينا، فركب بلعم حمارته ليمرّ فى طلب موسى، فامتعت عليه حمارته، فأقبل يضربها، فأنطقها الله عز و جل، فقالت: ويلك على ماذا تضربنى، أ تريد أن أجيء معك لتدعو على نبى الله و قوم مؤمنين، فلم يزل يضربها حتى قتلها و انسلخ الاسم الأعظم من لسانه فنسيه. و الآية و إن كانت فى شأنه إلا أنها عامة لكل من انسلخ من آيات الله لترجيحه هوى نفسه، كما هو شأن الآيات القرآنية.

وَ أَتْلُ أَى اقرأ يا رسول الله عَلَيْهِمْ أَى على الناس نَبَأَ أَى خبر الَّذِي آتَيْنَاهُ أَى أعطينا آياتنا أَى حججنا و دلائلنا- و قد تقدم أن المراد من ذلك الاسم الأعظم- فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا أَى خرج من تلك الآيات، كالشئ الذى ينسلخ من جلده، كأن الآيات كانت كالجلد الواقى له عن شرور الدنيا و الآخرة فأخرج نفسه منها، فتعرض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٢

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٦]

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)

للخطر و الهلاك فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ أَي لَمَّا خَرَجَ عَنِ الْوَقَايَةِ تَبِعَهُ الشَّيْطَانُ لِيُضِلَّهُ عَنْ طَرِيقِهِ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ أَي الْهَالِكِينَ.

[١٧٧] وَلَوْ شِئْنَا أَي اقْتَضَتْ مَشِيئَتُنَا أَنْ نَجْبِرَهُ عَلَى الْبَقَاءِ لَرَفَعْنَاهُ أَي رَفَعْنَا «بِلَعْمٍ» بِهَا أَي بِتِلْكَ الْآيَاتِ، فَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ يَبْقَى بِالْجَبْرِ لَأَمَكْنَا ذَلِكَ، حَتَّى تَرْتَفِعَ دَرَجَتُهُ وَ لَكِنَّهُ أَي «بِلَعْمٍ» وَ الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى «الَّذِي آتَيْنَاهُ» كَذَلِكَ الضَّمِيرُ السَّابِقُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ فَرَكَنَ إِلَى الدُّنْيَا وَ مَالَ إِلَيْهَا، كَأَنَّهُ جَعَلَهَا مَوْضِعَ خُلْدِهِ وَ إِقَامَتِهِ وَ أَعْرَضَ عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ «أَخْلَدَ» بِمَعْنَى لَصِقَ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ عَوْضَ أَنْ يَتَّبِعَ الْحَقَّ وَ يَسِيرَ فِي طَرِيقِ الرُّشْدِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ مِنْ «الْحَمْلَةِ» أَي إِنْ تَطْرُدُهُ يَلْهَثُ يَخْرُجُ لِسَانَهُ مِنْ فَمِهِ يَتَنَفَّسُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ بِأَنْ تَرَكْتَهُ فَلَمْ تَتَّعِزْ لَهُ، فَإِنْ كَلَّ حَيَوَانَ يَلْهَثُ فِي حَالِ الْإِعْيَاءِ وَ الْإِكْلَالِ بِخِلَافِ الْكَلْبِ فَإِنَّهُ يَلْهَثُ فِي حَالِ الرَّاحَةِ وَ الْإِعْيَاءِ. وَ الْمُرَادُ أَنَّهُ ضَالٌّ عَلَى كُلِّ حَالٍ سِوَا عَارِضَتِهِ أَمْ لَمْ تَعَارِضْهُ، بِخِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَضِلُّونَ لَدَى الْمَعَارِضَةِ وَ حِينَمَا يَغْضَبُونَ أَوْ يَرُونَ أَنَّ مَصَالِحَهُمْ مَهْدَدَةٌ. إِنْ بَلَعَمُ أَخْرَجَ لِسَانَهُ لِيَدْعُوَ عَلَى مُوسَى - شَبِيهَا بِلَهْثِ الْكَلْبِ - حِينَمَا لَمْ يَعَارِضْهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ لَمْ يَهْدِدْ مَصَالِحَهُ، بَلْ كَانَتْ أُمُورُهُ أَحْسَنَ تَحْتَ لُؤَاءِ مُوسَى حَيْثُ يَجْمَعُهُمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٧ إلى ١٧٩]

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)

الدين، لكنه شبيهه بالكلب اللاهث و إن لم تطرده.

ذَلِكَ الْمَثَلُ بِالْكَلْبِ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَإِنَّهُمْ بِصِفَةِ الْكَلْبِ فِي الْإِيذَاءِ وَ اللَّهْثِ وَ إِنْ لَمْ يَتَّعِزْ لَهُمْ بِسُوءِ فَاقْصِصْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْقِصَصَ أَي أَخْبَارَ الْمَاضِينَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فَيُرْتَدِعُوا عَنْ غِيهِمْ، إِذْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَصِيرَهُمْ كَمَصِيرِ أُولَئِكَ إِلَى الْهَلَاكِ وَ الدَّمَارِ، إِنْ عَانَدُوا الْحَقَّ وَ عَارَضُوا الدِّينَ.

[١٧٨] سَاءَ مَثَلًا أَي بِشَسْ مَثَلًا مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الْمُرَادُ:

بِشَسْ الصِّفَةُ الْمَضْرُوبُ لَهَا الْمَثَلُ بِصِفَةِ الْمَكْذِبِينَ، فَإِنَّ سُوءَ الْمَثَلِ يَدُلُّ عَلَى سُوءِ الْمِمْتَلِ لَهُ وَ أَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ أَي أَنَّهُمْ بِالْعِصْيَانِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ حَرَمُوا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ.

[١٧٩] مَنْ يَهْدِ اللَّهُ أَي: يَهْدِيهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي فَإِنَّ هِدَايَةَ اللَّهِ هِيَ الْهِدَايَةُ الْحَقَّةُ الَّتِي تَوْرَثُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَنْ يُضِلِّ أَي يَضِلُّهُ، بِأَنْ يَقْطَعُ لَطْفَهُ عَنْهُ حَيْثُ يَرَاهُ فِي سَبِيلِ الْعِصْيَانِ وَ الْفَسَادِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا رَجَحُوا شَيْئًا.

[١٨٠] وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا أَي خَلَقْنَا وَ أَنْشَأْنَا لِجَهَنَّمَ اللَّامَ لِلْعَاقِبَةِ، كَمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٤

قوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا «١»، كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَ يَدْخُلُوا جَنَّتَهُ كَمَا قَالَ: وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٢»، وَ قَالَ: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ «٣»، لَكِنَّهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ أَوْجَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ الشَّقَاءَ وَ دَخُولَ النَّارِ. وَ الْكَلَامُ تَعْقِيبٌ لِمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ لِلْكَفَّارِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: «مِثْلَهُمْ ذَلِكَ، وَ مَصِيرُهُمْ هَذَا». ثُمَّ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَصِيرَ «فُلَانٍ» النَّارُ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ فَ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا أَي لَا يَفْهَمُونَ الْحَقَّ بِسَبَبِهَا، وَ الْمُرَادُ عَدَمُ إِذْعَانِهِمْ لِلْحَقِّ، لِأَنَّ التَّارِكَ وَ الْجَاهِلَ سِوَاهُ، فَقَدْ قَالَ سَبْحَانَهُ: يَغْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا «٤»، وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا الرُّشْدَ، وَ إِنْ رَأَوْا بِهَا الْأُمُورَ الْمَادِيَّةَ، فَإِنَّ التَّارِكَ لِلطَّرِيقِ وَ الْأَعْمَى سِوَاهُ وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا الْوَعظَ وَ الْإِنذَارَ سَمَاعًا مَفِيدًا، وَ إِنْ

سمعوا ألفاظهما، فإن من لا يستجيب للوعظ هو والأصم سواء.

أُولَئِكَ الْأَشْخَاصُ كَالْأَنْعَامِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، فَكَمَا أَنَّهَا لَا تَفْقَهُ وَلَا تَبْصُرُ الرُّشْدَ، وَلَا تَسْمَعُ إِلَى الْوَعظِ كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنَ الْبَهَائِمِ لِأَنَّهَا تَهْتَدِي إِلَى مَصَالِحِهَا وَمَفَاسِدِهَا وَتَتَّبِعُ إِذَا

(١) القصص: ٩.

(٢) الذاريات: ٥٧.

(٣) النساء: ٦٥.

(٤) النحل: ٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٠ الى ١٨١]

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

بعثت و تنزجر إذا زجرت، بخلاف هؤلاء فإنهم يلحون بأيديهم إلى التهلكة ولا ينصاعون للأوامر والزواجر أولئك الضالون هم الغافلون عن الحق والواقع، فإنهم كالغافل في عدم الانتفاع بالأوامر والنواهي، وليست الأنعام غافلة، فهم أسوأ من الأنعام.

[١٨١] و حيث ذكر سبحانه مصير الكافرين و أنهم الذين لا يعقلون و لا يهتدون، بين ما يجب أن يكون عليه أهل القلوب الفاقهة من العقلاء فقال: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ أَى الْحَسَنَةُ الْمَعْنَى كَالْكَرِيمِ وَالْغَفُورِ وَالْجَوَادِ وَالرَّحِيمِ وَالْعَفْوِّ وَ غَيْرَهَا فَادْعُوهُ بِهَا أَى فَادَعُوا اللَّهَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ بِأَن يُقَالَ: يَا كَرِيمَ يَا غَفُورَ وَ هَكَذَا وَ ذُرُّوا أَى اتركوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ أَى ينحرفون فيها بتسمية أصنامهم بأسمائه سبحانه، فقد كانوا يقولون لشيء: هذا إله المطر، و هذا إله النبات، و هذا إله الأرض .. و هكذا، فكانوا يجعلون صفاته و أسمائه للأصنام أو الأوهام، أو المراد: يلحدون بأسمائه كما سموا صنما ب «الللات» مخفف «الله» و صنما ب «العزى» مخفف «عزيز»، أو المراد:

يلحدون بتسمية الله بأسماء لا تليق به كتسميته «أبا» و «زوجا» و ما أشبه ذلك. إنهم سيجزون ما كانوا يعملون في الدنيا بالشقاء و في الآخرة بالنار.

[١٨٢] ثم بين سبحانه أن ليس كل الناس منحرفين في الشرك و الظلم و ممن خلقنا من البشر أمة يهدون الناس بالحق و يرشدونهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٢ الى ١٨٤]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤)

إليه و به أى بالحق يعدلون أى يحكمون بالعدل لا يزيغون عن الحق و لا يميلون نحو الباطل.

[١٨٣] و الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فلم يؤمنوا، بل بقوا على عنادهم، مصرين على كفرهم سنستدرجهم «الاستدراج» هو تقريب شيء إلى المقصد درجة درجة، أى أن المكذبين نقرّبهم إلى العذاب و الهلاك درجة درجة من حيث لا يعلمون أنهم آخذون في القرب من الهلاك، فإن المؤمن كلما زلت به قدم تذكر و استغفر و ابتعد بنفسه عن الهلكة، أما المكذب فإنه حيث لا يبالي بما عمل يتقرب إلى الهلاك شيئاً فشيئاً و هو لا يعلم ذلك.

[١٨٤] وَ أُمْلِي لَهُمْ «الإملاء» التأخير، أى: أمهلهم و لا أعجلهم بالعقوبة فإنهم لا يفوتون الله سبحانه، و الإمهال لهم موجب لكثرة

عذابهم لازدياد معصيتهم إِنَّ كَيْدِي «الكيد» هو معالجة الأشياء خفية، إن عملي للانتقام منهم مَتِينٌ مستحکم لا يفوته شيء.

[١٨٥] أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا أَى هَلْمَا يَتَّفَكَّرُونَ فِي مَا يَقُولُونَ وَ يَرْمُونَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنَ الْجَنُونَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَجْنُونٌ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ وَ كَيْفَ يَكُونُ مَجْنُونًا مِنْ يَأْتِي بِمَا يَعْبُزُّ عَنْهُ الْبَشَرُ، وَ كُلُّ أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ فِي غَايَةِ الصَّحَّةِ وَ الدَّقَّةِ؟! إِنَّهُ هُوَ أَى مَا هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٧

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٥]

أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبَأَى حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)

منذر للناس إن عملوا شيئاً يعاقبوا عليه، فواضح كونه منذراً، وإنما ذكر «الإنذار» فقط لأنه في مقابل المشركين الذين كانوا يعملون السيئات.

[١٨٦] إِنَّهُمْ كَيْفَ لَا- يُؤْمِنُونَ وَ الْكَوْنُ كُلَّهُ يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟ ثُمَّ كَيْفَ لَا- يُؤْمِنُونَ وَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَمُوتُوا عَاجِلًا- فَيَبْتَلُوا بِالْعِقَابِ وَ الْعَذَابِ؟! أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا نَظْرَ عَتَبَارٍ وَ تَعَقَّلُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى آثَارِ الْمَلِكِ، فَإِنَّ الْأَثَرَ يَدُلُّ عَلَى الْمَوْثَرِ حَتَّى يَعْتَرَفُوا بِالْإِلَهِ الْخَالِقِ وَ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَ أَوْلَمْ يَتَّفَكَّرُوا وَ يَنْظُرُوا فِي مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَصْنَافِ خَلْقِهِ فَيَعْرِفُ أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ جَمِيعًا وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ حَتَّى يَعْدُوا لِلْمَوْتِ عَدَّتَهُ وَ يَحْتَاطُوا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ حَتَّى لَا يَنْدَمُوا وَ يَخْسَرُوا، فَإِنَّ مَجْرَدَ احْتِمَالِ ذَلِكَ كَافٍ فِي أَنْ يَرْتَدِعَ الْإِنْسَانُ، كَمَا

أشار إلى ذلك الإمام علي عليه السلام في الأبيات المنسوبة إليه: قال المنجم والطبيب كلاهما* لم يحشر الأموات، قلت: إليكما إن كان قولكما فليست بخاسر* أو كان قولي فالخسار عليكما

إنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الذي تكتنفه كل شواهد الصدق و الحق فَبَأَى حَدِيثٍ وَ مَطْلَبٍ وَ خَبْرٍ بَعْدَهُ أَى بَعْدَ الْقُرْآنِ يُؤْمِنُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٦ إلى ١٨٧]

مَنْ يُضَلِّلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

أو بعد «محمد» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حيث تقدم قوله «ما بصاحبهم». و في الكلام مجاز سواء عاد الضمير إلى القرآن؛ لأن ليس كل القرآن حديثاً و قصةً و إنما فيه إنشاء، أو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ؛ لأنه صاحب حديث.

[١٨٧] مَنْ يُضَلِّلِ اللَّهُ بَأْنَ يَخْلِي بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الضَّلَالِ، لَمَّا سَبَقَ مِنْهُ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ إِذِ الْهَدَايَةُ مَنْحَصَرَةٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا لَمْ تَشَعْ الْهَدَايَةُ مِنْ قَبْلِهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ هَادٍ سِوَاهُ وَ يَذَرُهُمْ أَى يَتْرِكُهُمْ هَوْلَاءَ الْمَعْرُضِينَ الَّذِينَ لَا يَتَّفَكَّرُونَ وَ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْحَقِّ فِي طُغْيَانِهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ، كَأَنَّهُمْ طَغَوْا عَنِ الْحَقِّ يَعْمَهُونَ أَى يَتَحَيَّرُونَ، فَهَمُ دَائِمًا مَتَرَدِّدُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ، حَيْثُ أَنْ الضَّمِيرُ يَنَادِيهِمْ لِاتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَ شَهَوَاتِهِمْ تَمْنَعُهُمْ. وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَمَى فِي الْعَيْنِ، وَ الْعَمَهُ فِي الْقَلْبِ.

[١٨٨] وَ لَمَّا تَقَدَّمَ الْوَعِيدُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَسْمَى بِ «السَّاعَةِ»، سَأَلَ جَمَاعَةٌ عَنِ وَقْتِ الْقِيَامَةِ يَسْتَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ السَّاعَةِ أَى الْقِيَامَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا أَى مَتَى وَ وَقْعُهَا، مِنْ «رَسَا الشَّيْءُ يَرَسُو» إِذَا ثَبَتَ.

و «المرسى» بمعنى المثبت، أَى مَتَى وَ وَقْتُ ثَبُوتِهَا؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِهِمْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا أَى عِلْمُ السَّاعَةِ عِنْدَ رَبِّي فَهُوَ وَحْدَهُ يَعْلَمُ وَ وَقْتُهَا لَا يُجَلِّيهَا أَى لَا يَكْشِفُهَا. الظاهر أن المراد: لا يأتي بها لوقتها أَى حين يكون وقتها إِلَّا هُوَ تَعَالَى، فَعَلِمَهَا عِنْدَهُ، وَ وَقْتُهَا عِنْدَ إِرَادَتِهِ،

و إنما لم يكشف الله سبحانه عن وقتها لخلقها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٩

ليكون أَدعى لهم إلى الطاعة و اجتناب المعصية، فإن الإنسان إذا لم يعرف وقت البلاء يكون خائفا دائما، أما إذا عرف آخر الطاعات و كان خوفة لقرب وقت الساعة.

و لا يقال: إن القيامة ليس مما يخاف منه الإنسان في الدنيا، إذ هي بعد القبر، فعلمها و عدمه سواء بالنسبة إلى الإنسان الحي، و إنما يصح هذا التعليل بالنسبة إلى الموت.

لأننا نقول: قيام القيامة بالنسبة إلى العصيين - و هم في القبر - من أكثر الأشياء خوفا، كما ورد في الأحاديث.

تَقَلَّتْ السَّاعَةُ، أى وقوعها فى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَإِنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخَافُونَهَا خَوْفًا عَظِيمًا لِشِدَّتِهَا وَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَحَاسِبِ وَ الْمَجَازَاةِ لَا- تَأْتِيكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ، أَيُّهَا الشَّاعِرُونَ إِلَّا بَعْتِيَّةٌ أَى فَجَاءَهُ يَسْتَيْئِلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا أَى أَنَّ النَّاسَ يَسْأَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ السَّاعَةِ وَ عَنِ وَقْتِ قِيَامَتِهَا، كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهَا، فَإِنَّ «الْحَفِيَّ» بِمَعْنَى الْمُسْتَقْصَى فِي السُّؤَالِ، وَ يُقَالُ لِلْعَالِمِ النَّحْرِيرُ: «حَفِيٌّ» بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مِنْ كَثْرَةِ سُؤَالِهِ اسْتَوْعَبَ الْأَمْرَ تَمَامًا وَ عِلْمَ الْوَاقِعِ كَمَا هُوَ، فَالْمَعْنَى: «كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِالْقِيَامَةِ قَدْ أَكْثَرْتَ الْمَسْأَلَةَ عَنْهَا» قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِ السَّائِلِينَ: إِنَّمَا عَلِمْتُهَا أَى عِلْمَ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ كَرَّرَ هَذَا لِيَصِلَ بِقَوْلِهِ: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ إِنْ عَلِمَهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٠

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٨]

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ مَا مَسْنَى السُّوءِ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

خاص بالله لا يشترك معه فى هذا العلم أحد.

[١٨٩] إن الساعة غيب لا يعلمه إلا الله، و كذلك سائر الأمور الغائبة عن الحواس، و إن كنت أنا- الرسول- أعلم الغيب بذاتى، لكنك أعلم ما يضرنى فاجتنبه و ما ينفعنى فارتكبه قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَلَاءِ السَّائِلِينَ: لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا فَإِنِّى لَا أَقْدِرُ عَلَى جَلْبِ نَفْعٍ وَ لَا- دَفْعِ ضَرَرٍ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ فَمَا شَاءَ أَنْ يَمْلِكْنِي إِيَّاهُ؛ أَمْكِنَ مِنْهُ، وَ مَا لَمْ يَمْلِكْنِي إِيَّاهُ؛ لَا أَمْكِنَ مِنْهُ، وَ هَذَا كَمَا مَلِكَ سَبْحَانَهُ الرَّسُولُ بَعْضَ الْمَنَافِعِ وَ دَفَعَ عَنْهُ بَعْضَ الْمَضَارِّ، نَعَمْ الرَّسُولُ أَكْثَرَ مَلِكًا حَيْثُ أَنَّهُ مَزُودٌ بِقِسْمِ مِنَ الْحِصَانَةِ وَ عِلْمِ الْغَيْبِ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ عِلْمًا مُطْلَقًا كَمَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ بِذَاتِهِ، وَ إِنَّمَا بِمَقْدَارِ عِلْمِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ «١»، لِاسْتِكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ أَى أَكْثَرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْخَيْرَةِ كَالشِّرَاءِ الرَّخِيسِ أَيَّامَ الرَّخِصِ لَأَيَّامِ الْغَلَاءِ، وَ غَيْرِهِ مِمَّا لَوْ عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ لَانْتَفَعَ بِهِ كَثِيرًا وَ مَا مَسْنَى السُّوءِ الَّذِى يُمْكِنُ دَفْعُهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَرَفَ أَنَّ هَذَا الْغَدَاءَ يَضُرُّهُ أَوْ هَذَا الشَّخْصَ يَقْتُلُهُ، أَوْ هَذَا السَّفَرَ يُؤْذِيهِ- مِثْلًا- لِاجْتِنَابِهَا.

و من الغريب أن بعض الناس يتمسكون بمثل هذه الآية لعدم معرفة الرسول بالأشياء المستقبلية إطلاقاً، إنه ليس إلا كتمسك المجبرة بقوله

(١) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨١

سبحانه: مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ «١»، و المجسمة بقوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ «٢»، و القدرية بقوله: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ «٣»، و القائلين بحجية التوراة و الإنجيل بقوله: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى «٤»، وَ لِيُحْكَمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ «٥»، و القائلين بمعصية الأنبياء بقوله: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى «٦»، و القائل بجهل الله سبحانه و تعالى بقوله: قُلْ أَ تُتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ «٧»، و

القائل بتعدد الآلهة بقوله: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا «٨»، حيث دلت على أن الآلهة مع الله لا توجب الفساد. وهكذا من أمثال هذه الاستدلالات التي إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم اطلاع القائل بأساليب الكلام، وعدم جمعه بين النص والظاهر، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والحقيقة والمجاز، ومعارض السياق.

إِنَّا أَنَا أَيُّ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ أَنْذَرَ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَ بِالْعِقَابِ وَبَشِيرٌ أَبَشَرَ الْمُؤْمِنَ بِالْثَوَابِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ اللام للعاقبة، أى أن فائدة إنذارى و بشارتى إنما هى للمؤمن، أما غيره فالرسول بشير نذير له، لكنه حيث لا ينتفع بقوله، فكأنه ليس مرسلًا بالنسبة إليه. وقد ورد فى بعض التفاسير أن أهل مكة قالوا: يا محمد! ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه فتريح فيه،

(١) الأعراف: ١٨٧.

(٢) القلم: ٤٣.

(٣) القمر: ٥٠.

(٤) المائدة: ٤٥.

(٥) المائدة: ٤٨.

(٦) طه: ١٢٢.

(٧) يونس: ١٩.

(٨) الأنبياء: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٢

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٩]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)

و بالأرض التى تريد أن تجذب فنرتحل منها إلى أرض قد أخصبت، فأنزل الله هذه الآية.

[١٩٠] و حيث انتهى السياق من قصة المعاد، و نبذ من يوم البعث، يأتى دور قصة أخرى من قصص البشر الذى لا يزال ينحرف عن الفطرة و يتوجه نحو الشرك و الكفر، كما تقدمت قصة «بلعم» بهذا الصدد هو الله وحده الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فابتداء الخلقه بآدم عليه السلام وحده وَ جَعَلَ أى خلق منها أى من جنس تلك النفس و نوعها و صورتها زَوْجَهَا حواء عليها السلام لِيَسْكُنَ آدم عليه السلام المفهوم من قوله «نفس واحدة» إِلَيْهَا أى إلى الزوجة، فيستريح بها و تكون موضع سكونه و اطمئنانه و راحته فَلَمَّا تَغَشَّاهَا أى قاربها، إذ الرجل حين المقاربة يكون كالغشاء و الغطاء لها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا هو الماء الذى يستقر فى الرحم أول الأمر، و فى هذا الحين لا يحسنان بالحمل حتى يعلقا عليه آمالا، و ينذرا لأجل الجنين نذورا فَمَرَّتْ بِهِ أى استمرت بالحمل على الخفة فَلَمَّا أَثْقَلَتْ أى صارت ذات ثقل، و تبين الحمل و ظهر أثره فى الزوجة دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا أى دعا الزوج و الزوجة، فإن الكلام حول الإنسان لا حول آدم و حواء عليهما السلام، فإنه سبحانه يريد بيان الطبيعة البشرية التى تستقيم فى أول الأمر ثم تنحرف لنوازع و رغبات، و الكلام فى مثله حيث يبتدأ بجهه، ثم ينصرف لجهه أخرى، يسمى استخداما، فإن اللفظ خدم معنى، و الضمير معنى آخر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٠ الى ١٩١]

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلِقُونَ (١٩١) كما قال: وَ الْمُطَّلَقَاتُ إِلَى قَوْلِهِ - وَ بُعُولَتُهُنَّ «١»، فإن الضمير يرجع إلى بعض المطلقات، و هن الرجعيات فقط. لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا أى

ولدا صالحا كاملا صحيح الخلقه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لك وحدك لا شريك لك، فنقدر فضلك و لطفك علينا، و نحمدك و نشكرك على ما أعطيتنا هذا الولد الصالح.

[١٩١] فَلَمَّا آتَاهُمَا أَى أعطى الله الأبوين ولدا صالحاً جَعَلَا أَى الأبوان لَهُ سبحانه شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فى الشؤون المرتبطة بالولد، فتشكر الأصنام كما يشكر الله فى إعطاء الولد، و يسمياه بعبد العزى و عبد اللات و عبد مناة، و أحيانا كانا يندرانه للأصنام ذبحا أو خدمه؛ كما ينذر لخدمه المسجد و نحوه فَتَعَالَى اللَّهُ أَى أن الله أعلى و أجل عَمَّا يُشْرِكُونَ أَى يشرك البشر، إنه سبحانه ليس له شريك و لا مثيل.

[١٩٢] أَيْ شُرِكُونَ استفهام توييخى، أَى كيف يشرك هؤلاء مع الله شريكا ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً؟ فَإِنِ الأصنام لا تتمكن من خلق شىء و هُمْ يُخْلِقُونَ أَى أولئك الشركاء- كالأصنام- هى كلها مخلوقه، أو المراد أن الجميع من المشرك و الأصنام مخلوقون.

(١) البقرة: ٢٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٢ الى ١٩٣]

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)

[١٩٣] وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَى لا تستطيع تلك الأصنام لَهُمْ أَى لعبادها نَصِيرًا حيث يقعون فى المشاكل و لَا أَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ لا تستطيع الأصنام نصر أنفسها إذا تعدى عليها متعد، كما قد رأى ذلك الشاعر أن الثعلب يبول على رأس صنمه، فكسره قائلا:

أرب يبول الثعلبان برأسه؟ لقدذلّ من بالت عليه الثعالب

و لا يخفى أن الإتيان بضمير العاقل للأصنام للتشاكل بما كان يعتقد عابدها من أنها تعقل و تفهم و تضر و تنفع.

[١٩٤] وَإِنْ تَدْعُوهُمْ أَيْهَا المسلمون إن تدعوا هؤلاء المشركين إِلَى الْهُدَى ليهدوا و يتركوا أصنامهم لا يَتَّبِعُكُمْ حيث استحوذ الشيطان عليهم سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ فَإِنِ دعاءهم إلى الإيمان و السكوت عنهم متساويان، كما قال سبحانه: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «١».

و قد يستشكل بعض الملحدين: بأن الأمر إن كان بالنسبة إلى مرحلة الظاهر فالله «سبحانه» و الأصنام متساويان من هذه الجهة، فإنه لا يظهر أثر للنصرة و عدمها، و إن كان بالنسبة إلى مرحلة الواقع، فأى

(١) البقرة: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٥

[سورة الأعراف (٧): آية ١٩٤]

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤)

دليل على الفرق، و إن الأصنام تنصر فى زعم عبادها كما أن الله ينصر فى نظر المسلمين؟

و الجواب: إن الأدلة لما دلت على وجوده سبحانه كانت كافية للفرق فى مرحلة الواقع، فلو كان هناك شخصان أحدهما يملك شهادة الطب، و الآخر جاهل، و لم ينفع الدواء الذى وصفه صاحب شهادة الطب للمريض، لا يمكن أن يقال بالتساوى مع الجاهل، و إنما يجب أن يعلل بعله أخرى، و إن شئت قلت: إن الدليل فى قوله تعالى:

لَا يَشَاءُ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ نَصِيرًا خطاب فى الظاهر، و إنما البرهان المقنع ما ذكرنا. و بهذا يجاب عن الإشكال بالنسبة إلى التوسل بالأنبياء و

الأولياء مما دلّ الدليل عليه.

[١٩٥] إِنَّ الَّذِينَ أَى الْأَصْنَامِ الَّذِينَ تَدْعُونَ هُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى تَجْعَلُونَهُمْ آلِهَةً عِبَادًا أَى مَخْلُوقَةً لِلَّهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ هُوَ الْمَطِيعُ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْجَمَادَاتِ تَطِيعُ اللَّهَ تَعَالَى، كَمَا يَطِيعُهُ الْإِنْسَانُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْتَجِيبُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ «١»، أَمْثَالِكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فَلْيَسُوا بِالْهَيْئَةِ حَتَّى تَعْبُدُونَهُمْ.

فَادْعُوهُمْ فِي مَهْمَاتِكُمْ وَ كَشَفِ الضَّرَّ عَنْكُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ الْأَمْرَ هُنَا لِلتَّعْجِيزِ وَ التَّوْهِينِ، كَمَا تَقُولُ لِلْعَاجِزِ عَنِ الْقِيَامِ: «قُمْ إِنْ صَدَقْتَ أَنْتَ قَادِرٌ» إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنَّهَا آلِهَةٌ تَنْفَعُ وَ تَضُرُّ.

(١) الإسراء: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٦

[سورة الأعراف (٧): آية ١٩٥]

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَمَا تُنظَرُونَ (١٩٥)

و من الوهابيين من يستدل بهذه الآية بعدم صحة التوسل بالأنبياء والأئمة، قائلا: «فادعوهم فليستجيبوا لكم».

و الجواب: نقضا؛ «فادع الله فليستجب لك» فإن قال: يستجيب، قلنا: يستجيبون بأمر الله تعالى و إذنه. و حلا؛ بأن الفارق هو الدليل، و عدم الاستجابة العاجلة لا دلالة فيه لأحد الطرفين.

[١٩٦] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى عَلَى مَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ الْعَادِي عَلَيْهِ، فَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَقْلِ شَيْءٍ كَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا مَعْبُودًا؟ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَى: هَلْ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا فِي مَصَالِحِكُمْ، أَوْ مَشْيًا لَأَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يَتَسَاوُوا مَعَ أَقْلِ حَيْوَانٍ أَوْ إِنْسَانٍ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا «الْبَطْشُ» هُوَ الْأَخْذُ بِشِدَّةٍ، أَى يَأْخُذُونَ بِأَيْدِيهِمْ بِشِدَّةٍ مَا يَرِيدُونَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ، أَوْ مَطْلَقَ الْأَخْذِ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا الْأَصْوَاتِ وَ الشَّكَاوَى وَ غَيْرَهُمَا؟ إِنَّهَا لَا تَحْسُ إِطْلَاقًا، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْفَاقِدَةُ لِكُلِّ حَسٍّ؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ: ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ أَى الشُّرَكَاءَ الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ كِيدُوا أَى امْكُرُوا بِي بِأَجْمَعِكُمْ عَابِدًا وَ مَعْبُودًا فَلَا تُنظَرُونَ لَا تَأْخِرُونِي، بَلْ أَسْرِعُوا فِي الْكَيْدِ، فَإِنَّ رَبِّي يَنْصُرُنِي عَلَيْكُمْ جَمِيعًا. إِنْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِهَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٦ إلى ١٩٩]

إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصِرَكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصِرُونَ (١٩٧) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَ تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)

يتحداهم، لبيان أن الله ناصر نبيه، لكن أصنامكم لا تنصركم.

[١٩٧] إِنَّ وَلِيِّ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرِي وَ يَنْصُرُنِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ أَى الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ كَمَا أَمَرَنِي بِالرِّسَالَةِ ضَمَّنَ لِي النِّصْرَةَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ وَ يَنْصُرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَ هَذَا لَا يَنْفَى عَدَمَ الْحِيلُولَةِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ أَعْدَائِهِمْ أَحْيَانًا لِمَصَالِحِ وَ جِهَاتِ.

[١٩٨] وَ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ تَدْعُونَ هُمْ مِنْ دُونِهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَلْهَةِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصِرَكُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْصُرُوكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ فَإِذَا تَعَدَّى عَلَيْهِمْ مَتَعَدًّا لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ.

[١٩٩] وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِنْ تَدْعُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، الْمَشْرُكِينَ إِلَى الْهُدَى وَ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ فَإِنَّهُمْ مَعَانِدُونَ، وَ قِيلَ: الْمَعْنَى إِنْ

تدعوا الأصنام لا يسمعون لأنهم جماد و تراهم يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية يُنظرون إليك أى المشركون، أو الأصنام، فإن الأصنام عيونها مفتوحة إلى الإنسان كالناظر و هم لا يُبصرون إبطاراً نافعاً؛ إذا كان وصفاً للمشركين، أو أصل الإبطار؛ إذا كان وصفاً للأصنام.

[٢٠٠] و حيث أن الإنسان إذا ورد فى خضم الاحتجاج و رأى عناد الخصم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠٠]

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)

على الباطل يأخذه الغضب الموجب للخروج عن آداب المحاوره، أوصى الله سبحانه نبيه بمكارم الأخلاق - بمناسبة المقام - فقال: خذ العفو عن الناس أى لازم العفو عنهم، و أصفح عن السيئ منهم، أو المراد خذ الزائد من أموالهم، أى ما عفا و فضل من نفقاتهم، فإن الخمس و الزكاة و الخراج و الجزية كذلك - غالباً - و المعنى الأول أقرب إلى الظاهر، و المعنى الثانى وارد فى الحديث، و لا يبعد إرادة الأمرين، فإن استعمال اللفظ فى أكثر من معنى جائز إذا كان هناك دليل و أمرٌ بالعرف أى ما يستحسنه العرف، و هو ما ليس بقبيح عند العقل، و هو ضد النكر و أعرض عن الجاهلين فلا تقابل جهلهم بجهل. إن المتكلم مع طبقات الناس المختلفة يحتاج إلى التزام هذه الأشياء إن أراد مراعاة الآداب، فاللازم أولاً أن يعفو عن يخن فى الكلام و يتنكب عن طريق الحق، ثم يأمره بالمعروف لعله يرجع و يسترشد، فإذا رأى منه جهلاً و إصراراً، فليعرض عنه و لا يقابله بمثل عمله.

[٢٠١] و إمّا مركبة من «إن» الشرطية و «ما» الزائدة تأتى لتجميل الكلام و فوائد أخر ينزغ عنك «النزغ» هو الإزعاج بالإغراء، و أكثر ما يكون ذلك عند الغضب، أى إن تالك من الشيطان نزغ و سوسه و نيل و نخسه فى القلب، و حركه و إزعاج بأن ثار القلب أمام الجاهل و غضب و احتد، حتى أراد الانتقام و السباب فاستعذ بالله أى سل الله سبحانه أن يعيدك و يحفظك من شر الشيطان إنّه سبحانه سميع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٠١ الى ٢٠٢]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) لقولك عليهم بقصدك و ما عرض لك.

[٢٠٢] ثم بين سبحانه أن هذه قاعدة المؤمنين كلما ألقى الشيطان فى قلوبهم ميلاً و زيغاً، أدركتهم الفطنة، فلم يميلوا إليه إن الذين اتقوا بأن جعلوا التقوى شعارهم، و ذاقوا حلاوتها و صارت ملكة و عادة عندهم إذا مسهم طائف من الشيطان بأن أتاهم من يطوف من الشياطين على قلوب بنى آدم، فأراد إغواءهم، و ميلهم عن الحق، و أعمى قلوبهم، و زين فى نفوسهم الشهوات. و قد دلت الأدلة الشرعية و العلمية «١» على أن فى الجو أرواح شريرة شأنها الإغراء و الإغواء، و لا يراها الإنسان.

تذكروا و أدركتهم ملكة التقوى الكامنة فى نفوسهم فإذا هم مبصرون يبصرون الطريق و لا يعمهون عن الحق، و لا يتمكن الشيطان من تغشيه قلوبهم بغشاء الشهوات و المغريات.

[٢٠٣] هذا شأن المتقين الذين لا يسايرون الشياطين فى إغوائهم و إغرائهم و أما إخوانهم أى إخوان الشياطين الذين لا تقوى لهم ليرتدعوا عن المعاصى و الآثام فإنهم يمدونهم أى يمدون الشياطين و يسايرونهم فى الغي و الضلال، فإذا مس العاصى طائف من الشيطان عمل بما يوحي إليه، و كان ذلك إمداداً للشياطين، لأنه مشى فى ركابهم، و مسيرة لهم ثم لا يقصرون بل يذهبون إلى آخر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٠

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠٣]

وَ إِذِ لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

الشوط، بخلاف المتقين الذين لا يمدون الشياطين و يقصرون في المسيرة، و لعل جملة «ثم لا يقصرون» للإشارة إلى أن المتقى إذا غفل و أغرى و مشى بعض الطريق مع الشيطان أدركته بصيرته فرجع و لا يسير إلى آخر الشوط، بخلاف إخوان الشياطين.

[٢٠٤] و في سياق الكلام حول أدب الحوار مع الناس، و أن المتقى متأدب بالآداب يأتي دور المحاوره بين الرسول و الكفار حول القرآن كشاهد لأدب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و كون الكفار إخوان الشياطين الذين يمدونهم في الغي و إذا لم تأتِهِمْ يا رسول الله بآية أي بمعجزة يقترحونها عليك، فإن الكفار كانوا يقترحون على الرسول الأمور الخارقة للعاده لمجرد المجادله و المعانده، لا لإرادة الاهتداء و الاسترشاد، فإذا لم يستجب الرسول لمطلبهم قَالُوا أَى الكفار: لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا أى لماذا لم تختتر هذه الآية المقترحة؟ و لماذا لم تأت بها؟ كأنهم، يرون الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الفاعل لما يشاء، فمهما اجتبى آية و اختارها، أتى بها قُلْ يا رسول الله: إن الآيات ليست باختيارى و اجتبائى، بل إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي فاللزام اختيار الله للآيات، فما رآها صلاحا أرسلها و زودنى بها، و ما لم يرها صلاحا لم يرسلها، إن كنتم تريدون الحق و الهدى - حقيقة - و قصدكم من طلب الآيات، إقامة الدليل و الحجج على صدقى ف هذا الذى جئت به من القرآن المعجز الذى لم تتمكنوا أن تأتوا بمثله بصائر و حجج و براهين من قبل رَبِّكُمْ وَ هُدًى يهذى من أراد الحق إلى الحق وَ رَحْمَةً يوجب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٥]

وَ إِذِ قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)

ترحم الله سبحانه و لطفه بالعاملين به لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ اللام للعاقبه، إذ المنتفع بهذه الآيات هم المتقون فقط.

[٢٠٥] و إذ تقدم ذكر القرآن تلميحا بقوله «هذا بصائر» بين سبحانه لزوم الأدب أمام القرآن بقوله: وَ إِذِ قُرِئَ الْقُرْآنُ أَى قارئ كان فَاسْتَمِعُوا لَهُ أَى أعيروا أسماعكم له وَ أَنْصِتُوا «الإنصات» هو السكوت. و من المعلوم أن الإنصات أخص من الاستماع، فإن الإنسان ربما يستمع إلى الكلام و هو يتكلم، و لذا نص عليه، فإن الأدب أن يستمع الإنسان، و لا يتكلم، و هذا الأمر للاستحباب، ككثير من أوامر القرآن الكريم كقوله:

فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عِلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا (١)، كما دلت على ذلك الأحاديث لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى لكى يرحمكم الله سبحانه بسبب تأديبكم أمام كتابه الكريم، أو بسبب اتعاظكم بمواعظه، حيث تستمعون لها.

[٢٠٦] و بمناسبة الإنصات عند تلاوة القرآن، يأتي بيان كيفية دعوة الله سبحانه، فإن القرآن كلام الله للخلق، و الدعاء كلام الخلق مع الله سبحانه و اذْكُرْ يا رسول الله، أو كل من يأتي منه الذكر رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ أما المراد به حديث النفس، و أما المراد التذكر بالهمس و الإخفات، و لعل الأول أقرب، بقريته ما يأتي بقوله: «و دون ...» تَضَرُّعًا أى بنحو الضراعة و الاستكانة وَ خِيفَةً أى مع الخوف من

(١) النور: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠٦]

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

الله تعالى، فإن ذلك أقرب إلى الإجابة وأذكره سبحانه دون الجهر من القول فإن الكلام المتوسط خير، وهذا لا ينافي استحباب الإجهار لدواعي آخر، كما

نزل جبرئيل على الرسول، وقال: «يأمرك ربك بالعج والثج»

«١» في باب التلبية وما ورد من أن الصلوات المجهرة بها تذهب بالنفاق، وما دل على الإتيان بالصلوات الثلاث جهرياً، إلى غير ذلك، والقول بأن الله لا يحتاج إلى الإجهار لتعليل تافه، فإنه ينقض بأن الله لا يحتاج إلى الكلام، فليكتف المستشكل بحديث النفس في قراءته ودعائه وأذكاره بالغدو أي الصباح والآصال جمع «أصل»، وأصل جمع «أصيل»، فهو جمع الجمع، ومعناه «العشيات»، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس، وهذا كناية عن دوام الذكر، والتفريق بين «الغدو والآصال» بالإنفراد والجمع، تفنن بلاغي لا يخفى لطفه.

ولا تكن يا رسول الله، أو المراد العموم، والمقصد العموم على أي حال، وإنما الكلام في مرجع الضمير من الغافلين الذين يغفلون عن ذكر الله سبحانه. وفي الآية الكريمة روايات كثيرة غالبها من باب بيان المصدق، فلا تضر بعمومها. [٢٠٧] ثم بين سبحانه أن الملائكة الذين هم أبعد عن التزوات، وهم دائمو الذكر، فأجدر بالإنسان أن يكون متذكراً دائماً إن الذين عند ربك

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ٢٨٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٣

أي الملائكة، والمراد بكونهم عنده سبحانه أنهم في قربه، قرب الجاه والمكانة، لا القرب المكاني لا يشي تكبرون عن عبادته ولا يترفعون بأنفسهم عن الخضوع والخشوع له سبحانه ويشي بجهونه أي ينزهونه عما لا يليق به، بذكر «سبحان الله» أو غيره وله تعالى يسجدون كسجدنا، أو المراد غاية الخضوع.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٤

٨ سورة الأنفال مكية، مدنية / آياتها (٧٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الأنفال» وحكمها.

والجو العام لهذه السورة حول السلم والحرب وشؤونهما، وحياء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، ومناوئهم، وأمثلة من آل فرعون ومن كذب بآيات الله سبحانه.

ولما كانت سورة الأعراف لبيان قصص الأنبياء، و ثم ختمت بقصة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، افتتحت هذه السورة بذكره صلى الله عليه وآله وسلم وما جرى بينه وبين قومه، فقال سبحانه:

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ دليلاً على ابتداء هذه السورة، واختتام السورة السابقة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٥

[سورة الأنفال (٨): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

[٢] يسألونك يا رسول الله عن الأنفال هو جمع «نفل» بمعنى الزيادة، والمراد هنا: الغنيمه، وإنما سميت نفلاً لأنها عطية وفضل من الله سبحانه للمسلمين، وقد اختلف التفسير حول الأنفال، والذي نعتقه بعد الجمع بين الآيات والروايات أن الأشياء التي ليست ملكاً

لأحد و غنائم دار الحرب تنقسم إلى قسمين:

الأول: الغنائم؛ وهي تقسم إلى خمسة أقسام: قسم يسمى «الخمس» لله و الرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل. و الأربعة الباقية للمقاتلين.

الثانى: الأنفال؛ و هى ما سياتى فى الرواية، و تكون لله و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الإمام، و قد أبيحت فى حال الغيبة لمن يتولى الأئمة عليهم السّلام، أو لمطلق من حازها مؤمنا كان أو غير مؤمن. و ظاهر سياق الآية أن المراد بالأنفال هنا هى مطلق الغنائم، فإن السورة نزلت فى وقعة بدر، و لما هزم المسلمون الكفار، انقسموا ثلاث فرق.

روى عبادة بن الصامت قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فشهدت معه بدرا فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون و يقتلون، و أقبلت طائفة على العسكر يحوزونه و يجمعونه و أحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لا يصيب العدو منه غزّة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب. و قال الذين خرجوا فى طلب العدو:

لستم بأحق منا نحن منعنا عنه العدو و هزمناهم. و قال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: خفنا أن يصيب العدو منه غزّة فاشتغلنا به. فنزلت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٦

الآية: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فقسّمها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بين المسلمين.

و هذا الحديث يدل على أن المراد بالأنفال مطلق الغنائم، كما هو ظاهر السياق، و هناك حديث يفسر الأنفال بما يحضر الإمام بعد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و لا منافاة بين الأمرين، فقد تكرر منا سابقا أن اللفظ المشترك يجوز استعماله فى أكثر من معنى واحد إذا كانت هناك قرينة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل و لا ركاب أو قوم صالحوا و أعطوا بيدهم» (١).

و فى حديث آخر عنه عليه السّلام: «الفىء و الأنفال ما كان من أرض خربة أو بطون أودية أو أرض لم يكن فيها مهراقه دم أو صولحوا أو أعطوا بأيديهم و لم تفتح بالسيف فهو يكون من الفىء و الأنفال، فهذه لله و رسوله فما كان لله فهو لرسوله يضعه حيث يشاء و هو للإمام بعد الرسول» (٢).

و فى حديث آخر عنه عليه السّلام: «الأنفال كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال، و كل أرض انجلى عنها أهلها بغير قتال و الأرضون الموات و الآجام و بطون الأودية و قطائع الملوك و ميراث من لا-وارث له فهو لله و لرسوله و لو من قام بنصه و من مات و ليس له مولى فماله من الأنفال» (٣).

(١) الكافي: ج ١ ص ٥٣٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٥٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٢]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)

و على هذا فتسمية هذا الشيء بالأنفال لزيادة الإمام بحصه دون سائر شركائه في الخمس.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنِ الْأَنْفَالِ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ لَيْسَ لِأَحَدٍ حَتَّى يَتَنَازَعَ فِيهَا، وَإِذَا كَانَتْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَلَهُمَا الْخِيَارُ فِي أَنْ يَقْسِمَاهَا كَيْفَ شَاءَ فَاتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا عِقَابَهُ فِي التَّنَازَعِ وَ طَلَبَ مَا لَيْسَ لَكُمْ وَأَصِيلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ أَيْ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَ الْمَنَازَعَةِ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى بِكَلِمَةِ «ذَاتٍ» لِتَشْبِيهِهِ الصَّلَةَ الَّتِي بَيْنَ النَّاسِ بِأَمْرِ مَجَسَّمٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ، تَشْبِيهَا لِلْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فِي الْغَنَائِمِ وَ غَيْرِهَا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ لِلرَّسُولِ فِيمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. قِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا عَرَفَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَ أَنَهَا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَمِعْنَا وَ طَاعَهُ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ.

[٣] ثم ذكر سبحانه صفات المؤمنين الكاملين ليكون درسا للمسلمين في مستقبل حياتهم و ليكون ميزانا يزن المسلم نفسه فيه فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ أَيْ اضْطربت و خافت من عظمته، و إن لم يكن خوفا من ذنب، فإن الإنسان إذا علم أنه سيحضر محضرا كبيرا و عظيما ارتجف قلبه خوفا من الفشل و إِذَا تَلَيْتُ أَيْ قَرَأْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ الْآيَاتُ إِيمَانًا فَإِنَّ الْإِيمَانَ مَلَكَهُ فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣ إلى ٥]

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)

القلب، كلما كثر المطلب على الإنسان زادت الملكة قوة و ثباتا و على ربهم يتوكلون في أمرهم، فيفوضون أمورهم إليه، في كل مرجو و مخوف.

[٤] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِالْإِتْيَانِ بِهَا مَوَاطِينَ عَلَيْهَا، وَ الْحَثُّ عَلَيْهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْإِقَامَةَ غَيْرَ الْإِتْيَانِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ سِوَا الْوَاجِبِ مِنَ الْإِنْفَاقِ أَوْ غَيْرِهِ.

[٥] أُولَئِكَ الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا فَهَمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ هَمُ الَّذِينَ شَعَرَتْ قُلُوبُهُمُ الْإِيمَانَ وَ امْتَلَتْ جَوَارِحُهُمْ لِتَطْبِيقِهِ لَهُمْ دَرَجَاتٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَهَمُ مَكْتُوبُونَ عِنْدَهُ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، وَ سَيُنَالُونَهَا فِي الْآخِرَةِ وَ مَغْفِرَةٌ لِدُنُوبِهِمْ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ فَهَمُ يَرْزُقُونَ بِأَكْرَامٍ وَ إِعْظَامٍ لَا يَاهَانُهُ وَ إِذْلَالٍ.

[٦] إِنَّ الْأَنْفَالَ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ، وَ إِنْ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ فِي كَوْنِهَا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ حَسْنَ الْعَاقِبَةِ وَ الْمَصِيرِ، كَمَا إِنْ إِخْرَاجَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ قَعَهُ بَدْرٌ كَانَ بِالْحَقِّ وَ لِعَاقِبَتِهِ حَسَنَةً، وَ إِنْ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ، وَ يَأْمُرُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ الْمَرَادُ بِ«الْبَيْتِ» هُنَا مَحَلُّ الْإِقَامَةِ، وَ هِيَ الْمَدِينَةُ الْمُنُورَةُ، وَ مَعْنَى «الْإِخْرَاجِ» أَمْرُهُ بِذَلِكَ وَ الْحَالُ إِنَّ فَرِيقًا مِنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٩

الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ لِلْخُرُوجِ.

و قصة بدر في الجملة هي

إِنَّ الْكُفَّارَ فِي مَكَّةَ لَمَّا شَرَدُوا قَسَمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَ طَارَدُوا الرَّسُولَ وَ أَصْحَابَهُ، حَتَّى اضْطَرُّوا لِلْهَجْرَةِ تَحْتَ جَنَحِ الظَّلَامِ، أَخَذُوا بَعْدَ ذَلِكَ يُؤْذُونَ الْمُسْلِمِينَ الْبَاقِينَ فِي مَكَّةَ، وَ يَشِيعُونَ حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابِهِ مُخْتَلِفِ الْإِشَاعَاتِ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَضَعَ حَدَا لِهَذِهِ التَّعْدِيَّاتِ الَّتِي لَا مَبْرَرَ لَهَا إِلَّا الْحَقْدُ وَ الْحَسَدُ. وَ أَخِيرًا عَزَمَ عَلَى قَطْعِ طَرِيقِ تِجَارَتِهِمُ الَّتِي تَسِيرُ بَيْنَ مَكَّةَ وَ الشَّامِ، لِيَتَأَدَّبُوا وَ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ حَذْرَهُمْ.

فخرجت غير لقريش إلى الشام فيها كثرة وافر من أموالهم، فأمر الرسول صلى الله عليه و آلِهِ وَ سَلَّمَ أَصْحَابَهُ بِالْخُرُوجِ لِأَخْذِهَا، وَ

أخبرهم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين؛ غنيمه العير، أو مطاردة قريش و محاربتها و تبديدها، فخرج هو صلى الله عليه و آله و سلم في ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا، فلما قارب «بدر» و هى بئر هناك أبلغ أبا سفيان ذلك، و كان فى العير فخاف خوفا شديدا، و بعث إلى قريش فأخبرهم بذلك و طلب منهم الخروج و الدفاع عن العير و أمر بالعير فأخذ بها نحو ساحل البحر، و تركوا الطريق و مروا مسرعين، و نزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأخبر أن العير قد أفلتت و أن قريشا قد أقبلت لتمنع عن غيرها و أمره بالقتال، و وعده النصر، فأخبر به رسول الله أصحابه فجزعوا من ذلك و خافوا خوفا شديدا إذ لم يتهيئوا للحرب، فقال رسول الله: أشيروا علىّ. فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله إنها قريش و خيلاؤها ما آمنت منذ كفرت و لا ذلت منذ عزّت و لم نخرج على هيئة الحرب. فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: اجلس فجلس.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٣٤٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٦]

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: أشيروا علىّ. فقام عمر فقال مثل مقالة أبي بكر، فقال: اجلس، ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله إنها قريش و خيلاؤها، و قد آمننا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جئت به حق من عند الله و لو أمرتنا أن نخوض جو الفضاء و شوكة الهراس لخضنا معك و لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» و لكننا نقول: «اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» و لكننا نقول: «اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون». فجزاه النبي خيرا ثم جلس ثم قال: أشيروا علىّ. فقام سعد بن معاذ فقال: بأبى أنت و أمى يا رسول الله كأنك أردتنا؟ قال: نعم قال: فلعلك خرجت على أمر قد أمرت بغيره. قال: نعم. قال: بأبى أنت و أمى يا رسول الله، قد آمننا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، فمر بنا بما شئت و خذ من أموالنا ما شئت.

ثم قال: و الله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك. إلى أن قال: و لكن نعد لك الرواحل و نلقى عدونا فإننا صبر عند اللقاء أنجاد فى الحرب، و إنا لنجوا أن يقر الله عينيك بنا. فقال رسول الله: كأنى بمصرع فلان هاهنا و بمصرع فلان هاهنا و بمصرع أبى جهل و عتبة و شيبه فإن الله و عدنى إحدى الطائفتين و لن يخلف الله الميعاد «١»، فنزلت الآية: كَمَا أَخْرَجَكَ فَأَمْرًا بِالرَّحِيلِ حَتَّى نَزَلَ مَاءَ بَدْرٍ وَ أَقْبَلْتَ قَرِيْشَ.

[٧] يُجَادِلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ مَحَارِبَةٍ قَرِيْشٍ فِي الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَرْبَ وَاجِبٌ وَ حَقٌّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ حَقٌّ،

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠١

[سورة الأنفال (٨): آية ٧]

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَاهِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقَطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)

فإنهم كانوا يقولون: هلا أخبرتنا لنعد عدتنا للحرب، و هم يعلمون أنك لا تأمرهم إلا بأمر الله سبحانه كما قال سبحانه: وَ مَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى «١».

كأنما هؤلاء المجادلين يساقون إلى الموت فيظنون أن سوقهم إلى الحرب موجب لهلاكهم حيث لم يعدوا لها العدة و هم ينظرون أى

ينظرون إلى الموت عيانا ويرونه بأبصارهم، فكيف يكون حال مثل هذا الإنسان، كذلك حال هؤلاء المجادلين.

[٨] وَاذْكُرُوا أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ إِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ إِخْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ إِمَّا طَائِفَةُ الْعَيْرِ فَتَغْنَمُونَهَا، وَإِمَّا قَرِيشٌ فَتَقْتُلُونَهُمْ وَتَتَخَلَّصُونَ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِكُمْ وَتَوَدُّونَ أَى تَحْبُونَ وَتَرْغِبُونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَاءِ تَكُونُ لَكُمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَحْبُونَ أَنْ يَغْنَمُوا الْعَيْرَ لِنَلَّا يَلِاقُوا مَشَقَّةَ الْحَرْبِ، وَ الْحَالُ أَنَّ الْحَرْبَ كَانَتْ لَهُمْ أَكْثَرَ شَوْكَةً إِذْ تَرَكُوا فِي الْعَدُوِّ خَوْفَهُمْ وَ شَوْكَتَهُمْ، وَ كَأَنَّ الشُّوْكَاءَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الشُّوْكَ لَأَنَّ فِي الْحَرْبِ شَوْكًا وَ لَيْسَ الْأَمْرُ سَهْلًا، فَيَكُونُ تَشْبِيهَا، أَوْ الْمَرَادُ بِالشُّوْكَاءِ: السِّلَاحُ.

وَ يُرِيدُ اللَّهُ حَيْثُ أَمَرَكُمْ بِالْحَرْبِ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ أَى

(١) النجم: ٤ و ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٨ الى ٩]

لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبَيِّنَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْدِفِينَ (٩)

يظهر الحق، بما بينه و أوجه عليكم من المقاتلة و يقطع دابر الكافرين أى يستأصلهم، فإن «الدابر» هو الأصل، أى يجذ الكفر من أصوله، فإن وقعة بدر كانت أقوى الأسباب لنصرة المسلمين إلى الأبد و هزيمة الكافرين إلى الأبد.

[٩] و إنما أراد الله ذلك ليحقق الحق أى يظهر حقيقة الإسلام، و فى التكرار تركيز و توطئة لقوله: وَ يُبَيِّنَ الْبَاطِلَ أَى يظهر بطلانه بإهلاك الكفار و لو كره ذلك المجرمون الذين أجمروا بالكفر و العصيان.

[١٠] و لما بلغ أصحاب رسول الله كثرة قريش و ما معها من السلاح و العتاد فزعوا و استغاثوا بالله و تضرعوا. «و» اذكروا أيها المسلمون إِذْ تَسْتَغِيثُونَ أَى تطلبون العوث و النصرة من ربكم فَاسْتَجَابَ لَكُمْ دَعَاءَكُمْ وَ تَضَرَّعَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ أَى مرسل إليكم مددا بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْدِفِينَ أَى بعضهم خلف بعض، فهم مترادفون متتابعون فى النزول إليكم.

فإن قيل: كيف يمكن الجمع بين هذه الآية و بين قوله: بِثَلَاثَةِ آلَافٍ (١) بِخَمْسَةِ آلَافٍ (٢)؟

(١) آل عمران: ١٢٥.

(٢) آل عمران: ١٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٣

[سورة الأنفال (٨): آية ١٠]

وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

فالجواب: إن الألف كانوا مقاتلين، و البقية للبشارة و تقوية القلوب، كما يقال: إن العاملين فى المدينة عشرة، فإذا قيل: إنهم أكثر؟ أوجب بأن المائة مثلا إنما هى من حيث العدد و الحركة و العمل للعشرة. و

فى الحديث: إن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لما نظر إلى كثرة عدد المشركين و قلته عدد المسلمين استقبل القبلة و قال: «اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض»

«١». فما زال يهتف بربه ماذا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فأنزل الله الملائكة، و قد قاتلت الملائكة و أسرت بعض المشركين.

[١١] ثم يذكر سبحانه أن إنزال الملائكة إنما كان لأجل تقوية قلوب المسلمين، و إلا فنصر الله سبحانه لا يحتاج إلى مدد ملك أو غيره و ما جعله الله أى ما جعل الله الإمداد بالملائكة إلا بشرى أى بشاره لكم بالنصر، فإن الإنسان يستبشر بكثرة الأعوان و إن كان علم أنهم للسواد و الكثرة فقط و لتطمئن به أى بالإمداد قلوبكم فيزول الخوف و الوسوسة عنها و إلا فى الحقيقة و الواقع ما النصير أى

ليس النصر إلا من عند الله ولا تأثير للإمداد والإعداد وإنما هي روابط ووسائط إلا من عند الله إن الله عزير غالب بسطانه حكيم فيما يفعل، وهذا لا يدل على عدم تهيئة الأسباب، بل يدل على لزوم تهيئتها، فإن الملائكة وقوى ما وراء الطبيعة بشائر،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٣ ص ٢٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٤

[سورة الأنفال (٨): آية ١١]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)

وإلا فالنصر من الله بأسبابه الظاهرية التي قررها هو سبحانه، كما قال تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ».

[١٢] ولما أمسى القوم المساء قبل الواقعة أخذ أصحاب الرسول النوم، من كثرة التعب وقد كان إلقاء الله النوم عليهم ليذهب خوفهم، ويتقووا على القتال غدا، فإن من استراح ونام لم يقلق كما يقلق الساهر، كما أن أعصابه تهدأ، وقواه تكثر فيتمكن مما لا يتمكن عليه الساهر، واحتلم كثير من المسلمين تلك الليلة، وكان موضع نزولهم كثير الرمل، مما سبب صعوبة الحركة، فوسوس إليهم الشيطان قائلا: كيف أنتم على حق، وقد أصابتكم الجنابة، ومحللكم غير صالح، ولا ماء عندكم، بينما المشركون على الماء، فأنزل الله المطر، حتى لبد الأرض، واغتسلوا، وارتووا. فذكروا أيها المسلمون إذ يغشيكُم أي يستولى عليكم النعاس أي النوم أمانة أي أمانا منه سبحانه، فإنه لم يفعل ذلك إلا لأجل أمنكم وراحتكم وإزالة الخوف عنكم، و«الأمانة» الدعة التي تنافي المخافة وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به من حدث الجنابة ويذهب عنكم رجز الشيطان أي وسوسته فإنه كان يوسوس في قلوبهم: كيف يكونون على حق، وهم نجسون، ومحلهم رمل، وهم ظماء وليربط على قلوبكم أي ليشد

(١) الأنفال: ٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٥

[سورة الأنفال (٨): آية ١٢]

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)

قلوبكم و يقويها، فإن النوم ونزول المطر قويا قلوبهم حيث أزالا-المخاوف والوساوس والأتعاب ويثبت به أي بالمطر الأقدام أي أقدامكم في الحرب بتلبد الرمل، أو المراد تقوية القلب فإنه يكنى بذلك عنه، أو المراد ذهاب الحالات الخمسة بالأمرين؛ فالنوم للدعة، والمطر لتطهير البدن عن نجاسة المنى، والاعتسال لذهاب رجس الشيطان، وتقوية القلب عن وسوسته، وتثبيت الأقدام بتلبد الرمل.

[١٣] واذكروا أيها المسلمون إذ يوحى وهم وإن لم يروا ذلك ولم يسمعه بآذانهم إلا أنهم علموه ربك يا رسول الله إلى الملائكة المنزليين في وقعة بدر أني معكم وهذا لتقوية قلوب المسلمين، وإلا فمن المعلوم أن الملائكة لا تفعل شيئا إلا بأمر الله سبحانه فتبينوا الذين آمنوا بتقوية قلوبهم و دحر الشياطين عنهم، فإن في القلب لمتان: لمة من الملائكة و لمة من الشيطان، فالنوايا الحسنة وما أشبه من الملائكة، والنوايا السيئة وما أشبه من الشياطين.

سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب أي الخوف من المؤمنين، وقد كان ذلك، فقد سلط الله على الكفار رعبا عظيما، حتى أن أبا لهب قال لأبي سفيان- بعد الواقعة:- كيف كان أمر الناس؟

قال: لا- شىء و الله إلا أن لقيناهم فمئناهم أكتافنا يقتلوننا و بأسرونا كيف شاءوا، و أيم الله مع ذلك مالت الناس، رأينا رجلا أيضا على خيل بلق بين السماء و الأرض ما تليق شيئا و لا يقوم لها شىء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٦

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٣ الى ١٤]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) فَاضْرِبُوا أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ أَى الرُّؤُوسِ أَوِ الْمَذَابِحِ، فَإِنَّهُمَا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، أَوِ هُوَ كُنْيَاةٌ عَنِ ضَرْبِ الْقِفَالِ لِلْإِذْلَالِ وَ الْإِهَانَةِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ أَى مِنَ الْكُفَّارِ كُلِّ بَنَانٍ أَى أَصَابِعِ الْيَدِ وَ الرَّجْلِ، أَوِ الْمَعْنَى: جَزَّوْا أَعْنَاقَهُمْ وَ اقْطَعُوا أَطْرَافَهُمْ.

[١٤] ذَلِكَ التَّعْذِيبِ وَ الضَّرْبِ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ الْبَنَانِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ أَى خَالَفُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَكَأَنَّهُمْ فِي شِقِّ وَ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ فِي شِقِّ آخَرَ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَكْتَفَى بِذِكْرِ اللَّهِ وَحْدَهُ أَوِ الرَّسُولِ وَحْدَهُ، وَ لَكِنْ ذَلِكَ لِتَعْظِيمِ الرَّسُولِ حِينَ يَقْرَنُ بِاسْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ أَنَّهُ الشَّخْصُ الْمَقَابِلُ لَهُمْ فِي الْمَشَاقَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا بِعَقُوبَةِ الْكَافِرِينَ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، وَ فِي الْآخِرَةِ بِإِخْلَادِهِمْ فِي النَّارِ.

[١٥] ذَلِكَ «ذَلِكَ» إِشَارَةٌ إِلَى الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا بِالْأَسْرِ وَ الْقَتْلِ، وَ «كَمْ» خِطَابٌ لِلْكَفَّارِ فَذُوقُوهُ أَى ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ. وَ «الْفَاءُ» دَخَلَتْ لِإِفَادَةِ التَّرْتِبِ عَلَى الْكُفْرِ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عِلَاوَةً عَلَى هَذَا الْعِقَابِ الْعَاجِلِ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ. وَ لَا يَخْفَى أَنَّ «الذُّوقَ» يَسْتَعْمَلُ كَثِيرًا فِي غَيْرِ الذُّوقِ بِاللِّسَانِ، بِاعْتِبَارِ إِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ لَهُ كَمَا يَدْرِكُ بِاللِّسَانِ الْمَذُوقَاتِ، وَ هُوَ يَسْتَعْمَلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَلْمِ الرَّوْحِيِّ، كَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٧

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ١٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأُدْبَارَ (١٥) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بُئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

يقال: «ذق الذل»، و بالنسبة إلى الألم الجسمي، كما يقال: «ذق السوط»، قال سبحانه: فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ «١»، و قال: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «٢».

[١٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْخُطَابُ عَامٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ، وَ إِنْ كَانَ نَزُولُ الْآيَةِ بِمُنَاسَبَةِ قِصَّةِ بَدْرِ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اللَّقَاءِ فِي الْحَرْبِ زَحْفًا «حَالٌ» أَى حَالُ كَوْنِهِمْ وَ إِيَّاكُمْ زَاحِفِينَ مُتَدَانِينَ لِلْقِتَالِ، فَإِنَّ الزَّحْفَ بِمَعْنَى الدُّنُوِّ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأُدْبَارَ أَى لَا تَنْهَزْمُوا بِأَنْ تَجْعَلُوا ظُهُورَكُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَجْعَلُ ظَهْرَهُ إِلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ إِلَّا إِذَا أَرَادَ الْفِرَارَ.

[١٧] وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ أَى مَنْ يَجْعَلُ ظَهْرَهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِتَالِ، وَ إِذَا قَالَ «يَوْمئذٍ» لِأَنَّهُ فَعْمٌ مِنْ قَوْلِهِ: إِذَا لَقِيتُمُ إِلَّا إِذَا كَانَ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَى تَارِكًا مَوْقِفَهُ إِلَى مَوْقِفِ آخَرَ أَصْلَحَ لِلْقِتَالِ مِنْ مَوْقِفِهِ الْأَوَّلِ، وَ «التَّحَرُّفُ» الزُّوَالُ عَنِ جِهَةِ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى جِهَةِ الْحَرْفِ بِمَعْنَى الطَّرْفِ، وَ اللَّفْظُ، حَالٌ، أَى: فِي حَالِ كَوْنِهِ قَاصِدًا الطَّرْفِ حَتَّى يَكُونَ أَمَكْنَ فِي الْحَرْبِ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ طَلَبَ حِيَا غَيْرَ حِيَاةِ السَّابِقِ، أَى مَكَانَ جَدِيدٍ، يُقَالُ: «فُلَانٌ مُتَحَيِّزٌ إِلَى فُلَانٍ» أَى

(١) النحل: ١١٣.

(٢) الدخان: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٨

[سورة الأنفال (٨): آية ١٧]

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)

منحاز نحوه، منضم إليه. فالمعنى: أنه ولَّى دبره لينضم إلى جماعة يستعين بهم في القتال، فإن الإنسان وحده يجترئ عليه العدو أكثر مما إذا كان مع جماعة فقد بآء خبر «و من يولهم» أى أن المولى دبره يرجع بَعْضٍ مِنَ اللَّهِ فكأنه كان ذاهبا إلى الحرب برضى الله، و الآن بفراره رجع يحمل الغضب و مأواه أى مصيره جَهَنَّمَ وَ بَشَسَ الْمَصِيرُ و بهذا يستدل على أن الفرار من الزحف كبيرة موبقة.

[١٨] ثم ذكر سبحانه أن السبب الحقيقى فى انهزام الكفار إنما كان هو الله سبحانه فلم تَقْتُلُوهُمْ أى لم تقتلوا الكفار أتم أيها المسلمون.

و «النفى عنهم» باعتبار كونهم السبب الأضعف، فلو لا تشجيع الله سبحانه بإنزال الملائكة و إنزال المطر و تقوية قلوبهم و مساعدة الملائكة لهم فى القتل و الأسر لم يتمكنوا من الغلبة عليهم، و من المتعارف أن ينسب الفعل إلى أقوى السببين وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ بِتِهْنَةٍ الأسباب و إلقاء الرعب فى قلوب الكفار حيث انهارت أعصابهم و مَا رَمَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها المسلم إذ رَمَيْتَ و المراد بالأول: الرمي المصيب، فإن الفعل ينفى عن من لم تكن نتيجة الفعل بقدرته، كما يقال لمن ألقى حجرا بدون معرفة فاصطاد طائرا: «فما صدت أنت و إنما صادته الصدفة». و لعل المراد ب «الرمى»، رمى القوم بالهلاك، كما يقال: «رماه الله بهلاك و نكال». وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى فَإِنَّهُ كَانَ السبب الأقوى فى هلاكهم و نكالهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٩

و ذكر جمع من المفسرين: أن المراد بذلك، رمى الكفار بالتراب،

فإن جبرئيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه و آله و سلم يوم بدر: خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لما التقى الجمعان لعلى عليه السلام: أعطنى قبضة من حصى الوادى. فناوله كفا من حصى عليه تراب فرمى به فى وجوه القوم و قال: شأهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلّا دخل فى عينه و فمه و منخرية منه شىء و تبعهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم و كانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم، و لما أن اصطف القوم برز عتبة و شيبه و الوليد للقتال و طلبوا المبارز فخرج إليهم بعض المسلمين فلم يرضوا بهم لما جرت العادة من عدم احتشام القرن إلّا بقرنه حتى برز إليهم على عليه السلام و حمزة و عبيدة، و دارت المعركة بنصرة هؤلاء، و قتل أولئك، و هنا حمى الوطيس و استعرت الحرب و لم تنكشف إلّا بهزيمة الكفار و قتل جماعة كبيرة منهم، و أخذ المسلمون يأسرونهم و الملائكة تعينهم فى الأسر كما أعانتهم فى القتل. فكان المسلم يشير بسيفه أو رمحه و لما يصل إلى الكافر فإذا به يخر قتيلا تقتله الملائكة، و كذلك الأسر. حتى أن العباس أسره أبو اليسر و كان العباس جسيما و أبو اليسر نحيفا، فقال له الرسول صلى الله عليه و آله و سلم:

كيف أسرت العباس يا أبا اليسر؟ فقال: يا رسول الله لقد أعانى عليه رجل ما رأيت قبل ذلك و لا بعده. فقال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: لقد أعانك عليه ملك كريم (١).

و كل هذه كانت للبشرى و إنما النصر كان من عند الله.

وَ قَدْ فَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فَعَلَ لِيُبْلِيَّ أَى لِيُنْعِمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ أَى مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ بَلَاءً حَسَنًا أَى نِعْمَةً جَسِيمَةً،

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٠

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٨ الى ١٩]

ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَعْجِلُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهَوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

ف «الواو» على هذا استثنائية متعلقة بفعل مقدر، كما قدرناه، أو المراد:

ليمتحن المؤمنين امتحانا حسنا، فإن البلاء يأتي بمعنى النعمة كما يأتي بمعنى الاختبار، و إنما يقال للنعمة: بلاء، لأن أصل البلاء ما يظهر به الأمر من الشكر و الصبر، فالنعمة بلاء لأنها تظهر الشكر، و المصيبة بلاء لأنها تظهر الصبر إنَّ اللهَ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ عَلِيمٌ بضمائركم و نياتكم. و في الحرب تظهر أقوال، و تجول في الصدر نيات، فمن الأحرى أن يحفظ الإنسان قلبه و لسانه لئلا ينحرفان عن نهج الصواب بمحضر من يسمع و يعلم كل شيء.

[١٩] الأمر ذلِّكُمُ أى أن الأمر كما ذكرنا من القصة، و هذا كما أن من يذكر قصة يقول بعدها: «هكذا» و هذا شبه تأكيد للكلام السابق، ف «ذلك» إشارة و «كم» للخطاب، أى: أخاطبكم أيها المؤمنون أن الأمر كذلك و أَنَّ اللهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ هذا عطف على «ذلكم» أى أن الغرض كان بلاء المؤمنين و وهن كيد الكافرين. هذا بناء على رجوع «ذلكم» إلى البلاء المستفاد من قوله: «ليلى المؤمنين»، و إلاً كان «و أن الله» استثنائية.

[٢٠] و حيث بين سبحانه أن الله يوهن كيد الكافرين خاطب الكفار بقوله: إِنْ تَشِيتُمْ تَفْتَحُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ فَصَدُّوا كُمْ الْفَتْحُ و هذا تهكم، فإن أبا سفيان دعا قبل الواقعة بقوله: «اللهم أهلك أضل الفريقين و أقطعهما للرحم»، فقد استجاب الله دعاءه و أهلك أضل الفريقين و أقطعهما للرحم. و المراد ب «الاستفتاح» طلب الفتح، كأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) الذى يقع فى مشكلته قد انسدت عليه الأبواب فيطلب فتحها ليتخلص من المشكله.

ثم يرغبهم سبحانه فى الانتهاء عن كفرهم و إِنْ تَتَّبِعُوا عَنِ الْكُفْرِ و معاداة المسلمين فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فى دنياكم و آخرتكم و إِنْ لَمْ تَتَّبِعُوا وَ تَعُودُوا إِلَى كُفْرِكُمْ و مشاقتكم لله و الرسول نَعِيدُ إِلَى مَا رَأَيْتُمْ مِنْ إِهْلَاكِكُمْ و إضلالكم، و بأسنا لا يقف أمامه تجمع و كثرة و لَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً أى لا- تفيد بكم جماعتكم شيئاً و لَوْ كَثُرَتْ فَإِنَّ النِّجَاحَ لَيْسَ بِالكَثْرَةِ و إنما بالقوة التى هى متوفرة لدى المؤمنين و أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ و من المعلوم انطباق هذه الآيات فى كل زمان و مكان بشرط أن يعمل المسلمون على شرائط الإيمان.

[٢١] ثم خاطب سبحانه المؤمنين أن يلتزموا بما هو سبب نجاحهم بقوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ اخْتَصِصُوا الْخُطَابَ بِالْمُؤْمِنِينَ، مع أن الإطاعة واجبة على الجميع، لأنهم هم المصغون المنتفعون بالخطاب دون غيرهم و لَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ أى لا تعرضوا عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْحَالُ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ دعاء لكم و أمره و نهيه إياكم، فإن المعرض بعد العلم أشد عقوبته عن المعرض بلا علم.

[٢٢] وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمُ الْيَهُودُ وَ الْمَنَافِقُونَ وَ هُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) لا يَسْمَعُونَ حقيقته، إذ لو سمعوا و وعوا لعلموا، فعدم علمهم دليل على عدم سماعهم سماع متعظ واع، فإنه يقال للعالم التارك لعلمه: «إنه غير عالم»، كما يقال لمن سمع قول الرشد، فسلك سبيل الغي: «أنه لم يسمع».

[٢٣] و إذ أمر الله سبحانه المؤمنين بالسماع النافع المقترن بالعمل حذرهم أن يكونوا كالدابة التى لا تسمع إلا نداء من غير أن تعقل و تعمل حسب ما سمعت، و لا تتطق بالخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الْكُفَّارُ، إنهم أشر من الدابة، حيث إن الدابة لا- تعقل، و هؤلاء يعقلون ثم يعرضون الضُّمُّ الْبُكْمُ «صم» جمع «أصم»: و هو الذى لا يسمع، و «بكم» جمع «أبكم»: و

هو الذى لا- يتكلم الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ عقلا مثمرا، و إلا فهم عقلاء، فإن هؤلاء شر ما دب على وجه الأرض من الحيوان حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من الحق، و لم يتكلموا به.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنها نزلت فى بنى عبد الدار، لم يكن أسلم منهم غير مصعب بن عمير و حليف لهم يقال له: سويبط» (١).

[٢٤] وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا قَبُولًا لِلْحَقِّ وَ إِذْعَانًا بِهِ وَ إِصْصَافًا فِي الْأَمْرِ لِأَسْمَعَهُمْ إِسْمَاعًا نَافِعًا، وَ لَكِنَّهُ عِلْمٌ أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ، وَ لَا رَجَاءَ

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٣

بهم، فلذا تركهم مغلقى القلوب، و هذا كما تقول: «لو علمت فى هذه الأرض قابلية للزرع لحرثتها»، حيث إنها لا تصبح قابلة للزراعة حتى بالحرث. و هكذا قلب الإنسان القابل و قلب الإنسان غير القابل، فإن أغشية الكفر قد شملتتهما، لكن الله سبحانه يزيل الغشاء عن قلب القابل حيث يعرف فيه الخير، و لا يزيله عن قلب غير القابل حيث يعرف فيه عدم الخير.

و بهذا تحقق أنه لا مجال للإشكال بأنه إن أريد من «الإسماع» المعنى الظاهرى، فقد أسمع الله سبحانه كل برّ و فاجر؛ فلا يناسبه التعليق على «لو» الامتناعية، و إن أريد منه تطهير القلوب تكوينا فإن الله لو فعل ذلك لكان فيه من الخير؛ فلا يناسبه ما يفهم من الآية من عدم إمكان الخير.

و حاصل الجواب: أن هناك ثلاث مراتب: الإسماع الظاهرى، و إزالة الأغشية، و طهارة القلوب ذاتا. فإزالة الأغشية خاصة بالمؤمن، بينما الإسماع عام لكل واحد، فالمعنى: لو علم الله الطهارة الذاتية فى قلوبهم لأزال الأغشية المظلمة عنها، علاوة على الإسماع، و لكن علم أن ذلك لا ينجح، فإن قلوبهم كالأرض السبخة التى لا ينفع معها الحرث، فلذا تركهم و شأنهم. وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ بِهَذَا النِّحْوِ مِنَ الْإِسْمَاعِ بِإِزَالَةِ الْأَغْشِيَةِ لَتَوَلَّوْا أَى أَعْرَضُوا، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ سَبْخَةٌ لَا يَنْفَعُهَا حَتَّى إِزَالَةِ الْأَغْشِيَةِ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ.

و ربما أورد بأنه: كيف يمكن ذلك، و الحال أن لازم هذا النحو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٤

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

من القياس المنطقى - بحذف الأوسط - «لو علم الله فيهم خيرا لتولوا»، مع وضوح أنه لو علم الله فيهم خيرا لم يتولوا؟ و الجواب: إن الكلام جار مجرى العرف، فليس هذا قياسا واحدا بل قياس و زيادة تقديره «لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، لكنه علم فيهم عدم الخير فلم يسمعهم»، «و لو أسمعهم مع علمه عدم الخير فيهم لتولوا» و هذا كما تقول عن ولد لك غير قابل للكسب: «لو علمت أنه غير كاسب لزودته برأس مال»، «و لو زودته لأتلف» تريد: لو زودته و الحال أنى أعلم عدم قابليته.

[٢٥] و بعد ما ذكر سبحانه و جوب إطاعة الله و الرسول، ألمع إلى أن فى الاستجابة كل الخير كما أراهم ذلك فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا أَى أَجِيبُوا. و لعل السر فى الإتيان بباب «الاستفعال» المفيد للطلب، إفادة أن اللازم كون الجواب عن القلب و الضمير، لا بمجرد اللفظ و الظاهر، فإن طلب الإنسان لأن يجب إنما ينبع من قلبه و باطنه لله وَ لِلرَّسُولِ وَ قد تقدم أن ذكر الرسول تعظيما له، و لأنه الداعى الذى يراه الإنسان و يقابله إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ فَإِنَّ الْحَيَاةَ الْكَامِلَةَ إِنَّمَا هِيَ بِالْإِيمَانِ، إِذْ الْحَيَاةُ بِمَعْنَى الْحَسَنِ وَ الْحَرَكَةُ مَرْتَبَةٌ ضَعِيفَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ، وَ الْمَرْتَبَةُ الْأَعْلَى بِمَعْنَى السَّعَادَةِ الْمَلَاذِمَّةِ لِلْعِلْمِ وَ الْفَضِيلَةِ وَ الرَّفَاهِ وَ الْأَمْنِ وَ الصَّحَّةِ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، فَإِنَّ حَيَاةَ الْجَنَّةِ هِيَ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تَسْمَى حَيَاةً، أَمَا حَيَاةُ النَّارِ فَإِنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الْحَيَاةِ، وَ

لذا قال سبحانه:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٥

لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى «١».

و «إذا» ليست شرطاً له مفهوم، بل المراد إفادة أن دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما تكون لما فيه حياة الناس. و توحيد الفعل مع أن الله و الرسول اثنان، باعتبار أن دعوتهما واحدة، أو كان باعتبار كل واحد منهما، كما قال: طَعَامِكُمْ وَ شَرَابِكُمْ لَمْ يَتَسَيَّرَنَّ «٢».

إنه سبحانه يريد أن تستجيبوا عن إرادة و طواعية و إن كان يقدر على كل شيء و أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ فمن هذه قدرته، أليس يقدر على جبركم أن تؤمنوا؟ و معنى «الحيلولة بين المرء و قلبه» أن لا- تطيع الأعضاء القلب فيما يأمر و ينهى، بأن يريد قلبه شيئاً فلا- تطيعه الأعضاء بمنع الله سبحانه عن الإطاعة، و كذا العكس بأن تنقل الأعضاء- كالعين و الأذن و الذوق و الأنف و اللامسة- إلى القلب معلومات فلا يفهمها، فإن القلب كالسلطان يعطى و يأخذ، و الله قادر على أن يفصل بينه و بين رعيته و جيوشه و أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أى و اعلموا أنكم تجمعون إليه للجزاء و الحساب. و معنى «إليه» أى إلى الموضع المقرر للجزاء، كما يقال: «ذهب إلى الله» لمن يذهب إلى الحج، فيراد المكان المقرر لإتيان الأعمال. إن قلوبكم بين يديه و حشركم إليه، فأذعنوا له حتى تحيون حياة طيبة.

(١) طه: ٧٥.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٦

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ آيَدُكُمْ بِضَرْهِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

[٢٦] وَ اتَّقُوا أى خافوا، إن لم تستجيبوا فِتْنَةً و بلاء عامياً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً فإن أفراد الأمة إذا سكتوا على المنكر عمهم الله بالعقاب، أولئك بالعصيان و هؤلاء بالسكوت، كمن لا يأخذ بيدي من يريد ثقب السفينة فإنه يقرب مع الثاقب. كما مثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و من قرأ: «لتصيين» أدخل الساكت فى جملة الظالمين، لأنه ظالم بسكوته. و يكون المعنى على هذا: إن الفتنة تصيبكم أيها الظلمة فقط، فلا تقولوا: كيف تصيبنا الفتنة فقط و نحن فى جملة غير الظالمين؟ تريدون بذلك عدم إصابتكم بالفتنة لأنكم بين أظهر غير الظالمين، فإن الله سبحانه قادر على إصابتكم فقط، كما أصابت الفتنة أصحاب السبب دون الذين نهوهم و وعظوهم.

هذا، و لكننا حيث نرجح عدم الزيادة و النقيصة فى القرآن الحكيم، و أن ما بين دفتيه هو القرآن المنزل حتى أن النظم أيضاً منه صلى الله عليه وآله وسلم، نوجه الروايات الواردة «الخاصة بالقراءات» بأنها تأويل و اجتهاد لا نزول و وحى.

وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ فإذا أخذتم يكون أخذه أليماً شديداً، فاستجيبوا لله و الرسول، فإن فيه حياتكم، و فى غيره النكال و العقاب.

[٢٧] و قد رأيتم كيف تفضل الله عليكم حين استجبتم له و للرسول وَ اذْكُرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ فِي الْعَدَدِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)

مُشْتَصِّعُونَ فِي الْأَرْضِ يُطَلَبُ الْأَعْدَاءُ ضَعْفَكُمْ فَيَنْزِلُونَ بِكُمْ أَنْوَاعَ الْإِهَانَةِ وَالْأَذَى تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ أَى يَأْخُذُونَكُمْ فَجَاءَهُ، وَ «الْإِخْطَافُ» إِذَا لُجِلَ السَّجْنُ أَوْ لِجَلِ الْقَتْلُ أَوْ لِجَلِ الْأَذْيَةِ، وَ الْمَرَادُ بِ «النَّاسِ» الْكُفَّارَ فَأَوَّاكُمْ أَى جَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَكُمْ مَأْوَى تَأْوُونَ إِلَيْهِ، وَ هِيَ الْمَدِينَةُ وَ أَيْدِكُمْ قَوَاكُمْ بِنَصِيرِهِ لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ حَتَّى صرْتُمْ أَقْوِيَاءَ بِفَضْلِهِ سَبْحَانَهُ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَإِنَّهُمْ فِي مَكَّةَ كَانُوا فُقَرَاءَ لَا يَجِدُونَ طَعَامًا وَ لَا شَرَابًا، حَتَّى إِذَا صَارُوا فِي الْمَدِينَةِ زَرَعُوا وَ اتَّجَرُوا فَرَزَقُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَى لِكى تَشْكُرُوا فَضْلَهُ سَبْحَانَهُ، وَ نِعْمَتَهُ وَ إِحْسَانَهُ عَلَيْكُمْ.

[٢٨] وَ لَمَّا ذَكَرَ سَبْحَانَهُ وَ جُوبَ اسْتِجَابَةِ الْمُؤْمِنِ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ، نَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ لَهُ وَ لِلرَّسُولِ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ بَتَرَكَ أَوْ امْرَهُ وَ الرَّسُولَ بَتَرَكَ شَرِيعَتَهُ. وَ قَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَبِي لِبَابَةَ، وَ إِنْ كَانَتْ هِيَ عَامَةً لِكُلِّ مَنْ يَرِيدُ الْخِيَانَةَ.

فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَاصِرَ يَهُودِ بَنِي قَرِيضَةَ إِحْدَى وَ عَشْرِينَ لَيْلَةً- لَمَّا خَانُوا عَهْدَهُ- فَسَأَلُوهُ الصَّلْحَ عَلَى مَا صَالِحَ عَلَيْهِ بَنُو النَّظِيرِ بِأَنْ يَصِيرُوا إِلَى أَذْرَعَاتِ وَ أَرِيحَا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فَقَالُوا: أَرْسَلْنَا أَبَا لِبَابَةَ وَ كَانَ مَنَاصِحًا لَهُمْ لِأَنَّ عِيَالَهُ وَ مَالَهُ وَ وَلَدَهُ كَانُوا عِنْدَهُمْ، فَبِعِثَهُ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا: مَا تَرَى يَا أَبَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٨

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٨]

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

لِبَابَةَ أَنْ نَزَلَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ «إِنَّهُ الذَّبْحُ» فَلَا تَفْعَلُوا، فَأَتَى جَبْرِئِيلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ أَبُو لِبَابَةَ: فَوَ اللَّهُ مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي خَنْتُ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ. فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى الرَّسُولِ بَلْ جَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَ شَدَّ نَفْسَهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِيِ الْمَسْجِدِ وَ قَالَ: لَا وَ اللَّهُ لَا أَذُوقُ طَعَامًا وَ لَا شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ. فَمَكَثَ أَيَّامًا لَا يَذُوقُ طَعَامًا وَ لَا شَرَابًا حَتَّى خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَ نَزَلَتْ: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخِرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)، فَقِيلَ لَهُ:

يَا أَبَا لِبَابَةَ قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ. قَالَ: لَا وَ اللَّهُ لَا أَحِلُّ نَفْسِي حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الَّذِي يَحْلُنِي. فَجَاءَهُ فَحَلَّهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ أَبُو لِبَابَةَ: إِنْ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِي أَنْ أَهْجَرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ وَ أَنْ انْخَلَعُ مِنْ مَالِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: يَجْزِيكَ الثَّلَاثُ أَنْ تَصَدَّقَ بِهِ «٢».

وَ لَا تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ أَى أَمَانَةَ بَعْضِكُمْ عِنْدَ بَعْضٍ مِنْ مَالٍ، أَوْ عَرَضٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْخِيَانَةَ مُحْرَمَةٌ مُوجِبَةٌ لِلْعِقَابِ وَ الْعَذَابِ. وَ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ جَمَلَةٌ «وَ تَخُونُوا» اسْتِفْهَامِيَّةٌ إِنْكَارِيَّةٌ، أَى: «كَيْفَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ فِي حَالِ الْعِلْمِ»، وَ سَمِيَتْ خِيَانَةَ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ خِيَانَةَ الْأَمَانَةِ لِنَفْسِ الْإِنْسَانِ.

[٢٩] وَ اعْلَمُوا أَى تَيَقَّنُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ امْتِحَانٌ وَ ابْتِلَاءٌ

(١) التوبة: ١٠٢.

(٢) راجع تفسير القمى: ج ١ ص ٣٠٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٩

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُعْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)

ليختبر الله سبحانه من يرحح أمر الله على ماله وولده، و من يرححهما على أمره سبحانه، فإن أبا لبابة حمله على ما فعل أن أمواله و أولاده كانت عند اليهود فخاف إن نصح لله و الرسول أن تذهب أمواله و أولاده. وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَمَنْ رَحَّحَ أَمْرَهُ سَبَّحَانَهُ عَلَى مَالِهِ وَ وَلَدِهِ أَوْ جَرَّ بِأَعْظَمِ أَجْرٍ.

[٣٠] إن الأمانة حمل ثقيل لا يقوم بها إلا من اتقى الله، و لذا يقول سبحانه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا فَإِن تَقَى اللَّهَ سَبَّحَانَهُ صَارَ مِيزَانِ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ مَلَكَةً لَهُ، فيفرق بين الحق و الباطل بتلك الملكة الحاصلة بالتقوى، فإن عرفان الإنسان أن عليه مراقبا يحدد موقفه من الأعمال و الأقوال. وَ يَكْفُرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ الَّتِي عَمَلْتُمُوهَا. و معنى «تكفير السيئات» سترها، فإن التكفير بمعنى الستر و التغطية وَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ يَا زَالِتِهَا، فإن الستر غير الإزالة، و هما نعمتان و فضلان وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فإنه يتفضل عليكم بالتكفير و المغفرة و جعل الفرقان.

[٣١] و إذ تقدم الكلام حول نصره المؤمنين في بدر بعد أن كانوا قليلا مستضعفين في مكة، بين سبحانه حاله النبي صلى الله عليه و آله و سلم قبل الهجرة و اذكر يا رسول الله إذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَي يَدْبُرُونَ مَأْمَرَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٠

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ وَ يَسْبَحُونَكَ فَتَثَبَ فِي مَكَّةَ لَا- تقدر على الإرشاد و التبليغ أَوْ يَقْتُلُوكَ وَ يَسْتَأْصِلُوا شَأْفَتَكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَبْعَدُوكَ، يارسالك إلى بعض المحال النائية، حتى لا تتصل بأصحابك و بالناس وَ يَمْكُرُونَ تأكيد، تهيئه لقوله: وَ يَمْكُرُ اللَّهُ أَي يَدْبُرُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ الْأَمْرَ خَفِيَةً، فإن التدبير لا يكون إلا خفية وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ فإنه أعرف بطرق العلاج. و الفرق بين مكر الله سبحانه و مكر الناس أن الأول لا يكون إلا بحق، و الثاني لا يستعمل - غالبا- إلا إذا كان باطلا.

إن هذه الآية الكريمة نزلت في قصة هجرة النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك أن قريشا اجتمعت فخرج من كل بطن أناس إلى دار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإذا شيخ قائم بالباب و إذ ذهبوا إليه ليخرجوه قال: أنا شيخ من مصر «أو نجد» أدخلوني معكم. قالوا: و من أنت يا شيخ؟ فقال: أنا شيخ من مصر «أو نجد» ولى رأى أشير به عليكم.

فدخلوا و جلسوا فتشاوروا و هو جالس و أجمعوا أمرهم على أن يوثقوا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، قال الشيخ: هذا ليس بالرأى، فإن فعلتم هذا ذهب أصحابه و فكوا وثاقه، و محمد رجل حلو اللسان فإنه يفسد عليكم أبناءكم و خدمكم و ما ينفع أحدكم بهم بعد أن أفسدهم محمد. ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه من بلادهم، فقال الشيخ:

هذا ليس بالرأى؛ إنه إن خرج أحاط به الناس الأعراب لحوو منطقته و أفسد عليكم من الخارج. فاستصوبوا رأيه ثم سأله الرأى قال:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢١

أخرجوا من كل بطن من العرب إنسانا يجتمعون عليه و يضربونه ضربة رجل واحد حتى يقتلوه، فيفترق دمه في القبائل و لا تتمكن عشيرته من المطالبة بدمه و يجبرون على أخذ الدية، فتستريحون منه.

فأخذوا برأى الشيخ، و كان هو الشيطان «لعنه الله» تزى بزى البشر. و نزل جبرئيل على الرسول يخبره بمكر أهل الندوة، و يأمره بالفرار ليلا، و أن ينيم عليا عليه السلام مكانه ليشتبه عليهم الأمر، فلما أمسى المساء جاء الفتیان مسلحين، و أرادوا أن يدخلوا على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لكن أبا لهب حال دون ذلك، و قال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل فإن في الدار صبيانا و نساء و لا نأمن أن تقع بهم يد خاطئة، فنحرسه الليلة فإذا أصبحنا دخلنا عليه. فناموا حول حجرة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أمر رسول الله أن يفرش له و قال لعلى عليه السلام: أفدنى بنفسك. قال: نعم يا رسول الله. قال: نم على فراشى و التحف ببردتي. و كان الفتیان ينظرون من شقوق الباب فيرون في مكان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم شخصا نائما فظنوه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم. و جاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأخرجه من بين ظهرائى الكفار و هم نيام و هو يقرأ عليهم: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْسَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ «١».

وقال له جبرئيل: خذ على طريق «ثور» و هو جبل على طريق «منى» له سنام كسنام الثور فدخل غارا كان فيه، فلما أصبحت قريش و
 بثوا إلى الحجره و قصدوا الفراش فقام على عليه السلام فى وجوههم و قال:
 ما شأنكم؟ قالوا له: أين محمد؟ قال: أ جعلتمونى عليه رقبيا، أستم

(١) يس: ١٠. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣١ إلى ٣٢]

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ
 عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)
 قلتم: نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا يضربونه و يقولون:

أنت تخدعنا منذ الليلة، ففرقوا فى الجبال و كان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفوا الآثار، فقالوا: يا أبا كرز اليوم اليوم،
 فوقف بهم على باب حجره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال: هذه قدم محمد و الله إنها لأخت القدم التى فى المقام، فما زال
 بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال: ما جاوزوا هذا المكان، إما أن يكون صعد إلى السماء أو دخل تحت الأرض، و قد كان بعث
 الله العنكبوت فنسجت على باب الغار و جاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار ثم قال: ما فى الغار أحد، ففرقوا فى
 الشعاب و صرفهم الله عن رسوله ثم أذن له بالهجرة «١».

[٣٢] وَ قد كان بعض الكفار إذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا بآذَانِنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا الْمَسْمُوعِ، فَإِنَّ الْعَاجِزَ
 الْمَتَكَبِّرَ دَائِمًا يَظْهَرُ الْقُدْرَةَ، لَكِنَّهُ لَا يَظْهَرُ مِنْهُ الْأَثَرُ بِخِلَافِ الْقَادِرِ الْمَتَوَاضِعِ الَّذِي يَعْمَلُ كَثِيرًا وَ يَقُولُ قَلِيلًا إِنْ هَذَا أَى مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ جَمَعَ «أَسْطُورَةٌ»، وَ الْمُرَادُ بِهَا: أَخْبَارُ الْمَاضِيْنَ وَ مَخْتَلَفَاتِهِمْ. قَالُوا: وَ قد كان قائل هذا النضر بن الحارث ابن كلدة و قد
 أسر يوم بدر و قتل.

[٣٣] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قَالُوا أَى بَعْضِ الْكُفَّارِ وَ هُوَ أَبُو

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٣

جهل: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ وَ كُنَّا نَحْنُ عَلَى الْبَاطِلِ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً الْمُرَادُ بِهَا «جَنَسِ
 الْحِجَارَةِ» وَ لَيْسَتْ «النَّاءُ» لِلْمَفْرُودِ مِنَ السَّمَاءِ أَى مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ، كَمَا أَمْطَرَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ أَوْ ائْتِنَا أَى صَبَّ عَلَيْنَا وَ جِئْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
 مَوْلَم.

فقد روى أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: أجيونى إلى ما أدعوكم إليه تملكون بها العرب و تدنين لكم العجم. فقال أبو
 جهل: «اللهم إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» «١».

و

فى بعض الروايات: أنها نزلت حين نصب الرسول عليًا خليفه له يوم غدير خم، فجاءه رجل يقال له الحارث بن عمرو الفهري فحاج
 النبي فى شأن على عليه السلام ثم سأله: هل هذا من الله أو منك؟ فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: بل من الله سبحانه. فأخذ
 يذهب و هو يدعو بهذا الدعاء «اللهم إن كان .. الى آخره»، حسدا و بغضا للإمام عليه السلام. فقال له النبي صلى الله عليه و آله و
 سلم: إما تبت و إما رحلت، فركب راحلته و خرج، و لما وصل إلى خارج المدينة أتته جندله فرصت هامته، و فيه نزلت: سَأَلَ سَائِلٌ
 بِعَذَابٍ وَاقِعٍ «٢»، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم لبعض المنافقين: انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتاه ما استفتح به «٣».

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٥٨.

(٢) المعارج: ٢.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٣٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٤

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)

أقول: و كأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره بالرحيل حتى لا يمنع عن عذابه وجوده صلى الله عليه وآله وسلم عنده حيث قال سبحانه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ». كما أنه لا منافاة بين الحديثين، فقد كانت بعض آي القرآن وسوره ينزل مرتين وأكثر، فلعلها نزلت مرة في قصة أبي جهل ومرة في قصة الحارث.

[٣٤] ثم بين سبحانه أنهم مع استحقاقهم العذاب لما كانوا يفعلونه، لكنه لا يعجل لهم ما دام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيهم، فلعلهم يرجعون ويتوبون، وما دام أنهم - مع كفرهم - يستغفرون الله سبحانه، كما روى أن أبا جهل بعد ما ذكر الدعاء قال: واستغفر الله، فقال سبحانه: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِإِطَارِ الْحِجَارَةِ عَلَيْهِمْ - كما طلبوا - أو غيره وَأَنْتَ فِيهِمْ جَمَلَةٌ حَالِيَةٌ، أى: فى حال كونك يا رسول الله بين أظهرهم، والمراد بذلك إما الرحمة بهم لأجلك، أو عدم عذابهم لاحتمال الإيمان، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما دام فيهم يحتمل رجوعهم وهدايتهم. وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ولعل اختلاف التعبير فى «ليعذبهم» و «معذبهم» لأجل أن كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرهم له أمد ولذا جاء بالفعل، أما الاستغفار فإنه لا مدة له ولذا جىء بالاسم الدال على الدوام.

[٣٥] ثم بين سبحانه أنه وإن كان لا يعذبهم إلا أنهم يستحقون العذاب بما يرتكبون من الآثام، فقال سبحانه: وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ أَى لَمْ لَا يُعَذِّبُهُمْ وَأَى أَمْرٍ يُوجِبُ تَرْكَ تَعْذِيبِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٥

[سورة الأنفال (٨): آية ٣٥]

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)

والحال أن هم يصدون ويمنعون الناس المؤمنين عن المسجد الحرام فقد أخرجوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، وأجبروهم إلى الهجرة نحو الحبشة والطائف والمدينة والحال أنهم ما كانوا أولياءه أى أولياء المسجد، أى لم يكن المشركون أصحاب ولاية على المسجد الحرام حتى يكون الصد عنه مشروعاً، فإنهم حيث كفروا برب المسجد وخالفوا أوامره لوضع الأصنام فيه وبتكوا حرمة بالتصفيق فيه، لم تكن لهم ولاية عليه إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ أى ليس أولياء المسجد إلا الذين يتقون الله سبحانه ويطيعون أوامره وهم المؤمنون، فإنهم أولياؤه الشرعيون وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَى أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيظنون - حيث أنهم ورثوا سدانة البيت من آبائهم - أنهم بذلك يكونون أولى بالمسجد.

ورد فى حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كان فى الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما، فدونكم الآخر، فتمسكوا به» «١». وقرأ الآية: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

[٣٦] ثم بين سبحانه علّة عدم كونهم أولياء المسجد، وذلك لأن صلاتهم هتك لحرمة وإنفاقهم لأجل الصد عنه، و هل يكون ولى

شئ هاتكا

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠ ص ٢٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٦

[سورة الأنفال (٨): آية ٣٦]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)

و صادا عنه؟ و ما كان صيلا تهم أي دعاء المشركين و عبادتهم عند البيت الحرام إلا مكاء و تصديئة «المكاء» الصفير، يقال: «مكا يمكو مكاء» إذا صفر فيه. و «التصديئة» التصفيق، و هو ضرب اليد على اليد. فقد كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يصفرون و يصفقون.

و

في حديث: أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان إذا صلى قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه فيصفران، و رجلان عن يساره يصفقان بأيديهما فيخلطان عليه صلاته، و قد قتلوا جميعا يوم بدر «١».

فذوقوا أيها الكفار العذاب في الدنيا بالقتل و الأسر و غيرهما، و في الآخرة في نار حرها شديد بسبب ما كنتم تكفرون بالله و رسوله. [٣٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي قِتَالِ الرُّسُولِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ التَّأْلِيفِ عَلَيْهِمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَي يَمْنَعُوا النَّاسَ بِذَلِكَ عَن دِينِ اللَّهِ وَ طَرِيقِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الصَّادِعَن سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِيَا لِمَسْجِدِ اللَّهِ؟ فَسَيُنْفِقُونَهَا أَي يَقَعُ مِنْهُمْ الْإِنْفَاقُ ثُمَّ تَكُونُ الْأَمْوَالُ الْمُنْفَقَةُ لِلصَّدَقَاتِ عَن سَبِيلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ مُّوجِبَةٌ لِلْحُزْنِ

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٨٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٣٧]

لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) وَ التَّحْسِيرُ يَخْسِرُونَهَا بِلَا جُدُوى ثُمَّ يُغْلَبُونَ فِي الدُّنْيَا بِظُفْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ، وَ فِي الْآخِرَةِ بِأَنَّهَا تَسَبَّبَ لَهُمُ النَّارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ أَي يَجْمَعُونَ، فَإِنَّهُمْ يَجْمَعُونَ كُلَّهُمْ هُنَاكَ جَزَاءً لِمَا فَعَلُوا مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعَصِيَانِ.

و في بعض التفاسير: إن الآية نزلت فيما أنفق الكفار يوم بدر لقتال المسلمين، و قد أخبر الله عن العاقبة قبل وقوعها فكانت كما ذكر. [٣٨] إن ما تقدم من إخلاء الله السبيل للكفار حتى ينفقوا أموالهم في سبيل الصد عن طريق الله سبحانه لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ فتكون الأموال المنفقة في سبيل الله معلومة، و تكون الأموال المنفقة في سبيل الباطل معلومة، فقد كانت الأموال قبل الاحتكاك و حدوث الحادثة غير مميزة حيثها من طيبها، أما في الحادثة فسيتميز بعضها عن بعض و ل يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَإِنَّهُ كَانَ مُتَفَرِّقًا فِي أَمْوَالِ عَدُوِّهِ، وَ بِذَلِكَ تَتَجَمَّعُ أَجْزَاؤُهُ فَيَرْكُمُهُ أَي يَجْعَلُهُ رُكْمًا مَجْمُوعًا جَمِيعًا كَالنَّفَايَاتِ وَ الْقَاذِرَاتِ الَّتِي تَتَجَمَّعُ مِنَ الْبُيُوتِ، وَ يَجْعَلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْمَزْبَلَةِ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ كَمَا تَتَجَمَّعُ الْقَاذِرَاتُ فِي الْمَنَافِي خَارِجَ الْمَدِينَةِ. وَ هَذَا مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ لِيَكُونَ أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا هَذِهِ الْأَمْوَالِ فِي سَبِيلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ لِلدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩)

الباطل هُمُ الْخَاسِرُونَ فقد خسروا الأموال، بل اشتروا بها العار و النار.

[٣٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تِيَّاسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِمَّا عَصَى، إِذَا تَابَ؛ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنَّ يَنْتَهُوا عَنْ كُفْرِهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ، بِالْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ وَإِنْ يُعُودُوا إِلَى كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَ«الْعُودَةُ» بِاعْتِبَارِ أَنْ كُلَّ يَوْمٍ كَفَرَ جَدِيدًا وَمَعْصِيَةٌ جَدِيدَةٌ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولَى أَيْ عَادَةُ اللَّهِ فِيهِمْ بِالْإِهْلَاكِ، فَإِنَّهَا تَنْطَبِقُ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَإِضَافَةُ السَّنَةِ إِلَى الْأُولَى، بِاعْتِبَارِ كَوْنِ سُنَّةِ اللَّهِ وَاقِعَةً عَلَيْهِمْ، وَيَكْفَى فِي الْإِضَافَةِ أَدْنَى مَلَابَسَةٍ - كَمَا ذَكَرُوا - وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: إِنْ يَنْتَهُوا عَنْ قِتَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَرَكَوا وَشَأْنَهُمْ وَلَمْ يَعَاقِبْهُمْ الرَّسُولُ بِمَا فَعَلُوا - فَهُوَ مَغْفِرَةٌ لَهُمْ - وَإِنْ عَادُوا إِلَى الْقِتَالِ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَكُونَ الْمُحَارِبُونَ هُمُ الْمَغْلُوبُونَ الْمُنْهَزَمُونَ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ إِلَى كُلِّ مَنْ تَسَوَّلَ لَهُ نَفْسَهُ قِتَالَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[٤٠] وَقَاتِلُوهُمْ أَيْ قَاتِلُوا الْكُفْرَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ أَيْ لَا تَوْجِدَ فِتْنَةٌ - فَإِنَّ «كَانَ» تَامَةً - فَإِنَّ الْكُفْرَ مِمَّا وَجَدُوا الْقُوَّةَ وَالْمَنْعَةَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ عَنْ دِينِهِمْ، وَأَحْدَثُوا الْفِتْنَ وَالْقِلَاقِلَ، أَمَا إِذَا قَاتَلُوا وَكَسَرَتْ شُوكَتُهُمْ، ذَهَبَتْ الْفِتْنُ وَتَحَطَمَتِ الْمُؤَامِرَاتُ وَالْمَكَايِدُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٠]

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ الْمُرَادُ بـ «الدِّينِ» الطَّرِيقَةُ، أَيْ حَتَّى تَتَجَمَّعَ الطَّرَائِقُ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ طَرِيقَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الْمَقَاتَلَةِ إِلَى أَنْ تَتَوَحَّدَ الطَّرَائِقُ فِي طَرِيقَةٍ ارْتِضَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْعِبَادِ، فَلَا يَكُونُ دِينٌ سِوَاهُ فَإِنَّ انْتِهَى هَؤُلَاءِ الْكُفْرَ عَنِ الْكُفْرِ وَالْعَصِيَانِ وَمُحَارَبَةِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى. وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا تَوْحِيدَ الصِّفُوفِ ظَاهِرًا أَمَا الْبُؤَاطِنِ وَالسَّرَائِرِ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ، بَلِ اللَّهُ يَعْلَمُ بِهَا وَيَجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ ضَمِيرِهِ وَسِرِّهِ.

[٤١] وَإِنْ تَوَلَّوْا أَيْ أَعْرَضَ الْكُفْرَ عَنِ الْإِيمَانِ، وَ لَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ وَالْعَصِيَانِ فَاغْلَمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ سَيِّدُكُمْ وَمُنَاصِرُكُمْ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ، بَلِ أَقْدَمُوا عَلَى مُحَارَبَتِهِمْ، فَاللَّهُ نِعْمَ الْمَوْلَى حَيْثُ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ وَفِيَّ بِمَا يَعِدُ وَنِعْمَ النَّصِيرُ لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ «١».

(١) آل عمران: ١٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء العاشر من آية ٤٢ من سورة الأنفال إلى آية ٩٣ من سورة التوبة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَعَتْرَتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٣

[سورة الأنفال (٨): آية ٤١]

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنَجُّمِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

[٤٢] وَحَيْثُ سَبَقَ الْكَلَامُ حَوْلَ قِصَّةِ بَدْرٍ، يَعُودُ السِّيَاقُ لِيَذْكَرَ جَوَانِبَ أُخْرَىٰ مِنَ الْقِصَّةِ كَمَا هُوَ عَادَةُ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، حَيْثُ يَبَيِّنُ مِنَ الْقِصَّةِ جَوَانِبَ مَعِينَةً فَقَطْ، ثُمَّ يَبَيِّنُ تِلْكَ الْجَوَانِبَ فِي ثَنَائِهَا آيَاتٍ أُخْرَى، لِتَبْقَىٰ لِلْقِصَّةِ ظُرُوفُهَا، وَثَلَاثًا تَكُونُ مِمَّا كَتَبَ التَّارِيخُ الَّتِي

تسرد القصص، ولأن يكون للنفس شوق و تلهف إلى القرآن و إلى القصة يسوقان الإنسان إلى التملّي منها. و تبتدئ بذكر الغنيمة و الحكم فيها، كما ابتدأت السورة بذكرها في الجملة فقال سبحانه: وَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ وَ الْغَنِيمَةُ: هِيَ الْفَائِدَةُ مطلقاً سواء حصلت من الحرب أو من غيرها، و إن كان مورد نزول الآية غنائم دار الحرب، و كلمة «من شيء» للتأكيد، أى سواء كانت الغنيمة قليلة أو كثيرة فَأَنَّ لِلَّهِ حُصْمَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ أَى قَرَابَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ هُوَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالنصف من الخمس أى عشرة من المائة منه للإمام عليه السلام، إذ حصه الله سبحانه للرسول و حصه الرسول للإمام، و فى حال الغيبة يدفع هذا النصف إلى نواب الإمام و هم الفقهاء الجامعون للشرائط، و هم يصرفونه فى ترويج الإسلام، حيث قال الإمام عليه السلام: «إن الخمس عوننا على ديننا» (١).

و إنما ذكر «الله» سبحانه تعظيماً لأمر الرسول و الإمام و احتراماً لهما، حيث قرنا به، و إلّا فالأموال كلها لله سبحانه و النصف الآخر من الخمس ل اليتامى و المساكين و ابن السبيل ممن ينتهى نسبه

(١) الكافي: ج ١ ص ٥٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٤

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٢]

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُضُوِّ وَ الرِّكْبَ أَشَقَّلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيُقْضَىٰ لِلَّهِ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يُحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)

إلى هاشم جد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من السادة. و يشترط فى هؤلاء الفقر، و قد عوّضهم الله عن الزكاة التى جعلت لغير السادة- إذا كانت من غير السادة- ثم أن الأربعة أخماس الباقية من الغنيمة، تقسم بين المقاتلين فى غنائم دار الحرب، و لصاحب المال فى خمس سائر الغنائم، فإن الخمس يجب فى سبعة أشياء: غنائم دار الحرب، و المكاسب مطلقاً، و الغوص، و الكنز، و المعدن، و الحلال المختلط بالحرام، و الأرض المنتقلة إلى الذمى إن كُنتم آمنتم بالله أى لا تطمعوا فى كل الغنيمة إن كنتم آمنتم بالله، فهو متعلق بقوله «و اعلموا» و ليس مفهوم الشرط:

أن الخمس ليس لهؤلاء إن لم تكونوا آمنتم، بل مفهومه إن كنتم آمنتم تؤمنون بذلك.

و إن كنتم آمنتم ب ما أنزلنا على عبدنا يعنى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يَوْمَ الْفُرْقَانِ أى يوم فرقنا بين الحق و الباطل و هو يوم بدر يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ جمع المؤمنين من أصحاب الرسول و جمع الكافرين من أهل مكة للقتال، و المراد ب «ما أنزلنا» الملائكة أو النصر، أى: إن كنتم مؤمنين بالله و بما أنزل من النصر و الملائكة على الرسول يوم بدر، تؤمنون بهذا الحكم الذى هو كون الخمس للطوائف الستة المذكورين و ليس للمقاتلين فيه حق و الله على كل شىء قدير فيقدر أن ينصر الجماعة القليلة على الجماعة الكثيرة.

[٤٣] إن المسلمين خرجوا من المدينة لإدراك قافلة أبى سفيان التجارية فنزلوا بصفة الوادى القريبة من المدينة و نزل جيش المشركين - الذين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٥

جاءوا من مكة لإنقاذ القافلة- بقيادة أبى جهل على الضفة الأخرى البعيدة من المدينة، و بين الفريقين ربوة، أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيش، و لم يكن كلا- الجيشين يعلم بموقع الجيش الآخر حتى أنه لو كان بينهما موعد للقاء لم يجتمعا بهذه الكيفية و لكن الله جمعهما على جانبى الربوة لينصر المسلمين على الكفار و يرى الجميع من الدلائل الباهرة ما يكفى لإتمام الحجّة، و قد رأى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى الرؤيا جيش المشركين قليلاً فأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا و تشجعوا و أقدموا على القتال، و لو رآهم كثيراً و أخبر أصحابه بذلك لخافوا و وجلوا فيفسلوا، و لم تكن الرؤيا كاذبة فإنهم بعددهم

الكثير كانوا قليلا في الواقع بالنسبة إلى قواهم المعنوية الضئيلة.

والقرآن الحكيم يبين هذا الطرف من القصة بقوله سبحانه: إِذِ أَنْتُمْ «إذ» متعلق بقوله: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا» أى أن إنزالنا كان فى وقت كنتم أيها المسلمون بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا مؤنث «أدنى» أى العدو القريب من المدينة، و «العدوة» شفير الوادى، فإن لكل وادى عدوتان أى جانبان وَ هُمْ أى الكفار بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى مؤنث «الأقصى» بمعنى البعيدة، أى فى الطرف البعيد من الوادى، و بعده باعتبار المدينة المنورة وَ الرَّكْبُ أى قافلة قريش التجارية، وَ هو جمع «راكب»، كصاحب وَ صاحب أَسْفَلَ مِنْكُمْ أى فى مكان أسفل منكم إلى جانب البحر، و ليس المراد ب «الأسفل» الانخفاض بل الأبعد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٦

و الفائدة فى ذكر هذه المواطن الإخبار الدال على قوة المشركين و ضعف المسلمين و إن غلبتهم فى مثل هذه الحالة كان بأمر إلهى و ذلك أن العدو القصوى كان فيها الماء و لا ماء بالعدوة الدنيا، و كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل و كانت العير وراء ظهورهم مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم و تحملهم على أن لا يرحوا مواطنهم و يبذلون نهاية جهدهم، و مع ذلك فقد نصر الله المسلمين.

وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْتُمْ وَ الْكُفَّارِ عَلَى الْلقاءِ فى مكان واحد لَأَخْتَلَفْتُمْ فى الميعادِ فإنكم كنتم تخافونهم لكثرتهم و استعدادهم، و هم كانوا يخافونكم لشدة بطشكم، و ما أدخل فى قلوبهم من الرعب منكم، فقد كانت أسباب عدم القتال، أو القتال بهزيمتكم متوفرة و لكن شاء الله سبحانه و قدر أن يجمعكم بهذه الكيفية و ينصركم عليهم لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا أى ينفذه و يأتى به إلى الوجود كان مَفْعُولًا أى واجبا أن يفعل و مقدر أن يكون، فقد قضى سبحانه إعزاز الإسلام و نصره المسلمين.

وَ إِنَّمَا قَضَىٰ ذَلِكَ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَيْهِ أى ليموت من يموت من الكافرين بعد تمام الحجّة عليه، فإن نصر المسلمين بتلك الكيفية كان من البراهين الدالة على صدق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فمن لم يؤمن بعد ذلك و مات، كان هلاكه بعد إتمام الحجّة عليه وَ يَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَيْهِ أى يعيش من عاش منهم بعد إتمام الحجّة عليه، و هذا كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٣]

إِذِ يُرِيكَهُمُ اللهُ فى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَارَعْتُمْ فى الأَمْرِ وَ لَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) يقال: «أتممت الحجّة على الأحياء و الأموات»، أو المراد من «الهلاك و الحياة» الكفر و الإسلام، فقد تقدم أن الحياة الكاملة فى الإسلام، كما أن الكافر ليس إلا- ميتا فى كثير من الأمور الحيوية، و لذا يقال عن المؤمن أنه حى، و على الكافر أنه ميت، كما قال سبحانه: اسْتَحْيُوا للهَ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ «١»، وَ إِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ عَلَيْكُمْ بضمائركم، فإن الحرب غالبا مثار كلام غير لائق و نيات سيئة، و لذا يذكرهم سبحانه بوجوب حفظ الألسنة و الضمائر عن سوء.

[٤٤] و قد ذكر ما تقدم من نزول النصر إِذِ يُرِيكَهُمْ أى يريك الله الكفار فى مَنَامِكَ يا رسول الله قَلِيلًا لتخبر بذلك المؤمنين فتقوى قلوبهم وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا أى أراك الله الكفار كثيرا، ثم أخبرت بذلك المؤمنين لَفَشِلْتُمْ أيها المؤمنون و ضعفت عزيمتكم فى قتالهم، فإن الفشل هو الضعف عن فزع و خوف وَ لَتَنَارَعْتُمْ فى الأَمْرِ أى فى أمر محاربتهم حيث كنتم ترهبونهم، فيقول بعضهم:

نقاتلهم، و يقول بعض: لا- نقاتلهم وَ لَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ أى سَلَّمَ المؤمنون عن الفشل و التنازع و اختلاف الكلمة إِنَّهُ سبحانه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أى بما يدور فى صدور الناس من الوسوس و تقلب

(١) الأنفال: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٨

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٤]

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

وجوه الرأى. وقد ذكرنا أن «الإراءة قليلا» لم تكن كذبا بل باعتبار أن الإنسان القوى دائما يرى الكثير قليلا، بخلاف الإنسان الجبان الذى يرى القليل كثيرا، هذا بالإضافة إلى أنه محسوس مجزّب، مبسوط فى علم النفس و مشروح.

[٤٥] و حيث تقابل الجيشان رأى المسلمون قلة المشركين، لما كانوا يحملونه من القوة فى نفوسهم و التصميم و الإرادة بتسديدهم و عزمهم، و رأى المشركون قلة المسلمين حيث كانوا قليلا عددا، فإن المسلمين كانوا ثلاثمائة و ثلاث عشر بينما كان الكافرون بين التسعمائة و الألف، و حيث كان كل فريق يرى خصمه قليلا تجزأ الطرفان على القتال مما أدى إلى نصر المسلمين و إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ أَى يريكم الله أيها المؤمنون، الكافرين إِذِ التَّفَيْتُمْ أَى فى زمان لقائكم و إياهم فى ساحة القتال فى أَعْيُنِكُمْ أَى فى نظركم قليلا فكان الكفار فى نظر المسلمين قليلين لما عندهم من الإرادة و القوة.

و من المعلوم أن الحالات النفسية تؤثر فى حواس الإنسان الظاهرة، و قد كان هذا بإرادة الله سبحانه حيث قوى نفوس المسلمين حتى يروا الكافرين قليلين فيطمعوا فيهم و يُقَلِّلُكُمْ أيها المؤمنون فى أَعْيُنِهِمْ أَى أعين الكافرين، فقد أراد الله سبحانه أن يقلل المؤمنين فى نظر الكافرين لئلا ينسحبوا عن قتالهم، فلا ينال المؤمنون منهم نيلا، و قد كان ذلك سبب غرور الكافرين فقد كان أبو جهل يقول لأصحابه: خذوا المسلمين بالأيدى أخذا و لا تقاتلوهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)

و إنما فعل ذلك سبحانه، بأن قلل كل جانب فى نظر الجانب الآخر لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا أَى ينفذ إرادته فى غلبة المسلمين، التى كانت قد قدرت. و قد كررت هذه الجملة تأكيدا، و لإفادة أن النصر كما كان من عند الله، كان التقليل من عنده أيضا و إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَإِنَّ الْأُمُورَ كَمَا كَانَتْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَ قَضَائِهِ، كذلك تكون مصائر الأمور إليه، فيبده المبدأ و المعاد، و هذا التشجيع للمسلمين فى أن يقدموا، فإن المبدأ و المنتهى بيد ناصرهم و معينهم و هو الله سبحانه.

[٤٦] و حيث بين سبحانه كيف أنه نصر المؤمنين فى موقعة بدر مع كون القوى المادية كانت بجانب الكافرين، أمر المسلمين أن يثبتوا أمام كل مشكله، فإن الله بجانبهم دائما يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً كَافِرَةً أَوْ مَخَالِفَةً، ممن عتى عن أمر الله سبحانه فَاتَّبِعُوا و لا تنهزموا أمامهم، فإن الثبات يوجب النصر، و بالعكس الانهزام و الفرار يوجب الفشل و الخسران و اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا مُسْتَعِينِينَ به فى الحرب و الدعوة، فإن ذكر الله سبحانه يشجع الإنسان و يقوى فيه العزيمة، كيف و الإنسان بتكرار الذكر، تتكون فيه ملكة الاتصال بالقوى الكونية، هذا بالإضافة إلى أن نصره الله سبحانه توجب قوة و طاقة خارقة فى النفس، كما ثبت فى علم النفس لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَى لكى تنجحوا و تظفروا و تفوزوا بخير الدنيا و الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٠

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٦]

وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)

[٤٧] وَاطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَرَسُولَهُ فِيمَا بَيَّنَّ لَكُمْ - و قد مرّ مكررا أن قرن اسم الرسول باسم الله سبحانه للتعظيم، و لأنه صلى الله عليه و آله و سلم هو المبين - وَ لَا تَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ فَيَقُولَ بَعْضُ: نقدم، و يقول بعض:

نحجم فَتَفْشَلُوا فَإِنَّ التنازع يوجب تبديد القوى المعنوية بالإضافة إلى تبديده و إضاعته للقوى المادية وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ أَى دولتكم، فإن الريح بمعنى الدولة لعه، أو هو من باب التشبيه، فإن الدولة تشبه بالريح لهبوبها و سيطرتها على الأشياء و نفوذ أمرها، يقال: «هبّت

ريح فلان» إذا نفذ أمره.

والتنازع، لا يجزئ القوى إلى سلب و إيجاب فقط، بل فوق ذلك يضعف القوى الإيجابية. فلو فرضنا أن طاقة زيد تقدر بألف مقاتل، فإذا خالفه عمرو وقدرت طاقته بخمسائة، حتى أنه لو كان وحده بدون مخالف لقدرت طاقته بألف، وذلك لأن المخالف يحد من النشاط و يضعف من القوى، بخلاف التجمع فإنه يزيد الطاقة الألفية إلى الألفين. ولذا ثبت في علم النفس أن الإنسان إذا رأى خلافاً فالأفضل أن يصم عن المخالف حتى يبقى على قواه الذاتية، و لا تحد من نشاطه الطاقة المناوئة.

وَأَصْبِرُوا و الفرق بين الثبات و الصبر، أن الصبر يلائم حالة الهزيمة و النصر، و هو مقابل الجزع، و الثبات مقابل الانهزام، و من الواضح أن الصابر يصل إلى مطلبه و لو انهزم وقتياً إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بالنصر و الظفر، و ليس المراد المعية الجسمية، كما هو واضح.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)

[٤٨] وَلَا تَكُونُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَطَرًا «البطر» الخروج من موجب النعمة بالكفر، من «بطر» يعنى «شق»، و منه «البيطار» لأنه يشق اللحم بالمبضع، فقد خرج الكفار من مكة بالمعازف و الطبول وَرِئَاءَ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا خَرَجُوا مَلْثُوا خَوْفًا وَرِعْبًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، و لكن خرجوا ليظهروا أنهم لا يبالون بالمسلمين و يظهروا شوكتهم وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ هَذَا مُقَابِلَ قَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْبَيْتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. و المراد ب «الصد» المنع عنه، حيث كانوا يقفون دون تبليغ الأحكام وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ إحاطة علم و قدرة فيجازيهم بما عملوا.

قال ابن عباس: أنه لما رأى أبو سفيان أنه أحرز غيره، أرسل إلى قريش أن ارجعوا، فقال أبو جهل: و الله لا نرجع حتى نرد بدرًا- كان بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام- فنقيم بها ثلاثاً ننحر الجزور و نطعم الطعام و نسقى الخمر و تعزف علينا القيان و نسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً «١».

و إلى هذا أشارت الآية الكريمة، فإن المسلمين يجب أن يكونوا مؤدبين بآداب الله سبحانه حتى في حالة الحرب.

[٤٩]

في موقعه بدر جاء إبليس إلى كفار مكة في صورة سراقه بن مالك فقال لهم: إني جار لكم ادفعوا إليّ رايتكم. فدفعوها إليه و جاء

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٣٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٢

بشيطينه يهول بهم على أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أقبلت قريش يقدمها إبليس معه الراية فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال لأصحابه: غضوا أبصاركم و عضوا على النواجذ و لا تسلوا سيفاً حتى آذن لكم. ثم رفع يده إلى السماء فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، و إن شئت لا تعبد، لا تعبد» «١» ثم أصابه الغشى فسرى عنه و هو يسلمت العرق عن وجهه و هو يقول: هذا جبرائيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين. فنظروا فإذا بسحابة سوداء فيها برق لامع قد وقع على عسكر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قائل يقول: أقدم حيزوم، أقدم حيزوم. و سمعوا فقعقة السلاح من الجو و نظر إبليس إلى جبرائيل فتراجع و رمى باللواء فأخذ منه بن الحجاج بمجامع ثوبه ثم قال:

ويلك يا سراقه تفت في أعصد الناس، فركله إبليس ركلة في صدره و قال: إني برىء منكم.

وَ قَدْ كَانَ ذَلِكَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ أَى فِي وَقْتِ حَسَنِ الشَّيْطَانِ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي نَظَرِهِمْ بِأَنْ شَجَعَهُمْ عَلَى قِتَالِ

المسلمين، و يحتمل أن يكون «إذ» معمولا لفعل مقدر هو «اذكر» وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْكَافِرِ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ أَي لَا يَغْلِبُكُمْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ لِكَثْرَتِكُمْ وَ قُوَّتِكُمْ فَانْهَضُوا لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ - في بدر- وَ إِنِّي جَارٌّ لَكُمْ مِنَ الْإِجَارَةِ، ناصر لكم على عدوكم فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ أَي التقت، فرقتا المسلمين و الكافرين

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٣

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٩]

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

نَكَصَ الشَّيْطَانُ أَي رَجَعَ عَلَى عَقْبَيْهِ أَي متقهقرا منهزما، فإن الإنسان إذا أراد أن يتقهقر اعتمد على عقب رجله، و هذا تشبيه لإفادة الفرار مع الجبن، فإن الجبان لا يدبر خوفا من أن يلحقه الطلب.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْكَافِرِ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ فَلَا صَلَءَ بَيْنَنَا، و لا أفي بما ضمنت لكم من الإجارة و النصر إني أرى ما لا ترون فقد رأى الشيطان الملائكة و كان يعرفهم، و علم أنه لا طاقة له بهم، كما أن الملائكة كانت تعرف الشيطان إني أخاف الله بأن يعدبني على أيدي الملائكة و الله شديد العقاب لا يطاق عذابه.

و في بعض التفاسير: و إنما قام الشيطان بهذا العمل - أي تشجيع الكفار - لأن الله سبحانه شاء أن يخرجهم إلى حرب المسلمين، فتتكسر شوكتهم و تذهب ريحهم و يتحطم كبرياؤهم.

و من الانهزامية المادية أن نأول هذه الآية كسائر الآيات المبينة لما وراء المادة، بتأويلات لا تنافي الأمور المادية، فإن التأويل إنما يصح إذا دل عقل أو نقل قطعي على خلاف الظاهر، أما إذا لم يدل دليل و لم تكن هناك قرينة، فأى مبرر لأن نترك الظاهر بمجرد أنه يلائم الأمور المادية، و لو فتح هذا الباب للزم أن نقول بذلك حتى في القرآن الحكيم نفسه، إذ هو أيضا أمر خارج عن طوق المادة.

[٥٠] كان تزيين الشيطان للمشركين قتالهم مع المسلمين إذ يقول المنافقون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٤

[سورة الأنفال (٨): آية ٥٠]

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠)

أى فى حال صدور هذه المقالة عن المنافقين، و المراد بهم إما الكفار، فإن الكافر باعتبار أنه يعلم الواقع و يظهر خلافه يسمى منافقا، و إما المسلمون المنافقون و الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ إما عطف بيان، أو يراد أحد اللفظين المسلمون المنافقون، و بالتالى الكفار، و المراد بالمرض مرض الانحراف عن المنهج المستقيم، فإن البدن كما يصاب بالأمراض الجسمية، كذلك الروح تصاب بالأمراض الخلقية، فالبخل و الحسد و الجبن و ما أشبه أمراض غرَّ هُوَلاءِ دِينُهُمْ أى غرَّ المسلمين دينهم حتى خرجوا مع قلتهم و صمموا على قتال الكفار الأقوياء عددا و عدَّة و ليس الأمر كذلك فإنه مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَيَسْلَمْ أَمْرُهُ إِلَيْهِ وَ يَتَّقْ بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُ كَذَلِكَ لَا يَغْلِبُ الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ حَكِيمٌ فِيمَا يَفْعَلُ، يضع الأمور مواضعها، فلا يترك المسلمين و لا يخذلهم، بل ينصرهم على الكافرين، فإنه له القوة يمنحها المتوكلين عليه، و له الحكمة يدبر بها الأمور.

[٥١] إن الكافرين كان مبدأ أمرهم - فى مقابلة المسلمين - الانهزام، فلننظر إلى مصيرهم و لو ترى يا رسول الله، أو المراد كل من تتأتى

منه الرؤية إذ يتوفى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ أَي تقبض الملائكة أرواح الكفار عند موتهم يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٥

[سورة الأنفال (٨): آية ٥١]

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)

أى يضربونهم من الأمام ومن الخلف، كما يضرب المجرم الكثير الاجرام ويقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق أى العذاب الذى يحرق.

و

قد روى أن الملائكة كانت تضرب قتلى المشركين فى بدر بالمقامع فتلهب جراحاتهم بالنار و تزهق أرواحهم

«١». و الإتيان بصيغته الأمر فى «ذوقوا» لتصوير المشهد كأنه مجسم أمام المخاطب، و هو من باب الإلفات، كما ذكر فى علم البلاغة.

[٥٢] ذَلِكَ الْعِقَابِ لَكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ أَى بِمَا قَدَّمْتُمْ وَ فَعَلْتُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصَى، وَ إِنَّمَا نَسَبَ إِلَى الْيَدِ، لِلتَّغْلِيْبِ،

فإن كثيرا من الأعمال تأتى بواسطة اليد و أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ «ظلام» صيغته للنسبة، لا مبالغة، كتمار بمعنى المنسوب إلى التمر.

قال ابن مالك:

و مع فاعل، و فعّال، فعل فى نسب أغنى عن اليا فقبل

و من المحتمل أن تكون مبالغة، و ذلك لإفادة أنه سبحانه لو كان ظالما لكان كثير الظلم لأن كل صفة تصح فيه تعالى لا بد و أن تبلغ

شأنا كثيرا، فنفى المبالغة نفى للأصل، و المعنى: إن العقاب ليس إلا بسبب جناية العبد، لا أنه اعتبارى منه سبحانه.

(١) راجع مجمع البيان: ج ٤ ص ٤٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٦

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)

[٥٣] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ الدُّبَابُ: العادة، و الكافر للتشبيه، أى أن عادة هؤلاء المشركين فى الكفر بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم،

كعادة آل فرعون و هم قومه و أتباعه وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من أقوام الأنبياء، فى الكفر بالرسول و تكذيبهم، فليس تكذيب هؤلاء جديدا،

فإن السابقين عليهم أيضا كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ ما أنزل على الأنبياء فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ بِأَنَّ عَاقِبَتَهُمْ وَ أنزل عليهم أنواع العذاب إِنَّ اللَّهَ

قَوِيٌّ لا يقدر أحد على التمرد عليه، فإذا أراد أحد أخذ أحد عزيز مقتدر شَدِيدُ الْعِقَابِ و ليس عقابه يسيرا هينا حتى لا يخشى

منه.

[٥٤] ذَلِكُمْ الْعِقَابِ الَّذِي حَلَّ بِأَوْلِيائِكَ وَ هَؤُلَاءِ، لَيْسَ اعْتِبَاطًا وَ ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بَلَا اسْتِحْقَاقٍ بَلْ بِسَبَبِ عَمَلِهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ

مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا أَى الْحَالَةَ الصَّحِيحَةَ الَّتِي كَانَتْ بِأَنْفُسِهِمْ إِنْ الصَّحَّةُ وَ الرِّخَاءُ وَ الْأَمْنُ وَ الْغِنَى أَحْوَالٌ لِاصْقَةِ

بأنفس الناس، منحها الله إياهم، و طلب أن يعملوا برضاه فيها، فإذا غيروا ما طلب منهم بالنسبة إليها، بأن صرفوا تلك النعم إلى

المعاصى، غير الله تلك النعم فأبدل الصحة مرضا، و الرخاء ضنكا، و الأمن اضطرابا، و الغنى فقرا. و هذا بالإضافة إلى كونه مرتبطا بما

وراء المادة، مرتبط بالمادة أيضا، فإن الصحة تنحرف باستعمال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٥٤]

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

المحرمات الضارة، و الرخاء ينحرف بعدم التعاون و العداة مما يسبب تفكك المجتمع فلا يزرع بمقدار ما كان التعاون يسببه، و

هكذا، و الأمن ينحرف إذا نوى كل إنسان الشر بأخيه، و الغنى ينحرف إذا كسل الناس عن العمل أو عملوا أعمالا غير مثمرة لا تفيد

مالا.

و من المعلوم أنه لا يلزم أن يكون الناس مؤمنين ثم يكفرون، بل هنالك مناهج بشرية عامة قررها سبحانه إذا سادت المجتمع كانوا في أمن و رفاه، فإذا غيروها تغيرت النعمة، مثلا الظلم و القتل قبيحان، و التعاون و الإحسان حسنان، أما بالنسبة إلى من بدل الإيمان كفرا و مناهج الشريعة أهواء، فذلك أوضح و أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يَسْمَعُ أَقْوَالَ النَّاسِ عَلِيمٌ بِضَمَائِرِهِمْ، فإذا رأى تغييرا في النيات، و انحرافا في الكلمات غير ما أعطاهم من نعمة و ما تفضل عليهم من أمن و راحة.

[٥٥] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ أَى أَن عَادَةَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ كَعَادَةِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ. و إنما كثر لتأكيد أن الحالة هي الحالة، فإن كثيرا من الناس لا يصدقون أن ما جرى في الأمم السابقة تجرى في هذه الأمة، و لذا يحتاج الأمر إلى تركيز و تقرير، و ذلك لا يكون إلا بالتكرار و التذكير مرة فمرة كَدَّيْبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ دَلَالَةً وَ حَجَّجَهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَلَمْ يَمُوتُوا مَيْتَةً طَبِيعِيَّةً، و إنما أخذوا بالعذاب وَ أَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ مَعَ فِرْعَوْنَ نَفْسَهُ، فإنه قد يطلق «الآل» على الأعم من الشخص

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) للتغليب، كما تقدم في قوله: إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ (١)، وَ كَلَّ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكْنَاهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ وَ تخصيص الكلام بآل فرعون، لأن كفرهم و عقوبتهم كانت ظاهرة واضحة لدى السامعين.

[٥٦] إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ الدَّابَّةُ: كل ما يدب على وجه الأرض، لكن المنصرف منها الحيوان، و شر الجميع عند الله في حكمه الذين كفروا و استمروا على كفرهم فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «الفاء» لعطف جملة على جملة. و لا يقال: إن الدواب لا شر فيها، فكيف يجعل الكافر شرا منها، لأنه يجاب عنه: بأن من الدواب ما فيها شر كالسامة و المؤذيات. و التي ليس فيها شر، يعد شرا باعتبار أنها لا تهتدى طريقا، و ليس المراد بالشر هذا المعنى فقط.

[٥٧] ثم بين سبحانه المصداق الظاهر لذلك بقوله: الكفار الذين عاهدت منهم عهد حسن الجوار بأن تكون في أمن منهم، و هم في أمن منك ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَى كَلَّمَا عَاهَدُوا نَقَضُوا الْعَهْدَ وَ لَمْ يَفُوا بِهِ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَ لَا يَخَافُونَ عِقَابَهُ، أو لا يتقون نقض العهد. و الظاهر من الآية أن ذلك كان دأب بعض الكفار.

و في «المجمع»: عن مجاهد أنه أراد به يهود بنى قريظة فإنهم قد

(١) آل عمران: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٩

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

فَأَمَّا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٥٧) وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)

عاهدوا النبي صلى الله عليه و آله و سلم على أن لا يضروا به و لا يمالئوا عليه عدوا، ثم مالمثلوا عليه الأحزاب يوم الخندق و أعانواهم عليه بالسلاح، و عاهدوا مرة بعد أخرى فنقضوا (١).

[٥٨] و ما هو جزاء هذه الفئة التي هي شر من الدواب و لا تلتزم حتى بالعهود؟! فَأَمَّا تَتَّقَنَّهُمْ «إن» الشرطية و «ما» زائدة، و «تقف» بمعنى: ظفر، أى إن ظفرت بهم يا رسول الله فى الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ «التشريد» هو التفريق، أى نكل بهؤلاء تنكيلا و فرقهم تفريقا حتى يتعثر بهم من هم ورائهم من الذين عاهدوا معك، حتى يخافوا فلا ينقضوا العهد. فتكون الآية دالة على أمرين: الأول:

تأديب هؤلاء الناقضين للعهد. الثاني: إلقاء الرعب في قلوب الآخرين لئلا ينقضوا عهدهم لعلهم أي لعل من خلفهم يذكرون أي يتذكرون أن نقض العهد يوجب مثل هذا التأديب فلا يقدموا على مثله، فإن نقض العهد من أسوأ الأعمال، إذ يدل ذلك على أن المعاهدة كانت للضعف، فكلمنا وجد أحد المعاهدين سبيلا إلى نقضه نقضه، وهذا يوجب سقوط قيمة المعاهدات، وأن لا يكون المتعاهدون بعضهم في أمن من بعض. أما الخدعة في الحرب فليست قبيحة إذ تلك بعد تأهب كل فريق.

[٥٩] وَإِمَّا تَخَافَنَّ «إِذَا» مَرَكَبَةٌ مِنْ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ وَ «مَا» الزَّائِدَةُ، تَأْتِي

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٤٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٣٩٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٥٩]

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)

للتوسع في معنى الشرط، يعني: و لو كان الاحتمال ضعيفا، إن لم تدخل نون التأكيد، وإلما أفادت التأكيد في الشرط، بأن يكون الاحتمال قويا من قوم خيائنة أي إن خفت يا رسول الله من قوم من هؤلاء المعاهدين خيائنة، بأن يخونوا عهدك و يحاربوك فجاء بعد إبرام الميثاق فأنبذ إليهم على سواء أي ألقى المعاهدة بينك وبينهم، إلقاء منتهيا إليهم، بمعنى أعلمهم عن إلقاءك للعهد، حتى يكون كلا الطرفين على سواء في الأمر، لا أن يكونوا هم بصدد المباغته و أنتم في أمن و دعه منهم، فإن الإنسان إذا علم أن خصمه في عهد يأمن، أما إذا علم أنه في حرب يستعد، أما أن يبقى متزلزلا يخاف خيائته، فإنه في اضطراب و ارتباك، و العهد في نظر العرف ليس مما إذا أبرم دام، بل معلق بنقضه من الطرفين مع الاعلام إن الله لا يحب الخائنين أي فلا تخنهم يا رسول الله بالقتال فجاء بدون إعلام، بل أعلمهم النقص ثم إذا أردت قتالهم، فقاتلهم بعد الاعلام.

و عن بعض المفسرين: إن الآية نزلت في بني قينقاع من اليهود، فإنه كان بين النبي و بين أولئك معاهدة، و حيث أن اليهود كان من طبعهم الخيائنة خاف الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ذلك، و لذا حلّ العهد الذي بينهم، لئلا يباغته و هو صلى الله عليه و آله و سلم في أمن منهم. ثم صارت بينهم المحاربة «١».

[٦٠] إن الكفار بنقضهم العهد دون الاعلام، و خيانتهم و غدرهم - كما صدر

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٤٨٥، عن الواقدي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥١

[سورة الأنفال (٨): آية ٦٠]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعِدُّوا لِلَّهِ وَعِدُّوكُمْ وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)

من بنى قريظة - يظنون أنهم قد سبقوا، و أدركوا فرصة ذهبية سببت عجز المسلمين، لكنه ليس كذلك و لا يحسبن يا رسول الله الذين كفروا بنقضهم العهد و غدرهم سبقوا و استفادوا من فرصة المباغته و سبق إليهم لا - يعجزون أي أن هؤلاء الكفار لا - يعجزون المسلمين، بمعنى أنهم بغدرهم لا يسبون عجز المسلمين، بل الله سبحانه ناصرهم، فإن الله سبحانه في عون الوفي لا الغادر، و لذا ذهب بنو قريظة أدرج خيانتهم، بينما غلبهم المسلمون.

[٦١] و أعدوا أيها المسلمون، و الإعداد هو التهيئة قبل وقوع الأمر لهم أي للكفار ما استطعتم ما قدرتم عليه من قوة دفاعية و هجومية،

بتهيئته وسائل الحرب، حتى تكونوا دائمي الاستعداد، سواء هاجتم أو هوجتم. و لعل إطلاق القوة يشمل جميع أنحاء القوى المادية و المعنوية و غيرها و ما استطعتم من رباط الخيل و اقتناءها للجهاد و الحرب تُرهبون به أى تخوفون بسبب إعداد ما استطعتم عِدْوَ اللَّهِ وَ عِدْوَكُمْ فَإِنَّ الْكَافِرَ عَدُوَّ اللَّهِ لِمُخَالَفَتِهِ لَهُ، و عدو المسلمين كما هو واضح. و لعل المراد بهم: أهل مكة، فإنهم كانوا ظاهري العداوة و آخريين من دونهم أى ترهبون به كفارا آخرين دون أولئك فى العداوة، أى أن عداوتهم أضعف، أو دون أولئك فى المحل كبنى قريظة الذين كانوا قريبين من المدينة لا تعلمونهم أى لا تعلمون أيها المسلمون أنهم أعداء لكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦١ الى ٦٢]

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)
اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ حَيْثُ يَعْلم ما بطن من الأمور.

و هذا درس للمسلمين بأن يستعدوا لأى عدو لئلا يباغتوا و ما تُنفقوا من شئ فى سبيل الله فإن الحرب تحتاج إلى الإنفاق، و لذا يقرن غالبا الجهاد بالإنفاق فى الآيات الكريمة يُوفِّ إِلَيْكُمْ أى يرجع إليكم فى الدنيا بالغنيمه و شبهها، و فى الآخرة بالثواب الجزيل و أنتم لا تُظلمون لا يظلمكم الله تعالى بأن يعطيكم أقل مما أخذ منكم.

[٦٢] وَ إِنْ جَنَحُوا الْجَنُوحَ: الميل، و منه جناح الطائر لأنه يميل به فى أحد طرفيه، أى إن مال الكفار للسلام و عدم الحرب فَاجْنَحْ لَهَا أى مل إليها و اقبلها منهم، و «السلام» مؤنث سماعى، و لذا جىء بالضمير مؤنثا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أى فوض أمرك إليه، فلا تخف أن تفوتك الفرصة، فإن السلم أحرى أن تلين القلوب فيه و يكفى مؤنثه أتعاب الحرب إنه سبحانه هُوَ السَّمِيعُ لأقوال الطرفين العليم بنياتهم، فلا يفوته غدر غادر و سلم مسالم. و من المعلوم أن الجنوح للسلم إذا كان من مصلحة المسلمين فلا ينسخ قوله: قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ «١»، هذه الآية، بل كل فى مقام المصلحة.

[٦٣] وَ إِنْ يُرِيدُوا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَجْنَحُونَ لِّلْسَلْمِ أَنْ يَخْدَعُوكَ بِأَنَّ

(١) التوبة: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٣

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)

يجدوا فرصة لتهيئة العدة للغدر بك و قتالك فإن حَسْبُكَ اللَّهُ هو يكفيك شرهم، و يتولى أمورك، فإنه كما كفاك سابقا يكفيك الآن هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ أى قواك بنصيره أى النصره التى أنزلها عليك و بِالْمُؤْمِنِينَ أى أيدك بالمؤمنين الذين التفوا حولك، فتمكنت أن تبارز بهم الأعداء.

[٦٤] وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ المتنافرة حتى يكونوا قوة واحدة فى وجه الأعداء، فإن وحده الكلمة من أهم أسباب النصر، و قد كانوا قبل الإسلام فى أشد حاله من العداوة و البغضاء حتى أنه كان بين الأوس و الخزرج عداوة و قتال دام أكثر من مائه سنة لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فإن المال يزيد العداوة، فإنه يكون وقودا لها، و إنما أزال الله سبحانه الضغائن بتصفية القلوب و تطهير أدران النفوس وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ بهدائيتهم للإسلام المطهر للعداوة عن الأفتدة إنه سبحانه عَزِيزٌ غالب على أمره، فإذا أراد شيئا أوجده حَكِيمٌ بحكمته و تدبيره يدبر الأمور و يديرها.

[٦٥] يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ أَي يَكْفِيكَ فِي مَقَابَلَةِ الْأَعْدَاءِ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ كَافُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقَوَى الظَّاهِرَةِ، وَ هَذَا تَشْجِيعٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٤

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِنَّا يَنْظُرُ إِلَى كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ، كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ فِي الْحُرُوبِ الْعَادِيَةِ.

قال بعض المفسرين: نزلت في البيداء قبل الشروع في القتال في وقعة بدر «١».

[٦٦] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ أَي رَغَّبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ بِذِكْرِ فَوَائِدِهِ وَآثَارِهِ وَأَنَّهُمْ يَسُودُونَ بِسَبَبِهِ وَيَحُوزُونَ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ فِي الْآخِرَةِ لِأَجَلِهِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ عَشْرُونَ صَابِرُونَ عَلَى الْقِتَالِ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ مِنَ الْكُفَّارِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِبَالِ عَشْرَةٍ مِنَ الْكَافِرِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّضَحِيَّةَ طَاقَتَانِ عَظِيمَتَانِ تَبْدَلَانِ الْإِنْسَانَ الْعَادِي إِلَى شَخْصٍ شَجَاعٍ مُقَدِّمٍ، وَ ذَلِكَ الضَّعْفُ فِي الْكُفَّارِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أَي لَا يَفْهَمُونَ، فَمَنْ يَحَارِبُ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَ إِيْمَانٍ يَزُودُ بِمَا لَا يَزُودُ بِهِ الْإِنْسَانُ الْخَلِيَّ مِنَ الْعَقِيدَةِ وَ الدِّينِ، وَ إِنْ مِنْ عَرَفَ أَنَّهُ إِنْ قَتَلَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَ إِنْ قَتَلَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، كَانَ قَوَى الْقَلْبِ فِي مَقَابِلٍ مِنْ لَا يَفْقَهُ ذَلِكَ.

[٦٧] إِنْ الْفِتْنَةُ إِذَا كَانَتْ قَلِيلَةً كَانَتْ الطَّاقَةُ الْإِيمَانِيَّةُ فِيهَا قَوِيَّةً جَدًّا، وَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا تَتَقَوَّى حَتَّى تَتِمَّكَنَ مِنْ مَقَابَلَةِ الْقَوَى، وَ هَذَا أَمْرٌ بَيْنَ فِي عِلْمٍ

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٤٩٠، عن الكلبي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٥

[سورة الأنفال (٨): آية ٦٧]

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْجَخَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)

النَّفْسُ، فَالنَّفْسُ الْقَوِيَّةُ تَأْتِي بِمَا تَحِيرُ الْعُقُولَ فِيهِ، إِذَا كَثُرَتْ الْفِتْنَةُ فَإِنَّ رُوحَ الْإِيمَانِ تَقْوَى فِيهِمْ، وَ بِمَقْدَارِ ارْتِفَاعِ نِسْبَةِ الْإِيمَانِ، تَنْخَفِضُ الْقُوَّةُ وَ الطَّاقَةُ، وَ لِذَا نَرَى الْأُمَّمَ أَوَّلَ تَكُونِهَا أَنْشَطَ مِنْهَا فِي أَوَاسِطِ حَيَاتِهَا، فَكَيْفَ بِأَوَاخِرِهَا، وَ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ خَفَّفَ اللَّهُ الْحُكْمَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كَثُرُوا، الْآنَ وَ بَعْدَ أَنْ كَثُرَتْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ فِي لَزُومِ مَقَابَلَةِ الْوَاحِدِ مِنْكُمْ لِعَشْرَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا عَظِيمًا عَلَى «الآن» لَا عَلَى «خفف» وَ المراد بالضعف: ضعف الطَّاقَةُ، لَا ضعف الجسد فَإِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مِائَةٌ صَابِرَةٌ تَصْبِرُ عَلَى الْمَكَارِهِ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ صَابِرِينَ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِرَادَتِهِ حَيْثُ أَرَادَ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَقْوَى مِنْ عَدُوِّكُمْ بِمَا وَهَبَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ يَعَادِلُ رَجُلَيْنِ مِنَ الْعَدُوِّ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ أضعفَ مِنَ الْحُكْمِ السَّابِقِ وَ لَكِنَّهُ أَيْضًا بِإِذْنِهِ سَبْحَانَهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ يَنْصُرُهُمْ وَ يَعِينُهُمْ.

وَ لَعَلَّ الْحَكَمِينَ تَابِعَانِ لِحَالَةِ نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ دَوْرٍ، فَمَتَى رَأَوْا قُوَّةً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَانَتْ الْعَشْرَةُ مِنْهُمْ بِمِائَةٍ، وَ مَتَى رَأَوْا الضَّعْفَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَانَتْ الْعَشْرَةُ مِنْهُمْ بِعَشْرِينَ، فَلَا نَسْخَ فِي الْبَيْنِ، وَ اللَّهُ الْعَالِمُ.

[٦٨] أُسِرَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعِينَ أُسِيرًا فَقَتَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةً، وَ خَافَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٦

المسلمون أن يقتلهم جميعا فتقدموا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأخذ الفداء منهم رغبة في المال، وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعلم أن قتل بعضهم أصلح، كما كان كذلك شأن الأنبياء قبله، وذلك لأن رؤوس المؤامرات إذا أطلقوا عاثوا في الأرض فسادا وعادوا إلى المجتمع بأكثر قتلا وفتكا، لكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل طلب هؤلاء لأمر أصلح وهو أن لا يختلف أصحابه بما يعود بأكثر ضررا، فنزلت هذه الآية توبيخا للمسلمين:

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَيْ لَيْسَ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِ اللَّهِ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى بَأَنْ يَأْخُذَ الْأَسِيرَ ثُمَّ يَطْلُقَهُ مَتَا، أَوْ فِي مَقَابِلِ الْفَدْيَةِ حَتَّى يُتَّخَذَ فِي الْأَرْضِ الْإِثْخَانُ: التَّغْلِظُ، أَيْ يَحْمِلُ الْأَرْضَ ثِقَلًا بِالْقَتْلِ، أَوْ الْمَعْنَى: حَتَّى يَغْلِبَ فِي الْأَرْضِ لِيَخَافَ الْكُفَّارَ سَطْوَتَهُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنْ وَقَعُوا أُسْرَى فَدَّوْا وَتَحَرَّوْا، جَزَّاهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي الْمُوَامَرَةِ وَالْمَكَايِدَةِ، لَكِنَّهُمْ إِنْ عَرَفُوا أَنَّ وِرَاءَهُمُ الْقَتْلَ، قَلَّتْ جَرَائِزُهُمْ، وَسَلِمَتِ الدُّوْلَةُ مِنْ شَرِّهِمْ.

فهل تُرِيدُونَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا أَيْ الْمَصَالِحَ الدُّنْيَوِيَّةَ، وَسَمِيَ عَرَضًا لِأَنَّهُ لَا يَبْقَى، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْمَالُ الْمَأْخُوذُ فَدْيَةً وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ فَإِنَّكُمْ إِنْ صَرَفْتُمْ النَّظَرَ عَنِ الْمَالِ لِأَجْلِ ثَوَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، كَانَ خَيْرًا لَكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو قُوَّةٍ وَنِعْمَ، فَاعْمَلُوا بِأَمْرِهِ حَتَّى يَقْوِيَكُمْ حَكِيمٌ يَدْبِرُ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، فَمَا يَأْمُرُ بِهِ هُوَ الْمَصْلَحَةُ دُونَ مَا تَنْظُنُونَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٧

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٨ إلى ٦٩]

لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)

[٦٩] لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ أَيْ لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ كَتَبَ سَابِقًا أَنْ لَا يَعْذِبَ النَّاسَ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»، لَمَسَّكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنَ الْفَدْيَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ غَضَاضَةٌ لِأَنَّهُ لَاحِظُ الْأَصْلَحِ مِنْ تَوْحِيدِ كَلِمَةِ أَصْحَابِهِ حَيْثُ قَبْلَ أَخْذِ الْفَدْيَةِ مَكْرَهَا، أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَقَدْ اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ حَيْثُ رَجَحُوا الْمَالِ عَلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَرَغْبَةُ نَبِيهِمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و

قد ورد في الحديث: أن الفدية كانت أربعين أوقية من الفضة، كل أوقية أربعين مثقالا، إلّا العباس عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حيث أخذ منه مائة أوقية «٢».

[٧٠] أما إذا انتهى الأمر و أخذتم الفدية فلا بأس في أكلكم لها فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ حَلَالًا طَيِّبًا وَ الطيب إذا قورن بالحلال أفاد معنى عدم نفرة الطبع منه في مقابل الحلال الذي ينفر منه الطبع وَ اتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ قَدْ غَفَرَ ذُنُوبَكُمْ فِي أَخْذِكُمُ الْفَدْيَةَ رَحِيمٌ يَرْحَمُكُمْ فِيمَا بَعْدَ بَلْطَفِهِ، مَقَابِلَ بَعْضِ الْكِبَارِ الَّذِينَ إِذَا غَفَرَ ذَنْبَ الْمَذْنُوبِ، يَنْتَهِي الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَا يَرْحَمُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) عوالم اللآلى: ج ٢ ص ١٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٠ إلى ٧١]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

[٧١] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ أَيْ تَحْتَ اسْتِيْلَانِكُمْ، وَ ذَكَرَ «اليد» لِأَنَّهَا تَكُونُ الْآخِذَةَ لِلْأَشْيَاءِ غَالِبًا مِنَ الْأَشْيَاءِ جَمْعُ أُسْرَى، وَ الْمُرَادُ بِهِمْ أُسْرَى بَدْرَ الَّذِينَ أُسْرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا بَأَنْ لَمْ تَكُنْ قُلُوبُكُمْ مَحْشُوءَةً بِالْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ بَلْ طَاهِرَةٌ

نظيفه يُؤْتِكُمْ أَى يعطيكم خيراً ممّا أخذَ مِنْكُمْ من الفداء، و إنما يعطيكم ذلك لطفاً و رحمة لا استحقاقاً و عوضاً و يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. و من المعلوم أن ذلك مشروط بالإيمان و اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ و قد كان العباس بن عبد المطلب يقول: نزلت هذه الآية في و في أصحابي، كان معي عشرون أوقية ذهباً فأخذت مني فأعطاني الله مكانها عشرين عبداً كل منهم يضرب بمال كثير و أذناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية.

[٧٢] ثم سلّى الله سبحانه نبيّه حول إطلاق الأسرى بالفداء نزولاً عند رغبة أصحابه، بأنه لا يهّمه ما لعل الطلقاء يقومون به من مؤامرة جديدة ضده و إن يريدوا أى يريد الطلقاء حياتك بأن يكون في نيتهم تجديد المؤامرة فقد خانوا الله من قبل في قصة خروجهم إلى بدر فأمكن الله المسلمين منهم فقتلوهم و أسروهم، و الله قادر على أن يمكن المسلمين منهم ثانية إن خافوا منهم. و سمى خروجهم إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٧٢]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)

بدر خيانه باعتبار وجوب شكر المنعم، لا باعتبار سبق معاهدة، فإنك إذا أنعمت و تفضلت على أحد، ثم قام ضدك يقال: أنه خانك و اللّهُ عَلِيمٌ بإرادتهم الخيانه و عدمها حكيمٌ يدير الأمور حسب الحكمة، فهم في قبضة علمه و إرادته لا يتمكنون من الإضرار بك.

[٧٣] و بمناسبة ذكر الحرب و علاقة المسلمين بالمشركين، يأتي ذكر علاقة المسلمين بعضهم ببعض، و أنها علاقة الإيمان و العقيدة و الهجرة إن الذين آمنوا بالله و رسوله و بما جاء به الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و هاجروا من مكة إلى المدينة و جاهدوا أى حاربوا الكفار بأموالهم بأن بذلوا في سبيل الجهاد و أنفسهم في سبيل الله و يأتي ذكر «سبيل الله» في كل مناسبة للتنبيه على أن حركة المسلمين ليست إلا لإعلاء كلمة الله و الذين آووا أى الأنصار من أهل المدينة الذين جعلوا للرسول و المهاجرين مأوى بأن أسكنوهم في منازلهم، فإن المهاجرين لم يكن لهم مسكن حين وردوا المدينة فأسكنهم الأنصار معهم في بيوتهم و نصّروا أى نصروا الرسول و المهاجرين على أعدائهم أولئك بعضهم أولياء بعض و ليست هنالك ولاية بين المسلم و قريبه الكافر، و الولاية كلمة عامة تشمل أقسام الولاية و النصرة.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، بل بقوا في مكة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٠

[سورة الأنفال (٨): آية ٧٣]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)

اختياراً ما لكم أى ليس لكم أيها المسلمون من ولايتهم من شئٍ لأنهم خالفوا أمر الرسول و أضعفوا- بقائهم في مكة- كيان المسلمين حتى يهاجروا كما هاجرتهم و إن استنصروكم في الدين أى طلب المؤمنون غير المهاجرين منكم أيها المهاجرون أن تنصروهم على أعدائهم الكفار، في الأمور الدينية فعليكم النصر و من المعلوم أن النصرة غير الولاية المطلقة، لأن المسلمين في المدينة كان ينصر بعضهم بعضاً، و يسكن أحدهم الآخر في داره، و يجتمعون في السلم و الحرب، و أخذ الغنائم، و يتفقد أحدهم الآخر، كأهل بيت واحد، بخلاف النصر المجرد على الكافر الذي قرره سبحانه للمسلمين في مكة.

إلّا على قوم بينكم أيها المسلمون المهاجرون و بينهم ميثاقٌ فإذا استنصركم المسلمون في مكة على كفار معاهدين معكم، فلا تخرقوا المعاهدة، و لا تنصروا المسلمين، لأن المسلم لا يغدر بعده، و لا ينقض ميثاقه و إن كان مع الكافر و اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فلا تتركوا

موالاة المهاجرين، ولا تتولوا غير المهاجرين.

[٧٤] وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسُوا لَكُمْ بِأَوْلِيَاءَ وَإِنْ كَانُوا أَقْرَبًاؤُكُمْ بِالنَّسَبِ أَوْ بِاللُّغَةِ أَوْ بِالْوَطَنِ بَلْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَنْصُرُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٤ إلى ٧٥]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

ضدكم وإن اختلفوا. وبهذا المعنى

ورد: «الكفر كله ملء واحدة»

إِلَّا تَفْعَلُوهُ أَى إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاعْتِبَارِ الْكُفْرَانِ كُلِّهِمْ مَلَأَهُ وَاحِدَةً، بِأَنَّ عَادِيَتِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ وَالِيَتِ الْكَافِرِينَ تَكُنُّ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا كَبِيرًا لِأَنَّ فِي ذَلِكَ تَعْزِيزًا لِلْكَفْرِ وَإِذْلَالًا لِلْإِسْلَامِ، وَقَدْ دَلَّ مَنْطِقُ التَّارِيخِ أَنَّ كُلَّ وَقْتٍ اتَّخَذَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، ضَعَفَتْ شَوْكَتُهُمْ وَذَهَبَتْ رِيحُهُمْ، وَبِالْعَكْسِ كُلِّ وَقْتٍ اتَّخَذُوهُمْ فِيهِ أَعْدَاءَ، وَاتَّخَذُوا سَائِرَ الْمُسْلِمِينَ أَوْلِيَاءَ، قَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ وَهَبَتْ رِيحُهُمْ.

[٧٥] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَتَطْبِيقِ حُكْمِهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ أَعْطَاوُا الْمُسْلِمِينَ مَأْوَى وَنَصَرُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لِقِيَامِهِمْ بِجَمِيعِ شُرَاطِئِ الْإِيمَانِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ لِدُنُوبِهِمْ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ أَى مَعَ الْكِرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عَمَلُوا بِشُرَاطِئِ الْإِيمَانِ تَمَّتْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٌ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

[٧٦] وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ - حَتَّى لَا - يَظُنُّ أَنَّ الْأَمْرَ تَمَّ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَهَاجَرُوا وَهَجَرُوا بَاقِيَهُمَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي دَارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٢

الكفر مما لا- يتمكن معه من إظهار معالم الإسلام وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ وَ لَوْ بَنَحُوا الْمَعِيَةَ الْمَعْنَوِيَّةَ بِأَنَّ كَانَ جِهَادَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِي جَمَاعَتِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَخَيْرِ الدُّنْيَا وَأُولُوا الْأَرْحَامِ أَى ذَوُو الْأَرْحَامِ وَ الْقِرَابَةِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَى فِي حُكْمِ اللَّهِ. وَهَذَا أَحْصَى مِنَ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ، فَالْقَرِيبُ الْمُسْلِمُ الْجَامِعُ لِلشَّرَاطِئِ أَوْلَى بِقَرِيبِهِ الْمُسْلِمِ الْجَامِعِ لِلشَّرَاطِئِ مِنَ الْبَعِيدِ الْمُسْلِمِ الْجَامِعِ لِلشَّرَاطِئِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ الَّتِي مِنْهَا الْإِرْثُ. وَ يَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْأَقْرَبَ مِنَ الرَّحْمِ أَوْلَى مِنَ الْأَبْعَدِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَمَا يَذْكُرُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ إِنَّمَا هُوَ حَسَبِ الْحِكْمَةِ وَ الْمَصْلَحَةِ، لِأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنِ عِلْمٍ وَاطِّلَاعٍ.

وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَتْ الْآيَةَ السَّابِقَةَ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فَإِنَّ كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ صَحِيحٌ فِي الدِّينِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ، وَ إِلا فِظَاهِرِ الْآيَتَيْنِ غَيْرِ مُتَنَافٍ حَتَّى نَحْتَاجَ إِلَى الْقَوْلِ بِالنَّسْخِ، وَ اللَّهُ الْعَالِمُ «١».

(١) راجع تفسير القمى: ج ١ ص ٢٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٣

٩ سورة التوبة مدينة / آياتها (١٢٩)

تسمى هذه السورب «سورة براءة» لأنها تبتدئ بهذه الكلمة، كما تسمى بالتوبة، لكثرة اشتغالها على مشتقات هذه الكلمة. و لم تبتدئ

هذه السورة ب «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» لأنها نزلت لإعلان الحرب على الكفار والمنافقين، وذلك ينافي «البسمة» التي تحمل في معناها الرحمة والسلام.

ولما اختتمت سورة الأنفال بعلاقة المسلمين بعضهم مع بعض ابتدأت هذه السورة بعلاقة المسلمين بالكافرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٤

[سورة التوبة (٩): الآيات ١ إلى ٢]

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسَيُحْوَى فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)

[١] بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أى هذه براءة، على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو «براءة» مبتدأ خبره «إلى الذين». ومعنى البراءة: انقطاع العصمة، يقال: «برأ يبرأ من فلان» إذا قطع ما بينهما من الصلة. والمعنى: أن لا عصمة بين المسلمين و بين الذين عاهدوهم من المشركين، فقد كان بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و بين المشركين معاهدات، لكنهم غدروا، و لذا أجلبهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أربعة أشهر، فمن كان له معاهدة أعلمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه يبقى على المعاهدة إلى أربعة أشهر، ثم هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حرب عليه فليتخذ حذره.

و لم يكن هذا نقضا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بل نقضا منهم، و لذا قال سبحانه: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ غَيْرَ مُدَّتِهِمْ (١). و قد شاء الله سبحانه أن يطهر الجزيرة التي أصبحت عاصمة الإسلام عن رجس الشرك و النفاق لتتوحد فيها الكلمة و يكون للمسلمين دولة مرهوبة الجانب ليفرغوا إلى الروم و الفرس.

[٢] فَسَيُحْوَى أَيهَا الْكُفَّارِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ معنى «السيح» السير، يقال: «ساح» إذا سار على مهل. أى: أتمتم في مهلة بأن تسيروا آمنين و تتصرفوا فى حوائجكم بكل تأن و طمأنينة إلى أربعة أشهر من ابتداء الإعلان، و هو من يوم النحر إلى العاشر من ربيع الآخر، فإذا

(١) التوبة: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٥

انقضت هذه المدة فليس لكم عهد و لا أمان، و المحاربة معكم لا تعتبر غدرا و مباغته و اعلموا أيها الكفار أنكم غير معجزى الله أى لا تتمكنون من أن تعجزوه و تغلبوه، بل هو القادر على أن يخزيكم بأيدي المسلمين، فلا تفكروا فى محاربة المسلمين و أن الله مُخْزِي الْكُفَّارِينَ «الخزى» النكال، أى أنه سبحانه ينكل بهم و ينتصر عليهم.

روى المفسرون أنه لما نزلت سورة براءة دفعها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى أبى بكر ليذهب إلى الحج فيقرأها على المشركين، فلما مضى بعض الطريق جاء جبرئيل عليه السلام إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و قال له: إن السورة لا يبلغها إلا أنت أو رجل من أهل بيتك، فأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عليا أن يخرج و يأخذها من أبى بكر، فرجع أبو بكر و ذهب على عليه السلام و قرأ السورة على الكفار فى منى ثلاثة أيام، يوم العاشر من ذى الحجة، و الحادى عشر، و الثانى عشر منه، فكان يخرط سيفه و يقول: لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، و لا يدخل البيت إلا مؤمن، و لا يطوف بالبيت عريان، و من كانت بينه و بين رسول الله مدة فإن أجله إلى أربعة أشهر (١).

و لما أعلم الكفار بذلك، أظهروا تبرؤهم، فلم تبق صلة بينهم، و قد كان هذا العمل خطرا، حيث أن الكثرة الغالبة من الحجاج كانوا مشركين، فالاصطدام بهم بهذه الصورة الخشنه كان مظنة الإيقاع بالإمام عليه السلام لكن الله سبحانه عصمه عن ذلك، و قد كان نزول سورة براءة فى السنة التاسعة من الهجرة، بعد فتح مكة، و فى العام القابل حج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حجة الوداع، و لما أن رجع عن الحج نصب عليا

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٦

[سورة التوبة (٩): آية ٣]

وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا
أَنَّكُمْ عَنِ اللَّهِ مَعْزِيٌّ وَ بَشِيرٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ (٣)
خليفة في غدیر خم، و قبض في شهر صفر من تلك السنة.

[٣] وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى إعلام منهما إلى الناس من المسلمين و المشركين يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ وَ هو يوم النحر، مقابل الحج الأصغر الذى هو العمرة، و سمي بالأ-كبر لأن أعماله أكثر، و إنما كان يوم النحر يوم الحج الأكبر لأن طواف الحج الذى هو أعظم أعماله يأتى فيه، و يحتمل أن يراد بذلك جميع أيام الحج، كما يقال: يوم الجمل، و يوم صفين، و يراد به الحين و الزمان الذى وقعت فيه هذه الحوادث.

و المعنى أن الله و رسوله يعلنان فى هذا الوقت أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فلا علاقة له بهم، و لا عهد له معهم وَ رَسُولِهِ أيضا برىء منهم. و قد تقدم أن ذكره سبحانه هو الأصل، و ذكر الرسول للا-حترام و لأنه المنفذ المواجه فَإِنْ تُبْتُمْ أى رجعتم عن الشرك أيها المشركون فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فى دنياكم حيث تسودون و تبقون مرفهين وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أى عرضتم عن الإيمان و بقيتم على الشرك فَأَعْلَمُوا أنكم فى معرض عقاب الله و عذابه وَ أَنَّكُمْ عَنِ اللَّهِ مَعْزِيٌّ أى لا تتمكنون من أن تعجزوه و تغلبوه، بل هو ينتصر عليكم و يهلككم و يخزيكم وَ بَشِيرٌ يا رسول الله الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ فى الدنيا و الآخرة. و تسمية الإنذار بشاره، من باب الاستهزاء، و ذكر الضد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٧

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤ الى ٥]

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ
(٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ أَخْضِرُوهُمْ وَ أَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

مكان الضد، كما يسمى الزنجى: كافورا، و الأعمى: بصيرا، و لبيان أن العذاب يأتى مكان انتظار البشارة، فإن الكفار كانوا ينتظرون بأعمالهم عاقبه حسنة فإذا بها عذاب و نكال.

[٤] ثم استثنى سبحانه من براءته من المشركين و انتهاء معاهدتهم إلى أربعة أشهر، المعاهدين الذين وفوا بالعهد إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ أيها المسلمون معهم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا أى لم ينضموا إلى أعدائكم حتى يكونوا ظهيرا لهم عليكم فَأَتِمُوا أيها المسلمون إِلَيْهِمْ و إنما قال: «إليهم» كأن الإتمام يتدئ من المسلمين و ينتهى إلى أولئك عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ المضروبة لهم، فهم فى مدة عهدهم آمنون لا يحاربون إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ الذين يتقون نقض العهد.

و قد كان جماعة من المشركين كذلك بقوا أوفياء على عهدهم كبنى كنانة و بنى حمزة، و قد كانت مدتهم تسعة أشهر، و كأهل هجر و البحرين و إيلاء و دومة الجندل الذين كانت للرسول صلى الله عليه و آله و سلم معهم مصالحت.

[٥] فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ أى مضت الأشهر الأربعة التى أبيض للناكثين أن يسيحوا فيها، و التى تنتهى بانتهاء عشرة أيام من ربيع الأول. و معنى الانسلاخ: المضى، كما ينسلخ الجلد عن الشاة، فتبدو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٨

[سورة التوبة (٩): آية ٦]

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

عاريه ظاهرة، تشبيها للأشهر الحرم بالجلد الواقى لما بعدها من الأيام فأقتلوا المشركين حيث وجدتموهم فقد رفعت الهدنة والعهد بما نقضوا من العهود. وليس المراد قتل كل فرد فرد، بل المراد وقوع المقاتلة، وأنهم في حكم المحارب، والمراد من «حيث وجدتموهم» أينما كانوا في حل أو في حرم، فإن الحرم محترم لمن احترامه، أما من لم يحترمه فليس بمحترم فيه وخذوهم أى خذوا من تمكنتم من أخذه، والأخذ للقتل أو الحبس أو الاسترقاق وأحصيروهم امنعوهم عن التصرف فى حوائجهم وأقعدوا لهم كل مزيده كل محل للرصد والتطلع كقلل الجبال، والمضايق، وقوارع الطرق فإن تابوا عن كفرهم وأفاموا الصلاة وآتوا الزكاة أى التزموا بشرائط الإسلام، فإن إظهار مجرد الإيمان بدون الرضوخ للأحكام والاستعداد لامتنال أوامر الله والرسول، لا يعد إلا لقلقة لسان فخلوا سبيلهم دعوهم يتصرفون فى البلاد، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لأنهم أصبحوا من زميرتهم إن الله غفور لذنوبهم رحيم بهم يتفضل عليهم بلطفه.

[٦] وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الذى أمرتك بقتاله بعد انسلاخ الأشهر الحرم استجارك أى استأمنك، بأن طلب الأمان منك ليسمع دعوتك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٩

[سورة التوبة (٩): آية ٧]

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسِيئْتُمْ أَن لَّهُمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)

فأجزه وأعطه الأمان حتى يسمع كلام الله وحيث أن كلام الرسول هو الوحي، كما قال سبحانه: إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى (١)، كان كلامه صلى الله عليه وآله وسلم كلام الله تعالى ثم إن أسلم، كان له ما للمسلمين، وإن لم يسلم فأبلغه مأمنه أى أرجعه إلى محل أمنه، بأن يكون فى حمايتك حتى يبلغ مكانه، لئلا يغدر به فى الطريق، وهذا كان كافرا حربيا، بعد عدم قبوله الإسلام إلا أنه حيث جاء لغرض صحيح، لا يجوز قتله حتى يبلغ مأمنه ذلك الأمان لمريد فهم الإسلام بسبب أنهم قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ حقيقة الإسلام، فهذا الأمان سبب لدخول بعضهم فى الإسلام.

[٧] ثم بين سبحانه وجه تبرؤ الرسول من العهود بعد أربعة أشهر بقوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ وَقَدْ غَدَرُوا وَظَاهَرُوا الْأَعْدَاءَ، وَهَلِ الْعَهْدُ يَبْقَى مَعَ ذَلِكَ؟ وَقَدْ كَانَ ضَرْبُ الْمُدَّةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْغَادِرُونَ أَنْ يَجْهَزَ عَلَيْهِمْ فَوْرَ غَدْرِهِمْ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مَعَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَغْدَرُوا، وَكَانَ اسْتِنَاؤُهُمْ وَحْدَهُمْ دُونَ سِوَاهُمْ، وَقَدْ كَانُوا كَثِيرِينَ - كَمَا عَرَفْتُمْ - لِأَنَّهُمْ «الْفِرْد» الظاهر السابق إلى الذهن، والمراد بأولئك: هم قبائل بكر،

(١) النجم: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٠

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨ إلى ٩]

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩)

بنو خزيمه و بنو مدلج و بنو حمزة، فقد دخلوا فى عهد قريش يوم الحديبية - اليوم الذى عاهد رسول الله قريش قرب الحرم - وهؤلاء لم ينقضوا العهد، فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بإتمام مدتهم وفاء للعهد فما استقاموا لكم أى مدة استقامة المشركين الذين لم ينقضوا العهد معكم، بأن لم تظهر منهم أمارات الغدر والخيانة فاسيتقيموا لهم وابقوا على عهدكم معهم إن الله يحب المتقين

الذين يتقون نقض العهد و خلف الوعد.

[٨] كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ، وَ تَتَوَرَّعُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا وَ يَظْفَرُوا عَلَيْكُمْ وَ يَتَمَكَّنُوا مِنْكُمْ لَا يَزُقُّبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةٌ أَى لَا يَحْفَظُوا وَ لَا يَرَعُوا فِيكُمْ قِرَابَةً وَ لَا عَهْدًا، فَإِنَّ «الِإِلَّ» بِمَعْنَى الْقِرَابَةِ، وَ «الذِمَّةُ» بِمَعْنَى الْعَهْدِ، أَوْ «الِإِلَّ» بِمَعْنَى الْحَلْفِ، أَى تَذَهَبُ الْمُحَالِفَاتُ وَ الْعَهْدُ بِمَجْرَدِ أَنْ يَتَمَكَّنَ هَؤُلَاءُ مِنْكُمْ يُرْضُونَكُمْ هَؤُلَاءِ الْمَعَاهِدُونَ بِأَقْوَاهِهِمْ فَيَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِ الْمَوَالِينِ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ حَبْكَمْ وَ وِلَاءَ كَمْ، بَلْ هِيَ مَلِيئَةٌ بِغَضَا وَ عِدَاوَةٍ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ خَارِجُونَ عَنِ الْعَهْدِ وَ الْمَوَاتِقِ، فَإِنَّ الْفَسْقَ بِمَعْنَى الْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ.

[٩] اشْتَرَوْا هَؤُلَاءِ النَّاكِثُونَ بِمَقَابِلِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي كَانَ الْمَفْرُوضُ الْإِيمَانَ بِهَا ثَمَنًا قَلِيلًا فَقَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الدِّينِ فِي مَقَابِلِ دُنْيَا قَلِيلَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧١

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠ الى ١٢]

لَا- يَزُقُّبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا- وَ لَا ذِمَّةٌ وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نَفَّضُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَ إِنْ نَكُنُوا أَيْمَانُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِيَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)

زائلة تحفظوا عليها فصّدوا أى منعوا الناس عن سبيله أى سبيل الله تعالى إنهم ساء ما كانوا يعملون أى بشس عملهم ذلك.

[١٠] لَا يَزُقُّبُونَ لَا يَرَاعُونَ وَ لَا يَحْفَظُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةٌ وَ هَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، أَى أَنَّهُمْ لَا يَرَاعُونَ قِرَابَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لَا عَهْدَهُمْ، بَلْ إِنْ ظَفَرُوا بِهِمْ قَتَلُوهُمْ وَ انْتَقَمُوا مِنْهُمْ وَ أَوْلِيكَ الْكُفَّارُ النَّاقِضُونَ لِلْعَهْدِ هُمُ الْمُعْتَدُونَ الْمَجَاوِزُونَ لِلْحُدُودِ، حَيْثُ لَمْ يَرِاقِبُوا الْعَهْدَ.

[١١] فَإِنْ تَابُوا عَنِ الْكُفْرِ وَ قَبِلُوا الْإِسْلَامَ وَ خَضَعُوا لِأَمْرِهِ بِأَنْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ تَمَكَّنَ مِنْهَا فَهِيَ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَهُمْ مَا لَكُمْ، وَ عَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ وَ نَفَّضُ الْآيَاتِ نَمِيزُهَا وَ نَبِيئُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أَى لِأَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا لِالْجَهْلَةِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا.

[١٢] وَ إِنْ نَكُنُوا أَى نَقَضُوا أَيْمَانَهُمْ أَى عَهْدَهُمْ وَ الْإِيمَانَ الَّتِي حَلَفُوا بِعَدَمِ الْإِعْتِدَاءِ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ مَعَكُمْ، وَ هَذَا كَالْتَذْكَيرِ بِشِيعَةِ عَمَلِهِمْ، وَ إِلا فُكِّلَ نَكَثٌ يَكُونُ بَعْدَ الْعَهْدِ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ أَى أَخَذُوا بِقُدْحُونَ وَ يَعْيَبُونَ دِينَكُمْ فَقَاتِلُوا أَيُّهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٢

[سورة التوبة (٩): آية ١٣]

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكُنُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدُّوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَلَا تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) الْمُسْلِمُونَ أَلِيَّةَ الْكُفْرِ «أَلِيَّةَ» جَمْعُ إِمَامٍ، وَ هُمْ قَادَةُ الْكَافِرِينَ، وَ إِذَا خَصَّصَهُمُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ الْمَضْلُونَ لِأَتْبَاعِهِمُ الَّذِينَ إِنْ اسْتَأْصَلُوا ذَهَبَتْ شَوْكَةُ الْكَافِرِينَ.

وَ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ الْأَوَّلَى قَصْدُ مَرَاكِزِ انْتِشَارِ الْكُفْرِ وَ مَعَادِنِهِ إِنْهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ أَى أَنَّ أَلِيَّةَ الْكُفْرِ لَا يَحْفَظُونَ الْعَهْدَ وَ الْإِيمَانَ وَ لَا وِفَاءَ لَهُمْ بِهَا لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أَى قَاتَلُوهُمْ لِكَيْ يَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ.

[١٣] ثُمَّ حُتَّ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِهِمْ بِقَوْلِهِ: أَلَا تَقَاتِلُونَ أَى هَلَّا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكُنُوا أَيْمَانَهُمْ وَ نَقَضُوا، وَ هَذَا لَا يَنَافَى قَوْلُهُ: «لَا أَيْمَانَ لَهُمْ» فَإِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَا يَحْفَظُونَهَا، وَ مَعْنَى هَذَا أَنَّهُمْ عَقَدُوهَا. وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُمْ عَقَدُوا الْإِيمَانَ وَ لَكِنْ نَقَضُوا وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ حِينَ تَأْمَرُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ لِإِخْرَاجِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ.

وَ لَعَلَّ ذِكْرَ ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ هَمُّوا بِقِتَالِهِ أَيْضًا، أَوْ قَعَّ فِي النَّفْسِ، وَ أَبْلَغَ فِي التَّحْرِيطِ وَ الْحَثِّ، لِأَنَّ الْإِخْرَاجَ الَّذِي قَصَدَهُ الْمُتَأْمِرُونَ كَانَ أَسْوَأَ مِنَ الْقِتْلِ، فَإِنَّهُمْ قَصَدُوا إِخْرَاجَهُ حَتَّى يَمُوتَ فِي بَيْدَاءِ خَالِيَةٍ مِنَ الْمَاءِ وَ الطَّعَامِ، أَوْ الْمَرَادُ بِالْإِخْرَاجِ: إِخْرَاجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمُ بِالْإِثْبَاتِ أَوْ الْقِتْلِ أَوْ النَّفْيِ وَ هُمْ بَدُّوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَإِنَّهُمْ ابْتَدَعُوا بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَ إِيْدَانَهُمْ وَ الصَّدْعَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ.

إن كل هذه الأمور الثلاثة مما يبيح لكم قتالهم، فلما ذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٤ إلى ١٦]

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)

لا تقاتلونهم أيها المسلمون؟ أم تخشونهم أي هل تخشون هؤلاء الكفار أن تصيبكم منهم أذية؟ فالله أحق أن تخشوه فإنكم إن تركتم قتال هؤلاء عدبكم الله سبحانه، فهو أحق بالخشية من هؤلاء إن كنتم مؤمنين بالله و بما جاء به الرسول، أما غير المؤمن فلا يعتقد بعقاب الله سبحانه و لذا لا يخشاه.

[١٤] قَاتِلُوهُمْ أَي قَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنْ تَقَاتَلْتُمُ الْكُفَّارَ بِاللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَيُخْزِهِمْ أَي يذلهم و يحطم شوكتهم وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَكُونَ كَلِمَتُكُمْ هِيَ الْعُلْيَا وَ تَكُونَ الْغَلْبَةُ لَكُمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ صَدُورَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَتْ مَمْلُوءَةً غِيظًا وَ كَمَدًا، وَ كُلٌّ مِنْ أَنْتَصَرَ شَفَى صَدْرَهُ وَ ذَهَبَتْ فَرَحُهُ النَّصْرَ بَغِيظِهِ.

[١٥] وَيُذْهِبُ اللَّهُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ الَّذِي تَجْمَعُ فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ مَا رَأَوْا مِنَ الْإِضْطِهَادِ وَ الظلم وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إِذَا آمَنُوا مَعَ فِرطِ تَعَدِّيهِمْ وَ عَتْوِهِمْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالصَّلَاحِ حَيْثُ يَأْمُرُكُمْ بِقِتَالِ هَؤُلَاءِ، فَلَا يَأْمُرُ بِإِعْتَابِ حَكِيمٍ فَأَمْرُهُ عَنِ حِكْمَةٍ وَ دَرَايَةٍ.

[١٦] أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا «أَمْ» أَدَاءُ اسْتِفْهَامٍ وَ عَطْفٍ، فَقَدْ عَطَفْتَ هَذِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٧]

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)

الجملة على قوله: «الآن تقاتلون» أي: هل ظننتم أيها المسلمون أن تتركوا آمنين في دياركم من دون أن تكلفوا الجهاد في سبيل الله سبحانه؟ و لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ «لَمَّا» حَرْفُ نَفْيٍ مَعَ تَقْرِيبِ وَقُوعِ الْفِعْلِ الَّذِي لَمْ يَقْعْ بَعْدَ، أَي لَمْ يَتَعَلَّقْ عِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْمُجَاهِدِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْكُمْ جِهَادٌ، حَتَّى يَكُونَ عِلْمُ اللَّهِ وَاقِعًا خَارِجِيًا، فَإِنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يَكُونُ خَارِجِيًا، إِذَا وَجَدَ مَتَعَلِّقَهُ، فَإِذَا عِلْمُ الْإِنْسَانِ أَنْ زِيدًا سَيَجِيءُ غَدًا، يُقَالُ: لَمَّا يَعْلَمُ فُلَانٌ مَجِيءَ زَيْدٍ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَقْعْ مَتَعَلِّقَ عِلْمِهِ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهَّةٍ «الوليجه» هِيَ الْبَطَانَةُ الَّتِي يَخْفَى الْإِنْسَانُ لَدَيْهَا أَسْرَارَهُ، كَأَنَّهُ يَلْجَأُ فِيهَا بِسَرِهِ، فَإِنْ حَبَّ الشَّخْصَ لَا يَمْتَحَنُ فِي أَيَّامِ الرِّخَاءِ، وَ إِنَّمَا يَمْتَحَنُ فِي أَيَّامِ الشَّدَةِ وَ الْبَلَاءِ، فَالصَّدِيقُ لَا يَتَّخِذُ غَيْرَ صَدِيقِهِ وَ لِيَجَهَّةٍ، بِخِلَافِ الضَّعِيفِ الصَّدَاقَةِ.

و لذا نرى أن كثيرا من المسلمين اتخذوا الولائج، و بدت ضمائرهم السيئة عند الجهاد و الله خبير أي عليم بما تعملون أيها المسلمون. و الحاصل أنه لا بد من امتحانكم أيها المسلمون بالجهاد ليتبين المجاهد منكم من غيره، و يتبين الذي يخلص في النية لله و الرسول، من غيره.

[١٧]

روى أن المسلمين عيروا أسرى بدر، و وِيخ على عليه السلام العباس بن عبد المطلب بقتال رسول الله و قطيعة الرحم. فقال العباس: تذكرون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٥

[سورة التوبة (٩): آية ١٨]

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

مساوتنا و تكتمون محاسننا. فقالوا: أولكم محاسن؟ قالوا: نعم، إنا نعلم المسجد الحرام، و نحجب الكعبة، و نسقى الحجيج، و نفك العاني «١». فنزلت هذه الآيات

: ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ سِوَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَوْ غَيْرِهِ حَالِ كَوْنِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أَى حَالِ شَهَادَتِهِمْ بِكُفْرِ أَنْفُسِهِمْ، فكيف يجتمع الإذعان لله و الكفر بآياته، إنك إن أهنت شخصا و عمّرت داره كان تعمير داره سيئة لا حسنة، فكيف يمكن الافتخار بأنه من المحاسن؟

و معنى «ما كان»: أنه ليس لهم ذلك. و لعل وجه الارتباط أنه لما نهى المشركون عن زيارة البيت بين سبحانه السبب، بأن الشرك و عمارة المسجد - ماديا و معنويا - لا يجتمعان.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ أَى بطلت فلا- قيمة لحسناتهم التي يزعمون أنها حسنة، فإن الحسنه لا تقبل إلا مع الإسلام و الإخلاص و فى النار هم خالدون أبد الأبدين، بمعنى أنهم لو ماتوا كافرين لم تنفعهم الحسنه فى نجاتهم من النار.

[١٨] إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ بِنَاءِهَا وَإِقَامَةَ الْعِبَادَةِ فِيهَا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بِأَنْ أَقْرَبَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَ اعترف بيوم القيامة، إنه هو الذى

(١) بحار الأنوار: ج ٤١ ص ٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٦

[سورة التوبة (٩): آية ١٩]

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَشْرَتُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)

يجوز له تعمير المسجد، و هو الذى يقبل منه و أقام الصلاة بمعنى التزم بشرائع الإسلام، فإن الاعتراف اللفظى بدون الخضوع و الانصياع لأوامر الإسلام لا- يعد إلا لقلقه لسان و آتى الزكاة بالنسبة إلى من وجدها و لم يخش إلا الله أى خشية من نوع الخشية التوحيدية، فإن المشرك يخشى من إلهين، و المؤمن يخشى من إله واحد. و ليس النفي مطلقا كما هو واضح، قال سبحانه بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم وَ تَخَشَى النَّاسَ «١»، فعسى أولئك أى لعل الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و التزموا بشرائطه أن يكونوا من المهتدين أى فى زميرتهم، و إنما قال «فعسى» لأن المرء لا يعرف مستقبله، فربما كان مؤمنا عاملا، ثم ينقلب كافرا، فلا يكون من المهتدين - بما للكلمة من معنى -.

[١٩] أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ «السقاية» مصدر سقى الماء، و «الحاج» بمعنى القاصد إلى مكة، بعد ما كان فى اللغة بمعنى مطلق القصد و عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ تعميرا بالبناء، أو بالعبادة، و الأول هنا أقرب كَمَنْ آمَنَ الاستفهام إنكارى، و فى الكلام حذف تقديره «أهل سقاية» أى ليس الساقى العامر للمسجد الحرام كالمؤمن بالله و اليوم الآخر و ذلك لأن الإيمان هو أصل الفضائل، أما السقاية و العمارة

(١) الأحزاب: ٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٧

فهما أمران شكليان، إذا لم تنضم إليهما روح الإيمان لن ينفعا شيئا و جاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمته سبحانه لا يشترطون عند الله أولئك و هؤلاء و الله لا يهدي الظالمين فإن من ظلم نفسه بالكفر لا يكون مهديا، فلا يكون عمله عن اهتداء حتى يترتب عليه

فضل.

روى أن العباس وشيبه أنهما تفاخرا، فمر بهما أمير المؤمنين على عليه السّلام فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقايه الحاج. وقال شيبه: أوتيت عمارة المسجد الحرام. فقال على عليه السّلام: استحيت لكما، فقد أوتيت على صغرى ما لم تؤتيا. فقالا: وما أوتيت يا على؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله، فقام العباس مغضبا يجر ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به على؟ فقال:

ادعوا لى عليا فدعى له، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ما حملك على ما استقبلت به عمك فقال: يا رسول الله صدمته بالحق فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض. فنزل جبرائيل عليه السّلام فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عليهم «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ..».

فقال العباس: إنا قد رضينا «ثلاث مرات» (١).

وقد كانت سقايه الحاج عبارة عن تهيئه دلاء و أواني قبل الموسم فتملاً ماء من بئر زمزم، فإذا جاء الحجاج سقوا منها، حيث أن البئر

(١) بحار الأنوار: ج ٣٦ ص ٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٨

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)

كانت لا تتحمل اجتماع خلق كثير عليها.

[٢٠] الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَجْلِ الْإِسْلَامِ وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنْ تَحْمِلُوا الْمَشَاقَّ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَبَدَلُوا الْمَالَ وَ النَّفْسَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَ إِنْ سَقُوا الْحَجَّاجَ وَ عَمَرُوا الْمَسْجِدَ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ الظَّافِرُونَ الْمَفْلِحُونَ.

[٢١] يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ أَي مِنْ عِنْدِهِ. وَ الْإِيمَانُ بِكَلِمَةِ «مِنْهُ» لِتَعْظِيمِ قَدْرِ الْبَشَارَةِ وَ رِضْوَانٍ أَي رِضَا سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ، وَ هُوَ أَعْظَمُ بَشَارَةٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْمَلِكَ - مَثَلًا - رَاضٍ عَنْهُ كَانَ مَرْتاحَ الضَّمِيرِ مَسْرورَ الْخَاطِرِ، أَمَا إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ غَاضِبٌ عَلَيْهِ كَانَ بِالْعَكْسِ، وَ إِنْ أَغْدَقَ عَلَيْهِ فِي الْعَطَاءِ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا أَي فِي تِلْكَ الْجَنَّاتِ نَعِيمٌ مُّقِيمٌ دَائِمٌ لَا يَزُولُ وَ لَا يَتَحَوَّلُ.

[٢٢] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا فَالْجَنَّاتِ وَ النِّعِيمِ كِلَاهِمَا خَالِدَانِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَلْيَرْغَبِ الرَّاعِبُونَ فِيهِ.

[٢٣] وَ حَيْثُ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَ جُوبَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَ الْهَجْرَةَ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ لِأَجْلِهِ، بَيَّنَّ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَقْرَبِ الْعِلَاقَاتِ إِلَى نَفْسِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٩

[سورة التوبة (٩): آية ٢٤]

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

لأجله تعالى فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آبائكم و إخوانكم و أزواجكم و إخوانكم و أموالكم و تجارتكم و مساكينكم و ما كسبتموه أحب إليكم من الله و رسوله و جهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره و الله لا يهدي القوم الفاسقين (٢٤)

معاشرتهم في الظاهر لقوله سبحانه: و صاحبهما في الدنيا معروفاً (١)، إن استحبوا الكفر على الإيمان أي آثروا الكفر و اختاروه و من

يَتَوَلَّوْهُمْ أَى الْآبَاءِ وَ الْإِخْوَانَ مِنْكُمْ فَيَقْدَمُ عَلَيْهِمْ عَلَى وَلايَةِ اللَّهِ وَ الرُّسُولِ وَ الْمُؤْمِنِينَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ أَوْجَبُوا لَهَا خِزْيَ الدُّنْيَا وَ عَذَابَ الآخِرَةِ.

وَ فِى بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: إِنْ الْآيَةُ وَرَدَتْ فِى «حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ» «٢» فَإِنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ فَتْحَ مَكَّةَ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِكَتْمَانِ الْأَمْرِ حَتَّى يَفَاجِئَ الْمُسْلِمُونَ الْكُفْرَانَ وَ لَا تَرَأَى الدَّمَاءَ، فَكَتَبَ حَاطِبٌ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِخَبْرِ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَطْلَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْخَبْرِ، فَوَبَّخَ حَاطِبًا ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَ أَرْجَعَ الرُّسُولَ الَّذِى كَانَ بِيَدِهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ كَمَا أَرَادَ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ عَدَمِ وَصُولِ الْخَبْرِ إِلَيْهِمْ، وَ قَدْ قَالَ حَاطِبٌ مُعْتَذِرًا أَنْ لَهُ أَهْلًا فِى مَكَّةَ فَخَافَ أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ لَهُ يَدٌ عَلَى الْكُفْرَانِ، وَ يَسْلَمُ أَهْلُهُ مِنْ عِقَابِهِمْ وَ عَذَابِهِمْ.

[٢٤] ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ مِيزَانَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَنْ يَرْجَّحَ

(١) لِقَمَان: ١٦.

(٢) رَاجِعِ مَجْمَعَ الْبَيَانِ: ج ٥ ص ٣٠.

تَقْرِيبُ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ٣٨٠

الْمُؤْمِنِ كَفَّةِ الْإِيمَانِ عَلَى جَمِيعِ الشُّوُونَ وَ الْإِعْتِبَارَاتِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ: إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ الْإِخْوَانُ وَ الْأَحْفَادُ وَ إِخْوَانُكُمْ الْأَعْمَى مِنَ الْأَخْوَاتِ وَ أَزْوَاجُكُمْ اللَّاتِي عَقَدْتُمْ عَلَيْهِنَّ وَ عَشِيرَتُكُمْ أَقْرَابَكُمْ غَيْرَ مِنْ ذَكَرُوا، كَالْأَعْمَامِ وَ الْأَخْوَالِ وَ مِنْ أَشْبَهَهُمَا وَ أَمْوَالُ أَقْرَبَتُمُوهَا جَمَعْتُمُوهَا وَ كَسَبْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا تَخْشَوْنَ أَنْ تَكْسُدَ وَ لَا تَدَارَ، إِنْ اِشْتَغَلْتُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ مَسَاكِينَ تَرْضَوْنَهَا بِأَنْ تَحْبُونَ الْمَقَامَ فِيهَا، سِوَا مَا كَانَتْ بِلَادًا أَوْ بِيوتًا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ وَ أَقْرَبَ إِلَى نَفْسِكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَ طَاعَةِ رَسُولِهِ وَ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ أَى سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ تَرْجِيحِ رِضَاهِ سَبْحَانَهُ أَوْ رِضَا رَسُولِهِ وَ بَيْنَ ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ لَدَيْكُمْ مِنْ مَالٍ وَ قَرَابَةٍ قَدِمْتُمُوهَا عَلَيْهَا فَتَرَبَّصُوا أَنْتَظَرُوا. وَ هَذَا تَهْدِيدٌ، أَى أَنْتَظَرُوا الْعِقَابَ فَإِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ. وَ كَيْفَ يَدْعَى الْإِنْسَانُ الْإِيمَانَ وَ هُوَ يَقْدَمُ تِلْكَ الْأُمُورَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فَإِنَّكُمْ لَا خَيْرَ فِيكُمْ، وَ إِنَّمَا يَأْتِي بِأَمْرِ اللَّهِ غَيْرِكُمْ، كَمَا يَقَالُ: «إِنْ كُنْتَ لَا تَفْعَلُ هَذَا فَانْتَظِرْ حَتَّى يَأْتِيَ غَيْرُكَ لِيَفْعَلَهُ»، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ غَنَى عَنْكُمْ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَنْفِذَ أَوْامِرَهُ بِوَسْطَةِ أَنْاسٍ غَيْرِكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي

تَقْرِيبُ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ٣٨١

[سورة التوبة (٩): آية ٢٥]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥)

الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ فَإِنَّ مِنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِالْفُسْقِ، بَعْدَ الْعِلْمِ وَ الْعِرْفَانِ، يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَلْطَفُ بِهِ سَبْحَانَهُ الْطَافَهُ الْخَاصَّةَ.

[٢٥] ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ مُصَدِّقًا مِنْ مُصَادِقِ إِيْتَانِ اللَّهِ بِأَمْرِهِ، بَعْدَ مَا اخْتَارَ الْمُسْلِمُونَ الْحَيَاةَ، وَ فَرَّوْا مِنَ اللَّهِ وَ الرُّسُولِ، فِي وَقْعَةِ «حُنَيْنٍ» الَّتِي كَانَتْ قَرِيبَةً إِلَى مَشَاعِرِهِمْ وَ أَفْكَارِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ. وَ قِصَّةُ هَذِهِ الْغَزْوَةِ بِإِخْتِصَارٍ:

أَنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ خَافَ الْكُفْرَانَ الَّذِينَ كَانُوا مُبْتَوِّثِينَ فِي الْجَزِيرَةِ أَنْ يَأْتِيَ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَى آخِرِهِمْ فَاجْتَمَعَ هُنَاكَ جَمُوعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ هَوَازِنَ وَ غَيْرِهَا رُبَّمَا بَلَغَ عِدَّتُهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَ سَاقُوا مَعَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَ نِسَاءَهُمْ وَ ذُرَارِيَهُمْ وَ مَرُّوا حَتَّى بَلَغُوا «أَوْطَاسَ» يُرِيدُونَ قِتَالَ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَبَلَغَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خَبَرَ اجْتِمَاعِهِمْ هُنَاكَ، فَجَمَعَ الْقَبَائِلَ وَ رَعْبَهُمْ فِي الْجِهَادِ وَ وَعَدَهُمُ النَّصْرَ وَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ أَنْ يَغْنَمَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَ نِسَاءَهُمْ وَ ذُرَارِيَهُمْ، فَرَغِبَ النَّاسُ وَ خَرَجُوا كُلُّ قَبِيلَةٍ وَ فِئَةٍ تَحْتَ رَايَةٍ، وَ عَقَدَ الْوَأَاءَ الْأَكْبَرَ لِلْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ خَرَجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي اثْنِي

عشر ألف رجل.

فلما صلى الغداة انحدر في وادي حنين والجو لا زال مظلمًا، وقد كانت هوازن قد سبقوا المسلمين من الليل وكمنوا في أطراف الجبال، وحنين واد كثير الانحدار، فلما انحدر جيش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الوادي، وقد كان أول من انحدر بنو سليم معهم خالد بن الوليد، وكانوا غافلين عن اختفاء هوازن، وإذا بهم يرشقون بالسهام كقطر المطر من كل جانب دون أن يروا أحداً وظهت كتائب هوازن من كل ناحية، فانهزم بنو سليم، وكسرت بانكسارهم سائر جيوش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و فرأوا صعدا في الجبال والوديان، وبقي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وجماعته يعدون بالأصابع من أولاد العباس وغيرهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٢

وأخذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ينادي: يا معشر الأنصار إني وأنا رسول الله. وقد التفت كتائب هوازن به يريدون قتله والإمام يضرب بالسيف يمنة ويسرة، فلم يبق من المسلمين أحد فقال صلى الله عليه وآله وسلم للعباس: اصعد هذا الطرب و ناد: «يا أصحاب سورة البقرة» و «يا أصحاب بيعة الشجرة» إلى أين تفرون هذا رسول الله؟ وقد كان العباس رفيع الصوت، ثم رفع يده فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، فنزل جبرائيل فقال: دعوت بما دعا به موسى حيث فلق الله له البحر ونجاه من فرعون، ثم أخذ كفا من حصي فرماه في وجوه المشركين قائلاً: «شاهت الوجوه، ثم رفع رأسه إلى السماء و قال: اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد»، فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا و كسروا جفون سيوفهم و هم يقولون: لبيك، و مروا برسول الله و استحيوا أن يرجعوا إليه. فالتحقوا بالراية و نزل النصر من السماء و انهزمت هوازن كانوا يسمعون قعقهة السلاح في الجو، و لما فر الكفار غنم المسلمون غنائم كثيرة من أموالهم و نسائهم و ذراريهم، و قسمها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «١».

أقول: المراد ب «أصحاب سورة البقرة» إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ لِمَنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِّ مُوسَى «٢»، الَّذِينَ طَلَبُوا

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ١٤٩.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٣

جهاد الكفار ثم فلما كتبت عليهم القتال تولوا «١» يعني: أنكم أيها المسلمون صرتم كأولئك، والمراد ب «أصحاب بيعة الشجرة» أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين صلح الحديبية اتكأ على شجرة و بايع المسلمين من جديد، ليمثلوا أوامره، كأنه ما كانت كما قال سبحانه: إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ «٢».

لقد نصيركم الله أيها المسلمون في مواطن كثيرة في بعض الأخبار أنها كانت ثمانين و يوم حنين أي: و نصركم في يوم حنين، و تخصيصه بالذكر لأنه لو لا نصره الله سبحانه لم يكن لهم نصر حسب الظاهر بعد فرارهم و انهزامهم إذ أعجبكم كثرتم فإنه لم يتفق لجيش المسلمين أن يكونوا اثني عشر ألفاً قبل ذلك، و قد قال بعضهم:

لن نغلب اليوم من قله، لما رأوا من كثرتهم المدهشة في الجيش فلم تغن الكثرة عنكم شيئاً أي لم تفدكم الكثرة و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت أي برحبها وسعتها، و «الباء» بمعنى مع، أي مع كونها وسيعه فسيحة ضاقت عليكم، فإن الإنسان إذا خاف، يرى في نفسه ضيق الأرض، بالإضافة إلى أنهم لم يجدوا موضعاً للفرار، لاحتمال وجود العدو في كل مكان ثم وليتم مديبرين أي انهزمت من عدوكم، و أعطيتهم أدباركم للعدو، و قد كان الخطأ من المسلمين

(١) البقرة: ٢٤٧.

(٢) الفتح: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٤

[سورة التوبة (٩): آية ٢٦]

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)

أنهم لم يثبتوا أول الأمر، فإن الثبات أول الأمر خليق بأن يكشف النازلة، كما أنهم أخطئوا حين اغتروا بكثرتهم، فإن الإنسان إذا رأى كثرة من معه تقوى فيه روح الاتكالية، و ذلك خليق بانهمزاه. ثم إن مقدمه الجيش لم تتخذ احتياطاتها اللازمة، فإن دخول مثل هذا الموضوع مما يحيط به الجبال يحتاج إلى إرسال بعض القوات الاستطلاعية.

[٢٦] ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ أَى السكون النفسى الذى يزول الخوف معه، فإن أقوى أسباب الهزيمة فى كل ميدان، تزلزل النفس و عدم اطمئنانها بالنصر، أما إذا قويت النفس على تحمّل المكروه كان الإنسان خليقا بالنصر و عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بقوا معه و لم ينهمزوا.

فقد بقى مع الرسول تسعة من بنى هاشم أولهم أمير المؤمنين عليه السلام كما بقى ابن أم أيمن و قد قتل فى ذلك اليوم، أو المراد: المؤمنين حين رجوعهم إلى الرسول، فإن الجيش الذى يفر إذا فكر فى العاقبة تقوى نفسه بإذن الله سبحانه و أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا فقد أنزل الله سبحانه أفواجا من الملائكة لنصرة المؤمنين. و هذا ليس بغريب، فقد وعد سبحانه بنصرة الملائكة لكل من استقام فكيف بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم قال سبحانه: الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ «١».

و قد ورد: أن رجلا من المشركين قال للمؤمنين، و هو أسير فى أيديهم: أين الخيل البلق و الرجال عليهم الثياب البيض، فإنما كان قتلنا

(١) فصلت: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

بأيديهم و ما كنا نراكم فيهم إلا كهيهة الشامه. قالوا: تلك الملائكة و عَذَّبَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقَتْلِ و الأسر و ذَلِكَ الْعَذَابُ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يكفرون بالله و آياته.

[٢٧] ثُمَّ بعد تمام الأمر يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ من الكفار إذا أسلموا، و ذكر «على من يشاء» لإفادة أن التوبة ليست واجبة، أو المراد: من يشاء من المنهزمين، فإن الفرار من الزحف كبيرة موبقه، و قد شاء سبحانه أن يتوب على المؤمنين دون المنافقين و اللَّهُ غَفُورٌ يستر الذنوب رَحِيمٌ يتفضل بالرحمة عليهم.

[٢٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ النجاسة فى الشريعة هى القذارة التى توجب الغسل للشىء الذى يباشره برطوبة، و هذه النجاسة قد تكون لأضرار خارجية كالبول و الغائط، و قد تكون لأضرار معنوية كالكافر، فإنه و إن كان نظيف الجسم إلا أن معتقده الباطل أوجب الحكم بنجاسته. و ذلك خير وقاية للمسلمين من أن يتلوثوا بعقيدته، فإنهم إذا عرفوه نجسا حتى أنه يجب الاجتناب عنه فى المأكل و الملبس و أنه مهما باشر شيئا برطوبة تنجس فورا منه، اجتنبوا عنه، فلا يتعدى إليهم ما انطوى عليه من العقيدة الباطلة، و هو - بدوره - إذ يعرف أنه عند المسلمين نجس لا بد و أن يسأل عن السبب و يريد إزالة هذه الوصمة، ولدى تحقيق ذلك تظهر له

خرافة معتقده مما يدعوه أن يتركها و يعتقد بالعقيدة الصحيحة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٦

و هناك بعض المتفلسفين يقولون: كيف يحكم بنجاسة إنسان، و لزوم الاجتناب عنه، لمجرد انحراف عقيدته، و هذا مناف لحرية الآراء؟

و الجواب: إنه كيف يحكم بالاجتناب عن إنسان لمجرد أنه مصاب بالجذام و نحوه، لمجرد انحراف مزاج، و هذا مناف لكرامة الإنسان، فإذا كان الخوف على الجسم يبيح الاجتناب فالخوف على الروح أولى بالإباحة.

فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ و المراد: عدم دخوله، و المسجد الحرام من باب المورد،

فإن عليا عليه السلام أمر بحكم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن ينادى: «لا يحج بعد هذا العام مشرك» (١).

و إن قيل: فكيف دخل وفد نجران مسجد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم؟

نقول: إنه قبل نزول هذا الحكم، فإن الأحكام نزلت تدريجا، أما القول بأن النصارى ليسوا بمشركين. فهو خلاف قوله تعالى: سُبْحَانَهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢)، و قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ (٣)، و قوله: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ (٤).

بَعِيدَ عَامِهِمْ هذا فى السنين المقبلة و إن خِفْتُمْ عَيْلَةً أَى فقرا، فقد كان المنع عن المشركين يضر باقتصاد أهل مكة حيث أن كثيرا من

وارداتهم كانت من الحجاج المشركين فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ

(١) وسائل الشيعة: ج ١٣ ص ٤٠٠.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) المائدة: ٧٤.

(٤) المائدة: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٧

[سورة التوبة (٩): آية ٢٩]

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

مَنْ فَضَّلَهُ و قد وفى سبحانه بما وعد، فقد أسلم أهل اليمن و حملوا إليهم الميرة و الطعام عوض المشركين، كما أسلم أهل الآفاق و

حجوا و أغنوا أهل مكة أكثر من إغناء المشركين. أما هذه الأيام فإن آبار الذهب الأسود قد أوصلت مستواهم الاقتصادى إلى علو

مدهش إن شاء للدلالة على أن الأمور بيده سبحانه، و لسوقهم إلى رجائه و السؤال منه و الخضوع و الضراعة إليه.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمِصَالِحِ، فإن منعه عن حج المشركين إنما هو عن علم حكيم يضع الأمور فى مواضعها و يأمر بها حسب المصالح

الكامنة، و إن لم يعرف الناس تلك المصالح فوراً.

[٢٩] قَاتِلُوا أَيها المسلمون الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إيماننا صحيحا، و إن آمنوا به إيمان شرك و نحوه و لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إيماننا صحيحا، و

إن آمنوا به إيماناً منحرفاً، كأهل الكتاب الذين قالوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (١)، و لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ المراد

بالرسول: إما الأعم، فإنهم لا يحرمون المحرمات التى أتى بها موسى و عيسى عليهما السلام، أو الأخص يعنى محمداً صلى الله عليه و

آله و سلم و لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ أى لا يتخذونه ديناً، و المراد به الإسلام مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٨

[سورة التوبة (٩): آية ٣٠]

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزَائِرُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)

وصف ل «الذين لا يؤمنون» حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ هِيَ «فعلته» من «جزى يجزى» مثل «العقدة» و «الجلسة»، و هي عطية مخصوصة، كأنها جزاء لهم على بقائهم على الكفر، أو جزاء للمسلمين عوض حمايتهم لهم، فإن الذمى فى بلاد الإسلام يكون محترم المال و النفس موقر الحرمة و الكرامة عَنْ يَدِ أى يسلمونها بأيديهم، كما يقال: «كلمته وجهها بوجه» وَ هُمْ صَاغِرُونَ أى أذلاء من «الصغار».

إن أهل الكتاب حيث انحرفت عقيدتهم حتى جعلوا الخرافة فى معتقدهم، و حيث حرفوا كتبهم حتى نسبوا الزنا و الكفر و شرب الخمر و القسوة و شبهها إلى أنبيائهم، و حيث هدموا نظم الله سبحانه ليجعلوا مكانها أنظمتهم مخترعة، استحق الإسلام أن يشعرهم بشيء من الذلة ليتركوا الباطل إلى الحق، فإن الإنسان لا- يرضى أن يبقى ذليلاً، لكنه احترامهم حيث أقر بهم و سمح لهم بالبقاء تحت ظله، باحترام اسم الكتاب، و هذا الإذلال لا- ينافى الحرية فى شيء، أ رأيت من ينحرف فى سلوكه أو أخلاق هل يستحق ما يستحقه المستقيم؟ و ليس الميزان فى تقييم الإنسان الذى يراعى جهتى المادة و الروح واقعا، هو النظر إلى صورته البشرية، بل الصورة و السيرة، فمن انحرفت سيرته لم تنفعه صورته.

فهرب بعض المفسرين و من إليهم عن الحكم على طبق هذه الآية أو ما أشبهها خروج عن الواقع الإسلامى، كما هو خروج عن الموازين البشرية الرفيعة التى تجعل للروح قسطا فى تقييم الإنسان كما أن للبدن قسطا.

[٣٠] ثم بين سبحانه طرفا من أقوال أهل الكتاب و افتراءاتهم على الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٩

سبحانه وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزَائِرُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ و بهذا الانحراف خرجوا عن زمرة الموحدين، فإن الله لا يمكن أن يكون له ولد إذ ليس جسما يلد، كما وصف تعالى نفسه بقوله:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ* وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ «١» ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ إِنْ أَسْتَهْتُمْ اخترعت هذا القول بلا استناد إلى كتاب منزل أو دليل مبين. و «أفواه» جمع «فوه»، بمعنى:

الفم يُضَاهِئُونَ أى يشبه قول هؤلاء اليهود و النصارى، فى هذه المقالة قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ يجعلون الله شريكا، فإن كلا القولين تشبيه لا يليق بجلال الله سبحانه، فإن من له شريك إنما هو كمن له ولد فى أنه مخلوق ليس ياله، و إنما كان التشبيه شركا لأن التشبيه يشارك شبهه فى أمر جامع و يفترق عنه فى أمور مميزة، و بذلك يكون مركبا، و المركب ليس ياله مِنْ قَبْلُ و هذا توبيخ لهم، فإن الأنبياء يأتون لقلع جذور الكفر فإذا ارتدت الأمة إلى مقالة الكفار الذين جاء الأنبياء لمحققهم، كانت معرضة عن الأنبياء، و تبين أن كلام الأنبياء لم يؤثر فيهم قَاتَلَهُمُ اللَّهُ دعاء عليهم بالهلاك، فإن المفسد يدعى عليه بالموت ليستريح الناس من شره أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى كيف يصرفون عن

(١) سورة الإخلاص: ٢-٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٠

[سورة التوبة (٩): آية ٣١]

اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

(٣١)

الحق إلى الإفك الذى هو الكذب.

[٣١] ثم بين سبحانه سببا آخر لكفرهم، أنهم أعطوا حق التشريع أى التحليل و التحريم إلى علمائهم، مع العلم أن هذا الحق خاص بالله سبحانه و مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ «١»، اتَّخَذُوا أى اتخذ اليهود و النصارى أخبارَهُمْ جمع «حبر» و هو العالم وَ رُهبَانُهُمْ جمع «راهب» و هو العابد أرباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ أى مع الله، فإن أخذ الغير يعبر عنه «من دون» و إن كان مع الأصل. قال عدى بن حاتم: أتيت رسول الله و فى عنقى صليب من ذهب، فقال لى: يا عدى اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثم انتهيت إليه و هو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: اتَّخَذُوا أخبارَهُمْ وَ رُهبَانَهُمْ أرباباً .. حتى فرغ منها. فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، و يحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال فقلت: بلى قال: فتلك عبادتهم «٢».

أقول الشرك على أربعة أقسام: الشرك فى ذات الله، و الشرك فى صفاته، و الشرك فى أفعاله، و الشرك فى أمره و نهيهِ. فمن قال: إن له شريكا، أو أن صفاته غيره، أو أن قسما من الخلق لسواه، أو أنه يحق الأمر و النهى لغيره، فهو مشرك. و اتَّخَذُوا الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ربا من دون الله و ما أُمِرُوا

(١) المائة: ٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلًّا أَنْ يُمَيَّنَ نُورُهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) إِلًّا لِيُعْتَبِدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ، فقد كان أنبيأؤهم يأمرونهم بذلك لا إله إلا هو أى ليس فى الكون إله غيره سيجانه أى أنزهه تنزيها عَمَّا يُشْرِكُونَ أى عن شركهم، و جعلهم لله شريكا.

[٣٢] و من صفات هؤلاء أنهم يريدون أن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ القرآن الكريم أو أحكامه. و سمي نورا لأنه كما يهتدى بالنور فى الظلمات، كذلك يهتدى بالقرآن فى دروب الحياة المظلمة، فإن النور الظاهر لنفسه المظهر لغيره، كذلك أحكام الله سبحانه و كتابه الحكيم، و معنى إرادتهم إطفائه، أنهم يريدون أن ينطفى فلا يضىء العالم به بأفواههم فكما يطفى النور بالفم بسبب النفخ، فإنهم يريدون إبطال كتاب الله بما يتقولون عليه و يَأْبَى اللَّهُ إِلًّا أَنْ يُمَيَّنَ نُورُهُ أى يمنع الله ذلك إلا أن يظهر أمره، و ذلك بإظهار الكتاب و الإسلام فى جميع المجالات وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ أى حتى مع كرههم و عدم إرادتهم.

[٣٣] و كيف يتمكن هؤلاء من إطفاء نور الإسلام و القرآن و الحال أن الله سبحانه هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ أى محمدا صلى الله عليه و آله و سلم بِالْهُدَى أى مع الهداية و الإرشاد، فإن الرسول حامل مشعل الهدى وَ ب دِينِ الْحَقِّ تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٢

[سورة التوبة (٩): آية ٣٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَ الرُّهبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الدَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) الذى هو الإسلام لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ فيكون هو الدين الوحيد الذى له الغلبة و الحجة على سائر الأديان.

في الأحاديث: إن تأويل هذه الآية عند خروج الإمام المهدي عليه السلام الذي يملأ الأرض قسطاً و عدلاً بعد أن تملأ ظلماً و جوراً «١».

و يكون عند ذلك الإسلام وحده دين العالم لا دين سواه و لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ بأن كرهوا إعلاء هذا الدين على سائر الأديان. [٣٤] ثم بين سبحانه بعض الصفات الذميمة الأخرى لأهل الكتاب بقوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ الْكَلَامَ إِلَيْهِمْ لَأَنَّهُم الَّذِينَ يَصَدِّقُونَ بِذَلِكَ، أما سائر أهل الكتاب فإنهم يكذبون الخبر، و إن علموا به باطناً إن كثيراً من الأخبار و هم علماء أهل الكتاب و الرهبان و هم عبادهم لئلا يكون أموال الناس بالباطل المراد ب «الأكل» التصرف، فإن معظم التصرف لما كان بالأكل غلب على سائر التصرفات بعلاقة الجزء و الكل، و المراد ب «الباطل» بالرشوة و نحوها مما لا يحق لهم أكل الأموال بتلك الصور و يصدون أي يمنعون عن سبيل الله فلا يتركون الناس أن يسلموا و يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم. ثم إن الأخبار و الرهبان يكتزون الذهب و الفضة فليحذر المسلمون

(١) بحار الأنوار: ج ٥١ ص ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٣

[سورة التوبة (٩): آية ٣٥]

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) أن يكونوا مثلهم فيجازوا بجنائهم و ذلك فإن الذين يكتزون الذهب و الفضة أي يجمعونها و لا يؤدون حقوقهما - لا الكنز المصطلح - و لا - يُنْفِقُونَهَا أي الكنوز في سبيل الله كما أمر من إعطاء الزكاة و الخمس فبشرهم بعذاب أليم أي مؤلم موجه، و أتى بالبشارة مكان الإنذار استهزاء من استعمال الضد في ضده.

[٣٥] في يوم أي ذلك العذاب إنما هو في يوم يحمى عليها أي يوقد على تلك الكنوز، فإن الشيء إذا أريد انصهاره إما يوقد تحته أو يوقد فوقه في نار جهنم فهي في النار و توقد عليها النار، حيث تنصهر تماماً فتكوى بها أي بتلك الكنوز المحمأة جباههم جمع «جبهة» و جُنُوبُهُمْ جمع «جنب» و ظُهُورُهُمْ جمع «ظهر»، و إنما خصصت هذه المواضع لأن الجبهة محل الوسم، و الجنب محل الألم، و الظهر محل الحدود. و قيل: لأن صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جهته و طوى عنه كشحه - أي جنبه - و ولّاه ظهره. و يقال لهم في حال الكى تعنيفاً و توبيخاً: هذا ما كنزتم لأنفسكم هذا جزاؤه، حيث لم تنفقوها في سبيل الله فذوقوا ما كنتم تكتزون أي ذوقوا عقابه و وبال و عاقبه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٤

[سورة التوبة (٩): آية ٣٦]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)

[٣٦] و لما أوجب سبحانه قتال الكفار و أهل الكتاب الذين انحرفوا، بين أنه لا يحل القتال في الأشهر الحرم التي هي: ذو القعدة، و ذو الحجة، و محرم، و رجب. فقد قرّر الله سبحانه السلام في هذه الأشهر ليستريح الناس فيها و ليكونوا في أمن، كما قرر السلام في الحرم ليكون مكاناً للسلام، و قد قدم على ذلك مقدمته هي عدة الشهور، و أنها مرتبطة بدورة الفلك إن عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ حسب أمره و تقديره اثنا عشر شهراً محرم، و صفر، و ربيع الأول، و ربيع الثاني، و جمادى الأولى، و جمادى الآخرة، و رجب، و شعبان، و رمضان، و شوال، و ذو القعدة، و ذو الحجة في كتاب الله أي ما كتبه و قرره، و ذلك طبق ناموس خلق الكون حيث دورة الفلك و سير الشمس و القمر، و قد كانت الكتابة يوم خلق السماوات و الأرض فإنه من ذلك اليوم أجرى التيرين المعدلين للشهور و السنوات. و الظاهر من

الأشهر، الأشهر القمرية، لأنها المتبادر لدى الشرع و المتشرعة.

منها أى من تلك الأشهر أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ سَمِيَ الشهر حراما، لحرمة القتل و القتال فيه، و لما له من الاحترام، و قد كان كذلك قبل الإسلام أيضا، حتى أن ولى الدم لو رأى قاتل أبيه لم يهجم عليه بسوء حتى ينقضى الشهر الحرام ذلك الترتيب للأشهر، و الحرم منها الذين القِيَمُ أى الطريقة القويمه المستقيمه، لأنها مطابقه لناموس الخلق و حركة التيرين، و لأن السلام لا بد و أن يسود فتره من الزمن،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٥

[سورة التوبة (٩): آية ٣٧]

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

حتى تهدأ النفوس، و تزول الهموم منها، فإن فترة الأشهر بغير ذلك فإنها لا تلائم الفطرة و الخلق فلا تظلموا فيهن في تلك الأشهر الحرم أنفسكم بخرق حرمتها، فإن خرق حرمتها يوجب عقابا و نكالا.

و قاتلوا أيها المسلمون المشركين كافة من غير فرق بين أقسامهم و أصنافهم، و «كافة» بمعنى الإحاطة، مأخوذة من «كافة الشيء» و هى حرفه، و إذا انتهى الشيء إلى ذلك كف عن الزيادة، و أصل الكف: المنع، و «كافة» منصوبه على المصدر كما يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً أى أن قتالكم لهم إنما هو فى مقابلة قتالهم لكم و أعلموا أن الله مع المتقين فلا تفعلوا فى الحرب ما ينافى التقوى، فإن الله سبحانه مع الذين يتقون معاصيه، و يمثلون أوامره.

[٣٧] لما بين سبحانه حرمة أشهر الحرم الأربعة، ذكر ما كان يفعله الجاهليون حيث كانوا يؤخرون تحريم الشهر الحرام إلى صفر حيثما شاءوا ذلك، فيحرمون صفر و يستحلون المحرم، ثم إذا انقضت حاجتهم أرجعوا الحرام إلى المحرم، و كان يقوم بذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، و كان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذى لا- أعاب و لا أجاب و لا يرد لى قضاء. فيقولون: نعم صدقت، أنسنا شهرا أو أخرنا حرمة المحرم و اجعلها فى صفر، و أحل المحرم. فيفعل ذلك، فإنهم بذلك يريدون القتال فى الحرم، و هذا العمل يسمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٦

«نسيئا» فإن «أنسا» بمعنى آخر، و «النسيء» بمعنى تأخير الشهر الحرام عن وقته.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ فَإِنَّ الْمَشْرِكِينَ كَانُوا كَفَارًا حَسَبَ عَقَائِدِهِمْ حَوْلَ الْإِلَهِ. و اليوم الآخر فتحليل الحرام و تحريم الحلال، زيادة فى الكفر، لأن التشريع لله وحده، فمن شرع فى قبال الله سبحانه فهو كافر و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون «١». و من المعلوم أن الكفر و الإيمان قابلان للزيادة و النقصان يضل به الذين كفروا أى يضل بسبب هذا النسيء الكفار، أما غير الكفار فإنهم لا يتبعون إلا شريعة الله سبحانه فلا ضلال لهم بالنسيء، و معنى «يضل»- بالبناء للمفعول- أن النسيء يسبب انحرافهم عن جادة الهدى يحلونه أى يحلون الشهر الحرام عاماً فى عام فيجعلون المحرم حلالا- و يحرمونه عاماً فيمشون على الأصل فى تحريم شهر محرم، و ذلك حين يحتاجون إلى القتال فى المحرم يحلونه، و يجعلون صفر بدله حراما، و حين لا- يحتاجون إلى القتال يكون المحرم على حاله فى التحريم، و إنما يقدمون الحرام و يؤخرونه ليواطوا أى ليوافقوا، يقال: «واطأ» فى الشعر، إذا قال بيتين على قافية واحدة، و مثله «واطأ» عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ أى ليكون تعداد الحرام بقدر

(١) المائة: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٧

[سورة التوبة (٩): آية ٣٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)

تعداد الحرام الذي جعله الله، فإنهم لا يحلون الشهر الحرام، إلا و جعلوا مكانه شهرا آخر حراما، و هذان عصيانان: تحليل الحرام، و تحريم الحلال زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ فقد زين الشيطان في نظرهم الأعمال السيئة فلازموها و افتخروا بها و الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الذين يصرون على الكفر بعد تبين الحق، فإنه سبحانه لا يطف بهم لطفه الخاص.

[٣٨] و في سياق حكم الجهاد مع الأعراب يأتي دور الكلام حول جهاد الروم، فإنه لما رجع رسول الله من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم، و ذلك في زمان إدراك الثمار فأحبوا المقام في مساكنهم و قريبا من أموالهم، و شق عليهم الخروج إلى القتال، و كان من عادته صلى الله عليه و آله و سلم أن يخفي الغزوة التي يريدتها غالبا، لئلا يعرف العدو فيتخذ أهبته منها فيكثر القتلى، و لذا كان إذا أراد الخروج نحو غزوة في الشمال ذهب مقدارا نحو الجنوب ثم انحنى صوب قصده إلا في هذه الغزوة حيث كانت الشقة بعيدة و العدو كثير، فإنه صلى الله عليه و آله و سلم أخبر أصحابه بذلك ليتأهبوا و يأخذوا حذرهم، و تسمى هذه الغزوة بـ «تبوك» و قد بلغ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن الروم قد جمعوا له أطراف الجزيرة بالشام و أن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنه، و انضمت إليهم لخم و جذم و عامله و غسان من قبائل العرب و قدموا مقدماتهم إلى البقاء. فاستنفر المسلمين لجهادهم، و هنا وجد المنافقون فرصتهم لإظهار نواياهم فأخذوا يخذلون المسلمين، قائلين: «لا تنفروا في الحر» فقد كان الهواء حارا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٨

[سورة التوبة (٩): آية ٣٩]

إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

و قالوا: إن السفر بعيد، فلا طاقة لنا به، و العدو الروم فلا قبل لنا بهم، إلى غير ذلك من الأعذار الواهية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ أَى نَفْعٍ وَ فَائِدَةٍ تَعُودُ إِلَيْكُمْ فِي التَّخَلُّفِ وَ الْعَصْيَانِ؟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ قَالَ لَكُمْ الرُّسُولُ: انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَخْرَجُوا إِلَى مَجَاهِدَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي «تَبُوك» وَ هِيَ مِنْ بِلَادِ الْبِلْقَاءِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ «أَثَاقِلُ» مِنْ تَثَاقُلٍ، مِنْ بَابِ «التَّفَاعُلِ» أَبْدَلَتْ تَأْوَهُ تَاءً، عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمَشْهُورَةِ فِي تَاءِ «التَّفَاعُلِ» وَ «التَّفَعُّلِ» ثُمَّ جَاءَ بِالْهَمْزَةِ لِاسْتِحَالَةِ الْإِبْتِدَاءِ بِالسَّاكِنِ. أَى: مَلْتَمٌ إِلَى الْبِقَاءِ فِي الْأَرْضِ، وَ عَدَمُ الْخُرُوجِ، كَأَنَّ الْجِسْمَ قَدْ ثَقُلَ أَزِيدَ مِنْ وَزْنِهِ الْعَادِي فَكَلَّمَا رَفَعَ جَذْبَهُ ثَقُلَهُ نَحْوُ الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ الْاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِي، وَ «مِنْ» بِمَعْنَى الْبَدَلِ، أَى: هَلْ رَضِيْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَ آتَرْتُمْ الْحَيَاةَ الْفَانِيَةَ الْقَرِيبَةَ بِدَلِّ الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا إِلَّا قَلِيلٌ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَلِيلَةٌ، وَ الْآخِرَةُ كَثِيرَةٌ، فَلَا تَرْجَحُوا الْقَلِيلَ عَلَى الْكَثِيرِ، وَ إِذَا تَرَكْتُمْ الْجِهَادَ فَاتَّكَمْتُمْ تَلَكَّ الْمَنَافِعِ الدَّائِمَةِ الْخَالِدَةِ.

[٣٩] إِلَّا تَنْفَرُوا أَى: إِنْ لَا تَخْرُجُوا إِلَى الْقِتَالِ الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَيْهِ الرُّسُولُ يُعَذِّبُكُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مَوْلَمَا مَوْجَعًا فِي الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِ الْكُفَّارِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٩

[سورة التوبة (٩): آية ٤٠]

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

و في الآخرة بالنار و يستبدل بكم قوماً غيركم فيأتي بمسلمين آخرين مكانكم و بدلكم ينصرون الرسول و يطيعون أوامره، فإن الله على كل شيء قدير و لا تَضُرُّوهُ شَيْئًا لا تضره الله بقعودكم عن القتال شيئاً، فإنه غنى عنكم و عن العالمين، و إنما تضررون أنفسكم و الله على كل شيء قدير فيقدر أن يستبدل بكم غيركم، كما يقدر أن ينصر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بدونكم، كما نصره من ذي قبل حيث لم تكونوا مسلمين أنتم - أيها المتخلفون -.

[٤٠] ثم بين سبحانه إمكانية نصر الرسول بدونهم، بضرب مثل قريب، وهو نصرته على الكفار في مكة حيث أرادوا قتله فأنجاه منهم و أعزه، و أذلهم إِلَّا تَنْصُرُوهُ أَى إن لم تنصروا الرسول في غزو الروم فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ من ذى قبل، و هو قادر على نصره الآن إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا من مكة، و نسبة الإخراج إليهم لأنهم كانوا السبب حين أرادوا قتله ففر من أيديهم ثَانِي اثْنَيْنِ فقد كان حين الفرار هو و أبو بكر، إذ رآه فى الطريق فأخذه كيلا يخبر الناس بخبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فيلحقه الطلب، فإن من عادة الإنسان أن يفشى الأنباء الهامة، و ذكر «ثانى اثنين» لبيان أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان بهذه الغربة حتى أنه لم يكن معه إلا نفر آخر.

فالله القادر على نصره و هو بتلك الغربة و الوحدة، قادر على أن ينصره الآن. و لبيان ذلك جيء بالقيدين الآخرين إِذْ هُمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٤٤٩

الغار «الغار» هو الثقب فى الجبل إِذْ يَقُولُ الرَّسُولُ لِصَاحِبِهِ أَبَى بَكْرٍ: لَا تَخْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا مَطَّلِعٌ عَلَيْنَا، فالإنسان الفار اللاجئ إلى ثقب جبل لا أحد معه إلا شخص واحد يخشى و يخاف و يحزن فيزيده كآبة، كيف نصره الله على أعدائه، إن الله قادر على أن ينصره الآن كما نصره سابقا.

و قد استدل بعض على فضيلة أبى بكر بهذه الآية، لكن لا يخفى ما فيه، فإنها لم تدل إلا على كونه أحد الشخصين، و أنه صاحب، و أنه حزن، و أن الله معهما، و لا دلالة فى شىء من ذلك، فإن الاثنين عدد «و ثانى اثنين» حكاية العدد، و ليس فيما يقتضى الفضل يعد، و الصاحب يطلق على كل مصاحب فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ «١»، و الحزن لم يكن صحيحا و إلا لم ينهه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أَلَا- إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا- خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَخْزَنُونَ «٢»، و الله سبحانه مع كل بر و فاجر ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ «٣»، بل ربما قيل: إن الآية دلت على خلاف الفضيلة إذ قال سبحانه: «عليه» و «أيده» بينما قال فى مكان آخر عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ «٤».

إن هذا البحث له موضع غير هذا الموضع، و إنما المقصود الإشارة إلى عدم حسن أن يقحم فى القرآن الحكيم ما ليس منه ثم جز الآيات إلى الأنظار و الأفكار جزا بدون دلالة أو برهان. فقد ورد الدم لمن فسر القرآن برأيه.

(١) الكهف: ٣٥.

(٢) يونس: ٦٣.

(٣) المجادلة: ٨.

(٤) التوبة: ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠١

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ أَى على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، أَى ألقى فى قلبه ما سكن به، و علم أنه سبحانه ينصره عليهم وَ أَيْدَهُ أَى قَوَى الرسول و نصره بِجُنُودٍ من الملائكة لَمْ تَرَوْهَا أَى ما رأت الكفار إياها، بمعنى عدم كونهم أجساما حتى يروا.

ورد أنه كان رجل من خزاعة يقال له «أبو كرز» اقتفى مع المشركين أثر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ حتى وقف بهم على الغار فقال لهم: هذه قدم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ هى و الله أخت القدم التى فى المقام، و قال: هذه قدم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ هى و الله أخت القدم التى فى المقام، و قال: هذه قدم أبي قحافة أو ابنه ما جاوزوا هذا المكان، إما أن يكونوا قد صعدوا السماء أو دخلوا فى الأرض. و جاء فارس من الملائكة فى صورة الإنس فوقف على باب الغار و هو يقول لهم: اطلبوه فى هذه الشعاب، و كانت العنكبوت نسجت على باب الغار، و أرسل الله زوجا من الحمام حتى باضا فى أسفل الثقب فقال سراقه و كان مع الكفار: لو دخل الغار أحد لانكسر حتما البيض و تفسخ بيت العنكبوت. و دعا النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قائلا: «اللهم أعم

أبصارهم» فعميت أبصارهم عن دخوله وجعلوا يضربون يمينا وشمالا حول الغار و يسوا أخيرا فرجعوا «١». وَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَيْدَهُمْ لِلرُّسُولِ وَ شَوْكَتِهِمُ السُّفْلَى إِذْ تَحَطَّمَتْ وَ فَشَلَتْ فَكَانَتْ فِي الدَّرَجَةِ السُّفْلَى

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١٢٧١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٢

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤١ الى ٤٢]

انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا- وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) وَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا المرترعة المنصورة، و هذا إخبار بأن كلمته و قوله دائما يكونان كذلك. و من الواضح فى التاريخ أن كلمة الله عالية و أنصارها الأعلون، و إن كانت الغلبة لكلمة الكافرين، حتى إن الناس لو كانت سيوفهم مع السلطات الباطلة كانت قلوبهم مع أهل الحق و رأوا أن الحق عندهم و الله عزيرٌ غالب حَكِيمٌ فى تدبيره.

[٤١] انْفِرُوا من «نفر» إذا خرج مسرعا، أى اخرجوا إلى الجهاد خِفَافًا جمع «خفيف» وَ ثِقَالًا جمع «ثقيل»، و الخفة تطلق على قليل العيال، قليل السن و الشيط، و قليل المشاغل، كما أن الثقل عكس ذلك كله، و المراد: جاهدوا و اخرجوا لأجل الحرب كيفما كنتم فى خفة أو ثقل وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ و المجاهدة بالمال:

بذله فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام، و المجاهدة بالنفس: الذهاب للحرب فى سَبِيلِ اللهِ و يسمى جهادا، لأنه من الجهد و التعب ذَلِكَ فى ذلك إشارة، و «كم» للخطاب، أى أن الجهاد- أيها المسلمون- خَيْرٌ لَكُمْ من تركه، فإنه فيه عزّ الدنيا و سعادة الآخرة إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ليس المعنى إن لم تعلموا لم يكن خيرا لكم، بل المعنى إن كنتم تعلمون، لعلمتم أنه خير لكم.

[٤٢] كان المنافقون يرجفون بالمسلمين قائلين: «إن السفر بعيد» فإنها كانت مسافة بعيدة بين المدينة و بين «تبوك» فلا تذهبوا إلى الجهاد. فرد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٣

[سورة التوبة (٩): آية ٤٣]

عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَ تَعَلَّمُوا الكَاذِبِينَ (٤٣)

عليهم سبحانه لو كان ما دعوتهم إليه يا رسول الله عَرَضًا قَرِيبًا أى غنيمه سهله التناول، فإن أموال الدنيا تسمى أعرضا باعتبار كونها زائلة فانية وَ سَفَرًا قاصِدًا أى سفرا متوسطا فى البعد و القرب، بأن سهل عليهم الذهاب و الخروج لَاتَّبَعُوكَ لأنه سهل عليهم ذلك وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ أى المسافة، فإن الشقة بمعنى القطعة من الأرض التى يشق على إنسان السير فيها لبعدها، و لذا يأتون بالأعذار الواهية فرارا وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ فَإِنَّهُمْ كانوا يحلفون بأنهم لا يقدرّون على الخروج لاشتغالهم و أن لهم أعدارا مشروعاً يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ هؤلاء المعتذرون باستحقاقهم العقاب فى الآخرة، و النكال فى الدنيا، فإن ترك الجهاد يوجب الذلة و الصغار للفرد و الجماعة وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فى ادعائهم أنهم لا يستطيعون الخروج.

[٤٣] استأذن جماعة من المنافقين الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى تركهم الخروج إلى تبوك، فأذن لهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و قد كان هذا الإذن كسائر أوامر الرسول و كلماته بالوحى بدليل قوله سبحانه: وَ مَا يُنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «١»، لكن الاستئذان من القوم كان نفاقا فاستحقوا العقاب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٤

ومن البلاغة أن يوجه الإنسان العتاب إلى أحد و هو يريد إفهام غيره، فإذا ألح الشخص المتظاهر بالفقر، فأشرت إلى ولدك بإعطائه المال، تقول له- معاتباً- وأنت تريد إفهام الآخذ: لم أعطيته المال؟ مع أن إعطائه كان بأمرك و لكنك تريد توبيخ الآخذ بصورة بليغة، و هذا كما يظهر في الكلام يظهر في العمل، فقد تأخذ بيد الولد لتقصيره أمام الآخذ مظهرًا غضبك عليه، تريد إفهام الآخذ بسوء صنيعه في الآخذ، كما تقدم في قصة موسى و هارون عليهما السلام.

و هذا هو المعنى من قول الإمام الرضا عليه السلام في جواب أسئلة المأمون عن عصمة الأنبياء. و أنه كيف قال للرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «عفا الله عنك ..»، هذا مما نزل ب «إياك أعنى و اسمعى يا جارة» (١).

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. إنه لا يريد أنه صلى الله عليه و آله و سلم فعل خلاف الأولى، حتى يستحق العفو أو العتاب، بل يريد إفهام المتخلفين أنهم فعلوا فعلاً قبيحاً حتى إن الإذن لهم في القعود يستحق العفو لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ فِي الْبَقَاءِ و عدم الخروج إلى الجهاد حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لِمَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي أَنَّهُمْ لَا- يستطيعون الخروج و تَعَلَّمُ الْكَاذِبِينَ أى حتى تعلم و تميز بين الصادق و الكاذب، و قد كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يميز و يعلم، كيف و أهدنا يعلم الصادق و الكاذب من أصحابه و أصدقائه؟ لكن هذا الكلام لتنبية المتخلفين الكاذبين، و أنه عرف كذبهم و سوء قصدهم.

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤٤ إلى ٤٦]

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِنَّ اللَّهَ انْبَعَاثَهُمْ فَتَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)

[٤٤]- لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ إيماناً صادقاً، كيف و المؤمن يعلم أنه سواء غلب أو غلب كان له الأجر العظيم و العاقبة المحمودة عند الله سبحانه، و لذا لا- يطلب الإذن في التخلف أن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ في أن يجاهدوا، و المعنى لا يستأذنون للتخلف في أمر الجهاد، لا- أن المعنى لا- يستأذنون للجهاد وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ الذين يتقون عصيان الله، و يعملون حسب أوامره.

[٤٥] إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ وَ يَطْلُبُ إِذْنَكَ فِي الْقَعْدَةِ عَنِ الْجِهَادِ الَّذِينَ لَا- يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ إيماناً صادقاً عن عقيدة و رسوخ و ارتباب قُلُوبُهُمْ أى شكّت، من «الريب» بمعنى التردد، أى شكوا في صدق الأمر و حقيقته فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ وَ شَكَّهِمْ حول المبدأ و المعاد يَتَرَدَّدُونَ فتارة ترجح عندهم العقيدة، و أخرى يرجح عندهم الإنكار. و لهذا فإن هؤلاء لما لم يستيقنوا يستأذنونك للتخلص من الصعوبة.

[٤٦] ثم بين سبحانه علامة نفاقهم و أنهم امتازوا عن المؤمنين بأن لم يستعدوا للجهاد فقد نوا من أول الأمر عدم الخروج و لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ إِلَى الْجِهَادِ، كما أراد سائر المؤمنين لَأَعَدُّوا لَهُ لِلْجِهَادِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٦

[سورة التوبة (٩): آية ٤٧]

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) عُدَّةٌ أهبه، فإن العدة و الأهبه و الآله نظائر و لَكِنَّ اللَّهَ انْبَعَاثَهُمُ الْانْبِعَاثَ هو الانطلاق بسرعة في الأمر فَتَبَّطَهُمْ أى أوقفهم عن

الجهاد بالترهيد فيه فرغبوا عنه وَقِيلَ الْقَائِلَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - بلسان الحال - أو إخوانهم المنافقون: اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانَ وَالْعَجْزَةَ الَّذِينَ بَقُوا فِي الْمَدِينَةِ وَ لَمْ يَخْرُجُوا لِلْجِهَادِ.

إن أمر الجهاد كان متوجها إليهم مع صفاء النية و خلوص القصد، أما أنهم نافقوا و كانوا لو خرجوا ألقوا التشويش و الاضطراب - كما هو شأن المنافق في كل حركة - بالنميمة بين المسلمين، و كان الضرر في خروجهم أكثر، فالأحرى أن لا يخرجوا، فالله سبحانه كره ذهابهم للغزو لهذه الجهة فلم يوفقهم للجهاد. و قد مرّ مكررا أنه تصحّ نسبة الفعل إليه سبحانه باعتبار أنه لم يزل العائق تكويننا، كما يقال: «إن الملك عوّق ذهاب الجيش و لم يدعهم يذهبوا»، فيما إذا لم يزل العائق أمامهم.

[٤٧] ثم بين سبحانه سبب كره الله انبعاثهم بقوله: لَوْ خَرَجُوا أَى خَرَجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَيَكُنْ أَى فِي ضَمْنِكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا «الخبال» هو الفساد، أى كان خروجهم معكم سببا للفساد و الاضطراب، فإن المنافق دائم النقص للحركات، كثير التخذيل مما يوجب فسادا و اضطرابا و تشويشا و لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ «الإيضاع» الإسراع فى السير، و «الخلال» بمعنى «البين»، أى أسرعوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٧

[سورة التوبة (٩): آية ٤٨]

لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

فى الدخول بينكم بالفساد و النميمة و الإفساد يَبْتَغُونَكُمْ أَى يطلبون لكم الْفِتْنَةَ و اختلاف الكلمة و الانشقاق - كما هو شأن المنافق - و يكونون فيكم أيها المسلمون سَيِّمًا عَوْنًا لَهُمْ يسمعون أقوال الكفار - المفهوم من الكلام - فيصبح هؤلاء المنافقون جواسيس و عيونا للكفار، أو المراد: إن كانوا معكم كان من المؤمنين البسطاء أشخاص يسمعون لأولئك المنافقين، فعدم مجيئهم كان أنفع لكم و الله عليم بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالنفاق و عدم الخروج، فيجازيهم بما عملوا.

[٤٨] لَقَدْ ابْتِغَوْا وَ طَلَبُوا هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْفِتْنَةَ وَ الْفَسَادَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِى أَحَدٍ وَ فِى حِينٍ وَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ عِنْدَ رَجُوعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ حِجَّةِ الْوُدَاعِ حَيْثُ أَرَادُوا قَتْلَهُ وَ دَبَرُوا مَوَامِرَهُ خَيْشَةً لِتَشْتِيتَ شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ «التقليب» تصريف الشيء على غير وجهه، فقد احتال المنافقون لأن يقلبوا وحدة المسلمين تشتتا، و صفاءهم كدوره حتى جاء الحق الظفر الذى وعد الله سبحانه و ظهر أمر الله دينه و الإسلام و حقيقة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الحال أن هم كارهون لمجرد الحق و ظهور أمر الله، فإن يثيروا الفتن الآن بالنفاق، فقد كانوا سابقا كذلك، فلا يهتمك أمرهم يا رسول الله، و لا تعيرهم وبالا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٨

[سورة التوبة (٩): آية ٤٩]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)

[٤٩] وَ مِنْهُمْ أَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ فِى غَزْوَةِ تَبُوكَ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فِى التَّخَلُّفِ وَ لَا تَفْتِنِّي لَا تَوَقَّعْنِي فِى الْفِتْنَةِ، بأن تأمرنى فلا ألبى الطلب، أو المراد: لا تفتنى بنات الأصفر.

فقد ذكر المفسرون: أن رسول الله لما استنفر الناس إلى حرب الروم فى تبوك قال: انفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر، فقام جد بن قيس أخو بنى سلمة فقال: يا رسول الله انذن لى و لا تفتنى بنات الأصفر، فإنى أخاف أن أفتن بهن، فقال: قد أذنت لك، فنزلت الآية. و يسمّى الروم بنوا الأصفر، لأن حبشيا غلب على ناحية الروم و كان له بنات قد أخذن بياض الروم و سواد الحبشة فكانّ صفرا لعسا - كما عن الفراء -.

ثم إن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم جزى هذا الرجل بصنيعه فقد قال لبنى سلمة:

من سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس إلا أنه بخيل جبان. فقال صلى الله عليه و آله و سلم: و أى داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور «١».

أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا إِنَّهُمْ أَظْهَرُوا بِتَخْلُفِهِمُ الْفِرَارَ عَنِ الْفِتْنَةِ، فَقَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِتَخْلُفِهِمْ عَنْكَ وَعَصِيَانِهِمْ لَكَ، فَإِنَّ الْإِذْنَ عَنْ كَرِهِ كَعَدَمِهِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ تحيط بهم فلا مخلص لهم منها. ولعل هذا التعبير بمناسبة أنهم أظهروا الفرار من الفتنة، لكن

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ١٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٠ إلى ٥١]

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)

المنافق لا يفر من فتنة إلا ويسقط في فتنة أخرى، لأنه من أهل النار وهي محيطه به، فكيف يفر منها.

[٥٠] وكيف يكون هؤلاء المنافقون مسلمين، والحال أن صفاتهم صفات الكافرين إن تُصِيبَكَ يا رسول الله حَسَنَةٌ تصل إليك غنيمة أو خير تَسُؤْهُمْ أى يحزن المنافقون من أجلها وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ شَدَّةٌ وَآفَةٌ فِي النَّفْسِ أَوْ الْمَالِ أَوْ غَيْرِهِمَا يَقُولُوا الْمُنَافِقُونَ: قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ أَخَذْنَا حذرنا من قبل وقوع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ فِي هَذِهِ الْبَلِيَّةِ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ رجعوا إلى بيوتهم فرحين بما أصاب المؤمنين من الشدة. وقد كان من عادة المؤمنين عكس ذلك، فإنهم إذا رأوا الرسول في شدة اجتمعوا حوله ليواسوه بأنفسهم.

[٥١] قُلْ يا رسول الله لهؤلاء: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا فَلَمْ يَكُنْ مَا أَصَابَنَا شَرًّا لَنَا، كَمَا زَعَمْتُمْ، بَلْ إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ كَتَبَ هَذِهِ الْبَلَايَا لَنَا لِأَنَّ تَرْفَعُ دَرَجَاتِنَا فِي الْآخِرَةِ، وَيَنْصُرُنَا عَلَى أَعْدَائِنَا فِي النَّهَائِيَّةِ، وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ مُنْقَادُونَ لِإِرَادَتِهِ هُوَ مَوْلَانَا أَوْلَى بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، فَمَا كَتَبَهُ لَنَا كَانَ لَخَيْرِنَا وَصَلَاحِنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بِأَنْ يَكْلُوا أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ، وَيَرْضُوا بِقَضَائِهِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٠

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٢ إلى ٥٣]

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِخْدَى الْحُسِيِّينَ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣)

[٥٢] قُلْ يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: هَلْ تَرَبَّصُونَ «التربص» الانتظار، أى: هل تنتظرون بنا إِلَّا إِخْدَى الْحُسِيِّينَ إما النصر والظفر وخير الدنيا، وإما الشهادة في سبيل الله وفيها خير الآخرة، فلا يعود ترَبَّصُكم بشر لنا أو خير لكم وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ننتظر أن تقعوا في أحد الشرين أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ بِأَنْ تَهْلِكُوا فَتَعَذَّبُوا فِي الْآخِرَةِ أَوْ بِأَيْدِينَا بِأَنْ نَنْتَصِرَ عَلَيْكُمْ فَتَصْبِحُوا أَذْلَاءَ فِي الدُّنْيَا خَاسِرِينَ مَقْهُورِينَ فَتَرَبَّصُوا أى انتظروا. وهو تهديد في صورة الأمر كقوله: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ «١»، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ أى منتظرون، حتى نرى لمن العاقبة الحسنه، و لمن العاقبة السيئه.

[٥٣] قد كان بعض المنافقين عرضوا أموالهم لمساعدة المجاهدين في «تبوك» لينجوا بذلك عن الذهاب بأنفسهم ولا يقعوا موقع لوم المسلمين بأنهم نافقوا، ولم يشركوا في الجهاد مع المجاهدين، لكن الله سبحانه أخبر عن نيتهم وأن إنفاقهم لا ينعف شيئاً قُلْ يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: أَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ لِلْجِهَادِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا طَائِعِينَ أَوْ مَكْرَهِينَ لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ أى إن أنفقتم طائعين أو مكرهين

(١) فصلت: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١١

[سورة التوبة (٩): آية ٥٤]

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)

لا يتقبل الله منكم الإنفاق. فاللفظ أمر والمعنى الشرط.

ثم بين السبب بقوله: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ خارجين عن طاعة الله سبحانه، و الفاسق لا يتقبل منه الإنفاق، لأن قبول الأعمال مشروط بالتقوى وهو منفي عنهم، قال سبحانه: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «١».

[٥٤] وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ أَي شَيْءٍ مَنَعَ قَبُولَ إِفْطَائِهِمْ وَ الْإِثَابَةَ عَلَيْهِ؟ إِنَّهُ كَفَرَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ الْكُفْرَ الْبَاطِنِيَّ مَانِعٌ عَنِ قَبُولِ الْأَعْمَالِ، وَ إِنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى مُتَثَابِلِينَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ حَيْثُ امْتَلَأَ إِيمَانًا يَقْدَمُ عَلَى الطَّاعَاتِ بِكُلِّ شَوْقٍ وَرَغْبَةٍ، بِخِلَافِ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَمْ يَدْعَنْ قَلْبُهُ لَشَيْءٍ، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي الصَّلَاةَ وَ سَائِرَ الطَّاعَاتِ إِلَّا مُتَثَابِلًا كَسَلَانًا فَإِنَّهُ يَرِيدُ بِذَلِكَ إِرَاءَةَ النَّاسِ وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ لِلْإِنْفَاقِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَدْفَعُونَ الْمَالَ عَنْ عَقِيدَةٍ وَ إِخْلَاصٍ، وَ إِنَّمَا يَدْفَعُونَ لِلتَّسْتَرِ بِالْإِسْلَامِ وَ التَّحْفِظِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ، لَنَلَّا يَظْهَرُ مَا يَنْوُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَ النِّفَاقِ.

(١) المائة: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٢

[سورة التوبة (٩): آية ٥٥]

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٥٥)

[٥٥] فَلَا تُعْجِبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ أَي لَا يَأْخُذُ بِقَلْبِكَ مَا تَرَاهُ مِنْ كَثْرَةِ أَمْوَالِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَ أَوْلَادِهِمْ، وَ لَا تَنْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الْإِعْجَابِ، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ وَ الْأَوْلَادَ قَدْ تَكُونُ نِعْمَةً وَ خَيْرًا حِينَمَا يَشْكُرُ الْإِنْسَانُ وَ جُودَهَا وَ يَصْبِرُ وَ يَحْتَسِبُ لِفَقْدِهَا، أَمَا إِذَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ، فَهِيَ بِالْعَكْسِ تَصْبِحُ وَبِالْأَعْلَى الْإِنْسَانِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ النَّفْسَ غَيْرَ الْمَطْمَئِنَّةِ تَكُونُ دَائِمَةً الْقَلِقَ عَلَى مَصِيرِ الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ لِأَنَّهَا دَائِمَةٌ الْخَوْفِ عَلَيْهِمَا، أَمَا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ بَقِيَّةَ أَمْوَالِهِ وَ أَوْلَادِهِ شُكْرًا وَ إِنْ ذَهَبَ صَبْرًا، وَ عِلْمٌ أَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِلْأَجْرِ وَ الثَّوَابِ، فَلَا يَكُونُ خَائِفًا قَلِقًا.

قال أحد الكافرين: إن أعجب ما رأيت من شيخ مسلم أنه كان صاحب أغنام تعدد بالألوف و كان جميع كيانه بها و إذا به يفاجأ ذات يوم- و أنا عنده- بأن يخبره آت قاتلا: إن الأغنام ذهب بها السيل، قال: و كنت أترقب انقلابا في حال الشيخ الذي ذهب كل كيانه بذهاب أغنامه، و إذا به يقول: «إنا لله و إنا إليه راجعون، و ماذا نصنع؟ نتوكل على الله، و نصبر، فهو خير للصابرين» و كأن أمرا لم يحدث.

وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ تَهْلِكُ وَ تَذْهَبُ بِالموت بصعوبة، فهم قد عاشوا في الدنيا بصعوبة و قلق، و ها هم يموتون، و حينما تريد أرواحهم أن تخرج، تخرج بصعوبة، فيموتون بكل صعوبة وَ هُمْ كَافِرُونَ فَقَدْ عَاشُوا أَشْقِيَاءَ، وَ مَاتُوا أَشْقِيَاءَ وَ يَحْشُرُونَ أَشْقِيَاءَ إِذْ مَاتُوا كَافِرِينَ. ثُمَّ إِنْ جَمَلَهُ «تزهق» إِمَّا اسْتِثْنَائِيَّةٌ، وَ إِمَّا عَطْفٌ عَلَى «لِيُعَذِّبَهُمْ». وَ إِرَادَةُ اللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنَكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ (٥٧)

ذلك، إنما كانت بسبب أنهم عرضوا عن الحق فتركهم الله سبحانه في كفرهم. و هو معنى إرادته أن يموتوا كافرين.

[٥٦] وقد كان هؤلاء المنافقين يريدون اللعب على حبلين، فحيث أن السلطة بيد المسلمين يريدون إرضاءهم بإظهار أنهم منهم، وحيث أن قلوبهم كانت منكراً كانوا مع الكافرين باطنا و عملا، لكن الله سبحانه أبدى نواياهم وَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ يَقْسِمُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِحْلَاصِ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ لَيْسُوا مِثْلَكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ مِنْ «فرق» بمعنى خاف، أى يخافون و يجتنبون القتل و القتال، و كيف يكون من يجبن مثل غيره من المسلمين الأقوياء القلوب؟! [٥٧] لَوْ يَجِدُونَ أَى لَوْ وَجَدَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْجِنَاءَ مَلَجًا حَصْنًا، وَ يَسْمَى الْحَصْنَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَلْجَأُ عِنْدَ الْخَوْفِ إِلَيْهِ أَوْ مَغَارَاتٍ جَمْعَ «مغارة»، مِنْ «غار يغور» إِذَا دَخَلَ، وَ مِنْهُ «الغار» بِمَعْنَى النِّقْبِ فِي الْجَبَلِ أَوْ مُدْخَلًا مِنْ «أدخل» أَصْلُهُ أَوْ «تدخل» مِنْ بَابِ الْإِفْتِعَالِ قَلْبُ تَأْوَهُ دَالًا، وَجِيءَ بِهَمْزَةِ الْوَصْلِ لَتَعْذِرَ الْإِبْتِدَاءَ بِالسَّاكِنِ، وَ الْمُرَادُ بِهِ النِّفْقَ وَ شَبَّهَهُ، أَى: لَوْ وَجَدَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْجِنَاءَ مَحَلَّ فِرَارٍ سِوَاءِ كَانِ حَصْنًا أَوْ غَارًا أَوْ ثِقْبًا فِي الْأَرْضِ لَوَلُّوا إِلَيْهِ أَى فَرَّوْا مِنْكُمْ وَ مِنْ الْقِتَالِ إِلَى ذَلِكَ الْمَخْبَأِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٤

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِيخُطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)

«الجموح» بمعنى المضى مسرعين بحيث لا يردهم شىء.

[٥٨] وَ مِنْهُمْ أَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَلْمِزُكَ يَقَالُ: «لمز الرجل» إِذَا عَابَهُ، قَالَ سَبْحَانَهُ: وَيَلُّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لَمَزَةٌ «١»، فِي الصَّدَقَاتِ أَى فِي تَقْسِيمِ الصَّدَقَاتِ وَ هِيَ الْغَنَائِمُ وَ مَا أَشْبَهَهَا، مِمَّا فَرَضَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِإِقَامَةِ الْمَصَالِحِ، أَى يَطْعَنُونَ عَلَيْكَ فِي تَقْسِيمِكَ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ قَالُوا إِنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَدْلٌ وَ أُعْطِيَ الْحَقَّ فِي مَوْضِعِهِ وَ إِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِيخُطُونَ يَغْضَبُونَ وَ يَعْيُونَ، فَلَيْسُوا مُعْتَرِفِينَ بِكَ وَ أَنَّ أَعْمَالَكَ إِنَّمَا تَصْدُرُ عَنِ الْوَحْيِ، بَلْ هُمْ طَلَابُ دُنْيَا. وَرَدَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ لَمَّا جَاءَتْ الصَّدَقَاتُ وَ جَاءَ الْأَغْنِيَاءُ وَ ظَنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَقْسِمُهَا بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا وَضَعَهَا فِي الْفُقَرَاءِ تَغَامَزُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ لَمَزُوهُ وَ قَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ نَقُومُ فِي الْحَرْبِ وَ نَفِرُ مَعَهُ وَ نَقْوَى أَمْرَهُ، ثُمَّ يَدْفَعُ الصَّدَقَاتُ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعِينُونَهُ وَ لَا يَغْنُونُ عَنْهُ شَيْئًا.

إنهم قالوا هذا القول و طعنوا فى الرسول، لا حبا للعدالة، بل غضبا لأنهم لم ينالوا منها.

[٥٩] وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَى مَا أَعْطَاهُمُ الرَّسُولُ بِحَكْمِ

(١) الهمزة: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٥

[سورة التوبة (٩): آية ٦٠]

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّمَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

الله سبحانه و قالوا حَسْبُنَا اللَّهُ كَافِينَا سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ لَمْ يَقْسِمْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّدَقَةِ قَسَمَ لَنَا مِنْ غَيْرِهَا وَ رَسُولُهُ ذَكَرَ اللَّهُ لِأَنَّهُ الْآمِرُ، وَ ذَكَرَ الرَّسُولَ لِأَنَّهُ الْمَقْسَمُ وَ الْمَعْطَى إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ نَرُغِبُ إِلَيْهِ وَ نَطْلُبُ مِنْهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يُوسِعَ عَلَيْنَا. أَى «لكان خيرا لهم» هَذَا هُوَ جَوَابُ «لَوْ» فَإِنَّهُ حَذَفَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعُمُومِ وَ التَّوَسُّعِ، فَإِنَّ الْمَذْكُورَ إِنَّمَا هُوَ لَفْظٌ وَاحِدٌ بِخِلَافِ الْمَحْذُوفِ، وَ لِذَا قَالُوا: إِنْ حَذَفَ الْمُتَعَلِّقُ يَفِيدُ الْعُمُومَ.

[٦٠] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ مَصْرُفَ الصَّدَقَاتِ، وَ أَنَّهَا يَجِبُ أَنْ تَصْرَفَ فِي الْمَصَارِفِ الْمَذْكُورَةِ لَا- أَنْ تَعْطَى لِلْأَغْنِيَاءِ وَ الطَّامِعِينَ إِنَّمَا

الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ المراد بالصدقات الزكاة- كما أجمع المفسرون عليه- وهى تؤخذ بنسبة العشر و نصف العشر و ربع العشر، من أموال تسعة، بعنوان الوجوب، و من غيرها بعنوان الاستحباب- كما فصل فى الفقه- و الأموال التسعة هى: الإبل، و البقر، و الغنم، و الذهب، و الفضة، و الحنطة، و الشعير، و التمر، و الزبيب. بشرائط مخصوصة، و تعطى لثمانية أصناف، منهم:

الفقراء الذين لا يجدون قوت سنة لأنفسهم و لعيالهم حسب شأنهم، لا قوة و لا فعلا.

و الْمَسَاكِينِ و هم أسوأ حالا من الفقير، كأن الفقر أسكنه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٦

الأرض فلم يقدر على التحرك، و حيث أنهم فى المجتمع صنفان متميزان، إذ هناك صنف تعسّرت أمره و إن كان ظاهره لا بأس به، و صنف داخل فى العجزة كالعريان و الزمنى و من إليهم، ذكرهم سبحانه صنفين، و إن كان الميزان فى الصنفين واحدا، و هو عدم تمكنهم من مؤونة سنة فعلا و قوة.

و لعل وجه تقديم الفقراء: أن إعطاءهم من الزكاة أبعد فى النظر و لذا جىء بهم أولا، تداركا لهذا البعد، كما أنك إذا أردت أن تعدّ من أتاك تذكر الأبعد فى نظر السامعين، كما أن ذكر المساكين مع أنهم داخلون فى الفقراء لعل، و ذلك لدفع احتمال أن مثل هؤلاء لا بد و أن يعيشوا على إحسان المحسنين من الذين يتصدقون بالصدقات المستحبة لدفع البلاء، كما جرت العادة، لا أن يكون لهم رزق فى خزينة الدولة.

و الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا أى الذين يعملون لأجل جمع الزكوات، و جبايتها، و لو كانوا أغنياء فإنهم يأخذون حق العمل، و لفظه «على» لأجل أن العامل يقتطع من أموال الناس، فهو شبيه بالضرر، فإنه يعمل لأجل الفقير، على الغنى.

و الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ أى الكفار الذين يراد تأليف قلوبهم بالمال ليميلوا نحو الإسلام أو نحو المسلمين، فإن الأموال تقرب الناس إلى الناس، و تقرب الناس إلى الأديان و المبادئ، و كذلك المسلمون الذين أسلموا و لكن لم يدخل الإسلام فى قلوبهم فيعطوا من الزكاة لتقوى عقيدتهم، و يستحكم إسلامهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٧

[سورة التوبة (٩): آية ٦١]

و مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلُّ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحِمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

و فى الرِّقَابِ جمع «رقبة» و المراد بها: الإنسان، فإن الرقبة تستعمل فى الإنسان بعلاقة الجزء و الكل، كما أن «العين» تستعمل فى الجاسوس بهذه العلاقة، و المراد بهم: العبيد الذين هم تحت الشدة، يشترى من الزكاة و يعتقون، و كذلك العبيد الذين كاتبوا مواليتهم و لم يقدروا على دفع تمام مال الكتابة.

و الْغَارِمِينَ جمع غارم، من «غرم» بمعنى استدان، و المراد بهم: الذين اقترضوا ثم أنفقوا المال فى غير معصية، و من غير سرف، فإنهم يعطون من الزكاة ليؤدّوا ديونهم، أو تدفع ديونهم منها و لو بعد موتهم.

و فى سَبِيلِ اللَّهِ وهى جميع مصالح المسلمين التى من أظهرها: الجهاد لإعلاء كلمة الله.

و ابْنِ السَّبِيلِ و هو المسافر المنقطع به فى سفره، يعطى من الزكاة ليرجع إلى محله، و إن كان فى بلده غنيا. فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ أى افترض الله سبحانه تقسيم الزكاة بهذه الصورة فريضة و الله عَلِيمٌ بحاجته خلقه حكيمٌ فيما فرض عليهم، و على من فرض. و الكلام حول الزكاة طويل، راجع «عبادات الإسلام» «١» حتى تعرف بعض أحكامها.

[٦١] كان الكلام حول المنافقين و علامات النفاق و بعض ما صدر منهم مما

(١) للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٨

يدل على انحرافهم و نفاقهم، فمنهم من يلزم النبي في الصدقات، و منهم من يؤذى النبي، و منهم من يخشى أن تنزل عليه صلى الله عليه و آله و سلم سورة، تفضحه و تبين نفاقه و منهم الذين يؤذون النبي إيداء بالقول، فقد كان عبد الله بن نفييل منافقا، و كان يقعد إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيسمع كلامه ثم ينقله إلى المنافقين و ينم عليه. فنزل جبرائيل عليه السلام و أخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بخبر المنافق، فدعاه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأخبره بذلك فحلف أنه لم يفعل فقبل منه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم - حسب الظاهر - و نهاه أن يقعد مع أصحابه من بعد، فرجع إلى أصحابه و قال: إن محمدا «أذن» أخبره الله أني أنتم عليه و أنقل أخباره، فقبل، و أخبرته: أني لم أفعل، فقبل، فأنزل الله هذه الآية: وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنُ أَى يَسْتَمِعُ إِلَى مَا يِقَالُ لَهُ وَيَقْبَلُ، و لا فطنه له بأن يميز بين الصحيح من الكلام و السقيم.

قُلْ يَا رَسُوْلَ اللهِ لَهُؤْلَاءِ الْمُنَافِقِيْنَ: إِنِى أَدْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ فَإِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَذْنٌ كَمَا قَالُوا، و لكن ليس كما قصدوا، فإن «الأذن» قد يكون فى سماع كلام الشر فى أحد ثم يرتب الأثر عليه، و قد يكون خيرا، يسمع الكلام و لا يكذبه، و لكنه لا يرتب ما على المجرم من العقاب، كيف يمكن أن يعاب عليه فعله هذا؟! لكن المنافق هو الذى يرى الإحسان - حتى بالنسبة إلى المنافق - إساءة. يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إِيْمَانًا مِنَ الْقَلْبِ، و يعلم أن الله سبحانه صادق و يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ أَى لِنَفْعِ الْمُؤْمِنِيْنَ، و فرق بين «الإيمان به» إذ معناه تصديقه، و «الإيمان له»، أى يرتب الأثر الذى هو نافع للمؤمن، سواء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٩

[سورة التوبة (٩): آية ٦٢]

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)

اعتقد بذلك أم لم يعتقد. فقد اعتقد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم صحته كلام جبرئيل المنزل من قبله سبحانه، كما رتب أثر الصحة لنفع ذلك المؤمن - المنافق - حيث لم يعاقبه. و لا يخفى أن «الإيمان» له إطلاقان: إطلاق على كل مؤمن مقابل الكافر، و هو من أظهر الإسلام، و إن لم يدخل فى قلبه، كما قال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا (١)، و إطلاق على المعتقد فى مقابل المنافق، كما قال سبحانه: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا (٢)، و المراد هنا: الإطلاق الأول.

و هو صلى الله عليه و آله و سلم رَحِمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ و لو إيمانا ظاهريا، حيث أنه هداهم للأصلح بحالهم فى الدنيا، أما المؤمن الحقيقى فإنه سعد بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم دنيا و آخرة و الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ بِالْقَوْلِ أَوِ الْعَمَلِ، لا يظنون أنهم فاتوه حيث لم يعاقبهم و قبل عذرهم، فلم يرتب على أذيتهم شىء، بل لهم عذاب أليم مؤلم موجه فى الدنيا و الآخرة، أما فى الدنيا فلأن إيداء الرسول له أثر و ضعى يوجب الخسران و الخزى، و أما فى الآخرة فله عذاب أليم فى النار.

[٦٢] يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ أَى يَحْلِفُ هؤْلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ حيث أنكم تقبلون عذرهم إذا أقسموا بالله بأنهم لم يقولوا ما قالوا، و لم يفعلوا ما فعلوا و اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ أَى يَرْضُوا كل واحد

(١) النساء: ١٣٧.

(٢) الحجرات: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٠

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَخِيدُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ

تُبَيِّنُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤)

منهما، بالإيمان الصحيح و عدم الإيذاء واقعا- مما يريدون ستره بالحلف- أما الترضية الظاهرية للرسول، فإنها لا تنفعهم في الباطن و الواقع إن كانوا مُؤْمِنِينَ واقعا، و المعنى: إن كانوا مؤمنين واقعا لعلمو أن مرضاه الله و الرسول أولى من الترضية الظاهرية. [٦٣] أَلَمْ يَلْمُوا أَلَيْسَ يَعْرِفَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ «المحاذة» مجاوزة الحد بالمشاقه و المخالفة فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا فَإِنْ عَلِمُوا ذَلِكَ فَيُحَادِدُونَ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ بِالنِّفَاقِ وَ إِيْذَاءِ الرَّسُولِ ذَلِكَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ الْخِزْيُ أَى الْهَوَانُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا خِزْيَ فَوْقَهُ.

[٦٤] يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَى يَخَافُونَ وَ يَخْشَوْنَ أَنْ تُنَزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ تُبَيِّنُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ أَى تَخْبِرُهُمْ بِنِفَاقِهِمْ، فَتَكُونُ فَضِيحَةً لَهُمْ، وَ قَوْلُهُ «تُبَيِّنُهُمْ» لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَخْفَوْنَ نِفَاقَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَ إِنَّمَا السُّورَةُ الْمُنزَلَةُ تَخْبِرُهُمْ حَسَبَ تَظَاهِرِهِمْ بِالنِّفَاقِ. وَرَدَّ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَى «تَبُوكَ» قَالَ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: أَيْرَى مُحَمَّدًا أَنْ حَرَبَ الرُّومَ مِثْلَ حَرَبِ غَيْرِهِمْ، لَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَبَدًا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا أُحْرَى أَنْ يُخْبِرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِمَا كُنَّا فِيهِ، وَ بِمَا فِي قُلُوبِنَا، وَ يَنْزِلُ بِهَذَا قِرْآنًا يَقْرَأُهُ النَّاسُ - قَالُوا هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

وَ لَيْتَ سَاءَ أَلْتُهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

على حد الاستهزاء- فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لعمار بن ياسر: الحق القوم فإنهم قد انحرفوا، فلحقهم عمار فقال لهم: ما قلتهم؟ قالوا: ما قلنا شيئا إنما نقول ذلك على حد اللعب و المزاح. فنزلت هذه الآية.

قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: اسْتَهْزَؤُوا أَمْرٌ فِي مَعْنَى الْوَعِيدِ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ أَى مَظْهَرٌ مَا تَحْذَرُونَ ظُهُورُهُ مِنْ نِفَاقِكُمْ وَ قَوْلِكُمْ الْاسْتَهْزَائِي.

[٦٥] وَ لَيْتَ سَاءَ أَلْتُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَنْ طَعْنِهِمْ فِي الدِّينِ وَ اسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ وَ بِحَرَكَاتِكَ، وَ قُلْتَ لَهُمْ: لِمَ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ؟ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ «الخوض» هُوَ دُخُولُ الْقَدَمِ فِي الْمَائِغِ، مِنْ مَاءٍ أَوْ طِينٍ، ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الدُّخُولِ فِيهَا، يَعْنِي: عَلَى وَجْهِ الْهَوْدِيِّ دُونَ الْجِدِّ، أَى كَانَ كَلَامُنَا مَجْرَدَ لَعِبٍ وَ لَهْوٍ دُونَ إِرَادَةِ الْحَقِيقَةِ وَ الْجِدِّ قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِي، أَى كَيْفَ تَسْتَهْزِئُونَ بِاللَّهِ وَ حُجْجِهِ وَ رَسُولِهِ؟

[٦٦] قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: لَا تَعْتَذِرُوا بِهَذِهِ الْأَعْذَارِ الْوَاهِيَةِ الْكَاذِبَةِ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ الظاهري، فإنهم يظهرونهم الإيمان دخلوا في زمرة المؤمنين، فاستهزؤهم هذا كان كفرا و نقضا لذلك الإيمان، و قد اعتذر بعضهم اعتذارا صادقا فرجع عن نفاقه و دخل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٢

[سورة التوبة (٩): آية ٦٧]

الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)

الإيمان قلبه، فقبل الرسول عذره و عفا الله عنه.

و في بعض التفاسير: إنه كان مخشى بن حمير، و يسمى عبد الرحمن، و سأل الله بعد توبته أن يقتل شهيدا لا يعلم أحد مكانه، فقتل يوم اليمامة و لم يوجد له أثر، و لذا قال سبحانه: إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ وَ هُوَ النَّائِبُ حَقِيقَةُ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِسَبَبِ أَنَّهُمْ بَقُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ

و كانوا مُجْرِمِينَ لم ينفكوا عن الجريمة.

[٦٧] ثم بين سبحانه حقيقة المنافقين و صفاتهم بقوله تعالى: الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَي أَنَّهُمْ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِإِتْيَانِ الْمُنْكَرِ، مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَعْمَلَ بِطَاعَةِ نَهَاهُ غَيْرُهُ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ يُمْسِكُونَهَا عَنِ الْإِنْفَاقِ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَسِطُ يَدَهُ بِالْمَالِ، أَوِ الْمَرَادِ: قَبْضُ أَيْدِيهِمْ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ نَسُوا اللَّهَ عَمَلُوا عَمَلَ النَّاسِ وَإِنْ كَانُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، فَكَمَا أَنَّ النَّاسِيَ يَتْرَكَ الْمُنْسَى، كَذَلِكَ هُوَ لَا يَتْرَكَ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَتَسِيَّهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَي تَرَكَهُمْ وَ شَأْنَهُمْ لَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا وَ لَا يَفْعَلُ بِهِمْ صِلَاحًا.

و ليس المراد «النسيان» حقيقة، لأن الله سبحانه لا ينسى إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ إِنْ أَظْهَرُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٨ إلى ٦٩]

وَعِدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)

الإيمان، و «الفسق» عبارة عن الخروج عن الطاعة. و هذه الآية تعطى ميزان النفاق إلى يومنا، و ما أكثر أمثال هؤلاء في زماننا هذا.

[٦٨] وَعِدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ حَوْلَ الْمُنَافِقِينَ مَفْصَلًا، أَمَا الْكُفَّارَ فَذَكَرَهُمْ اسْتِطْرَادَ نَارَ جَهَنَّمَ يَعَذِّبُهُمْ بِهَا جَزَاءً لِمَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْإِثَامِ خَالِدِينَ فِيهَا دَائِمِينَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا هِيَ حَسْبُهُمْ أَي أَنَّ النَّارَ تَكْفِيهِمْ جَزَاءً لِدُنُوبِهِمْ وَ كَفَرَهُمْ وَ نِفَاقِهِمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ طَرْدَهُمْ عَنْ نَعِيمِهِ وَ رِضْوَانِهِ، فَإِنَّ اللَّعْنَ بِمَعْنَى الطَّرْدِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ يَقِيمٌ عَلَيْهِمْ فَلَا يَجِدُونَ خِلَاصًا مِنْهُ. وَ لَعَلَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ: الْعَذَابُ الْعَامُّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ النِّفَاقَ خَلَّةٌ يَكُونُ صَاحِبِهَا دَائِمًا التَّعَبُ وَ النَّصَبُ لِأَنَّهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ، الْمُهَيَّنِّ لَهُ، الْحَذَرِ مِنْهُ، وَ بَيْنَ الْكَافِرِ الَّذِي لَا يَقْبَلُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِالْكَفْرِ كَمَا تَمَسَّكُ الْكَافِرُ الصَّرِيحُ بِكَفَرِهِ.

[٦٩] إِنْ هُوَ لَا الْمُنَافِقِينَ حَالَهُمْ كَحَالِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَ يَبْطِنُونَ الْكُفْرَ، أَوْ يَحَادُّونَ الْأَنْبِيَاءَ وَ يَكْفُرُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً فَإِنَّ بَعْضَ الْأُمَمِ كَانَتْ قَوَاهِمُ الْمَادِيَةِ وَ الْجَسْمِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ أُمَّةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ - كَمَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ التَّارِيخُ - وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا لِخُصُوبَةِ النَّسْلِ فِيهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٤

وَازدهار التجارة و العمران عندهم فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَاقِهِمْ «الخلق» النَّصِيبُ، أَي صَرَفُوا نَصِيبَهُمْ مِنَ الْمَالِ وَ الْقُوَّةِ وَ الْأَوْلَادِ فِي الْاسْتِمْتَاعِ وَ الْمَلَذَاتِ عَوْضَ أَنْ يَصْرِفُوهَا فِي شُكْرِ الْمَنْعِ وَ مَا أَمَرَ بِهِ فَاسْتَمْتَعْتُمْ أَنْتُمْ - يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ - أَي الْمُنَافِقُونَ مِنْهُمْ بِخِلَاقِكُمْ أَي بِنَصِيبِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَاقِهِمْ دُونَ أَنْ تَعْتَبَرُوا بِمَصِيرِهِمْ فَتَصْرِفُوا نِعْمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِيهَا أَمْرًا وَ خُضْتُمْ فِي الْكُفْرِ وَ الْاسْتِهْزَاءِ وَ مَلَاذِ الدُّنْيَا كَالَّذِي خَاضُوا أَي كَخَوْضِ أُولَئِكَ الْأَوَّلِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَنَعُوا هَذِهِ الصَّنَائِعَ السَّيِّئَةَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ الْحَسَنَةُ، لِأَنَّ الْحَسَنَةَ لَا تَقْبَلُ مَعَ الْكُفْرِ وَ النِّفَاقِ وَ الْعِصْيَانِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (١). وَ مَعْنَى الْحَبْطِ ذَهَابُ الْأَجْرِ فِي الدُّنْيَا إِذْ لَمْ يَتَنَفَعُوا بِهَا، فَإِنَّ الْإِنْحِرَافَ عَنْ مَنَاجِجِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَوْجِبُ الْمَشَاكِلَ الَّتِي لَا تَكْفِيهَا بِهَا الْأَعْمَالُ، فَمِثْلًا الثَّرْوَةَ تَوْجِبُ رِفَاهَ الْإِنْسَانِ، أَمَا إِذَا كَانَتْ مَقْتَرَنَةً بِالْإِنْحِرَافِ فَإِنَّهَا تَوْجِبُ الضَّنْكَ وَ الضِّيقَ عَوْضَ الرِّفَاحِ وَ الْآخِرَةَ فَلَا ثَوَابَ لِأَعْمَالِهِمْ الْخَيْرَةَ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٠ الى ٧١]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)

[٧٠] أَلَمْ يَأْتِهِمْ استفهام إنكارى، أى ألم يأت إلى هؤلاء المنافقين نبأ أى خبر الذين من قبيلهم من الأمم قوم نوح عليه السلام حيث أهلكهم الله بالغرق وعاد قوم هود عليه السلام أهلكهم الله بالريح وثمود قوم صالح عليه السلام أهلكهم بالرجفة وقوم إبراهيم عليه السلام نمردو وأتباعه، حيث سلب الله ملكهم ونعمتهم وأصحاب مدين قوم شعيب عليه السلام أهلكهم بعداب يوم الظلة والمؤتفكات من «اتتفك» بمعنى انقلب، أى البلاد التى انقلبت وهى بلاد قوم لوط عليه السلام حيث أهلكوا، وذلك أن الله سبحانه أمر جبرائيل فقلب تلك المدن بأن جعل عاليها سافلها أتتتهم رسلهم بالبينات أى بالحجج الظاهرة والأدلة البينة، لكنهم عصوا وأبوا وتمرردوا على الله ورسله فأهلكهم الله بذنوبهم وما كان الله ليظلمهم فتعذيبهم بأنواع العذاب لم يكن ظلما منه سبحانه لهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فقد عوقبوا بسبب تمردهم وعصيانهم، وهؤلاء الكفار والمنافقون حالهم حال أولئك، إن تمرردوا وعصوا أخذوا بذنوبهم، فليحذروا أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

[٧١] ولما بين سبحانه صفات المنافقين وما فعل بهم كما فعل بأسلافهم، بين صفات المؤمنين والعاقبة الحسنه التى تنتظرهم والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض فإن كل واحد منهم ينصر صاحبه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٦

[سورة التوبة (٩): آية ٧٢]

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

ويؤيده ويعينه، لأنهم من عنصر واحد وأصل واحد وتجمعهم عقيدة واحدة يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ أى الأمور الحسنه التى يعرفها الناس من واجب أو مندوب شرعا وعقلا وينهون عن المنكر الذى ينكره الناس من حرام أو مكروه شرعا وعقلا ويقومون الصلاة يداومون على فعلها ويحئون الناس عليها ويؤتون الزكاة أى الحق المفروض، أو مطلق الصدقة، فإن الزكاة تطلق عليهما ويطيعون الله ورسوله فيما يأمرهم وينهاهم أولئك المؤمنون الذين هذه صفاتهم سيرحمهم الله إما المراد: رحمتهم فى الجنة، ولذا دخلت «السين»، وإما المراد: فى الدنيا، ودخول «السين» لإفادة كون الرحمة إنما تأتى بعد مدة من استمرارهم فى العمل ونجاحهم فى الامتحان، فلا يتوقع المؤمن أن تشمله الرحمة فوراً بمجرد وقوعه فى مشكلته، وإنما تؤخر عنه للامتحان والاختبار إن الله عزير غالب على أمره متمكن من إنفاذ إرادته حكيم فى تدبيره وفعله، فيفعل الأشياء حسب المصلحة.

[٧٢] وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْخَيْرِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشْجَارِهَا خَالِدِينَ فِيهَا دَائِمِينَ لَا يَزُولُونَ عَنْهَا وَعَدَهُمْ مَسَاكِنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٧

[سورة التوبة (٩): آية ٧٣]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِسْ الْمَصِيرُ (٧٣) طَيِّبَةٌ مَهْيَأَةٌ فِيهَا الْأَثَاثُ وَالرِّيَاشُ، طَيِّبَةُ الْهَوَاءِ وَالْمُرَافِقُ بِحَيْثُ يَطِيبُ فِيهَا الْعَيْشُ فِي جَنَّاتِ عَدْنِ الْعَدْنِ، وَالْإِقَامَةُ وَالْخُلُودُ، نَظَائِرُ، أَيْ أَنَّهُمْ فِي جَنَاتِ الْخُلُودِ.

وورد فى بعض الأحاديث: «إنها أعلى الجنان مما لم يخطر على قلب بشر»

«١» وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ أَى أَنْ رِضَاهُ سَبْحَانَهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ بِرِضَى الْكَبِيرِ مِنْهُ ارْتَاحَ ضَمِيرَهُ، فَكَيْفَ بِهِ لَوْ عَلِمَ بِرِضَاهُ سَبْحَانَهُ عَنْهُ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ ارْتِيَاخَ الضَّمِيرِ أَكْبَرُ مِنْ ارْتِيَاخِ الْجَسَدِ.

ذَلِكَ النَّعِيمُ الْجَسَدِيُّ وَالرُّوحِيُّ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ هُوَ الْفَوْزُ وَالنَّجَاحُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا نَجَاحَ فَوْقَهُ وَلَا فَوْزَ أَكْبَرَ مِنْهُ وَأَعْظَمَ.

[٧٣] وَحَيْثُ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَحْوَالَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَبَيَّنَّ صِفَاتِهِمُ الذَّمِيمَةَ، أَوْجَبَ الْجِهَادَ لِتَخْلِيصِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْهُمْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جَاهِدِ الْكُفَّارَ بِالْمَقَاتِلَةِ وَالْمُحَارَبَةِ وَبَيَانَ عَقَائِدِهِمُ السَّخِيفَةَ، فَإِنَّ هَذَا الْجِهَادَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ- فِي الْإِصْطِلَاحِ الْحَدِيثِ- وَالْمُنَافِقِينَ بِالْوَعظِ وَالْإِنذَارِ لَهُمْ، وَإِجْرَاءِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ، وَتَخْوِيفِ النَّاسِ مِنَ النِّفَاقِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَجَاهِدُهُمْ مَرَّةً بِإِظْهَارِ نِفَاقِهِمْ، وَتَارَةً بِضَرْبِ الْحَصَارِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ:

(١) الْمُسْتَدْرَكُ: ج ٦ ص ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٨

[سورة التوبة (٩): آية ٧٤]

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا «١»، وَآخَرَى بِنَهْيِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَتَصَفَّوْا بِخَلَّةِ النِّفَاقِ.

وَمِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَرَادَ بِالْمُنَافِقِ هُنَا: الْكَافِرَ الْمُنَافِقَ، فَإِنَّ بَعْضَ الْكُفَّارِ يَتَّفِقُ بِإِظْهَارِ الْوَدِّ لِلْمُسْلِمِ وَتَأْلِيْفِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْأَعْدَاءِ لَهُ، فِي مَقَابِلِ الْكَافِرِ الصَّرِيحِ الَّذِي يَظْهَرُ عِدَاؤُهُ وَشَحْنَاهُ.

وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَرْتَدِعُوا، فَإِنَّ الْغَلْظَةَ فِي الْكَلَامِ وَالسَّلُوكِ مَعَ شَخْصٍ خَلِيقَ بِأَنْ يَرُدَّ عَنْ عَمَلِهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ «٢»، وَمَأْوَاهُمْ أَى مَحَلُّهُمْ وَمَصِيرُهُمْ، مِنْ «أوى» إِذَا اتَّخَذَ مَكَانًا جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ أَى بِئْسَ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْوَى لَهُمْ.

[٧٤] وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَتَأَمَّرُونَ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَشْيَاءَ، إِذَا اسْتَنْطَقَهُمُ الرَّسُولُ حَلَفُوا بِاللَّهِ كَذِبًا أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ،

فَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ خَرَجُوا مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى «تَبُوكَ» وَكَانُوا كَارِهِينَ لِذَلِكَ، فَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ سَبَّوْا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَانْتَقَصُوهُ، فَأَبْلَغَ ذَلِكَ «حَدِيفَةُ» إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَطَلَبَهُمْ وَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ. فَأَخَذُوا يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَفْضِيحَهُمْ

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا أَى أَقْسَمَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ بِاللَّهِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا ضِدَّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ فَإِنَّهُمْ

(١) التوبة: ١١٨.

(٢) الفتح: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٩

بَسَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالطَّعَنَ فِي الْإِسْلَامِ صَارُوا كُفَّارًا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمُ الظَّاهِرِي، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ صَارَ مُسْلِمًا، إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ كَلِمَةُ الْكُفْرِ صَارَ كَافِرًا.

لَا يَقَالُ: إِنَّهُمْ إِنْ كَفَرُوا وَجَبَ عَلَيْهِمْ حُدُّ الْمُرْتَدِ.

لأننا نقول: إنهم كانوا مرتدين عن ملّة، ولا يحدّ مثلهم، وإنما يستتابوا، وإنكارهم كان بمنزلة التوبة، وإن كان توبة صورية لا حقيقية. وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا فقد أرادوا إخفاء نور الإسلام، وذلك يتحقق بكل ما يهتم به المنافق من إرادة قتل النبي، وإيجاد الفساد بين المسلمين، وإخراج الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم من المدينة، لكنهم لم ينالوا ذلك ولم يقدرُوا على ما هموا به، بل انعكس الأمر فقد زاد الإسلام علوّاً، والرسول ارتفاعاً، والمسلمون سموّاً.

وقد ورد في بعض الأحاديث: تأويل الآية بالذين خالفوا الرسول في قصة «غدير خم» وأرادوا إخماد نور الوصي، وقالوا في الرسول كلاماً بذيئاً «١».

وَمَا نَقَمُوا النِّقْمَةَ الْإِنكَارِ وَالغُضْبِ، أَى أَن هُوَ لَاءَ لَمْ يَنْكُرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَن أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَغْنَى الْمُسْلِمِينَ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، بِفَضْلِ إِرْشَادَاتِ الرَّسُولِ، فَلَمْ يَكُنْ

(١) بحار الأنوار: ج ٣٧ ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٠

[سورة التوبة (٩): آية ٧٥]

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

للمسلمين ذنب يستحقون به النقمة من المنافقين، ولكن المنافقين كرهوا ذلك حسداً، أو المراد: أن الله أغنى هؤلاء المنافقين، فكان من اللازم أن يحبوا الله ورسوله حيث أعطاهم الغنائم لكنهم جعلوا مكان الشكر كفراناً، كما يقال: «لم يكرهني فلان إلا لأني أحسنت إليه».

فَإِنَّ يَتُوبُوا عَنْ نِفَاقِهِمْ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ يَكُ خَيْرًا لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَفِي آخِرَتِهِمْ حَيْثُ يَكُونُونَ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَجْتَنِبُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا يَكْرَهُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَيَقَالُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ «خَيْرٌ» مَقَابِلُ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا شَرًّا وَاقِعًا وَإِنْ يَتَوَلَّوْا أَى يَسْتَمِرُّوا عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَسُلُوكِهِمْ سَبِيلَ النِّفَاقِ يُعِدُّ لَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مَوْلَمَا مَوْجَعًا فِي الدُّنْيَا بِاجْتِنَابِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ، وَتَضْيِيقِ الْعَيْشِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا «١»، وَفِي الْمَآخِرَةِ بِالنِّكَالِ وَالنَّارِ وَمَا لَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أُمُورَهُمْ وَيَجْبَهُمْ وَلَا نَصِيرٍ يَنْصُرُهُمْ، فَلَيْسَ كَمَا ظَنُّوا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَنْصُرُونَهُمْ إِذَا وَقَعُوا فِي الْمَشَاكِلِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ حَيْثُ اخْتَمَرَ عَلَى طَبِيعَةِ النِّفَاقِ، لَا يَنْصُرُ حَتَّى أَخَاهُ وَأَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ.

[٧٥] وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ أَى عَهْدَ مَعَ اللَّهِ لئِنْ آتَانَا

(١) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٦ إلى ٧٧]

فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)

مِنْ فَضْلِهِ أَعْطَانَا اللَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ نَتَصَدَّقَ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فِيمَا أَعْطَانَا اللَّهُ فَنَنْفِقَ الْمَالَ فِي وَجْهِهِ، وَلَا نَكُونُ مَفْسِدِينَ مَسْرِفِينَ.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف كان محتاجاً فعاهد الله، فلما آتاه بخل به. وفي التفاسير: أنه قال للرسول صلّى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله! ادع الله أن يرزقني مالا. فقال: يا ثعلبة «قليل تؤدى شكره خير من

كثير لا تطيقه» فقال:

والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه.

فدعا له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فاتخذ غنما، فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة، وبعث رسول الله المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» (١).

[٧٦] فَلَمَّا آتَاهُمْ أَىْ أَعْطَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَجُودِهِ مَا طَلَبُوهُ بِخُلُوبِهِ وَلَمْ يَدْفَعُوا حَقَّهُ وَلَمْ يَفُوا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ وَتَوَلَّوْا أَىْ أَعْرَضُوا عَنْ إِعْطَاءِ حَقِّهِ كَمَا أَمَرَ اللهُ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْ دِينِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَمْرِ الرَّسُولِ وَأَعْمَالِ الْخَيْرِ.

[٧٧] فَأَعْقَبَهُمْ فَأَوْرَثَهُمْ بِخُلُوبِهِمْ وَنَقَضَهُمْ لِعَهْدِ اللهِ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ

(١) مستدرک الوسائل: ج ١٣ ص ٢٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٢

[سورة التوبة (٩): آية ٧٨]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

فإن الإنسان إذا أعرض عن أمر كبير لا بد وأن يختلق لنفسه تبريرات وأعدارا، ليبرر موقفه، وذلك هو النفاق إلى يوم يلقونه أى يلقون جزاء بخلهم، فالضمير عائد إلى البخل، وأريد به جزاءه، أو المراد نفس البخل، بناء على تجسيم الأعمال، أو الضمير عائد إلى الله سبحانه المعلوم من السياق، و«ملاقاة الله» إنما هى فى القيامة بملاقاة حسابه، فإنه سبحانه منزّه عن المكان والرؤية. وذلك بسبب ما أخلفوا الله ما وعدوه بسبب خلفهم للعهد الذى عاهدوا، من أن الله إذا أعطاهم من فضله تصدقوا وكانوا شاكرين وما كانوا يكذبون أى وبسبب كذبهم على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو المراد بالكذب عليه: أن الصدقة أخت الجزية - كما تقدم -.

[٧٨] أَلَمْ يَعْلَمُوا اسْتِفْهَامَ إِنْكَارِى، أَىْ أَلَيْسَ يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ التى يتناجون بها مع أمثالهم من المنافقين؟ فإن المنافق لا بد وأن يتناجى مع أمثاله لجعل حلول ومبررات لموقفهم النفاقى، كما تدور الأسرار فى نفوسهم فيقبلون أوجه الرأى للخلاص من مأزقهم وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ يعلم ما غاب عن الحواس، من الأمور المختفية فى النفوس، و النجوى، وغيرهما، فإذا علموا ذلك، فلما ذا لا يخشون منه سبحانه ولا يفعلون حسب مرضاته؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

[٧٩] و كان من المنافقين من يرصدون للمسلمين ليعيبنهم، فقد جاء رجل من المؤمنين بصاع من تمر للصدقة، فقال المنافقون: إن الله غنى عن صاعه، وإنما جاء بذلك حتى يذكر فى المتصدقين. وجاء رجل آخر بصره من دراهم، فقالوا: إنه جاء بذلك للرياء، فعاابوا المكثر بالرياء، والمقل بالإقلال، فنزل قوله تعالى: المنافقون الَّذِينَ يَلْمُزُونَ «اللمز» هو الطعن، أى يطعنون الْمُطَّوِّعِينَ أى معطى الصدقة تطوعا من «اطوع»، أصله «تطوع»، أدغمت التاء فى الطاء، و جىء بهمزة الوصل، لتعذر الابتداء بالساكن من الْمُؤْمِنِينَ و لعل ذكر هذا للدلالة على أن إيمان المتطوع كان اللازم أن يحجز القائلين من الطعن بهم، لكنهم منافقون لا يبالون بالإيمان والمؤمنين فى

الصَّدَقَاتِ كَمَا طَعَنُوا فِيمَنْ أَعْطَى الدَّرَاهِمَ وَ يَلْمِزُونَ الَّذِينَ لَا يُجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ أَى إِلَّا طاقَتَهُمْ فى الإنفاق و التصدق، كما عابوا من أعطى الصاع فَيَشِيخُرُونَ مِنْهُمْ و يستهزئون بهم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَى يجازيهم جزاء سخريتهم. و قد تقدم تفصيل الكلام فى سورة البقرة، فى قوله سبحانه: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ «١»، وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه.

[٨٠]

روى أنه عند نزول آية «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ» فى حق المنافقين قالوا: يا

(١) البقرة: ١٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٤

رسول الله استغفر لنا فوعدهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالاستغفار، فنزلت الآية

: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ الصيغة الأولى للأمر، و المراد بها المبالغة فى الإياس، أى سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر فإنهم لا يستحقون الغفران، و لذا لا يغفر الله لهم إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً صيغة مبالغة يراد بها الكثرة، كما يقال: «لو قلت لى ألف مرة ما قبلت» لا- يريد الألف، بل المراد أنه لا- يقبل و إن قال فوق الألف فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لأنهم جبلوا على النفاق و الجبل عليه لا يفيد الاستغفار، و هذا ليس إهانته للرسول- كما زعم- بل أفرغ التوبيخ لأولئك فى هذا القالب، كما تقدم فى قوله: (وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) «١».

و إن قيل: كيف جاز للرسول أن يعدهم بما لم يفعل؟

قلنا: إن ثبتت الرواية، لم يكن به بأس لأن الاستغفار إنما كان لأجل أن يغفر الله، فإذا أخبر سبحانه بأنه لا يغفر لم يبق للاستغفار مجالاً، كما لو وعد إنسان بإطعام زيد ثم مات زيد. ثم إنه كان مراد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الاستغفار بالشرط فلم يكن إخباراً مطلقاً حتى يقال أنه يلزم جهله بالمستقبل، و أنه تكلم من عند نفسه، و هذا ينافى قوله تعالى: «مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «٢»».

(١) الأعراف: ١٥١.

(٢) النجم: ٤ و ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٥

[سورة التوبة (٩): آية ٨١]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)

ذَلِكَ الذى تقدم من عدم قبول توبتهم و عدم فائدة الاستغفار بالنسبة إليهم بسبب أنهم أى المنافقين كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ كفرا باطنا، و إن أظهروا الإسلام وَ اللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ فإنه سبحانه لا يلفظ بهم اللطف الخفى بعد أن خرجوا عن طاعته و خالفوا أوامره عن علم و عمل.

[٨١] فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ «المخلف» بصيغة المفعول من باب «التفعيل» هو المتروك خلف من مضى، و سُمى مخلفاً لأنه تخلف بنفسه، أو خلفه شخص آخر و أبقاه، كالمؤخر، بِمَقْعَدِهِمْ بِمَقْعَدِهِمْ هو «مصدر ميمي» بمعنى «القعود» أى أن من تخلفوا عن الجهاد فى تبوك، فرحوا بقعودهم خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ أى بعده، أو بمعنى: بقاؤهم خلافاً للرسول صلى الله عليه و آله و سلم، فقد فرحوا بأنهم نجوا من تلك السفرة المتعبة الخطرة وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ترجيحاً للراحة على التعب فى سَبِيلِ اللَّهِ و لإعلاء كلمته وَ قَالُوا قال أولئك المخلفون للمسلمين و لنظرائهم من المنافقين: لا- تَنْفِرُوا أى لا تذهبوا للجهاد فى الْحَرِّ فإن وقت خروجهم كان مصادفاً للحر

الشديد قُلْ يا رسول الله لهؤلاء: نارُ جَهَنَّمَ التي تجب للمتخلف أشدَّ حرًّا من هذه الحرارة التي يلاقيها المجاهدون، فهي أولى بالاحتراز من هذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٦

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٢ الى ٨٣]

فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لِيُبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أَي يفهمون، والمعنى: أنهم لو فقهوا لعلموا أن نار جهنم أولى بالاحتراز والتجنب.

[٨٢] إن الفرح الذي فرحه المخلفون بسبب بقائهم يوجب لهم العذاب الدائم، فاللازم أن يضحكوا قليلا- لأنه لم يبق لهم مجال للضحك، فقد استحقوا بذلك العقاب، والمهدد لا يضحك فليضحكوا قليلا إنه ليس أمرا بالضحك وإنما بيان لوجوب التقليل من ضحكهم وليبكوا كثيرا حيث عملوا ما يستحقون به البكاء حيث اشتروا النار بفرارهم من الزحف جزاء بما كانوا يكسبون من النفاق والتخلف عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

[٨٣] فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ يا رسول الله من هذه الغزوة- غزوة تبوك- إلى طائفة منهم لا خصوصية للرجوع إلى الطائفة، وإنما المقصود ترتيب الأثر على تلك الطائفة من المنافقين الذين تخلفوا عن تبوك فاستأذنوك أي طلبوا منك الإذن للخروج معك إلى غزوة أخرى فقل لهم: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا إلى الغزوة وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا فَإِنَّا قَطَعْنَا عَنْكُمْ وَ لَا صِلَةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكِ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ الَّذِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٧

[سورة التوبة (٩): آية ٨٤]

وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) يخالفوننا، و كونوا معهم دائما، إن الذي يترك الإنسان في ساعة العسرة لا يصلح أن يكون معه، فطبعه طبع انهزامي مخلد إلى الدعة، و لو خرج لم يزد إلا خبالا و خذلانا، فلذا كان اللازم أن يجتنب عنه إطلاقا، بالإضافة إلى أن الإسلام في غنى عنه، و هو لا يستحق شرف الجهاد فليبق في بيته و يكن مع الخالفين.

[٨٤] ثم نهى سبحانه نبيه عن الصلاة على مثل هؤلاء المنافقين ليحذر غيرهم من النفاق، ولأنهم لا يستحقون الرحمة والغفران ولا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَي إذا مات أحد هؤلاء المنافقين فلا تصل على ميتهم أبداً أي إلى الأبد، فإنه تجوز الصلاة على من لم يصل عليه إلى آخر العمر- على قول- لكن المنافق لا- يستحق ذلك ولا- تقم على قبره أي لا- تقف على قبره للدعاء كما هو عادة الناس أن يقفون على قبر المسلم يدعون له و يستغفرون من أجله.

و ذلك بسبب إنَّهم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و إسلامهم الظاهري إنما حقن دماءهم و حفظ أموالهم و أعراضهم، لكنه لم يدخلهم في زمرة المؤمنين الذين لهم الكرامة و ماتوا و هم فاسقون خارجون عن طاعة الله سبحانه. ثم إن المراد ب «الصلاة» طلب الرحمة له، كما أن المراد ب «الوقوف على قبره» ذلك، فلا ينافي ذلك ما فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعبد الله ابن أبي المنافق الذي مات فصلَّى الرسول عليه، و لعنه عقيب الرابعة. ثم إنه قد اختلفت الأقوال حول هذا المنافق مما لا يهمننا التعرض له.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٨

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَ إِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦)

[٨٥] وَلَا تُعْجِبْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَي لَا تَنْظُرْ نَظْرَةَ إِعْجَابٍ - الْمَسْتَلْزِمَةُ لِلتَّكْرِيمِ - أَمْوَالُهُمْ أَي أَمْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَ أَوْلَادُهُمْ الْكَثِيرَةَ، كَيْفَ قَدْ مَنَحُوا ذَلِكَ، وَ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَكْرِيمِ اللَّهِ لَهُمْ، بَلْ بِالْعَكْسِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسَهُمْ «زَهَقَ النَّفْسُ» عِبَارَةٌ عَنْ هَلَاكِهَا وَ هُمْ كَافِرُونَ فَهَمَّ بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا لِلْمَالِ وَ الْأَوْلَادِ مِنَ التَّبَعَةِ وَ الِهْمُومِ، وَ بَيْنَ عَذَابِ الْآخِرَةِ حَيْثُ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ مَعَ الْكُفْرِ. وَ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ الْآيَةِ فَرَاغَ.

وَ لَعَلَّ الْمَقْصُودَ مِنْ تَكَرَّرِ الْآيَةِ: النَّهْيُ عَنْ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّكْرِيمِ اللَّاشَعُورِيِّ لِلْكَفَّارِ وَ الْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ نَظْرَ الْإِعْجَابِ هُوَ نَظْرُ التَّكْرِيمِ، فَيَخْتَلِفُ الْمَقْصُودُ هُنَا مِنَ الْمَقْصُودِ هُنَاكَ.

[٨٦] وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَتَضَمَّنُ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ إِذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ إِذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، أَي آمَنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا، وَ إِذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِقَصْدِ إِبْقَائِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَ اسْتِقَامَتِهِمْ فِيهِ نَحْوُ «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ، فَأَمَنُوا، وَ ادْعُوا غَيْرَكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَ الْجِهَادِ اسْتِثْنَاءً لَكَ أَي طَلَبَ مِنْكَ الْإِذْنَ فِي عَدَمِ الْجِهَادِ أَوْ لَوْ الطَّوْلَ أَي أَصْحَابَ الْمَالِ وَ الْقُدْرَةَ وَ الْغِنَى مِنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَ قَالُوا ذَرْنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٧ إلى ٨٩]

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرُّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أَوْلِيئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أَوْلِيئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) أَي دَعَانَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ الَّذِينَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ جِهَادٌ، مِنَ النِّسَاءِ وَ الصِّبْيَانِ وَ الْعَاجِزِينَ.

[٨٧] رَضُوا أَي رَضِيَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ جَمْعُ «خَالِفٌ»، وَ هِيَ الْمَرْأَةُ سَمِيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا تَخْلَفُ عَنِ الْجِهَادِ، أَوْ هُوَ أَعْمُ مِنَ «الْخَالِفِ» فَإِنَّ «فَارِسَ» يَجْمَعُ عَلَى «فَوَارِسَ»، وَ الْمَرَادُ: كُلُّ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْجِهَادِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الصِّبْيَانِ وَ الْعَاجِزِينَ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَإِنَّهُمْ بِسَبَبِ نِفَاقِهِمْ طُبِعَ عَدَمُ الْإِيمَانِ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ قَبْحَ عَمَلِهِمْ وَ تَرْكِهِمْ لِلْجِهَادِ، كَشَأْنِ كُلِّ إِنْسَانٍ انْغَمَرَ فِي الشَّهَوَاتِ وَ الْمَفَاسِدِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ قَبْحَ عَمَلِهِ بَلْ يَرَاهُ حَسَنًا.

[٨٨] لَكِنَّ الرُّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ إِيمَانًا صَادِقًا جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ بِإِنْفَاقِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَ سَمِيَ جِهَادًا لِأَنَّ بَدَلَ الْمَالِ يَحْتَاجُ إِلَى جِهَادِ النَّفْسِ وَ تَعَبِهَا وَ أَنْفُسِهِمْ يَقَاتِلُونَ الْكُفْرَ وَ يَجَالِدُونَ الْمُرْدَةَ الْفَجَارَ وَ أَوْلِيئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ الْمَنَافِعُ وَ الْأَشْيَاءُ الْخَيْرَةُ مِنَ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُمْ يَحْرُزُونَ حَسْنَ السَّمْعَةِ وَ الْمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَ النَّعِيمَ فِي الْجَنَّةِ وَ أَوْلِيئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ النَّاجِحُونَ.

[٨٩] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٠

[سورة التوبة (٩): آية ٩٠]

وَ جَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) وَ قَصُورُهَا، فَهَمَّ مَشْرُفُونَ عَلَى الْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، وَ فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ وَ مَتْعَةٌ خَالِدِينَ فِيهَا لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا، وَ لَا زَوَالَ لِنَعِيمِهَا عَنْهُمْ ذَلِكَ الْإِحْرَازَ لِلْخَيْرَاتِ وَ لِلْجَنَّاتِ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنْهُ.

[٩٠] أَمَامَ الْحَرَكَاتِ يَنْقَسِمُ النَّاسُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: قَسَمَ يَأْتِي وَ يَنْضَمُ إِلَى الْحَرَكَةِ، وَ قَسَمَ لَا يَأْتِي وَ لَا يَنْضَمُ، وَ قَسَمَ يَأْتِي وَ يَنْضَمُ. وَ هَكَذَا حَدَثَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَالْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ انْضَمُّوا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ الْمُنَافِقُونَ بَعْضُهُمْ جَاءَ لِيَعْتَذِرَ بِلَا مَبْرَرٍ، وَ بَعْضُهُمْ لَمْ يَجِئْ إِطْلَاقًا حَتَّى لِلْإِعْتِذَارِ وَ جَاءَ الْمَعْدَّرُونَ مِنَ «اعْتَذَرَ» بَابِ «التَّفْعِيلِ» بِمَعْنَى: أَبْدَى الْعِذْرَ بَدُونَ أَنْ يَكُونَ ذَا عِذْرٍ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ إِذَا الْمَرَادُ بِهِمْ:

أَهْلُ الْبَدْوِ، وَ إِذَا الْمَرَادُ: أَهْلُ الْحَضَرِ، لَكِنَّهُمْ شَبَّهُوا بِالْأَعْرَابِ فِي عَدَمِ اسْتِحْقَاقِهِمُ التَّكْرِيمَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ

نفاقاً) «١».

جاء هؤلاء لِيُؤذَنَ لَهُمْ أى يأذن لهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى التخلّف عن الجهاد وَفَعَدَ المنافقونَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فى باطنهم، وَ إِنْ أَظْهَرُوا التصديق فى الظاهر - كما هو شأن المنافق - فَإِنْ هَؤُلاءِ لَمْ يَأْتُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للاعتذار بل قعدوا فى مكانهم وَ كَأَنَّ أَمْرًا لَمْ يَحْدُثْ سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ مِنْ هَؤُلاءِ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه، وَ إِنَّمَا خَصَّصَ جماعه منهم لأنهم لَمْ يَكْفُرُوا كُلِّهِمْ، فالمدعورون من

(١) التوبة: ٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤١

[سورة التوبة (٩): آية ٩١]

لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١)

الأعراب غالباً لا ينطون على الكفر، و إنما يتخلفون تكاسلاً.

[٩١] ثم بين سبحانه أهل الأعدار الذين يسقط عنهم الجهاد بقوله: لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ جمع «ضعيف» كالشيخ الكبير، و الضعيف البنية، و العاجز لعمى أو زمانه أو ما أشبه - مما لا يستمى مرضاً - وَ لا عَلَى الْمَرْضَى جمع «مريض» و هم أصحاب الأسقام و العلل المانعة عن الجهاد وَ لا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ ليست معهم نفقة الخروج و أسباب السفر حَرَجٌ ضيق، فلا جناح عليهم فى التخلّف عن الجهاد إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بأن أخلصوا العمل من الفسق، و كانوا ناصحين فى قرارة نفوسهم. و ليس المعنى: وجود الحرج لغير الناصح - من جهة عدم الجهاد - بل المراد: أن عدم الحرج المطلق إنما يترتب على العاجز الناصح، أما العاجز المنافق فعليه حرج من جهة نفاقه.

ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ لا سبيل على تعذيبهم و لا جناح عليهم، فإنهم محسنون فى أعمالهم. و لا يخفى أن الآية لا تدل على أن يريد الإحسان لا جناح عليه و إن أساء، فإن الظاهر منها أن المحسن حقيقة لا جناح عليه وَ اللَّهُ غَفُورٌ لذنوبهم رَحِيمٌ بهم، فلا يحتملهم فوق طاقتهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٢

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩٢ الى ٩٣]

وَ لا - عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِ حَمَلْتُمْ قُلْتُمْ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

[٩٢] وَ لا - سبيل و جناح عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِ «ما» زائدة تأتى لتزيين الكلام، أى إذا جاءوك يا رسول الله لِحَمَلْتُمْ أى يسألونك مركباً يركبون عليه ليجاهدوا قُلْتُمْ يا رسول الله: لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ فليس عندى مركب تركبونه تَوَلَّوْا أى رجعوا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أعينهم تسيل بالدموع من حزنهم أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ينفقونه لأجل تهيئته وسائل الجهاد.

ورد أن سبعة من الأنصار جاءوا إلى الرسول يطلبون منه المركب ليرافقوه فى غزوة، فاعتذر منهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه لا يجد ما يحملهم، فرجعوا باكين «١». و فيهم نزلت الآية.

[٩٣] إِنَّمَا السَّبِيلُ أى السبيل لعقابهم و لومهم عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ يطلبون إذنك للتخلّف عن الجهاد و البقاء فى المدينة وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ قادرون على الجهاد و نفقاته رَضُوا أى رضى هؤلاء المستأذنون بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الصِّبْيَانِ وَ الْعَاجِزِينَ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ بسبب نفاقهم فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بأن تخلفهم عن الجهاد بسبب

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٣

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء الحادى عشر من آية ٩٤ من سورة التوبة إلى آية ٦ من سورة هود

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٥

[سورة التوبة (٩): آية ٩٤]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَّرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيَتَّبِعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)

[٩٤] لندكر طرفا يسيرا من هذه الغزوة «تبوك» من كراس «رسول الإسلام فى المدينة» من السلسلة التى وضعناها فى قادة الإسلام «١»: لما خرج الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من المدينة استعرض الجيش فكانوا ثلاثين ألفا، فغمر الجيش الفرح لكثرة عددهم، لكنهم عانوا فى هذه السفر أشد أنواع الجوع و العطش، فالمضرة كبيرة، و الحر شديد، و القلوب متعلقة بالمدينة، إذ نضجت الثمار، و حان قطفها، و المركوب قليل، حتى أن العشرة منهم كانوا يتناوبون فى ركوب جمل واحد، و الطعام قليل جدا، ففى بعض الأحيان كان نفران منهم يتقاسمان ثمرة واحدة شق لهذا و شق لذاك، و أصابهم أشد العطش فكانوا ينحرون إبلهم العزيرة، لينقبوا كروشها، و يشربوا ماءها، أو يعتصروا فرثها ليشربوا عصيره ثم يجعل ما بقى على كبده، حتى أن بعضهم رأى الموت بعينه، فطلبوا من النبى الاستسقاء، فدعا صلى الله عليه و آله و سلم رافعا يديه إلى السماء. قال الراوى: فلم يرجعوا حتى هطلت السماء بمطر غزير. هذا بالإضافة إلى الإشاعات التى ملكت القلوب - و إن سارت بأجسامها مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم - أنه لا بد و أن تقضى جيوش الروم الهائلة المنظمة على الجيش الإسلامى، فلا يبقى منه أحد ..

و سار الرسول حتى وصل «تبوك» و قد كان «هرقل» وزع رواتب سنة كاملة على جيشه، كما وزع أموالا - طائلة على القبائل التى استخدمها لقتال المسلمين، و هم لحم و جذم و عاملة و غسان و غيرها ... و قد أتت الروم أنباء هائلة عن جيش المسلمين، مما رأوا أن

(١) للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٦

من الصالح عدم دخولهم فى قتال لا يعرف مصيره، و قد كان الروم شاهدوا فى حرب «مؤتة» قتال المسلمين، فإذا لم يتمكن جيشهم، و عدده «مائتا ألف» من جيش «مؤتة» الذى كان بقيادة جعفر عليه السلام و عدده «ثلاثة آلاف» فكيف يقاوم جيش الإسلام كله و هم لا يعلمون عدده من الكثرة بقيادة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم. و لذا قرروا انسحاب الجيش، فانسحبوا قبل الاصطدام بجيش المسلمين.

وصل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلى «تبوك» فلم يلق جيشا، فاستشار أصحابه فى غزو بنى الأصفر - أى الروم - و الرجوع إلى المدينة؟ فأشاروا على الرسول بالرجوع، فبقى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم هناك عشرين يوما، و عقد الاتفاقيات مع الزعماء و القبائل، فأرسل إلى أصحاب أيلة: «يوحنا بن روبه» بالإذعان للمسلمين أو الغزو؟ لكن «يوحنا» كان رجلا حكيما، فاختار الإذعان، و تم الاتفاق بإعطائه الجزية للدولة الإسلامية، و عدم التعرض للدعوة الإسلامية ... و عقد الصلح بين المسلمين و بين أهل «جرباء» و هى قرية فى منطقة «عمان» بالبلقاء، من أراضي الشام، على مثل المصالحة مع صاحب أيلة ... و عقد الصلح بين المسلمين و بين أهل

«أذرح» قرية أخرى قريبة من الجرباء بمثل مصالحة الجرباء .. و تم الصلح بين المسلمين و بين «الأكيدر» ملك «دومة الجندل» على بذل الجزية و عدم التعرض للمسلمين.

و انتظر الرسول جيوش الروم لكنها لم تزحف، فأخذ الجيش الإسلامي طريقه إلى المدينة بعد ما أمن الحدود الشمالية، و صارت له منعة و قوة، و فتحت مجالات الإسلام في القلوب و المدن و القرى، و إذا بالمدينة تشاهد غبار جيش الإسلام المنتصر على الإمبراطورية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٧

يبدو في الأفق البعيد، و يقترب رويدا رويدا، و إذا بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يزحف بهذه الجيوش المنتصرة في هيبه الرسالة السماوية، و يلتقى الإمام بالرسول تلاقى الأخ بأخيه في فرح و سرور، فقد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قد خَلَّفَ عليا في المدينة لئلا يفسد المتخلفون الجو، كما كانوا قد تآمروا، و هناك قال له: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (١)،

و يجيء المتخلفون عن الجيش، ليعتذروا عما تقدم منهم من تفریط، و يطهروا آثامهم السالفة بالتوبة و الندم يَعْتَذِرُونَ أى يعتذر المتخلفون من المنافقين الذين كان عددهم ثمانين، و قد تخلفوا في المدينة خوفا و نفاقا، و إرادة للتأمر على الرسول، و قلب أوضاع المدينة إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ من غزوة «تبوك» بأعذار كاذبة باطلة لا حقيقة لها و لا واقع، كما هو شأن المنافق في كل زمان قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: لَا تَعْتَذِرُوا فَإِنْ عَذَارَكُمْ لَا يَفِيدُكُمْ، فَإِنَا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ أَى لَنْ نصدقكم فى ما تقولون قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ أَخْبَرْنَا اللَّهُ عز اسمه مِنْ أَخْبَارِكُمْ و أعلمنا حقيقة أمركم، و أنكم لم تخرجوا نفاقا و جبا لا لعذر مشروع.

و فى بعض التفاسير أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ نهى المسلمين أن يكلموهم أو يجالسوهم ليدوقوا و بال أمرهم، و لئلا يتجرأ أحد على خرق أوامر

(١) بحار الأنوار: ج ٣١ ص ٣٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٨

[سورة التوبة (٩): آية ٩٥]

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)
الله و الرسول (١).

وَ سَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ أَى سينظران فى المستقبل إلى أعمالكم الدالة على نفاقكم و عدم صحة أعداركم، فإن عمل الإنسان فى المستقبل دليل على عمله فى الماضى، فعمله بعضه من بعض ثُمَّ تَرُدُّونَ أَى ترجعون إلى عالمِ الغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فى الآخرة، و المراد بذلك: التهديد، و فى الآخرة سيحاسبكم الله على أعمالكم التى صدرت منكم، كما يقول الحاكم للمجرم: «ستررد إلى» يريد تهديده بالعقاب فَيَبْتَلِيكُمْ أَى يخبركم الله سبحانه بما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فيجازيكم عليها.

[٩٥] و جاء رئيس المنافقين «عبد الله بن أبى» حالفا للنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن لا يتخلف بعد هذه الغزوة، و طلب من النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يرضى عنه سَيَحْلِفُونَ سيقسمون بالله لَكُمْ أَيها المؤمنون إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا رجعتم إليهم و وصلتتم إلى المدينة لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ لتصفحوا عن جرمهم، و لا توبخوهم على ما صدر منهم فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إعراض ردّ و إنكار، لا إعراض صفح. و من البلاغة التشابه فى اللفظ و الاختلاف فى المعنى.

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩٦ إلى ٩٧]

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧)

إِنَّهُمْ رَجَسٌ أَى نَجَس، و المراد نجاسة باطنهم، فهم كالشيء الممتن النجس الذى يلزم الاجتناب عنه، و إلا أصاب الإنسان قدره و نتنه و ماوأهم مصيرهم جهنم فهي مستقرهم جزاء بما كانوا يكسبون من النفاق و الآثام.

[٩٦] يَحْلِفُونَ لَكُمْ يحلف هؤلاء المنافقون لكم أيها المسلمون، يريدون بذلك تقوية أعدائهم و تصديقكم لهم لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ طلبا لمرضاتكم حتى يؤمنوا بسعادتهم الدنيوية بينكم فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ مجاملة، أو لعدم علمكم بواقعهم النفاقى فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ الذين فسقوا و خرجوا عن طاعة الله سبحانه، ثم لم يرجعوا عن نفاقهم، قد علقت الآثام بقلوبهم فهي رجس نجس، و المراد: أن الواجب عدم إظهار المؤمنين الرضا عنهم، بعد ما علموا أن الله غير راض عنهم.

[٩٧] و بعد ما ينتهى الكلام حول الكفار و المؤمنين و المنافقين من أهل المدينة و نحوها، يأتى دور ذكر الكفار و المؤمنين و المنافقين من أهل البوادي، فإن لأهل البوادي لونا خاصا يميزهم عن أهل المدن «فالأعراب أشد كفرا» لكفارهم، «مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا» لمنافقيهم «مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» لمؤمنيهم.

الأعراب يُقال: رجل أعرابي، إذا كان ساكنا فى البادية سواء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٤٩٨

[سورة التوبة (٩): آية ٩٨]

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)

كان عربيا أو أعجميا، و يقال: رجل عربى إذا كان من العرب سواء سكن البادية أو المدينة أشد كُفْرًا وَ نِفَاقًا لأنهم حيث كانوا من أهل البادية سرت فيهم جفوة الصحراء و قساوة الجهل، فكفرهم و نفاقهم أشد من كفر كفار أهل المدن و نفاق منافقى أهل الحضر، لبعدهم عن الحضارة و العلم و الآداب و أجدر أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ أى أنهم أحرى و أولى بعدم العلم بالفرائض و السنن و سائر الحدود التى أنزلها الله سبحانه على رسوله، و إنما قال: «حدود» لأن حدود الأحكام أدق من نفس الأحكام، و لذا كثيرا ما يعرف الناس الأحكام، لكنهم لا يعلمون حدودها، أى خصوصياتها و ميزاتها، حتى لا يدخل فيها شيء ليس منها، و لا يخرج منها شيء هو منها و الله عَلِيمٌ بهم و بأحوالهم حَكِيمٌ فيما يأمر و ينهى بالنسبة إليهم. و فى الآية دلالة على ذم بقاء الإنسان أعرابيا- ساكنا للبادية-.

[٩٨] و مِنَ الْأَعْرَابِ منافقون و هم مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ فى سبيل الله مَغْرَمًا «المغرم» هو الغرم، و هو نزول نائبة بالمال، فهم يظنون أن ما أنفقوه فى سبيل الله من جهاد أو غيره غرامة لحقت بأموالهم، حيث لا- يرجون خيره و ثوابه، و لا يصدّقون بما قال الله و الرسول فى سبيل بذل الأموال و أجرها و يَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ أى ينتظر بكم صروف الزمان و حوادث الأيام، فقد كان هؤلاء المنافقون ينتظرون الانكسار و الذلة و الفقر و ما أشبه للمؤمنين. و سميت الحوادث السيئة بالدوائر،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥١

[سورة التوبة (٩): آية ٩٩]

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

لأن الفلك يدور، فإذا دار جاء بالمكروه، ولذا يقال لمن يراد تحذيره:

«لا تغفل من دوران الفلك».

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ هَذَا دَعَاءٌ عَلَى أَوْلِيكَ الْأَعْرَابِ الْمُنَافِقِينَ بَأَن تَدُورُ الدَّائِرَةُ الْآتِيَةُ بِالْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ عَلَيْهِمْ، لَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِهِمُ النِّفَاقِيَّةِ عَلَيْهِمْ بِضَمَائِرِهِمْ وَنَوَايَاهُمْ، فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا.

[٩٩] وَمِنَ الْأَعْرَابِ قِسْمٌ طَيِّبٌ وَهُوَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَيَعْتَقِدُ بِمَا جَاءَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْوَالِ الْمَعَادِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ فَيَعْلَمُ أَنَّ إِنْفَاقَهُ يَقْرَبُهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ «قُرْبَاتٍ» جَمْعُ قَرَبَةٍ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الْخَيْرَةُ الَّتِي تَوْرَثُ قَرَبَ الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَرَبًا تَشْرِيفِيًّا عِنْدَ اللَّهِ فَهِيَ تَبْقَى عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ لَا تَضِيحُ وَلَا تَذْهَبُ عَيْثًا، كَمَا كَانَ يَظُنُّ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ إِنْفَاقَهُمْ مَغْرَمًا. وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَى يَبْتَغَى بِمَا يَنْفِقُ دَعَوَاتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَن يَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ، فَإِنَّ «الصَّلَاةَ» بِمَعْنَى الْعَطْفِ وَالرَّحْمَةِ وَالِدَعَاءِ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى «قُرْبَاتٍ» أَلَا إِنَّهَا أَى نَفَقَاتِهِمْ قُرْبِيَّةٌ لَهُمْ مُوجِبَةٌ لِقَرَبِهِمْ إِلَى سَاحَةِ رِضَا اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَهُمْ مَا ابْتَغَوْا، وَيَبْشُرُونَ بِحَسَنِ الْعَاقِبَةِ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ فَتَغْمَرَهُمُ الرَّحْمَةُ فِي الْجَنَّةِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِدُنُوبِهِمْ رَحِيمٌ بِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٢

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمُ بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ.

[١٠٠] وَبَعْدَ ذِكْرِ أَقْسَامٍ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ وَأَهْلِ الْبَادِيَةِ، يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ أَحْوَالَ الْأُمَّةِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنَّ فِيهِمُ الْمُؤْمِنَ وَالْمُنَافِقَ وَالْكَافِرَ، وَأَنَّ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ وَمَرَاتِبٍ وَالسَّابِقُونَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ الْأَوَّلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمُ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْحَبْشَةِ أَوْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالْأَنْصَارِ لِلْإِسْلَامِ وَهُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ سَبَقُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَالنَّصْرَةِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ أَى بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّ الْإِتِّبَاعَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ لِشَيْءٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَعْنَى رِضَا أَنْ أَوْجِبَ لَهُمُ الْخَيْرَ وَالْجَنَّةَ وَرَضُوا عَنْهُ فَهُمْ فَائِزُونَ بِشَرَفِ الرِّضَا، وَمَنْ دَخَلَ قَلْبَهُ الرِّضَا عَنْ الرَّبِّ ارْتِاحًا وَاطْمَأْنَانًا وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا، وَلَا تَغْيِيرَ لَهَا عَنْهُمْ ذَلِكَ الرِّضْوَانُ وَالْجَنَّةُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالْفَلَاحُ الَّذِي يَصْغُرُ دُونَهُ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا فَضَّلَ اللَّهُ السَّابِقِينَ لِمَا تَحْمَلُوهُ مِنَ الْمَشَاقِّ وَالْأَتْعَابِ فِي نَصْرَةِ الدِّينِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ.

[١٠١] وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ أَى فِي أَطْرَافِ بِلَدِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ السَّاكِنِينَ فِي الْبَادِيَةِ، أَى بَعْضُهُمْ مُنَافِقُونَ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٣

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٢]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُنَافِقُونَ مَرَدُوا أَى تَمَرَّنُوا حَتَّى صَارُوا مَاهِرِينَ عَلَى النِّفَاقِ وَ ذَكَرَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لِلإِشْعَارِ بِخَطَرِهِمْ، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ الْمَاهِرَ أَكْثَرَ خَطَرًا مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَا تَعْلَمُهُمْ أَى لَا تَدْرِكُ حَقِيقَتَهُ نَفَاقَهُمْ وَلَا تَعْرِفُ أَشْخَاصَهُمْ، وَهُوَ تَقْرِيرٌ لِمَهَارَتِهِمْ فِيهِ، بِحَيْثُ يَخْفُونَ عَلَيْكَ حَتَّى أَنْكَ لَا تَعْلَمُ ذَلِكَ. وَهَذَا لَا غَضَاضَةَ فِيهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ. وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ اللَّهَ إِذَا لَمْ يَشَأْ تَعْلِيمَهُ بِشَيْءٍ لَمْ يَعْلَمَهُ. وَمَنْ الْمَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لَفْظَةُ «لَا تَعْلَمُهُمْ» اسْتَعْمَلَتْ بِقَصْدِ التَّهْوِيلِ مِنْ نِفَاقِهِمْ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا اللَّفْظِ يَسْتَعْمَلُ بِقَصْدِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ مَعْنَاهُ، فَيَقَالُ: «أَنْتَ لَا تَعْرِفُ زَيْدًا كَيْفَ يَحْسَنُ» يَرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُ كَثِيرُ الْإِحْسَانِ.

نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ وَنَعْرِفُ حَقَائِقَهُمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ لَعَلَّ الْمَرَادَ: مَرَّةً فِي الدُّنْيَا بِالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ وَعَدَمِ هُدُوءِ بَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) «١»، وَ مَرَّةً فِي الْقَبْرِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ هُوَ عَذَابُ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ. [١٠٢] وَأَخْرَجُوا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمِنَ الْأَعْرَابِ حَوْلَهَا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَقَدْ جَاءَ بَعْضَ الْمُتَخَلِّفِينَ مُعْتَذِرِينَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَمَّا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ التَّخَلُّفِ، وَكَانُوا سَبْعَةَ نَدَمُوا عَلَى قَعُودِهِمْ وَتَخَلَّفَهُمْ عَنِ

(١) طه: ١٢٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٣]

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)

الجهاد في غزوة تبوك لما بلغهم ما نزل في المتخلفين، فأيقنوا على أنفسهم بالعذاب فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد، فقدم رسول الله فدخل المسجد و صلى ركعتين - وكانت هذه عادته إذا قدم من السفر- فلما رآهم موثقين سأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يحلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وأنا أقسم أنى لا أحلهم حتى أؤمر فيهم. فنزلت الآية، فأطلقهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا بعد ما فكهم: هذه أموالنا، وإنما تخلفنا عنك بسببها، فخذها و تصدق بها و طهرنا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فنزلت (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ..) «١».

خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ عَمَلًا آخَرَ سَيِّئًا فَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِ الرَّسُولِ لَكِنَّمَا تَرَكُوا الْجِهَادَ فِي تَبُوكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَ إِنَّمَا قَالَ: «عسى» ليكونوا بين الخوف و الرجاء إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِلذُّنُوبِ رَحِيمٌ بِالنَّاسِ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ. [١٠٣] خُذْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ أَى أَمْوَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا صَدَقَةً هِيَ بَعْضُ أَمْوَالِهِمْ، وَ لَذَا جَاءَ ب «من». و الظاهر من السياق أنها غير الصدقة المفروضة التي هي من الزكاة. و قد قال المفسرون: إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أخذ ثلث أموال التائبين و ترك لهم الثلثين «٢» تُطَهِّرُهُمْ تِلْكَ الصَّدَقَةُ عَنِ دَنَسِ الذُّنُوبِ

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٥

و الخطايا، أو المراد تطهرهم أنت بتلك الصدقة، و تطهير الإنسان بالصدقة إنما هو تطهير معنوي، فإن للذنوب نجاسة، و الصدقة توجب تنظيف الإنسان من تلك النجاسة، لأنها موجبة للغفران و حت الآثام وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا «التركية» هي التنمية أى توجب لهم النمو، و ذلك أعم من النمو الخلقى و الخلقى و سائر أقسام النمو، و سميت الزكاة زكاة، لأنها توجب نمو صاحبها، أو المال المزكى، و «تزكيهم» خطاب، بخلاف «تطهرهم» المحتمل للأمرين.

وَ صَيَّلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى مَعْطَى الصَّدَقَةِ، وَ الْمُرَادُ بِ «الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ» الدُّعَاءُ لَهُمْ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ عِبَارَةٌ عَنِ الدُّعَاءِ، فَإِنَّ صَاحِبَ الصَّدَقَةِ إِذَا دَعَا لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ جَبْرًا لِمَا يَحْسُ بِهِ مِنْ أَلَمِ فَقْدِ الْمَالِ إِنَّ صَيَّلَاتِكَ عَلَيْهِمْ سَيَكُنُّ لَهُمْ أَى مَوْجِبَةٌ لِسُكُونِ خَاطِرِهِمْ وَ هُدُوءِ بَالِهِمْ وَ ارْتِيَا حِ نَفُوسِهِمْ.

روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا آتاه آت بالصدقة قال: «اللهم صلّ عليه» «١».

و الظاهر تحقق الصلاة بكل لفظ أفاد الدعاء، نحو: «بارك الله لك أو آجرك الله» أو ما أشبهه، كما أن الظاهر من السياق و التعليل أن

الحكم عام لا يخص الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وذلك لأن لنا برسول الله أسوء حسنة، فما دل على الخصوصية استثنى، و ما لم يدل بقى على عموم الأسوء وَ اللهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ وَأَقْوَالِهِمْ عَلَيْهِمْ بِصَدَقَاتِهِمْ وَ مَا نُوْوَهُ

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٦

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٤]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)
من النيات الصالحة.

[١٠٤] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَى: ألم يعلم هؤلاء المتصدقين، أو الناس جميعا؟! وهذا تحريض للناس على التوبة و التصدق، لا لأولئك التائبين الذين أرادوا أن يتصدقوا. فلا يقال: أنه لا مجال لمثل هذا الاستفهام إلا للمنكر، فلا يحسن أن يقول الإنسان لمريد الحج: «ألا تعلم أن للحج ثوبا عظيما»، بل إنما يحسن قول ذلك لمن يريد الحج. و إنما جاء الاستفهام فى سياق قصة التائبين لإعطاء الصدقة للمناسبة أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ فَلَا- صغار فى التوبة حتى يأنف الإنسان من الإنابة، إن طرف القبول هو الله العظيم الشأن، و هذا أمر طبيعى، فإن الإنسان لا يكره الاعتراف لدى العظيم، و إنما يكرهه لدى الحقير وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ أَى يقبلها، فليس الآخذ هو الفقير حتى لا يهتم الإنسان بشأنه، و إنما هو سبحانه، و ذلك يوجب الإعطاء بكثرة و احترام، لا بقله و إهانته، كما هو الطبع البشرى فى إرادة إعطاء الشيء لمن دونه.

و فى الخبر: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تصل إلى يد السائل»

«١»، و هذا على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس، مبالغة فى الأمر.

وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ كَثِيرُ قَبُولِ التَّوْبَةِ، إما باعتبار الأفراد، و إما

(١) فقه القرآن: ج ١ ص ٢٢٢ ..

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٧

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٥]

وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)
باعتبار كل فرد حيث أن الإنسان لو عصى ألف مرة و فى كل مرة تاب قبلت توبته، إذا كانت توبته نصوحا الرَّحِيمِ الذى يرحم العباد و يتفضل عليهم.

[١٠٥] و بمناسبة أن الله يقبل التوبة و يأخذ الصدقة، مما يدل على أنه سبحانه مطلع على الأعمال، يأتى السياق لبيان أن كل الأعمال كذلك، و ليس ذاك خاصا بالتوبة و الصدقة، و إن الاطلاع ليس خاصا بالله سبحانه بل الرسول و المؤمنون أيضا مشاركون له سبحانه فى الاطلاع على أعمال الناس، و إن كان هناك فرق بين الاطلاعين، فالله سبحانه يعلم كل شىء من كل أحد، و الرسول و المؤمنون مطلعون بقدر ما يريد الله سبحانه.

وَ قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ عَامَةً: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ، إن كان المراد صبَّ الكلام على أن عملكم سوف يرى، لأنه حينئذ تجرد الصيغة عن معنى الأمر، أو المراد: اعملوا الأعمال الحسنه فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ يعلمها سبحانه، و لعل دخول «السين» لأن الرؤية إنما تكون بعد وجود العمل وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَ ذلك واضح لا يحتاج إلى التأويل، أ رأيت أن الناس يعلمون الخير من الشر كما يعرفون مقادير الأشخاص فى أعمالهم، منتهى الأمر أن الله سبحانه يعلم الخفايا بالتفصيل، و المؤمنون يعلمون بالإجمال.

و ربما يقال: إن دخول «السين» لتوحيد السياق بين الله و الرسول و المؤمنين، حيث أنهم لا يرون العمل إلا بعد زمان من وقوعه، كما
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٨

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٦]

وَ آخَرُونَ مُّرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

ربما يقال: إن الإتيان بهذه الآية عقب الآية السابقة لإفادة أن التوبة المجردة لا تنفع و إنما اللازم تصديقها بالعمل.

و ما

ورد في بعض الأخبار: أن المراد بالمؤمنين الأئمة عليهم السلام «١»

فهو من باب المصداق الظاهر، و إلا فالعموم على حاله، كسائر الآيات العامة التي لها مصاديق ظاهرة.

وَ سَتَرْدُونَ أَى تَرْجَعُونَ بعد موتكم إلى عالمِ الْغَيْبِ ما غاب عن الحواس و الشَّهَادَةِ ما يشهده الإنسان أى يحضره، و هو كل ما يدرك بالحواس الظاهرة، أى سترجعون إلى عالم السر و العلانية فَيَبْتُكُمُ أَى يخبركم للجزاء بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من خير أو شر.

[١٠٦] كان المتخلفون عن غزوة تبوك بين منافق معتذر، و منافق غير معتذر، و مخطئ معترف و هناك آخرون من المتخلفين مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ أى مؤخرون موقوفون، من «أرجأ» بمعنى «أخر» فلم يكن هذا القسم منافقا، و لا مخطئا، بل إنما تخلف توانيا عن الاستعداد حتى فاتته المسير، و لم يكن قبل نزول الآية قد بت في أمرهم بشيء بل كان موكولا إليه سبحانه، إما يعذبهم بتوانيتهم، و إما يتوب عليهم بسبب أنهم لم ينافقوا و لم تدنس قلوبهم إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ لعصيانهم و تخلفهم و إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ لِقَاءِ قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٣٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٩

بنياتهم و سبب توانيتهم عن غزوة تبوك حَكِيمٌ فيما يفعله بهم من العذاب و التوبة.

لكن الله سبحانه تاب عليهم أخيرا، و هؤلاء هم الذين ذكروا في قوله تعالى في آخر السورة «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا» «١» و كان من قصتهم ما ذكره المفسرون حيث قالوا: قد كان تخلف عن رسول الله قوم منافقون و قوم مؤمنون مستبصرون لم يعثر عليهم في نفاق و هم كعب بن مالك و مرارة بن الربيع و هلال بن أمية، فلما تاب الله عليهم قال كعب: ما كنت قط أقوى منى في ذلك الوقت الذى خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إلى تبوك و ما اجتمعت لى راحلتان إلا فى ذلك اليوم فكنت أقول: أخرج غدا، أخرج بعد غد، فإنى قوى، و توانيت و بقيت بعد خروج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أياما أدخل السوق و لا أقضى حاجه، فلقيت هلال و مرارة و قد كانا تخلفا أيضا فتوافقنا أن نبكر إلى السوق و لم نقض حاجه، فما زلنا نقول: نخرج غدا و بعد غد حتى بلغنا إقبال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فندمنا، فلما وافى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ استقبلناه نهته بالسلامة فسلمنا عليه، فلم يرد علينا السلام و أعرض عنا، و سلمنا على إخواننا فلم يردوا علينا السلام.

فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا كلامنا، و كنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد و لا يكلمنا، فجاءت نساؤنا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فقلن: قد بلغنا سخطك على أزواجنا أفتعترلهم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ:

لا تعترلنهم و لكن لا يقربوكن، فلما رأى كعب و صاحبه ما حل بهم

(١) المستدرک: ج ٧ ص ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٠

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٧]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَكَيْلًا لِنَا إِلاَّ الْحُسْنَى
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)

قالوا: ما يقعدنا بالمدينة و لا يكلمنا رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و لا إخواننا و لا أهلنا فهلموا نخرج إلى هذا الجبل فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت.

فخرجوا إلى «ذئاب» جبل بالمدينة فكانوا يصومون و كان أهلهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم فلا يكلمونهم، فبقوا على هذه الحالة أياما كثيرة يكون بالليل و النهار، و يدعون الله أن يغفر لهم، فلما طال عليهم الأمر قال كعب: يا قوم قد سخط الله علينا و رسوله و سخط علينا إخواننا و سخط علينا أهلونا، فلا يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه.

فبقوا على هذا ثلاثة أيام كل منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه و لا يكلمه، فلما كان في الليلة الثالثة و رسول الله في بيت أم سلمة نزلت توبتهم على رسول الله، و هو قوله سبحانه: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ...» فأرسل النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم من يبشرهم، و جاءوا مسلمين على الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و قد بان السرور في وجهه الشريف صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و تصدق كعب بثلاث ماله شكرا لله تعالى «١».

و في بعض الأحاديث: انطباق الآية على مثل «الوحشى» قاتل حمزة عليه السلام حيث أسلم بعد الجريمة، فإنه مرجأ لأمر الله إما يعذبه و إما يتوب عليه «٢».

[١٠٧] ثم ذكر سبحانه قصة جماعة أخرى من المنافقين الذين ارتبطت

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٠٢.

(٢) راجع الكافي: ج ٢ ص ٣٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦١

قصتهم بقصة تبوك و هم الذين أرادوا أن يتستروا بمسجد «ضرار» لحبك المؤامرات ضد الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المسلمين، و أرادوا انقلاب الأمر في المدينة لكن الله وقى المسلمين شرهم و أعلم الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم بما نووه من المكر.

فقد روى بعض أهل السير: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب و كان قد تنصير و له عبادة في الجاهلية و له شرف كبير في قبيلته الخزرج، فلما قدم رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم مهاجرا إلى المدينة و اجتمع عليه المسلمون و صارت للإسلام كلمة عالية و أظهرهم الله يوم بدر، شرق أبو عامر بريقه و بارز بالعداوة و ظاهر بها و خرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالؤهم على حرب رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب و قدموا عام أحد.

و كان من أمر المسلمين ما كان، و قد امتحنهم الله عز و جل و كانت العاقبة للمتقين، و كان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفيين، فوقع في إحداهن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و أصيب ذلك اليوم، فجرح وجهه، و كسرت رباعيته اليمنى السفلى و شج رأسه صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

و تقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم و حثهم إلى نصرته و موافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، و نالوا منه و سبوه، فرجع و هو يقول: و الله لقد أصاب قومي شر. و لما فرغ الناس من أحد و رأى أمر الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم في ارتفاع و ظهور ذهب إلى «هرقل» ملك الروم يستنصره على النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم فوعده و مآه و أقام عنده، و كتب إلى جماعة من قومه من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٢

الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم و يمينهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله و يغلبه و يرده عمّا هو فيه، و أمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليه من عنده لأداء كتبه و يكون مرصداً لهم إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد «قبا» فبنوه و أحكموه و فرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى تبوك و جاءوا فسألوا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن يأتي إليهم فيصلى في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره و إثباته، و ذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم و أهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال صلى الله عليه و آله و سلم: أنا على سفر و لكن إذا رجعنا إن شاء الله. فلما قفل صلى الله عليه و آله و سلم راجعاً إلى المدينة من تبوك، و لم يبق بينه و بينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه الوحي بخبر مسجد «ضرار» و ما أبطن بانوه من الكفر و التفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم - مسجد قبا - فأرسل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من هدم المسجد و أحرقه، و أمر أن يتخذ مكانه كناسةً يلقى فيها الجيف و القمامة، و ردّ الله كيده، فأصاب أبا عامر قبل رجوعه إلى المدينة بالقولنج و البرص و الفالج و اللقوة، و بقي أربعين يوماً في عذاب الدنيا، ثم هلك إلى عذاب السعير «١». و في هذه القصة نزلت هذه الآيات:

و منهم الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَيُّ بَنَاءِ مَسْجِدٍ أَوْ هُوَ اسْمٌ لِبَقْعَةٍ يَتَّخَذُ لِلصَّلَاةِ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ بِمَعْنَى مَوْضِعِ السُّجُودِ ضَرَارًا أَوْ مُضَارَّةً، فَإِنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ بَابِ «المَفَاعَلَةُ»، يُقَالُ: «ضَارَّ ضَرَارًا وَ ضَيْرَارًا»،

(١) تفسير الإمام العسكري: ص ٤٨٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٣

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٨]

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨)

فإنهم بنوه لأجل الإضرار بالمسلمين و كُفراً لأجل الكفر و تفریقاً بين المؤمنين أي لاختلاف الكلمة و إبطال الألفة، و جعل المسلمين طائفتين، الموالى للرسول، و المخالف له و إرضاداً لأجل الإعداد للفتنة، و أن يجعلوه محل رصد و إشراف لمن حارب الله و رسوله من قبل و هو أبو عامر الراهب. و هذا أبو حنظلة غسيل الملائكة الذي هو من أخصيار المؤمنين، و قد تقدم أن أبا عامر كان حرباً للرسول من قبل غزوة تبوك. و قد سماه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ب «الفاسق».

و لِيُخْلِفَنَّ أَيُّ يَحْلِفُ هؤلاء الذين اتخذوا المسجد و كانوا اثني عشر إن أردنا أي ما أردنا بينائنا للمسجد إلا الحسنى أي الفعل الحسن، من إقامة الصلاة، و درك الجماعة في الليلة الشاتية و الممطرة للضعفاء و نحوهم و الله يشهد إنهم لكاذبون فإنهم لم يريدوا بينائنا الحسنى، بل السوءة و التآمر على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و كفى بالله شهيداً على ذلك، بالإضافة إلى ما عرف بعد ذلك من الأدلة و الشواهد.

[١٠٨] لَا تَقُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيهِ فِي ذَلِكَ الْمَسْجِدِ أَبَدًا يُقَالُ:

«فلان يقوم الليل» أي يصلي، و المعنى: لا تصل في ذلك المسجد، و لم يكن هذا خلفاً من الرسول لوعده بالصلاة فيه،

لأنه صلى الله عليه و آله و سلم قال: «إن شاء الله»

فلم يشأ الله و نهاه عن ذلك لمسجد أسس على التقوى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٩]

أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)

أى بنى أصله على تقوى الله، و طاعته مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ منذ أول يوم وضع أساسه، و هو مسجد «قبا» فإن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لما هاجر إلى المدينة أقام هناك أياما و بنى فيه هذا المسجد و صلى فيه، ثم انتقل إلى المدينة، و بنى فيه مسجده الذى دفن فى حجرة مجاورة له أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ لِلصَّلَاةِ، من مسجد «ضرار».

و لا يراد بهذا أن يصلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ دائما فى مسجد «قبا» بل إنه إذا أراد الصلاة هناك - خارج المدينة - فمسجد «قبا» أولى بالصلاة فيه من مسجد «ضرار» فيه فى هذا المسجد. و المراد بالظرف ذلك المكان، أى أن القبيلة الموجودة هناك و هم بنو عمرو بن عوف رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا مِنْ لُوثِ الْمَعَاصِي وَ الذُّنُوبِ، و ليسوا مثل بنى غنم أصحاب مسجد ضرار الذين بنوه، فهم رجال يحبون النجاسة و لوث المعاصى وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ أى المتطهرين.

و هناك معنى آخر للتطهير

فقد روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أنه قال لأهل قبا: «ماذا تفعلون فى طهركم فإن الله قد أحسن عليكم الثناء». قالوا نغسل أثر الغائط. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: «أنزل فيكم هذه الآية» (١).
أقول: لأنه كان المتعارف عندهم فى ذلك الوقت الاستنجاء بالخرق و الأحجار.
[١٠٩] ثم بين سبحانه الفرق بين البناءين، و بين الفريقين، و أن أحد البناءين

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٥٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٥

[سورة التوبة (٩): آية ١١٠]

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

راسخ ثابت و الآخر هاو منها، و أن أحد الفريقين صلد الإيمان قوى العقيدة، و الآخر شك ذو ريبه و تزلزل أَمَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ أى ببناء أمره و دينه و منهجه على تقوى من الله فهو يتحرى التقوى فى كل أعماله وَ رِضْوَانٍ أى رضى الله سبحانه، فلا يعمل شيئا إلا إذا علم أن فيه رضاه سبحانه خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارٍ «شفا جرف» نهاية الشىء فى المساحة، و «جرف الوادى» نهايته التى تنجرف بالماء، و «هار الجرف يهور»، إذا أشرف على السقوط و الهدم، و «أنهار» بمعنى سقط. فقد شبه سبحانه ببناء المنافق بالبناء الذى بنى على شفا جرف جهنم و كان الجرف هائر فأنهار الجرف به أى بالبناء، أو أنهار البناء بصاحبه فى نارِ جَهَنَّمَ فذهبت أتعابه أدراج الرياح. و المعنى: أنه لا يستوى عمل المتقى و عمل المنافق فإن عمل المتقى ثابت راسخ و عمل المنافق هاو منها و الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فإن الإنسان الذى صار الظلم عالقا بقلبه، ينغلق فؤاده، فلا تدخله أشعة الهداية. و المراد بعدم الهداية: أنه يتركهم و شأنهم و لا يلفظ بهم الألفاظ الخاصة.

[١١٠] ذاك كان مثل بنيانهم - من بناء المسجد - ثم انتقل سبحانه إلى البناء العام فى حياتهم و مناهجهم فى الدنيا، و انتقل إلى تصويره ببناء حسى يبنى على جرف هار، فكما أن ذلك البناء ينحرف و يسقط، كذلك أعمالهم تسقط بهم فى جهنم. و هنا مثل آخر لعقيدتهم الكائنة فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٦

[سورة التوبة (٩): آية ١١١]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَ وَعِدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

قلوبهم و المختلجة في صدورهم لا يزال بُنيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا أَى ما بنوا عليه حياتهم من النفاق رِيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ سبباً للترنزل و الشك في قلوبهم، فإن الإنسان كيفما بنى حياته و قرّر منهجه، يكون معتقده و ضميره، فهم مقتسمو القلوب بين المؤمنين و الكافرين «لا إلى هؤلاء و لا- إلى هؤلاء» إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ تصير قطعة قطعة، فتزول الريبة بزوال موضعها، و إلا- فما دام هؤلاء على ذلك البناء و المنهج، فالريبة لازمة لقلوبهم لا تنفك عنها أبداً و اللَّهُ عَلِيمٌ بِنِيَاتِهِمْ حَكِيمٌ فيما يفعله بهم.

[١١١] ثم يحرض الله المؤمنين على الجهاد مبيّنا الثواب العظيم لمن جاهد قائلاً: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَنْفُسَهُمْ اللَّهُ سبحانه، و أموالهم له تعالى، لا يحق لهم أن يخلّوا بالنفس أو المال بعد هذه المبايعة التي عقدها مع الله بقبول الإيمان، و قد كان في مقابل هذا المبيع بَأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ فالجنة بدل بذل النفس و المال في سبيل الله تعالى. و لا يخفى أن بيع النفس إنما هو لصرفها في مرضيه لساناً و قدماً و قلماً و سائر ما يتعلق بالبدن، فليس الأمر خاصاً بالجهاد، و من أهم الأغراض في هذه المعاملة ما بينه بقوله: يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ و لأجل إعلاء كلمته فَيَقْتُلُونَ الكفار تارةً و يُقْتَلُونَ يقتلهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٧

الكفار تارةً أخرى، و كون الجنة لهؤلاء وَعِدًا عَلَيْهِ على الله حَقًّا و «وعدا» منصوب بالمصدر، لأن «اشترى» يدل على أنه سبحانه وعد بذلك، فإن المعاملة تستوجب وعد الطرفين ببذل السلعة، و بذل المال في التّوارة لموسى عليه السّلام كان هذا الوعد و الْإِنْجِيلِ لعيسى عليه السّلام و الْقُرْآنِ فَإِنْ وعد الجنة لمن باع نفسه و ماله في سبيل الله مذكور في هذه الكتب الثلاثة لهؤلاء الأنبياء العظام. و مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ استفهام في معنى الإنكار، أى لا أحد أكثر وفاء من الله، فهو إذا وعد لا يخلف البتّة، أما غيره فإنه و إن كان لا- يخلف بإرادته، لكنه قد يطرأ ما يضطره إلى الخلف فَاسْتَبَشِرُوا أيها المؤمنون بِيَعْيُكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ الضمير في «به» يرجع إلى «بيعكم» أى: افرحوا بهذه المعاملة، و «الاستبشار» هو شدة الفرح الذي يظهر أثره في وجه الإنسان، و أى بيع أحسن من هذا؟ إنه إعطاء المال لمالكة ثم أخذ العوض منه، ثم إن النفس في سبيل الفناء، و المال في سبيل الذهاب، فما أفضل أن يشتري بهما الإنسان شيئاً باقياً دائماً.

قال الإمام على عليه السّلام: و إن كانت الأبدان للموت أنشأت* فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل (١)

(١) ديوان الإمام على عليه السّلام: ص ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٨

[سورة التوبة (٩): آية ١١٢]

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِجُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

وقيل

و إن كانت الأموال لا بد تنفنى* فتقديمها لله و الدين أجمل

و ذَلِكَ الْبَيْعُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و الفلاح الذي لا يقابله فلاح.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام في نهج البلاغة: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها» (١).

و فيه: «فلا أموال بذلتموها للذي رزقها و لا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها» (٢).

قال الشاعر:

أنفاس عمر ك أثمان الجنان فلا تشري بها لها في الحشر تشتعل

وقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته الطاهرين من أفضل مصاديق هذه الآية.

[١١٢]

روى في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه لما نزلت هذه الآية:

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» قام رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال: يا نبي الله أ رأيتك الرجل يأخذ سيفه فيقاتل حتى يقتل، إلا أنه يقترب من هذه المحارم أ شهيد هو؟ فأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...» (٣).

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار رقم ٤٥٦.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١١٦.

(٣) التوبة: ١١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٩

أقول: قد وصف سبحانه المؤمنين الذين اشتروا أنفسهم و أموالهم مقابل الجنة بهذه الأوصاف فقال: التَّائِبُونَ أى الراجعون إلى طاعة الله، من «تاب» إذا رجع. ولا يخفى أن الرجوع والتوبة لا يلازمان العصيان، ولذا ورد في القرآن: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ) (١)، فإن العصيان أشد أفراد البعد عنه سبحانه، وإلا فكل نومة وأكلة وتكلم مع الناس مما يسبب الغفلة عنه سبحانه تحتاج إلى التوبة والأوبة. فلا يقال: كيف وصف الإمام عليه السلام- وهو معصوم- بالتوبة، بعد ما ذكرتم أن الآية نزلت في شأنه؟ ثم إن «التائبون» رفع بالقطع، أى هم التائبون، كما قال ابن مالك:

واقطع أو اتبع إن يكن معيناً بدونها أو بعضها اقطع معلنا

العابِدُونَ الذين يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً الحَامِدُونَ الذين يحمدون الله سبحانه السَّائِحُونَ الذين يسيحون في الأرض، أى يسرون فيها، للاعتبار و لطلب العلم كما قال سبحانه: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) (٢).

وينسب إلى الإمام عليه السلام:

تغرب عن الأوطان في طلب العلاءو سافر ففي الأسفار خمس فوائد

و في بعض التفاسير: أن المراد ب «السائح» الصائم، لقول

(١) التوبة: ١١٧.

(٢) الملك: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٠

[سورة التوبة (٩): آية ١١٣]

ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «سياحة أمتي الصيام» (١).

الرَّاكِعُونَ الذين يركعون، إما مطلقاً لاستحباب الركوع تعظيماً له سبحانه، أو المراد الركوع في الصلاة السَّاجِدُونَ في الصلاة أو مطلقاً الأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ كُلُّ حَسَنٍ يَسْتَحْسِنُهُ الشَّرْعُ أَوْ الْعَقْلُ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ كُلُّ قَبِيحٍ يَسْتَقْبِحُهُ الشَّرْعُ أَوْ الْعَقْلُ.

ولا يخفى أنه بهذا المعنى الذي ذكرنا، ليس ترك كل معروف منكراً، فقراءة القرآن مثلاً في يوم الجمعة معروف فليس تركها منكراً، كما أنه ليس ترك كل منكر معروفاً فأكل الجبن- وهو مكروه- منكر فليس ترك أكله معروفاً. نعم يتلازم الأمران في الواجب والحرام.

وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ أَى الْعَامِلُونَ بِالْحُدُودِ، الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا فِى جَمِيعِ أَبْوَابِ الْعِبَادَةِ وَالْمَعَامَلَةِ، وَ سَائِرِ مَا وَرَدَ فِى الشَّرِيعَةِ وَبَشْرِيَا رَسُولِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، بِأَن لَّهُمْ كُلَّ خَيْرٍ وَ سَعَادَةٍ.

[١١٣] و لما سبق حرمة موالاة الكافرين و المنافقين حتى الصلاة عليهم، و القيام على قبورهم، و الصلاة فى مسجدهم، بين سبحانه حرمة الاستغفار لهم أحياء كانوا أم أمواتا، فإن الاستغفار أى طلب غفران الله لعدو الله لا يصح، إذ هو غير قابل للمغفرة. و ذكر بعض المفسرين: أن بعض المسلمين قالوا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: هل

(١) مستدرک الوسائل: ج ٨ ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧١

[سورة التوبة (٩): آية ١١٤]

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)
لنا أن نستغفر لأبائنا الذين ماتوا فى الكفر. فنزلت هذه الآية (١).

لكن الظاهر أن ذلك غير طلب الغفران للكافر الحى، بمعنى طلب هدايته من الله ليستحق الغفران، فإذا قال: اللهم اغفر له، عنى: اهده، ليكون قابلا للمغفرة.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن إبراهيم عليه السلام وعده أبوه آزر أن يسلم، فاستغفر له، فلما تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه»

(٢). كما أن الظاهر أن الخيرات للأقارب الكفار الذين ماتوا لا بأس بها، فإن ذلك موجب لتخفيف العذاب، و هو غير الاستغفار بطلب المغفرة، و قد ورد بذلك أحاديث كثيرة.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنْ يَطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ الْغُفْرَانَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا-خُصُوصِيَّةَ لِلْمُشْرِكِ، بَلْ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ كَافِرٍ وَ لَوْ كَانُوا أَوْلَى قُرْبَى أَى كَانَ الْمُسْتَغْفَرُ لِأَجَلِهِ صَاحِبَ قَرَابَةٍ لِلْمُؤْمِنِ الْمُسْتَغْفَرِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أَى مِنْ بَعْدِ أَنْ عَلِمَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْمُشْرِكِينَ هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ.

[١١٤] و لما كان هنا موضع سؤال و هو: كيف يحرم الاستغفار للكافر مع أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه- و هو عمه، و إنما يسمى العرب العم بالأب

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٣٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٢

تعظيما- و الحال أن آزر كان كافرا؟ ورد قوله سبحانه: و مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَا إِيَّاهُ أَى وَعَدَ الْأَبُ إِبْرَاهِيمَ بِأَن يُؤْمِنَ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَى لِإِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ أَى أَبَاهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَ تَرَكَ الاسْتِغْفَارَ لَهُ. وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ.

و روى: أن إبراهيم قال لأبيه: إن لم تعبد الأصنام استغفرت لك، فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه

(١). و من المعلوم أنه لا منافاة بين الأمرين. و على أى حال فعمل إبراهيم لا ينافى عموم «ما كان للنبي و الذين آمنوا».

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ أَى دَعَاءٌ، كَثِيرُ الدَّعَاءِ وَ الْبُكَاءِ، وَ أَصْلُ «الْأَوَّاهِ» مَبَالِغَةٌ- عَلَى وَزْنِ ضَرَابٍ- مِنْ «التَّأَوُّهِ» بِمَعْنَى: التَّوَجُّعِ وَ التَّحَزُّنِ حَلِيمٌ يَحْلُمُ عَنِ النَّاسِ حَتَّى عَنِ الْكُفَّارِ، لَعَلَّهُ يَدْخُلُهُمْ فِى حَظِيرَةِ الْإِيمَانِ بِحِلْمِهِ. وَ أَمَا مَنَاسِبَةُ «أَوَّاهٍ» لِلْمَقَامِ فَظَاهِرَةٌ، إِذْ مَقْتَضَى كَثْرَةُ الدَّعَاءِ أَنْ

يدعو حتى للكافر الذى يحتمل أن يؤمن.

ومن المفسرين من أقحم فى الآية ما اختلقتة الأهواء الأموية من كفر أبى طالب، ولقد كان أبو طالب عليه السلام من أشد المؤمنين بالله ورسوله حتى أنه قال عليه السلام:

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٧٧. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٣

[سورة التوبة (٩): آية ١١٥]

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)

ولقد علمت بأن دين محمد* من خير أديان البرية دينا

وحتى أنه حين مات نزل جبرئيل قائلاً للرسول: «مات ناصرك فاخرج من مكة» (١). وسمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام وفاته ووفاء خديجة «عام الحزن» (٢). وإنما الكلام هنا أن ذلك لا يرتبط بالتفسير، وإنما يرتبط بالتعصب، وكم أخفى التعصب الحق.

[١١٥] إن ما استفاد من الآيات السابقة من انقطاع صلة المؤمنين عن الكافرين، يوجب التساؤل، وهو: ماذا يعملون بما سلف من الأموات الكافرين، فقد كانت الوشائج بين المؤمنين والكافرين قوية وكانوا يحسنون إليهم أحياء ويستغفرون لهم أمواتاً؟ ولذا ورد: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَأَن يَصْرِفَهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَيُحْكَمَ بَضَلَالَهُمْ، بِأَعْمَالِ عَمَلُوها قَبْلَ النَّهْيِ وَالتَّحْرِيمِ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ مِنْ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَإِذَا بَيَّنَّ لَهُمْ ثُمَّ خَالَفُوا، اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ وَالحُكْمَ بِالضَّلَالِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: (مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (٣)، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ قَبْلَ التَّحْرِيمِ وَ مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ التَّحْرِيمِ، فَيَجْزَى كُلًّا حَسَبَ عَمَلِهِ.

وفى بعض التفاسير: إن سبب نزول هذه الآية، أنه مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا

(١) إيمان أبى طالب: ص ٢٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٥.

(٣) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٤

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)

رسول الله إخواننا المؤمنون الذين ماتوا قبل الفرائض ما هى منزلتهم؟

فنزلت: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ..» (١).

[١١٦] إن المؤمن الذى يبيع نفسه لله قد ربح كل شىء، وإن قطع صلته بأقرب الناس إليه حتى فى الاستغفار ف الله له ملك السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا مالك فىهما سواه يُحْيِي الجِمْاتِ وَيُمِيتُ الأحياء، فالأرض الميتة يجعل منها نباتا وإنسانا وحيوانا، كما أنه يرد هذه الأحياء إلى الأرض فيجعلها جمادا وَمَا لَكُمْ أَيْهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ سِوَاهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ فلا يتولى شؤونكم ولا ينصركم غيره، فمن له الملك، وبيده الحياة والموت، ويتولى وينصر أحق بأن يربط الإنسان صلته به دون سواه، ويترك غيره لأجله، ولو

كان أقرب قريب إليه.

[١١٧] ثم ذكر سبحانه قصة جماعة تخلفوا عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثم لحقوا به، أو تابوا بعد ذلك. فقد ذكر الرواة أن عبد الله بن خيثمة تخلف عن غزوة تبوك إلى أن مضى من مسير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عشرة أيام، ثم دخل يوماً على امرأتين له في يوم حار في عريشين لهما قد ربتاهما وبردتا الماء وهاأتا له الطعام، فقام على العريشين ثم قال: سبحان الله، رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، في الفتح والريح والقر يحمل سلاحه على عاتقه، وأبو خيثمة في ظلال باردة وطعام

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٥

مهياً و امرأتين حسناوين، ما هذا بالنصف. ثم قال: والله لا أكلم واحدة منكما كلمة ولا أدخل عريشا حتى ألحق بالنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فأخ ناضحه واشتد عليه وتزود و ارتحل و امرأته تكلمانه ولا يكلمهما. ثم سار حتى إذا دنا من تبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق. فقال النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: كن يا أبا خيثمة أولى لك، فلما دنا قال الناس: هذا أبو خيثمة يا رسول الله، فأناخ راحلته و سلم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أولى لك. فحدثه الحديث، فقال له خيرا و دعا له. و هو الذى زاغ قلبه للمقام ثم ثبتته الله «١».

و نقل الرواة: أن ممن لقي العسر فى هذه السفرة أبا ذر الغفارى رحمه الله فقد كان جملة أعجف تخلف به فى الطريق حتى أنه لحق بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد ثلاثة أيام و وقف عليه جملة فى بعض الطريق فتركه و حمل ثيابه على ظهره، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: كن أبا ذر فقالوا: هو أبو ذر. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أدر كوه بالماء فإنه عطشان. فأدر كوه بالماء، و وافى أبو ذر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و سلم معه و معه إداوة فيها ماء فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا أبا ذر معك ماء و عطشت؟ فقال: نعم يا رسول الله بأبى أنت و أمى انتهيت إلى صحرة و عليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد، فقلت: لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يا أبا ذر رحمك الله تعيش وحدك، و تموت وحدك، و تدخل الجنة وحدك، يسعد بك قوم من العراق يتولون

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٠٢. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٦

غسلك و تجهيزك و دفنك» «١».

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ أَى تَحَنَّنَ وَ لَطْفَ، فَإِن «تَاب» لَعْنَةً بِمَعْنَى:

غفر، و بمعنى: رجع بفضلهِ عَلَى النَّبِيِّ و ما ورد فى بعض الأحاديث «بالنبى» إنما أريد به نفى كون معنى التوبة بالنسبة إلى النبى صادرة عن عصيان و الْمُهَاجِرِينَ و الْأَنْصَارِ فهِم بَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَغْفِرَةَ لِمَعْصِيَةِ صَدَرَتْ عَنْهُ، و بَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا تَفَضُّلاً الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ أَى اتَّبَعُوا النَّبِيَّ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ أَى وَ قْتِ صَعُوبَةِ الْأَمْرِ، و ذَلِكَ فِى غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَدْ كَانُوا فِى صَعُوبَةٍ مِنْ جِهَةِ الْمَرْكَبِ، و مِنْ جِهَةِ الْمَاءِ وَ الزَّادِ، و مِنْ جِهَةِ التَّعَبِ لِلسَّفَرِ الطَّوِيلِ، و مِنْ جِهَةِ الْخَوْفِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، فَقَدْ كَانَتِ الْعَشْرَةُ مِنْهُمْ يَتَرَاوَحُونَ عَلَى بَعِيرٍ وَ زَادَهُمُ الشَّعِيرُ الْمَسُوسُ، وَ التَّمْرُ الْمَدُودُ، وَ الْإِهَالَةُ السَّنَخَةُ «و هو ما أذيب من الشحم المتغير الريح»، و كانوا يمصون تمره واحدة، و هم جماعة كثيرة، يخرجها هذا من فيه فيمصها الآخر و هكذا حتى لا يبقى إلا النواة مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ يَمِيلُ وَ يَنْحَرِفُ

قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ عَنِ الْجِهَادِ، فَأَرَادُوا الْبَقَاءَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ بَقُوا ثُمَّ لَحِقُوا بِالرَّسُولِ كَأَبِي خَيْثَمَةَ.
ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الزَّبْحِ وَالْإِنْحِرَافِ إِنَّهُ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٧

[سورة التوبة (٩): آية ١١٨]

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

تعالى بِهِمْ رَوْفٌ رَحِيمٌ فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُهُمْ، وَبِمَا عَمِلُوهُ مِنَ الْكُفْلِ وَالْمُطَلِّ.

[١١٨] وَلَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الثَّلَاثَةِ أَشْخَاصٍ الَّذِينَ خُلِفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، كَأَنَّ الشَّيْطَانَ خَلَفَهُمْ وَهُمْ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِمْ مَفْصَلًا فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: «وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ» حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ «مَا» مُصَدِّرِيَّةٌ، أَيْ: مَعَ رَحْبِهَا - بِالضَّمِّ - وَسَعَتِهَا، ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ النَّاسَ قَاطَعُوهُمْ بِأَمْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْإِنْسَانَ إِذَا قَاطَعَهُ الْأَصْدِقَاءَ تَضَيَّقَ نَفْسَهُ، حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ الْأَرْضَ ضَيْقَةٌ لَا مَجَالَ لَهَا فِيهَا وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَوْضِعًا يَخْفُونَهَا فِيهِ، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ غَمِّهِمْ. وَلَعَلَّ وَجْهَ «ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ» أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا غَمَّ غَمًّا شَدِيدًا تَسَخَّنَ شَرَايِينَهُ وَأَعْضَاؤَهُ، فَلَا يَكْفِي النَّفْسَ الْمَجْدُوبَ لِتَبْرِيدِهَا، فَيَحْسَسُ بِأَنَّ نَفْسَهُ قَدْ ضَاقَتْ، لِأَنَّهَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا الْهَوَاءُ الْكَافِي.

وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا مَوْضِعَ لِلْفِرَارِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَّا إِلَيْهِ نَفْسَهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ أَحَاطَ بِأَقْطَارِ الْأَرْضِ وَآفَاقِ السَّمَاءِ فَكَيْفَ يُمْكِنُ الْفِرَارُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَتَوَجَّهَ الْإِنْسَانُ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «الظن» هُنَا لِإِفَادَةِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ الْمَجْرَمِ حَيْثُ أَنَّهُ لَا يَفْكَرُ فِي الْمَلَاجِئِ الْمُمْكِنَةِ، فَهُوَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ هَذَا أَوْ ذَاكَ، وَإِنْ تَرَجَّحَ فِي نَفْسِهِ الْمَلْجَأَ الْحَقِيقِيَّ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٨

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ أَيْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ بِقَبُولِهِ تَوْبَتِهِمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنْ تَبُوكَ لِيَتُوبُوا أَيْ يَرْجِعُوا إِلَى حَالَتِهِمْ الْأُولَى قَبْلَ الْمَعْصِيَةِ، فَيَكُونُ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ لَا يَقَاطِعُونَ وَلَا يَنْبُدُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ مَبَالِغَةٌ فِي «التائب»، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ كَثِيرُ الرَّجُوعِ إِلَى عِبَادِهِ إِنْ رَجَعُوا إِلَيْهِ، وَلَيْسَ كَكِبْرِيَاءِ النَّاسِ حَيْثُ أَنَّهُ إِنْ قَطَعُوا عَنْ أَحَدٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَلَوْ عَادُوا لَمْ يَتَكَرَّرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا عَصَى وَتَابَ، قَبْلَ اللَّهِ تَوْبَتَهُ إِذَا كَانَتْ تَوْبَةً نَصُوحًا، وَإِنْ نَقَضَ التَّوْبَةَ قَبْلَ ذَلِكَ أَلْفَ مَرَّةٍ الرَّحِيمُ يَرْحَمُ الْعِبَادَ وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِلَطْفِهِ، فَلَيْسَتْ تَوْبَةٌ مَجْرُودَةٌ، وَإِنَّمَا مَعَ التَّفْضِيلِ وَالتَّكْرَمِ.

لَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الْمُتَخَلِّفُونَ - كَعَبٍ وَمَرَارَةٍ وَهَلَالٍ - أَرْجَتُوا، فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ «وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ» ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُنَا، وَكَانَ فِي كِلَا الْأَمْرَيْنِ أُبْلَغَ حِكْمَتُهُ، وَخَيْرُ تَأْدِيبٍ وَمَوْعِظَةٍ.

وَهُنَا كَلِمَةٌ لَا بَدَّ مِنْ بَيَانِهَا وَهِيَ أَنَّ النَّازِلَ فِي الْآيَاتِ يَرَى أَنَّ بَعْضَ الْعَاصِينَ كَانَ اللَّهُ وَالرَّسُولَ يَعْفُونَ عَنْهُمْ كَهَؤُلَاءِ، وَبَعْضُهُمْ يَبْقُونَ مَوْضِعَ السَّخَطِ وَالْغَضَبِ كِ «ثعلب» الَّذِي تَقَدَّمَتْ أَحْوَالُهُ، إِنْ هَذَا يَكْشِفُ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعِصَاةِ، فَمَنْ أَصْلَحَ مِنْهُمْ وَطَهَّرَ قَلْبَهُ اسْتَحَقَّ الْعَفْوَ وَالْغُفْرَانَ، أَمَا مِنْ أَبَدَى التَّوْبَةِ وَقَلْبِهِ مَلُوثٌ بِالذَّنُوبِ وَالنِّفَاقِ، فَلَمْ يَكُنْ تَنْفَعُهُ النَّدَامَةُ، وَلِذَا كَانَ مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ مَشْرُوطٌ بِالتَّطَهُّرِ وَالنِّقَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا) «١»، وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٩ إلى ١٢٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)

[١١٩] و بمناسبة توبه هؤلاء و صفاء باطنهم فى التوبه، و صدقهم فى الرجوع إلى الحق، يأتى السياق لبيّن وجوب كون الإنسان متقياً منضمّاً إلى جماعة الصادقين، لينال الخير و الغفران يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ اجْتَنِبُوا مَعَاصِيَهُ وَ خَذُوا بِأَمْرِهِ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ وَ «المعيه» هنا تفيد المعية الانضمامية، و المعية العمليّة، بأن يصدق الإنسان، و ينضم مع الزمرة الصادقة، لينال كل خير و فضل. و قد ورد فى أحاديث كثيرة: أن المراد بهم أمير المؤمنين و آله الطاهرين «١»، و هذا من باب أظهر المصاديق كما لا يخفى.

[١٢٠] ثم يأتى البيان العام للمسلمين بوجوب اتباع الرسول فى كل أمر و عدم التخلف عنه فى غزو أو غيره ما كان لأهل المدينة إنه خبر فى معنى النهى، أى: لا- يجوز للمسلمين من أهل المدينة و مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أهل البدو، و تخصيص هؤلاء بالذكر ليس لأجل خصوصية فيهما دون سائر المسلمين، و إنما لأجل كونهما محل أوامر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ غالباً، فى الجهاد نحوه، و إلا فالمسلمون كلهم كذلك أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فى غزوة أو سفرة أو سائر ما يريد منهم و يعمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، وَ لَا لَهُمْ أَنْ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنْ يَطْلُبُوا لِأَنفُسِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَ الرَّاحَةِ دُونَ نَفْسِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، أَنْ يُوَثِّرُوا

(١) تفسير فرات الكوفى: ص ١٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٠

أنفسهم على نفسه فإذا أراد الجهاد تركوه يقاسى الحر و البرد، و هم فى مساكنهم هادئون آمنون. يقال: «رغبت بنفسى عن هذا الأمر» أى ترفعت بها عنه.

ذَلِكَ النَّهْيُ لَهُمْ وَ الزَّجْرُ عَنِ التَّخَلُّفِ، لَيْسَ بِإِعْوَاضٍ وَ لَا مَقَابِلٍ، وَ إِنَّمَا لَهُمْ بِكُلِّ حَرَكَةٍ وَ سَكُونٍ وَ تَعَبٍ أَجْرٌ وَ ثَوَابٌ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ فى سفرهم ظمأٌ عطشٌ وَ لَا نَصَبٌ تعب فى أبدانهم وَ لَا مَخْمَصَةٌ بمعنى المجاعة، و أصله ضمور البطن للمجاعة، يقال: «رجل خميص البطن»، أى ضامرها من الجوع، و المعنى: لا- يصيبهم جوع فى سبيلِ اللَّهِ وَ لإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَ لَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ أى لا يضعون أقدامهم موضعاً يسبب غيظ الكفار، و المراد: إما وطى أراضى الأعداء، فإنهم يغيظون إذا رأوا واحداً يظأ محلهم، أو الذهاب مطلقاً، فإن الكفار يغيظون بسير المسلمين إليهم لإرادة الغزو.

وَ لَا- يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا لا- يصيبون من الكفار أمراً، من قتل أو جراحه أو مال أو سبى أو ما أشبه إِلا كُتِبَ لَهُمْ لهؤلاء المسلمين المجاهدين به بسبب ذلك العمل عَمَلٌ صَالِحٌ وَ طَاعَةٌ مقبولة إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ الذين أحسنوا و عملوا الأعمال الحسنه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨١

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢١ إلى ١٢٢]

وَ لَا- يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صِيغَةً وَ لَا- كَبِيرَةً وَ لَا- يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

[١٢١] وَ لَا يُنْفِقُونَ هؤلاء المسلمون، فى الجهاد نَفَقَةً صِيغَةً وَ لَا كَبِيرَةً أى قليلة أو كثيرة وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا أى لا يجتازون أرضاً فى مسيرهم إلى الكفار للجهاد إِلا كُتِبَ لَهُمْ ذلك ليشابوا عليه لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أى يكتب ذلك للجزاء ب أحسن ما كانوا يعملون جزاء

أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم. و على الأول:

فالسكوت عن سائر الأعمال ليس لعدم الجزاء وإنما لوضوح أن من يجزى على الأحسن يجزى على غيره. و على الثانى: يكون المعنى أنه سبحانه يجازيهم بجزاء هو أحسن من عملهم، فلو استحق عملهم جزاء ألف دينار، أعطاهم ألفين.

[١٢٢]

ورد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا خرج غازيا لم يتخلف عنه إلا المنافقون و المعذورون، فلما بين سبحانه عيوب المتخلفين - فى غزوة تبوك - قال المؤمنون: و الله لا- نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و لا- سرية من سراياه. فلما أمر رسول الله بالسرايا إلى الغزو أراد المسلمون أن ينفروا جميعا، و كان ذلك مستلزما لأن يبقى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحده، فنهاهم الله عن ذلك.

أقول: فى الآية احتمالات نذكر أقربها إلى الظاهر و إلى السياق - أى الارتباط بالقصة المتقدمة فى غزوة تبوك -.

و ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً هَذَا نَفَى مَعْنَاهُ النَّهْيُ، أَى:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٢

ليس للمؤمنين أن ينفروا و يخرجوا إلى الجهاد بأجمعهم و يتركوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم وحيدا فلولا تحضيض و حث، بمعنى: أن اللازم ذهاب بعض و بقاء بعض نفر و خرج إلى الجهاد مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ من كل قبيلة و نحوها طائفة جماعة، و يبقى من كل فرقة جماعة آخرون لِيَتَفَقَّهُوا أى ليتفقه هؤلاء الباقون - المفهوم من قوله: «نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ» - فى الدين يقون خدمة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ليتعلموا أحكام الإسلام التى تنزل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم تدريجا و لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ يندر الباقون قومهم النافرين إذا رَجَعُوا رجع النافرون إِلَيْهِمْ أى إلى الباقين لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أى يحذر النافرون عما أنذروا به.

فلنفرض أن زيدا ذهب إلى الجهاد، و بقى عمرو و تعلم من النبى صلى الله عليه وآله وسلم حرمة الاستمنا - مدة غياب زيد - فإذا رجع زيد حذره عمرو عن الاستمنا حتى يترك و ينقلع. و لو كان المعنى على هذا السياق المذكور لكان فهم وجوب الذهاب إلى مراكز العلم لتحصيله، بالفحوى، لأن المقصود من البقاء عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلا تعلم الحكمة و إفادتها للغائب، و كذلك من يسافر فى طلب العلم ثم يندر أهله إذا رجع إليهم.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «كان هذا حين كثر الناس فأمرهم الله أن ينفر منهم طائفة و تقيم طائفة للتفقه، و أن يكون الغزو نوبا»

«١». و لا ينافيه

ما ورد عن الإمام الصادق - لأن الظاهر إرادة

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٥٧. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٣

[سورة التوبة (٩): آية ١٢٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

الفحوى - فى تفسير الآية، «فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله و يختلفوا إليه، فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم ..» «١».

ثم إنه لو قلنا: إن الآية مستقلة برأسها لا ترتبط بما قبلها، يكون المعنى: أن اللازم على كل طائفة من كل فرقة من المسلمين المنتشرين هنا و هناك أن يذهبوا إلى طلب العلم فى مراكزه ثم يندروا قومهم إذا رجعوا إليهم حتى يحذروا عن ترك الواجبات و إتيان المحرمات.

و تكون المناسبة بينها و بين الآيات السابقة بيان أن النفر واجب فى مقامين: فى مقام الجهاد و فى مقام العلم. و لا يخفى أن الآية

تشمل التفقه بنحو الاجتهاد، و بنحو أخذ الرواية، و نحو بيان المسائل بعد أخذها عن المجتهد، فهي أعم من الاجتهاد و الوعظ و نشر المسائل.

[١٢٣] و إلحاقاً بما تقدم من أمر الجهاد، يأتي السياق ليبيّن خطّة الإسلام في جهاد الكفار يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ من «ولى يلى» إذا قرب، أى: يقربونكم- فى الأرض- مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتِلُوا الْأَدْنَى فَلِأَدْنَى، و ذلك لتتصل أرض الإسلام بعضها ببعض و لا تحدث بينها فجوة يتخذها العدو مرصداً و قاعدةً لمحاربتكم. و قد دلّ الدليل على جواز مقاتلة الأبعد إذا كان المسلمون فى أمن من الأقرب لمهادنة أو معاهدة أو ما أشبه و لِيَجِدُوا أَى يَجِدُ الْكُفَّارَ فِيكُمْ غِلْظَةً و خشونة، فإن ذلك مما يسبب انهيار معنويات العدو، لكن ليست «الغلظة» بالمثله و نحوها فقد حرّم الإسلام ذلك كما منع عن قتل المرأة

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٢٤]

وَ إِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) و الصبى و الفانى و الراهب و ممن لا- يساعد المحاربيين و اعلموا أنّ الله مع المتقين فلا تتركوا التقوى كما لا يرعى المحاربون- إذا فتحوا البلاد- من كل إثم و شناعة، فإن الإسلام جاء محرراً لا فاتحاً، فليس للجيوش الإسلامية أن تفعل ما تشاء إذا غلبت. و قد زجر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بلالا حين رأى من بعض النساء اليهوديات- من أهل خيبر- تغيراً فسألهن ما بالهن؟ فلما أجبن بأن بلال مرّ بهن على مصارع قتلاهن- يعنى يهود خيبر- قال الرسول لبلال زاجرا: كأن الله نزع الرحمة من قلبك!

[١٢٤] و يأتي السياق ليبيّن كلام المنافقين و ما يرسم فى قلوبهم و حركاتهم إذا أنزلت سورة، فإن المنافق إذا أنزلت سورة تريب نفسه و تحمل السورة إلى محامل بعيدة عن الحقيقة و الواقع ليثلج صدره بالتكذيب، و طبق ما فى نفسه يفتح كلام مريب على لسانه فيتساءل ممن حوله عن وقع السورة فى نفوسهم، حتى يرتب الأثر، فإن جذبت السورة ناساً ردهم، و إن لم تجذبهم يزيدهم ريباً و شكاً. أما حركته فإنه ينزعج من الحضور فى مجال تتلى السورة فيه لأن قلبه لا- يميل إليهم و لا إليها، إذن فلينصرف عن المجلس متسللاً حتى لا- يعلم نفاقه، و يستريح إلى أقرانه و إذا ما أنزلت سورة «ما» زائده جىء بها لتحسين الكلام، و لعله لنكتة بلاغية هى تصوير حال المنافق المنكر، فقد نزلت السورة، لكن فى قلب المنافق «ما أنزلت» فمنهم أى من المنافقين من يقول على وجه الإنكار و الاستخبار: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا- يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَدْكُرُونَ (١٢٦)

إيماناً؟ ليعلموا وقع أثر السورة فى النفوس و المقاومة إذا أرادوا إلقاء الريب و الشك.

و هنا يأتي الجواب من الله سبحانه ليفصل فى الأمر بما هو الواقع، من غير حاجة إلى جواب المؤمنين أو إلى جواب المنافقين: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا فإن المؤمن المخلص كلما ذكر الله سبحانه و كلما رأى آية من آياته يزداد إيماناً و عقيدةً و هم يستبشرون يفرحون بنزول السورة فرحاً يظهر فى وجوههم أثره، و كيف لا- يفرحون و قد زادهم سبحانه دلالةً و كرامةً، و قوى جانبهم بنزول سورة أخرى؟! [١٢٥] وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ رُوحى، و هو الشك و النفاق و الإنكار فزادت السورة رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ لأن قلوبهم كانت قدرةً بإنكار ما سبق من آيات الله، فإذا أنكروا هذه السورة و شكوا فيها زادت قدرة قلوبهم. و يسمى الكفر رجساً، لأنه

كالتجاسة الظاهرة التي تؤذي، و يجب على الإنسان أن يتجنبها و ماتوا و هم كافرُونَ فإن من لا تنفعه السور لا بد أن يبقى شاكا منافقا حتى يموت في كفره و نفاقه.

[١٢٦] إن أمر هؤلاء المنافقين عجيب، فإن السور لا- تفيدهم، و الفتنة لا- ترجعهم عن غيرهم أو لا يروُونَ هؤلاء المنافقون- على نحو الاستفهام الإنكاري- أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ أَي يمتحنون، تارة بنصر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٦

[سورة التوبة (٩): آية ١٢٧]

وَ إِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)
المسلمين، و أخرى بكشف الرسول نواياهم، و ثلثه بالأمراض و ما أشبهه، مما ينبغي أن يرجع المنافق عن غيرهِ إذا أصابه ذلك في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فالفتنة كثيرة الوقوع في حياتهم ثُمَّ لا- يُتُوبُونَ عن نفاقهم و كفرهم و لا- هُمْ يَدَّكُرُونَ نعم الله سبحانه، و أدلته و حججه، إن قلوبهم قد تحجرت فلا تفيدها السورة و لا الفتنة، فما ذا يصنع بها؟

[١٢٧] و لما فرغ من بيان أقوالهم و نواياهم، بين عملهم النفاقي تجاه نزول السورة و إذا ما أنزلت سورة «ما» زائده كما تقدم، و هم حضور عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هؤلاء المنافقين إلى بَعْضٍ ليغمز إليه و يشير إليه بأن لا يؤمن و لا يترشح عن نفاقه. فيقول بعضهم لبعض بالقول أو الغمز و الإشارة: هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ من المؤمنين المخلصين؟ و الظاهر أن المراد رؤية الالتفات إلى نواياهم و إشاراتهم، لا رؤية العين، فإنهم كانوا يريدون عدم التفات المسلمين إلى أحوالهم لئلا يعرفوا سبب قيامهم عن المجلس و انصرافهم ثُمَّ انصَرَفُوا عن المجلس إذا لم يره أحد، أو حين انفض المجلس صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ دعاء عليهم بأن يصرف الله قلوبهم عن فهم الحق و إدراكه، فإنهم لما نافقوا لم يستحقوا الألفاظ الإلهية الخفية بسبب أنهم قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الحق، فقد طبع على قلوبهم بالكفر و العصيان و النفاق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٧

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

[١٢٨] و في ختام السورة تأتي آيتان لبيان وظيفته المؤمنين تجاه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ الذي يحنو عليهم، فاللازم أن ينصروه و يؤازروه، و لبيان ما يفعله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لو تولى الناس عنه و أعرضوا، و كأنها خاتمة لما تقدم من أحوال من آمن و آزر، و من نافق و تخلف لَقَدْ جَاءَكُمْ أَيها البشر، أو أيها المؤمنون رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَي من جنس نفوسكم، و هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ. و هذا تحريض لا تباعه و الأخذ بأمره حيث أنه من أنفسهم عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ أَي صعب عليه عنتكم و ما يلحق بكم من الضرر و الأذى حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أَي على حفظكم و تقدمكم و سعادتكم، فليستم بهينين عليه حتى لا يهمله أمركم، و يلقي بكم في المهالك اعتبارا، فإذا أمركم بأمر فإن فيه سعادتكم و خيركم، لأنه جاء من المشفق الحريص على شؤونكم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ الرَّأْفَةُ شدة الرحمة رَحِيمٌ للتأكيد و تفهيم من لا يفهم معنى الرؤوف، فهو وصف توضيحي من قبيل «سعدانه تبت».

[١٢٩] فَإِنْ تَوَلَّوْا وَ أَعْرَضُوا عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و عن رسالتك فَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: حَسْبِيَ اللَّهُ أَي كافي، فإنه قادر على أن ينصرني لا إله إلا هُوَ لا شريك له أرجوه أو أخافه، بل هو وحده بيده كل شيء، فهو قادر على نصري و إعزاي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ اتكلت في أموري كلها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٨

عليه وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ فهو أعظم من كل عظيم، إذ العرش العظيم- أي السلطان الكبير- له، فمن اتصل به لا يخشى أحدا سواه، و إن أعرض عنه الناس، فإن العرش كناية عن السلطة و السيادة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٩

١٠ سورة يونس مكية / آياتها (١١٠)

سميت السورة بهذا الاسم حيث اشتملت على قصة «يونس» النبي عليه السلام و السورة تدور مباحثها حول العقيدة، و ما يتفرع منها- غالباً- و حيث اختتمت سورة «براءة» بذكر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، ابتدأت هذه السورة بذكره صلى الله عليه و آله و سلم. [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله سبحانه، فهو وحده المستحق للتقديم، و ذكر الرحمن الرحيم، لتلطيف الجو، فإن الناس قد اعتادوا أن يروا الظلم و الجور من الكبار و الطغاة، لكنه ليس كذلك إنه الرحمن بعباده، الرحيم بالمؤمنين منهم، فلا خوف من ظلمه، و لا خشية من جوره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٠

[سورة يونس (١٠): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)

[٢] الر من ألف و لام و راء و غيرها يتركب هذا القرآن المعجز، فإنه من جنس كلام البشر، لكنه معجز لا يتمكن أحد أن يأتي بمثله، كما أن من جنس المعادن و النبات يتركب الإنسان، لكن لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله، و كذلك جميع صنع الله سبحانه- على الاختلاف في أوائل السور- تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ خبر لقوله «الر» أى هذه الحروف آيات الكتاب- على بعض الأقوال- و المراد ب «الكتاب الحكيم» القرآن العظيم الحاكم بالحق، المحكم فى وصفه و أسلوبه و أحكامه.

[٣] أ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ اسْتَفْهَامَ إِنكَارِي، أى: هل إيحائنا إلى رجل منهم موجب للعجب و الاستغراب، إنه لا ينبغي ذلك، فقد أوحى إلى جنس البشر قبل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فالأنبياء كلهم كانوا بشرا أن أنذِر النَّاسَ مفعول «أوحينا» فقد كان الناس يتركبون المحرمات و يفعلون القبائح، فجاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لينذرهم بالعذاب إن اقترفوا الآثام و بشر الذين آمنوا و اعتقدوا بما جئت به أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ فكما أن الإنسان الصادق فى قوله لا تزل قدمه عند المحاكمة و الحكم، كذلك من آمن له قدم صدق لا تتزلزل و لا تضطرب عند الله سبحانه، و يوم محكمته الكبرى قَالَ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ لَا يَعْتَقِدُونَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ: إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ - يعنون محمدا صلى الله عليه و آله و سلم- لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩١

[سورة يونس (١٠): آية ٣]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)

واضح، حيث أنهم لم يتمكنوا من مقابله و الإتيان بمثل كلامه.

[٤] ثم عطف سياق الكلام حول الإله، على الكلام حول الرسول، و أخره لأن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم هو الذى يقول هذا الكلام و يشبهه و يدعو إلى التوحيد و يقدم عليه البراهين و الأدلة إِنَّ رَبَّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فالذى خلقهما و اخترعهما و أوجدهما من العدم هو ربكم و خالقكم، لا الأحجار المنحوتة و الأشجار و سائر المخلوقات. فى سِتَّةِ أَيَّامٍ و قد جرت سنة الله سبحانه على التدرج فى الخلق، مع أنه قادر على الخلق دفعة واحدة، فالإنسان و الحيوان و النبات كلها تتدرج فى الخلق حتى تكمل، و لعل فى ذلك اعتبار للملائكة و نحوهم، كما أن فى تدرج خلقه الإنسان و سائر الأشياء عبرة للبشر، فإن الإذعان يأتى بالتدرج. و أما خصوصية «الستة» فهى كخصوصية «تسعة أشهر» للجنين و سائر الأزمان المضروبة لسائر المخلوقات.

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ أَيْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ، أَوْ تَوَجَّهَ نَحْوَ خَلْقِهِ - كَمَا مَرَّ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ - يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أَيْ يَقْدِرُهُ وَيَنْفِذُهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَهُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ الْأَمْرُ فِي الْكُونَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ فَهُوَ سَبْحَانَهُ كَمَا بَدَأَ وَخَلَقَ، وَ أَمْرٌ وَ نَفْذٌ، كَذَلِكَ بِيَدِهِ الْمَعَادُ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ، وَ هُنَاكَ لَا بَدَّ مِنَ الشِّفَاعَةِ لِلْعَصَاةِ كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ فِي الدُّنْيَا، وَ لَكِنَّ الشِّفَاعَةَ هُنَاكَ أَيْضًا بِيَدِهِ، فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤ إلى ٥]

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)

الموصوف بهذه الصفات هو رَبُّكُمْ لا غيره من الأصنام و سائر المعبودات فاعبُدوه وحده بدون شريك أ فلا تذكرون فيه حث على التذكر و التفكير ليهتدوا إلى الطريق، و يجتنبوا المتاهات.

[٥] ثم بين أن الرجوع إليه كما كان منه البدء، للتصريح بذلك بعد الإشعار و الإلماع إليه إليه إلى الله سبحانه مَرْجِعُكُمْ رجوعكم أيها البشر جميعاً فلا يتخلف منكم أحد وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا لا يخلف ما وعد من رجوعكم إليه إِنَّهُ وحده يَبْدُوا الْخَلْقَ و يوجدهم من العدم ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد موته و فئاته و عدمه، و إنما يعيده لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَيْ يعطيهم جزاءهم بِالْقِسْطِ بالعدل، فإذا لم يروا هنا «في الدنيا» جزاء أعمالهم الصالحة، لا بد و أن يروا هناك «في الآخرة» وَالَّذِينَ كَفَرُوا و لم يؤمنوا بالله لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ «الحميم» هو الماء الحار الذي انتهى إلى آخر درجة من الحرارة و عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم و موجه بسبب ما كانوا يَكْفُرُونَ «ما» مصدرية، أَيْ جزاء على كفرهم.

[٦] ثم بين سبحانه صفاته الفعلية، و أقام البرهان على الألوهية بما يرى الإنسان من الآثار الكونية البادية للعيان هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٣

أى نورا بالنهار، ليستفيد منه الإنسان و الحيوان و النبات و سائر المخلوقات الأرضية، و لولاها لم يكن ذو روح على وجه البسيطة و الْقَمَرَ نُورًا بالليل، قالوا: و الضياء أبلغ في كشف الظلمات من النور، و إن كان يطلق كل منهما على الآخر، إلا أنهما إذا اجتمعا دلّ الأول على زيادة.

إن هذا البرهان كاف للإنسان العادي الذي لا يعرف إلا الفطرة السليمة، كما أنه كاف لأكبر الفلاسفة دقة، و كذلك جميع آيات القرآن، فهي في حين تقع الإنسان البسيط تكون أقوى الحجج للمنطقي و الفلسفي و المجادل. فمن يأتري خلق هذه الأشياء؟ هل أنها صنعت نفسها؟ إن هذا لا يمكن أبداً، أم صنعها جاهل عاجز؟ و هذا كالسابق في الاستحالة. فلا بد و أن يكون صانعها عالم قدير، و ليس هو إلا الله سبحانه.

وَقَدَرَهُ أَيْ قَدَرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ بَأَنْ جَعَلَ لَهُ مَنَازِلَ، يَنْزِلُ فِي أَحَدِهِمَا بَعْدَ الْآخَرِ حَتَّى يَكْمَلَ الدُّورَ، وَ قَوْلُهُ «قَدَرَهُ» إِمَّا بِحَذْفِ «اللام» أَيْ «قدر له»، و إما مجاز لعلاقة الحال و المحل، فقد نسب ما للمحل إلى الحال. و إنما قدره منازل لِتَعْلَمُوا بالقمر و منازل عَدَدَ السِّنِينَ فَإِنَّ السَّنَةَ تتكون من اثني عشر شهراً، و الشهر لا يكون إلا بحركة القمر من منزل إلى منزل و الْحِسَابَ حتى تعرفوا أى يوم أول الشهر و أى يوم آخره، و تضبط بذلك الحسابات و المواعيد. و قد كان القمر و الشهور خير وسيلة للعالم و الجاهل للضبط و التقدير، أما سائر الحسابات فهي غير محسوسة بالإضافة إلى كونها خاصة بالعالم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٤

[سورة يونس (١٠): آية ٦]

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)

ما خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الخلق من سماوات و أرض و شمس و قمر و منازل إِلَّا بِالْحَقِّ فلم يكن الخلق لهوا و عبثا لا طائل فيه، فإن فيه دلائل على الوحدانية و الصفات الأزلية، كما أن فيه الحساب و الميقات و المنافع للخلق يُفَصِّلُ اللهُ سبحانه الآيات الدالة على وجوده و يبينها آية آية لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فيعطون كل آية حقها، أما الجهال فإنهم معرضون عن الآيات (وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا) «١».

[٧] ثم بين سبحانه آية أخرى من الآيات الدالة على وجوده مما هو ظاهر للعيان و يعرفه كل إنسان إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ الْمَرَادُ ب «الاختلاف» إتيان أحدهما خلفه للآخر، كما قال سبحانه في آية أخرى: (جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً) «٢». و لعل تقديم الليل، لأن الظلمة هي السابقة على النور، فقد قالوا: إن النور و الظلمة «عدم و ملكة» و من المعلوم تقدم عدم على الملكة ذاتا و ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ من أنواع الكواكب و النيازك و الشهب و السحاب و الأمطار و الرياح و غيرها و الْأَرْضِ من أنواع الجبال و المعادن و المياه و النباتات و الحيوانات و الإنسان و غيرها لآياتٍ أَدْلَى دَالَةٍ و براهين ساطعة على وجود الله سبحانه و صفاته، من العلم و القدرة و الإرادة و الحياة و غيرها لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ الانزلاق في مهوى السفساف

(١) الأنعام: ٢٦.

(٢) الفرقان: ٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧ الى ٨]

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)

و الخرافة، كما أن فيهما آيات لمن يتقى عصيان الله سبحانه. و إنما خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بهذه الآيات.

[٨] ثم ذكر سبحانه جزاء الذين لا يقتنعون بهذه الآيات، و ينكرون المعاد المستلزم لإنكار المبدأ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَى: لقاء الله، و المراد ب «لقاءه» لقاء الجزاء المقرّر لهم من عنده، فإن الله سبحانه منزّه عن المكان، و إنما هو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، و المراد ب «لا يرجون» لا يتوقعون، و إنما جيء بهذا اللفظ لأن كل معتقد به يرجو ثواب الله سبحانه، فإن الإنسان بطبعه يرجو نوال الكريم. و هذا كناية عن عدم الإيمان، فإن الذين لا يؤمنون لا يرجون المعاد وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَى الحياة القريبة، فإن «دنيا» مؤنث «أدنى» أى اختاروا هذه الحياة، فصرفوا همهم فى عمارتها، و لا يعملون إلا لها وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا أَى سكنوا إليها و ركنوا لها. و هذا من عجيب الأمر:

كيف يركن الإنسان إلى دنيا يعلم بفنائها السريع، و يشاهد كل يوم كثرة من الأموات؟! وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا دَلَّانَا التى أقمناها على التوحيد و سائر شؤون المبدأ و المعاد، من الأدلة الكونية و غيرها غَافِلُونَ فلا يتأملون فيها و لا يعتبرون بها.

[٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ تَلِكْ أوصافهم مآواهم أى مستقرهم و مرجعهم النَّارُ إليها يصيرون بسبب ما كانوا يَكْسِبُونَ من أنواع الكفر و المعاصى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩ الى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

[١٠] هذا هو الكفر، و هذا مصيره، فلننظر إلى الإيمان و مصيره إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسَلِهِ وَ الْيَوْمَ الْآخِرِ وَ صَدَقُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَإِنَّ الْمَحْرَمَاتِ لَا تَصْلِحُ لِبِنَاءِ فَرْدٍ أَوْ مَجْتَمَعٍ أَوْ دُنْيَا أَوْ آخِرِهِ، بِخِلَافِ الْوَاجِبَاتِ وَ الْمُنْدُوبَاتِ وَ الْمُبَاحَاتِ فَإِنَّهَا تَصْلِحُ لِذَلِكَ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْإِيْمَانَ مِفْتَاحُ كُلِّ سَعَادَةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ أَى تَحْتِ أُنْبِيَتِهِمْ وَ أَشْجَارِهِمْ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَنْفُسِهِمْ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَاءَ النَّهْرِ أَسْفَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ إِذَا مَشَى عَلَى الْأَرْضِ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ بَحِثْ يَتَنَعَّمُ الْإِنْسَانُ فِيهَا بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ النِّعَمِ، مِنْ أَمْنٍ وَ رِفَاحٍ وَ صِحَّةٍ وَ عِلْمٍ وَ لَذَّةٍ وَ غَيْرِهَا.

[١١] دَعَاؤُهُمْ أَى دَعَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ الدَّعْوَى قَوْلٌ يَدْعَى بِهِ إِلَى أَمْرٍ فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْجَنَاتِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ «سبحان» مصدر منصوب بفعل مقدر، أَى: أَنْزَهَكَ تَنْزِيهَا، يَا اللَّهُ، فَإِنَّ «الْمِيمَ» فِي «اللَّهُمَّ» بَدَلٌ مِنْ حَرْفِ النَّدَاءِ «يَا» وَ تَحِيَّتُهُمْ «التَّحِيَّةُ» مصدر من باب التفعيل، بِمَعْنَى التَّكْرِمَةِ، مُشْتَقَّةٌ مِنْ: «أَحْيَاكَ اللَّهُ» فِيهَا أَى فِي الْجَنَاتِ سِيْلَامٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ، وَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَ مِنْ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ لِبَعْضٍ،

وَ فِي الدَّعَاءِ: «حِينَا رَبَّنَا بِالسَّلَامِ» (١).

وَ الْمُرَادُ

(١) مستدرک وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٧

[سورة يونس (١٠): آية ١١]

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)

ب «السلام» السلامة من الآفات و المكاره، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ دَارُ السَّلَامِ الَّتِي لَا مَكْرُوهَ فِيهَا أَبَدًا. وَ مِنْ ذَلِكَ سَلَامُ الْإِنْسَانِ لِبَعْضِ حَيَا أَوْ مَيِّتًا، فَإِنَّ سَلَامَةَ الْحَيِّ مِنَ الْمَكَارِهِ هُنَا، وَ سَلَامَةُ الْمَيِّتِ مِنَ الْمَكَارِهِ هُنَاكَ، وَ هُوَ دَعَاءٌ، أَوْ تَفَالٌ، أَوْ رَجَاءٌ، بِمَعْنَى: «اللَّهُمَّ سَلِّمْهُ»، أَوْ: «أَتَفَالُ لَكَ السَّلَامَةَ»، أَوْ: «أَرْجُوهَا لَكَ». وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَى آخِرُ كَلَامِهِمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَهَمَّ بَيْنَ تَسْبِيحٍ وَ تَسْلِيمٍ وَ تَحْمِيدٍ.

[١٢] إِنْ حَكَمَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ اقْتَضَتْ بَقَاءَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَبْلُغَ الْأَجَلَ الْمَضْرُوبَ لَهُ سِوَاءِ كَانِ صَالِحًا أَوْ طَالِحًا، فَالْخَيْرُ وَ الشَّرُّ الِذِينَ سَبَقَ الْكَلَامُ حَوْلَهُمَا لَا بَدَّ وَ أَنْ يَتِمَّا مَدَّتُهُمَا الْمَقْرُورَةُ لَهُمَا، وَ إِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَسْتَعْجِلُونَ الشَّرَّ بِدَعَائِهِمْ، أَوْ بِأَعْمَالِهِمْ وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَ الْمَرَضِ وَ الْفَقْرِ مِمَّا يَسْتَحِقُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ أَوْ بِدَعَائِهِمْ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا غَضِبَ دَعَا عَلَى نَفْسِهِ وَ عَلَى بَعْضِ ذَوِيهِ بِالْهَلَاكِ وَ الْأَمْرَاضِ وَ نَحْوِهِمَا اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ أَى كَمَا يُعَجِّلُ سَبْحَانَهُ لَهُمْ إِعْطَاءَ الْخَيْرِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بِأَعْمَالِهِمْ، أَوْ بِدَعَائِهِمْ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ أَى لَفَرَّغَ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ، وَ لَمْ يَكُنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِنْسَانٌ، وَ الْمَعْنَى: لَفَرَّغَ مِنْ أَجْلِهِمْ وَ مَدَّتُهُمُ الْمَضْرُوبَةُ لِلْحَيَاةِ، وَ إِذَا انْتَهَتْ مَدَّتُهُمْ هَلَكُوا، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٨

[سورة يونس (١٠): آية ١٢]

وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

عَجُولًا) «١»، فَحَيْثُ اقْتَضَتْ الْمَشِيئَةُ الْإِلَهِيَّةُ بَقَاءَ الْإِنْسَانِ مَدَّةً فِي الدُّنْيَا فَيَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يَعْتَقِدُونَ بِالْمَعَادِ فِي طُغْيَانِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَ تَرْفَعُهُمْ عَنِ الْإِيْمَانِ يَعْمَهُونَ «العمه» هُوَ الْعَمَى، وَ شِدَّةُ الْحَيْرَةِ، فَلَا نَقْضَى أَجْلَهُمْ بَلْ نَمَهْلُهُمْ إِمْهَالًا. وَ هَذَا الْإِبْقَاءُ إِنَّمَا هُوَ لِيَزِيدَ عَذَابَهُمْ حَيْثُ طَغَوْا وَ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيْمَانِ بَعْدَ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَيْهِ.

[١٣] إن الإنسان الذي لم يتأدب بآداب الله سبحانه كثير التناقض، فبينما تراه يستعجل الشر، تراه لا يطيق أقل مس من الشر، حتى أنه إذا أصابه ذلك جعل يدعو الله في كل حالاته لكشفه عنه و إذا مسَّ الإنسان مجرد مسٍّ و عبور عليه الضُّرُّ مشقةً من مشقات الدنيا في نفس أو أهل أو مال أو نحوها دعانا لكشفه و إزالته، في حال كونه نائماً ليجنبه مضطجعا أو قاعداً في حال قعوده أو قائماً في حال قيامه، و الظاهر أن «أو» هنا بمعنى «الواو»، فإنها تأتي بمعناها، قال ابن مالك:

خير، أبح، قسم، بأو، و أبهم و اشكك، و إضراب بها أيضا نمي
و ربما عاقبت الواو إذالم يلف ذو النطق للبت منفذا

(١) الإسراء: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٩

[سورة يونس (١٠): آية ١٣]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ وَ أزلنا البلاء الذي توجه إليه مرَّ في طريقه السابق، بدون أن يغيره إلى طريق الدين و الحق كأنَّ لمَّ يدعنا إلى ضُرِّ مَسِّه كأن لم يسألنا إزالة ضره، فهو لا يعرف الرب بعد إزالته. إنه يمرّ بدون أن يتوقف ليشكر، أو يتذكر، أو يعتبر، كذلك بمثل هذه الطبيعة المنحطّة التي تتضرع إلى الله في الضراء، و تنساه في السراء زِينً لِلْمُسْرِفِينَ ما كانوا يَعْمَلُونَ إن المسرفين الذين أسرفوا في الحياة الدنيا و الركون إليها، و لم يجعلوا للآخرة خط رجعة إليها، لو وقفوا و تأملوا و شكروا، ارتدعوا عن أعمالهم الباطلة، لكنهم يمرّون بلا شكر و تدبّر، و لذا زين الشيطان في نظرهم قبح أعمالهم، فإن الإنسان إذا تدبر عرف الحسن من القبيح، أما إذا ركب هواه و سار لا يلقى على شيء، لا يرى أعماله القبيحة إلا حسنة.

[١٤] فما ذا كانت عاقبة المسرفين؟ إن السياق يستعرضها بالنسبة إلى الأمم السابقة، لتعتبر هذه الأمة و لقد أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ جمع «قرن»، و هو أهل كل عصر، سموا بذلك لمقارنته بعضهم لبعض، و منه «القرن» بمعنى الشجاع المقابل لأنه مثل الشجاع الآخر مِنْ قَبْلِكُمْ بأنواع العذاب لَمَّا ظَلَمُوا أنفسهم و غيرهم، و أسرفوا في الركون إلى الدنيا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أي الحجج و الأدلة، فإن الهلاك إنما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٥٥٠

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٤ الى ١٥]

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَ إِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥)

يكون بعد إتمام الحجّة، أما مجرد الظلم بدون إتمام الحجّة، فإنه لا يوجب هلاكاً- عند الله سبحانه- قال: (وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) «١»، و ما كانوا لِيُؤْمِنُوا أي أن هلاكهم بعد العلم بأنهم لا يؤمنون أبدا، فهم ظالمون قد تمت عليهم الحجّة، و لا يؤمنون بعد ذلك كَذَلِكَ أي كما جازينا أولئك القرون لَمَّا ظلموا نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ من جميع الأمم.

[١٥] ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ أي أن هلاكهم بعد العلم بأنهم لا يؤمنون أبدا، فهم ظالمون قد تمت عليهم الحجّة، و لا يؤمنون بعد ذلك كَذَلِكَ أي كما جازينا أولئك القرون لَمَّا ظلموا نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ من جميع الأمم. فإنكم خلفتموهم في الأرض، و صرتم خلفا لهم لِنَنْظُرَ أي نرى، و المراد: الرؤية العلمية، أو الرؤية حقيقة، فإنه سبحانه ناظر لأعمال العباد كَيْفَ تَعْمَلُونَ هل تعملون الصالحات أو السيئات، كأولئك القرون؟ و إنما نريد النظر للاختيار و الجزاء.

[١٦] ثم بين سبحانه بعض أعمال هؤلاء المشابهة لأعمال أولئك القرون الظالمة. فقد ذكر بعض المفسرون أن جماعة من المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل، و ليس فيه عيبها، أو بدله و تكلم به من تلقاء نفسك «٢».

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) مجمع البيان: ج ٥ ص ١٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠١

فنزلت: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ آيَاتُنَا الْمُنزَلَةُ فِي الْقُرْآنِ بَيِّنَاتٍ وَأَضْحَاتِ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَي لَا يُؤْمِنُونَ بِالْمَعَادِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بِالْمَعَادِ يَرْجُو فَضْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَمَنْ لَمْ يَرْجُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، لِتَلَازِمِ الرَّجَاءِ وَالْإِيمَانِ: أَنْتَ جِئْتَ يَا مُحَمَّدٌ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي تَلَوْتَهُ أَوْ يَدِّدُهُ فَاجْعَلْهُ عَلَى خِلَافِ مَا تَقْرَأُ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْقُرْآنَ الثَّانِيَّ غَيْرَ مُرْتَبِطٌ بِمَطَالِبِهِ بِالْقُرْآنِ الْأَوَّلِ، بِخِلَافِ «بدله» فهو هو، لكن مع التبدیل كأن يقول - عوض (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ) «١»-: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ زِينَةُ الْجَنَّةِ» مثلاً. وقد ظن أولئك الجهلة أن القرآن أمثال أشعار العرب التي يتمكن الشاعر أن يقول شعراً آخر، أو أن يبدل جزءاً من الشعر فيجعل مكانه جزءاً آخر.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَكُمْ: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ أَبَدَلَ الْقُرْآنِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي مِنْ نَاحِيَةِ نَفْسِي، فَإِنَّهُ مُعْجَزٌ وَ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، يُقَالُ: «فَلَانَ تَلْقَاءَ فَلَانٍ» أَي بَحْذَانِهِ وَ إِزَائِهِ إِنْ أَتَّبِعَ مَا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى أَي الشَّيْءَ الَّذِي يُوحِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَيَّ بِلا زيادة و لا نقصان إني أخاف إن عَصَيْتُ رَبِّي بِتَبْدِيلِ كِتَابِهِ أَوْ تَغْيِيرِهِ، أَوْ

(١) الأنبياء: ٩٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٢

[سورة يونس (١٠): آية ١٦]

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)

سائر أنواع المعاصي عذاب يوم عظيم يوم القيامة، و أى معنى للتبدیل؟ هل لأن القرآن ليس معجزاً؟ فليأتوا بمثله، أم لأن مطالبه و قوانينه ليست مطابقة للواقع أو للحكمة، فما هو نقدهم فيه؟ و هل المعاند يكفي بالتبدیل؟ إن كلامهم كان لمجرد العناد، و هذا مما لا يصغى إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

[١٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ تَبْدِيلَ الْقُرْآنِ: لَيْسَ أَمْرُ تَلَاوَتِهِ، وَ لَا- أَمْرُ إِزَالِهِ بِيَدِي، إِنْ جَمِيعُ شُؤْنِ الْقُرْآنِ بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ، وَ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي بِتَلَاوَتِهِ، وَ قُلْ لَكُمْ: إِنْ قَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ عَمْرًا كَامِلًا أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَ لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنِّي لَكُنْتُ أَقْرَأُ وَ أَعْلَمُهُ قَبْلَ نَزُولِهِ، إِنْ عَدِمَ قِرَاءَتِي لَهُ مِنْ قَبْلِ، وَ عَدِمَ بَيَانَهُ سَابِقًا، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنِّي وَ لَيْسَ بِيَدِي حَتَّى أَتِمَّكَ مِنْ تَبْدِيلِهِ وَ تَغْيِيرِهِ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا أَتْلُوهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ فَإِنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ بِتَلَاوَتِهِ عَلَيْكُمْ وَ تَبْلِيغِكُمْ بِهِ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ أَي لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا تَعْلَمُوهُ، مَا أَعْلَمَكُم بِهِ، وَ ذَلِكَ بِعَدَمِ إِزَالِهِ أَصْلًا. فبيده وحده إنزال القرآن فقد لبثت مكثت و أقمت بينكم و فيكم عمراً أربعين سنه من قبلي من قبل قراءتي للقرآن و تلاوتي له، فلو كان مني لكنت قرأته من قبل، فإنه أى فارق فى كلامى قبل ادعائى للنبوة و بعد ادعائى لها. و قد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتكلم بكلام بينهم قبل النبوة فلم يكن يشبه كلامه القرآن أصلاً فلا تَعْقِلُونَ وَ تَتَفَكَّرُونَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٣

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٧ الى ١٨]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)

الواضحة، فكيف تطلبون مني أن أبدل القرآن.

[١٨] إذن، لم يبق أمامي في باب تبديل القرآن إلا أن أخترع قرآنا من نفسي، وهذا مما لا يمكن أبداً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ أَى لا- أحد أكثر ظلماً من إنسان تجزأ على الله سبحانه كَذِبًا بأن نسب إليه كلاماً ليس من كلامه، أو حكماً ليس من حكمه، فكيف أعمل أنا هذا بأن أخترع قرآنا ثم أنسبه إلى الله تعالى؟! أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ كما تعملون أنتم حيث تكذبون آيات الله و تقولون: أنها ليست من الله، فكلا- الأمرين افتراء عليه ما ليس منه، و سلب عنه ما هو منه إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ لا يفوزون بخير الدنيا و لا سعادة الآخرة، فإن الله سبحانه بالمرصاد للمجرم، خصوصا الاجرام بهذا الحد من الجراه عليه سبحانه.

[١٩] ثم بين سبحانه آلهة هؤلاء الكفار الباطلة، فإنهم تركوا الحق و اتخذوا الباطل و يَعْبُدُونَ يعبد هؤلاء الكفار مِنْ دُونِ اللَّهِ أى غير الله.

و هذا يجتمع مع الشرك و مع الكفر ما لا- يَضُرُّهُمْ ضررا من قبلها و لا يَنْفَعُهُمْ فإن الأصنام جمادات لا تضر و لا تنفع، و العذاب للشرك إنما هو ضرر يتوجه إليهم من عملهم الباطل، كما أن بعض المنافع المادية لسدنة الأصنام و من إليهم إنما هي من الأشخاص الباذلين و الناظرين لا من قبل الأصنام، ثم إن كونها «لا تضر و لا تنفع» أبلغ فى الردع عن عبادتها، لأنه لا تجوز العبادة حتى بالنسبة إلى من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٤

[سورة يونس (١٠): آية ١٩]

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

يضر و ينفع كعبادة الملوك الذين بيدهم الضر و النفع ظاهرا. أو المراد النافع و الضار حقيقة، و ليس فى الكون نافع أو ضار فى الحقيقة إلا الله سبحانه، فإنه هو الذى خلق المنافع و المضار و أمكن كل شىء من الإتيان بمقتضاه.

و يَقُولُونَ أى يقول المشركون و هم الذين يعتقدون بالله و بالصنم: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ فَإنا نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا عنده سبحانه قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار: أ تَتَّبِعُونَ اللَّهَ أى هل تخبرون الله سبحانه- على نحو الاستفهام الإنكارى- بما لا يَعْلَمُ فَإن الله سبحانه لا يعلم كون الأصنام شافعة، فكيف تنسبون إليه أنه تعالى جعل الشفاعة لها، و «لا يعلم» من باب السالبة بانتفاء الموضوع، فإنه إذا لم يكن موضوع للعلم، لم يكن علم. فهل يعلم هؤلاء الكفار ما لا يعلمه الله سبحانه فى السَّمَاوَاتِ و لا فى الْأَرْضِ و يخبرونه بما لا وجود له؟ و يخترعون الشفاعة لما لم يجعله الله سبحانه شافعا شَيْحَانَهُ منزّه عن ذلك و تعالى إنه أعلى و أجل عَمَّا يُشْرِكُونَ من أن يكون له شريك، و «ما» إما مصدرية، أى عن شركهم، فهو منزّه عن شركهم و أجلّ منه. و إما موصولة، أى عن الأصنام التى يشركونها مع الله، فهو منزّه عن المثل، و أعلى و أجل من أن يكون فى عداد الأصنام.

[٢٠] و قبل أن يستعرض القرآن سائر أقوالهم السخيفة، يبين أن الشرك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٥

[سورة يونس (١٠): آية ٢٠]

وَيَقُولُونَ لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّهَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

عارض على البشر، و إلا فالفطرة السليمة تدل على التوحيد، فإن الجهاز الموحد المنظم يدل على إرادة موحدة و رئيس واحد و ما كَانَ النَّاسُ بفطرتهم و أصلهم إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً موحدة، كما

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه هما اللذان يهودانه و ينصرانه و يمجسانه»
 «(١)، فَاخْتَلَفُوا بِأَنْ بَقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَ انْحَرَفَ بَعْضُهُمْ نَحْوَ الشَّرِكِ.

وَ لَوْلَا- كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ بِأَنْ قَالَهَا وَ قَرَّرَهَا بِأَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا دَارَ امْتِحَانٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ فِيهَا مَخْتَارِينَ مَطْلَقِي السَّرَاحِ مَهْمَا شَاءُوا
 اعْتَقَدُوا، وَ مَهْمَا أَرَادُوا عَمَلُوا، حَتَّى يَكُونَ الْجَزَاءُ عَدْلًا وَ اسْتِحْقَاقًا، لَا مَحَابَاهُ وَ اعْتِبَاطًا لِقَضَى بَيْنَهُمْ أَى حَكَمَ اللهُ بَيْنَهُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا
 بِأَنْ يَهْلِكَ الْمُشْرِكِينَ وَ يَذَرَ الْمُوَحِدِينَ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ الشَّرِكِ، أَوِ الْمَرَادِ: لِقَضَى بَيْنَهُمْ بِأَنْ أُجْبِرَ الْجَمِيعُ عَلَى التَّوْحِيدِ،
 لَكِنَّهُ (لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) (٢).

[٢١] وَ يَقُولُونَ أَى يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ أَى عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آيَةً مُعْجِزَةً خَارِقَةً كَمُعَاجِزِ عِيسَى وَ
 مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ طَرَفِ رَبِّهِ فَقَدْ كَانُوا يَقْتَرِحُونَ خَوَارِقَ أُخْرَى، وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ تَعَنَّاتًا،

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ١٨٧.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٦

[سورة يونس (١٠): آية ٢١]

وَ إِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)
 إِذِ يَكْفَى فِى الدَّلَالَةِ الْخَارِقَةَ دَلَالَةَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْمَعْجِزَةَ الْبَاقِيَةَ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَدْعُونَ لَهَا فَقُلُ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ إِنْ
 الْآيَةَ الْخَارِقَةَ الَّتِي تَطْلُبُونَهَا غَيْبَ خَارِقَ لِقَوَانِينِ هَذَا الْكُونَ، وَ إِنَّهُ يَبْدُ اللهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ بِيَدِي وَ مِنْ عِنْدِي، وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ (وَ مَا
 يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) «(١)»، فَإِنَّ الْمَتَعَتَ لَا يَرِيدُ إِلَّا اللَّجَاجَ لَا الْحِجَّةَ وَ الْاِقْتِنَاعَ حَتَّى يَسِيرَ الْإِنْسَانُ حَيْثُ إِرَادَتُهُ، إِنَّهُ لَوْ أَرَادَ
 الْاِقْتِنَاعَ وَ الدَّلَالَةَ لَكَفَتَهُ هَذِهِ الْمَعْجِزَةُ الْعَظِيمَةُ، فَهُوَ كَمَنْ يَأْتِي بِامِضَاءِ الرَّئِيسِ، ثُمَّ يَقُولُ النَّاسُ لَهُ: «جِئْ بِامِضَاءِ آخِرِ حَتَّى نَقْبَلَ قَوْلَكَ»
 فَانْتَظِرُوا الْمُسْتَقْبَلَ حَتَّى تَرُونَ هَلْ يَأْتِي اللهُ سُبْحَانَهُ بِمَا تَطْلُبُونَ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنْظِرِينَ وَ هَذَا الْجَوَابُ فِيهِ شَبَهٌ تَهْدِيدًا، كَمَا تَقُولُ
 لِلْمَجْرِمِ: اصْبِرْ حَتَّى نَرَى الْعَاقِبَةَ.

[٢٢] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ إِنَّمَا تَطْغَى إِذَا رَأَتْ نَفْسَهَا غَنِيَةً غَيْرَ مَحْتَاجَةٍ، أَمَا إِذَا وَقَعَ الْإِنْسَانُ فِى أَزْمَةٍ وَ شِدَّةٍ، فَهُوَ يَلُودُ بِاللَّهِ
 وَ يَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ، وَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَا كَمَنَّ فِى فِطْرَتِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ الْاِعْتِرَافِ بِالْأَلُوْهِيَّةِ وَ إِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً «الْإِذَاقَةَ» تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى
 الذُّوقِ بِاللِّسَانِ، كَمَا تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْإِدْرَاقِ مَطْلَقًا، وَ هَذَا هُوَ الْمَرَادُ هُنَا، فَإِنَّ الرَّحْمَةَ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِاللِّسَانِ مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ مِنْ
 شِدَّةٍ أَوْ فَاقَةٍ أَوْ اضْطِرَابٍ أَوْ غَيْرِهَا إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيَاتِنَا فَإِنَّهُمْ حَيْثُ رَأَوْا الشَّدَّةَ

(١) الأنعام: ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٧

[سورة يونس (١٠): آية ٢٢]

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ
 مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَكِنَّ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)

كَانُوا جَدِيدِينَ بِقَبُولِ الْحَقِّ، وَ اتِّبَاعِ الرَّسْلِ، وَ الْاِخْتِيارِ وَ الْمَكْرِ لِإِحْمَادِهَا وَ انْكَارِهَا، وَ قَدْ كَانَتْ عَادَةُ الْبَشَرِ هَكَذَا مَعَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَوْمٌ فَرَعُونَ كُلَّمَا أُصِيبُوا بِمَكْرِهِ
 جَاءُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْأَلُونَهُ الْكُشْفَ عَنْهُمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا، فَإِذَا أَذَاقَهُمُ اللهُ الرَّحْمَةَ، وَ كَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا

عليه، و أخذوا يمكرون بموسى، و يحتالون لإخماد آيات الله سبحانه، و هكذا سائر الأنبياء و المصلحين مع أممهم، إلى هذا اليوم. قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَثَلِ هَؤُلَاءِ: لا- تفعلوا و لا- تمكروا ف اللّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا فَإِنَّ مَكْرَ هَؤُلَاءِ لَا يَصِلُ إِلَى أَعْمَاقِ الْحَيَاةِ، بخلاف مكره سبحانه و علاجه للأمر- لأن المكر هو: التدبير الخفى- فإنه يصل إلى أعماق الحياة، و لذا تكون جذور دعوات الأنبياء أعمق و أسرع فى نفوس الناس من مكر الماكرين و إنكار الملحدين و تشكيك المشككين إِنَّ رُسُلَنَا أَى الْمَلَائِكَةَ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ أَى مَا تَدْبُرُونَ خَفِيَةً ضِدَّ الدِّينِ وَ أَهْلِهِ، ثم تجزون على ذلك.

[٢٣] ثم ضرب سبحانه مثلا لطبيعة الإنسان العاتية التى تتضرع عند الشدة، و تنسى عند الرخاء هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ فَإِن مَشَى الْحَيَوَانَ، وَ الْمَرْكَبَةَ، وَ غَيْرَهَا، إِنَّمَا هُوَ حَسَبُ تَكْوِينِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ نِظَامِهِ الَّذِى جَعَلَهُ لِلْحَيَاةِ وَ إِذَا لَمْ يَتِمَّكَ الْإِنْسَانُ مِنَ السَّيْرِ وَ لَوْ خَطْوَةً وَاحِدَةً وَ الْبَحْرِ بِسَبَبِ الْفُلِّكَ وَ نِظَامِ عَدَمِ غَرَقِ مَا وَزَنَ الْمَاءُ أَثْقَلَ مِنْهُ- كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٨

بَيِّنَ فِى قَانُونِ أَرْخَمِيدَسَ- حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلِّكَ فَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ سَارَ مِنْ بَلَدِهِ فِى طَرِيقِ الْبَحْرِ حَتَّى رَكِبَ فِى السَّفِينَةِ لِإِرَادَةِ الْذَهَابِ إِلَى مَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِهِ الْبَعِيدَةِ وَ جَزَيْنَ أَى جَرَتِ السَّفِينُ، فَإِنَّ «الْفُلِّكَ» يَأْتِى مَفْرَدًا وَ جَمْعًا بِلَفْظِ وَاحِدٍ بِهِمْ أَى بِالنَّاسِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ لِيَنَّهُ يَسْتَطِيبُونَهَا، لِأَنَّهَا تَجْرَى نَحْوَ الْمَقْصِدِ فِى رِخَاءٍ وَ هُدُوءٍ وَ فَرِحُوا الرَّابِعُونَ بِهَا أَى بِهَذِهِ الرِّيحِ. فَهَمَّ فِى أَمْنٍ وَ فَرَحَ وَ سَيرَ نَحْوَ الْمَقْصِدِ بَارْتِيَا، وَ إِذَا بِهِمْ جَاءَتْهَا السَّفِينَةُ رِيحٌ عَاصِفٌ شَدِيدَةٌ الْهَبُوبِ، هَائِلَةٌ هَائِجَةٌ، فَأَخَذَتِ السَّفِينَةَ فِى الْاضْطِرَابِ وَ الْإِشْرَافِ عَلَى الْغَرَقِ مِنَ التَّرْنَجِ الشَّدِيدِ الَّذِى يَصِيبُهَا بِسَبَبِ تَلَاظِمِ الْأَمْوَاجِ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَطْرَافِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِنَّ الرِّيحَ إِذَا تَوَجَّهَتْ نَحْوَ الْمَاءِ رَفَعَتْ مِنْهُ أَجْزَاءَ كَثِيرَةٍ رُبَّمَا صَارَتْ كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ، وَ هَذَا هُوَ الْمَوْجُ، وَ الْأَمْوَاجُ تَسِيرُ بِسِيرِ الْهَوَاءِ مَا دَامَتْ تَنْفَخُ فِيهَا وَ تَسِيرُهَا، فَإِذَا اضْطَرَبَتِ الرِّيحُ وَ هَبَتْ مِنَ الْجِهَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ جَاءَتِ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَ إِذَا بِالسَّفِينَةَ فِى وَسْطِ الْأَمْوَاجِ تَرْتَفِعُ مَرَّةً وَ تَنْحَدِرُ أُخْرَى، وَ تَمِيلُ ثَالِثَةً، وَ تَقَعُ مِنْ عَلْوِ دَفْعِهِ- إِذَا تَلَاشَتْ الْأَمْوَاجُ تَحْتَهَا- رَابِعَةً، وَ هَكَذَا ..

فتصبح:

كْرِيشَةٌ فِى مَهَبِ الرِّيحِ طَائِفَةٌ لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلْقِ

وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ أَى أَحَاطَتْ بِهِمُ الْأَمْوَاجُ بِحَيْثُ تَغْرِقُهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٩

[سورة يونس (١٠): آية ٢٣]

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

فلا- نجاه من الهلكة، و حينئذ حيث رأوا الهلاك دَعَوْا اللَّهَ وَ تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، وَ انْقَشَعَتْ عَنْ عَيْنِهِمْ غَوَاشِي الشَّهَوَاتِ وَ الْأَنْيَاتِ، وَ ظَهَرَتْ فِطْرَتُهُمْ صَافِيَةً مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَى عَلَى وَجْهِ الْإِحْلَاصِ فِى الْإِعْتِقَادِ، بِحَيْثُ يَجْعَلُونَ الدِّينَ لَهُ، وَ يَنْقَطِعُونَ عَمَّا سِوَاهُ، قَائِلِينَ: لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا يَا رَبُّ مِنْ هَذِهِ الشَّدَةِ وَ الْوَرْطَةِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ الْمُعْتَرِفِينَ بِكَ وَ بِفَضْلِكَ وَ إِحْسَانِكَ فَإِنَّ الشُّكْرَ يَسْتَلْزِمُ الْإِذْعَانَ وَ التَّوْحِيدَ.

[٢٤] فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ أَى خَلَّصَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَهْوَالِ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَى يَظْلَمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ غَيْرَهُمْ، فَإِنَّ مِنْ لَا يَسِيرُ عَلَى مَنَاجِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا بَاطِلًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّ ظُلْمَ الظَّالِمِ يَعُودُ وَ بِالْهَيْبَةِ عَلَيْهِ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَى أَنْ بَغْيِكُمْ إِنَّمَا هُوَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَ ذَلِكَ مُنْقَطِعٌ لَا يَبْقَى، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَبْغَى لِأُمُورٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وَ لَا فَائِدَةَ فِيهَا لَا بَقَاءَ لَهُ وَ لَا دَوَامَ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ رَجُوعَكُمْ وَ مَصِيرَكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ نَخْبِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَ هَذَا تَهْدِيدٌ بِأَنْهَمُ سَيَجَازُونَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةَ، كَمَا تَقُولُ لِلْمَجْرَمِ: «سَأَخْبِرُكَ بِأَعْمَالِكَ» تَرِيدُ جَزَاءَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٠

[سورة يونس (١٠): آية ٢٤]

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْزَنَّا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)

على تلك السيئات التي صدرت منه.

[٢٥] ولما ذكر سبحانه أن الظلم إنما هو متاع الحياة الدنيا، بين فناءها، وأنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان لما يفنى ولا يبقى إنما مثل الحياة الدنيا أي شبه الحياة القريبة في سرعة فنائها وزوالها كماء أنزلناه من السماء وهو المطر فاختلط به نبات الأرض فإن النبات يمتص الماء حتى ينضج ويزدهر وينمو مما يأكل الناس من الثمار والبقول ونحوهما والأنعام كالحشيش والقات وغيرهما. ولعل الإتيان بهذا التفصيل للتناسق بين المثال والممثل له فكما أن الماء يختلط بالأجناس العالية من النبات - وهو ما أكل الإنسان - والأجناس السافلة - وهو ما أكل الحيوان - كذلك الحياة التي يفيضها الله سبحانه على الكون تختلط بالأشياء الراقية كالإنسان والجواهر، والأشياء المنحطة كالمدر والحجر وغيرهما.

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا «الزخرف» كمال حسن الشيء، يقال: «زخرفته» أي حسنته، فإن المطر لما ينزل من السماء يظهر ريع الزروع والكروم ونضارة النباتات والأشجار وازَّيَّنَتْ أي تزينت الأرض بالنبات الزاهي والزرع النضر، وأصل «ازينت» تزينت من باب «التفعل» قلبت «الناء» «زاء» وجيء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن.

وَظَنَّ أَهْلُهَا أَي أَهْل الْأَرْضِ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا لَزَعْمِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١١

أنهم هم الذين أوجدوها بجهدهم، وزينوها بصنعهم، وأنهم مالكو الأمر فيها، فلا يتمكن أحد من تغييرها وتحريرها. وكذلك الإنسان دائما يظن أن ما يجري في الكون مما له دخل فيه، إنما هو بصنعه وإرادته، فإذا بنى دارا زعم أنها صنعه، وإذا جرت سفينته في الماء ظن أنها منه، وهكذا، والحال أن الإنسان ليس إلا جزءا صغيرا متوسطا في سلسلة العلل. فقبله، الأرض التي منها أدوات البناء وبعده الصورة التي هي من الله سبحانه، وبها البقاء للدار، وهكذا بالنسبة إلى السفينة وسائر الأشياء.

أَتَاهَا أَي تَلَّتْ الْأَرْضُ الْمَزْخَرَةَ بِالزَّرْعِ وَالنَّظَارَةَ أَمْزَنَّا أَي عَذَابْنَا مِنْ بَرْدٍ أَوْ ثَلْجٍ أَوْ عَاصِفَةٍ أَوْ جَرَادٍ أَوْ نَحْوِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَخْشَى مِنْ أَحَدٍ وَلَا يَمْنَعُهُ وَقْتُ يَقْظَةِ النَّاسِ كَمَا لَا يَمْنَعُهُ حِرَاسُ اللَّيْلِ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا جَعَلْنَا تَلَّتْ الْأَرْضُ حَصِيدًا أَي مَحْصُودَةً، مَقْلُوعَةً ذَاهِبَةً كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ لَمْ تَجِدْ وَلَمْ تَكُنْ بِالْأَمْسِ مِنْ قَبْلِ، مِنْ «غنى بالمكان» بمعنى أقام به، ومنه «المغنى» بمعنى المنزل كذلك بما فصلنا هذا المثال وأوضحناه نُفَصِّلُ سَائِرَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي أدلته الله سبحانه، فالحياة الدنيا، كماء المطر والدنيا كالمزرعة، فإن الحياة تختلط بماهية الأشياء، وإذ نرى الحياة مزدهرة، والأسواق عامرة، والأرض مخضرة، والناس في أمن ورفاه، وأخذ وعطاء، وفي هذه الغمرة من الحسن والازدهار، وإذا بأمر الله سبحانه يأتي إما بسبب أرضى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)

كالحسب، أو بسبب سماوى كالصيحة والبرق والقذف، أو كالأضرار الفتاك، أو كالوسائل الهدامة من الآلات الحربية المفنية - كالفنابل وغيرها - فيجعلها حصيدا لا حياة فيها ولا حركة، ولا عمارة ولا حضارة .. أليس الأمر كذلك؟ وأليس يكفي هذا دلالة

على وجود الله وقدرته؟ فكيف يتكبر الإنسان ويعصى، ويطغى ويكفر؟

[٢٦] هذه كانت حالة الدنيا فهي دار تغير وزوال، وفناء واضمحلال والله يَدْعُوا النَّاسَ إِلَى دَارِ السَّلَامِ التي يكون كل شيء فيها سالما عن التغير والآفات، وهي الجنة، فإنه سبحانه يحرضهم للعمل، فهذه الدار لتلك الدار، و«السلام» و«السلامة» بمعنى واحد، كالرضاع والرضاعة وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إما المراد بالهداية: معناها العام، ف«من يشاء» هم جميع الناس، وإما المراد بها: معناها الخاص، أي الألفاظ الخاصة، ف«من يشاء» هم الذين اتخذوا منهاج الأنبياء، فإنهم مختصون بتلك الألفاظ المؤدية بهم إلى جنات النعيم.

ومن المحتمل أن يراد بالهداية: معناها العام- وهي إراءة الطريق- ويكون «من يشاء» خاصا بمن تمت لديه الحجة، فإن كثيرا من أهل البلاد البعيدة لم تبلغهم الدعوة، وكذلك من مات في الفترة بين الرسل ونحوهم، وأولئك الذين لم تبلغهم الدعوة، إنما يمتحنون يوم القيامة، كما يقتضيه العدل، ودل على بعض موارد الدليل.

[٢٧] تلك حال الدنيا الزائلة وهذه حال الآخرة الباقية، فلننظر إلى أحوال أهل تلك، وأهل هذه بين الأمرين، ف لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الاعتقاد،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٣

[سورة يونس (١٠): آية ٢٧]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)

وأحسنوا العمل، بأن آمنوا وعملوا الصالحات الحسنى، فإنهم يجزون بإحسانهم إحسانا وزيادة فضل من الله سبحانه، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، كما قال سبحانه في آية أخرى: (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) «١»، ولا يزهق «الرهق» لحاق الأمر، ومنه «راهق الغلام» إذا لحق بالرجال، ويستعمل اسما من «الإرهاق» وهو أن يحتمل الإنسان ما لا يطيقه، أي لا يلحق ووجوههم قتر أي غبار و سواد ولا ذلة انكسار و انهزام، فليست كوجوه أهل المعاصي التي يظهر عليها أثر العذاب الجسدي بالقتل، وأثر العذاب النفسي بالذلة، بل وجوههم نصره، كما قال سبحانه:

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) «٢»، أولئك الذين أحسنوا أضيحاب الجنة رفاقها وملاكها هم فيها خالدون دائمون أبدا، لا خروج لهم منها، ولا تغير لها بهم.

[٢٨] وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ أي عملوها، وغالبا يأتي «الكسب» بالنسبة إلى السيئات للدلالة على صعوبة السيئات بخلاف الحسنات، وذلك واضح لأن السيئات لها التواءات توجب الصعوبة لمكتسبها فمثلا الزواج فيه سهولة اطمئنان النفس إلى دار، وأهل، وأولاد، و قلوب تحنو عليه، ومستقبل يقوم به النسل، وذكر جميل وسيادة. والسفاح بالعكس من كل ذلك، بالإضافة إلى صرف المال والطاقة لقلب خاو

(١) فاطر: ٣١.

(٢) المطففين: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٤

وعمل مذموم، وهكذا. وليس المقصود أن الحلال بلا صعوبة، وأن الحرام بلا لذة، وإنما المقصود أن الحلال دائما أهنا وأسهل من الحرام، فإنه سبحانه خلط الحرام باللذة القليلة، والحلال بالتعب اليسير، ليختبر ويمتحن، فلو كان الحلال بلا تعب لم يكن الآتي به ممدوحا، ولو كان الحرام بلا لذة لم يكن التارك له مستحقا للأجر والثواب.

جَزَاءٌ سَيِّئَةً بِمِثْلِهَا لَا يَجَازُونَ بِأَكْثَرٍ مِنْ عَمَلِهِمْ، إِذِ الْجَزَاءُ بِالْأَكْثَرِ ظَلَمٌ قَبِيحٌ، وَ «جَزَاءٌ» مَبْتَدَأٌ خَبَرُهُ «بِمِثْلِهَا»، وَ الْجُمْلَةُ خَبَرٌ لِقَوْلِهِ: «الَّذِينَ كَسَبُوا» وَ الْعَائِدُ مَحذُوفٌ أَيْ «لَهُمْ» وَ نَحْوُهُ وَ تَزَهَّقُهُمْ ذُلَّةٌ تَلْحَقُهُمْ ذُلَّةٌ نَفْسِيَّةٌ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمَعَذَّبَ يَحْسُ فِي نَفْسِهِ ذُلَّةً وَ انْهَزَامًا مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ لَيْسَ يَحْفَظُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْلَا حَقَّ بِهِمْ حَافِظٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ، أَوْ الْمَرَادُ: لَا يَنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ حَافِظٌ، وَ هُمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْعَذَابِ وَ الصَّعُوبَاتِ، فَإِنَّ الدَّمَ يَحْتَرِقُ فِي الْجَسَدِ، وَ يَنْقَلِبُ أَسْوَدًا، فَيُظْهِرُ لَوْنَهُ عَلَى الْجَسَمِ لَشَفَافِيَّةِ الْجِلْدِ كَأَنَّمَا أُعْصِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا فَكَأَنَّ اللَّيْلَ صَارَ قِطْعًا بِسَوَادِهِ الشَّدِيدِ، فَأُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ بِقِطْعٍ مِنْهُ، قِطْعَةٌ فَوْقَ قِطْعَةٍ حَتَّى لَا يَرَى فِيهَا أَثَرَ النُّورِ وَ الضِّيَاءِ، فَهُمْ فِي عَذَابِ الْبَدَنِ، وَ ذُلَّةُ النَّفْسِ، وَ سَوَادُ الْوَجْهِ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ أَصْحَابُ النَّارِ رَافِقَاهَا وَ الْمَلَازِمُونَ لَهَا وَ الْمَعْرِفُونَ بِهَا هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ دَائِمُونَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٥

[سورة يونس (١٠): آية ٢٨]

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨) [٢٩] قَدْ كَانَ أَوْلِيكَ الْكُفَّارِ وَ الْعِصَاءِ فِي الدُّنْيَا لَهُمْ آلِهَةٌ وَ أَصْدِقَاءُ، فَأَيْنَ ذَهَبَتْ آلِهَتُهُمْ وَ أَصْدِقَاؤُهُمْ؟ وَ هَلْ أَنْقَذُوهُمْ وَ شَفَعُوا فِيهِمْ؟ إِنَّهُمْ هُنَاكَ انْقَلَبُوا أَعْدَاءَ بَعْدَ مَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ اذْكَرَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ أَى نَجْمَعُهُمْ جَمِيعًا بِلَا اسْتِثْنَاءٍ أَحَدٍ، وَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، بِأَنْ جَعَلُوا لَهُ شَرِيكًا: الزَّمُوا مَكَانَكُمْ لَا تَبْرَحُوا حَتَّى تَجَازُونَ بِأَعْمَالِكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ أَى كُونُوا جَمِيعًا فِي مَكَانِكُمْ حَتَّى تَعْطُونَ الْجَزَاءَ. وَ إِضَافَةُ الشَّرَكَاءِ إِلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ اخْتَرَعُوهَا، وَ جَعَلُوهَا شُرَكَاءَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ أَى مَيَّزْنَا وَ فَرَّقْنَا، وَ الْمَرَادُ: التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمْ فِي السُّؤَالِ، فَهُنَاكَ سُؤَالٌ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَ سُؤَالٌ عَنِ الْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ الْأَصْنَامُ وَ غَيْرَهَا مِنَ الْمَعْبُودَاتِ الَّتِي عَبَدُوهَا، مُخَاطِبِينَ لِلْكَفَّارِ: مَا كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ إِمَّا الْمَرَادُ أَنَّهُمْ عَبَدُوا الْأَهْوَاءَ وَ الشَّيَاطِينَ، وَ إِمَّا الْمَرَادُ نَفَى ذَلِكَ، مَرِيدًا بِهِ نَفَى الْعِلْمَ بِعِبَادَتِهِمْ. وَ هَذَا أَيْضًا يَصِحُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَا يَعْلَمُ، كَالْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ، فَإِنَّهَا يَنْطَقُهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ هُنَاكَ، أَوْ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ لِلتَّخْلِصِ مِنَ التَّبَعَةِ حَتَّى لَا يُقَالَ لَهُمْ: لِمَ رَضَيْتُمْ بِعِبَادَةِ هَؤُلَاءِ لَكُمْ؟ كَمَا يَكْذِبُ الْمُشْرِكُونَ هُنَاكَ قَائِلِينَ: (وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) (١).

(١) الأنعام: ٢٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٩ الى ٣١]

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَا لَيْسَ كَلِمَةُ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يَدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)

[٣٠] ثُمَّ يَسْتَشْهَدُ الْمَعْبُودُونَ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ بِعِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا أَى يَكْفِينَا شَاهِدًا وَ فَاصِلًا لِلْحَقِّ بَيْنَنَا وَمَعَاشِرِ الْمَعْبُودِينَ وَ بَيْنَكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَنَا لِغَافِلِينَ «إِنْ» مُخَفَّفَةٌ مِنَ الْمُثْقَلَةِ، وَ حَذَفَ اسْمُهَا، وَ هُوَ ضَمِيرُ الشَّأْنِ أَى يَشْهَدُ اللَّهُ: أَنَّهُ كُنَّا غَافِلِينَ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَنَا، فَإِنَّا لَمْ نَعْلَمْ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ نَرْضَى بِهِ؟ وَ لَا إِثْمَ عَلَيْنَا مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ. وَ هَذِهِ حِجَّةٌ قَوِيَّةٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَا لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ عِبَادَتِهِمْ، وَ هَلْ يَصِلِحُ لِلْعِبَادَةِ مَا هَذَا شَأْنُهُ؟! [٣١] هُنَا لَيْسَ كَلِمَةُ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ أَى تَخْتَبِرُ كُلَّ نَفْسٍ أَعْمَالَهَا الَّتِي أَسْلَفَتْهَا وَ قَدَمَتْهَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَخْتَبِرْ أَعْمَالَهُ، وَ لَا يَعْلَمُ الصَّالِحَ وَ الْفَاسِدَ مِنْهَا إِلَّا قَلِيلًا، إِلَّا إِذَا كَانَ مَتَّبِعًا لِلْأَنْبِيَاءِ فَيَعْرِفُ قِيمَةَ الْأَعْمَالِ، فَمَثَلًا لَا يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا قِيمَةَ الصَّدَقَةِ، إِذْ لَمْ يَخْتَبِرْهَا حَتَّى يَعْرِفَ مَا الثَّمَارُ الْكَثِيرَةُ الْمُرْتَبَةُ عَلَيْهَا، كَمَا لَا يَعْرِفُ مَقْدَارَ ضَرَرِ الشَّرْكِ وَ مَا

أشبهه وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَى ارجعوا إليه، إلى ثوابه و عقابه، و حسابه و جزائه وَ ضَلَّ عَنْهُمْ أَى ضاع و بطل عن نصرتهم و شفاعتهم و إنقاذهم ما كانوا يَفْتَرُونَ أَى الأصنام و المعبودات الباطلة التى كانوا يفترون على الله سبحانه بكونها شركاء له.

[٣٢] ثم يستدل سبحانه على كونه الحق و أن سواه باطل بما يشاهدونه فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٧

حياتهم اليومية قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَلَاءَ الْمُشْرِكِينَ: مَنْ يَزُرُّكُمْ و يعطى أرزاقكم مِنَ السَّمَاءِ بِإِزَالِ الْمَطَرِ وَ الْأَرْضِ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ، و هكذا يشمل الرزق طيور السماء و أسماك الماء و حيوانات الصحراء، أو هو أعم من ذلك و من سائر الأشياء التى يستفاد منها كالدور و القصور، و المراكب و الملايس، و غيرها أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ فَإِنَّ مِنْ وَهْبِهِمَا وَ أَبْقَاهُمَا لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، و هو القادر على أن يسلبهما وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ كَالنَّبَاتَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، و الإنسان و الحيوان من المأكولات الميتة، أو ما أشبه ذلك وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ كَالثَّمَارِ وَ الْحَبُوبِ مِنَ النَّبَاتَاتِ، و الجنين الميت من المرأة الحية، أو ما أشبه ذلك وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أَمْرَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ بِانْتِظَامِ الْحَرَكَاتِ وَ تَسْيِيرِ الْأَجْزَاءِ، على وجه الحكمة و الصلاح.

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ يَفْعَلُ كُلَّ ذَلِكَ، فإنهم بصفتهم مشركون كانوا معترفين بالله، حيث لم تكن الأصنام و ما أشبهها تقدر على هذه الأشياء الكبيرة، فلا بد و أن يعترفوا بأنها من الله سبحانه وحده، لا- شريك له فى ذلك كله فقل يا رسول الله لهم: أ فلا تتقون فى جعلكم الشريك له بغير علم، أ فلا تخافون عقابه و عذابه فى شرككم بلا حجة و لا برهان؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٨

[سورة يونس (١٠): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّوْنَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ (٣٤)

[٣٣] فذليكم أى ذاك الموصوف بتلك الصفات- أيها المخاطبون- فإن «كم» للخطاب الله ربكم و إلهكم الذى خلقكم و رزقكم و لا- يستحق العبادة أحد سواه فماذا بعد الحق إلا الضلال استفهام تقريرى، أى ليس وراء الحق إلا باطل، فالله الحق، و دونه باطل فأنى إلى أين تُصِرُّوْنَ يصرفكم الشيطان و الأهواء، فتعدلون عن الحق و هو الإله الواحد إلى الآلهة المتعددة.

[٣٤] كذلك الذى تقدم من قيام الأدلة عند هؤلاء المشركين على التوحيد، و مع ذلك لا يقبلون النتيجة و يجعلون مع الله شركاء حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ثَبَتَتْ، و وجبت كلمه الله و حكمه و العلم الأزل على الذين فسقوا و خرجوا عن طاعة الله الواحد إلى طاعة الأنداد و عبادة الأصنام أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ هذا بدل من «كلمه ربك» أى أن الله سبحانه علم من الأزل أن هؤلاء لا يؤمنون، و لم يكن ذلك لأنه لم تتم الحجة عليهم، بل لأنهم فسقوا، و خرجوا من توحيد الله إلى الشرك.

[٣٥] ثم ذكر سبحانه حججا أخرى على التوحيد و نفى الشريك قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَلَاءَ الْمُشْرِكِينَ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ أَى الذين جعلتموهم شركاء لله، فإنهم لما كانوا مختلفين، كانت نسبتهم إلى مخترعيهم أولى من نسبتهم إلى الله سبحانه، فلم يقل تعالى «شركائى»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٩

[سورة يونس (١٠): آية ٣٥]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)

مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ بِالْإِجَادِ ثُمَّ يُعِيدُهُ فإنا كما كان، أو يعيده بعد الموت إلى الحياة. و حيث لا يحير هؤلاء جوابا، إذ لا تفعل شركاؤهم ذلك، و يفحمون بهذا الاحتجاج قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى الجواب:

اللَّهُ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ لَا يَتِمُّكَنْ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ سِوَاهُ فَأَنْتَى تُؤَفِّكَوْنَ أَى إِلَى أَيْنَ تَصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ؟ مِنْ «أَفْكَ» بِمَعْنَى: انْقَلَبْ وَانصَرَفْ عَنِ الْحَقِّ.

[٣٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءَ الْمُشْرِكِينَ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ الْأَصْنَامُ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ كَذِبًا وَزُورًا مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَى إِلَى الرُّشْدِ وَالصَّلَاحِ كَى يَتَنَعَّمُ عِبَادَهَا بِمَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَحَيْثُ أَنَّهُمْ لَا يَتِمُّكَوْنَ مِنَ الْإِجَابَةِ بِالْإِثْبَاتِ، وَإِلَّا طَوَّلُوا بِالذَّلِيلِ. وَ لَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا الْاِحْتِجَاجَ كَانَ مَعَ عِبَادِ الْأَصْنَامِ، لَا مَعَ عِبَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْوِهِمْ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْجَوَابِ: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الشَّرَائِعَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ لِهَدَايَةِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَتَعْلِيمِ طُرُقِ الصَّلَاحِ وَالرُّشَادِ وَالسَّعَادَةِ. ثُمَّ يَتَوَجَّهُ هُنَا سَوْأَلٌ يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ آلِهَةٍ حَتَّى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي زَعْمِ عِبَادِهِ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَيُرْشِدُ إِلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ، وَهُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ وَيَأْخُذَ الْإِنْسَانَ بِأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ أَمَّنْ لَا يَهْدِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٠

[سورة يونس (١٠): آية ٣٦]

وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

أصله «يهتدى» من باب «الانفعال»، قلبت «التاء» «دالا» وأسقطت همزة الوصل من أوله، لنقل حركة التاء إلى الهاء، فصار «هدى» «يهدى» والمعنى: هل الله أحق بالاتباع أم من لا يهتدى إلا أن يهتدى فمن يحتاج إلى الاهتداء لا يصلح أن يتخذ ربا، فالمسيح عليه السلام وإن كان نبيا عظيما إلا أنه ينطبق عليه هذا الوصف، إذ لا يهتدى إلا بهداية الله سبحانه. أما الأصنام فهي أبعد، إذ أنها جمادات لا تهتدى حتى إذا أرادوا هدايتها.

و كأن القرآن جرى في هذا الاحتجاج مجرى المسلم من خصمه ببعض مقدماته ليرد عليه حتى على ذلك الفرض، والمشركون كانوا قد فرضوا عقلا للأصنام وأنها تشعر فما لكم أيها المشركون، والمعنى: ما هو سبب قولكم بغير الحق، وأنتم تعلمون كيف تحكمون بأن هذه الأصنام آلهة بعد ما قامت الحجج على بطلانها.

[٣٧] وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا أَى أَنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الظُّنَّ فِي اعْتِقَادِهِمْ بِالْوَهْيَةِ الْأَصْنَامِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ بِذَلِكَ جِزْمًا، إِنَّمَا رَأَوْا آبَاءَهُمْ عَبْدُوهَا، فَظَنُّوا بِصَحَّتِهَا تَقْلِيدًا، وَحَالِ الظَّنِّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا فَإِنَّ الظَّنَّ تَرْجِيحَ أَحَدِ الطَّرْفَيْنِ، وَهَذَا لَيْسَ بِوَاقِعٍ وَ لَا مَعْدَرًا، أَمَا أَنَّهُ لَيْسَ بِوَاقِعٍ، فَلَأَنَّ الْوَاقِعَ لَا يَتَّبِعُ أَدَاءَ الْأَشْخَاصِ، وَ أَمَا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْدَرٍ فَلَأَنَّ الْعُقُلَاءَ الْمُتَلَفِّتِينَ لَا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْقَطْعِ فَإِنَّهُ إِنْ حَصَلَ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢١

[سورة يونس (١٠): آية ٣٧]

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)

مقدمات صحيحة كان مطابقا للواقع و معذرا إن الله عليهم بما يفعلون فيجازيهم بأعمالهم الباطلة التابعة لظنون تقليدية واهية.

[٣٨] ثُمَّ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ إِلَى الْكَلَامِ حَوْلَ الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَ مَعْجَزَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الدَّلِيلَ عَلَى صِدْقِهِ وَ صِحَّةِ كَلَامِهِ، وَ يَسْتَعْرِضُ مَنَاقِشَاتِهِمْ حَوْلَهُ وَ الْجَوَابَ عَنْهَا وَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى أَى يَكُونُ مَفْتَرَى مِنْ دُونِ نَزُولِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَا يَتِمُّكَنْ أَحَدٌ أَنْ يَفْتَرِيَ قُرْآنًا وَيُنْسِبُهُ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّ الْكَلَامَ الْمَفْتَرَى لَيْسَ كَالْقُرْآنِ، لِأَنَّ لَهُ أُسْلُوبًا خَاصًا مَعْجَزًا، وَ أَنْظَمَةً وَ تَشْرِيعَاتٍ لَا يَتِمُّكَنْ الْبَشَرُ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا. بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ أَحَدًا لَوْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ وَ جَاءَ بِمَعْجَزٍ، كَانَ حَتْمًا مِنَ الْحَكْمَةِ أَنْ يَكْذِبَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ إِلَّا كَانَ إِغْرَاءً بِالْجَهْلِ، وَ ذَلِكَ قَبِيحٌ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ. وَ قَدْ دَلَّ التَّارِيخُ أَنَّ كُلَّ كَاذِبٍ جَاءَ بِشَيْءٍ ظَاهِرِهِ مَعْجَزٌ - سِحْرًا - لَمْ يَلْبَثْ أَنْ انْكَشَفَ سِرُّهُ وَ ظَهَرَ كَذِبُهُ.

وَ لَكِنْ هُوَ كِتَابٌ سَمَاوِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى، وَ كَانَ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أَى مُصَدِّقًا لِلْكِتَابِ السَّابِقَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

فهؤلاء المعارضون له غير مرتبطين بشرائع الله، فهم بمعزل عن الدين إطلاقاً وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ أَي أَنَّ الْقُرْآنَ تَفْصِيلٌ لِلَّذِي كَتَبَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْبَشَرِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) «١»،

(١) البقرة: ١٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٢

[سورة يونس (١٠): آية ٣٨]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)

لا- رَيْبٌ فِيهِ أَي لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَجَالًا- لِلرَّيْبِ، إِذْ حَجَّجَهُ سَاطِعَةٌ وَأَدْلَتُهُ وَاضِحَةٌ، فَمَنْ ارْتَابَ فِيهِ فَقَدْ ارْتَابَ ارْتِيَابًا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، كَمَنْ يَرْتَابُ فِي النَّهَارِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِدَلِيلٍ أَنَّهُ مُعْجَزٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ.

[٣٩] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ أَي أَنَّ الْكُفْرَانَ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجُجِ يَقُولُونَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ افْتَرَى الْقُرْآنَ، وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ، وَ«أَمْ» هُنَا بِمَعْنَى «بَل» الْإِضْرَابِيَّةُ، وَفِيهِ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أَي مِثْلَ الْقُرْآنِ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْإِعْجَازِ، فَإِنَّ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ مِنْ نَوَاحِي مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا بَلَاغَتُهُ الْخَارِقَةُ.

وَقَدْ تَحَدَّى الْقُرْآنَ بِلِغَاءِ الْعَالَمِ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ سُورَةِ الْقُرْآنِ وَ لَوْ كَاقْصَرَ سُورَةٌ نَحْوَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) «١» لَكُنْهُمْ لَمْ يَتِمَّ كُنُوهَا. وَقَدْ كَانَ تَحَدَّى الْقُرْآنَ مُتَدَرِّجًا، فَتَحَدَّاهُمْ أَوْلَا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ تَمَامِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ بِمِثْلِ عَشْرِ سُورٍ، ثُمَّ بِمِثْلِ سُورَةٍ، لَكُنْهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَيِّ مِنْهَا، وَذَلِكَ دَلِيلٌ أَنَّهُ مُعْجَزٌ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُعْجَزًا لَقَدَّرَ الْبَشَرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، لِأَنَّ مَوَادَّهُ وَهِيَ الْأَلْفَاظُ وَالْكَلِمَاتُ بَلْ وَالجُمَلُ كَانَتْ تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ.

وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ دَعْوَتَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) الإخلاص: ١-٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٣

[سورة يونس (١٠): آية ٣٩]

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)

أَي غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لِيُشَارَ كُونَكُمْ وَلِيُسَانِدُوكُمْ فِي الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ الْقُرْآنِ، أَمَا اللَّهُ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَالْإِلْزَامُ أَنْ يَكُونَ الْطَلْبُ مِنْ سِوَاهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٤٠] ثُمَّ يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ أَنَّ تَكْذِيبَ هَؤُلَاءِ بَدُونَ دَلِيلٌ وَبِرْهَانٌ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى كُنْهِ أَمْرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، كَالْجَاهِلِ الَّذِي يَكْذِبُ بِالشَّيْءِ بَدُونَ أَنْ يَقْلُبَ أَوْجِهَ الرَّأْيِ فِيهِ. إِنَّهُمْ حَيْثُ لَمْ يَأْلَفُوا الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُعَاجِزَ وَكَانُوا جَاهِلِينَ بِذَلِكَ تَمَامَ الْجَهْلِ كَذَّبُوا بِمَجْرَدِ السَّمَاعِ وَالرُّؤْيَى، بَدُونَ أَنْ يَتَدَبَّرُوا فِي أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذْبًا مَفْتَرِيًّا لَتَمَكَّنُوا مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، فَإِنَّ الْحَكِيمَ دَائِمًا يَفْكَرُ وَيَتَدَبَّرُ ثُمَّ يَحْكُمُ وَيُظْهِرُ النَّتِيجَةَ، أَمَا الْجَاهِلُ فَإِنَّهُ يَسْرِعُ فِي اتِّخَاذِ النَّتَاجِ قَبْلَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْمَقْدَمَاتِ.

وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ أَي لَمْ يَأْتِهِمْ بَعْدَ مَا يُؤْوَلُ إِلَيْهِ أَمْرُ الْكِتَابِ، أَي بَدُونَ أَنْ يَعْرِفُوا مَالَ الْكِتَابِ، وَ أَنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ وَ إِلَى مَا يَنْتَهَى.

وَهَذَا كَقَوْلِكَ: «فَلان يسرع بتكذيبى بدون أن يتدبر كلامى و أن يرى مصير هذا الكلام»، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ يَعْرِفُ صَدْقَهَا مِنْ كَذِبِهَا مِنْ حَالِ مِصَافِرِهَا، إِذَا قَالَ زَيْدٌ: «سَيَجِيءُ الْحَاجُّ إِلَى كَرْبَلَاءَ»، كَانَ الْإِلْزَامُ أَنْ لَا يَكْذِبُهُ السَّمَاعُ إِلَّا إِذَا جَاءَ وَقْتُ إِخْبَارِهِ وَ لَمْ يَظْهَرِ مِنْهُمْ أَثَرٌ، أَمَا أَنْ يَكْذِبَ بَدُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ أَوْلَاهُ وَ آخِرُهُ، فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ مَنْطِقِ الْعُقَلَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٤

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٠ الى ٤١]

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)

كذلك أى كنتذيب هؤلاء كذذب الذين من قتلهم من أمم الأنبياء بدون أن يفهموا كلامهم و ينتظروا عواقب كلامهم، هل يصدق إخبارهم عن المستقبل أم لا- فأنظر يا رسول الله كيف كان عاقبة الظالمين الذين كذبوا الأنبياء، فعاقبه هؤلاء كعاقبه أولئك، فإن مصيرهم إلى الهلاك و العذاب.

[٤١] و إذا كان غالب هؤلاء متبعين للظن مكذبين اعتبارا، فإن منهم من يؤمن أيضا، إذ الحق لا يخلو من أنصار و منهم من يؤمن به أى بالقرآن، بترك كفرهم و شركهم، و اتباع الحق و منهم من لا- يؤمن به بل يبقى فى غيبه و ضلاله، و ربك يا رسول الله أعلم بالْمُفْسِدِينَ الذين يدومون على فسادهم، فإن الكافر مفسد مهما كان نزيها، فإن الكفر هو أعظم فساد فى الأرض، لأنه خرق لمنهاج الله سبحانه.

[٤٢] وَإِنْ كَذَّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ إِزْمِ الْحُجَّةِ، وَ إتمام الدليل فقل لهم: ليعمل كل طرف منا حسب منهجه و معتقده، فإنى لا أحمل تبعه أعمالكم، كما أنكم لا تتفنون بعملى لى عملى و سارى جزاءه و لكم عملكم و سترون جزاءه أنتم بريئون مما عمل أنا من الطاعة و العبادة و أنا بريء مما تعملون من المعاصى و الكفران.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

و هذا شبه و عيد لهم بأنهم وحدهم يلاقون جزاء أعمالهم الباطلة.

[٤٣] وَ مِنْهُمْ أَى من هؤلاء الكفار من يستمعون إليك بأذانهم، لكنهم أغلقوا قلوبهم عن الانتفاع، فهم متخذون مكان المتفرج و إنما يستمعون فقط بدون قصد التعلم و العمل أفأنت يا رسول الله تسمع الصم جمع «أصم» بمعنى: من فقد حاسة السمع، أى أنك لا تقدر على إسماع الحق لمن صمت أذن قلبه و لو كانوا لا يعقلون فإن الإنسان يقدر على إسماع من يريد الاتباع و التعقل، أما غيره فليس ينجح فيه كل كلام.

[٤٤] وَ مِنْهُمْ أَى من هؤلاء الكفار من ينظر إليك يا رسول الله، حين إلقاءك الحجج و الأدلة، و الناظر لا بد و أن يبصر الحق فى المنظور إليه، فإن الحركات و السكنات تدل على ما فى قلب المتكلم من الحرارة و الصدق، و لكنهم ينظرون للتفرج لا لفهم الحق و تعلم الواقع أفأنت يا رسول الله تهدى العمى جمع «أعمى»، فإنهم و الأعمى سواء، فكما لا ينتفع الأعمى ببصره كذلك لا ينتفع هؤلاء بما يرون من الحق و لو كانوا لا يبصرون فإن الإنسان يقدر على إراءة البصير، أما الأعمى فإن الإنسان لا يقدر على إراءة الحق و إن اجتهد كل جهد.

[٤٥] و أخيرا، إن كل ما يصيب هؤلاء إنما يصيبهم بسبب ظلمهم لأنفسهم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)

لأنهم لم ينتفعوا بكل ما أقيم لهم من الحجج إن الله لا يظلم الناس شيئا أى ظلما و لو يسيرا و لكن الناس أنفسهم يظلمون بإعراضهم

عن الحق بعد إتمام الحجّة ووضوح المحجّة.

[٤٦] ثم بمناسبة عدالة الجزاء وكون ظلمهم لا يعود إلّا على أنفسهم يأتي السياق ليبيّن أنهم في الحشر يكونون في أسوأ حال و كأن دياهم قد مرت كساعته، وقد بقيت التبعات الجسام عليهم و يكون حال هؤلاء الكفار يَوْمَ يَحْشُرُهُمُ يَجْمَعُهُمُ اللهُ سبحانه لموقف القيامة، كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَى لم يبقوا في الدنيا إلّا ساعةً مِنَ النَّهَارِ فهم لا يرون إلّا بريقا من الدنيا، و كأن عمر الدنيا كان ساعة فقط، و هذا ليس بغريب، فالإنسان يرى و هو في الدنيا ماضى عمره كساعة أو شبهها يتعارفون بَيْنَهُمْ هناك، أَى يعرّف بعضهم لبعض قد خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ خسروا أنفسهم و أهليهم و أموالهم، و المراد من «لقاء الله» لقاء جزائه، تشبيها للمعقول بالمحسوس و ما كانوا مُهْتَدِينَ للحق، فإن عدم اهتدائهم هنا سبب خسارتهم هناك.

[٤٧] إن الكفار تكون عاقبتهم إلى خسارة، و قد وعد الله رسوله خزي الكفار و نصره المسلمين عليهم، ثم يبيّن أنه سواء رأى خزيهم أو مات قبل أن يرى ذلك، فإنه سبحانه لا بد و أن يجازيهم على سوء صنيعهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) و كفرهم، و إِمَّا نُرِيَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ «إن» شرطية و «ما» زائدة للتجميل بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ بأن تكون في الحياة، فترى بعض العقوبات التى نزلها بالكفار كما وعدناهم بها أو نَتَوَفَّيَنَّكَ نقبض روحك قبل أن ترى عقوبتنا لهم فإنهم لا يفوتونا، بل فإلينا مَرَجِعُهُمْ أَى رجوعهم فتريكه في الآخرة ثم بعد رجوعهم لا يتمكنون أن يفروا من عقابه بالإنكار، فإن الله شهيد على ما يفعلون فيجازيهم حسب أعمالهم التى شهدها.

[٤٨] ثم بين القرآن الحكيم أن تعجب هؤلاء الكفار من ادعاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم للرسالة ليس فى محله، فإن الرسل قد أتت قبل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلى الأمم و لكل أمة رَسُولٌ «الأمّة» الجماعة، أَى: لكل جماعة رسول يودى إليهم رسالة الله سبحانه فإذا جاء رَسُولُهُمْ بين لهم و أُنذِر و حذّر، فإذا لم يقبلوا استحقوا العقاب، على ما وعد سبحانه (وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) «١»، قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أَى حكم الله سبحانه بينهم بالعدل، فمن آمن أجزل له الأجر، و من لم يؤمن تمت عليه الحجّة و استحق العقاب وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ لا ينقص من ثواب طاعتهم و لا يزداد فى عقاب سيئاتهم.

[٤٩] قد كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يعد المكذبين الهلاك و العقاب، فكانوا يستعجلون

(١) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٨

[سورة يونس (١٠): آية ٤٩]

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) العقاب، على طريقة الاستهزاء و يَقُولُونَ أَى يقول الكفار: متى هذا الوعد أَى وعد عذاب الدنيا، و عقاب الآخرة إِنْ كُنْتُمْ أَيها المؤمنون القائلون بعذاب الكفار فى الدنيا و الآخرة صَادِقِينَ فيما تقولونه.

[٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى جوابهم: إن أمر ضررى و نفعى ليس بيدي، فكيف بأمر ضرركم و نفعكم، إن ما نعدكم آت لكن وقته بيد الله سبحانه لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فلو شاء الله أن يضرنى لم أملك رده، و لو أراد الله أن ينفعنى لم أملك تغييره أو تعجيله، و لو أردت نفعاً لنفسى و لم يرده الله لم أقدر عليه. و هذا واضح فإن الرسول لا يقدر على أمر لا يريد الله سبحانه، و إنما يقدر على نفع نفسه و ضررها و نفع الناس أو ضررها بأمر الله و إرادته.

فالفنى هنا إضافي لا مطلق، حتى ينافي ما دلّ على النفع الذي كان من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو الضر الذي كان بسببه، كما استثنى ذلك بقوله تعالى: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْلِكُنِي أَوْ يَقْدِرُنِي عَلَيْهِ، وَإِذْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى نَفْعِ نَفْسِي وَضَرَّهَا، كَيْفَ أَقْدِرْ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ.** أما موعد عقابكم وحشركم فاعلموا أنه **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** و مدة لا بد أن يقضوها حتى تنزل بهم العقوبة على تكذيبهم و عصيانهم إذا جاء **أَجَلُهُمْ** بأن سار إليهم **فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ أَجْلَهُمْ** أى لا يؤخرونه، بمعنى عدم قدرتهم على ذلك ساعة جزءا من الزمان و **لَا يَسْتَقْدِمُونَ** لا يقدمونه عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٩

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٠ الى ٥١]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) مواعده و وقته، فإذا كان وقت هلاكهم يوم الجمعة و سار الأجل نحوهم من يوم الأربعاء، لا يتمكنون أن يؤخروه إلى يوم السبت و لا يتمكنون أن يجعلونه في يوم الخميس.

[٥١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ الْمُسْتَعْجِلِينَ بِالْعَذَابِ:

أَرَأَيْتُمْ أى أخبرونى، فإن «أرأيت» تستعمل بمعنى: أخبرنى إن أتاكم عذاب الله بياتاً أى ليلاً أو نهاراً ما أنتم صانعون؟ فقد حذف جواب «إن» لدلالة الكلام عليه ما **ذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ** أى من العذاب **الْمُجْرِمُونَ** «ما» مبتدأ و «ذا» بمعنى «الذى» خبره، و الجملة استثنائية، أى: ما الذى يستعجل المجرمون من العذاب، و الاستفهام معناه التهويل، كما نقول لمن يفعل شيئاً عاقبته سيئته: «ما الذى تجنى على نفسك؟» فمفاد الآية: أنكم تستعجلون شيئاً مهولاً مهلكاً.

[٥٢] أَلَمْ تَرَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ «الهمزة» للاستفهام، و «ثم» للعطف، أى:

هل - بعد استعجالكم للعذاب - إذا وقع العذاب، فى ذلك الحين تؤمنون به. فقد كانوا لا يؤمنون بالعذاب، و كانوا يستعجلونه على جهة الاستهزاء، و «ما» زائدة جاءت للتزيين، و قد ذكرنا سابقاً أنه - غالباً - يأتى الكلام بصورة النفى، و يراد منه الإثبات ..

ثم كأن النفس انتقلت إلى جو وقع العذاب فيه - بعد ما كانت فى الدنيا طرفاً لخطاب الرسول - فيقال للمكذبين حين يشاهدون العذاب و يريدون الإيمان للتخلص منه **آلآنَ** تؤمنون، على نحو الاستفهام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٠

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣)

الإنكارى، أى أنه لا ينفعكم الإيمان الآن و الحال أنه **قَدْ كُنْتُمْ بِهِ بِالْعَذَابِ تَسْتَعْجِلُونَ** فكنتم مكذبين له مستهزئين به، أى أن الإيمان الآن فى حين رؤية العذاب غير نافع بعد تكذيبكم له سابقاً، و نظيره (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ) «١».

[٥٣] **ثُمَّ** بعد وقوع العذاب عليهم، و عدم فائدة إيمانهم حين معانته العذاب **قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْكَفْرِ وَ الْعَصِيَانِ وَ اسْتَعْجَالِ الْعَذَابِ اسْتَهْزَاءً: ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ** أى العذاب الخالد الدائم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** أى لا تجزون إلا بما كسبتم فى الدنيا، فليس العذاب ظلماً و إنما هو جزاء أعمالكم.

[٥٤] إن المكذبين لم يكونوا على علم فى تكذيبهم، بل كانوا مستبشرين للعذاب و سائر ما يخبر به النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و لذا كانوا يسألون عن حقيقة الأمر و **يَسْتَنْبِئُونَكَ** يستخبرونك و يطلبون منك يا رسول الله أن تخبرهم **أَحَقُّ هُوَ** هل حق ما جئت به من الأحكام و الوعد و الوعيد و غيرهما؟ **قُلْ** يا رسول الله فى جوابهم: **إِي** إنه حق و **رَبِّي** أى قسماً بالله **إِنَّهُ لَحَقٌّ** لا شك فيه و **مَا أَنْتُمْ**

بِمُعْجِزِينَ

(١) يونس: ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣١

[سورة يونس (١٠): آية ٥٤]

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤)

تتمكنون من أن تعجزوا الله سبحانه فلا يتمكن من إنفاذ أمره، أو على أن تعجزوه من تعذيبكم، فقد كان الكفار يظنون أنهم قادرون على إطفاء نور الله، و الفرار من عقابه.

[٥٥] إن العذاب إذا جاء للمكذب لا يتمكن من النجاة منه، لا بنحو تعجيزه سبحانه بالقوة، و لا بنحو الافتداء للخلاص منه، و هو من الهول بحيث إن الإنسان حاضر لإعطاء جميع ما فى الأرض للخلاص، و لكن هيهات! و لو أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ بالشرك و الكفر، أو بالعصيان و الطغيان ما فى الأرض من الثروة لأفتدت به أعطت كل ما فى الأرض فديء عن نفسها ليخلصها من العذاب، فإن عذاب الله هائل إلى هذا الحد، حتى يستعد المجرم للتنازل عن جميع ما يملك - و لو كان كل ما فى الأرض - لأجل أن لا يعذب، و لكن ليس للإنسان جميع ما فى الأرض، و لا ينفعه فى الافتداء و الخلاص لو ملكه و أسروا أسر المجرمون الندامية لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ أنهم أخفوا ندمهم على ما فات منهم لما رأوا العذاب. و لعل سر إخفائهم لندمهم أن لا يشمت بهم.

و قد روى ذلك عن الصادق عليه السلام «١».

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ أَى بِالْعَدْلِ فَكَانَ عِقَابُهُمْ بِمَقْدَارِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ فيما يفعل بهم من العذاب لأنه

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٢

[سورة يونس (١٠): آية ٥٥]

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)

بمقدار أعمالهم.

و لا يقال: كيف أن هذه الأعمال القليلة استحقوا بها العقاب الكثير و مع ذلك فهو عدل؟

لأنه يقال: إن العقاب ليس بقدر حجم الجرم و مدته، بل بقدر آثاره المعنوية، كما أن من يسب الملك يقتل، و من يزنى يرحم، فإن الأعمال ليست بحجومها و إنما بقيمتها، كما نرى المهندس يعطى لساعة قضاها فى رسم خريطة عشرة دنانير، بينما العامل لا يعطى ليوم كامل ديناراً، و قد لاقى الحر و البرد. أما دوام العذاب فهو لتبائهم السيئة التى أظهروها و هم باقون عليها (و لو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) «١».

[٥٦] إن الله سبحانه يتمكن من إنفاذ و عوده لأن له كل شىء، كما أنه تعالى ينفذها لأن وعده لا خلف فيه، فلا يظن الإنسان أنه يعصى و المهتد غير قادر، أو أنه لا- يفى بوعده، فلا- يعاقب إلا إنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو المالك المطلق لكل شىء. و المراد هنا: الأعم من الظرف و المظروف، كما تقول: «تحت سلطة الملك ما فى البلاد»، تريد البلاد و ما فيها. و حيث أن له كل شىء فهو يقدر على إنفاذ وعده بالعقاب لمن كفر و تمرد إلا إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ لا خلف فيه. نعم دلَّ الدليل على أن قسما من وعيده يمكن العفو عنه و لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَى أَكْثَرُ

(١) الأنعام: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٣

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٦ إلى ٥٧]

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)

الناس أو أكثر المجرمين لا يَعْلَمُونَ فينكرون أن يكون كل شيء لله سبحانه، أو أنه يفى بما وعد، كما كانوا يقولون: (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) «١»، وإنما قال أكثرهم، لا جماعة من الناس - حتى من المجرمين - يعلمون كل ذلك.

[٥٧] أما إذا قال بعض الناس: إنا إذا متنا بطل كل شيء، ولا عقاب حين ذاك، فليعلموا أن الله سبحانه هو يحيي الأموات ويميت الأحياء، فيبده الحياة والموت وإليه تُرْجَعُونَ يوم القيامة، أى إلى حسابه وجزائه، فلا يظنوا أن لهم فرارا من حكمه «و لا يمكن الفرار من حكومتك».

[٥٨] و يعقب السياق على ما تقدم من الوعد والوعيد نداء عاما إلى البشر يا أَيُّهَا النَّاسُ خطاب لجميع البشر قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ «الموعظة» بيان ما يجب أن يرغب فيه، وما يلزم أن يحذر عنه، والمراد بها الأحكام الإسلامية و ما نزل من قبله سبحانه من القرآن الكريم و سائر ما بينه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ فَإِنَّ الصُّدُورَ كَانَتْ مَلِيئَةً بِالْخِرَافَةِ فِي الْعَقِيدَةِ، وَ بِالْأَذْرَانِ فِي الصِّفَاتِ، وَ بِالْهَمُومِ وَ الْأَحْزَانِ وَ الْقَلْقِ، وَ الْقُرْآنَ بِمَا لَهُ مِنَ الْمَنَاهِجِ وَ الْإِرْشَادَاتِ يَعُوضُ مَكَانَ الْخِرَافَةِ حَقَائِقَ، وَ مَكَانَ الرِّذَالَةِ فَضِيلَةً، وَ مَكَانَ الْأَحْزَانِ

(١) البقرة: ٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٤

[سورة يونس (١٠): آية ٥٨]

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

و القلق، الفرح و الطمأنينة، فهو يشفى الصدور من أمراضها و هدى أى دلالة و هداية إلى الحق و رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أى ما يسبب لهم أن يرحمهم الله بفضله.

[٥٩] فبهذا الفضل الذى تفضل به سبحانه على عباده و الذى يسبب لهم صلاح الدنيا و الآخرة يلزم أن يفرح الناس، لا بالمال و الجاه و الأهل، فإنها أمور ما لم يوضع لها منهاج صحيح كانت و بالا على الإنسان و موجبة للهموم و الأحزان قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ بِفَضْلِ اللَّهِ الذى تفضل عليهم بالهداية و بِرَحْمَتِهِ التى رحم بها عباده فَبِذَلِكَ بكل واحد منهما فَلْيَفْرَحُوا فإنهما هما اللذان ينظمان الحياة السعيدة، و ينتهيان بالإنسان إلى سعادة الآخرة. و كأن إتيان «الفاء» مكررة لنكتة بلاغية، هى لأجل أن يبقى فى النفس مجال للتملى من الفضل و الرحمة، و لذلك جىء بقوله «فبذلك» أيضا، مع غناء الكلام عنه، و هو بدل من «بفضل الله» هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ من الأهل و المال و الجاه، فإنها إلى نفاذ و فناء و توجب الوبال إن لم يقترن بها فضل الله و رحمته.

و ما

ورد أن «فضل الله» هو الإمام المرتضى،

و كذلك فى الآية السابقة من تفسير «هو» فى «أحق هو» بالإمام عليه السلام، فإن ذلك من باب المصداق الجلى، أو أحد المصدايق، كما هو كذلك فى غالب الآيات المفسرة به و بآله الأطهار عليهم السلام، و كان هذا و أشباهه من بطون القرآن السبعة أو السبعين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٥

[سورة يونس (١٠): آية ٥٩]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)

[٦٠] إن الله سبحانه تفضل عليهم بكل شيء، لكن الإنسان الجاهل جعل الكفر مكان الشكر، فبدل الأوهام مكان الحقائق في العقيدة، كما جعل من رزق الله سبحانه الحلال حراما افتراء منه عليه سبحانه، بلا دليل و لا برهان قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين يحكمون حسب أهوائهم: أَرَأَيْتُمْ أَيِ أَخْبَرُونِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ حَلَالًا كُلَّهُ، والمراد ب «الإنزال» كونه من ناحيته سبحانه، فله العلو المنزلي، فما يأتي منه كأنه ينزل من علو، تشبيها للمعقول بالمحسوس كما قال: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) «١»، و (اهْبِطُوا مِنْهَا) «٢»، و (أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ) «٣»- على احتمال في بعضها- أو المراد بإنزاله: إنزال بعض أجزائه الذي هو المطر و الشعاع فلولاهما لم يكن رزق فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ أَيِ مِنْ ذَلِكَ الرِّزْقِ حَرَامًا وَ حَلَالًا بَيْنَمَا كَانَ كُلَّهُ حَلَالًا، فقد كانوا يرمون السائبة و البحيرة و الحام و أقسام أخرى من المأكولات قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَصْلَهُ «أالله» بهمزتين، همزة الاستفهام، و همزة «أل» الداخلة على «إله» ثم قلبت إحداهما و جعلت هكذا بالمد. قال ابن مالك: مَدًا فِي الاستفهام أو يسهل.

أى: هل إن الله أذن لكم في تحريم بعض ما أنزل إليكم من الرزق أم على الله تفتنون في أن تنسبوا إليه تحريم ما لم يحرمه افتراء و كذبا.

(١) الحديد: ٢٦.

(٢) البقرة: ٣٩.

(٣) البقرة: ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٠ الى ٦١]

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)

[٦١] وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ كهؤلاء الذين افتروا عليه تحريم بعض الرزق يَوْمَ الْقِيَامَةِ أى عند لقائه سبحانه؟ ما يظنون أن يفعل بهم؟ إنه تهديد لهم، فإن المفترى لا بد و أن تكون له عاقبة سيئة وقت الجزاء، و المعنى: أ يحسبون أنهم لا يجازون على افتراءهم؟ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أحل لهم الأرزاق بعد أن منحهم إياها و لكنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ فيحرمون ما أحله افتراء عليه، عوض أن يشكروه حيث أنعم و حلل.

[٦٢] إنهم يفترون على الله الكذب في تحريمهم ما أحل الله سبحانه، و الله شاهد على كل عمل لا يعزب عنه مثقال ذرة، فهل يغنى افتراؤهم عليه؟ وَمَا تَكُونُ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ، من عمل أو عبادة أو غيرها- و الخطاب و إن كان للرسول صلى الله عليه و آله و سلم، إلا- أنه ليس خاصا به بل عام لكل أحد- وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ أَيِ مِنْ الشَّأْنِ مِنْ قُرْآنٍ فَإِنَّهُ مِنْ تِلْكَ الشُّؤْنِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ قِسْمٌ هُوَ شَأْنُ تِلْكَ الشُّؤْنِ شَأْنُ الصَّلَاةِ، و شَأْنُ الْكَسْبِ وَ غَيْرِهِمَا. و خصت قراءة القرآن لأهميتها و لا- تَعْمَلُونَ أَيِهَا الْبَشَرِ مِنْ عَمَلٍ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا نشهده و نعلمه. و الإتيان بضمير الجمع للتعظيم، فقد جرت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٧

العادة أن الكبراء يتكلمون عن أنفسهم و عن أتباعهم إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ تَدْخُلُونَ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ وَ تَبْتَدِئُونَ بِهِ، فشهادتنا مقترنة بأول كل أمر لا- يفوت منا شيء من أوله، و الإفاضة غالبا تستعمل فيما يكون العمل سريعا، و لكن النكتة في الإتيان بهذا اللفظ: أن الأعمال

السريعة غالباً تفوت على الشاهد، لكن الله سبحانه لا يغيب عنه شيء و لو كان العامل مسرعاً في عمله.

وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ أَى لآ- يغيب عنه مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَى مَا هُوَ بِثِقَلِ الذَّرَّةِ وَ هِىَ الْهَبَاءُ الصَّغِيرَةُ الَّتِى تَسْبِحُ فِى الْفِضَاءِ وَ تَرَى إِذَا دَخَلَتْ أَشْعَةَ الشَّمْسِ الْمَكَانَ الْمَظْلَمَ مِنْ كَوْهٍ وَ نَحْوَهَا، وَ «مِنْ» زَائِدَةٌ تَأْتِى لِبَيَانِ التَّعْمِيمِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ «مَا» النَّافِيَةِ قَبْلَهَا، سِوَاءَ كَانَتْ تَلْكَ الذَّرَّةُ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَاءِ.

و لعلّ ذكر «مِثْقَالِ» لبيان أن الله كما يعلم نفس الذرة يعلم ثقلها، و هو أدق من العلم بأصلها كثيراً، فإن العلم بأصل الذرة يحصل للناس كثيراً، أما العلم بوزنها فلا يحصل للناس إلا نادراً جداً و لا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، أَى: أَى شَيْءٍ كَانَ أَصْغَرَ مِنَ الذَّرَّةِ، أَوْ وَزْنَهُ أَقَلُّ مِنْ وَزْنِ الذَّرَّةِ وَ لَا أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ كِتَابٍ وَاضِحٍ لَدَيْهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنْ عِلْمُ كُلِّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ كَتَبَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، وَ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ أَوْ غَيْرُهُ، وَ قَوْلُهُ: «لَا أَصْغَرَ» اسْتِثْنَاءٌ، خَبْرُهُ «إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٨

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٢ الى ٦٣]

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)

[٦٣] إن هذه الدقة فى الحساب و العلم توجب دهشة الإنسان و خوفه الشديد من القيامة و لقاء الله سبحانه، لكن القرآن الحكيم يدرك هذا الأمر بقوله: أَلَا- إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ أَحِبَّاءُهُ، يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ وَ يَنْتَهُونَ عَنِ زَوَاجِرِهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعِقَابِ وَ لَا- هُمْ يَحْزَنُونَ وَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَ الْحُزْنِ: أَنَّ الْأَوَّلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَمْرِ الْمَتَرَقِّبِ الْمَحْتَمَلِ صَعُوبَتِهِ، وَ الثَّانِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَّقِينَ، صَعُوبَةُ الْأَمْرِ، سِوَاءَ كَانَ مَاضِيًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا، يُقَالُ: «إِنِّى عَلَى فَقْدِ ابْنِى الَّذِى فَقَدْتَهُ لِمَحْزُونٍ»، وَ لَا يُقَالُ: «لِخَائِفٍ»، وَ هَكَذَا لَا يُقَالُ «إِنِّى لِمَحْزُونٍ» مِنْ اِحْتِمَالِ فَقْدِهِ، وَ يُقَالُ: «إِنِّى لِمَحْزُونٍ مِنْهُ». أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَّقِينَ فِى الْمُسْتَقْبَلِ، فَإِنَّهُ يَسْتَعْمَلُ الْخَوْفَ وَ الْحُزْنَ مَعًا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَمَنْ عِلْمٌ أَنَّهُ سَيَدْرِكُهُ مَخُوفٌ يَقُولُ: «إِنِّى خَائِفٌ مَحْزُونٍ»، قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنِّى لَيَحْزَنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ) «١».

ثم إن المحتمل أن يكون المراد من جملة: «لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ» إنشائية، بأن تكون نهياً عن الخوف و الحزن.

و يحتمل أن تكون إخبارية، أى: أنهم لا يخافون و لا يحزنون، إما فى الآخرة، أو الأعم. و عدم خوفهم و حزنهم فى الدنيا إضافى، يعنى أن الخوف و الحزن الناشئين عن المعصية لا يكونان بالنسبة إليهم، و إن كان هناك لهم خوف و حزن من نوع آخر.

[٦٤] ثم بين سبحانه ذلك بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا بِأَن صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ

(١) يوسف: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٩

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِى الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَ لَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)

وَ كَانُوا يَتَّقُونَ الْمَعَاصِيَ فَصَحَّتْ أَعْمَالُهُمْ.

[٦٥] لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِنْسَانَ مُطْمَئِنِّ الْقَلْبِ هَادِي الْبَالِ بَيْنَمَا يَفْطِنُ الْعَاصِي وَ الْكَافِرُ وَ فِى الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ يَبْشُرُ بِنَجَاةِ النَّعِيمِ وَ رِضْوَانِ مِنَ اللَّهِ. هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُتَّقِيَ لَا تَهْمُهُ الْكَوَارِثُ وَ النُّوَابِثُ حَيْثُ يَطْمَئِنُّ بِثَوَابِ اللَّهِ وَ الْجَزَاءِ، فَهُوَ دَائِمُ الْبَشَارَةِ وَ إِنْ حُزِنَ قَلْبُهُ وَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، كَمَنْ رَضِيَ بِبَعْضِ جِسْمِهِ وَ أُعْطِيَ بِدَلَّةِ عَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ، فَإِنَّهُ وَ إِنْ تَأَلَّمَ لَكِنَّهُ مُسْتَبْشِرٌ بِالْجَزَاءِ. وَ هَكَذَا الْمُتَّقُونَ فِى الدُّنْيَا، وَ مِنْ مَصَادِقِ الْبَشَارَةِ فِى الدُّنْيَا، مَا يَبْشُرُهُمْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ مَوْتِهِمْ- كَمَا وَرَدَ فِى الْأَحَادِيثِ-

لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ فَإِنْ مَا قَرَّرَهُ سَبَّحَانَهُ مِنَ الْجَزَاءِ وَ الثَّوَابِ لِلْمُتَّقِينَ لَا خَلْفَ فِيهِ وَ لَا تَبْدِيلَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا فَوْزَ فَوْقَهُ، وَ الْفَلَاحُ الَّذِي لَا فَلَاحَ مِثْلَهُ، بِشَارَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ، وَ اطمئنان و هدوء فيهما، و هل فوق ذلك نجاح أو فوز؟ [٦٦] وَ حَيْثُ أَنْ أَوْلِيَاءَهُ لَا- يَحْزَنُونَ فِ لَا- يَحْزُنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْلُهُمْ أَى قَوْلِ الْكُفَّارِ فِيكَ وَ إِبْدَائِهِمْ لَكَ، وَ إِيقَاعِهِمْ فِي الْمُؤْمِنِينَ بِكَ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً فَيَمْنَعُهُمْ مِنْكَ بَعِزَّتَهُ، وَ يَعْزِّكَ وَ يَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ هُوَ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِهِمْ الْعَلِيمُ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيَجَازِيهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٠

[سورة يونس (١٠): آية ٦٦]

أَلَا- إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)

عليها، و ينتدك منهم.

[٦٧] وَ كَيْفَ لَا تَكُونُ الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ الْحَالُ أَنْ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ مِمَّا يَعْقِلُ وَ مَا لَا يَعْقِلُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ أَلَا فَلْيَتَّبِعْهُ الْإِنْسَانُ إِنَّ لِلَّهِ مَلِكَةً وَ طَوْعَ إِرَادَتِهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ وَ أَنْسٍ وَ جِنٍّ، وَ إِذَا كَانَ الْعَقْلَاءُ لَهُ، فَغَيْرُهُمْ مِنْ غَيْرِ الْعَاقِلِ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مَلِكاً لَهُ وَ خَصَّ الْعَقْلَاءَ بِالذِّكْرِ بَلْفِظِ «مَنْ» دَلَالَةً عَلَى الْعِزَّةِ، فَإِنْ مِنْ يَمْلِكُ الْعَقْلَاءَ، لَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا عِزَّةَ فَوْقَهَا. وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ أَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَمْلِكُ آلِهَةٌ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى «مَنْ» وَ جِئَ بِ «مَا» لِأَنَّ غَالِبَ الْأَلِهَةِ هِيَ أَصْنَامٌ لَا تَعْقِلُ وَ لَا تَدْرِكُ.

و هنا احتمالان آخران:

الأول: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنْ مَا يَعْبُدُهُ هَؤُلَاءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ آلِهَةً حَتَّى تَكُونَ شُرَكَاءَ حَقِيقِينَ وَ إِنْ سَمَّوْهَا شُرَكَاءَ.

الثاني: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَى شَيْءٍ يَتَّبِعُ هَؤُلَاءِ شُرَكَاءَ؟ تَقْيِيحاً لِفَعْلِهِمْ.

ف «مَا» عَلَى الْأَوَّلِ مَوْصُولَةٌ، وَ عَلَى الثَّانِي نَافِيَةٌ. وَ عَلَى الثَّلَاثِ اسْتِفْهَامِيَّةٌ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبَّحَانَهُ أَنَّ عِبَادَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ فِي كَوْنِهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤١

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٧ الى ٦٨]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)

آلِهَةٌ إِنْ يَتَّبِعُونَ أَى مَا يَتَّبِعُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا الظَّنَّ الْحَاصِلَ لَهُمْ بِالتَّقْلِيدِ وَ الْعَادَةِ وَ إِنْ هُمْ أَى مَا هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ يَحْدِسُونَ حَدْساً بِلَا عِلْمٍ وَ لَا يَقِينٍ.

[٦٨] إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ مَالِكٌ مِنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مِنَ فِي الْأَرْضِ، وَ مَالِكُ الْأَصْنَامِ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْأَنْظُمَةَ الْكُونِيَّةَ، الَّتِي لَا تَزَالُ تَتَكَرَّرُ عَلَى النَّاسِ كُلِّ يَوْمٍ، بِكُلِّ جَمَالٍ وَ إِتْقَانٍ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ أَى لَسْكَونِكُمْ عَنِ اتِّعَابِ النَّهَارِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً أَى جَعَلَ النَّهَارَ مَضِيئاً تَهْتَدُونَ بِسَبَبِهِ إِلَى حَوَائِجِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ الْجَعْلَ لآيَاتٍ حَجَجَ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سَمَاعَ تَفْهَمٍ وَ تَعْقَلٍ، أَمَا مِنْ لَا يَسْمَعُ وَ لَا يَصْغِي إِلَى الْحَقِّ، فَإِنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ لَا تَفِيدُهُ.

[٦٩] وَ حَيْثُ بَيَّنَّ سَبَّحَانَهُ عَقِيدَةَ الْمُشْرِكِينَ وَ زَيْفَ عَقِيدَتِهِمْ وَ بَيَّنَّ الْأَدْلَةَ عَلَى بَطْلَانِهَا، عَطْفَ الْكَلَامِ حَوْلَ عَقِيدَةِ أُخْرَى غَزَتِ الْأَدْمَغَةَ كَثِيراً، وَ هِيَ عَقِيدَةُ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ بَعْضُ آخَرَ، مِنْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ وَلَدٌ قَالُوا قَالَ الْكُفَّارُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِأَنْ عَزِيزٌ وَ الْمَسِيحُ أَبْنَاءُ اللَّهِ، وَ قَالَ الْكُفَّارُ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَسْبَحَهُ تَسْبِيحاً، وَ أَنْزَلَهُ تَنْزِيهاً مِنْ هَذِهِ الْكَذِبَةِ هُوَ الْغَنِيُّ فَلَا حَاجَةَ لَهُ إِلَى

اتخاذ الولد، و لو على نحو التبنّي له تعالى ما في السّمواتِ و ما في

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٩ الى ٧٠]

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

الأرض فمن يملك كل شيء لا يمكن أن يكون له ولد، إن الولد جزء الوالد فلا يكون مملوكا له إن عندكم من سُلطان بهذا أي ما عندكم دليل يدل على هذا الاعتقاد وأنه سبحانه اتخذ الولد أ تقولون على الله ما لا تعلمون فتنسبون إليه أمرا بدون علم و يقين، فإنهم لم يكونوا على علم بأن له ولدا. وهذا استفهام توبيخي.

[٧٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ بَأْسٌ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ أَنَّهُ اتَّخَذَ شَرِيكًا أَوْ اتَّخَذَ وَلَدًا لَا يُفْلِحُونَ أَي لَا يَفُوزُونَ بِالنَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) «١».

وقد دل التاريخ على صحة ذلك الإخبار، فقد وقعت في العالم المسيحي و العالم اليهودي على طول الخط مجازر مدهشة، فهم من عصر ظلامهم إلى عصر نورهم - هذا القرن - في حروب طاحنة عجيبة لا تبقى و لا تذر، و ألوف القصص شاهدة على ذلك، منها ما ذكره «سلامة موسى» في كتابه «حريّة الفكر»: أن حربا وقعت بين قسّمى المسيحيين - الكاثوليك و البروتستانت - و ذهب ضحيتها أربعة عشر مليون من البشر، في ألمانيا وحدها.

[٧١] لَهُمْ مَتَاعٌ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا يَتَمَتَّعُونَ أَيَامًا قَلِيلًا ثُمَّ إِلَيْنَا

(١) الكهف: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٣

[سورة يونس (١٠): آية ٧١]

وَ اتَّلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَ تَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنظِرُونِ (٧١)

مَرْجِعُهُمْ رَجوعهم، أي إلى حكمتنا و جزائنا يكون مصيرهم ثم نذيقهم العذاب الشّدِيد الدائم بما كانوا يكفرون بسبب كفرهم.

[٧٢] لقد سبقت الإشارة في هذه السورة إلى الأمم السابقة و أنهم لما كذبوا الرسل ذاقوا و بال أمرهم (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) «١»، و سبقت الإشارة إلى أن لكل أمّة رسول (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ) «٢». و هنا يأتي البيان لبيان بعض تلك القصص اعتبارا و تذكرة و اتل أي قص يا رسول الله عليهم على هؤلاء الكفار نبأ نوح أي خبر نوح النبي عليه السلام إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم شقّ و صعب عليكم مقامى إقامتى بين أظهركم فاستقلتمونى و تذكيرى و عظى و تبينى لكم بآيات الله حججه و دلائله الدالة على وجوده و صفاته و سائر ما يرتبط به من النبوة و المعاد فعلى الله توكلت في زجركم و ما تنوون إيقاعه على، فإنى متوكل على الله فى جميع أحوالى، و أتوكل عليه فى هذه الخصوصية أيضا.

فلا يقال: مفهوم الشرط: عدم توكله فى صورة عدم الشرط؟

(١) يونس: ١٤.

(٢) يونس: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٤

[سورة يونس (١٠): آية ٧٢]

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَآمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)

الجواب: إن القضية سالبة حينئذ بانتفاء الموضوع. أى أنه إن لم يكبر مقام نوح عندهم لم يكن خوف منهم حتى يتوكل عليه السّلام، على الله سبحانه للتوقى من خوفهم.

فَأَجْمِعُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ أَمْرَكُمْ حَوْلِي وَشُرَكَاءَكُمْ أَى تَعَاوَنُوا مَعَ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَاعْزَمُوا عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ لِإِذْنائِي عَلَيْكُمْ غُمَّةً وَغَمًّا وَحِزْنًا، بَأَنْ تَتَرَدَّدُوا فِيهِ، وَيَكُونُ لَكُمْ وَجْهُ الْخِلَاصِ مِنِّي ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ أَنْهَضُوا لِتَنْفِذُوا تَدْبِيرَكُمْ عَلَى وَ لَا تُنْظِرُونِ لَا تَمْهَلُونَنِي حَتَّى أَفْكَرَ، وَ حَتَّى أَجْمَعَ قَرَارِي لِمَقَابَلَتِكُمْ.

قال نوح عليه السلام هذا لهم على وجه التحدى و بيان أنهم لا يتمكنون من القضاء عليه و إن جمعوا كل قواهم و تشاوروا فيما بينهم و اتحدت كلمتهم و أسرعوا فى تنفيذ كيدهم نحوه، فإنه مستعصم بالله و مستنصر به، و جميع القوى لا تتمكن أن توصل إليه سوء. و هذا أدل دليل على وجوده سبحانه، و إلا لتمكن أولئك الكفرة من القضاء عليه. و هذا كما تقول أقوى الدول لأضعف الحكومات: «افعلوا ما شئتم و اجمعوا أمركم و أسرعوا فى تنفيذ خططكم فإنكم لا تتمكنون من شىء».

[٧٣] فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَى أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْحُجْجِ وَ الْآيَاتِ وَ لَمْ تَقْبَلُوا نَصْحِي وَ تَذَكِيرِي، فَانْتُمْ وَ شَأْنُكُمْ، إِنْ تَوَلَّيْتُمْ لَا يَنْقُصُ أَجْرِي وَ ثَوَابِي فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ حَتَّى يَنْقُصَ بِأَعْرَاضِكُمْ، كَالْمَعْلَمِ الَّذِي إِذَا أَعْرَضَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

التلاميذ عنه نقص أجره. و الحاصل: إن أعرضتم عن قبول قولى لم يضرنى لأنى لم أطمع فى مالكم حتى يفوتنى المال بتوليكم عنى، بل يعود ضرر توليكم عليكم إن أجرى أى: ما أجرى إلا على الله سبحانه و أمرت أن أكون من المسلمين الذين يسلمون أمورهم إلى الله سبحانه، فإنى ماض فى رسالتى، مصمم على تبليغى، و إن توليتم و أعرضتم.

[٧٤] فَكَذَّبُوهُ فَكَذَّبَ أَوْلِيَّكَ الْكُفَّارَ نوحا عليه السّلام، و قالوا: أنت لست بنبى و أنكروا المبدأ و المعاد فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْفُلْكِ أَى فِي السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهُمْ جَعَلْنَا نوحا عليه السّلام و المؤمنين معه خَلَائِفَ خِلفاء فى الأرض بعد أولئك الكفار الذين أَعْرَفُوا وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَقَدْ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَ تَفَجَّرَتِ الْعَيُونُ حَتَّى أَخَذَ الْمَاءُ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ، وَ هُنَاكَ هَلَكَ الْكُفَّارُ أَجْمَعُ فَانْظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَ الْخَطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ مِنْهُ النَّظَرُ - وَ الْمَرَادُ بِ«النَّظَرِ» الْعِلْمُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ الَّذِينَ أَنْذَرُوا وَ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِمُ الْإِنذَارُ.

و قومك هؤلاء يا رسول الله مثل أولئك، إن كذبوا و أرادوا القضاء عليك نصرناك عليهم و أهلكتناهم.

[٧٥] ثُمَّ بَعَثْنَا أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ بَعْدَ نوح عليه السّلام رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٦

[سورة يونس (١٠): آية ٧٥]

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥)

كإبراهيم و هود و صالح و لوط و شعيب عليهم السّلام و غيرهم فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بِالْحُجْجِ الْوَاضِحَةِ وَ الْأَدْلَةَ عَلَى الْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ وَ

التكاليف فما كانوا يُؤْمِنُوا بما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ فقد كانت تلك الأقوام مثل أسلافهم لا يؤمنون بالحق الذي كذبت الأسلاف به، فإن المكذبين لهم طبيعة واحدة، و من قبيل موحد، كما أن المؤمنين من قبيل واحد، ولذا صح نسبة ما للأسلاف إلى الأخلاف، كما نسب سبحانه ما صدر من أسلاف اليهود إلى أخلافهم الذين كانوا في زمن نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ إن طبعنا على قلوب الذين يعتدون و يتجاوزون الحق، إنما هو بعد ما أغلقوا هم قلوبهم عن قبول الحق، واعتدوا عن سنن الحق.

[٧٦] ثُمَّ بَعَثْنَا أَى أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأَمَمِ وَ الرِّسْلِ مُوسَى وَ هَارُونَ أَخَا مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أَشْرَافِ قَوْمِهِ أَوْ كَلِّهِمْ، فَإِنَّ «الْمَلَأَ» اسْمٌ لِلْأَشْرَافِ، لِأَنَّهُمْ يَمْلَأُونَ الْقُلُوبَ هَيْبَةً، وَ الْأَنْظَارَ زِينَةً وَ نِظَارَةً بِآيَاتِنَا أَى أَرْسَلْنَا مَعَهُمَا أَدَلَّتْنَا الدَّلَالَةَ عَلَى صِدْقِ دَعْوَاهُمَا مِنَ الْمَعْجَزَاتِ وَ الْخَوَارِقِ فَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِنْقِيَادِ لَهَا وَ الْإِيمَانِ بِهَا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ قَدْ أَجْرَمُوا وَ ارْتَكَبُوا الْآثَامَ وَ الْمَعَاصِيَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٦ الى ٧٨]

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَ جِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) [٧٧] فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ جَاءَ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ الْمَطَالِبَ الْحَقَّةَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا الَّذِي جِئْتُمَا بِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ وَ الْمَعْجَزَاتِ لَسِحْرٌ مُبِينٌ سِحْرٌ وَاضِحٌ، لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَجْعَلُنَا نَتَخِيلُ الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ وَاقِعِهَا.

[٧٨] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرٌ؟ وَ قَدْ حَذَفَ مَحْكَى الْقَوْلِ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَ ذَلِكَ لِئَنَّهُ أَدْبِيَّةٌ هِيَ أَنْ تَبْقَى النَّفْسُ مَتَنَظَّرَةً فَتَذْهَبَ كُلُّ مَذْهَبٍ، تَعْظِيمًا لِتَشْنِيعِ الْقَائِلِ، أَوْ الْمُرَادِ مِنْ «أَقُولُونَ»: أَعْيُونَ وَ تَطْعَنُونَ فِي الْحَقِّ؟ أَسِحْرٌ هَذَا هَلْ هَذَا الَّذِي جِئْتُ بِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ سِحْرٌ؟ وَ كَمِ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ السِّحْرِ وَ الْمَعْجَزِ، فَالسِّحْرُ شَيْءٌ ضَعِيفٌ لَهُ سَبَبٌ خَفِيٌّ يَتِمَّ أَنْ يَفْعَلَهُ أَى وَاحِدٌ وَ لَا يَقْتَرِنُ بِالتَّحْدِي، بِعَكْسِ الْمَعْجَزِ فِي كُلِّ ذَلِكَ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ لَا يَظْفَرُونَ بِمُرَادِهِمْ تَمَامًا، فَإِنَّهُ تَمْوِيهِ وَ تَرْيِيفٌ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ، وَ لِذَا لَمْ يَوْجَدْ سَاحِرٌ تَمَكَّنَ مِنْ تَكْوِينِ أُمَّةٍ وَ كَانَتْ لَهُ سِيَادَةٌ وَ رَفْعَةٌ.

[٧٩] قَالُوا أَى قَالَ فِرْعَوْنَ وَ مَلُؤُهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَ جِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي، أَى: هَلْ جِئْنَا يَا مُوسَى لِتَصْرِفْنَا - مِنْ «لَفَتَ» بِمَعْنَى صَرْفٍ - عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَ الْمَلُوكِ، وَ تَرَشَدْنَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ؟ إِنْ هَذَا لَا يَكُونُ وَ تَكُونُ لَكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٨

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٩ الى ٨١]

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١)

الْكِبْرِيَاءُ السِّيَادَةُ وَ السَّلْطَةُ. فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ مُوسَى وَ هَارُونَ إِنَّمَا سَاقَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِرَادَتُهُمَا أَنْ يَكُونَا سَيِّدَيْنِ مُلْكَيْنِ عَلَى النَّاسِ، فَهَمَا مِنْ طَلَابِ الْعِظَمَةِ وَ السَّلْطَةِ فِي الْأَرْضِ مِصْرَ وَ مَا حَوْلَهَا وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ أَى بِمُصَدِّقِينَ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ.

[٨٠] وَ قَالَ فِرْعَوْنُ لَمَلئِهِ: أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ بِالسِّحْرِ، بَلِيغٌ فِي عَمَلِهِ، لِأَوَّاجِهِ مُوسَى بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ عَجَزَ عَنِ دَحْضِ حِجَّتِهِ، فَأَرَادَ الْإِسْتِعَانَةَ بِالسَّحْرَةِ لِتَقَابِلِ مُوسَى بِالْمِثْلِ فَتَبْطُلَ حِجَّتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي زَعْمِهِ.

[٨١] فَجَمَعُوا لَهُ السَّحْرَةَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ لَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ جَمَعَ «سَاحِرًا» نَحْوُ: كَهْنَةً، وَ طَلِبَةً، جَمَعَ «كَاهِنًا» وَ «طَالِبًا». وَ جَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَحْضَرِ فِرْعَوْنَ وَ النَّاسِ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَلْقَوْنَ حَبَالًا وَ عَصِيًّا مِنْ أَيْدِيهِمْ عَلَى الْأَرْضِ فَيُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَنَّهَا حَيَاءٌ وَ أَفَاعِي، وَ قَدْ أَرَادُوا بِذَلِكَ بَيَانَ أَنَّ عَصِيَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَ إِذَا بَطَلَتْ هَذِهِ الْمَعْجَزَةُ تَمَكَّنُوا

من الخدش في سائر المعجزات التي أتى بها، بأنها أيضا أقسام من السحر. و «ألقوا» ليس أمرا بالسحر، بل بيانا لبطلانه.

[٨٢] فَلَمَّا أَلْقَوْا أَلْقَتِ السَّحْرَةَ مَا مَعَهَا مِنَ الْحَبَالِ وَالْعَصَى قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ «ما» مبتدأ و «السحر» خبره،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٩

[سورة يونس (١٠): آية ٨٢]

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

يعنى: إن الذي جئتم به هو السحر، وليس السحر ما جئت به كما قلتم. إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ يظهر بطلانه للناس إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيحُ عَمَلَ

الْمُفْسِدِينَ فَالله سبحانه لا يبقى على عمل يراد به إفساد الدين بطابع الإصلاح، ولا يمضيه، بل يبين بطلانه و يظهر زيفه.

[٨٣] وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ أَى يظهر الله سبحانه الحق للناس و يحققه، حتى يرون أنه حق و أن ما عداه باطل بِكَلِمَاتِهِ التكوينية و هي «كن

فيكون» و لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ أن يظهر الحق و يبين زيف الباطل. و قد تحققت ما قاله موسى عليه السلام فألقى عصاه- و قد صارت

ثعبانا عظيما- فأكلت كل تلك الحبال و العصى، و خزّ السحرة ساجدين، و بطل كيد فرعون، بل ظهر كون الحق مع موسى عليه

السلام و أنه نبى مرسل.

و هنا أمر لا بد من التنبيه عليه هو: أن القرآن إنما يأخذ موضع العبرة من القصة، و لذا نجده في كل مناسبة يذكر طرفا خاصا منها.

ففى مقام يذكر أول القصة، و فى مقام وسطها أو آخرها، و فى مقام يطرحها باختصار، و فى مقام بتفصيل، حسب اختلاف المقامات.

فإذا كان الحديث حول عاقبة المجرمين، ذكر غرق فرعون، و إن كان حول غلبه رسل الله بالحجة ذكر غلبه موسى فى إلقاء عصاه، و

إن كان حول العاقبة الحسنة للمؤمنين ذكر نجاه بنى إسرائيل من مصر. و غالبا يخصّ الموضوع المراد من القصة بجمل قصيرة من سائر

مواضعها تحفظا على الربط و السياق.

و قد أكثر سبحانه من القصص المرتبطة بالأمم الموحدة الباقية،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٠

[سورة يونس (١٠): آية ٨٣]

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يُفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٣)

و الأمم المشركه و الملحده الباقية، لتكون لهم عبرة، أما تفصيل قصص قوم لوط و شعيب و إلياس - مثلا- فليس من البلاغه، أما قصة

موسى و عيسى فلا بد من تفصيلهما لأنهما صاحبا شريعته يتمسك الناس بها إلى يوم الوقت المعلوم، و هكذا بالنسبة إلى الاحتجاجات

مع الملحدين و المشركين، فقد بقى أكثر أهل العالم ملحدين مشركين طول الخط حتى يوم الناس هذا.

[٨٤] فَمَا آمَنَ لِمُوسَى وَ لَمْ يَصَدِّقْ دَعْوَتَهُ وَ مَا جَاءَ بِهِ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ أَى جماعته من الشباب- لا الكهول و الكبراء- و الضمير فى

«قومه» إما راجع إلى «فرعون» أى من قوم فرعون، أو راجع إلى موسى عليه السلام أى: من بنى إسرائيل، فإنهم كانوا من أقرباء موسى

عليه السلام لأن الجميع كانوا من أولاد يعقوب عليه السلام. و كان إيمانهم على خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ فقد كانوا يخافون بطشه و نكاله، و

مَلَائِهِمْ أشرفهم و كبرائهم، أن يؤذوهم و أن يُفْتِنَهُمْ أَى يعذبهم فرعون و يصرفهم عن دينهم و إنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ قاهر متكبر و سلطان

فى الْأَرْضِ فيقدر على ما يريد من التكيل و العقاب و إِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ الذين أسرفوا و تجاوزوا الحد فى الطغيان، فقد أسرف فى

القتل و الظلم، و ادعى الربوبية.

و السر فى هذا أن الأنبياء دائما يأتون إلى الناس عزّل بلا سلاح و مال، و الملوك الذين هم ضدّهم مزودون بالأميرين، و الناس بحاجة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥١

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٥٩٩

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥)

إلى المال، كما أنهم يخافون من القوة، لذا تجبرهم الطبيعة على عدم الاعتناء بالأنبياء وإن كان الغالب أنهم يصدقونهم قلباً، كما قال ذلك الشاعر للحسين عليه السلام: «قلوبهم معك و سيوفهم مع بني أمية»، وقال تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ) «١». و من ذلك نرى أن الملوك إذا قبلوا الدين دخل فيه أتباعهم.

أما سر أن الأنبياء عزّل هو أن يكون في الدين صعوبة ليكون المؤمن مستحقاً للأجر والثواب، وهذا هو سر فضيلة السابقين إلى الدين، لأنهم يلاقون من الصعوبة ما لا يلاقه غيرهم.

[٨٥] وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ: يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ إِيْمَانًا صَادِقًا رَاسخًا فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا فَوَضُوا أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أَى إِنْ كُنْتُمْ مُنْقَادِينَ لِلَّهِ، فَإِنَّ «الإسلام» هو الانقياد عملاً، كما قال تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) «٢»، فالإيمان هو الاعتقاد، والإسلام هو التسليم، و بينهما عموم من وجه، فكم من معتقد لا يسلم، و كم من مسلم لا يعتقد.

[٨٦] فَقَالُوا أَى قَالَ قَوْمِ مُوسَى: عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا فَوَضْنَا أُمُورَنَا إِلَيْهِ وَاثْقِينْ بِنَصْرَتِهِ لَنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فَكُونَ امْتِحَانًا

(١) النمل: ١٥.

(٢) الحجرات: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

وَ نَجَّيْنَا بَرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

للكفار، كما قال سبحانه: (وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً) «١». فإن الكفار يمتحنون و يفتنون بالمؤمنين، و معنى دعائهم: أن لا يسلب الكفار عليهم، حتى يبتلوا بهم، و يكون الكفار ممتحنين بسبب هؤلاء.

و قد روى عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام أنهما فسرا الآية بأن معناها: لا تسلطهم علينا فتفتنهم بنا «٢».

[٨٧] وَ نَجَّيْنَا خَلْقَنَا بِرَحْمَتِكَ بِفَضْلِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أَى فرعون و ملاء.

[٨٨] وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ هَارُونَ، لَمَّا قَرَّبَ الْأَمْرَ، وَ أَرَدْنَا نَجَاتِهِمْ مِنْ أَيْدِي فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا يُقَالُ: «تَبَوَّأَ بَيْتًا» أَى اتخذ بيتاً، من باب «باء» بمعنى «رجع»، فإن الإنسان يرجع إلى بيته كلما خرج، و لذا يسمى البيت «مبواً». أَى اجعلوا لبني إسرائيل المؤمنين بكم في مدينة مصر بيوتاً خاصة بهم وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً قَالَ سعيد بن جبیر إن معناه: اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ أَى أديموها و واطبوا على فعلها. و لعل هذين الأمرين باتخاذ البيوت بتلك الكيفية و إقامة الصلاة، أن الأول لجمعهم في محل واحد بعضهم قبال بعض فلا يكونوا منتشرين هنا و هناك،

(١) الفرقان: ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٣

[سورة يونس (١٠): آية ٨٨]

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَى

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)

و ذلك التكتل و التنظيم مهم جدا فى جمع الأفراد بصبغة واحدة، و لنشر الأخبار، و تنفيذ الأوامر فيهم بسرعة. كما أن إقامة الصلاة و توثيق الصلوات بالله سبحانه تولد فيهم طاقة روحية و نشاطا، و تركى نفوسهم استعدادا لمقاومة القوم و عدم تأثير دعايات الكفار فيهم. و من المعلوم أن تركية الروح لها أكبر الأثر فى الانتصار و الثبات و بشرى يا موسى الْمُؤْمِنِينَ بالله ربك، بأنه سوف يفرج عنهم.

[٨٩] وَقَالَ مُوسَىٰ مُخَاطَبًا لِّلَّهِ سُبْحَانَهُ: رَبَّنَا إِنِّي أَتَيْتُكَ فَزَعَوْتُ وَ مَلَأْتُ أَيْ أُعْطَيْتَهُ وَ الْأَشْرَافَ مِنْ قَوْمِهِ زِينَةً يَتَزَيَّنُونَ بِهَا مِنَ الْمَلَابِسِ وَ الْمَرَاقِبِ وَ الْمَسَاكِنِ وَ غَيْرِهَا وَ أَمْوَالًا يَدِيرُونَ بِهَا شُؤْنَهُمْ وَ يَتَعَاطَمُونَ بِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا تَوْجِبُ الْإِعْرَاءَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْغَيْرِ، كَمَا تَوْجِبُ الْكِبْرِيَاءَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَصْحَابِهَا. وَ كَانَ ذَكَرَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ لِلتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بَيَانِ كَوْنِهَا صِدَا لِلدَّعْوَةِ هُنَا- فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ- كَمَا يَقُولُ الطَّالِبُ شَاكِيَا إِلَى مَدِيرِ الْمَدْرَسَةِ: «إِنَّكَ جَعَلْتَ فَلَانَا مُرَاقِبًا فِي الْمَدْرَسَةِ، وَ هُوَ فَاسِدٌ» يَرِيدُ بَيَانَ الضَّرَاعَةَ فِي أَنْ كَوْنَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ يَسَبِّبُ الْفَسَادَ.

رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ «اللام» للعاقبة، كما قال سبحانه:

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا ﴿١﴾، أَيْ أَنْ عَاقِبَةُ إِعْطَائِكَ

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٤

المال لهم إضلال الناس عن دينك و طريقك و شريعتك رَبَّنَا أَطْمَسَ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمُ «الطمس» محو الأثر، و هنا بمعنى «الضرب» و لذا عدى ب «على» أى اضرب عليها و امحى أثرها، حتى لا تكون سدا فى طريق الدعوة.

و هل كان دعاؤه عليه السلام بمسحها كما ذكر جمع من المفسرين، أو ذهاب البركة و إفنائها تدريجيا؟ احتمالان. وَ أَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَبْلَغُ بِهِمْ إِلَى غَايَةِ الشَّدَّةِ وَ الْقَسْوَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا الْعِقَابَ، لِانْقِطَاعِ كُلِّ رَجَاءٍ فِي إِيمَانِهِمْ، فَإِنَّ الْكَافِرَ لَا يَهْلِكُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَّا إِذَا انْقَطَعَ كُلُّ رَجَاءٍ- حَسَبَ الظَّاهِرِ- عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، فَكَانَ هَذَا دَعَاءَ لِسُرْعَةِ إِهْلَاكِهِمْ، بِذِكْرِ السَّبَبِ. وَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ دَعَاءُ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَزِيَادَةِ شَقْوَةِ ابْنِ مَلْجَمٍ، فَإِنَّهُ دَعَاءُ بِالْخُلَاصِ مِنَ الْقَوْمِ بِذِكْرِ السَّبَبِ، وَ حَيْثُ أَنْ الْأَمْرَ كَائِنًا لَا مَحَالَةَ، فَالدَّعَاءُ بِتَقْدِيمِهِ لَيْسَ خِلَافًا لِمَوَازِينِ الدَّعَاءِ إِذَا كَانَ فِيهِ فَائِدَةٌ مَهْمَةٌ.

فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الْمُؤَلَّمِ الْمَوْجِعِ، أَيْ أَنَّهُمْ يَلْزَمُونَ عَدَمَ الْإِيمَانِ إِلَى رُؤْيَةِ الْعَذَابِ، وَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ لِأَنَّهُ إِيمَانٌ إِلْجَاءٌ لَا إِيمَانٌ عَقِيدَةٌ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اسْتِحْقَاقَ الْعِقَابِ وَ الثَّوَابِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَمَلِ الْمُنْبَعَثِ عَنِ الْعَقِيدَةِ.

و ربما يحتمل أن المراد ب «اشدد» اتركها حتى تتشدد و تتصلب و لا تلتطف بها أطفائك الخفية، فيكون كقوله (مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَ جَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعُرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)

فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١﴾، المراد به تركهم حتى يضلوا.

[٩٠] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي جَوَابِ دَعَاءِ مُوسَى وَ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فِي طَمَسِ أَمْوَالِ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ وَ التَّشْدِيدِ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَاسْتَقِيمَا فِي الْإِرْشَادِ وَ التَّبْلِيغِ وَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

روى عن الصادق عليه السلام: «أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ» وَ بَيْنَ أَخْذِ فِرْعَوْنَ، أَرْبَعِينَ سَنَةً» (٢).

وَ لَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فِي الضُّجْرِ مِنْ طَوْلِ الْمُدَّةِ، وَ عَدَمِ الْوَثُوقِ وَ الْإِطْمِئْنَانِ بِوَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ فِي أَحْكَامِهِ مَصَالِحٌ

لا يتضجر منها إلا الجاهل ولا يستطيع و عوده إلا المستعجل.

[٩١] وجاء الموعد و خرج بنو إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام و وصلوا إلى البحر و انفلق الماء عن طريق لهم و جاء فرعون بجنوده ليدركهم و يأخذهم و ينكل بهم، و توسط قوم موسى البحر حتى دخل قوم فرعون و لما أن خرج موسى و قومه توسط البحر فرعون و قومه و إذا بالماء ينطبق عليهم و يغرقون جميعاً و جاوزنا بنى إسرائيل البحر عبرنا بهم البحر حتى جاوزوه سالمين فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ أَى مع جنوده بغيّاً و عدواً إنما اتبعوهم ليبغوا عليهم حتى إذا أدركه أدرك فرعون

(١) الزمر: ٢٤.

(٢) تفسير العياشى: ج ٢ ص ١٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٦

[سورة يونس (١٠): آية ٩١]

الآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين (٩١)

الغرق أى وصل إليه الماء ليغرقه قال فرعون للتخلص من الغرق: آمنت أنه لا إله إلا الإله الذى آمنت به بنوا إسرائيل يعنى الله سبحانه، فقد كان إلى ذلك الحين ينكره و يدعى الربوبية و أنا من المؤمنين إني أسلم له. لكن إيمانه كان للتخلص و النجاة، بالإضافة إلى أن الإيمان لا ينفع إذا عاين الإنسان الموت كما قال سبحانه:

و لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (١).

[٩٢] و لما كان هذا الكلام قال له جبرائيل: الآن تؤمن على نحو الإنكار، فإن هذا الإيمان عن إلجاء و اضطرار و قد عصيت قبل ذلك بترك الإيمان و فعل المعاصى و الفساد فى الأرض و كنت من المفسدين فى الأرض بظلم الناس و التعدى عليهم و إطفاء نور الأنبياء إلى غير ذلك.

روى عن الصادق عليه السلام قال: «ما أتى جبرائيل رسول الله إلا كئيباً حزينا، و لم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلما أمره الله بإنزال هذه الآية «و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين»، نزل عليه و هو ضاحك مستبشر، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ما أتيتنى يا جبرائيل إلا و تبنت الحزن من وجهك حتى الساعة. قال: نعم يا محمد! لما أغرق

(١) النساء: ١٩. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٧

[سورة يونس (١٠): آية ٩٢]

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)

الله فرعون قال: «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين» فأخذت حمأة فوضعتها فى فيه، ثم قلت له: «الآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين» و عملت ذاك من غير أمر الله عز و جل، ثم خفت أن تلحقه الرحمة من الله عز و جل و يعذبني الله على ما فعلت. فلما كان الآن و أمرنى الله عز و جل أن أودى إليك ما قتله أنا لفرعون، أمنت و علمت أن ذلك كان لله تعالى رضى» (١).

[٩٣] فالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا إِنْ النَّاسَ غَالِبًا لَا يَصْدُقُونَ بِمَوْتِ الْعِظَمَاءِ، فكيف بمن ادعى الربوبية و كان الناس يعبدونه. و لذا لما أخبر موسى عليه السلام أن فرعون أغرق، لم يصدقه الناس، و لذا اقتضت حكمه الله سبحانه أن ينجى فرعون ببدنه، بأن ألقى بدنه الذى لا روح فيه على الساحل حتى رآه الناس. و لذا قال سبحانه «اليوم» أى يوم غرقك تنجيك يا فرعون ببدنك فقط، فلم يذهب مع الماء ليضيع جسمه، و لا أكلته الأسماك لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ مِنَ النَّاسِ آيَةً علامته على قدرة الله سبحانه، و أنه لم يكن فرعون لها، فإن الإله

لا يموت ولا يغرق. و الخطاب إما حقيقى بأن خوطب به فرعون و هو حى، أو موجه إلى الناس يراد به إعلامهم بمصير كل ظالم، فالخطاب من قبيل خطابات العقلاء لما لا يعقل، كقول الشاعر:
أيا شجر الخابور ما لك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
وقوله:

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٨

[سورة يونس (١٠): آية ٩٣]

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

أيا جبلى نعمان بالله خليانسيم الصبا يخلص إلى نسيما

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ غافلون عن التفكير فى أدلتنا و دلالتنا.

[٩٤] وَلَقَدْ بَوَّأْنَا مَكَّنًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ، وَ خَرُوجِهِمْ مِّنْ مِصْرَ مُبَوَّأً صِدْقٍ مَّكَانَ ثَبَاتٍ وَ أَمْنٍ، فَإِنَّ الْمَكَانَ الْمَتَزَلِّزَ الَّذِي لَا يَسْتَقِرُّ فِيهِ الْإِنْسَانُ هُوَ مُبَوَّأٌ كَذِبٍ، إِذْ لَا وَجْهَ لَهُ وَاقِعٌ، فَهُوَ يَحْكِي عَمَّا لَا يَكُونُ، إِذْ ظَاهِرُهُ الْإِسْتِقْرَارُ وَ بَاطِنُهُ الْإِنْفِلَاتُ وَ الْإِنْقِلَابُ. فَفَقَدْ مَكَّنَهُمْ سَبْحَانَهُ مِنَ الشَّامِ وَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ بَعْدَ مَا كَانُوا فِي أَرْضِ مِصْرَ مَتَزَلِّزِي الْمَنْزَلِ حَيْثُ يَضْطَهُدُهُمْ فِرْعَوْنُ، وَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ مَا يَأْكُلُونَ حَتَّى صَفَرَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَالِ، لَكِنْ لَمْ يَقُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ اخْتَلَفُوا، وَ لَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمْ عَنِ جَهْلِ فَإِنَّهُمْ مَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ وَ عَرَفُوا كُلَّ شَيْءٍ، بَلْ اخْتَلَفُوا حَسَدًا وَ اسْتِعْلَاءً، كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ أُمَّةٍ، أَنَّهُمْ يَتَّحِدُونَ مَا دَامُوا قَلَّةً مُضْطَهَدِينَ، فَإِذَا كَثُرُوا وَ أَمْنُوا وَ أَثَرُوا اخْتَلَفُوا عَلَى الْمَالِ وَ الْجَاهِ وَ مَا أَشْبَهَهُمَا. إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ أَحْيَلُوا إِلَى الْمَحْكَمَةِ الْكُبْرَى حَيْثُ لَمْ يَرْضَخُوا لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَ لَا تَرَفَعُوا إِلَى أَنْبِيَائِهِ لِيُبَيِّنُوا لَهُمُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٩

[سورة يونس (١٠): آية ٩٤]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) يَخْتَلِفُونَ مِنَ الْأَصُولِ وَ الْفُرُوعِ. وَ قَدْ رَوَى أَنَّهُمْ انْقَسَمُوا إِلَى إِحْدَى وَ سَبْعِينَ فِرْقَةً.

[٩٥] وَ بَعْدَ تَمَامِ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ فِرْعَوْنَ، يَتَوَجَّهُ الْخُطَابُ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِيَعْرِفَ الَّذِينَ يَشْكُونَ أَنَّهُمْ فِي شَكِّهِمْ عَلَى غَيْرِ حَقٍّ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَ كَثِيرًا مَا يُوْجَّهُ الْخُطَابُ إِلَى أَحَدٍ مَا، لِيَعْرِفَ غَيْرَهُ قِصْدَ الْمُتَكَلِّمِ عَلَى نَحْوِ «إِيَّاكَ أَعْنَى وَ اسْمَعَى يَا جَارَهُ». وَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَلْتَفِتُ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ، كَمَا ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ أَنَّ الْخُطَابَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ) «١»، مَتَوَجَّهُ إِلَى كُلِّ مَنْ يَأْتِي مِنْهُ الرَّؤْيَةُ.

فَإِنْ كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ إِنْ كُنْتَ أَيُّهَا السَّمْعُ. وَ هَذَا لَا يَنَافِي قَوْلُهُ «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» إِذْ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ مَنْ أَمَرَ بِتَبْلِيغِهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) «٢»، وَ (أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) «٣»، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْغَايَةَ مِنَ الْإِنزَالِ هُمْ.

فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ وَ الْقِصَصِ السَّالِفَةِ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ فَإِنَّهُمْ فِي وَاقِعِ أَمْرِهِمْ يَعْتَرِفُونَ بِكُلِّ ذَلِكَ وَ إِنْ أَنْكَرَهُ بَعْضُهُمْ عُنَادًا وَ حَسَدًا، فَإِنَّ الْكُتُبَ السَّالِفَةَ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى كُلِّ تَلْكَمِ الْأَصُولِ وَ حَقَائِقِ هَذِهِ الْقِصَصِ لَقَدْ

جَاءَكَ

(١) السجدة: ١٣.

(٢) الطلاق: ١١.

(٣) الأنبياء: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٠

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها السامع، فإن القرآن و ما يشتمل عليه من الأصول و الأحكام و القصص كله حق لا مريء فيه فلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِتِينَ «الامتراء» طلب الشك مع ظهور الدليل، و هو من «مرى الضرع» إذا مسحه ليدر، و لا- معنى لمسحه بعد دره الحليب.

و لا يخفى أن مثل هذا الكلام، إنما يفيد التلقين و الإيماء، فإن المطلب إذا ألقى على النفس قبلته. فلا يقال: ما فائدة هذا الكلام؟ إذ المخاطب إن كان شاكا لا- يزول شكه بقولك: «لا تشك»، و إن لم يكن شاكا كان مثل هذا الكلام معه لغوا، كما أنه لا تنافى بين «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ» و بين «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِتِينَ» فإنها بمعنى: «إن كنت فى شك فاسأل حتى يزول الشك و لا تبقى فيه إلى الأبد».

[٩٦] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أَى لَا تَكُنْ فِي جَمَلَةِ الْمَكْذِبِينَ بِأَدْلَةِ اللَّهِ وَ حُجْجِهِ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ وَ أَحْكَامِهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَهْلِيَهُمْ إِذْ هُمْ صَرَفُوهَا وَ اشْتَرَوْا بِذَلِكَ الْعَذَابَ وَ النَّكَالَ.

[٩٧] و بعد وضوح الحجج و ظهور المحجج و قيام الأدلة على ما أنزل على الرسول فما هو سبب إصرار قوم على الكفر و التكذيب؟ إنهم حقت فيهم كلمة الله، فقد بين سبحانه سابقا أن من أعرض عن الحق بعد وضوحه لا بد و أن يقسو قلبه حتى أنه لو رأى كل آية لا يؤمن، فقد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦١

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٧ إلى ٩٨]

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)

أغلق قلبه و طبع عليه فلا- يؤمن و إن رأى الحجج و الآيات إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ أَى ثبتت لا- يُؤْمِنُونَ بالله و ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[٩٨] وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ خَارِقَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الْمُؤَلَّمِ الْمَوْجِعِ، فَهَنَّاكَ يَتَيَقَّنُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ لَكِنْ إِيمَانُهُمْ حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ.

[٩٩] إن سنه الله لا بد و أن تجرى بالنسبة إلى المكذبين بإهلاكهم، و قد تقرّر أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فهل هناك من خلاص من هذا العذاب و الهلاك؟ هنا يذكر سبحانه أن الخلاص ممكن و هو أن يسلك المكذبون- حتى و لو شاهدوا العذاب- مسلك المؤمنين فيؤمنوا و يرجعوا عن غيهم فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا أَى لماذا لم يؤمن أهل القرى التي أهلكناها، حين شاهدوا العذاب؟ و فى «لولا» معنى التأييد نحو: «هلا امتنعت عن النساء و قد دعيت إلى التعفف عنهن» إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ استثناء متصل فإن قوم يونس خارجون عن هذا التأنيب لَمَّا آمَنُوا بعد مشاهدة العذاب كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ أَى رفعنا عنهم العذاب الموجب لخزيهم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٢

[سورة يونس (١٠): آية ٩٩]

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)

أى فى هذه الحياة القريبه فصرنا عنهم العذاب و متغناهم أبقيناهم متنعين بنعم الدنيا إلى حين جاء أجلهم فماتوا بالأجال المكتوبة. فقد ورد أنه ما رد الله العذاب إلا عن قوم يونس عليه السلام فكان يدعوهم إلى الإسلام فأبوا ذلك، فهم أن يدعو عليهم، و كان فيهم رجلان عالم و عابد و كان اسم العالم «روبييل» و اسم العابد «تنوخا» و كان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم و كان العالم ينهاه و يقول: لا تدع فإن الله يستجيب لك و لا يجب هلاك عباده. فقبل يونس عليه السلام قول العابد و لم يقبل قول العالم حين يئس منهم بعد ما دعاهم ثلاثا و ثلاثون سنة. فدعا عليهم، فأوحى الله إليه يخبره بأنه يأتيهم العذاب فى سنة كذا فى شهر كذا فى يوم كذا، فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد و بقى العالم فيهم. فلما كان فى ذلك اليوم نزل العذاب - بأن رأوا فى اليوم الموعد ربح صفراء مظلمة مسرعة لها صرير و حفيف - فقال العالم لهم:

يا قوم أفزعوا إلى الله فلعله يرحمكم فيرد العذاب عنكم. فقالوا: كيف نصنع؟ فقال: اخرجوا إلى المغارة و فرقوا بين النساء و الأولاد، و بين الإبل و أولادها، و بين البقر و أولادها، و بين الغنم و أولادها، ثم ابكوا.

و فعلوا ذلك و ضجوا و بكوا، فرحمهم الله، و صرف عنهم العذاب، و فرق العذاب على الجبال و قد نزل و قرب منهم «١».

[١٠٠] وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبَشَرِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا بَلَا اسْتِثْنَاءَ أَحَدٍ. و لذا جىء بتأكيدين، حتى لا يظن

(١) تفسير القمى: ج ١ ص ٣١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٣

[سورة يونس (١٠): آية ١٠٠]

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

أن التأكيد الأول عرفى لا حقيقى، فإنه سبحانه قادر على أن يلجئ الناس إلى الإيمان، كما أنه قادر على أن يحف الإيمان بالمغريات التى ترغّب الناس فى الإيمان تلقائيا بلا- جبر، لكنه لم يشأ الأمرين، إذ تعدم فائدة الإيمان حينئذ لعدم حصول الاختبار بالإكراه و الإغراء أفأنت يا رسول الله تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أى لا ينبغي لك إكراه الناس على الإيمان، أو لا تقدر على ذلك، فإن الإيمان أمر قلبى لا يدخل تحت طوقك.

فإن قيل: فلما ذا يكره الإسلام الناس على ترك المنكرات و فعل الواجبات؟

قلنا: إن ذلك بالنسبة إلى من قبل الدين كمن قبل القانون الذى يجبر على تطبيقه عليه، أما من لم يقبل و هو مورد الآية فلا إكراه له.

فإن قيل: فكيف لا يقبل الإسلام من الكفار غير الكتائبين إلا الإسلام أو القتال؟

قلنا: إن ذلك إذا خرقت العهود التى بينهم و بين المسلمين، و ذلك غير الإكراه الابتدائى.

[١٠١] إن الله سبحانه لم يكره الناس على الإيمان، و لكنه بين لهم الطريق، فإن أحدا لا يتمكن من الإيمان إلا بإذنه سبحانه، بأن يهديه

الطريق، أما من هداه و أرشده ثم أعرض عنه و سلك طريقا آخر فالله سبحانه يجعل عليه الرجس الروحى، إذ تنغلق منافذ عقله، و

تردى نفسه فى مهاوى الضلالة التى هى أبشع أنواع الرجس و ما كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٤

[سورة يونس (١٠): آية ١٠١]

قُلْ أَنْظِرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ بِأَنْ يُمْكِنَهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَيَدْعُوهَا إِلَيْهِ وَيُرْشِدُهَا إِلَى طَرِيقِهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ الدَّنَسَ الرُّوحِي الَّذِي هُوَ أَسْوَأُ أَقْسَامِ الدَّنَسِ، فَإِنَّ الْقَذَارَاتِ الظَّاهِرِيَّةَ تَذْهَبُ بِالْغَسْلِ وَنَحْوِهِ، أَمَا الْقَذَارَةُ الرُّوحِيَّةُ فَلَا تَذْهَبُ بِأَلْفِ غَسَلٍ وَغَسَلِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ أَيْ لَا يَعْمَلُونَ عَقُولَهُمْ لِلْإِسْتِزَاءِ وَالْإِسْتِنَارَةِ.

[١٠٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: انظُرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةً.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، و ما خلاهن فهو فضل» (١). فالآية المحكمة: هي الآيات الكونية الدالة بإحكامها وإتقانها على التوحيد و سائر صفاته سبحانه من العلم و القدرة و الحياة و الإرادة، و أنه لا يفعل العبث .. و غيرها.

و الفريضة العادلة: هي الأخلاق التي هي فرائض بأن يسير البشر في عدلها و وسطها، فلا جبن و لا تهوّر بل شجاعته، و لا بخل و لا سرف بل جود، و لا شره و لا ترهد بل عفة ... و هكذا.

و السنة القائمة: هي الأحكام الإسلامية التي هي سنن الحياة السعيدة و مناهجها القائمة إلى الأبد، لا تزول و لا تتغير.

(١) عوالمى اللآلى: ج ٤ ص ٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ تَنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

و ما تُغْنِي الْآيَاتُ وَ التَّنْذِيرُ أَيْ لَا تَفِيدُ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ وَ الْبَرَاهِينِ الْجَلِيَّةِ، وَ لَا يَفِيدُ الْإِنْذَارَ وَ الْوَعْظَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ إِذْ أَنَّهُمْ أَغْلَقُوا قُلُوبَهُمْ وَ غَمَضُوا أَبْصَارَهُمْ. وَ إِنَّمَا عَدَى ب «عَنْ» لِأَنَّهُ أَشْرَبَ مَعْنَى «الدَّفْعِ»، أَيْ لَا تَدْفَعُ الْآيَاتُ وَ الْعِضَلَاتُ الْعَذَابَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ، فَقَدْ كَانَ السِّيَاقُ حَوْلَ عَذَابِ الْمَكْذِبِينَ وَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَيْهِمْ.

[١٠٣] فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ أَيْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا تَفِيدُهُمُ الْآيَاتُ وَ التَّنْذِيرُ، وَ الْإِسْتِفْهَامُ إِنْكَارِي إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَيْ إِلَّا- الْعَذَابَ وَ الْهَلَاكَ، وَ الْمَرَادُ بِأَيَّامِهِمْ: وَقَائِعُهُمُ الْمُؤَلَّمَةُ، وَ مَعْنَى «خَلَوْا» مَضَوْا. وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلْيَنْتَظِرُوا الْعَذَابَ كَمَا نَزَلَ بِقَوْمِ عَادٍ وَ ثَمُودٍ وَ غَيْرِهِمْ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ:

فَاَنْتَظِرُوا مِثْلَ تِلْكَ الْأَيَّامِ بَعْدَ مَا أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فَلْيَنْتَظِرْ جَمِيعًا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ.

[١٠٤] ثُمَّ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ تَنْجِي رُسُلَنَا فَلَا يَصِيْبُهُمْ مَكْرَهُهُمُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِ أَوْلِيَاءِ الْكُفَّارِ، فَلَا يَحْرِقُ الرُّطْبَ مَعَ الْيَابِسِ - كَمَا اشْتَهَرَ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ - كَذَلِكَ أَيْ كَمَا نَجَّي الرَّسُلَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ عِلْمَنَا فِي الْحِكْمَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَ أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)

و يحتمل أن يكون «كذلك» للمؤخر- لا المقدم- أي نجاه المؤمنين الآن كنجاه المؤمنين سابقا.

[١٠٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُطَابُ النَّاسِ بِصُورَةٍ عَامَةٍ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي وَ طَرِيقَتِي الَّتِي جِئْتُ بِهَا، أَوْ حَقٌّ هِيَ أَمْ بَاطِلٌ؟ فَلَا تَدْرُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ شَكَّكُمْ لَا يَزْحَمُنِي مِنْ عَقِيدَتِي وَ دَعْوَتِي، بَلْ أَبْقَى صَامِدًا لِلدَّعْوَةِ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

ولا- يشينى إلى عبادة تلك الآلهة كثرة عبادها و شككم فى دينى، كما هو الغالب فى الأفراد الذين يدعون إلى طريقة فلا يجدون مؤيدين لها فيعدلون عنها وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ فَهُوَ الَّذِي يَمِيتُكُمْ وَ تَكُونُ نَاصِيَتِكُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَ مَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ. وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ، وَ تَذْكَيرٌ بِأَنَّ الْمَوْتَ بِيَدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ لَيْسَ لِلْأَصْنَامِ شَيْءٌ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَ كَتَبَهُ وَ رَسَلَهُ وَ شَرَّعَهُ.

[١٠٦] وَ كَانَ الْمَقَامُ صَارَ مَقَامَ مَخَاطَبَةِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ، وَ أَنَّ الشَّاكِينَ حَاضِرِينَ فِي مُحَضَّرِ الرَّسُولِ حِينَ يَتَلَقَى الْوَحْيَ، مِنْ بَابِ الْإِلْفَاتِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَ لَذَا قَالَ: وَ أَنْ أَقُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَجْهَكَ وَ اتَّجَاهَكَ فَإِنَّ «الوجه» لَمَّا كَانَ الْمَحَلَّ الَّذِي يَتَوَجَّهُ النَّاسُ بِهِ إِلَى غَيْرِهِمْ، أَمْرٌ بِإِقَامَتِهِ، وَ عَدَمُ صَرْفِهِ إِلَى هُنَا وَ هُنَاكَ لِلدِّينِ أَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ حَينًا أَى فِي حَالِ كَوْنِكَ مَائِلاً عَنِ سَائِرِ الْأَدْيَانِ، أَوْ مُسْتَقِيمًا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَ إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِذْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

طريقتك و دعوتك و لا تكونن من المشركين الذين يشركون بالله غيره، و كأن عطف «أن أقم» على تقدير: «قيل لى» أن أقم. [١٠٧] وَ لَا تَدْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَا لَا يَنْفَعُكَ إِنْ أَطَعْتَهُ وَ لَا يَضُرُّكَ ضَرَرٌ مُعْتَدٍ بِهِ إِنْ عَصَيْتَهُ. وَ إِنَّمَا قِيدْنَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمَفْهُومُ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ الْمُسْتَقَلُّ بِالنَّفْعِ وَ الضَّرَرِ أَمَا غَيْرُهُ مِنَ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ فَمِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ وَ لَا يَضُرُّ إِطْلَاقًا، كَالْأَصْنَامِ، وَ مِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ وَ لَا يَضُرُّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، كَفِرْعَوْنَ وَ نَمْرُودَ وَ غَيْرَهُمَا مِنَ الْأَصْنَامِ الْبَشَرِيَّةِ فَإِنَّ فَعَلْتَ تِلْكَ الْعِبَادَةَ وَ الدَّعْوَةَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّكَ إِذَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ مِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِجَابِ الْعَذَابِ عَلَيْهَا وَ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ فِيمَا لَوْ صَارُوا سَبِيلاً لِلضَّلَالِ وَ الْغَوَايَةِ. وَ لَا يَنَافَى كَوْنَ الْخُطَابِ مُتَوَجِّهًا إِلَى النَّبِيِّ مَعَ مَقَامِ عَصَمَتِهِ، لِأَنَّهُ تَعْلِيمِي، بِالْإِضَافَةِ إِلَى إِمْكَانِ اسْتِحَالَةِ الْمَقْدَمِ فِي الشَّرْطِ، وَ إِنَّمَا صَدَقَ الْجُمْلَةُ بِصَدَقِ الْمَلازِمَةِ.

[١٠٨] الْأَصْنَامُ وَ الْآلِهَةُ الْمَزْعُومَةُ لَا تَنْفَعُ وَ لَا تَضُرُّ، أَمَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَهُوَ وَحْدَهُ الْمَالِكُ لِلنَّفْعِ وَ الضَّرَرِ وَ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ اللَّازِمُ أَنْ يَدْعُوهُ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ وَ إِنْ يَمَسُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اللَّهُ بِضُرٍّ أَى إِنْ أَحَلَّ ضَرَارًا. وَ كَانَ الْإِتْيَانُ بِلَفْظِ «الْمَسِّ» لِإِفَادَةِ أَنْ أَقَلَّ مَقْدَارُ مِنَ الضَّرْرِ الَّذِي يَمَسُّ الْإِنْسَانَ مَسًّا، لَا كَاشِفَ لَهُ سِوَى اللَّهِ، فَكَيْفَ بِالْمَقْدَارِ الْكَبِيرِ مِنْهُ؟ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، فَهُوَ الْقَادِرُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٨

[سورة يونس (١٠): آية ١٠٨]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) عَلَى دَفْعِ الضَّرْرِ وَ إِنْ يُرِذْكَ مِنْ «أراد يريد» بِخَيْرٍ يُقَالُ: «يريدك بالخير» وَ «يريد بك الخير» بِمَعْنَى وَاحِدٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ أَى لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَنَعِهِ.

قال بعض المفسرين: إن ذكر الإرادة مع الخير، و المس مع الضرر، لتلازم بين الأمرين، للتنبية على أن الخير مراد بالذات، و أن الضرر إنما يمس البشر لا بالقصد الأول، و وضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاقا لهم عليه، و لم يستثنى لأن مراد الله لا يمكن رده «١».

يُصِيبُ بِهِ أَى بِالْخَيْرِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَيُعْطِيهِ كَمَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ وَ هُوَ الْغَفُورُ لِدُنُوبِهِمُ الرَّحِيمُ بِهِمْ يَرْحَمُهُمْ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ. [١٠٩] وَ أَخِيرًا جَاءَ الْحَقُّ إِلَى النَّاسِ، وَ الرَّسُولُ مَأْمُورٌ بِالتَّبْلِيغِ، وَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّ امْرئٍ وَ مَا اخْتَارَ قُلُوبُ رَسُولِ اللَّهِ لِلنَّاسِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى نَحْوِ الْعَمُومِ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الْمُشْتَمَلُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُهُ الْإِنْسَانُ فِي مُخْتَلَفِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ مِنْ رَبِّكُمْ

إلهمك الحقيقي و مربيكم فَمَنْ اهْتَدَى إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي

(١) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٩

[سورة يونس (١٠): آية ١٠٩]

وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

لِنَفْسِهِ فَإِنَّ فائدة هدايته عائدة إليه وَ مَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَ عدل إلى سائر السبل فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أَى على نفسه، فإن ضرر الضلال يعود إلى الإنسان نفسه وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ فلست أنا مسئولاً عن من ضل بعد إراءته الطريق و إرشاده السبيل، فأنتم موكلون إلى أنفسكم و ليس على إلا البلاغ.

[١١٠] وَ اتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بتنفيذ أوامره وَ اصْبِرْ عَلَىٰ إِذْيَاءِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ بِالْغَلْبَةِ وَ الثَّوَابِ لَكَ هُنَا، وَ الْعِقَابُ لَهُمْ هُنَاكَ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ، وَ لَا يَغْمِطُ أَحَدًا حَقَّهُ وَ يَشْهَدُ كُلَّ شَيْءٍ فَلَا يَزِيغُ بِهِ حُكْمًا، وَ لَا يَمِيلُ بِهِ بَاطِلًا، فهو الحاكم بالعدل و الصواب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٠

١١ سورة هود مكية / آياتها (١٢٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على قصة هود النبي عليه السلام و حيث أن سورة يونس اختتمت باتباع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم للوحي، ابتدأت هذه السورة بالوحي.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله، فإن للاسم خواصا، و لذا نرى أن سماع اسم المحبوب يزيد الإنسان نشاطا، كما أن سماع اسم المكروه يزيد الإنسان انقباضا، بالإضافة إلى أن اسم الله يطرد الشياطين و يوجب عناية الله للذى ذكره، و تركيز لصفة الرحمة فى نفوس الناس، إنه هو الرحمن الرحيم، فليخلق الإنسان بأخلاقه سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧١

[سورة هود (١١): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (٢)

[٢] الر رموز بين الله و الخلق، أو أن من جنس «أ، ل، ر» كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ فكل آية من آياته محكمة متينة ليست رخوة لا تلائم الواقع و الحياة، و تكون غير سالحة لكل زمان أو مكان، بل إنها كالأحجار الكريمة المستحكمة التى لا يدخلها نقص و رخاوة و تفكك، ثُمَّ فَصَّلْتُ كل آية قد وضعت موضعها المناسب لها، كما يفصل الكتاب إلى أبواب و فصول، فليس نظمها مهلهلا غير منظم، كالبناء المحكم ذى الأحجار و الأدوات القديمة و الذى ينظم و يفصل تفصيلا منسجما صحيحا دقيقا، فالآية محكمة بذاتها، منظمة فى مكانها.

و هو مِنْ لَدُنِّ أَى من عند إله حكيم فى أفعاله يضع الأشياء فى مواضعها، فلا يفعل شيئا اعتباطا و عبثا و إنما بالحكمة و الصلاح خبير عليم بالأشياء، فإن الحكمة غير العلم، إذ ربما حكيم غير عالم، كما أنه ربما عالم غير حكيم.

[٣] أَلَّا تَعْبُدُوا تَقْدِيرُهُ «الأن لا- تعبدوا»، فهو متعلق ب «أحكمت» أى أنزل الكتاب المحكم المفصل لعلمه أن لا تعبدوا، فهو منصوب محلا، كما تقول: «كتبت إليك أن تتعلم» إِلَّا اللَّهُ فهو وحده المستحق للعبادة و الطاعة لا إله سواه إِنِّي لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْهُ مِنْ طَرَفِهِ

سبحانه نَذِيرٌ أَنْذَرَ الْعَاصِينَ بِالْعِقَابِ وَبَشِيرٌ أُبَشِّرُ الْمُطِيعِينَ بِالثَّوَابِ.

و كان ذكر الإنذار قبل التبشير، للزوم تطهير النفس عن الكفر والمعاصي أولاً ثم تحليلتها بالفضائل، قالوا: ولذا قدم النفي على الإثبات في «لا إله إلا الله».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٢

[سورة هود (١١): آية ٣]

وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)

[٤] وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اطلبوا غفرانه فيما سلف من ذنوبكم ثُمَّ تُوبُوا ارجعوا إِلَيْهِ في أموركم، فإن الاستغفار والتوبة أمران، فإن الأول تطهير، يمكن أن يرجع الإنسان - بعده - إلى الله و يمكن أن يرتكس في الذنوب، و إن كان الغالب استعمال كل واحد منهما و يراد به الاثنان.

و الحاصل أن الإنسان يحتاج إلى تطهير ما سبق، و طهارة المستقبل، فالاستغفار وضع للأول، و التوبة للثاني، و إن استلزم كل واحد الآخر يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا فإنه إن استغفرتم و تبتم تفضل عليكم بالمتاع الحسن من رزق و أثاث و رياش، و حسنه بجماله الذاتى و أن لا يكدره قلق و مرض و ما أشبههما إلى أجل مُّسَمًّى وقت مسمى عنده، و هو منتهى عمركم و يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ فمن أوتى بالفضل عن الاستغفار و التوبة آتاه الله سبحانه فضلا و زيادة على المتاع الحسن، فالمطيع له المتاع الحسن و المطيع الذى يزيد فى طاعته على أصل الواجب بالمندوبات و نحوها يعطى أزيد على قدر فضله و إن تَوَلَّوْا أى تعرضوا و أصله «تولوا» بحذف إحدى التاءين - على القاعدة - و «التولى» بعدم الإيمان أو عدم الاستغفار و التوبة فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ هو يوم القيامة، الذى تعظم الأحوال فيه و تكبر، فإن كان التولى بالمعصية كان الخوف بمعناه، فإن العاصى يخاف عليه، لا إنه يقطع بعدابه، لاحتمال خلاصه بالعمو و الشفاعة، و إن كان التولى بالكفر كان لفظه «الخوف» من التواضع فى الكلام لمن لا يعتقد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٣

[سورة هود (١١): الآيات ٤ الى ٥]

إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَ يَتَخَفُوا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

[٥] إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ رجوعكم، و معناه إلى حسابه و جزائه رجوعكم بعد الموت وَهُوَ سبحانه عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يقدر على إحياء الأموات، و محاسبتهم و جزائهم و قد اشتملت هذه الآيات على التوحيد و النبوة و المعاد، و تعديل السلوك فى الحياة.

[٦] و يواجه هذا الكتاب الحكيم و هذا الرسول البشير النذير جماعة من الناس بالإعراض بحنى رؤوسهم و ثنى صدورهم كما يفعل كل من يريد أن يخفى نفسه منك و لا يعتنى بك و بكلامك ألا فلينتبه السامع إِنَّهُمْ أى الكفار يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ يطوونها و يدخلون بعض أجزاءها فى بعض كالمطرق الشديد الإطراق لَيْسَ يَتَخَفُوا يطلبون بذلك تخفيهم مِنْهُ من الله أو من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله و سلم ألا فلينتبه السامع حِينَ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يتغطون بنياهم، فإن الإنسان المعرض يتلفح بثوبه، إما بأن يضعه على رأسه، أو يخفى به بعض جسده، و لعل بعضهم كان يفعل ذلك إظهارا لإعراضه حين يقرأ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله و سلم القرآن. يَعْلَمُ اللَّهُ مَا يُسِرُّونَ يخفون و يعلم الله ما يُعْلِنُونَ عند ما يستغشون نياهم إِنَّهُ سبحانه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أى الصفات و الأسرار الكامنة فيها، فلا ينفعهم ثنى الصدور و استغشاء الثياب فى تخفيهم عليه سبحانه، فإنه العالم بكل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٥

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء الثانى عشر من آية ٧ من سورة هود الى آية ٥٣ من سورة يوسف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٧

[سورة هود (١١): الآيات ٦ إلى ٧]

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

[٧] إنه سبحانه عالم بكل شيء، و لو لم يعلم كل شيء لم يقدر على إيصال الرزق لكل دابة صغيرة أو كبيرة و ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ «الدابة» كل حيوان يدب على وجه الأرض، و هذا من باب المثال، و إلا فمن الحيوانات ما لا يدب، كما أن منها ما ليس في الأرض إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا و لعل تخصيص الرزق بالذكر، للزومه عدة أمور من علم و حكمه و قدره و غيرها، و لتكرره كل يوم - غالباً - وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا مستقر تلك الدواب و مُسْتَوْدَعَهَا و لعل الأول عبارة عن كل محل تقرب فيه، و لو لم يكن مكانها، و الثاني محلها الذي هو عيشها و منزلها.

و قيل في ذلك أقوال أخرى كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ أى إن جميع ذلك بالإضافة إلى أنها معلومة لله سبحانه مدرجة في كتاب واضح، و لعله هو اللوح المحفوظ.

[٨] وَهُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ، و قد جرت حكمه الله سبحانه على الخلق التدريجي كما نشاهده في النبات و الحيوان و الإنسان، و كذلك كان خلق السماء و الأرض، و خصوصية ستة أيام كخصوصية الآماد المعينة في سائر الأشياء كتسعة أشهر مثلاً للجنين. و الظاهر أن المراد: مقدار ستة أيام، إذ لم يكن في ذلك الوقت يوم بمعناه الحالى و كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ فقد كان سلطانه سبحانه و تصرفه - و هو المتبادر من العرش كما يقال: عرش الملك الفلانى من البلاد الكذائية إلى البلاد الكذائية - على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٨

[سورة هود (١١): آية ٨]

وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) الماء، قبل خلق السماوات و الأرض، فإن الله قبل خلق السماوات و الأرض خلق ماء ثم كَوَّنَ الكون، و أما لم ذلك؟ فعلمه لدى علماء الغيوب لِيَبْلُوكُمْ يختبركم و يمتحنكم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا إن خلق السماوات و الأرض كان استعداداً لإمكان خلق الإنسان ليمتحن، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «خلق الأشياء لأجلك».

أما خصوصية «الستة» و كون العرش على الماء، فهو من توابع الخلق لأجل الامتحان، لا من صميمه - كما يظهر لنا من السياق - كأن تقول: «هيات لولدى الدار الفلانية فى سنة، لأسكنه فيها». ثم إن ذلك كان لأجل امتحان البشر و ليظهر أيهم أحسن عملاً، حتى يكون الجزاء وفق الامتحان، و من الغريب - إذن - أن ينكر أحد الجزاء و لَئِنْ قُلْتُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ للحساب و الجزاء لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أى تمويه واضح، لا حقيقة له.

[٩] إنهم يكذبون بكل شيء لم يروه، و قد وعدناهم بالعذاب لكنه تأخر عنهم، فيستعجلونه استهزاء، و ينكرونه كما ينكرون البعث و لَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بتكذيبهم للرسول و إنكارهم لله سبحانه إلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ «الأمه» بمعنى «الحين» أى إلى أجل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٩

[سورة هود (١١): آية ٩]

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُفُورٌ (٩)

و وقت معين عدت أيامه في علم الله سبحانه لمصالح خاصة ليقولن على وجه الاستهزاء: ما يحبسهُ أي: أي شيء يؤخر هذا العذاب الموعود عنا إن كان الوعد حقا، فتأخيره دليل على كذبه ألا فلينتبه السامع يوم يأتيهم العذاب ليس مضيرُوفاً عنهم لا يقدر أحد على صرفه عنهم، بل يأخذهم ويهلكهم و حينذاك حاق بهم أحاط بهؤلاء المكذبين ما أي العذاب الذي كانوا به يستهزؤون فلا منجى لهم و لا- مهرب. أما تأخير العذاب فلاجل إيمان من يؤمن، ممن يعلم الله إيمانه منهم، و لينشأ بعض الذراري من أصلاب الكفار، و إنما يأخذ الله سبحانه بعذاب الاستئصال من لم يجد منه خيرا إلى الأبد.

[١٠] إن الإنسان عجول في حكمه و قلبه فهو يستعجل العذاب، كما أنه ييأس لمجرد نزول البلية، و الفخر بمجرد نزول النعمة و لئن أذقنا الإنسان منا رحمةً أنزلنا إليه رحمة ذاقها، من صحه أو مال أو ولد أو نحوها. و المراد ب «الذوق» هنا مطلق الإدراك، فإنه يستعمل فيما يتذوق باللسان، و فيما يدرك بالحواس الظاهرة، و فيما يدرك و لو بالحواس الباطنة، كما أن الرؤية كذلك، تقول: رأيت وجه زيد، و رأيت خشونة الحصير، و رأيت الله أكبر كل شيء ثم نزعناها أي سلبنا تلك النعمة منه من الإنسان لمصلحة اقتضته إنه أي الإنسان ليؤس ذو يأس و قنوط كفورٌ يكفر بالله و ييأس من روحه و رحمته.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٠

[سورة هود (١١): الآيات ١٠ إلى ١٢]

وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعِيدَ ضَرَاءَ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)

[١١] و لئن أذقناه جعلناه يتذوق و يدرك، نعمة بعيد ضراء مسته ليقولن ذهاب السيئات عنى فإنه لفرح فخور (١٠) إلا الذين صبروا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة و أجر كبير (١١) فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك و ضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كتاب أو جاء معه ملك إنما أنت نذير و الله على كل شيء وكيل (١٢)

[١٢] إلا الذين صبروا على الشدة فلم يكفروا، و على النعمة فلم يبظروا، فإن النعمة تحتاج إلى الصبر، كما أن البلية تحتاج إليها، و رب إنسان أنعم الله عليه فلم يصبر على النعمة حتى بدلها كفرا و عملوا الصالحات فلم يعملوا بالسيئات عند النعمة أو البلية أولئك الصابرون لهم مغفرة غفران ذنوبهم و أجر كبير في الدنيا بالسعادة، و في الآخرة بالجنة و الرحمة و الرضوان.

[١٣] ما هو موقف الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أمام هؤلاء الكفار الذين يقولون عن البعث أنه سحر مبین، و يكفرون عند الشدة، و يبظرون عند النعمة؟ إنه لا بد و أن يضيق صدره، خصوصا و أنهم يطلبون منه ما لا يرتبط بالرسالة تعنتا.

و

قد روى أن رؤساء مكة من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨١

يا محمد! إن كنت رسولا فحول لنا جبال مكة ذهابا، أو اثنتا بملائكة يشهدون لك بالنبوة. فنزلت هذه الآية «١».

و في التأويل،

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى عليه السلام: إنى سألت ربي أن يؤاخي بينى و

بينك ففعل، و سألت ربي أن يجعلك وصيي ففعل، فقال بعض القوم: والله لصاع من تمر في شئ بال أحب إلينا مما سأل محمد ربه، فهلاً سأله ملكا يعضده على عدوه، أو كنزا يستعين به على فاقتة. فنزلت (٢):

فَلَعَلَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ التَّنْقِيسِ لِأَلْهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَتَسْخِيفِ عِقَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، كَأَن لَّا تَقْرَأُ بَعْضَ آيِ الْقُرْآنِ الَّتِي فِيهَا هَذِهِ الْأُمُورُ، خَوْفًا مِنْ أذى الْكُفَّارِ وَاسْتِهْزَائِهِمْ وَصَائِقٍ بِهِ بِذَلِكَ الْوَحْيِ صَيَّرُوكَ فَإِنِ الْإِنْسَانُ إِذَا هَمَّهُ أَمْرٌ ارْتَفَعَتْ دَرَجَةُ حَرَارَتِهِ مِمَّا يَتَطَلَّبُ هَوَاءَ كَثِيرًا، وَفِي النَّفْسِ الْعَمِيقِ تَنْتَفِخُ الرَّئِثَةِ كَثِيرًا مِمَّا يَسْبَبُ ضَيْقَ الصَّدْرِ عِنْدَ انْتِفَاحِهَا أَنَّهُ يَقُولُوا أَى كَرَاهَةٌ أَنْ يَقُولَ الْكُفَّارُ: لَوْ لَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ أَى لِمَاذَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَثُرَ مِنَ الْمَالِ لَيْسْتَعِينَ بِهِ عَلَى فَقْرِهِ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلِكٌ لِيَشْهَدَ بِصَدَقِهِ، فَإِنِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا ذَكَرَ آلَهُمْ وَنَقَائِصَهُمْ قَابَلُوهُ بِالْاسْتِهْزَاءِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ «لَوْ لَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلِكٌ» يَرِيدُونَ بِذَلِكَ كَفَّهُ عَنِ بَعْضِ الْوَحْيِ.

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٠٣.

(٢) الكافي: ج ٨ ص ٣٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٢

[سورة هود (١١): آية ١٣]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)

وهنا يرشده سبحانه أنه لا يحتاج إلى كنز أو ملك إنما أنت نذير تنذر الناس، والمنذر لا يحتاج إلى كنز، وإنما طالب المال يحتاج إليه، كما أنه لا يحتاج إلى الملك، بل إنه بحاجة إلى التصديق، وقد كانت معه صلى الله عليه وآله وسلم أدلة الصدق، من المعجزات الباهرات والله على كل شئ وكيل فهو الموكل بهم، والمتصرف في أمورهم، و«الوكيل» هو العارف بالصلاح دونهم، فما يفعله من عدم تلبية مثل هذه الخوارق إنما ذلك من صلاحهم وإن لم يعرفوا.

[١٤] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ أَى بل يقولون إن الرسول افترى القرآن على الله سبحانه ونسبه إليه كذبا مع أنه ليس من عنده قل يا رسول الله لهم:

إن كان القرآن من كلامي وليس من كلام الله سبحانه فأتوا بعشر سورٍ مثله مُفْتَرِيَاتٍ أَى مختلقات من عند أنفسكم، فإنه لو كان من كلام البشر لتمكن البشر من الإتيان بمثله.

وليس لأحد أن يقول كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الدرجة الأولى في البلاغة، لذا لم يقدرُوا أن يأتوا بمثله. إذ كونه بالدرجة الأولى لا تمنع أقرانه أن يأتوا بجزء من بلاغته. ومن المعلوم بأن القرآن كبير فليأتوا بمثل بعضه، كما أن كون أحد المهندسين أقوى من غيره في التصميم ورسم الخرائط، ليس معناه أن سائر المهندسين لا يتمكنون حتى ولو بتخطيط تصميم واحد كتصميمات ذلك المهندس الكثيرة، بل معناه أنه من حيث المجموع أقدر من غيره. ثم لو كان افتراء لزم - عقلا - تعجيز الله له، وإلا لزم الإغراء بالجهل، ولذا لم يدع أحد النبوة كاذبا إلا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٣

[سورة هود (١١): آية ١٤]

فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

فضح كما نرى الشئ الكثير منه في التاريخ.

وَادْعُوا أَيُّهَا الْمَكْذِبُونَ مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِمَنْصَرْتِكُمْ فِي الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِ الْقُرْآنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ افْتَرَاهُ، وَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[١٥] فَأَلَمَ يَشْتَجِبُوا لَكُمْ أَي إن لم يجبكم هؤلاء الكفار إلى الإتيان بمثل عشر سور، و لعل الإتيان ب «لكم» خطابا للمسلمين، لأجل أن المسلمين كانوا يحتاجون الكفار بمثل هذه الاحتجاجات، و الكفار لم يكونوا يتمكنون من الإجابة فأعلموا أيها المسلمون أنما أنزل القرآن بعلم الله فإن علمه وحده كفيلا بأن يأتي بشيء لا يقدر عليه البشر، أما غيره فلا علم له بحيث يعلم ما لا يقدر عليه كل البشر حتى يتحداهم. ومعنى «اعلموا» أن ذلك العجز دليل على أنه من الله سبحانه، إذ لو لم يكن من عنده سبحانه لشحذ الكفار أفكارهم، و عقدوا ندوات و جاءوا أخيرا بمثل القرآن، لتوفر الدواعي لذلك، فإن القرآن كان السلاح الوحيد الذي يتحداهم، و يبنى عليه إبطال كل مزاعمهم، فلو ملكوا أن يأتوا بمثل القرآن و لو بعد جهد و صعوبة، لأتوا حتى يستريحوا، و تكون لهم حجة على مزاعمهم بأن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليس صادقا فيما يقول.

وَاعْلَمُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّ لَوْ كَانَ لَهُ شَرِيكٌ، لَتَمَكَّنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٤

[سورة هود (١١): آية ١٥]

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥)

من إسعاف هؤلاء المشركين به ليأتوا بمثل القرآن، فإذا لم يأتوا به دل ذلك أن الله واحد لا شريك له و لا مثل فهل أأنتم بعد قيام الحجة عليكم مُسْلِمُونَ لكنهم لم يسلموا، بل ظلوا يحاربون الإسلام حتى خضعوا بالقوة.

ثم إن القرآن تحدى الكفار مرة بالإتيان بسورة، و مرة بالإتيان بعشر سور، و مرة بالإتيان بمثل القرآن كله، فهل كان التحدى بهذا الترتيب؟ قاله بعض المفسرين، و قال آخرون: إن التحدى بعشر سور كان بعد التحدى بسورة واحدة، فما السر؟

الظاهر أن المراد: عدم إمكانهم أن يأتوا بشيء مثل القرآن، سواء سورة واحدة منه أو أكثر، فإن ذلك خارج عن موضوع التحدى، و إنما اختلف حسب المقامات، و ذلك كما أن الطبيب إذا أراد تحدى من لا معرفه له بالطب و هو يدعى ذلك: يقول: «اشف مريضا، اشف عشرة مرضى، اشف من فى البلد»، فإنه لا يريد إلا التحدى، لا عدد المرضى الذين يريد المدعى علاجهم.

[١٦] إن الكفار الذين لم يرضخوا للقرآن و الحق، إنما كانوا يخافون منه على منافعهم الدنيوية من رئاسة و مال و ما إليهما، فكيف يستعد من هو سيد قومه فى قریش أن يذعن للرسول صلى الله عليه و آله و سلم الذى يزعم أنه دونه فى المجتمع، و كيف يرضخ الرئيس الدينى اليهودى الذى تجبى إليه ثمرات عمل ألوف اليهود أن يترك كل ذلك، ليكون له ما للمسلمين و عليه ما عليهم. و لذا يذكرهم سبحانه بهذه الحقيقة الكامنة فى نفوسهم مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَي الْحَيَاةَ الْقَرِيبَةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٥

[سورة هود (١١): الآيات ١٦ إلى ١٧]

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْنَا نَارًا مُوعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)

و زينتها أى بهجتها و زخارفها، و هو معرض عن الآخرة نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا أى: نوف لهم جزاء أعمالهم، فإن كل عمل فيه جزاء و لا بد أن يرى الإنسان - صالحا أو طالحا - جزاء عمله و هم فيها فى الحياة الدنيا لا يُبْخَسُونَ لا ينقصون منها شيئا. فإن «البخس» بمعنى النقصان.

[١٧] أُولَئِكَ الْمُرِيدُونَ لِلدُّنْيَا فَقَطْ، هُم الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا فِي الدُّنْيَا عَمَلًا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْجَنَّةَ، بَلْ عَمِلُوا مَا اسْتَحَقُّوا بِهِ النَّارَ وَ الْعَذَابَ وَ حَبِطَ بَطُلٌ مَا صَنَعُوا فِيهَا مَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ، إِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْمَالَهُمْ لَلَّهِ سَبْحَانَهُ حَتَّى يَسْتَحَقُّوا عَلَيْهَا الثَّوَابَ، وَ حَيْثُ أَنَّ الثَّوَابَ لَا يَزِمُ طَبِيعَى لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، عَبْرَ ب «الحبط» بالنسبة إلى ما لا ثواب له - نظرا إلى نوعه - و إن كان

الأمر ليس من الحبط حقيقةً وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَإِنْ مَبْرَاتِهِمْ بَاطِلَةٌ لَا ثَمْرَةَ لَهَا، إِذْ لَمْ تَكُنْ جَامِعَةً لَشَرَايِطِ الصَّحَّةِ.

[١٨] صنف من الناس يريد الحياة الدنيا وزينتها، و صنف من الناس على بينة من ربه، فهو يعرف طريقه و يؤمن بالآخرة كما يؤمن بالأولى - فطرة- و عنده شاهد يشهد له بصدق فطرته، و هو الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ و قد سبقه مصدق بطريقته كتاب موسى عليه السَّلام. إن هؤلاء الصنف يؤمنون بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لأنهم ينظرون إلى فطرتهم، و إلى الشاهد، و إلى الوثيقة السابقة. أما غيرهم فالنار موعدهم. هذا هو ظاهر الآية، و يؤيده ما دلَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٦

على حجية العقل و صحة حكم الفطرة، فهو كينته من الرب.

؟ و قد روى عن الإمام زين العابدين عليه السلام تفسير «الشاهد» في هذه الآية بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ «١».

و في المقام روايات أخرى و احتمالات، أما الروايات فالظاهر أنها من باب ذكر المصاديق، كما

روى أن الشاهد هو الإمام المرتضى عليه السلام

«٢». و أما الاحتمالات فلا حجية فيها ما لم توافق الظاهر.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ اسْتَفْهَامَ تَقْرِيرِي، أَى هَلْ مِنْ كَانَ عَلَى بَرَهَانٍ وَ حِجَّةٍ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَهُ نُورٌ فَطْرِي يَرَى الْحَقَّ وَ يُؤْمِنُ بِهِ؟ وَ لَفِظَةُ «عَلَى» لِلتَّشْبِيهِ بِالذِّي يَرْكَبُ الْمَرْكَبَ الْفَارَهُ، فِي مَقَابِلِ الرَّاجِلِ وَ يَتَلَوُّهُ أَى يَعْضُدُهُ وَ يُؤَيِّدُهُ شَاهِدٌ مِنْهُ أَى شَاهِدٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ هُوَ الرَّسُولُ، يَشْهَدُ لَهُ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ فِطْرَتُهُ وَ هَدَاهُ إِلَيْهِ عَقْلُهُ، مِنْ أَنْ لِلْكَوْنِ خَالِقًا، وَ أَنَّهُ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَجَازِي كَلًّا بِعَمَلِهِ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْفِطْرَةُ.

وَ مِنْ قَبْلِهِ أَى قَبْلَ هَذَا الشَّاهِدِ كِتَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ طَرِيقَتِهِ، فَلَهُ مُؤَيِّدٌ فِعْلًا وَ مُؤَيِّدٌ سَابِقًا إِمَامًا وَ رَحْمَةً حَالَانِ لِكِتَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام أَى أَنْ كِتَابَ مُوسَى إِمَامٌ يُؤْتَمُّ بِهِ فِي أُمُورِ الدِّينِ،

(١) راجع الكافي: ج ١ ص ١٩٠.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٧

[سورة هود (١١): آية ١٨]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)

و رحمة من الله على عباده، إذ يهديهم إلى الطريق.

و ذكر كتاب موسى، لأنه مقبول لدى اليهود و النصارى، و لأن عيسى عليه السلام كان كمتهم لكتاب موسى، فالتوراة هي الأصل. و الحاصل المستفاد: أن التقدير: «أفمن كان على بينة من الله، و له شاهد على حقيقته، و يعتقد به شاهد آخر، كمن أراد الحياة الدنيا و زينتها؟». و قد حذف جواب الاستفهام لدلالة الكلام عليه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ وَصَفُوا بِأَنَّهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ بِاللَّهِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الَّتِي يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهَا وَ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ وَ الْفِئَاتِ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا أَمْ مِنْ غَيْرِهِمْ فَالْنَّارُ مَوْعِدُهُ وَ مَصِيرُهُ وَ مُسْتَقَرُّهُ فَلَا تَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي مَرِيئِهِ وَ شَكِّ مِنْهُ مِنَ الْمَوْعِدِ، أَوْ مِنَ الْقُرْآنِ وَ مَا يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ. وَ الْخُطَابِ وَ إِنْ كَانَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَّا أَنْ الْمَرَادُ بِهِ سَائِرِ النَّاسِ إِنَّهُ أَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَوْعِدِ، أَوْ مَا يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ- الْمَعْلُومُ مِنَ السِّيَاقِ- الْحَقُّ مِنْ قَبْلِ رَبِّكَ أَوْ أَنَّ الْخَبَرَ الَّذِي أَخْبِرْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَا كَذِبَ فِيهِ وَ لَا تَحْوِيرَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، بَلْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذِبٌ وَ افْتِرَاءٌ.

[١٩] وَمَنْ أَظْلَمُ أَى لَا أَحَدَ أَكْثَرَ ظُلْمًا، وَإِنْ كَانَ بِصُورَةِ الْإِسْتِفْهَامِ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَى نَسَبَ إِلَى اللَّهِ الْكُذْبَ افْتِرَاءً، وَقَدْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٨

[سورة هود (١١): آية ١٩]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)

ذكر ذلك بمناسبة ما كان المشركون ينسبونه إلى النبي من افتراءه القرآن ونسبته إلى الله سبحانه، ولا يخفى أن عبارة «من أظلم» المستعملة في القرآن كثيرا، يراد بها الظلم النسبي غالبا، لا- الحقيقي أولئك المفترون على الله يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَى يستحضرون في المحكمة التي يعقدها الله سبحانه، إذ لا مكان له تعالى ولا يمكن رؤيته وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ جَمْعُ شَاهِدٍ، والمراد بهم إما الأنبياء أو الملائكة أو المؤمنون هُوَ لَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ونسبوا إليه ما لم يكن منه، فلا مجال للإنكار ولا محل للفرار، ولا يمكن لهم أن يحلفوا كما يحلف المشركون، قائلين: (وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١»، ألا فليتبته السامع لَعْنَةُ اللَّهِ طرده و عذابه عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَظْلَمُونَ أَنفُسَهُمْ وَ غَيْرَهُمْ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ هَذَا إِمَّا تَتَمُّهُ كَلَامُ الْأَشْهَادِ، أَوْ ابْتِدَاءُ كَلَامِ.

[٢٠] ثم وصف سبحانه الظالمين، بقوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَى يمنعون الناس عن الاهتداء و سلوك سبيل الله، فيغرونهم بإلقاء الشبه عليهم، و إثارة شكهم و كفرهم و عصيانهم بترك أوامره و نواهيه وَيَبْغُونَهَا أَى يريدون أن تكون السبيل عِوَجًا زِيغًا عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ وَ عَدُولًا عَنِ الصَّوَابِ، هَذَا لَوْ رَجَعَ الضَّمِيرُ إِلَى «السَّبِيلِ»- وَ هِيَ مُؤَنَّثٌ

(١) الأنعام: ٢٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٩

[سورة هود (١١): آية ٢٠]

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠)

سماعى- أما لو رجع إلى سبيل الله، كان المعنى: أنهم يزيدون و ينقصون في سبيل الله و أحكامه ليظهروا للناس أنها منحرفة زائفة، فيصرفوهم عنها وَهُمْ بِالْآخِرَةِ أَى بالدار الآخرة، من البعث و الحساب و الجزاء هُمْ كَافِرُونَ غير مقرين.

ولا- يخفى أن هذه الأوصاف، تنطبق على الذين يفترون على الله الكذب، فإنهم الصادون عن السبيل، الجاحدون بالآخرة، و إن أقر بعضهم بها لسانا، فلو لا جحودهم قلبا لم يصدوا عن طريقه سبحانه.

[٢١] أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَّوْا عَنِ السَّبِيلِ وَ كَفَرُوا بِالْآخِرَةِ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أَى لَمْ يَكُونُوا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ أَنْ يَعْبُرُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ إِرَادَتِهِ، فِيهْدِي النَّاسَ عَلَى رِغْمِهِمْ، وَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُمْ وَ يَهْلِكَهُمْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُهُمْ عَسِيرًا عَلَيْهِ، فَهَمَّ فِي قَبْضَتِهِ وَ تَحْتِ قُدْرَتِهِ، وَ كَأَنَّ ذَكَرَ «فِي الْأَرْضِ» لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَا- يَتِمَكَّنُونَ مِنْ تَعْجِيزِهِ فِي مَحَلِّ سَيِّطَرَتِهِمْ وَ إِمْكَانِيَّاتِهِمْ، فَكَيْفَ بِالْآخِرَةِ الَّتِي يَحْشُرُونَ فِيهَا فِرَادَى بِلَا- مَالٍ وَ لَا جَاهٍ وَ لَا قُوَّةٍ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ أَوْلِيَاءٍ وَ أَنْصَارٍ يَنْصُرُونَهُمْ وَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْأُمُورُ، وَ يَتَوَلَّى كُلَّ شَيْءٍ، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِؤْلَاءِ كَارِثَةٌ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْقَذٌ لَهُمْ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ كَفَرَهُمْ بِأَنفُسِهِمْ، وَ عَذَابُ صَدَّهُمْ، وَ كُونَهُمْ سَبَابًا فِي كُفْرِهِمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ أُخْرَى: (زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٠

[سورة هود (١١): الآيات ٢١ الى ٢٢]

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ (٢٢)

يُفْسِدُونَ) (١)، فقد عاشوا صمًا عميا و ما كانوا يَشِيءُ تَطِيْعُونَ السَّمْعَ فقد كانوا يقولون: إنا لا نستطيع أن نسمع كلام الله، يريدون إظهار الضجر والاستهزاء، لا أن المراد عدم استطاعتهم حقيقة و ما كانوا يُبْصِرُونَ الأدلة و البراهين، قد سدوا أسمعهم عن كلامه سبحانه، و أغمضوا عيونهم عن رؤية آياته، لقد عاشوا مغلقى البصائر، كأن ليس لهم سمع و لا بصر.

[٢٢] أولئك البعداء الصادون الضالون الذين خسروا أنفسهم فإن النفس، كراس مال يجب أن يتحفظ الإنسان بها عن العطب و يجلب بها الربح، و هؤلاء قد خسروها، حيث عطبت نفوسهم، و لم يحصلوا على ربح و ضلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَ فقد تبدد كذبهم و افتراؤهم، و ضاع عنهم فلم ينجهم، فإن عملهم هلك و ضاع، حيث نجا سائر المؤمنين بأعمالهم الطيبة.

[٢٣] لا جرم «لا» كلمة نفى و «جرم» معناه الكسب، أى لا كسب لهم فى النفع بل كسبهم خسران الدنيا و الآخرة، أو بمعنى «لا محالة» و «لا بد» أَنَّهُمْ فى الآخرة هُمُ الْأَخْسِرُونَ أى الأكثر خسارة من غيرهم، لشدة عذابهم، و لا شك أن الكفار الذين لهم تلك الأوصاف المتقدمة من أكثر الناس عقابا.

(١) النحل: ٨٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩١

[سورة هود (١١): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ اخْتَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَشْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

[٢٤] هكذا كان حال الكافر المتصف بتلك الصفات السيئة، أما المؤمنون فحالهم أحسن حال إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالله و بما يلزم الإيمان به و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة. و المراد هنا أعم من فعل الواجبات و ترك المحرمات، فإن من لم يترك الحرام لا يقال له أنه يعمل الصالحات و إن أتى بكل واجب. كما أنها تشمل عامل المستحبات و تارك المكروهات و اخْتَبُوا أى أنابوا و تضرعوا إليه، فإن الإخبات بمعنى الطمأنينة، أى اطمأنوا إلى رَبِّهِمْ و خشوا و خضعوا له، فإن المؤمن خاضع لله، مطمئن إلى أحكامه و تقديراته، هادئ النفس لما يترقبه من نصرته و عونهُ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ المالكون الملازمون لها هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ باقون أبدا دائما.

[٢٥] ثم مثل سبحانه الكافر و المؤمن بمثل محسوس فقال: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ فريق الكافرين و فريق المؤمنين، أما الكافرون فهم كالأعمى بصرا و الأصم أذنا، و أى عمى أعظم من عدم إِبْصَارِ آياتِ الله و براهينه و حججه، و أى صمم أعظم من عدم استماع أوامره و نواهيه و إرشاداته و أما المؤمنون فهم كالبصير و السميع فكما أنه يرى و يسمع، كذلك المؤمن قد تفتحت بصيرته فىرى الآيات الكونية، و انفتح سمع قلبه فيسترشد بالموعظة و يسمع الحق سماع تفهم و عمل هَلْ يَشْتَوِيَانِ هُؤُلاءِ و هُؤُلاءِ مَثَلًا أى من حيث المثل، استفهام إنكارى، أى لا يستوى السميع البصير، و الأعمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٢

[سورة هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ تَابِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)

الأصم، عند أحد، فكذلك المؤمن و الكافر أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أى تتذكرون- حذف إحدى تاءيه للقاعدة فى باب التفعّل- و هو استفهام إنكارى يراد به ردع الكافرين، كيف لا يفكرون فى هذا الأمر الواضح، و يعتبرون به.

[٢٦] و بعد ما بين سبحانه فى هذه السورة حقائق كبرى حول المبدأ و المعاد و الرسول و الأمة، و أن من كذب فله الهلاك و الدمار و

العذاب و النار، و من آمن فله خير و سعادة و جنات النعيم، ذكر جملة من القصص السالفة التي تثبت احتجاج الأنبياء مع أممهم حول هذه العقائد، و ما انجرت إليه أمورهم، من تكذيب و اضطهاد، و ما أعقب تكذيب الأمم من الهلاك و العقاب و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال لهم: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَي منذر واضح، أنذركم أن إذا كفرتم و عملتم بالمعاصي تجازون بعذاب الدنيا و الآخرة.

[٢٧] أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ متعلق ب «نذير» أي إنذارى هو أن تتركوا عبادة ما دون الله من الأصنام إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ مؤلم موجه، و إنما قال «أخاف» لأنه لم يكن معلوما أنهم يموتون كفاراً لعلمهم يتوبون، أو ترفيقاً في الكلام مع المنكر المعاند.

[٢٨] فَقَالَ الْمَلَأُ أَي جماعة الأشراف- لأنهم يملئون العيون جلالاً و القلوب هيبة- و حيث أن المعارضين للأنبياء و المصلحين دائماً هم تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٣

الطبقة المستعلية، يأتي بيان حوارهم، و إنما فغيرهم أيضا كان يجادل و يحاور الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ صفة «الملاء»، و ليس المراد ب «كفروا» تجدد الكفر منهم، بل كونهم كفاراً، فإن فعل الماضي ينسلخ عن الزمان غالباً- في مثل هذه الموارد- و لا مفهوم للوصف، بأنه كان هناك عدّة لم يكفروا، لأنه و صف توضيحي لا احترازي: ما تَرَاكَ يَا نُوحُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا فكيف تدعى النبوة و الرسالة من الله سبحانه. فقد كانت كل أمة تظن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يلزم أن يكون من الملائكة، لا لبرهان عندهم، بل لرفعه مقام الرسالة في نفوسهم، لأنه لا يمكن أن يكون بشراً مثلهم في حين يدعى أنه متصل بالسماء و واسطة بينهم و بين الله العظيم و ما تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْتَفِعُوا بِكَ لِيُبَيِّنَ لَكَ آيَاتِهِ وَ يُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ أَنْتَ كُنْتَ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَ أَنْتَ كُنْتَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ الخسيس الحقير في كل شيء، فكيف يؤمن الأشراف في صف الأراذل.

و قد كان الغالب أن الفقراء الذين ليس لهم ثروة و منصب هم أسرع الناس قبولاً إلى اتباع كل حق و باطل، لأن المال و المنصب و الكبرياء تمنع عن الاستجابة، و تسبب القسوة و الغلظة، بخلاف الجماهير و الفقراء من مختلف الطبقات و الأعمال و ما أشبه، فإنهم أقرب إلى البساطة، و الفطرة السليمة.

في حال كونهم بَادِيَ الرَّأْيِ أَي ظاهر الرأي لا عمق لرأيهم، حتى يتدبروا و يتفكروا في الصدق و الكذب، و العواقب و المصير،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٤

[سورة هود (١١): آية ٢٨]

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)

مشتق من «بدا» بمعنى ظهر و ما ترى لكم يا نوح و للمؤمنين بك علينا من فضل في ثروة أو مكانة اجتماعية، فكيف نتبعك؟ و قد ظنوا أن الرسالة من جنس هذه الأعراض الدنيوية، فاللازم أن تكون الفئة المؤمنة من أصحاب الأموال و المناصب، و قد غفلوا عن أن الرسالة من المناصب الروحية لا يتحملها إلا من اختاره الله و جعل نفسه أكمل الأنفس، و ليست من المناصب الدنيوية التي تحتاج إلى ثروة و كبرياء. و هكذا هم أهل الدنيا يستصغرون دائماً أهل الدين، إذا خلت أيديهم من المال و الجاه.

بَلْ نُنَبِّئُكُمْ يَا نُوحُ أَنْتَ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ كَاذِبِينَ فِي دَعْوَى النَّبُوَّةِ وَ مَا أَتَيْتَ بِهِ، وَ تَبِعَكَ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ.

[٢٩] قَالَ نُوحٌ فِي جَوَابِهِ لِكُفْرَانِهِمْ: يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أَخْبَرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي عَلَىٰ بَرهَانٍ وَ حجة يشهدان لي بصحة الدعوى و صدق النبوة، و بآني أتيت بالمعجزات، أ فلا تصدقونني؟ و تنسبونني إلى الكذب أيضا وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي أَي جعلني نبياً و خصني بهذه المنزلة الرفيعة من بين البشر فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ خفيت عليكم لعدم تهيوكم لقبول تلك البينة، أ نُلْزِمُكُمْوهَا نجبركم على المعرفة و البينة وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ أَي تكرهون البينة و المعرفة و لا تتدبرونها، و الحاصل أن لي بينة، لكن أنتم تكرهون رؤيتها و التدبر فيها، و إنما لا أُلْزِمُكُمْ وَ أَجْبِرُكُمْ عَلَى التَّدْبِيرِ لِأَنَّهُ «لا إكراه في الدين».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٥

[سورة هود (١١): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

وَايَا قَوْمٍ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)

[٣٠] وَيَا قَوْمٍ لِمَاذَا تَمْتَعُونَ عَنْ إِجَابَتِي وَ لَيْسَ فِي ذَلِكَ تَكْلِيفَ لَكُمْ بِدَفْعِ الْأَجْرِ حَتَّى تَخَافُونَ مِنْ ذَلِكَ وَ تَهْرَبُونَ مِنْ دَفْعِهِ، فَإِنِّي لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ عَلَى دَعْوَتِي لَكُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَالًا فَتَسْتَقْبِلُونَ دَعْوَتِي إِنْ أَجْرِي أَى: مَا أَجْرِي فِي التَّبْلِيغِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي أَمَرَنِي بِذَلِكَ، وَ هُوَ الَّذِي يُعْطِينِي الْأَجْرَ وَ الثَّوَابَ عَلَى عَمَلِي وَ قَدْ كَانَ بَعْضُ الْكُفَّارِ سَأَلُوا نُوْحًا بِطَرْدِ الْمُؤْمِنِينَ - الْأَرَادِلَ فِي نَظَرِهِمْ - حَتَّى يَفَكَّرُوا فِي أَمْرِهِ وَ يَلْتَفِتُوا حَوْلَهُ - كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ - لَكِنْ نُوْحًا أَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا لَسْتُ أُطْرِدُهُمْ مِنْ عِنْدِي وَ لَا أَقْصِيهِمْ مِنْ حَوَالِي، وَ لِمَاذَا؟ أَلَيْسُوا هُمْ مُؤْمِنِينَ بِي وَ إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ فَيَجَازِي مِنْ طَرْدِهِمْ بِالْعَذَابِ وَ النَّارِ، كَمَا تَقُولُ: «لَا أَقْطَعُ عِلَاقَتِي بِفُلَانٍ فَإِنَّهُ يَلِاقِي الْمَلِكَ»، تَرِيدُ: فَيَشْكُوكَ عِنْدَهُ وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ الْحَقَّ، فَتَعْلَلُونَ عَدَمَ إِيمَانِكُمْ بِعِلَلٍ وَاهِيَةٍ وَ أَعْدَارٍ سَخِيفَةٍ.

[٣١] وَيَا قَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ بَأْسِ اللَّهِ وَ نَقْمَتِهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَى طَرَدْتُمْ هَوْلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا ذَنْبٌ وَ لَا عَصِيَانٌ، حِينَ يَشْكُونِي خِصْمَائِي عِنْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ تَتَفَكَّرُونَ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى مَا قُلْتَهُ.

وَ هَكَذَا يَكُونُ دَائِمًا الْمُتَكَبِّرُونَ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ لِأَصْحَابِ الرِّسَالَاتِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٦

[سورة هود (١١): آية ٣١]

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا - أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا - أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

وَ الْمُصْلِحِينَ: أُطْرِدُ فُلَانًا وَ فُلَانًا، مِمَّنْ يَرُونَ أَنَّهُمْ فَوْقَهُمْ شَأْنًا. وَ قَدْ دَلَّتِ التَّجَارِبُ أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الْمُخْلِصُونَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَشْعَلَ الْإِصْلَاحِ دُونَ أَوْلِيَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ طَرْدَ جَمَاعَةٍ، فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ لَا يَصْلُحُ لِحَمْلِ شِعْلَةِ الْهُدَايَةِ وَ الْإِصْلَاحِ.

[٣٢] وَيَا قَوْمٍ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ فَاتَمَكَّنْ فَوْقَ قُدْرَةِ الْبَشَرِ بِأَنْ أَبْذِلَ مَا أَشَاءُ، وَ أَفْعَلْ مَا أَشَاءُ وَ لَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ دُونَ إِرْشَادِ رَبِّي الْغَيْبِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْحَوَاسِ وَ الْمَدَارِكِ، حَتَّى أُرِيدَ أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَأَنَا بَشَرٌ كَمَا قُلْتُمْ ذُو إِمْكَانِيَّةٍ بَشَرِيَّةٍ، لَا خَزَائِنَ، وَ لَا غَيْبَ لِي، وَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ لَا أَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَلْتَفِينَ حَوْلِي الَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ «الْأَزْدِرَاءُ» الْإِحْتِقَارَ، أَى الَّذِينَ تَحْتَقِرُونَهُمْ. وَ نَسَبَةُ الْأَزْدِرَاءِ إِلَى الْعَيْنِ لِأَنَّهُمْ إِذَا زَدَرُوهُمْ لَمَّا عَلَيْهِمْ مِنْ أَلْبَسَةِ رِثَةٍ وَ أَطْمَارِ خَلْقِهِ، وَ لَوْ نَظَرُوا إِلَى وَاقِعِهِمْ لَرَأَوْهُمْ كِبَارًا فِي نَفْسِهِمْ، عِظْمَاءَ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَ قَدْ حَذَفَ الْمُتَعَلِّقُ فِي الْكَلَامِ، أَى تَزْدَرِيهِمْ أَعْيُنُكُمْ:

لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا حَيْثُ لَمْ يُعْطِهِمْ مَالًا وَ جَاهًا - كَمَا تَقُولُونَ أَنْتُمْ - فَإِنَّ الْخَيْرَ فِي الْإِيمَانِ وَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ لَا فِي الْمَالِ وَ الْمَنْصَبِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ فَلَقَدْ أَتَاهُمُ الْخَيْرُ كُلَّهُ، حَيْثُ هِيَ نَفُوسًا نَظِيفَةً وَ قُلُوبًا طَاهِرَةً إِنِّي إِذَا إِذَا طَرَدْتَهُمْ، أَوْ قُلْتُ: لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ حَيْثُ ظَلَمْتَهُمْ بِذَلِكَ الْعَمَلِ، أَوْ هَذَا الْقَوْلِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٧

[سورة هود (١١): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُتِرَتْ جِدَالُنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

[٣٣] وَ لَمَّا حَاجَّهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتِلْكَ الْإِحْتِجَاجَاتِ الصَّرِيحَةِ الْمَعْقُولَةِ، لَمْ يَجِدِ الْقَوْمَ إِلَّا الْفِرَارَ عَنِ الْمَحَاجَّةِ، فَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا حَاجَجْتَنَا وَ خَاصَمْتَنَا فَكُتِرَتْ جِدَالُنَا وَ بَحَثْنَا حَوْلَ الْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ وَ مَا إِلَيْهِمَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنَ الْعَذَابِ. فَقَدْ هَدَدَهُمْ نُوحٌ

بعذاب الله إن بقوا في كفرهم وغيهم إن كنت من الصادقين في دعواك النبوة، وأنا إن لم نؤمن عذبنا الله بذنوبنا. [٣٤] قال نوح في جواب استعجالهم العذاب: إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ بِالْعَذَابِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ تَعَذِّبْكُمْ، وليس من عندي حتى أعجله أو أؤجله و ما أنتم بمُعْجِزِينَ أى إن أراد عذابكم فلا تتمكنون من تعجيزه حتى لا يتمكن من العذاب، ولا تتمكنون من صدّ العذاب أو الهرب عن مشيئته سبحانه.

[٣٥] ثم قال نوح عليه السلام: وَلَا يَنْفَعُكُمْ يَا قَوْمِ نُصِيحِي وَإِرْشَادِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِيحَ لَكُمْ وَإِنَّمَا قَتِيدُ النَّصِيحِ بِالْإِرَادَةِ، وقد صدر منه فعلا، تواضعا في الكلام، وكأنه لم ينصح من قبل، لا أنه نصح ولم يفد، أو لأنهم لم يعتبروا كلامه نصحا، فهو يقول: إن صدر مني نصح في المستقبل لا- ينفعكم إن كان الله يريد أن يُغْوِيَكُمْ وإرادة الله إغوائهم، يعنى تركهم وشأنهم، حيث أنهم لما عرضوا عن الحق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٨

[سورة هود (١١): آية ٣٥]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)

تركهم سبحانه وشأنهم، فلم يلفظ بهم الألفاظ الخاصة ليستعدوا للاهتداء، كما تقول: «إن كان الملك يريد إفساد الشعب لا ينفع وعظ الخطباء» تريد تركهم على حالهم حتى يفسدوا بطبعهم، ويعملوا الجرائم لعدم رادع لهم.

وهو تعالى ربكم فهو يعلم دخائل نفوسكم، وأنكم غير صالحين للطفه الخفى وإليه ترجعون يوم القيامة فيجازيكم بسيئاتكم.

[٣٦] أَمْ يَقُولُونَ أَى: بل يقولون، والظاهر من السياق أنه من تنمة المطلب المربوط بحوار نوح مع قومه افتراه على الله في دعواه الرسالة قُلْ يَا نُوْحُ لَهُمْ: إِنْ افْتَرَيْتُهُ أَى كَذَبْتَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا نَقَلْتَهُ عَنْهُ فَعَلَى إِجْرَامِي وَعَقُوبَتِي لِي، لا لكم، فأنتم بريئون من جرمي و افترائي وأنا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ لا أو آخذ بجريمتكم و كفركم.

وهناك احتمال آخر وهو أن يكون ذلك من الالتفات من قصة نوح إلى قصة النبي مع المشركين، فإنهم كانوا يتهمون الرسول بما اتهم قوم نوح نوحا عليه السلام من الافتراء- وحيث كان ذلك من أغراض القصة، جرى به هنا تنبيهها، يرجع إلى تنمة قصة نوح و قومه- فالمعنى: إن هؤلاء المشركين يقولون لك يا رسول الله أنك افتريت على الله سبحانه بنسبة القرآن إليه. و البقية بهذا السياق جاعلا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مكان نوح عليه السلام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٩

[سورة هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْمَكَ بَاعْتِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ (٣٧)

[٣٧] وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ بَعْدَ تِلْكَ الْبَلَاغَاتِ الْكَبِيرَةِ وَالْمَحَاوَلَاتِ الطَّوِيلَةِ، والأمد البعيد أنه لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ بك من قبل فلا رجاء في الباقيين فَلَا تَبْتَئِسْ أى لا تحزن ولا تغتم، من «الابتئاس» وهو افتعال من «البؤس» بمعنى الغم بما كانوا يفعلون من الكفر وأنواع المعاصي، فإن الإنسان إنما يحزن إما لنفسه كيف يكون مصيره مع قومه، وإما للقوم، أما إذا أدى ما عليه بالدعوة مرارا كثيرة فلا حزن لنفسه، كما أنه لو علم أن لا خير فيهم فلا حزن عليهم.

[٣٨] وَاصْنَعِ اعْمَلِ الْفُلْمَكَ هِيَ السَّفِينَةُ لِتَرْكِبَهَا أَنْتَ وَالْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ الطُّوفَانِ بَاعْتِنَا بِمَرَأَىٰ مَنَّا فَإِنَّ «أَعِينَ» جَمْعُ «عَيْنٍ» أَى بِرِعَايَتِنَا وَحِفْظِنَا، حيث نظر إليك وإلى عملك. و من يراقبه الله سبحانه لا يضل ولا يزيغ و وحينا أى تعليمنا لك كيفية الصنع و لا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا لا- تسألني العفو عن هؤلاء الكافرين، و لا تشفع لهم إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ قد حكم عليهم بالغرق و الهلاك، و إنما خاطبه سبحانه بذلك، ليعلم أنه لا يستجاب مثل هذا الدعاء، فلا يتعب نفسه في الطلب و السؤال.

و إن قيل: كيف يجمع هذا الأمر- و هو أن نوحا عليه السّلام كان يريد الدعاء لهم بالخير- مع قوله سبحانه حكاية عن نوح: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) «١»؟

(١) نوح: ٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٠

[سورة هود (١١): آية ٣٨ تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٦٤٩

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)

فالجواب: إن دعاء الخير لمن يحتمل إيمانه في المستقبل، لا ينافي دعاء الشر لمن علم بعدم إيمانه أصلاً، فإن قوله عليه السّلام «من الكافرين» يعنى الذين لا يرجعون عن غيهم و كفرهم، و فوق ذلك (يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) «١»، فلا خير فى نسلهم كما لا خير فيهم .. أما الذين ظلموا فلعله كان يحتمل رجوع بعضهم. و بهذا الخطاب منه سبحانه تبين أنه لا يفيد فيهم الدعاء، و لا يرجعون عن غيهم أبداً، و أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن من قبل.

[٣٩] و جعل نوح عليه السّلام يَصْنَعُ الْفُلْكَ بيده، ينحتها و يسويها، كما يصنع النجار من الأخشاب الأبواب و غيرها و كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ جماعةً مِنْ قَوْمِهِ الذين دعاهم فلم تنفعهم الدعوة سَخِرُوا مِنْهُ استهزؤا منه قائلين: يا نوح صرت نجارا بعد طول الدعوة و ادعاء النبوة، و الجدل و البحث حول الإله و المعاد، استهزاء به و سخرية منه، فكانوا يتضحكون يقول بعضهم لبعض: انظروا إلى هذا المدعى للنبوة كيف ينجر سفينته بهذا الكبر فى اليابسة حيث لا ماء.

قال نوح عليه السّلام فى جوابهم: إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا عَلَى هَذَا الْعَمَلِ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ أى نجازيكم على سخريتكم بسخرية منّا عند نجاتنا و غرقكم. إما سخرية حقيقية، و إما من باب تسمية الجزاء باسم المجزى به، نحو: (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا

(١) نوح: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠١

[سورة هود (١١): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورَ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)

عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) «١»، و (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) «٢».

[٤٠] فَسَوْفَ فى المستقبل تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ يفضحه و يهينه و يذله، و ذلك بالغرق و يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ لا يزول عنه و لا يتحول، و هو عذاب الآخرة الممتد من بعد الموت فى القبر، ثم فى جهنم إلى الأبد.

[٤١] حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا «حتى» غاية لحال نوح و حال قومه، أى بقى نوح يصنع السفينة و بقى القوم على كفرهم يستهزئون منه، حتى حين مجيء أمرنا بإهلاكهم و نجاه المؤمنين و فَارَ التَّنُورَ بالماء، فقد كان فوران التنور بالماء علامة لوقت العذاب كى يحمل نوح عليه السلام فى السفينة المؤمنين قُلْنَا أى أوحينا إلى نوح عليه السلام: احْمِلْ فِيهَا فى السفينة مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ من كل أجناس الحيوانات زوجين ذكر و أنثى، يطلق «الزوج» على الذكر كما يطلق على الأنثى، و قد يطلق على الاثنين معا، فيقال لهما «زوج»، و لما كان يحتمل فى الآية إرادة المعنى الأخير حتى يكون اللازم حمل أربعة من كل جنس، بين «الزوجين» بأن المراد بهما فرد و فرد، فيصير الحاصل اثنين لا أكثر.

وَ احْمِلْ فى السفينة أَهْلَكَ عائلتك، زوجتك و أولادك

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) البقرة: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٢

إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْ تَقْدِمِ حَوْلِهِ قَوْلُنَا بِأَنَّهُ مِنَ الْهَالِكِينَ مِنْ عَائِلَتِكَ وَ هِيَ زَوْجَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ اسْمُهَا وَاعْلَاهُ، وَ كَانَتْ أُمَّ لِكِنْعَانَ الْوَلَدِ الَّذِي هَلَكَ بِالْعُرْقِ، فَقَدْ كَانَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ زَوْجَتَانِ وَ أَوْلَادٌ كُلُّهُمْ صَالِحُونَ إِلَّا هَذِهِ الْمَرْأَةَ وَ ابْنَهَا وَ أَحْمَلَ فِي السَّفِينَةِ مَنْ آمَنَ وَ هُمْ بَيْنَ ثَمَانِيَةٍ وَ ثَمَانِينَ، كَمَا فِي الْأَحَادِيثِ، وَ لَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَ

قد ورد أن نوحا عليه السلام نادى الحيوانات فأجابته و اجتمعت حوله فأركبها في السفينة، و ذلك ليس على الله بعزيز.

و من غريب الأمر أن بعض المسلمين الذين فقدوا ثقتهم بنفوسهم أمام الغرب يأولون جميع المعاجز مهما تمكنوا و يجعلونها أمورا عادية و قصصا خارجية لا مسحة عليها من الغيب و الإعجاز، و إذا لم يلائم شيء مع هذه الطريقة سمّوه بـ «الإسرائيليات» و لم ذلك؟ لأنه معجز خارج عن نطاق مفاهيم الماديين الغربيين. ففي قصتنا مثلا، يقول:

سفينه نوح سفينه عادية صنعت، و «الوحى حولها» هو الإلهام فى القلب كما يلهم قلب كل متعلم بالعلم، و «حمل نوح عدة حيوانات» مما يملكه نوح من الحيوانات، و كان الموسم فيضانا و المطر وابل ففرق بعض الناس الذين كانوا فى تلك المناطق، و سلم نوح و قومه المؤمنون.

و هكذا يحرفون كل خارقه إلى رماد و تراب بعد ما كانت خارقه تأخذ بالأنفس و تدل على رساله الأنبياء، فإذا لم يكن فى القرآن فهو خرافة و إسرائيليات، مهما بلغ سنده من الصحة و الثبات، أما إذا كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٣

فى القرآن فباب التأويل واسع، ف (اقتربت الساعة و أنشق القمر) «١» يراد به انشقاق بعض الأقمار التى دل العلم على وجودها سابقا ثم صارت منشقة بصورة هائلة أى: ابتعاد الأنجم بعضها عن بعض. و (و أرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل) «٢» كانت أسراب طير معها «ميكروب» الوباء فلما اختلطت بالناس، عدى المرض إليهم فماتوا بالوباء، و ما أشبه هذه التأويلات .. و هكذا هلم جرا.

حتى أن بعضهم - و هو مؤمن بالله و اليوم الآخر، طبعاً - ذكر أن المراد بـ «الإله» القوة المسيرة للكون أو الطاقة المحركة للحياة، و «المعاد» هو حساب التاريخ للإنسان، و «الجنة» ذكره الطيب المنبعث عن أعماله الحسنه، و «النار» ذكره السيئ المنبعث عن أعماله القبيحة ..

فلنتساءل: أى فرق بينكم أيها المؤمنون! و بين الماديين؟ و هل أحد ينكر الطاقة و محاسبه التاريخ و الذكر الحسن و السيئ؟ و إذا سألت هؤلاء المنهزمين، ماذا تصنعون بالنصوص و التصريحات؟ أجابوا بأنها على سبيل الكناية و المجاز، حسب فهم العرب المخاطبين ..

نقول: إن المؤمن هو من يؤمن بكل نص، أما أن يكون الإنسان ماديا قلبا، مسلما صورة فليس ذاك إلا النفاق، و الانهزام أمام بريق الغرب المادى .. و مثل هذه الانهزامية فى العقائد، و الانهزامية فى الأحكام، كمن يقول إن الإسلام جمهورى لقوله تعالى فى قصة بلقيس: (فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ) «٣»؟، أو برلمانى، لقوله تعالى: (وَأْمُرْهُمْ

(١) القمر: ٢.

(٢) الفيل: ٤ و ٥.

(٣) الأعراف: ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٤

[سورة هود (١١): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

وَقَالَ اذْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)

شورى «١»، أو اشتراكي، لقوله: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) «٢»، أو ربوي لقوله: (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) «٣»، مما يفهم منه جواز أكله بدون أن يصبح أضعافا، وهكذا.. مما هم بالهوس أقرب منهم إلى الإسلام. وقد رأينا أن معيار هؤلاء هو الغرب فما ذكره فهم تبع له، فإن وافق الإسلام فهو، وإلا فاللزام أن يطبق الإسلام عليه، يا للهراء والسخف!! [٤٢] وَقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْكَبُوا فِيهَا فِي السَّفِينَةِ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا أَي قَاتِلِينَ بِسْمِ اللَّهِ، وَقَت جريانها على الماء، ووقت إرسائها أى وقوفها وحبسها عن المسير، أو المعنى: بالله إجراؤها وإرساؤها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ لِلذُّنُوبِ رَحِيمٌ وَبِهَاتَيْنِ الصَّفَتَيْنِ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ النِّجَاةَ.

[٤٣] وَكَانَتِ السَّفِينَةُ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ جَمْعٌ «مَوْجَةٌ» وَهِيَ مَا عَلَا مِنَ الْمَاءِ بِسَبَبِ دُخُولِ الْهَوَاءِ فِيهِ، فَيَكُونُ الْمَاءُ مَتَخَلِّخًا عَالِيًا يَسِيرُ بِسِيرِ الْهَوَاءِ وَاتِّجَاهِ الرِّيَّاحِ، وَمَعْنَى «بِهِمْ» أَيْ فِي حَالِ كَوْنِهَا مَعَهُمْ، وَحَالِ كَوْنِهِمْ فِيهَا كَالْجِبَالِ بَارْتِفَاعِهَا وَضَخَامَتِهَا وَنَادَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ابْنَهُ كِنَعَانَ الَّذِي كَانَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ

(١) الشورى: ٣٩.

(٢) المعارج: ٢٥.

(٣) آل عمران: ١٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٥

[سورة هود (١١): الآيات ٤٣ إلى ٤٤]

قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَغْصَتُهُ مِنِّي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

الخائنة وَكَانَ الْإِبْنُ فِي مَعْزِلٍ أَيْ مَحَلِّ عَزَلِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرْكَبْ مَعَهُمْ فِي السَّفِينَةِ: يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا فِي السَّفِينَةِ لِنَجُوَ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ حَتَّى تَهْلِكَ وَتَغْرُقَ.

[٤٤] فَأَجَابَهُ الْإِبْنُ قَالَ سَاوِيَ مِنْ «أَوْى يَاوَى» إِذَا اتَّخَذَ مَأْوَى وَمَحَلًّا، أَيْ سَارِجَ إِلَى مَأْوَى إِلَى جِبَلٍ شَاهِقٍ لَا يعلوه الماء يَغْصَتُهُ مِنِّي يَحْفَظُنِي مِنَ الْمَاءِ فَلَا أَغْرُقُ وَلَا أَرْكَبُ مَعَكَ فِي السَّفِينَةِ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَيْ لَا شَيْءَ يَحْفَظُ الْإِنْسَانَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَغَرَقَهُ الَّذِي قَدَّرَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ رَكَبُوا السَّفِينَةَ، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَارْكَبَ السَّفِينَةَ كَيْ تَنْجُوَ وَيَرْحَمَكَ اللَّهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا) بَيْنَ نُوحٍ وَابْنِهِ الْمَوْجُ جَاءَتْ الْأَمْوَاجُ حَتَّى لَمْ يَشَاهِدْ نُوحٌ ابْنَهُ فَكَانَ أَيْ صَارَ الْإِبْنُ مِنَ الْمُغْرَقِينَ أَغْرُقُ وَأَهْلِكَ فِي جَمَلَةِ الْكَافِرِينَ.

[٤٥] لَقَدْ طَافَتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْمَاءِ أَيَامًا، وَنُوحٌ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْحَيَوَانَاتُ فِيهَا، وَأَخَذَ الْمَاءُ يَنْهَمِرُ مِنَ السَّمَاءِ وَيَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى غَرِقَ الْكَافِرُ بِأَجْمَعِهِمْ وَ حِينَذَاكَ قِيلَ الْمَرَادُ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَالَ ذَلِكَ، إِمَّا بِنَفْسِهِ أَوْ بِأَمْرِ بَعْضِ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، أَوِ الْمَرَادُ إِرَادَتَهُ سَبَّحَانَهُ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْقَوْلِ: يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ رَدِّي وَ اشْرَبِي الْمَاءَ الَّذِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٦

أَخْرَجْتِيهِ بِسَبَبِ تَفَجَّرِ الْعَيُونَ، وَ قَدْ أُرِيدُ بِذَلِكَ: نَشَفَ الْمَاءَ دَفْعَهُ كَأَنَّهُ بَلَغَ لَهُ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي أَيْ قَالَ تَعَالَى لِلسَّمَاءِ: أَمْسِكِي الْمَطَرَ وَ لَا

ترسلى الماء إلى الأرض. فبلعت الأرض ماءها، و أمسكت السماء عن المطر. و هل أن المراد من «ابلقى ماءك» جميع الماء الموجود فيها و لو كان الماء النازل من السماء، أم خصوص مائها، و بقى ماء السماء و تسرب فى المسارب و المنحدرات؟ احتمالان. و قد روى عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام: أن الماء بقى، و صار بحارا و أنهارا «١». أقول: إن العلم الحديث دلّ على كون الجبال كلها كانت غامرة فى الماء، حتى أرفع الجبال كانت كذلك، و قد وجد فيها آثار للماء و الحيوانات المائية، و لعل ذلك- إن صح- كان من وقت الطوفان حيث دلّ الدليل على غمر الماء لكل الجبال. و هل أن الخطاب حقيقى لشعور السماء و الأرض بالأمر و النهى، بمقتضى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) «٢»، أو المراد نتيجة ذلك، من باب خطاب العارف نحو: «أيا جيلى نعمان بالله خليا». احتمالان؟ و لا- يبعد الأول، كما قال سبحانه: (فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) «٣»، و هكذا أمثالها، مما ظاهره شعور السماء و الأرض.

وَ غِيضَ الْمَاءِ أَى ذَهَبَ الْمَاءُ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَى بَاطِنِهَا مِنْ

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣٠٤.

(٢) الإسراء: ٤٥.

(٣) فصلت: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٧

«غاض يغيض» إذا تسرّب فى الباطن و قُضِيَ الأَمْرُ تَمَّ الأمر المراد، و هو هلاك الكفار و نجاه المؤمنين و اسْتَوَتْ استقرت السفينة على جبل يسمى الجُودِيّ و قد ورد فى التفاسير أنه جبل بالموصل فى شمال العراق «١» و قِيلَ أَى قَالَ اللهُ سبحانه، أو الملائكة، أو نوح و المؤمنون، و المراد: نتيجة ذلك بُعِدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الذين كفروا و ظلموا أنفسهم، فليتعدوا عن رحمة الله، و عن سعادة الدنيا بالهلاك، و عن خير الآخرة بدخول النار.

و قد ذكر المفسرون و أهل البلاغة أن هذه الآية الكريمة فى كمال البلاغة مما يدهش العقول و الألباب فقد ذكروا أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البرّ و لحوم الضأن و سلاف الخمر أربعين يوما لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبه شىء من الكلام، و لا يشبه كلام المخلوقين، و تركوا ما أخذوا فيه و افترقوا.

و كان أهل الجاهلية إذا ألفوا أفصح القصائد علقوها بالكعبة، و هكذا حتى جمعت من أفصح القصائد و أبلغها على الكعبة سبع، لامرئ القيس و زملائه، فلما نزلت هذه الآية، أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بكتابتها، و أن تعلق قرب المعلقات السبع، ففعل ذلك بعض المسلمين، و لما أصبحت قريش و أتت إلى الكعبة، و رأت الآية إلى جنب المعلقات،

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٨

[سورة هود (١١): آية ٤٥]

وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)

اضطرت إلى أن تعلق المعلقات و لم تدعها قرب الآية.

و يقال: أن ثلاثة من الملحدين أرادوا معارضة القرآن ليبتلوا أساس الإسلام، فاجتمعوا فى مكة، و ضمن كل واحد منهم أن يقول مثل

ثالث القرآن إلى العام القابل، واجتمعوا في القابل في مكة فقال أحدهم: إنى أعرضت عن معارضة القرآن لما رأيت أن فيه قوله: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ..»، فقد علمت أنى لا أتمكن أن أتى بما يشابهها. وقال الثانى: إنى أعرضت عن معارضة القرآن حيث رأيت فى قوله: (فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خُلِصُوا نَجِيًّا) «١»، فقد علمت أنه لا يتسنّى لى مقابلة هذه الآية. وقال الثالث: إنى أعرضت عن معارضة القرآن حيث رأيت فيه قوله: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَبِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) «٢»، فقد علمت أنه لا يمكننى معارضة هذه الآية.

و يقال أن الإمام الصادق عليه السّلام مرّ بهم فى ذاك الحال و هم يتذاكرون عجزهم و ينسبون تلك الأسباب فيما بينهم، فقال لهم: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) «٣» «٤».

[٤٦] و إذ قد انتهى الأمر و تذكر نوح عليه السّلام ابنه الغريق كنعان و أخذته الشفقة عليه و نادى نُوحُ رَبُّهُ نداء دعاء و ضراعه فقال يا رَبِّ إِنَّ ابْنِي

(١) يوسف: ٨١.

(٢) القصص: ٨.

(٣) الإسراء: ٨٩.

(٤) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٩

[سورة هود (١١): آية ٤٦]

قال يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّى أَعْظَمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ فَقَدْ وَعَدْتَنى بِنجاةِ أهلى فنجه من الغرق، أو من العذاب فى الغرق، فإن كان المراد الأول، فلعل نوحا لم يكن يعرف مصير ولده هل أنه غرق أم لا و أنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ أى إن حكمك أصح الأحكام، فلا تحكم فى ولدى أو غيره إلا بالصحيح.

[٤٧] قال الله سبحانه فى جواب طلب نوح عليه السّلام: يا نُوحُ إِنَّهُ أى ولدك لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ فإن الأهل الذين وعدت بنجاتهم ليس أهل لحم و دم، وإنما أهل عقيدة و إيمان إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ قد يبالغ فى نسبة الفعل إلى شخص حتى يجعل ذلك الشخص نفس الفعل، كما يقال: «زيد عدل» مع العلم أن زيد ليس قطعة من العدل و إنما هو ذو عدل، و لكن البلاغة تقتضى ذلك. و هنا كذلك، فإن ابن نوح لما كان يعمل الأعمال الفاسدة، صار كأنه قطعة منها، فقول: «إنه عمل غير صالح»، كما يقال: «زيد قطعة من فساد»، يراد أنه منهمك فيه، أو بتقدير «ذو» أى أنه «ذو عمل غير صالح» كما قال الشاعر: «فإنما هى إقبال و إقبال» أى: «ذات إقبال و إقبال».

و قال بعض أن الضمير فى «إنه» يعود إلى سؤال نوح، أى: إن طلبك بِنجاةِ ابنك عمل غير صالح، لكن هذا الاحتمال بعيد عن الظاهر. فَلَا تَسْتَلِنِ يا نوح ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ السؤال إنشاء، و الإنشاء لا يتصف بالصدق و الكذب، و مطابقه الواقع و عدم مطابقتها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٠

[سورة هود (١١): آية ٤٧]

قال رَبِّ إِنى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ما لَيْسَ لى بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لى وَ تَرْحَمْنى أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٤٧)

و كونه متعلق العلم و عدم كونه متعلقه. إلا أن الإنشاء حيث يحمل دائما- فى طيه- إخبار عن شىء صح الاتصاف بهذه الأمور، فمثلا يسألك أحدهم مالا، فتقول: إنه يكذب، و لست تريد أنه يكذب فى السؤال، بل تريد أن الخبر الذى يدل عليه هذا الإنشاء- و هو أنه فقير معدم- غير صحيح، إذ ظاهر السائل أنه لفقره يسأل، فأنت تريد تكذيب ذلك الخبر المنطوقى فى هذا الإنشاء ..

و هنا كذلك، فإن سؤال نوح لم يكن بما ليس له به علم، بل الخبر الضمني كان بدون علم فإنه عليه السّلام أخبر بأن الله وعده نجاه ابنه- بتشكيل القياس - «ابنه من أهله»، و «أهله موعود نجاتهم»، ف «ابنه موعود نجاته». و قد كان نوح عليه السّلام يرى أن الوعد بنجاه الأهل شامل للولد أيضا، و على هذا طلب الوفاء بالوعد، لكنه سبحانه بين أنه لم يكن داخلا في الوعد، و لم يدل دليل على لزوم علم الأنبياء بجميع الأمور، حتى يقال أن نوحا عليه السّلام كيف لم يعلم ذلك، و هذا لا ينافي مقام العصمة، فإن معنى العصمة أن لا يذنب، لا أن يعلم كل شيء.

إِنِّي أَعْظُكَ يَا نُوحُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ أَى لئلا تكون جاهلا، و لا شك أن وعظه سبحانه يبيد الجهل. و قد يظن بعض الناس أن هذه عبارة خشنة، لكن الظاهر أنه جار مجرى التكلم المعتاد، فى مقابل التكلم بلين، و مقامه سبحانه لا يقتضى اللين فى الكلام، و يحتمل أن يكون إفراغ الغالب فى هذا القلب لإفادته مبعوضية الكفار لدى الله سبحانه- و قد سبق ما يشبهه فى قصة أخذ موسى عليه السّلام برأس أخيه-.

[٤٨] قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ الْكَلَامِ مِنْهُ سَبْحَانَهُ: يَا رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١١

بِكَ أَى أعتصم بك، من «عاذ» إذا استجار أن أسئلك ما ليس لى به علم أى أسألك شيئا ليس فيه صلاح، و يكون سؤالى صادرا عن عدم علم لى بالواقع. و لا يخفى أن ذلك لا ينافى أيضا مقام العصمة، فإن «ولدك لو سألك أن تذهب إلى النجف، و لم يكن ذلك من الصلاح، لأن الأجور تحملك خسارة كبيرة، فهل أن سؤاله يعد عصيانا لك؟».

لكن نوحا عليه السّلام أراد أن يجنبه الله سبحانه حتى من هذا النحو من السؤال.

وَإِلَّا أَى: و إن لم تغفر لى و تزحم لى أكن من الخاسرين «الغفران» الستر، و «الترحم» التفضل، و هما كما يكونان بالنسبة إلى العاصى، يكونان بالنسبة إلى المطيع، فإن الإنسان مهما بلغ من النزاهة فإنه يحتاج إلى ستر الله لما لا يليق بشأنه، كما يحتاج إلى تفضله، و هذا هو سر استغفار المعصومين.

فمثلا إن التوجه إلى إنسان فى كلام مما يسبب عدم التوجه إلى الله سبحانه فى ذاك الوقت لا يليق بشأن من يعرف الله حق معرفته، و إن كان راجحا فى نفسه، و لذا يستحق الاستغفار. قال سبحانه للرسول صلى الله عليه و آله و سلم: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ * وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) «١». و من هذا القبيل ما قيل:

«حسنت الأبرار سيئات المقربين»

«٢».

(١) النصر: ٢-٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٢٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٢

[سورة هود (١١): آية ٤٨]

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّمٍ سَنُمَتُّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)

ثم إن من المعلوم أن للخسران مراتب فمن من شأنه تحصيل الربح الكثير إذا لم يحصل عليه كان خاسرا، و هكذا قول نوح عليه السّلام:

«أكن من الخاسرين» فلو لا غفران الله و رحمته كان عليه السّلام خاسرا إذا لم يحصل تلك المراتب الرفيعة التى تليق بمثله.

[٤٩] و لما استقرت السفينة على جبل الجودى قيل و القائل هو الله سبحانه، إما بنفسه، أو بأمر ملائكة بذلك: يا نُوحُ اهْبِطْ مِنَ السَّفِينَةِ

و الجبل إلى الأرض بِسَلَامٍ مِّنَّا بِتَحِيَّةٍ لَّكَ مِنْ عِنْدِنَا، أَوْ بِنَجَاةٍ وَ سَلَامَةٍ مِنْ قِبَلِنَا، فَأَنْتَ آمِنٌ نَاجٍ وَ بَرَكَاتٍ أَى زِيَادَةٍ مِنْ فَضْلِ، وَ خَيْرَاتٍ نَامِيَةٍ عَلَيَّكَ وَ عَلَى أُمَّمٍ مِمَّنْ مَعَكَ أَى الْجَمَاعَاتِ الَّتِي مَعَكَ مِنَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ وَ الْوَحْشِ، فَإِنَّهَا تَنْمُو وَ تَزْدَادُ حَتَّى تَمَلَأَ الْأَرْضَ مِنْ ذُرَارِيهَا وَ نَسْلِهَا، فَإِنَّ الْأُمَّةَ تَطْلُقُ عَلَى الْحَيَوَانَاتِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ) «١». وَ هُنَا طَرِيفَةٌ لَفْظِيَّةٌ، وَ هِيَ: أَنْ ثَمَانَ «مِيمَاتٍ» اجْتَمَعْنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ «أُمَّمٌ مِمَّنْ مَعَكَ» أَصْلُهَا خَمْسُ مِيمَاتٍ وَ نُونَانٌ وَ تَنْوِينٌ. وَ مِنْ نَسْلِ هَؤُلَاءِ أُمَّمٌ سَنَنْتَعُهُمْ نَعِيْتَهُمْ مَتَعَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ ثُمَّ يَكْفُرُونَ وَ يَعْصُونَ فَيَمَسُّهُمْ يَمَسُّهُمْ مِمَّا أَى مِنْ طَرْفِنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ مُوجِعٌ مُؤَلِمٌ فِي الدُّنْيَا بِصُنُوفِ الْقَلْقِ وَ الْمَرَضِ وَ الْفَقْرِ وَ الْحُرُوبِ وَ مَا أَشْبَهَهُ، وَ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ وَ الْعِقَابِ.

(١) الأنعام: ٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٣

[سورة هود (١١): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) وَ كَانَ قَوْلُهُ «وَ أُمَّمٌ» لِأَجْلِ أَنْ لَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ «وَ عَلَى أُمَّمٍ» أَنْ مِنْ حَمَلِهِمْ نُوحٌ وَ ذُرِّيَّتُهُمْ كُلُّهُمْ تَصَحَّبَهُمُ السَّلَامَةُ وَ الْبِرْكَةُ، بَلْ هُنَاكَ مِنْ نَسْلِهِمْ مَنْ يَكْفُرُ وَ يَعْصِي فَلَا بَرَكَهَ لَهُ وَ لَا سَلَامَ.

[٥٠] تِلْكَ الْأَخْبَارُ الَّتِي قَصَصْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ تَفْصِيلِ أحوال نوح عليه السلام و قومه مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ أَى أَخْبَارَ مَا غَابَ عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَعْرِفَتَهُ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَ لَيْسَ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ لِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ وَ التَّفْصِيلِ وَ النَّزَاهَةِ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا قَوْمُكَ قَرِيشٌ، أَوْ الْعَرَبُ، أَوْ النَّاسُ الْمَعَاصِرُونَ لَكَ، فَإِنَّ لَفْظَ «قَوْمٍ» يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى كُلِّ ذَلِكَ. وَ لَا غَضَاضَةَ فِي أَنْ لَا يَعْلَمُهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ هَلْ عِلْمُ الرَّسُولِ إِلَّا مِنْ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ وَحْيِهِ فَهُوَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ قَبْلِ هَذَا أَى مِنْ قَبْلِ الْوَحْيِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ فَاصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى أذى قَوْمِكَ كَمَا صَبَرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ وَ يَعْمَلُونَ بِأَمْرِهِ، كَمَا كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِنُوحٍ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

[٥١] وَ حَيْثُ يَنْتَهَى السِّيَاقُ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ شَيْخِ الْمُرْسَلِينَ، يَأْتِي الْكَلَامُ حَوْلَ قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ يورد القرآن الكريم جملةً من هذا القبيل من القصص كلها تركز على شيء واحد هو بعثه الأنبياء عليهم السلام لإصلاح الناس، ثم عدم سماع الناس - إلا نادرا - منهم، ثم إهلاك المكذبين و جعل كلمة الله هي العليا بنجاة المؤمنين و نصرتهم و أرسلنا إلى عاد و هم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٤

[سورة هود (١١): الآيات ٥١ الى ٥٢]

يَا قَوْمِ لَا- أَشِيءُ لَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا- عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا- تَعْقِلُونَ (٥١) وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

قَبِيلَةَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ هُودًا النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ كَانَ هَؤُلَاءِ سَاكِنِينَ فِي الْأَحْقَافِ «وَ الْحَقْفِ» كَثِيبِ الرَّمْلِ الْمَائِلِ، فِي جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَخَاهُمْ مِنْ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَ قَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ مَا لَكُمْ لَيْسَ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ دُخُولَ «مِنْ» فِي الْمَنْفَى يَفِيدُ الْعَمُومَ إِنْ أَنْتُمْ مَا أَنْتُمْ فِي اتِّخَاذِكُمُ الْأَصْنَامِ شُرَكَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا مُفْتَرُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِكُمْ، وَ حَيْثُ أَنْتُمْ تَنْسُبُونَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ افْتِرَاءٌ وَ بَهْتَانٌ.

[٥٢] يَا قَوْمِ لَا- أَشِيءُ لَكُمْ عَلَيْهِ أَى عَلَى التَّبْلِيغِ وَ الْإِرْشَادِ وَ الْهَدَايَةِ أَجْرًا مَالًا، فَإِنَّمَا أُبَلِّغُكُمْ مَجَانًا وَ بِلَا عَوْضٍ. وَ قَدْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ تُؤَكِّدُ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ دَائِمًا يَخَافُونَ مِنَ الدَّاعِي لِخَوْفِهِمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَإِذَا أَمِنُوا ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِذْرٌ مَادِي فِي عَدَمِ قَبُولِهِمُ الدَّعْوَةَ

إِنْ أُجْرِيَ أَى لَيْسَ جَزَائِي عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي فَطَّرَنِي خَلَقَنِي وَسَوَانِي وَ أَوْجَدَنِي مِنَ الْعَدَمِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخِي، أَى لِمَا ذَا لَا تَعْمَلُونَ عَقُولَكُمْ لَتَعْلَمُوا صَدَقَ وَ اسْتِقَامَةُ طَرِيقَتِي؟! [٥٣] وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ أَطْلَبُوا عَفْوَهُ وَ غُفْرَانَهُ لِمَا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي ثُمَّ تَوْبُوا ارْجِعُوا إِلَيْهِ فِي الْعَمَلِ بِأَمْرِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٥

وَ نَوَاهِيهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاصِيَ يَحْتَاجُ إِلَى أَمْرٍ سَلْبِي هُوَ مَحْوٌ مَا سَلَفَ، وَ إِلَى أَمْرٍ إِجْبَابِي هُوَ الْاسْتِقَامَةُ عَلَى مِنْهَاجٍ جَدِيدٍ لِمَا يَأْتِي. وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ «الاسْتِغْفَارَ وَ التَّوْبَةَ» لَوْ افْتَرَقَا شَمَلَا الْأَمْرَيْنِ، أَمَا لَوْ اجْتَمَعَا فَالاسْتِغْفَارُ لِلْسَلْبِيِّ، وَ التَّوْبَةُ لِلْإِجْبَابِيِّ. فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِذْرَارًا أَى يَرْسِلُ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ مُتَابِعًا مُتَوَاتِرًا، بِمَعْنَى «جَرَى وَ نَزَلَ»، وَ اسْتِعْمَالُ «السَّمَاءِ» مَرِيدًا بِهِ الْمَطَرُ، لِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ. قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمِ رَعِينَاهُ وَ إِنْ كَانُوا غَضَابًا

وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَجَابُوا فَوَعَدَهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْغَيْثِ إِنْ تَابُوا وَ أَنَابُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) «١» (٢). وَ يَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ الْمَرَادُ بِ«الْقُوَّةِ» كُلُّ مَا يَتَقَوَّى بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ مَالٍ وَ أَهْلِ وَ قُوَى مَادِيَّةٍ وَ مَعْنَوِيَّةٍ، وَ هَذَا بِقَدْرِ مَا هُوَ مِمَّا وَرَاءَ الْغَيْبِ، هُوَ حَسَبُ الْقَوَانِينِ الْعَادِيَّةِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرَ نَشَاطًا وَ تَأَلُّفًا، وَ أَصَحَّ مِنْهَاجًا مِمَّا تُوَدَّى إِلَيْهِ كَثْرَةُ الْقُوَّةِ وَ لَا تَتَوَلَّوْا أَى لَا تَعْرَضُوا عَنِ اللَّهِ وَ أَمْرِهِ فِي حَالِ كُونِكُمْ مُجْرِمِينَ تَعْمَلُونَ الْكُفْرَ وَ الْآثَامَ.

(١) الأعراف: ٩٧.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٦

[سورة هود (١١): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥)

[٥٤] قَالُوا فِي جَوَابِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ: يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِكَ. فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَبِرُونَ الْأَدْلَةَ الْوَاضِحَةَ حُجَّةً، كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ مُعَانِدٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ لَسْنَا نَتْرِكُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ لِأَجْلِ قَوْلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ. وَ إِنَّمَا جِيءَ بِ«عَنْ» لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّجَاوُزِ، نَحْوُ: «رَمَيْتَ السَّهْمَ عَنِ الْقَوْسِ»، أَى فَلَيْسَ تَرَكْنَا نَاشِئًا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ بِمُصَدِّقِينَ مَقَالِكَ. [٥٥] إِنْ نَقُولُ مَا نَقُولُ فَيْكُ وَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَاتِ الَّتِي تَقُولُهَا إِلَّا اعْتَرَاكَ أَى أَصَابَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ فَإِنَّكَ حَيْثُ كُنْتَ تَسُبُّ آلِهَتِنَا، أَصَابُوكَ بِالْجَنُونَ فَجَنَّتْ وَ خَبَلَ عَقْلُكَ - كَذَا قَالَ الْمَفْسُرُونَ - فَلَمَّا رَأَى هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ فِيهِمُ الْكَلَامُ وَ لَا يَتَفَكَّرُونَ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا عَلَيَّ فَإِنِّي أَجْعَلُكُمْ شُهُودًا عَلَى أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ مِنَ الْأَلْهَةِ الْبَاطِلَةِ، وَ لَا - أَعْتَرَفَ لَهُمْ بِالْأَلُوْهِيَّةِ.

[٥٦] فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ الْمَرْعُومَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ مِنَ دُونِ اللَّهِ، لَيْسَتْ فِي نَظَرِي بِأَلْهَةٍ حَتَّى أَعْبُدَهَا، وَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ. ثُمَّ كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّ آلِهَتَكُمْ مُسْتَنَى بِسُوءِ لِسْبِي إِيَّاهَا، فَإِنِّي أَتَحَدَّكُمْ أَنْ تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَ الْأَلْهَةُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا فَكَيْدُونِي جَمِيعًا فَاحْتَالُوا وَ اجْتَهَدُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٧

[سورة هود (١١): آية ٥٦]

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)
 لضري وإيدائي ثم لا تُنظَرُونَ أى لا تمهلوننى، بل فاجئونى بالهجوم لقصده إيدائى، فإنى لا أبالى بكم ولا أكثرث بكيدكم، بعد ما كنت مستظها بالله سبحانه، واثقا من نصره، إنكم جميعا لا تقدرون على إيدائى، فكيف يقدر بعض آلهتكم أن يمسنى بسوء؟
 قال بعض المفسرين: إن هذا من أعظم آيات الأنبياء عليهم السلام أن يكون الرسول وحده، و أمته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدونى، فلا يستطيع واحد منهم صدّه، وكذلك قال نوح عليه السلام: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ... (١) - كما تقدم - و
 قال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم: (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ)

«٢». و مثل هذا القول لا يصدر إلا عن من هو واثق بنصر الله و بأنه يحفظه عنهم و يعصمه منهم.

[٥٧] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ إِنِّي وَثِقْتُ بِهِ وَفُوضت أمرى إليه فهو المدافع المحامى عنى ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ سَبْحَانَهُ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا أى ما من حيوان يدب على الأرض إلا هو مالك له يصرفه كيف يشاء، و «الناصية» هو مقدم الرأس، فكما أن الآخذ بشعر مقدم الرأس لأحد، يتصرف فى ذلك الإنسان بالقهر و الغلبة، كذلك المالك للدواب، و هذا كناية عن قهره سبحانه لكل دابة و قدرته عليها كلها إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فإنه مع قدرته فهو عادل فيما يعامل به البشر، و سنته و أحكامه عادلة مستقيمة. و هذا تشبيه للمعقول

(١) يونس: ٧٢.

(٢) المرسلات: ٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٨

[سورة هود (١١): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)

بالمحسوس فكما أن السائر المستقيم، يمشى على صراط مستقيم، فكذلك صراطه سبحانه فى أحكامه و سنته.

[٥٨] ثم قال هود عليه السلام لقومه: فَإِنْ تَوَلَّوْا أَصْلَهُ «تولوا»، أى فإن أعرضتم عن دعوتى فإنى غير ملوم و غير مأخوذ بإعراضكم إذ قد أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ و بلغت لكم رسالته ربي، فتوليكم من سوء اختياركم. ثم إن ذلك لا يضر الله سبحانه كما لا يضرنى فإنه يهلككم بمعاصيكم و يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ يؤتى مكانكم بأناس آخرين يعبدونه و يوحدونه، بعدكم و خلفا لكم و لا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا بتوليكم، كما لم تضررنى بذلك إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ يحفظ دينه من الضياع فىأتى بغيركم ليعبده، كما يحفظنى عن أذاكم و ضرركم.

[٥٩] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِهَلَاكٍ عَادٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَنْفَعِهِمُ الدَّعْوَةُ وَ تَوَلَّوْا مَعْزُومِينَ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنَ الْهَلَاكِ - و فى المجمع: قيل أنهم كانوا أربعة آلاف - بِرَحْمَةٍ مِنَّا حيث رحمتهم بعدم عذابهم. و ذكر هذه الجملة، إما لإفادة أن نجاتهم لم تكن صدفة و إنما عن قصد، و إما لإفادة أن نجاه أولئك المؤمنين لم تكن باستحقاقهم، إذ أن كل أحد لا بد و أنه ممن يستحق العقاب، فنجاته تكون برحمته و فضل من الله وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ شديد. و الإتيان بهذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٩

[سورة هود (١١): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

اللفظ لدلالته على ما كان للعذاب من شدة و هول، و تكرر «نجينا» إما لبيان الخصوصية فإن اللفظ أولاً كان مطلقاً، ثم جىء به مع المتعلق، و إما لبيان أنهم نجوا من عذاب الآخرة كما نجوا من عذاب الدنيا، و هذا فيما إذا أريد من «العذاب الغليظ» عذاب الآخرة. [٦٠] ثم تأتى القصة فى جمل قصار للتكرير و التركيز فى الذهن و تلك القبيلة التى أهلكت و هى عاد أى قبيلة عاد جحدوا بآيات ربهم أنكروا براهينه و أدلته التى أقامها على توحيده و رسالته رسولهم و سائر الأصول و الفروع و عصوا رسله بالمخالفة و المشاقفة. و إنما قال «رسله» بلفظ الجمع، لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل، كما أن من المحتمل أن يكون سبحانه أرسل إليهم أنبياء، و إنما تعرض لقصة أحدهم فقط و هو «هود» و أتبعوا أمر كل جبار عنيد «الجبار» هو من يجبر الناس على ما يريد، و «العنيد» الكثير العناد الذى لا يقبل الحق، و المراد جبارتهم، فقد كان قوم هود يمثلون أمر الرؤساء الجبارين عوض امتثال أمر الأنبياء المصلحين.

[٦١] و أتبعوا فى هذه الدنيا لغنة فإن الله سبحانه سخر للمؤمنين لعنة الكفار، فقوم هود «عاد» يلعنون فى الدنيا، فتعقبهم اللعنات مدى الزمان و يوم القيامة يكونون ملعونين مطرودين عن الخير معدبين فى النار، يلعنهم الأنبياء و الملائكة و المؤمنون ألا فلينتبه السامع إن عاداً كفروا ربهم أى: كفروا بربهم، أو المراد أنهم ستروه بأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٠

[سورة هود (١١): آية ٦١]

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَكْبَرُوا ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)

لم يعترفوا به، فإن «الكفر» أصله «الستر» ألا فلينتبه السامع بعداً لعاد أى أبعدهم الله عاداً قوم هود النبى هود عليه السلام عن رحمته. و هذا دعاء عليهم يتضمن التوهين و الإذلال.

و فى تكرر «ألا» و «عاد» إظهار فظاعة أمرهم، و حث الناس على الاعتبار بما نالهم، و الحذر من مثل أفعالهم، و إنما قال «قوم هود» ليميزوا عن «عاد إرم».

ورد أن عاد كانت بلادهم فى البادية، و كان لهم زرع و نخل كثير، و لهم أعمار طويلة و أجسام ضخمة، فعبدوا الأصنام و بعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام و خلع الأنداد، فأبوا و لم يؤمنوا و آذوه، فكفت السماء عنهم سبع سنين حتى قحطوا، فجاؤوا إليه فقالوا: يا نبى الله قد أجذبت بلادنا و لم تمطر، فسل الله المطر و أن يخصب بلادنا، فتهايا للصلاة فصلى و دعا، فقال لهم: ارجعوا فقد أمطرت و أخصبت بلادكم. و بقى فى قومه يدعوهم إلى الله و ينهاهم عن عبادة الأصنام حتى أخصبت بلادهم و أنزل الله عليهم المطر. فلما لم يؤمنوا و بقوا على كفرهم و إصرارهم بعبادة الأصنام أرسل الله عليهم الريح الصرصر يعنى «الباردة» سبع ليالى و ثمانية أيام حتى أهلكهم عن آخرهم.

[٦٢] و أرسلنا إلى ثمود و هم قبيلة كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك و مدينة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أخاهم فى النسب صالحاً قال صالح عليه السلام لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ما لكم من إله غير من هذه الأصنام التى تعبدونها و سائر الآلهة الباطلة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢١

[سورة هود (١١): آية ٦٢]

قالوا يا صالح قد كنت فىنا مزجوا قتل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا و إننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب (٦٢)
هو أنشأكم أى ابتداء خلقكم من الأرض إما باعتبار آدم عليه السلام، أو باعتبار كل فرد من أفراد البشر، فإنه كان تراباً ثم صار نباتاً ثم مأكولاً، أو حيواناً ثم منياً ثم إنساناً و استعمركم فيها الاستعمار هو أن يجعل القادر منهم أن يعمر الأرض، فإذا قيل: «استعمر زيد عمرو» كان معناه: أنه جعل عمرو قادراً على عمارة الأرض بما هيا له من الأسباب. فالمعنى أمركم بعمارة الأرض و أقدركم عليها.

وقد روى «النعمانى» عن أمير المؤمنين عليه السلام، فى تفسير «و استعمركم فيها»: فأعلمنا سبحانه أنه قد أمرهم بالعمارة ليكون ذلك مما جعله الله تعالى سببا لمعايشهم بما يخرج من الحب و الثمرات و ما شاكل ذلك مما جعله الله تعالى معايش «١». أقول: و يؤيد هذا المعنى قوله: «أنشأكم».

فَاسْتَعْفِرُوهُ أَى اطلبوا غفرانه بالتوبة من الشرك و المعاصى و فعل الطاعات ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ بعد أن طَهَرْتُمْ أنفسكم من الذنوب، و ارجعوا إليه فى أخذ الأحكام و الطاعة و العبادة إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ قَرَبِ العلم و الاطلاع و الغفران، فليس بعيدا غير عالم، و لا متكبرا لا يلبى الطلب مُجِيبٌ لمن دعاه و طلبه.

[٦٣] قالوا قالت ثمود: يا صالح قد كنت فينا مزججوا قبل هذا نرجو

(١) وسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٢

[سورة هود (١١): آية ٦٣]

قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى و آتاني منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدونى غير تخسير (٦٣) منك الخير لما كنا نرى من صفاتك الحسنه و أخلاقك الطيبة، أما الآن فقد يسنا منك حيث رأينا أقوالك و دعوتك إلى الله و نبذ عبادة الأصنام أ تنهانا استفهام إنكارى أن نعبد ما يعبد آباؤنا أى: كيف تنهانا عن عبادة الأصنام التى كان آباؤنا يعبدونها؟ و إننا لفي شك مما تدعوننا إليه من عبادة الله وحده و نبذ الأصنام مريب موجب للريبة و التهمة، كيف أنت تصدق و آباؤنا كانوا على ضلالة و جهالة.

[٦٤] قال صالح لهم: يا قوم أرايتم أى أخبرونى إن كنت على بينة حجة واضحة تشهد على صدقى من قبل ربى سبحانه و آتاني منه رحمة أعطاني النبوة برحمته و فضله فمن ينصرنى من الله أى من بأس الله و غضبه و عذابه إن عصيته بعد إبلاغكم الدعوة، أو اتخاذ طريقتم لرجائكم فى الخير، فإن رجاءكم فى الخير من دون عبادة الله وحده لا يدفع عنى العذاب، خصوصا و أنه سبحانه أعطانى و فضلنى فما تزيدونى إذا لبيت دعوتكم غير تخسير أى خسارة على خسارة، من سلب النبوة عنى و عذاب الله الشامل للعاصين، أو المعنى: غير أن أنسبكم إلى الخسران، بأن أريكم أنكم الخاسرون، إذ كلما أصر المبتل زاد المحق علما بأنه فى خسارة و انحطاط و نقص.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٣

[سورة هود (١١): الآيات ٦٤ إلى ٦٦]

و يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا صالحا و الذين آمنوا معه برحمة منا و من خزي يومئذ إن ربك هو القوى العزيز (٦٦)

[٦٥] ثم ذكر صالح عليه السلام الدليل على كونه نبيا من قبل الله سبحانه، قال:

و يا قوم هذه ناقة الله الإضافة إليه سبحانه تشريفية، فإنه هو الذى كونها من غير ولادة عادية، و إنما أخرجها من الجبل الأصم لكم آية أى علامة و دليل على صدقى و حجة كلامى - و قد سبقت قصتها فراجع - فذروها أى دعوها و اتركوها و شأنها تأكل فى أرض الله من العشب و النبات، و لا تريد الأكل منكم حتى تستقلوها و تتضجرون منها و لا تمسوها أى لا تصيبوها بسوء أى بأذى قتل أو جرح أو عقر أو غيره فإن فعلتم ذلك فيأخذكم عذاب قريب يقرب وقته من وقت إيدائكم لها.

[٦٦] لكن القوم أصروا على كفرهم و عنادهم، و اجتمع جماعة منهم و جعلوا لأحدهم جعلاً إن عقر الناقة و خلصهم منها فعقروها و

إنما نسب الأمر إلى جميعهم لفعل بعضهم، و مشاركة جماعة بالتسبب، و رضى الآخرين فقال صالح عليه السلام لهم: تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَيَاتِكُمْ وَ تَمَتَّعْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ الْعَذَابُ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ وَ عُدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ أَى صَادِقٍ لَا كَذِبَ فِيهِ.

[٦٧] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا أَى عَذَابُنَا لِقَوْمٍ صَالِحٍ نَجَّيْنَا صَالِحًا مِنَ الْعَذَابِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٤

[سورة هود (١١): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا أَى رَحْمَانًا أَوْلَيْتُكَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ نَعَذِّبِهِمْ. و لعل سر الإيثار في هذه الجملة إفادة أن المؤمن الناجي، أيضا ينجو بالرحمة لأن لكل إنسان من الذنوب ما يستحق بها العذاب، أو أن الإنسان لا يستحق الثواب و الجزاء الجميل و إنما يتفضل الله سبحانه بذلك، فالنجاه من الهلكة ليست بالاستحقاق و إنما بالفضل و الرحمة و من خزي يومئذ أَى نجيناهم من الموت و الخزي، فإن الموت بالعذاب خزي و إهانته، و معنى «يومئذ» أَى خزي يوم العذاب إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي يَقْوَى عَلَى إِهْلَاكِ الْكُفَّارِ وَ إِفْنَائِهِمُ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَى شَيْءٌ مِمَّا أَرَادَ.

[٦٨] وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ بِأَن صَاحَ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ خَلَقَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ صَيْحَةً فَمَاتُوا جَمِيعًا فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ وَ بِيوتِهِمْ جَاثِمِينَ مِنْ «جَثْمٍ» بِمَعْنَى لَزِمَ الْمَكَانَ، فَلَمْ يَبْرَحْهُ. أَى: مَيَّتِينَ لَا حَرَكَاتَ لَهُمْ.

[٦٩] كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا «غنى في المكان» أقام فيه، و المعنى: كَأَن لَمْ تَكُنْ ثَمُودُ فِي مَنَازِلِهِمْ قَطُّ لِانْقِطَاعِ آثَارِهِمْ بِالْهَلَاكِ، إِلَّا بَقَايَا بِيوتِهِمْ وَ جِثَّتْهُمُ الْهَامِدَةُ. ثم يجمال السياق القول في ما فعلوا و كان سببا في عقابتهم هذه أَلَا فَلْيَنْتَبِهِ السَّمَاعُ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ فَلَمْ يَعْتَقِدُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٥

[سورة هود (١١): آية ٦٩]

وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)

به و أشركوا معه غيره، و أصل «الكفر» الستر، كأنهم بعدم الاعتراف ستروا وجه الحقيقة أَلَا فَلْيَنْتَبِهِ السَّمَاعُ بُعْدًا لِثَمُودَ عَنْ حَسَنِ الذِّكْرِ فِي الدُّنْيَا وَ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ، إِنَّهُمْ قَدْ طَرَدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ.

[٧٠] ثم يستعرض القرآن الحكيم القصة الرابعة في هذه السورة بعد قصة نوح و هود و صالح عليهم السلام بقوله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا أَى الْمَلَائِكَةُ وَ هُمُ جِبْرَائِيلُ وَ إِسْرَافِيلُ وَ مِيكَائِيلُ وَ كُرُوبِيلُ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى أَى بَشَارَةَ إِعْطَائِهِ الْوَلَدَ- إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامَ- بَعْدَ أَنْ شَاحَ وَ يئس عن الولد. و لعل ذكر هذا الطرف من قصة إبراهيم عليه السلام لبيان أن الله سبحانه أنجز وعده الذي وعده لنوح بقوله: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّةٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّةٍ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) «١»، فقد كانت البركات في أولاد إبراهيم إسماعيل و إسحاق، و العذاب في أمه لوط.

قَالُوا أَى لَمَّا دَخَلَتِ الْمَلَائِكَةُ قَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: سَلَامًا بِهَذَا اللَّفْظِ، وَ هَذَا كُنَايَةٌ عَنْ تَسْلِيمِهِمْ عَلَيْهِ سَلَامًا كَامِلًا، بِأَن قَالُوا- مَثَلًا- سَلَامًا عَلَيْكُمْ، فَ قَالِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِمْ: سَلَامًا بِهَذَا اللَّفْظِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ كَأَنَّهُ قَالَ: «مَا أَبْطَأَ عَنِ الْمَجِيءِ بِالْعَجَلِ»، فَحُذِفَ حَرْفُ الْجَرِّ وَ وَصَلَ الْفِعْلُ بِالْمَجْرُورِ- عَلَى الْقَاعِدَةِ- «الْعَجَلُ» وَ لَدِ الْبَقْرِ، وَ «الْحَنِيذُ» فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ مِنْ

[سورة هود (١١): الآيات ٧٠ الى ٧١]

فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)

«حذد» بمعنى شواه بالحجارة، أى جاء بعجل مشوى بالحجارة، أو المشوى مطلقاً. وقد كان إبراهيم عليه السلام محبا للضيف فلما رأى الملائكة ظنهم بشرا- لأنهم كانوا فى صورة بشر- فأتى إليهم بالطعام، وهو عجل مشوى.

[٧١] لكن الملائكة لا تأكل طعام الدنيا، ولذا لم يتقدموا للأكل كما هو عادة الضيوف فلما رأى إبراهيم عليه السلام أَيْدِيَهُمْ أى أيدى الملائكة لا تَصِلُ إِلَيْهِ إلى العجل ولا يأكلون منه نَكِرَهُمْ أنكرهم فإن «نكر و أنكر» بمعنى واحد فأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أى أضمر فى نفسه منهم خوفاً، يقال: «أوجس خوفاً» أى أضمر، فإن الإيجاس يعنى الإحساس. قالوا: فقد جرت عادتهم أن الضيف لو أكل من الطعام كانوا فى أمن منه، وإن لم يأكل خافوا من شره لأن عدم أكله دليل أنه ينوى السوء بالمضيف. وقيل: إن خوفه كان بسبب ما علم أنهم ملائكة وخاف من أن يكونوا أمروا بعذاب القوم.

قالوا أى قالت الملائكة، لما رأوا خوف إبراهيم عليه السلام: لا تَخَفْ منا يا إبراهيم إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ بالعذاب والإهلاك، ولا نضمرك بك شراً، أو لا نضمرك بقومك شراً.

[٧٢] وقد كانت امرأته أى زوجة إبراهيم سارة قَائِمَةٌ فى أثناء هذا الكلام بين إبراهيم وبين الملائكة فَضَحِكَتْ و لعل ضحكها كان بسبب البشارة بهلاك القوم المجرمين، فإن المرأة أكثر الناس غضبا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٧

[سورة هود (١١): آية ٧٢]

قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)

لعمل الفاحشة من الرجال، أو أنها ضحكت مستبشرة بقدوم الملائكة إلى دارها، أو المراد من «ضحكت» حاضت، فإن «ضحك» بمعنى سال، يقال: ضحكت الشجرة، إذا سال صمغها، والمراد: أنها حاضت بعد عقم وانقطاع حيض، وإن الحيض لمن المبشرات بالولد، إذ لولاه لم يكن تكوّن الولد فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ و حيث أن بشارة الملائكة لا تكون إلا من الله سبحانه صح إسناد البشارة إلى نفسه تعالى وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ فإن البشارة بالولد والذرية من خير البشائر للمرأة العقيمة.

[٧٣] قَالَتْ سارة لما سمعت ببشارة الأولاد: يا وَيْلَتَىٰ حرف النداء دخل على منادى محذوف أصله: يا قوم ويلتى، أو المعنى: يا ويلتى احضرى فهذا وقتك، كما قالوا فى «يا للعجب» معناه: يا عجب احضر فهذا وقتك، وليس حينئذ حقيقة وإنما القصد إنشاء التعجب بهذه العبارة، و «ويلتى» أصله الدعاء بالهلاك، لأن الويل بمعنى الشر والهلاك لكنه استعمل لمطلق التعجب عرضاً ولو كان فى الفرح، من باب علاقة استعمال الضد فى الضد، نحو: «لا أباك لك» الذى كان أصله للسب ثم استعمل للمدح أيضاً أَلِدُ أى: هل ألد الولد والحال أَنَا عَجُوزٌ طاعنة فى السن، و «العجوز» لفظ يستعمل لكل ذكر و أنثى وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟! «البعل» الزوج، أى إن هذا بعلى فى حال كونه شيخاً كبير السن.

روى أن سارة كان لها من العمر يوم ذاك تسعون سنة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٨

[سورة هود (١١): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

قَالُوا أَوْفَعِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤)

و لإبراهيم عليه السلام مائة و عشرون سنة «١».

إِنَّ هَذَا التَّبَشِيرَ بِالْوَلَدِ، أَوِ الْوَلَدِ مِنَّا وَنَحْنُ هَرَمِينَ لَشَيْءٍ عَجِيبٍ وَ لَمْ يَكُنْ تَعْجَبًا إِنْكَارًا لِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بَلِ الْإِنْسَانُ إِذَا رَأَى شَيْئًا خِلَافَ الْقَوَانِينِ الْمَوْدَعَةِ فِي الطَّبِيعَةِ تَحْرَكَ فِيهِ حَسَّ التَّعْجَبِ وَالِاسْتِغْرَابِ.

[٧٤] قَالُوا أَى قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي بَشَرُوهَا بِالْوَلَدِ: أَمْ تَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ اسْتِفْهَامَ تَنْبِيهِ، أَى: كَيْفَ تَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ إِرَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟ وَ الْحَالِ رَحْمَتِ اللَّهِ وَ بَرَكَاتِهِ تَفْضُلُهُ وَ خَيْرَاتِهِ النَّامِيَةَ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَى أَهْلَ بَيْتِ النَّبِوَةِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ يِرْعَاكُمْ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكُمْ فَلَا- عَجَبٌ لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَ لَا عَجَبٌ مِنْ جِهَتِكُمْ لِأَنَّكُمْ مُورِدُ أَطَافِهِ وَ كِرَامَاتِهِ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ حَمِيدٌ مَحْمُودٌ عَلَى أَفْعَالِهِ مَجِيدٌ ذُو مَجْدٍ وَ رَفْعَةٍ، فَبِكُونِهِ مَحْمُودِ الْفِعَالِ يَتَفَضَّلُ، وَ بِكُونِهِ رَفِيعًا يَقْدِرُ.

[٧٥] فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ أَى الْخَوْفُ وَ الرَّعْبُ الَّذِي دَخَلَ مِنْ الرِّسْلِ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِالْوَلَدِ، وَ اطمأن بفضل الله و لطف الملائكة به، شرع يُجَادِلُنَا أَى يُجَادِلُ رِسْلَنَا وَ يَنَاقِشُهُمْ. وَ حَيْثُ أَنْ رَسُولُ

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٩

[سورة هود (١١): الآيات ٧٥ إلى ٧٦]

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) الشَّخْصُ كَالشَّخْصِ، صَحَّ إِسْنَادُ فِعْلِ الرِّسْلِ إِلَيْهِ، كَمَا صَحَّ إِسْنَادُ فِعْلِ الْأَشْخَاصِ إِلَى الرِّسْلِ، بِفِعْلِهِمْ مَعَهُ فِي قَوْمٍ لُوطٍ الَّذِينَ أَرْسَلَتِ الْمَلَائِكَةُ لَتُعَذِّبَهُمْ.

ورد أن إبراهيم عليه السلام قال للرسل: إن كان في القوم مائة من المؤمنين أ تهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: إن كان فيهم خمسون؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا. و ما يزال ينقص و يقولون: لا، حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا، فقال: إن فيهم لوطاً؟- و قد كان عليه السلام ابن خالة إبراهيم عليه السلام- قالوا: نحن أعلم بمن فيهم، لننجينه و أهله إلا امرأته «١».

[٧٦] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ يَحْلُمُ عَنِ الْعِصَاءِ، وَ بِحِلْمِهِ كَانَ يَطْلُبُ عَدَمَ تَعْذِيبِ قَوْمِ لُوطٍ أَوَّاهٌ أَى كَثِيرُ الدُّعَاءِ مُنِيبٌ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، مِنْ «أَنَابٍ»، وَ كَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِهَذَا الْوَصْفِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ قَدْ قَضَى الْأَمْرَ.

[٧٧] ثُمَّ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ التَّسَاوُلِ وَ النَّقَاشِ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الْطَلْبِ وَ انصرف عنه فإنه لا يفيد إنَّه قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ بِهَلَاكِ هَؤُلَاءِ وَ عَذَابُهُمْ فَهُوَ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ وَ إِنَّهُمْ أَى قَوْمِ لُوطٍ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ لَا يَرُدُّ عَنْهُمْ، فَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنْ

(١) الكافي: ج ٥ ص ٥٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٠

[سورة هود (١١): آية ٧٧]

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَةً بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)

المعرضين ما داموا لم يحتج عليهم، أو يحتمل- و لو احتمالاً خارجياً- أو كان في أصلابهم ذرية مؤمنة، لا يعدَّبون، أما و قد انسدت الأبواب، فقد حقت عليهم كلمة العذاب و ما فائدة بقائهم أكثر من ذلك.

[٧٨] وَ انْتَهَى الْأَمْرُ وَ سَارَ الرِّسْلُ نَحْوَ قَرِيْبِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي زِيِّ شَبَانَ حَسَانَ الصُّورِ- وَ هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ فِي السُّورَةِ- وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا أَى أَتَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِئَةً لُوطٍ بِهِمْ أَى سَاءَهُ مَجِيئُهُمْ وَ ضَاقَ لُوطٍ بِهِمْ أَى بِسَبَبِ وِرْوَدِهِمْ ذَرْعًا أَى قَلْبًا وَ طَاقَةً. قَالُوا: إِنْ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنْ الْبَعِيرَ يَنْدِرُ بِبَيْدِيهِ فِي سِيرِهِ ذَرْعًا عَلَى قَدَرِ سَعَةِ خَطْوَتِهِ، فَإِذَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ طَاقَتِهِ

ضاق ذرعه عن ذرعه فيضعف و يمد عنقه، و منه قولهم: «ما لى به ذرع» أى ليس لى به طاقة.

وَقَالَ لوط عليه السّلام: هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ أى يوم شديد علىّ، كيف أصنع بالقوم إذا أرادوا الفاحشة مع هؤلاء الضيوف، أصل «عصب» من الشد، يقال: «عصبت الشيء» أى شددته، و يستعمل غالبا فى الشر.

و قد روى عن الإمام الباقر عليه السّلام- بتغيير سير-: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله، فطلبهم إبليس الطلب الشديد، و كان من فضلهم و خيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم و تبقى النساء خلفهم، و لم يزل إبليس يعتادهم و كانوا إذا رجعوا خرب إبليس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣١

ما كانوا يعملون، فقال بعضهم لبعض: تعالوا نرصد لهذا الذى يخرب متاعنا، فرصدوه، فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقالوا له: أنت الذى تخرب متاعنا مرة بعد مرة، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فيبتوه عند رجل، فلما كان الليل صاح فقال له: ما لك؟ فقال: كان أبى ينمنى على بطنه. فقال الرجل: تعال فتم على بطنى. قال:

فلم يزل الشيطان يدلك الرجل حتى علمه أن يفعل بنفسه، ثم انسل ففر منهم، و أصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام و يحببهم منه و هم لا- يعرفونه، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بالرجال، ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم، حتى تنكب مدينتهم الناس، ثم تركوا نساءهم و أقبلوا على الغلمان، فلما رأى الشيطان أنه قد أحكم أمره فى الرجال، جاء إلى النساء فصير نفسه امرأة ثم قال: إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض. قلن: نعم قد رأينا ذلك. و كل ذلك ينصحهم لوط و يوصيهم، و إبليس يغويهم، حتى استغنت النساء بالنساء.

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل فى زى غلمان، عليهم أقبية فمروا بلوط عليه السّلام و هو يحرث قال: أين تريدون؟ ما رأيت أجمل منكم قط؟ قالوا: إنا أرسلنا سيدنا إلى رب هذه المدينة. قال: أو لم يبلغ سيدكم ما يفعل أهل هذه المدينة، يا بنى إنهم و الله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم. فقالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها. قال: فلى إليكم حاجة؟ قالوا: و ما هي؟ قال:

تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام. قال: فجلسوا، فبعث لوط ابنته فقال: جيئى لهم بخبز و جيئى لهم بماء فى القرعة و جيئى لهم بعباءة يتغطون بها من البرد. فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطر، و جرى الوادى، فقال لوط: الساعة يذهب بالصبيان الوادى، قال: قوموا حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٢

نمضى، و جعل لوط يمشى فى أصل الحائط و جعلت الملائكة يمشون وسط الطريق فقال: يا بنى امشوا هاهنا، فقالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها. و كان لوط يستغنى بالظلام.

و مر إبليس و أخذ من حجر امرأة صبيبا فطرحة فى البئر فتصايح أهل المدينة كلهم على باب لوط، فلما نظروا إلى الغلمان فى منزل لوط قالوا: يا لوط قد دخلت فى عملنا؟ فقال: هؤلاء ضيفى فلا تفضحونى فى ضيفى. قالوا: هم ثلاثة خذ واحدا و أعطنا اثنين. ثم أدخلهم الحجر، و قال: لو أن لى أهل بيت يمنعونى منكم؟ قال:

و تدافعوا على الباب و كسروا باب لوط و طرخوا لوطا. فقال له جبرائيل: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فأخذ جبرائيل كفا من بطحاء فضرب بها وجوههم و قالوا: شاهدت الوجوه. فعمى أهل المدينة كلهم و قال لهم لوط: يا رسل ربى فما أمركم ربى فيهم؟ قالوا: أمرنا أن نأخذهم وقت السحر. قال: فلى إليكم حاجة؟ قالوا: و ما حاجتك؟

قال: تأخذونهم الساعة، فإنى أخاف أن يرحمهم الله سبحانه و يصرف العذاب عنهم. فقالوا: يا لوط إن موعدهم الصبح أليس بقريب لمن يريد أن يأخذ؟ فخذ أنت بناتك و امض ودع امرأتك.

و فى رواية أخرى: ففعل لوط ما أمر و خرج ببنايه ليلا و دعوا زوجته لأنها كانت منافقة، و لما خرج لوط من المدينة و جاء الصباح

قلع جبرائيل المدينة و رفعها إلى السماء ثم قلبها و أمطر الله عليها و على أطرافها حجارة من سجيل.
و فى بعض التفاسير: أن زوجة لوط هى التى أخبرت القوم بالضيوف «١».

(١) الكافي: ج ٥ ص ٥٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٣

[سورة هود (١١): آية ٧٨]

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨)

[٧٩] وَ جَاءَهُ أَى توجّه إلى طرف دار لوط قَوْمُهُ الكافرون يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ يسرعون فى المشى نحوه لطلب الفاحشة بالضيوف، و لعل الإتيان بالمجهول لبيان كيفية الإسراع و أنه لم يكن هرع عقلاء و إنما هرع شهوة حيث قد انطوت أنفسهم على حب هذا العمل الشنيع، فكانت نفوسهم تسوقهم من حيث لا يشعرون وَ مِنْ قَبْلُ إتيان الملائكة أو من قبل وقوع هذه القصة كأنوا أَى كان قوم لوط يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ جمع «سيئة» و المراد بها اللواط، و هذا لبيان وجه أنه عليه السلام ضاق بهم ذرعا و رأى اليوم عصيبا.

قَالَ لوط عليه السلام لما رأى إصرار القوم على السيئة: يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ فتزوجوا بهن و اعملوا حيث أمركم الله، ففى المرأة الطهارة النفسية و الطهارة الجسدية، و إنى مستعد أن أقدم بناتى لكم لئلا تعملوا بالمعاصى و لئلا تفضحوننى فى ضيوفى. و هنا احتمال أنه عليه السلام أراد من «بناتى» بنات المدينة، و أضافهن إلى نفسه لأن كبير الناس يضيف الأفراد إلى نفسه، أَى: تزوجوا البنات عوض هذا العمل فَاتَّقُوا اللَّهَ خافوا عقابه فى عمل اللواط وَ لَا تُخْزُونِ أَى لا تلزمنى عارا فى ضَيْفِي فَإِن الضيف لو أهين كان ذلك خزيا للضيف و عارا عليه أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ استفهام توبيخى، أَى أليس فيكم رجل أو رشيد لا سفاهه به يمنعكم عن اقتراف هذه الجريمة و عن أن يهتك أمرى بالنسبة إلى ضيوفى، حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٤

[سورة هود (١١): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ مَا نُزِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)
لا يبقى عارها على مدى الحياة؟

[٨٠] قَالُوا أَى قال القوم فى جواب لوط عليه السلام: لَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا لوط ما لنا فى بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ أَى من حاجة، فكما لا يرغب الإنسان فيما لا حق له فيه، كذلك لا يرغب فيما لا حاجة له فيه، أو لأن من حق الرجل أن يتزوج البنت، أما إذا لم يرد فكأنه لا حق له فيها، أو المراد ب «الحق» الحصه، أَى لا حصه لنا فيهن و إِنَّكُمْ يَا لوط لَتَعْلَمُونَ ما نُزِيدُ من الضيوف و عمل السيئة بهم.

[٨١] و هنا انقطع لوط عليه السلام و يئس و حزن و قَالَ فى أسف بالغ: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً فَأَكُونُ قويا قادرا على دفعكم، و «الباء» فى «بكم» إما للمقابلة أَى بمقابلتكم، أو بمعنى «على» أَى عليكم، و حذف جواب «لو» توسعه فى المتعلق، أو لوضوح أن المراد «لمنعكم» أو آوَى من «آوى ياوَى» بمعنى: لجأ إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ يمنعكم منكم، أَى: لو تمكنت أن أستعين بقوة عشيرة أو ما أشبهها لدفعتكم و منعكم.

فى الحديث: إن جبرائيل قال- حين قال لوط ذلك-: «لو يعلم أية قوة له؟» «١».

و روى عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أنه قال: «رحم الله أخى لوطا كان ياوَى إلى ركن شديد».

(١) الكافي: ج ٥ ص ٥٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٥

[سورة هود (١١): آية ٨١]

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْتَلُوا إِلَيْكَ فَاسِيرٌ بِالْهَلِكِ بَقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)

[٨٢] و هنا تكلم الرسل و قالوا يا لوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ أرسلنا لإنقاذك و هلاك القوم.

روى أن جبرائيل قال للوط: دعهم يدخلوا. فلما دخلوا أهوى جبرائيل بإصبعه نحوهم، فذهبت أعينهم كما قال سبحانه:

(فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) «١»، لَنْ يَصْتَلُوا إِلَيْكَ أَى لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَهْجَمُوا عَلَيْكَ وَيُنَالُوا مِنْكَ سُوءًا فِي نَفْسِكَ أَوْ ضِيُوفِكَ. وَ رَجَعَ الْقَوْمُ عَنْ دَارِ لُوطٍ خَائِبِينَ مِنْ رَعْبِ الْمَلَائِكَةِ فَقَدْ أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمْ رَعْبًا شَدِيدًا، وَ صَارُوا كُلُّهُمْ عَمِيَانًا لَا يَبْصُرُونَ.

و هنا توجهت الملائكة إلى لوط و قالوا له: فَاسِيرٌ أَى سر ليلًا و اخرج من هذه المدينة، بِالْهَلِكِ «الباء» بمعنى «مع» أَى مع أهلك بَقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أَى بعد ذهاب بعض الليل و قطعته منه، فَإِنَّ الْقَطْعَ مِنَ اللَّيْلِ: بَعْضُهُ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِذَا بَعْدَ إِذَا بِمَعْنَى: لَا يَتَخَلَّفُ فِي الْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ سَوْفَ يَصِيبُهُمُ الْعَذَابُ، وَ إِذَا بِمَعْنَى: لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ وَرَائِهِ حِينَ السَّيْرِ لَثَلَا يَرَى مَا يَزْعِجُهُ مِنْ عَذَابِ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَمْرَاتُكَ اسْتِثْنَاءً مِنْ «أَسْرَ بِالْهَلِكِ» يَعْنِي فَتَتَخَلَّفُ أَمْرَاتُكَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مَعَ الْقَوْمِ ضِدَّكَ يَا لُوطُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ أَى يَصِيبُهَا مِنَ الْعَذَابِ مَا أَصَابَ الْقَوْمَ، فَالْإِلْزَامُ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَخْبِرَهَا وَ أَنْ تَخْلَفَهَا فِي الْمَدِينَةِ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ أَى وَقْتُ هَلَاكِهِمْ

(١) القمر: ٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٦

[سورة هود (١١): الآيات ٨٢ إلى ٨٣]

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ (٨٣) وَ عَذَابُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ وَ هَذَا مَا قَالَتْهُ الْمَلَائِكَةُ لِلُوطِ حِينَ اسْتَعْجَلَ عَذَابَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

[٨٣] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِأَهْلَائِهِمْ جَعَلْنَا عَلَيْهَا أَى عَالِي الْمَدِينَةِ سَافِلَهَا بِأَنَّ قَلْبَهَا فَإِنَّ جِبْرَائِيلَ أَدْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ الْأَرْضِ ثُمَّ قَلْبَهَا بِأَنَّ جَعَلَ أَسْفَلَهَا أَعْلَاهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا الظَّاهِرَ أَنَّ الْإِمطَارَ كَانَ عَلَى نَفْسِ النَّاسِ، وَ «الواو» لَا تَدُلُّ عَلَى تَأْخِيرِ الْإِمطَارِ عَنِ الْقَلْبِ، وَ إِنْ كَانَ التَّرْتِيبُ الذِّكْرِي قَدْ يَعْطِيهِ، لِأَنَّ «الواو» لِمَطْلُقِ الْجَمْعِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ قِيلَ: إِنَّهُ مَعْرَبٌ «سَنَكُ كُلُّ» كَلِمَتَانِ فَارْسِيَتَانِ بِمَعْنَى الْمَدْرِ، وَ لَا شَاهِدَ لِذَلِكَ مَنْضُودٍ هُوَ صِفَةُ سَجِيلٍ، أَى مَتْرَاكِمٌ بَعْضُهُ يَلِاحِقُ بَعْضًا، أَوْ نَضْدٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ حَتَّى صَارَ سَجِيلًا، أَى صَارَ حِجَارًا.

[٨٤] مُسَوِّمَةً أَى مَعْلَمَةً، جَعَلَ فِيهَا عَلَامَاتٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مَعْدَةٌ لِلْعَذَابِ عِنْدَ رَبِّكَ فِي عِلْمِهِ سَبْحَانَهُ، وَ فِي خَزَائِنِهِ الَّتِي لَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُ. وَ كَانَ ذِكْرُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ لِلتَّهْوِيلِ، وَ إِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ فِي خَزَائِنِهِ حِجَارَةً مَنْضُودَةً مَعْلَمَةً، كَمَا أَنَّ الْمَلِكَ يَهَيِّئُ لِأَعْدَائِهِ سَيُوفًا مَعْلُومَةً مَعْلَمَةً فِي خَزَائِنِهِ لِيَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ تَامٍ وَ مَا هِيَ أَى حِجَارَةُ السَّجِيلِ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ فَلَا يَسْتَبْعِدُ أَحَدٌ كَيْفَ يَعْذِبُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٧

[سورة هود (١١): آية ٨٤]

وَ إِلَى مَدِينَتَيْنِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَ لَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤)

الله أحدا يامطار الحجارة؟ إنهم ظلموا فاستحقوا العقاب.

و في بعض الأحاديث: إنها مهياة لظالمي هذه الأمة أيضا «١».

[٨٥] و أرسلنا إلى مَدِينٍ و هم قبيلة سَمُوا باسم جدّهم مدين بن إبراهيم، أو أنها اسم مدينه. و في الكلام حذف، أي: أرسلنا إلى أهل مدين - لكن السياق يقوى الأول - أخاهم في النسب شُعَيْباً و هذه القصة قد ذكرت في سورة الأعراف باختلاف في ذكر بعض الخصوصيات هنا - كما هو الشأن في القصص القرآنية - فإن القرآن يأخذ في كل موضع طرفاً من القصة لإدراجه في المقصود العام المساق له الكلام قال يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده لا شريك له ما لَكُمْ أي ليس لكم من إله غيرُهُ من الأصنام التي تعبدونها و لا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ و الْمِيزَانَ أي لا تعطوا الناس أنقص من حقوقهم عند الكيل و الوزن بالتطيف، و «المكيال» آله الكيل، كما أن «الميزان» آله الوزن، على وزن «مفتاح» إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ فقد أنعم الله عليكم بالرزق فلا تحتاجون معه إلى التطيف و السرقة من الناس و إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إن بقيتم في الكفر و عملتم بالتطيف عذاب يَوْمٍ مُحِيطٍ يحيط بكم

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٣١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٨

[سورة هود (١١): الآيات ٨٥ إلى ٨٦]

و يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ و الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ و لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ و لا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ و ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)
فلا ينجو منه أحد.

[٨٦] و يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ و الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ بالعدل. و قد كان من عادة الأنبياء عليهم السلام أن يركزوا جهودهم بعد الدعوة إلى التوحيد و المعاد، على النقطة المنحرفة في القوم كما ركز لوط عليه السلام جهوده لإزالة الانحراف الجنسي في قومه. و كان الانحراف العام في قوم شعيب بعد عبادة الأصنام تطيف المكيال و الميزان، و لذا أكد على ذلك بالقول مكرراً، مرة بالنهي عن التطيف، و مرة بالأمر بإيفاء الكيل و لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ أي لا تنقصوهم حقوقهم، فإن البائع إذا باع مئاً ثم أعطى أقل من ذلك فقد نقص و بخرس حق المشتري و لا تَعْتُوا من «عاث» بمعنى سعى في الفساد في الأرض مُفْسِدِينَ حال كونكم تفسدون. و هذا حال تأكيدى لأنه بمعنى الفعل، و إنما جاء به لأن المفسد قد لا يعلم بإفساده، فهو يريد النهي عن الإفساد عمداً، أي لا تفسدوا متعمدين الإفساد قاصدين إليه بالذات.

[٨٧] بَقِيَتْ اللَّهُ الذي يبقى بإذن الله و إجازته و إباحته، و أضيف إليه تشريفاً خَيْرٌ لَكُمْ أي ما أبقي الله تعالى لكم من الحلال بعد إتمام الكيل و الوزن خير لكم من التطيف و البخرس، فإنه أكثر بركة و أحسن عاقبة.

و ما ورد من أن الأئمة عليهم السلام و الحجة عليه السلام - بصورة خاصة - بقيه الله، يراد بذلك أنهم و أنه عليه السلام هم الذين أبقاهم الله سبحانه للهداية و الإرشاد إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي لو كنتم مؤمنين لعلمتم أن بقيه الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٩

[سورة هود (١١): الآيات ٨٧ إلى ٨٨]

قالوا يا شُعَيْبُ أ صِلاتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْتَرِكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا ما نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قال يا قَوْمِ أ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا و ما أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفُكُمْ إلی ما أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ما اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)

خير، أو أن خيريه البقيه مشروطة بالإيمان و ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظكم عن الحرام و عن العذاب، و إنما أنا مذكر مرشد، فإن قبلتم

قولى نجوتهم، وإن لم تقبلوا أهلكتكم.

[٨٨] قالوا أى قال القوم فى جواب إرشادات شعيب بالتوحيد وإيفاء المكىال والميزان: يا شُعَيْبُ أ صَلَاتُكَ الَّتِي تَصَلِيهَا اللَّهُ تَأْمُرُكَ أَنْ تَشْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا قَالُوا ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ التَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، كَأَنَّ الصَّلَاةَ قَدْ دَفَعَتْ شُعَيْبَ لِهَدْمِ دِينِ الْقَوْمِ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ أَى هَلِ الصَّلَاةُ تَأْمُرُ أَنْ نَتْرِكَ التَّطْفِيفَ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا تَقْدِيرَهُ: «أَصْلَاتُكَ تَكَلِّفُكَ أَنْ تَأْمُرَنَا بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَ تَرْكِ التَّطْفِيفِ فِي الْمَكْيَالِ وَ الْمِيزَانِ» إِنَّكَ يَا شُعَيْبَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِهْزَاءِ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ الَّذِي لَا قُوَّةَ لَهُ وَ لَا طَوْلَ كَثِيرًا مَا يَظْهَرُ فِي مَظْهَرِ الْحَلِيمِ ذِي الرِّشْدِ الَّذِي يَكْتُمُ غَضَبَهُ وَ أَسْفَهُ فِي مَقَابِلِ الْجَهْلَةِ الَّذِينَ لَا يَلْتَبُونَ طَلَبَهُ. وَ الْمَرَادُ: إِنَّكَ مِصْطَنِعٌ ذَلِكَ لِاقْتِنَاصِ السِّيَادَةِ.

[٨٩] قَالَ شُعَيْبٌ فِي جَوَابِ اسْتِهْزَاءِ الْقَوْمِ: يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أَى أَخْبَرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ حِجَّةً وَاضِحَةً عَلَى نَبِيِّي وَ صَدَقَ ادْعَائِي مِنْ رَبِّي أَى مِنْ طَرَفِهِ سَبْحَانَهُ وَ رَزَقَنِي مِنْهُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٠

رِزْقًا حَسَنًا بِإِعْطَائِي النَّبُوَّةَ وَ التَّوَسُّعَةَ عَلَيَّ فِي مَعَاشِي. وَ الْجَوَابُ مَحْذُوفٌ، أَى: هَلِ يَسْعَى أَنْ أَتْرِكَ عِبَادَتَهُ وَ طَاعَتَهُ أَوْ أَخُونُ وَحِيهِ فَلَا أَبْلُغُهُ وَ لَا- أُوْدِيهِ؟! وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ عَمَلًا إِلَى مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ بِأَنْ أَرْتَكِبَ الْقَبَائِحَ الَّتِي أَنْهَأَكُمْ عَنْهَا، فَأُرِيدُ أَنْ تَتْرَكُوهَا وَ أَعْمَلُهَا أَنَا.

وَ لَعَلَّهُ إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِهَذَا، لَمَّا يَرَى الْمَصْلُوحِينَ- غَالِبًا- أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْهُ، وَ إِنَّمَا يَرِيدُونَ أَنْ يَتَنَازَلَ النَّاسَ عَنْ قِسْمٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ لِأَتَوْهَا هُمْ إِنْ أُرِيدُوا إِلَّا الْإِصْلَاحَ أَى مَا أُرِيدُ مِنَ الدَّعْوَى إِلَّا الْإِصْلَاحَ لَكُمْ عَنِ الْمَفَاسِدِ مَا اسْتَطَعْتُ أَى عَلَى قَدْرِ اسْتَطَاعَتِي.

قال بعض المفسرين: إن

قوله عليه السلام «إن كنت على بينة»

إشارة إلى حق الله، وقوله «ما أريد» إشارة إلى حق النفس، وقوله «إن أريد» إشارة إلى حق المجتمع.

وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ «التوفيق» مصدر «وفق» أى: تَجَمَّعَ الْأَسْبَابُ لَدَى الْإِنْسَانِ، وَ صِيرُورَةٌ بَعْضُهَا وَفْقَ بَعْضٍ لِأَخْذِ النَّتِيْجَةِ.

وَ غَالِبًا تَسْتَعْمَلُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي التَّوْفِيقِ لِلْأُمُورِ الْحَسَنَةِ وَ إِنْ كَانَ مَعْنَاهَا اللَّغْوَى أَعْمَ، فَإِنَّ تَوْفِيقِي فِي الْكُفْرِ عَنِ الْقَبَائِحِ وَ الْإِطَاعَةِ، وَ الْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أُرْشِدُنِي وَ هِيَ لِي أَسْبَابُ ذَلِكَ عَلَيَّ تَوَكَّلْتُ وَ التَّوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ: الرِّضَا بِتَنْدِيرِهِ، وَ اتِّخَاذَهُ ظَهْرًا فِي الْأُمُورِ بِالِالْتِمَاجِ وَ التَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَ إِلَيْهِ أُتِيبُ أَى أَرْجِعُ فِي أُمُورِي كُلِّهَا إِلَيْهِ، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ لَهُ ظَهْرٌ وَ رُكْنٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤١

[سورة هود (١١): الآيات ٨٩ إلى ٩١]

وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١)

يلجأ إليه ليستمد منه القوة فى نوابه، كذلك من اتخذ الله ظهيرا رجع إليه فى حوائجه بالتوسل إليه لقضاء حوائجه.

[٩٠] ثم أخذ شعيب ينصح القوم و يذكرهم بمصارع الأقسام السابقة الذين خالفوا النبيين فأهلكوا و يا قوم لا يجرمكم شقاي أى لا يحملنكم الخلاف معي و العناد و اللجاج أن يصيبكم العذاب، فعنادكم يلجئكم إلى الكفر و التمادي فى الغي حتى يصيبكم العذاب مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من الريح الصرصر أو قوم صالح من الرجفة و ما قوم لوط منكم بعيد فإنهم أهلكوا فى عهد قريب، خالفوا الرسول و تمادوا فى الفساد، فإن لم تعتبروا بالمتقدمين، فاعتبروا بهؤلاء القريبين منكم.

[٩١] وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اطلبوا غفرانه لما سلف منكم من الكفر و المعاصي ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ أَى ارجعوا إليه فى عقيدتكم و أعمالكم،

فلاستغفار لما مضى، و التوبة لما يأتي إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ بكم، فإذا فعلتم ما ذكرته رحمكم و تَلَطَّفَ بكم وَدُودٌ أَي محبب لكم، و معنى ذلك أنه يفعل بهم ما يفعل المحب بمحبته.

[٩٢] قَالُوا أَي قال القوم بعد أن وعظهم شعيب بتلك الموعدة البالغة:

يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ أَي ما نفهم، فَإِنَّ «الفقه» فى اللغة بمعنى «الفهم»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٢

[سورة هود (١١): الآيات ٩٢ الى ٩٣]

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)

كثيراً ممَّا تَقُولُ و هذا كلام المعاند فإنه يقول مثل ذلك و يريد أنه معرض عن كلام المتكلم، فقد أقيم السبب مقام المسبب لأن عدم العمل معلول لعدم العلم وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا لَا قُوَّةَ لَكَ وَ لَا عِزَّةَ، فلا تتمكن من دفع أذانا لو أردنا إيذاءك وَ لَوْ لَا وَجُودَ رَهْطِكَ أَي عشيرتك، و حرمتهم عندنا لَرَجَمْنَاكَ أَي لقتلناك بالحجارة وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ أَي لا عِزَّةَ لك عندنا. و كأن الإتيان بلفظ «علينا» لأجل أن العزيز فوق الناس مرتبه و مقاما.

[٩٣] قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَي هل عشيرتي و قومي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ فَتتركون إيذائي لأجل حرمة عشيرتي، و لا تتركون إيذائي لأجل الله سبحانه، أَي تراقبون العشيرة و لا تراقبون إله العشيرة و خالق الجميع. قال هذا الكلام على نحو الاستفهام الإنكارى وَ اتَّخَذْتُمُوهُ جَعَلْتُمْ الله سبحانه وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا جعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء ظهوركم، و معنى «الظهرى» جعل الشىء وراء الظهر حتى ينسى إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ قد أحاط علمه بأعمالكم، فلا يخفى عليه شىء تصنعونه، فيجازيكم عليه.

[٩٤] وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ أَي على المكانة التى أنتم عليها من الكفر و العصيان، فَإِنَّ «المكانة» هى الحالة التى يتمكن بها صاحبها من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٣

[سورة هود (١١): آية ٩٤]

وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)

العمل. و هذا تهديد يريد: أنكم سترون جزاء أعمالكم السيئة إِنِّي عَامِلٌ حسب أمر الله سبحانه و لا أترجح عن أوامره، فهذا كقوله: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ) «١»، سَوْفَ تَعْلَمُونَ فى الدنيا مَنْ مَنَّا يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ يهينه و يفضحه، هل أنتم أم أنا؟ فيتبين من هو الصادق وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ مِنَّا وَ ارْتَقِبُوا انتظروا ما وعدكم ربكم من العذاب إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ و إنى أيضا أنتظر و أرتقب ما وعدتكم أن يأتىكم، ليدل على صدقى و صحة رسالتى.

[٩٥] و هكذا بقى القوم فى الغي و تمادوا فى الكفر و العصيان، و لم تنفعهم نصائح شعيب عليه السلام حتى جاءهم العذاب وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بعذابهم نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا حيث رحمتهم فلم يشملهم العذاب، و إن كان المؤمنون به مستحقين للعذاب أيضا لما تقدم أن كل إنسان- غير معصوم- لا بد و أن يصدر منه ذنب يستحق العقاب به فتكون نجاه كل فرد برحمته سبحانه.

قال فى تفسير الصافى: و إنما ذكر هنا و فى قصة عاد ب «الواو» أى «و لما»، و فى قصتى صالح و هود ب «الفاء» أى «فلما»، لسبق ذكر وعد يجرى مجرى السبب فى قصتى صالح و هود دون الآخرين. انتهى «٢».

(١) الكافرون: ٧.

(٢) تفسير الصافى: ج ٢ ص ٤٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٤

[سورة هود (١١): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ تَمُودُ (٩٥) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦)

و احتمال بعض أن يكون قوله: «برحمة منا» لأجل أن نجاتهم كانت بسبب هداية الله لهم و الطافه الخفية الموجبة لخروجهم عن حظيرة الكفار.

وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَقَدْ صَاحَ بِهِمْ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَيْحَةً شَدِيدَةً زَهَقَتْ رُوحَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَكَانِهِ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ مِنْ «جَنَمٍ» فِي الْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ فِيهِ، أَى مَاتُوا وَ هُمْ فِي دِيَارِهِمْ، وَ لَمْ يَتِمَّ كُنُوفًا مِنَ الْحَرَكَاتِ أَصْلًا.

[٩٦] كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا مِنْ «غَنَى فِي الْمَكَانِ» إِذَا أَقَامَ فِيهِ، أَى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَلَكَّ الدِّيَارَ، فَقَدْ ذَهَبَ آثَارُهُمْ، وَ عَفَتَ رَسُومُهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ فَلْيَنْتَبِهِ السَّمَاعُ إِلَى طَرْدِ قَبِيلَةِ مَدِينٍ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ لَطْفِهِ كَمَا بَعَدَتْ تَمُودُ وَ لَعَلَّ ذِكْرَ تَمُودٍ هُنَا لِأَنَّ كِلْتَا الْأَمْتِينَ مَاتَا بِالصَّيْحَةِ.

و ربما احتمال أن المراد ب «الصيحة» نوع من العذاب، تقول العرب:

«صاح الزمان بهم» إذا أهلكوا.

[٩٧] ثم يحكى القرآن الحكيم القصة السابقة في هذه السورة و هى قصة موسى عليه السلام و فرعون و لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَى مع الأدلة الدالة على كونه من طرفنا، و هى الثعبان و اليد البيضاء و غيرهما و سُلْطَانٍ مُبِينٍ أَى حجة واضحة عقلية على أن للكون إلهها، و أن فرعون ليس بإله للناس.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٥

[سورة هود (١١): الآيات ٩٧ إلى ٩٩]

إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَ أَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

[٩٨] إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِمَّا الْمَرَادُ: الْأَشْرَافُ مِنْهُمْ، وَ تَخْصِيصُ الذِّكْرِ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ إِذَا أَدْعَانَا أَدْعَى النَّاسَ كُلَّهُمْ، أَوِ الْمَرَادُ بِالْمَلَائِكَةِ: قَوْمَهُ كُلَّهُمْ فَاتَّبَعُوا أَى اتَّبَعَ الْمَلَائِكَةُ أَمْرَ فِرْعَوْنَ فِي اتِّخَاذِهِ إِيَّاهَا وَ الْإِعْرَاضُ عَنْ مُوسَى وَ حُجْجِهِ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أَى مَا هُوَ هَادٍ لَهُمْ إِلَى الرُّشْدِ. وَ هُوَ خِلَافُ «السَّفَهَةِ» فَإِنَّ أَمْرَهُ غَيْرُ مُرْشِدٍ وَ غَيْرُ صَاحِحٍ، بَلْ فِيهِ ضَلَالَةٌ وَ سَفَاهَةٌ.

[٩٩] وَ كَيْفَ يَكُونُ أَمْرُهُ رَشِيدًا، وَ الْحَالُ أَنَّهُ وَ أَتْبَاعُهُ يَصِيرُونَ إِلَى النَّارِ؟! وَ هَلِ الرُّشْدُ مَا يَسْبَبُ الْهَلَاكَ وَ الْعِقَابَ؟! يَقْدُمُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِمْ وَ يَمْشَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ جَمِيعًا، فَفِي الدُّنْيَا كَانَ يَهْدِيهِمْ إِلَى النَّارِ، وَ فِي الْآخِرَةِ يَدْخُلُهُمْ فِيهَا وَ بئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ «الورد» وَرَدَ الْمَاءُ الَّذِي يورد، أَى: بئس الماء الذى يردونه عطشى، فإنه نار يردونها، فقد شبه هؤلاء بأهل الجنة حيث يردون المياه الجارية و أنهار من لبن و عسل و خمر، و هؤلاء فى مقابل أولئك يردون النار و يسقون من الحميم.

قال بعض المفسرين: أوردتهم كما يورد الراعى قطع الغنم، ألم يكونوا قطيعا يسير بدون تفكير؟

[١٠٠] وَ أَتَّبَعُوا الْحَقْوَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً إِمَّا بِالغَرَقِ، وَ إِمَّا بِأَنَّ النَّاسَ يَلْعَنُونَهُمْ، فَكَانَتْ نَتِيجَةُ اتِّبَاعِهِمْ لِفِرْعَوْنَ أَنَّ تَبِعْتَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ يَوْمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٦

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٠ إلى ١٠١]

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (١٠٠) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)

الْقِيَامَةِ يَتَّبَعُونَ بِاللَّعْنَاتِ وَ الْعَذَابِ بئْسَ الرَّفْدُ أَى الْعَطَاءُ الْمَرْفُودُ الْمَعْطَى لَهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ وَ اللَّعْنَةُ، إِنْ هَذَا كَانَ عَطَاءَ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ،

لهم النار و اللعنة، و هذا هو عاقبة من تخلف عن الحق و اتبع الباطل.

[١٠١] ثم بين سبحانه الغرض الذي سيق من أجله تلك القصص، و جعله كخاتمة للفصول المتقدمة ذلك الذي ذكرناه فيما تقدم من هذه السورة من أنباء القرى أى أخبار البلاد السابقة و الأمم الخالية نُقِصَ عَلَيْكَ و نخبره لك ليكون لك سلوة و ذكرى منها أى من تلك القرى قائم باق إلى الآن، فإن بعض البلاد بقيت و إن هلك أهلها، كمصر و حصيد أى منها حصيد قد حصد و عفا أثره، كقرى قوم لوط عليه السلام.

[١٠٢] و ما ظلمناهم أى نحن لم نظلم الذين هلكوا و لكن ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان و هما سببين للهلاك و النكال فما أغنت عنهم أى لم تنفعهم و لم تفدهم آلهتهم أصنامهم البشرية، كقرون، و الحجرية، كالأوثان التي كانوا يعبدونها و التي كانوا يدعونها من دون الله و يتخذونها أرباباً من شئ متعلق به «ما أغنت عنهم» أى لم تنفعهم شيئاً فى دفع العذاب عنهم لَمَّا جاء أمر ربك بإهلاكهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٧

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هى ظالمة إن أخذة أليم شديد (١٠٢) إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك يوم مشهود (١٠٣)

و نزول العذاب عليهم و ما زادوهم ما زادتهم تلك الآلهة غير تئيب من «التباب» أى الخسارة، أى أن الآلهة زادتهم خسارة على خسارتهم، فإنهم لو لم يكونوا يعبدونها، بل كانوا مجرد عاصين لم يزد فى عذابهم، فقد جاء من قبل تلك الآلهة زيادة فى عذابهم و نكالهم، و إنما قال: «زادوهم» بضمير العاقل، لأن الكفار كانوا يعتبرونها عاقله، فجرى الكلام حسب اعتقادهم.

[١٠٣] و كذلك الذى بيناه سابقاً و أوضحناه أخذ ربك و هلاكه إذا أخذ القرى و هى ظالمة أى أهلكتهم و عذبهم، فقد شبه الإهلاك بالأخذ، فكما أن الأخذ لا يتمكن المأخوذ من الإفلات منه كذلك الذين عذبهم سبحانه لا يتمكنون من النجاة. روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «إن الله تعالى يمهل الظالم حتى إذا أخذة لم يفلته ثم قرأ الآية» «١». إن أخذة للظالم أليم مؤلم موجع شديد فلا يمكن الإفلات منه.

[١٠٤] إن فى ذلك الذى تقدم من أحوال الأمم التى كفرت و عصت الرسل لآية دليل على بطش الله سبحانه لمن طغى و تكبر لمن خاف عذاب الآخرة أى لمن آمن لعلمه بأنه أنموذج من ذلك العذاب المهول، فإن ذلك الأخذ الأليم الشديد مشابه لعذاب الآخرة لمن

(١) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٣٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٨

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

و ما نُوحِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (١٠٥)

اعتقد بها ذلك اليوم يوم مجموع له الناس يجمعون كلهم للحساب و الجزاء و ذلك يوم مشهود ليشهده الخلائق كلهم من الجن و الإنس، و فى محضرهم يجرى الحساب و الجزاء.

[١٠٥] و ما نُوحِرُهُ ما نُوحِرُهُ يوم القيامة إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ أى أمد معدودة أيامه، فإذا انتهى ذلك الأمد أظهرناه للوجود، و اللام فى «لأجل» لام العلة، أى لغرض تمام الأجل و انتهائه.

[١٠٦] يَوْمَ يَأْتِ حِينَ يَأْتِ يوم القيامة و الجزاء لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ مَعَ أَحَدٍ إِلَّا بِإِجَازَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فقد شمل يوم

القيامة صمت رهيب، فإن الإنسان إذا خاف ووجل لم يتكلم حيث يسود الخوف والرهبة. ولعل في الإتيان بصيغة المجهول - بناء على ذلك - للإشارة إلى أن الناس هناك كالمساجين الذين لا يحق لأحد أن يكلمهم، وفيه دلالة بليغة على الخوف السائد والرهبة المخيمة على الناس حتى أن سماع الكلام لا يجوز إلا بإذن خاص، ولا يخفى أن هذا لا ينافي تكلم بعضهم مع بعض في مواقف مختلفة لأن ذلك بالإذن، وهل الإذن كالإذن هناك، أو المراد به الإذن التكويني برفع الأبهة؟ احتمالان.

فَمِنْهُمْ أَى من الناس شَقِيٌّ قد شقى بسبب الأعمال الفاسدة والعقائد الكاسدة ومنهم سَعِيدٌ سعد و فاز بعقيدته الصحيحة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٩

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧)

و عمله الصالح.

[١٠٧] فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا وَ هم الذين تركوا الفطرة الأصلية بسبب وساوس الشياطين و النفس الأمارة فَفِي النَّارِ تَلَك محلهم و مسكنهم لَهُمْ فِيهَا أَى فى النار زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ وَ هو إدخال النفس و شَهِيقٌ وَ هو إخراج النفس. قالوا: «الزفير» أول نهيق الحمار، و «الشهيق» آخر نهيقه، و هما من أصوات المكروبين المحزونين، و «الزفير» من شديد الأنين و قبحة، بمنزلة إبقاء صوت الحمار، و «الشهيق» الأنين الشديد المرتفع جدا بمنزلة آخر صوت الحمار.

[١٠٨] خَالِدِينَ فِيهَا أَى دائمين أبدا فى النار ما دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الأَرْضُ أَى ما بقيت جهة العلو و جهة السفلى، فإن اللفظين يطلقان على الجهتين إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ فإن بعض أهل النار يخرجون منها بإدراكهم الشفاعة أو استيفاء عقابهم لأنهم كانوا أهل معاصى، أو كانوا كفارا عصاة، لكن لم تتم الحجة عليهم بما يوجب الخلود، و إنما كانت الحجة عليهم بقدر دخولهم النار كما لو خالفوا بعض الأوامر الثابتة عندهم أنها من قبله سبحانه، بقتل نفس محترمة، أو سلب مال أو ما أشبه. و لا يلزم خروجهم من النار دخولهم فى الجنة، إذ هناك أماكن أخرى معدة للناس كالأعراف. فلا يقال: كيف يدخل الكافر الجنة؟

إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ لا يمنعه عن إرادته مانع و لا يقف دون مشيئته شىء. و لعل الإتيان بصيغة المبالغة «فَعَّالٌ»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٦٩٩

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْجُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْجُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِييَهُمْ غَيْرِ مَنقُوصٍ (١٠٩)

باعتبار العموم فى ما يريد، أى يفعل كل ما يريد، فإذا أراد خلود الكفار خلدوا، و إذا أراد نجاه بعض العصاة نجوا.

[١٠٩] وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا بالطاعة و العمل الصالح فَفِي الْجَنَّةِ لَهُم مستقر و مأوى خَالِدِينَ فِيهَا أبد الأبدى لا يزولون عنها و لا تزول عنهم ما دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الأَرْضُ أَى ما بقيت جهتا العلو و السفلى، فإن العرب تقول لما أطلها: «سما»، و لما أقلها: «أرض» إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ هذا الاستثناء لإفادة أن الأمر لم يخرج عن إرادة الله سبحانه، فليس الخلود جبرا عليهم فإذا شاء إخراجهم من الجنة أمكنه ذلك و إن لم يفعل، أو الاستثناء باعتبار الأول يعنى أن السعيد فى الجنة إلا المقدر الذى هو فى المحشر أو فى النار - ابتداء - لما صدر منه من بعض الأعمال السيئة، فليس فى ذلك الوقت فى الجنة لأن الله لم يشأ كونه فيها، و إذ كان الكلام موهما لانقطاع الخلود جاء التأكيد لذلك بقوله سبحانه: عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ أى غير مقطوع، و «عطاء» منصوب بما فهم من الجملة، أى أعطاهم الجنة عطاء دائما.

[١١٠] إن الأقوام الذين كذبوا الرسل حق عليهم العقاب فى الدنيا و حق عليهم العقاب فى الآخرة، كما استعرض كل من العقابين فى

قصصهم السابقة، و إذ قد علمت يا رسول الله ذلك فلا تك في مزيّة أى فى شك، فإن «المريّة» بمعنى الشك ممّا يعْبُد هؤلَاء الكفار، من الأصنام المنحوتة، فإن مصير الجميع إلى النار و الهلاك ما يعْبُدون إلّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥١

[سورة هود (١١): آية ١١٠]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)

كما يعْبُد آبائهم من قَبْل فليس لهم حجة فى عبادتهم إلا التقليد للآباء عن جهالة و ضلالة، فليست لهم حجة فى عبادتهم لدليل أو منطق. و من المعلوم أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن يشك فى أمرهم، و إنما جرى الكلام من باب «إياك أعنى و اسمعى يا جارة» و إِنَّا لَمَوْفُؤُهُمْ نَصِيْبُهُمْ أى معطوهم جزاء أعمالهم و عقاب أفعالهم و افياء غير منقوص لا ينقص من عقابهم شىء.

[١١١] و شأن هؤلَاء شأن من سبقهم من الأمم فلقد آتينا موسى الكتاب أعطينا التوراة فاختلّف فيه أى فى موسى، هل هو نبي أم لا؟ أو اختلف فى الكتاب، هل هو من عند الله أم لا؟ و على كل حال، فقد اختلفوا فى الحق كما اختلف قومك يا رسول الله و لو لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ حسب ما قدر من المصالح، بأن يكون لكل أمة أجل لا يتقدم و لا يتأخر لقضى بينهم لحكم سبحانه بين المؤمنين و الكافرين بنجاة المؤمنين و إعطائهم الأجر، و هلاك الكفار و خزيهم، لكنه سبحانه حكم و قضى أن تكون الدنيا دار مهلة و اختبار، و لذا يترك كلاً و شأنه يعمل ما يشاء و إِنَّهُمْ أى الكافرين لَفِي شَكٍّ فإنهم ما كانوا يتيقنون بكذب دعوى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، منة أى من وعد الله، أو من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، أو من الكتاب مُرِيبٍ موجب للريب، فإن الإنسان قد لا يعتنى فلا يكون الشك موجبا للريب و قد يعتنى به حتى يوقعه فى الريب حقيقة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٢

[سورة هود (١١): الآيات ١١١ الى ١١٢]

وَإِنْ كُلاَ لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مِنْ تَابٍ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)

[١١٢] وَإِنْ كُلاَ «إن» مخففة من الثقيلة، أو نافية، و على الأول أصل «لما»: «ل من ما» أى «لمن الذين»، فأبدلت النون ميما و اجتمعت ثلاث ميما فحذفت إحداهن، فيكون المعنى: و إن كل طائفة من الفريقين - المؤمنين و الجاحدين - لمن الذين يعطيهم الله أجورهم. و على الثانى يكون «لما» بمعنى «إلا» أى: «ما كل طائفة إلا يعطيهم الله أجورهم» لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أى يعطيهم ربك جزاء أعمالهم إن خيرا فخير و إن شرا فشر إِنَّهُ سبحانه بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فلا يفوته شىء من أعمالهم، بل يعلم كل عمل و يعطى جزاءه.

[١١٣] فَاسْتَقِمْ يا رسول الله كما أمرت بالتبليغ و الإنذار، و لا يزحزحك إنكار المنكرين و جحود الجاحدين و ليستقم من تَابٍ و رجع إلى الله سبحانه بعد الكفر و العصيان مَعَكَ فإن الكافر و العاصى كأنهما ذاهبان عن الله سبحانه إلى غيره، فإذا آمن الكافر، و استغفر العاصى، كانا تائبين راجعين إليه سبحانه. و تقدير «ليستقم» إنما هو بقرينه «استقم» نحو: «نحن بما عندنا و أنت بما عندك راض» أى: نحن بما عندنا راضون.

و لا - تَطْغَوْا أى لا - تجاوزوا أوامر الله سبحانه، بالزيادة أو النقصان، فإن «الطاغين» تجاوز الحد، يقال: «طغى الماء» إذا تجاوز حده. و الخطاب للناس، المفهوم من قوله «من تَاب» إِنَّهُ تعالى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيبصر و يرى طاغين الطاغين و استقامه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٣

[سورة هود (١١): آية ١١٣]

وَ لَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)

المستقيمين، فيجازى كل حسب عمله.

في تفسير «الصافي»: قال ابن عباس: ما نزلت آية كان أشق على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الآية، ولهذا قال: «شيبتي هود و الواقعة و أخواتها» (١).

و عن بعضهم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم، فقلت: روى عنك أنك قلت: «شيبتي هود»

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم»، فقلت: ما الذى شيبك منها، أ قصص الأنبياء و هلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله تعالى: «فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ» (٢).

[١١٤] و إذ أمر سبحانه المؤمنين بالاستقامة، نهاهم عن الانحراف بالركون إلى الظالمين فإن كل انحراف عن الاستقامة ركون إلى الظالم الذى نهج ذلك المنهج المنحرف و لَا تَزْكُنُوا و «الركون» هو الاعتماد و الميل و السكون إلى شخص أو جهة أو نحوها إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فى عقيدته أو عمل أو غيرهما فَمَسَّكُمُ النَّارُ و تأخذكم. و التعبير ب «المس» لعله لإفادة أن مس النار يقتضى الحذر منه فكيف بما فوقه و ما لكم أيها المؤمنون من دُونِ اللَّهِ أى سوى الله سبحانه من أولياء ينصرونكم فى الدنيا و الآخرة، فإن الله هو وليكم ثم إن ركنتم إلى الظالمين لا تُنصرون إذ الله سبحانه يقطع نصره عنكم، و الكافرون-

(١) وسائل الشيعة: ج ٦ ص ١٧٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ١١ ص ٢١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٤

[سورة هود (١١): آية ١١٤]

وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرْفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)

بما انطوا عليه من عدائكم- لا ينصرونكم، و قد جرب المسلمون ذلك، فإنهم من يوم ركنوا إلى الكافرين أخذ أمرهم فى الانحطاط إلى هذا اليوم، حتى يرجعوا عما اقترفوا، فينصرهم الله سبحانه.

[١١٥] و بمناسبة لزوم الاستقامة يأتى السياق لبيان وجوب الصلاة، فإنها أحسن وسيلة للاستقامة، إذ هى تحتاج إلى يقظة دائمة فى النفس و ملكة راسخة تحفظ الإنسان طيلة العمر عن الانحراف، و هذه اليقظة و الملكة لا تكون إلا بالتذكير الدائم الحاصل من إقامة الصلاة صباحا و عصرا و ليلا و أَقِمِ الصَّلَاةَ يا رسول الله، أو كل من يأتى منه ذلك طَرْفِي النَّهَارِ صباحا و عصرا، فإن صلاة الصبح فى الطرف الأول من النهار، و صلاة الظهرين فى الطرف الآخر منه و زُلْفًا جمع «زلفه» و هى المنزلة، مثل «غرف جمع غرفة»، و هى أول ساعات الليل، كأن كل ساعة منزلة من منازل الليل مِنَ اللَّيْلِ و هى صلاة المغرب و العشاء (١).

و هذا هو المفهوم من

رواية النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن: «طرفى النهار» الغداة، «و زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ» هى صلاة العشاء.

أقول: فعلى هذا تكون الآية ساكنة عن الظهرين، و لعل ذلك لصعوبة الثلاثة الأول دونهما.

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ فَإِنْ أَحْسَنَ تَكْفُرَ السَّيِّئَةِ

(١) تفسير القمى: ج ١ ص ٣٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٥

[سورة هود (١١): الآيات ١١٥ الى ١١٦]

وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْ لَا- كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ

أُنَجِّنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)

و تمحقها، و من الحسنات «الصلوات الخمس» فإنها تمحق الذنوب و تمحقها.

و قد روى ذلك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، كما روى عن الإمام المرتضى عليه السَّلام أنه قال: «إن الله يكفر بكل حسنة سيئة. ثم تلا هذه الآية» (١).

ذَلِكَ الَّذِي تَقْدَمُ مِنْ قَوْلِهِ «اسْتَقِم» ذِكْرُ لِلذَّاكِرِينَ أَى فِيهِ تَذَكُّرٌ وَ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ أَرَادَ التَّذَكُّرَ وَ التَّفَكُّرَ.

[١١٦] وَ اضْيُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ، أَوْ عَلَى الصَّلَاةِ، أَوْ مَطْلَقًا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَ الصَّابِرِينَ مِنْ أَفْضَلِ أَقْسَامِ الْمُحْسِنِينَ، وَ الصَّبْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: صَبْرٌ عَلَى الْبَلَاءِ، وَ صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَ صَبْرٌ عَلَى الْأَحْوَالِ، بِأَنَّ لَا يَبْطُرُ الْإِنْسَانَ عِنْدَ الرِّخَاءِ وَ لَا يَجْزَعُ عِنْدَ الْبَلَاءِ.

[١١٧] إِنْ دَعَا الْإِصْلَاحَ الَّذِينَ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ تَغْيِيرِ الْوَاقِعِ السَّيِّئِ هُمُ الَّذِينَ يَبْقُونَ عَلَى الْأُمَمِ مِنَ الْإِنْهِيَارِ وَ الدَّمَارِ إِذَا خَلَّتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ أَنْهَارَتْ وَ اضْمَحَلَّتْ، كَمَا أَنَّ الْمَرْضَى يَحْتَاجُونَ إِلَى أَطْبَاءٍ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ عِلَاجِهِمْ. أَمَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَرْضَى بِبَلَاءٍ طَيِّبٍ أَوْ كَانَ هُنَاكَ طَيِّبٌ لَكِنْ لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ تَنْفِيزِ أَوْامِرِهِ وَ عِلَاجِ مَرْضَاهُ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُمُ الْمَوْتَ وَ الْهَلَاكَ.

وَ هَكَذَا جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ سَابِقُهَا وَ لَا حَقَّهَا فَحَيْثُ إِنْ الْأُمَمِ السَّابِقَةُ لَمْ يَنْفِذْ فِيهِمْ دَعَا الْإِصْلَاحِ لِقِسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ عَدَّبُوا. وَ هَكَذَا يَذْكَرُ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٩ ص ٣١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٦

[سورة هود (١١): آية ١١٧]

وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِیُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)

الله سبحانه بهذه الحقيقة حتى يأخذ الناس حذرهم، و يعلموا أنهم إن لم يصلحوا انهاروا و استحقوا العذاب.

فَلَوْ لَا أَى فَهَلًا، تَقْرِيحٌ وَ ذَمٌّ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ جَمْعُ قَرْنٍ وَ هُوَ الْجِيلُ، أَى مِنَ الْأَجْيَالِ السَّابِقَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَوْلُوا بِقِيَّتِهِ أَصْحَابٌ بَقَايَا فَضْلٍ وَ عَقْلٍ وَ تَدَبُّرٍ، فَكَأَنَّهُمْ كَلَّمُوا كَانُوا أَحْدَاثًا، لَا بَقِيَّةَ عَقْلٍ وَ حِكْمَةٍ وَ حِكْمَةٍ فِيهِمْ حَتَّى يَتَدَبَّرُوا وَ يَتَفَكَّرُوا وَ يَتَعَبَّرُوا بِالْمَاضِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ جَمْعُ هَذِهِ صِفَتِهِمْ حَتَّى يَنْقُذُوا الْأُمَّةَ وَ الْقُرُونَ مِنَ الْهَلَاكِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أُنَجِّنَا مِنْهُمْ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَكْفِي لِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، فَإِنَّ الطَّيِّبَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ أَحْدَقِ الْأَطْبَاءِ لَكِنَّهُ إِذَا لَمْ يَجِدْ آذَانَ صَاغِيئِهِ مِنَ الْمَرْضَى وَ الْمَرْضِيَّ لَمْ يَكُنْ لِأَمْرِهِ نَفْعٌ فِي إِنْقَازِ الْمَرْضَى، إِنْ الْقَلِيلُ الَّذِينَ كَانُوا يَنْهَوْنَ قَدْ أَنْجَيْنَاهُمْ، أَمَا سَائِرُ الْجِيلِ فَقَدْ أَهْلَكُوا بِفَسَادِهِمْ وَ عَصِيَانِهِمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ عَصَوْا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ أَى اتَّبَعُوا تَرْفَهُمْ وَ شَهْوَاتِهِمْ، فِي مَقَابِلِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ مَنَاجِجَ الْأَنْبِيَاءِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ ذَوِي إِجْرَامٍ وَ عَصِيَانٍ، وَ لِذَا أَهْلَكُوا بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الْفَاسِدَةَ.

[١١٨] وَ مَا كَانَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِیُهْلِكَ الْقُرَى السَّابِقَةَ، أَى يَهْلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٧

[سورة هود (١١): الآيات ١١٨ إلى ١١٩]

وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَ لِتَذَلِّكَ خَلْقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

أهل القرى يظلم منه لهم و الحال أن أهلها مصلحون يصلحون أنفسهم و مجتمعهم باجتناب المعاصي و النهي عن المنكر، و إنما

أهلكهم بالعدل حين كان أهلها مجرمين مفسدين.

[١١٩] إن الدنيا دار اختبار و امتحان ليجزى كل حسب عمله و لذا ترك الله سبحانه الأمم و ما يختارون بعد أن بين لهم الرشد من الغي و لو شاء ربك يا رسول الله لجعل الناس أمة واحدة بالجماع إلى الإيمان و العمل الصالح، لكنه لا يشاء ذلك لئلا يبطل الثواب و العقاب و لكن لا يزالون الناس مختلفين بعضهم كافر و بعضهم مؤمن، و بعضهم مطيع و بعضهم عاص، و ذلك بأن شاء الله اختيارهم و قدرتهم.

[١٢٠] إِنْ أَلَا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْتَلَفُونَ و يجتمعون على الحق. و المراد بـ «الرحمة» الألفاظ الخفية، بعد هداية الجميع إلى الطريق و إرشادهم، فمن قبل و آمن لطف به اللطف الخفي الزائد، و من أعرض تركه و غيبه، كما أن الأب إذا أعطى أولاده رؤوس الأموال ليتجروا بها فأعرض بعض و أقبل بعض، لطف بالمقبل كثيرا و أخذ بيده، أما المعرض فهو يخذله و يتركه ليفعل ما يشاء و لذلك أي للرحمة خلقهم فقد خلقهم الله سبحانه حتى يرحمهم، لكن قسما منهم أبوا و تخلفوا و عصوا، كما أن من أسس مدرسه إنما يؤسسها لتعليم الناس و هدايتهم، فإذا أعرض البعض كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٨

[سورة هود (١١): الآيات ١٢٠ الى ١٢١]

وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مُوعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١)

من عنده، لا من عند من أسس المدرسه و تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَي انتهت فلا مبدل لها، و الكلمه هي: لَأَمْلَأَنَّ مِنْ «ملا» بمعنى:

إدخال الشيء في الظرف حتى يمتلئ جهنم من الجنة و الناس أجمعين بسبب كفرهم و عصيانهم، و إنما ذكر هذا الطرف من الناس لأن الكلام حول العصاة و الكفار، و الذين أهلكوا بسبب مخالفتهم للأنبياء.

[١٢١] وَ كَلَّا أَي كَلَّا من هذه القصص المتقدمه نُقِصُّ عَلَيْكَ وَ خبرك من أنباء الرسل أخبارهم، كيف بلغوا، و كيف وقف قومهم ضدهم و آذوهم؟ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ أَي نقوى به قلبك، حتى إذا رأيت إعراضا و أذى من قومك، لم يسبب ذلك بأسك عن البلاغ. و ليس معنى ذلك أنه لم يكن للنبي صلى الله عليه و آله و سلم ثبات، و إنما استمرار الثبات هو بيد الله سبحانه و جاءك يا رسول الله في هذه القصص السالفه الحق فكل ما حكى كان حقا مطابقا للواقع و جاءتك في هذه موعظة تعظ بها الجاهلين و تبعد بها الناس عن المعاصي و ذكري للمؤمنين تذكركم بالله و بآياته و بالآخرة.

[١٢٢] وَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ أَي على حالتكم التي أنتم عليها، و هذا تهديد لهم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٩

[سورة هود (١١): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

وَ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

كقوله: (اعملوا ما شئتم) «١»، إِنَّا عَامِلُونَ على منهجنا، حتى نرى ما يصنع الله بكم و بنا.

[١٢٣] وَ أَنْتَظِرُوا أَي توقعوا عقاب الله و عذابه إِنَّا مُنْتَظِرُونَ فضله و رضوانه، أو المعنى: نحن و أنتم ننتظر نتائج الأعمال، و هل نحن كنا على باطل أم أنتم؟.

[١٢٤] إن ما يأتي غيب و سينكشف الغيب و يظهر المجهول و لله غيب السماوات و الأرض فكل ما غاب عن الحواس، أو غاب عن الوجود- بأن لم يوجد بعد- سواء كان في السماوات أو في الأرض، إنه لله وحده فهو العالم به و هو القادر على إيجادها أو إظهاره و إليه أي إلى الله تعالى يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فكل الأمور مرجعها إليه في الدنيا و في الآخرة، فهو الفاصل في القضايا التكوينية و التشريعية،

حتى أنه إذا لم يشأ شيئاً لم ينفع فيه إرادة الجن والإنس فَأَعْبُدْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ اجعله وكيلاً عنك وناصرًا لك، فإن من يعلم الغيوب، ويكون مصير الأمور إليه، أحق بالعبادة والتوكل عليه، من سائر الأشياء وما رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِغَافِلٍ أَوْ جَاهِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ من الخير والشر، فمن أحسن فلنفسه، و من أساء فعليها.

(١) فصلت: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٠

١٢ سورة يوسف مكية / آياتها (١١٢)

سميت السورة باسم «يوسف» عليه السلام، لاشتمالها على قصته واسمه المبارك. و حيث كانت سورة «هود» مشتملة على قصص الأنبياء، كانت هذه السورة مكتملة لتلك القصص، و أتت بقصة طريفة في موضوعها، و هي تشمل المقصود العام من القرآن الحكيم من التوجيه نحو المبدأ والمعاد، و تطهير النفس من الرذائل، و ذكر الأحكام و التشريعات.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء للكلام بسم الله، فالله هو الذات المستجمعة لجميع صفات الكمال، فهو أحق الأسماء بالاستعانة و الابتداء، و بمن يتبدأ الكلام، غيره؟ و لما ذا يتدئ الإنسان بغيره؟

و هل يعطى الغير ما يطلبه الإنسان؟ و هو الرحمن الذي يرحم الكل، و الرحيم الذي يتفضل على المؤمنين بأنواع خاصة من التفضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)

[٢] الر من جنس «ألف» و «لام» و «راء» أنشئ القرآن الحكيم، أو هي رموز بين الله و الرسول كالرموز التي بين رؤساء الحكومات و سفرائها، أو غير ذلك تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ فإن هذه الأحرف و ما من جنسها هي بعينها تلك الآيات البعيدة التي فوق الطاقة البشرية لا يتمكن الإنسان من الإتيان بمثلا لا لفظا و لا منهجا، و الكتاب مبين واضح لا لبس فيه و لا غموض و لا التواء.

[٣] و لقد شاء الله سبحانه أن ينزل هذا الكتاب بلغة العرب إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا و لماذا؟ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و تفهمون، إذ هو بلغتكم، أو الخطاب في «لعلكم» عام يشمل جميع البشر، إذ كون القرآن من مصدر عربي أقوى في الدلالة على كونه من قبل الله سبحانه فإن الحضارة- عهد نزول القرآن- لم تكن إلا- لفارس و الروم، أما عرب الجزيرة فلم يكونوا أهل تحضر و علم من قراءه و كتابه، فإذا جاء بالقرآن رجل عربي يعيش بين أظهرهم، كان أدل على أنه من قبل الله سبحانه، مما لو كان منزلا على رجل رومى أو فارسى وسط الحضارة.

و قد ذكر المفسرون: أن نزول القرآن على رسول من الجزيرة يشتمل على أنواع من الفضل لم تكن توجد لو أنزل على طرفى العالم المتحضر يوم ذاك، فإن الجزيرة تعد وسط العالم تقريبا، و أنها كانت أحوج إلى الرشاد، و أن أهلها كانوا أقدر على حمل الرسالة، لبدأوتهم و عدم تلوثهم بمفاسد الحضارة، و غير ذلك مما بينوه في المفصلات.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣ الى ٤]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

[٤] نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ وَ بِالْأَخْصِ قِصَّةَ يَوْسُفَ، فَإِنَّهَا قِصَّةٌ وَاقِعِيَّةٌ فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ التَّذَكُّرِ وَ الْعِظَةِ، مَشَوْقَةٌ حَيْثُ اشْتَمَلَتْ عَلَى مَوْضُوعٍ مَثِيرٍ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ أَى بِسَبَبِ إِيْحَانِنَا هَذَا الْقُرْآنَ قِصَصَنَا عَلَيْكَ هَذِهِ الْقِصَصِ فَلَوْ لَا إِيْحَاؤُهُ لَمْ تَكُنْ قِصَّةً وَ إِنْ كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِهِ قَبْلَ إِيْحَاءِ الْقُرْآنِ إِلَيْكَ لَمِنَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. وَ هَذَا لَا يَنَافَى الْحَدِيثَ الْمَرْوَى: «كُنْتَ نَبِيًّا وَ آدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَ الطِّينِ»

«١» إذ لا ملازمة بين النبوة و بين علم كل شىء، فلقد كان نبيا لكنه لم يكن يعلم بعض الأشياء، أو كان وحى القرآن قبل ذلك لأنه إنما أوحى إلى النبي القرآن بعد البعثه فى الظاهر، و أما فى الحقيقة فقد كان صلى الله عليه و آله و سلم يعلم القرآن قبل وحيه إليه. ؟ و قد ورد أن الإمام المرتضى عليه السلام قرأ القرآن و هو طفل رضيع.

[٥] فاذكر يا رسول الله إذ قال يوسُفُ لِأَبِيهِ يَعْقُوبَ بَنِ إِسْحَاقَ بَنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ إِنَّمَا أَتَى بِالْجَمْعِ الْعَاقِلُ لِأَنَّ السُّجُودَ مِنْ صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ. روى عن الباقر عليه السلام فى تأويل هذه

(١) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٤٠٢. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥ الى ٦]

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يُتِّمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) الرُّوْيَا: أَنَّهُ سَيَمْلِكُ مِصْرَ وَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ أَبَوَاهُ وَ إِخْوَتُهُ، أَمَا الشَّمْسُ فَأَمَّ يَوْسُفَ رَاحِيلَ، وَ الْقَمَرَ يَعْقُوبَ، وَ أَمَا الْأَحَدُ عَشَرَ كَوْكَبًا فِإِخْوَتُهُ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ سَجَدُوا شَكَرًا لِلَّهِ وَحْدَهُ حِينَ نَظَرُوا إِلَيْهِ. وَ كَانَ ذَلِكَ السُّجُودَ لِلَّهِ تَعَالَى «١».

[٦] قَالَ يَعْقُوبُ: يَا بُنَيَّ تَصْغِيرُ «ابن»، وَ لَعَلَّ وَجْهَ التَّصْغِيرِ الشَّفَقَةُ لَا تَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ أَى لَا تُخْبِرُهُمْ بِمَا رَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا أَى فَيَحْسُدُونَكَ، حَيْثُ تَدُلُّ رُؤْيَاكَ عَلَى مَقَامٍ رَفِيعٍ، وَ يَحْتَالُوا لِإِهْلَاكِكَ حِيلَةً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ، فَإِنَّهُ يَرِيدُ الْإِيْقَاعَ بَيْنَ الْأَخْوَةِ بِإِشْعَالِ نَارِ الْحَسَدِ فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

[٧] وَ كَذَلِكَ أَى كَمَا أَرَاكَ هَذِهِ الرُّوْيَا تَكْرِمُهُ لَكَ، مِمَّا كَانَ تَعْبِيرُهُ خُضُوعِ الْأَخْوَةِ وَ الْأَبْوِينَ لِمَقَامِكَ يَجْتَبِيكَ مِنْ «الاجْتِبَاءِ» أَى الْإِخْتِيَارِ وَ هُوَ الْإِصْطِفَاءُ، أَى يَخْتَارُكَ رَبُّكَ يَا يَوْسُفَ لِلنَّبُوَّةِ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ «الْأَحَادِيثِ» هِيَ الرُّوْيَا، لِأَنَّهَا مِنْ أَحَادِيثِ الْمَلِكِ وَ إِخْبَارِهِ لِلْإِنْسَانِ فِي مَنَامِهِ إِنْ كَانَتْ الرُّوْيَا صَادِقَةً، وَ مِنْ أَحَادِيثِ الشَّيْطَانِ وَ النَّفْسِ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، وَ «تَأْوِيلُهَا» تَعْبِيرُهَا، سَمِيَ «تَأْوِيلًا» لِأَنَّ الرُّوْيَا تَأْوَلُ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى الْمُتَضَمِّنَةَ لَهُ وَ يُتِّمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بِإِعْطَائِكَ

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ٨]

لَقَدْ كَانَ فِي يَوْسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) رَغْبَاتِكَ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ إِخْوَتِكَ وَ أَوْلَادِكَمَ بِجَعْلِهِمْ أَنْبِيَاءَ وَ مَلُوكًا وَ سَادَةً لِلنَّاسِ كَمَا أَتَمَّهَا أَى أَتَمَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نِعْمَتَهُ عَلَى أَبَوَيْكَ أَيْبِكَ وَ جَدِّكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ حَيْثُ جَعَلَهُمَا نَبِيِّينَ وَ أَعْطَاهُمَا نِعْمَ الدُّنْيَا إِنَّ رَبَّكَ يَا يَوْسُفَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَصْلِحُ لِلرَّسَالَةِ وَ السِّيَادَةِ وَ الْمَلِكِ حَكِيمٌ يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ حَسَبَ الصَّلَاحِ وَ الْحِكْمَةِ.

[٨] ثم شرع سبحانه فى قصة يوسف بقوله: لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يَوْسُفَ وَ إِخْوَتِهِ الْأَحَدِ عَشَرَ آيَاتٌ أَدْلَةٌ وَ عِلَامَاتٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ،

و إرشادات لمن أراد الاسترشاد للسائلين أى لمن يسأل عن الآيات و يهتم بالأمر و يفتش عن الحقائق.

؟ عن الجوامع: روى أن اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر و عن قصة يوسف؟ قال: فأخبرهم صلى الله عليه و آله و سلم بالقصة.

[٩] إذ قالوا أى اذكر إذ قالوا، أو لقد كان آيات إذ قالوا، أى: قال بعض الأخوة لبعض، و قد كان عشرة منهم من غير أم، و يوسف و ابن يامين من أم- كما فى بعض التفاسير و التواريخ- لِيُؤْسَفُ و أَخُوهُ أى ابن يامين أَحَبُّ إِلَى آيِنَا يعقوب عليه السّلام مَنَّا فقد كان يعقوب شديد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٩]

اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطرْحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)

الحب ليوسف و بعده لابن يامين، و كان يوسف من أحسن الناس و جها و أحسنهم أخلاقا.

فقد حكى أن رجلا- سأل يعقوب: لم تفضل يوسف على باقى الأخوة؟ قال: أعلمك بالأمر، فطلب أحد الأخوة و سأله عما لو أساء شخص إليه ماذا يصنع؟ قال الولد: أنتقم منه .. ثم طلب يوسف و سأله عن مثل ذلك السؤال، فقال يوسف: أعفو عنه، قال: فإن أساء إليك ثانية؟ قال يوسف: أعفو، قال: فإن أساء إليك ثالثة؟ قال: أعفو.

و الحال أَنَا نَحْنُ عَضِيْبَةٌ جماعه يتعصب بعضها لبعض، و يعين بعضها بعضا، فكيف أن أبانا يقدم يوسف و بنيامين علينا و نحن أنفع له

منهما؟ إنَّ أبانا لَفِي ضَلَالٍ انحراف عن طريق الصواب مُبِينٍ واضح لا شك فيه، فكيف يقدم أصغر الأولاد على سائر الأولاد؟

[١٠] أخذ الأخوة- و بالطبع لم يكن فيهم ابن يامين- يتآمرون على يوسف ليطفئوا حسدهم قائلين: اقتُلُوا يُوسُفَ قتلا أو اطرْحُوهُ أَرْضًا مجهولة بعيدة، حتى لا يكون إلى جنبنا، و لعل السباع تأكله، أو يؤول أمره إلى الموت يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ تخلص لكم محبة الأب، و تملكون قلبه، فلا يصرف اهتمامه و حبه نحو يوسف فقط وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ أى بعد هذا العمل من قتل يوسف أو طرحه فى أرض مجهولة قَوْمًا صَالِحِينَ تستغفرون الله سبحانه. و هذا من عادة الذى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٦

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠ الى ١١]

قال قَاتِلْ مِنْهُمْ لا- تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ الْقُوَّةُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)

يريد أن يسىء و فيه بقيه من إيمان، فإنه بين عزمه على ارتكاب الجريمة بما توسوس إليه نفسه، و بين نيته فى أنه سيصبح صالحا مستغفرا بعد ارتكابها. و يحتمل أن يراد «صالحين فى أمر دنياكم لا يراحمكم فيها يوسف».

[١١] قال قَاتِلْ مِنْهُمْ فى بعض الأحاديث أن اسمه «لاوى» و هو جد موسى عليه السّلام: لا- تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ الْقُوَّةُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ «الجب» هو البئر و «غيابته» قعره، حتى لا يموت و لا يشرف على الموت حيث يَلْتَقِطُهُ أى يأخذه من هناك بَعْضُ السَّيَّارَةِ «السيارة» هى الجماعة المسافرون، سموا بذلك لأنهم يسيرون فى البلاد. فإنهم إذا عطشوا و أرادوا الماء أدلوا دلوهم فيها، فيتعلق به يوسف فيخرجه، و يذهبوا به إلى دورهم و محلهم، فقد تخلصنا من يوسف، و لم نرتكب جريمة قتله إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ أى تريدون فى الحقيقة التخلص من يوسف، فليكن هذا عملكم و نوع تخلصكم.

[١٢] و لما أحكموا المؤامرة و أجمعوا على التخلص من يوسف الغلام البرىء الجميل حسدا و عدا، جاءوا إلى أبيهم يعقوب ف قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يُوسُفَ لأى شىء لا تثق بنا فى أمر يوسف؟ ألسنا نحن أمناء عندك؟ و يظهر من الكلام أن يعقوب كان سيئ الظن بهم فى أمر ابنه يوسف عليه السّلام وَ الحال إِنَّا لَهُ أى ليوسف لَنَاصِحُونَ ننصح لأجله و نريد الخير به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٢ إلى ١٤]

أَرْسَلْتُهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤)

[١٣] أَرْسَلْتُهُ يَا أَبَانَا مَعَنَا إِلَى الصَّحْرَاءِ غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ «جزم الفعلين» على جواب الأمر، والمعنى: إن ترسله معنا، يرتع ويلعب، و«الرتع» هو التوسع في أكل الفواكه وغيرها، من «الرتعة» وهي الخصب، أو التردد ذهاباً ومجيئاً وَإِنَّا لَهُ لَيُحْفَظُونَ نحفظه عن أن يصيبه الأذى.

[١٤] قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ الْأَوْلَادِ: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ فَذَهَابِكُمْ بِهِ مَوْجِبٌ لِعَمَى وَحَزْنِي حَيْثُ لَا أَقْدِرُ عَلَى فِرَاقِهِ وَأَخَافُ عَلَيْهِ إِنْ ذَهَبْتُمْ بِهِ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ حَيْثُ كَانَتِ الْأَرْضُ مَذْبُوبَةً وَ الْحَالُ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ مشغولون بأنفسكم.

قيل: إن يعقوب رأى في منامه كأن يوسف قد شد عليه عشرة ذئاب يقتلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه فكان الأرض انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام، ولذا قال لهم: أخاف أن يأكله الذئب.

[١٥] قَالُوا قَالَ الْأَوْلَادُ فِي جَوَابِ يَعْقُوبَ: لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَ الْحَالُ نَحْنُ عُصْبَةٌ يَتَعَصَّبُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ، وَ لَنَا مِنَ الْقُوَّةِ وَ الطَّاقَةِ قَدْرٌ كَافٍ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ نكون كالذين تذهب عنهم رؤوس أموالهم، أو نكون إذن عاجزون هالكون، وهذا كالتعليق على ما لا يكون، للتأكيد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٨

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٥ إلى ١٦]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَ جَاءُ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)

على المقصود.

[١٦] ثم إن يعقوب سلم للأمر و أرسل يوسف معهم فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ بِيُوسُفَ وَ أَجْمَعُوا أَي عَزَمُوا جَمِيعًا، يُقَالُ: «أَجْمَعُ» إِذَا عَزَمَ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ فِي قَعْرِهِ، وَ جَوَابُ «لَمَّا» مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ «فَعَلُوهُ» وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ إِلَى يُوسُفَ وَ هُوَ فِي الْجُبِّ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ أَي تَخْبِرُنْ إِخْوَتَكَ بِأَمْرِهِمْ هَذَا بَعْدَ مَا تَجُو مِنَ الْبَثْرِ وَ تَصْبِحُ مَلِكًا، وَ يَأْتُوكَ إِخْوَتُكَ لِأَجْلِ الطَّعَامِ، تَحْكِي لَهُمُ الْقِصَّةَ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّكَ يُوسُفَ. وَ قَدْ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ قَوْلَ يُوسُفَ لِأَخْوَتِهِ- وَ هُمْ جَاهِلُونَ بِأَنَّهُ يُوسُفَ- (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ) «١»؟.

[١٧] و لما طرحوا يوسف في البئر، تأخروا في الرجوع إلى المدينة حتى يأتي الليل فلا يظهر على وجوههم آثار الكذب و جاءوا أباهم أي رجعوا إلى أبيهم يعقوب عشاءً أي وقت العشاء، و ذلك بعد ساعة من الغروب تقريباً يَبْكُونَ و إنما أظهروا البكاء ليوهموا أنهم صادقون في قولهم، فإن البكاء لا يكون إلا- عن حرقه القلب التي تلازم الصدق غالباً، لكن البكاء قد يكون اصطناعاً، و إن جرت الدمعة. و كان بكاء الأخوة هكذا.

(١) يوسف: ٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٧ إلى ١٨]

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِئُكَ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَ جَاءُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

[١٨] و لما رأى يعقوب بكاءهم، فزع وقال: ما لكم؟ قالوا يا أبانا إننا ذهبنا نَسْتِيقُ أى نتسابق فى العدو لننظر أينا أقدر على العدو و الركض، و أينا يسبق أصحابه، من «استيق» بمعنى تسابق و تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا أى رحلنا و بضاعتنا، لأنه صغير لا يقدر على العدو، و ليحفظ رحلنا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ و افترسه و ما أَنْتَ يا أبانا بِمُؤْمِنٍ أى بمصدق لنا لكلامنا و لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ و من عادة الكاذب أن يبرر كذبه بمثل هذه التأكيدات، كما قال الشاعر: «كاد المريب أن يقول خذونى».

[١٩] و جاؤُ جاء الأخوة عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ جاءوا أباهم و معهم قميص يوسف ملطخا بدم مكذوب، فقد ذبحوا جديا و لطحوا قميص يوسف بدمه، حيث أنهم لما ألقوه فى البئر جرّوه من ثوبه و ألقوه فى البئر عاريا.

و إنما جاء ب «على» لأذن المعنى: «جاءوا على القميص بالدم»، أى صبوا عليه الدم، هذا بناء على أن «جاء» يراد به المجيء على القميص، لا المجيء نحو الأب، و إنما يستفاد الثانى من السياق، و أما لو أريد من «جاءوا» المجيء نحو الأب كان اللازم تقدير، حال مثل «صائبين» و نحوه. «و كذب» مصدر أقيم مقام الوصف، أى «مكذوب فيه»، و إنما جاء بالمصدر للمبالغة، كقولك: «زيد عدل».

و لما نظر يعقوب إلى القميص عرف أنهم كاذبون فى قولهم و أنهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٠

إنما دبروا له مكيدة، و لذا توجه إليهم و قال بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أى زينت لكم أنفسكم الحاسدة ليوسف مكيدة دبرتموها. و قد روى: أنه عليه السلام لما رأى القميص و ليس به آثار الشق، علم أن الذئب لم يأكله فإن الذئب إذا أكل إنسانا مزق ثيابه. قال الصادق عليه السلام: لما أتى بقميص يوسف إلى يعقوب قال: «اللهم لقد كان ذئبا رفيقا حين لم يشق القميص» (١).

فأمرى فى هذا الفراق فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام: «إن الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الخلق»

«٢» و اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ به، من «استعان» بمعنى: طلب العون على ما تصفون أى على دفع ما تصفونه من هلاك يوسف.

و قد يقال: أنه كيف يوصف الصبر بالجميل، مع أنه عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه؟ بل كيف يمكن للنبي أن يكون له مثل هذه العلاقة بالأولاد مع أنه يرى عظمة الله و ثوابه؟ و قد يقال مثل ذلك فى بكاء آدم عليه السلام و الصديقة الطاهرة عليها السلام و الإمام السجاد؟

و الجواب: إن هذا النحو من البكاء و التوجع كان له نوعا من التبليغ و الإرشاد لم يكن يؤدى إلا- بذلك، فقد كان بكاء آدم عليه السلام

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٩٩.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧١

[سورة يوسف (١٢): آية ١٩]

و جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَّ أَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَّ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)

إرشادا إلى وقع الخطيئة- و لو كانت ترك الأولى- و بيانا لما للجنة و رضا الله سبحانه من أهمية كبرى حتى أن فراقها و الدخول فيما لا يرضيه سبحانه- و لو لم يكن عصيانا- يوجبان هذا النوع من البكاء.

و فى قصة آدم، ما أجدر البكاء و لو ألف سنة لسخط الله العظيم الذى له كل شىء و بيده كل شىء .. و بكاء يعقوب كان تنفيرا لمثل هذا الاجرام الجماعى و إرشادا عمليا لما للحسد من الوقع السيئ على الحاسد و المحسود و المجتمع، و إن مثل هذا التنفير العملى من

أقوى أقسام الإرشاد والهداية .. وكذلك بكاء الصديقة الطاهرة والسجاد عليهما السلام كان تنفيرا عمليا لأعمال الغاصيين و السفاكين، وإرشادا إلى عظمة المعزى له، الموجب لالتفات الناس حولهم فيستضيئون بأنوارهم ويهتدون بآثارهم.

[٢٠] رجع الأولاد إلى أبيهم و تمت القصة هنا، لتبتدئ بحال يوسف في الجب، فقد ذكر المفسرون أن البئر كانت ذات ماء و لما طرحوا يوسف فيها أوى إلى صخرة كانت في ثناياها. و

قد روى أن جبرائيل عليه السلام هو الذى أخذه،

و شاء الله سبحانه أن يطعمه فى البئر، و هناك بقى ثلاثة أيام و جاءت سَيَّارَةٌ أى قافلة تسير كثيرا، فإن «سيارة» صيغته مبالغه، و القافلة تسمى بهذا الاسم لسيرها كثيرا فى الأرض فَأَرَسَلُوا أى أهل السيارة وَاِرْدَهُم الذى يرد الماء ليستقى منه للقافلة، حتى يأتى إليهم من تلك البئر- التى فيها يوسف- بالماء فأذلى الوارد دَلْوَةٌ أى فأرسل دلوه فى البئر ليأخذ الماء، فتعلق يوسف بالدلو. و

روى أن جبرائيل عليه السلام هو الذى جعل يوسف فى الدلو، بدل الماء، و لما أن أخرج الوارد الدلو، رأى غلاما جميلا فيه، عوض الماء، فدهش من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)

هذه الصدفة العجيبة

و قال لأصحابه: يا بشرى يا قوم! البشارة هذا غلامٌ و أسرّوه بضاعةً إن القوم لما رأوا يوسف نوا فى أنفسهم أن يجعلوه بضاعةً يبيعونه فى البلد بعنوان أنه عبد «١».

و

ورد أن الأخوة جاءوا إلى البئر ليروا ماذا صنع بيوسف هل خرج أو هلك؟ و إذا بهم يتلاقون مع السيارة، فقالوا لهم أنه عبد لنا أبق من المدينة، ثم باعوه للسيارة ليستريحوا منه و الله عليهم بما يعلمون

أى تعمل السيارة من نيتها جعل يوسف بضاعة. و قيل: فى المعنى أمور أخرى، و ما ذكرناه الأظهر منها.

[٢١] وَ شَرَوْهُ أى باع الأخوة يوسف للسيارة بِثَمَنٍ بَخْسٍ ثمن ناقص مبخوس فيه عشرين درهما- كما فى جملة من الأحاديث- دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ أى قليلة، و جىء بهذا الوصف لدلالته على القلة، فإن القلة تعدّ، أما الكثرة فلا تعد بسهولة و كانوا كان الأخوة فيه أى فى الثمن، أو فى يوسف مِنَ الزَّاهِدِينَ يقال: «زهد فيه» بمعنى لم يرغب، فإن الأخوة ما باعوه لقصده الربح حتى يرغبوا فى الثمن، و إنما باعوه للتخلص منه.

[٢٢] و جاءت السيارة بيوسف إلى مصر، و هل هناك بيع آخر، أو كان عزيز مصر هو الذى اشتراه ابتداء؟ احتمالان، و على كل حال فقد صار

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٣٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٣

يوسف عليه السلام فى كنف عزيز مصر، و قد قالوا: أنه كان كبير الوزراء هناك، أو كان هو الملك بالذات، و توسم العزيز فيه الخير لما رأى على شمائله من آثار الكبر و الرفعة و لذا قال الذى اشتراه يوسف من مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ و كانت تسمى «زليخا» أَكْرِمِي مَثْوَاهُ أى هيئى له مكانا شريفا كريما، ليكون فى راحة و رفاه عسى أن يَنْفَعَنَا فى المستقبل باتخاذة عاملا عندنا فى

أمورنا، أو المراد: بيعه و الانتفاع بثمره لأن مثله غالى الثمن أو نَتَّخِذَهُ وُلْدًا على وجه التنبؤ. فقد قالوا: أن عزيزا لم يكن له ولد، كما أنه لم يكن يقدر على إتيان النساء و كَذَلِكَ كما أنعمنا على يوسف بالنجاة من كيد الأخوة و الخلاص من الجب، كذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ بما عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه- أو الوزير- حتى صار بذلك متمكنا من الأمر و النهى، و صارت له منزلة حسنة، و المراد ب «الأرض» أرض مصر و لِنَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ أى تفسير الرؤيا ليلبغ المرتبة العالية بواسطة تمكّنه من هذا العلم.

و لعل المراد بذلك النبوة، و قوله: «و لنعلمه» عطف على المعنى، أى: دبرنا الأمر ليوسف لنمكنه فى الأرض و لنعلمه، و قد كان التعليم بسبب أنه عف عن الزنا- كما قيل- و اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ أى على أمر يوسف يحفظه و يهيئ له أسباب الرفاه حتى يوصله إلى السلطة و السيادة، أو المراد: أن الله غالب على أمر نفسه فمهما شاء من شىء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)

تمكن منه، لا يتمكن أحد على دفعه عن مراده و لا يعجزه شىء و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ و هذا يناسب المعنى الثانى، فإن الناس غالبا ينظرون إلى المقدمات التى ألفوها فلا- يرون النتائج التى يريدتها الله سبحانه، لكنه تعالى يفعل ما يشاء مما لا يظهر للناس بل يخفى عليهم.

[٢٣] و لهذا بقى يوسف هناك منفردا مكرما و لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ بَانَ اكتمل شبابه و قوته، و «أشد» جمع لا واحد له- كما قيل- آتَيْنَاهُ أعطيناها حُكْمًا حكمه يعرف بها مواضع الأشياء و موارد الأمور و مصادرها، فكأنه يحكم على الأشياء حسب موازينها اللائقة بها و عِلْمًا و هو العلم بالأشياء. و من المعلوم أن العلم بالشىء غير الحكمه، فرب عالم غير حكيم، و رب حكيم غير عالم. و لعل تقديم «الحكم» على «العلم» لما فى الحكم من الأهمية و لذا نرى كثيرا من العلماء لا حكمه لهم، و لذا لا ينجحون فى الحياة و كَذَلِكَ كما جزينا يوسف عليه السّلام على صبره و على المصائب التى وردت عليه نَجْزِي سَائِرَ الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى العقيدة و العمل. و هل المراد بقوله «آتيناه» الرسالة، أو زيادة فيها؟ احتمالان.

[٢٤] و إذ قد انتهت مرحلة امتحان يوسف الأولى، جاء دور المرحلة الثانية، و قد كانت أصعب من الدور الأول، و قد جرت سنه الله سبحانه على امتحان الأنبياء بأشق أنواع الامتحان، حتى يصلوا لأخذ زمام المجتمع، و ينالوا المراتب السامية و رَاوَدَتْهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٥

الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا فاعل «راودت» «التى» و المراد بها «زليخا» زوجة العزيز و «هو» يرجع إلى يوسف، أى طالبت يوسف المرأة التى كان يوسف فى بيتها عَنْ نَفْسِهِ كأنها تريد انتزاع نفس يوسف و شبابه و طاقاته الجسميه، فإن «المرادوة» مفاعلة، بمعنى «الذهاب و الإياب» لأجل قضاء الحاجة، فقد تكررت زليخا فى الذهاب إلى يوسف، لتغريه و تتترع نفسه منه، بأن يجامعها، إشباعا لغرائزها الجنسية.

و غَلَّقَتِ زليخا الأبواب أبواب القصر لئلا يأتى أحد فجاءه فيكشف مؤامرتها على يوسف، و لفظه «غلقت» من باب التفعيل تدل على كثرة فى الأبواب و قَالَتْ زليخا ليوسف: هَيْتَ لَكَ أى أقبل و بادر، فإن «هيت» اسم فعل بمعنى: «هلم» و «لك» خطاب، أى أنت يا يوسف، يأتى للتأكيد، كما يقال: «أنت».

و قد يصور هذا المقام الحرج الذى كان يوسف عليه السّلام عليه، فشاب عازب، فى قصر ملهى بالترف، و امرأه فى سن الاقتضاء، و الأبواب مغلقة، و تقتضى القاعدة أن قبل ذلك كانت منها إشارات و تطلبات، و الآن أتت الساعة الحاسمة، بلفظ مكشوف «هيت لك» لكن الإيمان الراسخ فى يوسف ضرب بالطلب عرض الحائط قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَعْتَصِمَ بِاللَّهِ و أعوذ به أن أرتكب هذه الجريمة إِنَّهُ رَبِّي إن الله ربي، فكيف أخالفه بعد أن أَحْسَنَ مَثْوَايَ و جعل مكانى مكانا حسنا. ثم أن المراد ب «المثوى» الأصل، أو المراد: النبوة، أو المراد:

ما هيئ له في بيت العزيز من الكرامة و الاحترام. و ذكر بعض المفسرين أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٢٤]

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)

الضمير في «إنه» عائذ إلى «زوجها» أي إن سيدي زوجك قد أحسن مثواي فكيف أخونه في زوجته. فإن «الرب» يطلق على السيد المحسن.

إِنَّهٗ أَى الشَّأْنِ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ يَظْلَمُونَ أَنفُسَهُمْ بِالْعِصْيَانِ، أَوْ يَظْلَمُونَ الْغَيْرَ بِالْخِيَانَةِ فِي عَرْضِهِ.

[٢٥] إن يوسف لم يهم بالخطيئة، كيف و قد قال: «معاذ الله» لكن الآية الكريمة تصور الطبيعة البشرية التي تهتم بالخطيئة لو لا النبوة و العصمة و لَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ أَى همت زليخا و قصدت الخطيئة بيوسف و هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ أَى لكان هم، لو لم يكن برهان الله يرفع يوسف، بكونه نبيا معصوما. و هكذا كما تقول: «قصد فلان قتلى و قصدت قتله لو كنت جاهلا».

قال الإمام الصادق عليه السلام: «البرهان: النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، و الحكمة الصارفة عن القبائح» (١).

و حاصل المعنى: أن يوسف لو لا النبوة لكان هم بها، لكن النبوة منعت عن ذلك لأن المعصوم لا يهتم بالخطيئة كذلك أريناه البرهان و حفظناه بالنبوة و العصمة لِنَصْرَفَ عَنْهُ الشُّوءَ كُلِّ أَقْسَامِ الشُّوءِ، فَإِنَّ الْعِصْمَةَ مَلَكَ لَا تَدَعُ الْمُتَصِفَ بِهَا يَفْعَلُ شَيْئًا مَهْمَا كَانَ وَ الْفَحْشَاءَ

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)

قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)

ركوب الفاحشة، و المراد بها الزنا إِنَّهٗ إِنْ يَظْلَمُونَ أَنفُسَهُمْ بِالْعِصْيَانِ، أَوْ يَظْلَمُونَ الْغَيْرَ بِالْخِيَانَةِ فِي عَرْضِهِ - أي الذين أخلصناهم عن الزيف و العصيان، و اخترناهم للنبوة و الطهارة.

[٢٦] إن زليخا همت بأخذ يوسف للخطيئة و يوسف هم بالفرار منها و توجه كل منهما نحو الباب وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ أَى تبادل كل من

يوسف و زليخا نحو باب الغرفة، من «استبق» بمعنى السبق، و قد كان التوجه إلى الباب أولا من يوسف حيث أراد الهروب و الفرار وَ

أخذت زليخا قميص يوسف لتجره نحوها ف قَدَّتْ أَى شقت قَمِيصَهُ أَى قميص يوسف مِنْ دُبُرٍ أَى من خلف يوسف، لأنها أخذت

بالقميص من خلفه وَ أَلْفِيَا مِنْ «ألفي» بمعنى «وجد»، أَى وجدت زليخا و يوسف سَيِّدَهَا أَى زوج زليخا، و هو «العزيز» لَدَى الْبَابِ أَى

قرب الباب، و هنا سقط في يد زليخا، و تحير يوسف ماذا يصنع، لأن المنظر كان مربيا.

و هنا بادرت زليخا لتبرير نفسها قَالَتْ مَخَاطَبَةُ زَوْجِهَا: مَا نَافِيَهُ، أَى ليس جزاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا عَمَلًا قَبِيحًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ

يُجَسَّسُ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِأَنْ يَضْرِبَ بِالسَّيَاطِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

[٢٧] قَالَ يَظْلَمُونَ أَنفُسَهُمْ بِالْعِصْيَانِ، أَوْ يَظْلَمُونَ الْغَيْرَ بِالْخِيَانَةِ فِي عَرْضِهِ - أي الذين أخلصناهم عن الزيف و العصيان، و اخترناهم للنبوة و الطهارة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٨

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٧ إلى ٢٨]

وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهٗ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)

أَى طالبتنى بالسوء وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا أَهْلَ الْمَرْأَةِ.

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ألهم الله عز وجل يوسف أن قال للملك:

سل هذا الصبي في المهدي، فإنه يشهد أنها راودتني عن نفسي. فقال العزيز: الصبي؟ فأنطق الله الصبي في المهدي ليوسف».

أقول: قال بعضهم: أن الابن كان له من العمر ثلاثة أشهر، وكان ابن أخت زليخا، وكانت الشهادة أن قال: إن كان قميصه أي ثوب يوسف عليه السلام قد أي شق من قبيل من مقدمه فصيدت زليخا وهو من الكاذبين أي أن يوسف كاذب، إذ يظهر أن يوسف أراد المرأة وهي أخذت بثوبه لتدفعه عن نفسها فانشق القميص، أو لأنه يدل أن المرأة فرّت ويوسف عقبها فتعثر بثوبه من الأمام وانشق الثوب من قدام.

[٢٨] وإن كان قميصه قد من دبر إن كان ثوب يوسف شق من الخلف فكذلك تبين كذب زليخا وهو من الصادقين فيدل على أن المرأة هي التي راودت يوسف وأنه أراد الفرار، لأنه يدل على أن المرأة تبعت يوسف وأخذت بثوبه من خلف، فانشق الثوب لجذبتها له.

[٢٩] فالتمت الزوج إلى القميص ولما رأى قميصه أي ثوب يوسف عليه السلام قد من دبر أي شق من خلف، عرف أن المرأة هي التي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا وَاسْتَعْفِرِي لِدُنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠)

خانت و أرادت السوء قال متوجها إلى زليخا إنه أي هذا العمل الذي رأى آثاره من كيدك وحيلكن معاشر النساء إن كيدك عظيم تعملن الأعمال السيئة، ثم تلقين التهم على البريء.

[٣٠] ثم توجه السيد إلى يوسف عليه السلام قائلا: يا يوسف أعرض عن هذا الحديث و اكنمه فلا تفشه و استغفري يا زليخا لدنبيك إنك كنت من الخاطئين أنت أذنبت لا يوسف عليه السلام. قال «من الخاطئين» و لم يقل «من الخاطئات» تغليبا، كما قال: (وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) «١»، و كان ذلك لأن أول ما يتبادر إلى الذهن الرجال، سواء في الإطاعة و العصيان، أو غيرهما.

[٣١] ثم لم يمض زمان حتى شاع هذا الأمر في البلد و أن زليخا قصدت يوسف بالسوء و قال نِسْوَةٌ أي جماعة من النساء. و إنما ذكر الفعل لأنه يجوز في الجمع مذكرا كان أو مؤنثا الأمران، تقول «قال و قالت رجال»، و كذا «قال و قالت نساء»، باعتبار اللفظ و المعنى، كما أن «قالت» باعتبار جماعة الرجال، قال ابن مالك:

و التاء مع جمع سوى السالم من مذكر كالتاء مع إحدى اللب

في المدينة في مصر، و كان ذكر هذه الجملة لإفادة أن الخبر

(١) آل عمران: ٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٠

[سورة يوسف (١٢): آية ٣١]

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَوَالَّتِ اخْرُجَ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)

شاع في البلد، و لو لم تذكر لاحتمل أن ذلك قول نسوة القصر، فقد قلن تلك النسوة على وجه التعجب و الاستغراب: امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه أي تدعو مملوكها إلى نفسه، فتريد أن تسلب نفس المملوك، ليفجر بها قد شغفها حبا دخل حب الفتى في

شغاف قلبها، فإن «الشغاف» هو حجاب القلب، يقال: «شغف زيد عمرو حبا» أى خرق حب زيد شغاف قلب عمرو، و فاعل شغفها الضمير الراجع إلى يوسف عليه السلام إننا لَنراها نرى امرأة العزيز في ضلالٍ مُبينٍ انحراف عن نهج الصواب واضح، إذ كيف تتعلق المرأة ذات البعل بعبدها.

[٣٢] فَلَمَّا سَمِعَتْ زليخا بِمَكْرِهِنَّ أى تعبير تلك النسوة لها بحب يوسف. و إنما سُمي «مكرا» لأن قصدهن من هذا القول كان أن يرين يوسف لما وصف لهن منه حسنه - كذا في «المجمع» - . و قيل:

لأنهن أخفين التعبير كما يخفى الماكر مكره أَرَسَلَتْ إِلَيْهِنَّ تطلبهن للضيافة عندها وَ أَعْتَدَتْ هِيأت لِهِنَّ مَتَّكًا هو ما يتكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث، أى هِيأت لهن مَأْدِيَةٌ و قد كان العادة أن يأكلوا الطعام و هم متكئون على الوسائد - كما هو عادة أهل الترف - وَ آتَتْ أعطت زليخا كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهِنَّ سِكِّينًا لقطع اللحم، أو تقشير الفاكهة كما هى العادة الجارية إلى هذا الزمان وَ قَالَتْ زليخا ليوسف حين اشتغلن بالتقشير أو التقطيع: اخرج يا يوسف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨١

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٢]

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) عَلِيهِنَّ أمرته بذلك ليرين جماله فلا يعذلنها فى ما قصدته منه فخرج عليه السلام حيث كان بصورة مملوك مطيع لديها و لما رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ أى أعظمته و تحيرن فى جماله، فقد كان خارق الحسن و الجمال وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بتلك السكاكين، بدل تقطيع اللحم أو الفاكهة، على جهة الخطأ، فقد بعثت دهشتهن بجماله أن لم يلتفتن إلى صنعهن، و المراد بالقطع - حسب الظاهر - الجرح و الخدش، يقال: «فلان قطع يده بالسكين» إذا جرحها و خدشها.

وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ وَ هى كلمة تنزيه تقال فى موضع الدهشة و العجب، لبيان الدهشة فى صنعه سبحانه، و أصل «حاش» «حاشا» حذفت الألف تخفيفا، بمعنى التنزيه، و «الله» جار و مجرور متعلق به ما هذا الذى نراه، أى يوسف عليه السلام بَشْرًا «ما» تعمل عمل ليس ف «هذا» اسمها، و «بشرا» خبرها، أى ليس هذا كالبشر، فإن هذا الجمال الخارق لا يوجد فى البشر إن هذا ما هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ رفيع المنزلة عند الله سبحانه، ذو كرامته، و إِلَّا لم يمنحه هذا الجمال.

[٣٣] قَالَتْ زليخا بعد أن رأت أنها فازت عليهن و أنهن أعطين الحق لها فيما قصدت من سوء يوسف: فَذَلِكُنَّ «ذا» إشارة إلى يوسف، و «كن» خطاب لهن، أى فهذا يوسف - أيتها النسوة - هو الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ من «لام» بمعنى «عذل» أى عدلتنى بالنسبة إليه، قائلات كيف أن امرأة العزيز تراود فتاها؟ ثم قالت زليخا، و قد بقى لها تعلق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٢

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٣]

قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرَفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) به: وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ أى طلبت نفس يوسف فَاسْتَعْصَمَ أى لاذ بالعصمة و الامتناع وَ لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ بعد ذلك ما آمُرُهُ من الفعل لَيُسْجَنَنَّ أى ليحبس فى السجن، فإنى أكيد به حتى أوقعه فى السجن وَ لَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ الصاغر هو الدليل، من الصفات، أى لأذله حتى يكون ذليلا.

[٣٤] و لما رأى يوسف عليه السلام إصرارها على الخطيئة به اختار السجن لنفسه الشريفة عن الآثام، و ليخلص من التذبذب و الاتهام، ف قَالَ يَا رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ من الفاحشة، و فى الإتيان بلفظ «يدعوننى» دلالة على أن تلك النسوة أيضا طمعن فيه.

و قد روى عن الإمام السجاد عليه السلام: «أن النسوة لما خرجن من عندها أرسلت كل واحدة منهن إليه سرا من صاحبتة تسأله الزيارة

لها» (١).

و لا يخفى أن «أحب» هنا مجرد عن معنى التفضيل، كما هو القاعدة في أمثاله كقوله: (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا) «٢»، و (أَحْسَنُ تَأْوِيلًا) «٣»، و إِلَّا تَصْرِفُ يَا رَبِّ عَنِّي كَيْدَهُنَّ بِالْعَصْمَةِ وَالْحَفِظَ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ يُقَالُ: «صَبَا يَصْبُو»، إذا مال نحو الشهوة الجنسية، من

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٧٥.

(٢) الكهف: ٤٥.

(٣) النساء: ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)

«الصبوة» و هي لطافة الهوى، أى: أمل إلى تلك النساء. و من المعلوم أنه لو لا لطف الله و عصمته تميل النفس البشرية إلى الشهوات و أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ يُقَالُ لِلْعَاصِي: جَاهِلٌ، و إن كان عالماً، لأنه لو لم يجهل حقيقة لم يعرض نفسه لعقاب الله سبحانه.

[٣٥] فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ أَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَ يَوْسُفَ فَصَيَّرَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ فَقَدْ عَصَمَهُ سَبْحَانَهُ حَتَّىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتْرُوحُ عَنِ الطَّهَارَةِ وَ لَوْ أَصِيبَ بِالْأَذَى وَ سَجَنٌ، كَمَا أَلْقَى الْيَأْسَ فِي قَلْبِ زَلِيخَا وَ النِّسْوَةَ لِامْتِنَاعِ يَوْسُفَ عَنِ الْفَاحِشَةِ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ السَّمِيعُ لِدَاعِي الدَّاعِي الْعَلِيمُ بِالنِّيَّاتِ.

[٣٦] ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ ظَهَرَ لِلْعَزِيزِ وَ زَوْجَتِهِ وَ أَصْحَابِهِمَا مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَىٰ بَرَاءَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَجُنَّهُ فَإِنِ زَلِيخَا خَدَعَتْ زَوْجَهَا بِأَن يَسْجَنَ يَوْسُفَ حَتَّىٰ يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ الْمَجْرَمُ وَ حَتَّىٰ تَشْفَىٰ زَلِيخَا غِيظَهَا مِنْهُ حَيْثُ لَمْ يَطْعَمَا فِي الْفَاحِشَةِ حَتَّىٰ حِينٍ إِلَىٰ مَدَّةٍ حَتَّىٰ تَخْمَدَ الضُّوْضَاءُ، وَ يَنْسَى النَّاسُ الْقِصَّةَ.

[٣٧] وَ سَيِّقَ إِلَى السَّجَنِ يَوْسُفَ الْبَرِيءَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ أَخَذَتْ الْمَرْأَةُ الْمَجْرَمَةَ تَسْرَحُ وَ تَمْرَحُ - كَمَا هُوَ عَادَةٌ الدُّنْيَا -

روى عن الإمام الرضا عليه السلام: أن السجنان قال ليوسف: إني لأحبك. فقال يوسف: ما أصابني إلا من الحب، إن كانت خالتي أحببتي سرقنتي، و إن كان أبى أحببني حسدنى إخوتى،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٤

و إن كانت امرأة العزيز أحببني حبستنى «١».

و روى عن الصادق عليه السلام: أن يوسف بكى على يعقوب حتى تأذى منه أهل السجن فقالوا له: إما أن تبكى الليل و تسكن بالنهار و إما أن تبكى بالنهار و تسكن بالليل على واحد منهما «٢».

وَ دَخَلَ مَعَهُ مَعَ يَوْسُفَ السَّجَنَ فَتَيَانِ شَابَانِ، وَ كَانَا عَبْدَيْنِ لِلْمَلِكِ أَحَدُهُمَا خَبَازُهُ وَ الْآخَرُ صَاحِبُ شِرَابِهِ. وَ فِي ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَ إِلَى يَوْسُفَ بَيِّنَانٌ لَهُ رُؤْيَا رَأْيَاهَا - بَزَعْمَهُمَا - فَ قَالَ أَحَدُهُمَا وَ هُوَ صَاحِبُ الشَّرَابِ: إِنِّي أَرَانِي أَرَى نَفْسِي فِي الْمَنَامِ أَعْصِرُ خَمْرًا أَى أَعْصَرَ الْعَنْبَ لَصْنَعِهِ خَمْرًا، فَقَدْ سَمِيَ الْعَنْبُ بِذَلِكَ بِعِلَاقَةِ الْأَوَّلِ، كَمَا يُقَالُ: «فَلَانٌ يَطْبِخُ الدَّبْسَ» وَ إِنَّمَا يَطْبِخُ التَّمْرَ لِيَكُونَ دَبْسًا وَ قَالَ الْآخَرُ وَ هُوَ خَبَازُ الْمَلِكِ: إِنِّي أَرَانِي أَرَى نَفْسِي فِي الْمَنَامِ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ الْخُبْزِ.

ثم قال الفتيان ليوسف: نبئنا أخبرنا بتأويله ما يؤول إليه منامنا إنا نراك من المحسنين الذى يحسن إلى الناس. و من المعلوم إن الإنسان المحسن يتوسم فيه الخير فى كل شىء حتى فى تأويل الرؤيا و تعبير المنام، أو المراد تحسن تعبير الرؤيا.

قال الصادق عليه السلام: لما أمر الملك بحبس يوسف في السجن

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٤٧.

(٢) إرشاد القلوب: ج ١ ص ٩٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٧]

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُم كَافِرُونَ (٣٧)

ألهمة الله تعالى علم تعبير الرؤيا فكان يعبر لأهل السجن رؤياهم «١».

أقول: و كأن ذلك العلم صار شعاعا لمن منع نفسه عن الشهوة الجنسية، فقد قالوا: أن ابن سيرين كان تلميذا عند بزاز و كان جميلا جدا و في ذات يوم جاءت امرأة و اشترت من البزاز أجناسا ثم حملتها الفتى ليأتي بها إلى بيتها، و لما أن دخلا الدار أغلقت الباب و قالت:

هيت لك. قال ابن سيرين- لما لم يجد حيلة للفرار منها:- ائذني لى بالبراز لأقضى حاجتى ثم بعد ذلك أنت و شأنك. و لما أن دخل المرحاض لوث نفسه بالنجاسة، فلما خرج و رآته المرأة بتلك الحالة عافته استقذار له، و من ذلك الحين و هب الله له علم الرؤيا. [٣٨] و هنا أراد يوسف عليه السلام أن يرشد الفتيتين إلى الطريقة الصحيحة كما هو عادة الأنبياء و المرشدين حتى ينتهزوا كل فرصة لنشر الدين و تبليغ رسالة الله سبحانه، و قد أراد أن يقدم لذلك مقدمة مطمئنا بصحة ما يدعو إليه، فإن غالب الناس إذا رأوا من أحد خارقه أو ما أشبهها اطمأنوا إليه و صدقوا كلامه، بخلاف ما لو كان الكلام مجرد منطوق و دليل، فإن الناس ينظرون إلى القائل لا إلى القول.

و لذا بدأ يوسف بين لهم أنه يعرف بعض أمور الغيب بتعليم الله له، فيماكانه أن يخبر عن الطعام الذى يؤتى به لهما قبل أن يؤتى به ف قال لا يَأْتِيكُمَا أَيُّهَا الْفَتَيَانِ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ لِأَجْلِ أَكْلِكُمَا وَ رِزْقِكُمَا إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ آتَى بِصِفَةِ ذَلِكَ الطَّعَامِ وَ سَائِرِ خُصُوصِيَّاتِهِ، وَ إِنَّمَا قَالَ «بِتَأْوِيلِهِ» لِأَنَّ الطَّعَامَ يُوَوَّلُ إِلَى تِلْكَ الصِّفَةِ، فَمَثَلًا لِلْحَمِّ الْمَعْدِ لِلطَّعَامِ يُوَوَّلُ إِلَى «الْكِبَابِ» أَوْ «الْمَرْقِ» أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا، وَ قَدْ لَوْحِظَ فِي

(١) تفسير العياشى: ج ٢ ص ١٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٨]

وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

اللفظ- الجنس- حيث تقدم لفظ «التأويل» بالنسبة إلى الرؤيا، و قد كان عيسى عليه السلام كذلك كما قال: (وَ اتَّبَعْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) «١».

قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا التَّأْوِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ لِلأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْحَوَاسِ، وَ «كَمَا» خُطَابٌ، أَى أَنَّ التَّأْوِيلَ أَيُّهَا الْفَتَيَانِ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي وَ مِنْ هَذَا الْبَابِ تَطَّرَقَ إِلَى ذِكْرِ الرَّبِّ، لِتَسْنِي لَهُ الشَّرْحَ حَوْلَهُ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ أَى رَفَضَتْ فِرَاعِنَهُ مِصْرَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْأَصْنَامَ آلِهَةً، أَى أَنى تَرَكْتُ هَذِهِ الْمِلَّةَ. وَ لَيْسَ مَعْنَى «تَرَكْتُ» كَوْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا، بَلْ مَعْنَاهُ: عَدَمَ قَبُولِهَا وَ رَفْضِهَا مِنَ الْإِبْتِدَاءِ، فَإِنَّ الْفِعْلَ يَسْتَعْمَلُ فِي الْمَعْنِيِّينَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَبْدَأٍ وَ لَا مَعَادٍ، وَ حَيْثُ تَرَكْتُ تِلْكَ الْمِلَّةَ

ألهمنى الله الغيب و تأويل الرؤيا.

[٣٩] وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي وَ «الملة» هى الطريقة الدينية، يقال: «ملة اليهود» و «ملة النصارى» و لا يقال: ملة العطارين إِبْرَاهِيمَ جَدِّ أَبِيهِ وَ إِسْحَاقَ جَدِّهِ وَ يَعْقُوبَ أَبِيهِ، وَ بذلك يبين عليه السَّلام أنه من بيت النبوة و الطهارة حتى يكون كلامه مسموعاً لديهم. فقد جرت عادة الناس أن يسمعوا من ذوى البيوتات و الشرف أصحاب الحسب

(١) آل عمران: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٩]

يا صاحِبِ السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَّفَقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)

و النسب، و كان إبراهيم عليه السَّلام مشهود لدى الجميع، و لعل إسحاق و يعقوب كان كذلك ما كان لنا أى لا يجوز لنا معاشر الأنبياء، أو المراد عموم البشر، أى لا يحق للبشر أن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ باتخاذ الأصنام آلهة، و كيف يجوز للبشر أن يكفر بخالقه و يجعل له أندادا؟ ذَلِكَ التمسك بالتوحيد و البراءة من الشرك مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا حيث هدانا إلى ذلك و أوحى إلينا به وَ عَلَى النَّاسِ حيث هداهم بسبب الفطرة و الأنبياء. و لعل سبب ذكر «علينا» مستقلا، لاختصاصهم بالنبوة و الوحي وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ هذه النعمة العظيمة، و هى نعمة الهداية، بل يكفرون بها باتخاذ الأصنام آلهة.

[٤٠] و بعد ما بين عليه السَّلام طريقته و ملته، و ذكر أنه من بيت رفيع و أنه يعلم بعض أمور الغيب بتعليم الله له حتى يطمئن إليه، أخذ فى الاستدلال على التوحيد، و قد كان الموقع مناسباً جداً للتبليغ، فإن المستمع حيث ينتظر جوابه يصغى جيداً، بخلاف ما لو أجابهم عن تأويل رؤياهم ثم يبين التوحيد، و حيث قدم له مقدمته صار الموقع أنسب، لأنه بين ماضٍ مشوق و مستقبل متقرب، فالنفس متفتحة للاستماع و القبول يا صاحِبِ السَّجْنِ أى يا صاحِبِ فيه، فإن الشئ قد يضاف إلى الزمان و المكان مجازاً، كما قال الشاعر:

يا سارق الليلة أهل الداريا سارقا مالى و مال جارى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٤٠]

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)

أو المراد «ملازمى السجن» فإن «صاحب» يقال للملازم للشئ، يقال: «صاحب الدكان» لمن لازمه بالبيع و الشراء فيه .. و هكذا. أَرْبَابٌ أى هل آلهة مُتَّفَقُونَ شتى متعددون خَيْرٌ فى اتخاذها آلهة و عبادتها، بأن يعبد الإنسان آلهة من حجر و خشب أمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ المتفرد الذى خلق كل شئ، و بيده كل شئ القَهَّارُ الغالب الذى لا يعادله شئ و لا يتمكن شئ أن يقاومه؟ و من الطبيعى أن يكون الجواب: بل الله الواحد القهار.

[٤١] ما تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ أيها المشركون مِنْ دُونِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أى أسماء الآلهة لا حقيقة الإله، فإن ما تعبدون إنما هى أسماء فارغة لا حقيقة لها فى منصب الألوهية، كما يقال: «الحاكم الفلانى اسم مجرد» يراد أنه ليس بحقيقة حاكم، و ليس لديه علم الحاكم و إرادته أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ بدل من ضمير الجمع، فَأَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ إنما تعبدونها باعتبار أسماء تطلقون عليها، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا بتلك الآلهة، أو بأسمائها مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ حِجَّةٍ، أى لا حجة لكم فى كونها آلهة، إذ الحجة لا بد أن تكون معقولة، و العقل يأبى أن ينحت الإنسان حجراً أو ينجر صنماً ثم يقول إنه إله الكون، و الله سبحانه لم يقل ذلك و لم ينزل بذلك دليلاً.

و لعل ترك الدليل العقلي إنما هو لوضوحه، ولأنهم كانوا ينسبون ذلك إليه سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٩

[سورة يوسف (١٢): آية ٤١]

يا صاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَ أَمَا الْآخَرُ فَيَصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)
 إِنَّ الْحُكْمَ لَيْسَ الْحَكْمُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ إِلَّا لِلَّهِ فَكَيْفَ يَعْبُدُ سِوَاهُ؟ إِذِ الْعِبَادَةُ خَاصَةٌ بِمَنْ لَهُ الْحَكْمُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، لِأَنَّ الْعِبَادَةَ خُضُوعٌ،
 وَالْخُضُوعَ لَا يَلِيقُ إِلَّا أَمَامَ الْحَاكِمِ الْأَمْرُ وَالنَّاهِي، وَقَدْ أَمَرَ سَبْحَانَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا أَحَدًا إِلَّا إِيَّاهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

و لعل «إن الحكم» و «أمر» إشارة إلى مرتبتين من التوحيد. فقد قالوا إن التوحيد على أربعة أقسام: توحيد الذات، بأن يعتقد الإنسان أن الإله واحد لا شريك له، و توحيد الصفات، بأن يعتقد الإنسان أن صفات الله عين ذاته لا تعدد فيها و لا مغايرة، و توحيد الخلق، بأن يعتقد الإنسان أن جميع الخلق إنما هو منه وحده لا يشاركه فيه أحد، و توحيد العبادة، بأن لا يعبد الإنسان أحدا إلا إياه.

ذَلِكَ التَّوْحِيدَ الدِّينَ الْقِيَمُ أَى الطَّرِيقَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ، فَإِنَّ «الدِّينَ» بِمَعْنَى الطَّرِيقَةِ، وَ «الْقِيَمَ» بِمَعْنَى الْمُسْتَقِيمِ، مُشْتَقٌّ مِنْ «قَامَ»، لَا أَعْوَجَاجَ فِيهِ وَ لَا انْحِرَافَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّ هَذَا هُوَ الدِّينَ الْقِيَمِ، وَ إِنَّ سِوَاهُ مَعْوَجٌ مُنْحَرَفٌ.

[٤٢] و إذ أتم يوسف عليه السلام الإرشاد و التبليغ، شرع في جواب سؤال صاحبيه من الرؤيا، فقال: يا صاحِبِي السَّجْنِ أَصْلَهُ «صَاحِبِينَ» حَذَفَ النَّونَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى السَّجْنِ، كَمَا هُوَ الْقَاعِدَةُ، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

نونا تلى الإعراب أو تنوينامما تضيف أحذف كطور سينا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٠

أَمَا أَحَدُكُمْ وَ هُوَ سَاقِي الْمَلِكِ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ كَانَ يَعْصِرُ خَمْرًا، فَيُخْرِجُ مِنَ السَّجْنِ وَ يَصِيرُ حَالَهُ كَحَالِهِ السَّابِقِ فَيَسْقِي رَبَّهُ أَى سَيِّدِهِ الْمَلِكِ خَمْرًا كَمَا كَانَ يَسْقِي مِنْ ذِي قَبْلِ. وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: أَنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّ بَقَاءَهُ فِي السَّجْنِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَ يُخْرِجُ الْيَوْمَ الرَّابِعَ.

وَ إِنَّمَا قَالَ «رَبِّهِ» لِأَنَّ الرَّبَّ يُطْلَقُ عَلَى الصَّاحِبِ، يُقَالُ: «رَبُّ الدَّارِ» وَ «رَبُّ الدَّابَّةِ».

وَ أَمَا الْآخَرُ وَ هُوَ الْخَبَازُ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ رَأَى خَبْزًا عَلَى رَأْسِهِ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ فَيَصْلَبُ أَى يَشْتَقُ فَيَمُوتُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ تَأْنِيثَ الْفِعْلِ، بِاعْتِبَارِ كَوْنِ الطَّيْرِ اسْمَ جِنْسٍ يُطْلَقُ عَلَى الْجَمَاعَةِ مِنَ الطَّائِرِ مِنْ رَأْسِهِ أَى مِنْ دِمَاغِهِ. فِي الْحَدِيثِ: إِنَّ الْخَبَازَ كَانَ كَاذِبًا فِي مَا ادَّعَى مِنَ الرُّؤْيَا وَ لَمْ يَكُنْ رَأَى شَيْئًا فِي مَنَامِهِ وَ إِنَّمَا اخْتَلَقَ ذَلِكَ. وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: لَمَّا قَالَ يُوسُفُ ذَلِكَ، قَالَ الرَّجُلُ: كَذَبْتَ وَ مَا رَأَيْتَ شَيْئًا، وَ إِنَّمَا كُنْتَ أَلْعَبُ (١).

فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ أَى فَرَّغَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي تَسْأَلَانِ وَ تَطْلُبَانِ مَعْرِفَتَهُ، وَ مَا قَلْتَهُ لَكُمْ فَإِنَّهُ نَازِلٌ بِكُمْ وَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَ «الِاسْتِفْتَاءُ» طَلَبُ الْفَتْوَا، أَى الْجَوَابُ فِي مَسْأَلَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِالدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا، وَ قَدْ كَانَ الْوَاقِعُ الَّذِي سَوْفَ يَجْرِي عَلَى الْخَبَازِ

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)
 مِنْ خِلَالِ شِعَاعِهِ فِي دِمَاغِهِ، فَاخْتَرَعَ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْمَكْدُوبَةَ، وَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا نَظَرَ إِلَى الْوَاقِعِ فَأَخْبَرَهُ بِهِ - وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا مِنْ تَفْسِيرِ الرُّؤْيَا -.

[٤٣] وَقَالَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَى لِلْعَاصِي الَّذِي ظَنَّ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَنْجُو مِنَ السَّجْنِ وَالْقَتْلِ، مِنْ صَاحِبِيهِ، وَ لَعَلَّ التَّعْبِيرَ بِ«ظَنَّ» لِإِمْكَانِ مَحْوِ مَا عَلِمَ فِي عِلْمِهِ سَبْحَانَهُ فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُسْتَقْبَلَةَ - إِلَّا بَعْضَهَا - قَابِلَةٌ لِلْمَحْوِ، قَالَ سَبْحَانَهُ: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) «١»، اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ أَى اذْكَرْ حَالِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَ إِنِّي إِنَّمَا حَبِسْتُ ظَلْمًا، لَكِي يَفْرَجُ عَنِّي وَ يَطْلُقُ سَرَاحِي فَلَمَّا تَحَقَّقَ مَا قَالَهُ يَوْسُفُ وَ أَنَّ صَاحِبَ الشَّرَابِ تَخَلَّصَ مِنَ السَّجْنِ، وَ أَنَّ الْخَبَازَ صَلَبَ فَأَنْسَأُ الشَّيْطَانَ ذَكَرَ رَبَّهُ أَى أَنْسَى الشَّيْطَانَ صَاحِبَ الشَّرَابِ أَنَّ يَذْكَرُ يَوْسُفَ لِرَبِّهِ الْمَلِكِ فَلَبِثَ يَوْسُفُ فِي السَّجْنِ بَقِيَ فِيهِ بَضْعَ سِنِينَ «بَضْعَ» كَلِمَةٌ بِمَعْنَى «مَا دُونَ الْعَشْرَةِ»، وَ أَصْلُهُ بِمَعْنَى «الْقِطْعَةُ» مِنَ الدَّهْرِ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِ. وَ مِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةُ مِنِّي» «٢».

[٤٤] بَقِيَ يَوْسُفُ سِنُونَ فِي السَّجْنِ، وَ سَاقَى الْمَلِكِ نَاسًا، مَشْغُولٌ

(١) الرعد: ٤٠.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٠ ص ٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٢

بملهيات القصر - وكذلك ينسى الرخاء الإنسان زميله الذى يكابد البلاء - حتى رأى الملك رؤيا هالته فطلب معبرا لذلك. و هناك تذكر الساقى يوسف السجين الذى عبر رؤياه من ذى قبل، و شاءت إرادة الله سبحانه إنقاذ يوسف فى ذلك الحين، و قد كان السجن و الجب و كيد المرأة و حسد الأخوة امتحانات له و لرفع درجته، فقد و كل البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل و قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى فِي مَنَامِي. وَ كَأَنَّهُ حِكَايَةُ حَالِ مَا مَاضِيَةٍ، وَ إِلا فَالْإِزْمَ أَنْ يَقُولَ إِنِّي رَأَيْتُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ جَمَعَ «سَمِين» ضِدَّ هَزِيلٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ أَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ كُنَّ هَزِيلَاتٍ، وَ «عِجَافٌ» جَمَعَ «أَعْجَفٌ» وَ هُوَ الْهَزِيلُ وَ مُؤَنَّثُهُ «عِجْفَاءٌ»، فَقَدْ أَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْهَزَالَ الْبَقَرَاتُ السَّمَانُ حَتَّى دَخَلْنَ فِي بَطْنِ الْهَزَالِ وَ أَرَى سَبْعَ سُنبُلَاتٍ وَ «السُّنْبُلَةُ» هِيَ الْعُودُ الَّذِي تَنْبَتَ عَلَيْهِ حُبُوبُ الْحِنْطَةِ وَ الشَّعِيرِ وَ مَا أَشْبَهَ خُضْرٍ جَمَعَ «خُضْرَاءٌ»، أَى قَدْ انْفَتَقَ حَبُّهَا وَ كَانَتْ رَطْبَةً وَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ أُخْرَى يَابِسَاتٍ قَدْ حَصَدَتْ فَالْتَوَتْ تِلْكَ الْيَابِسَاتُ عَلَى تِلْكَ الْخُضْرِ حَتَّى غَلَبَنَ عَلَيْهَا.

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَى الْجَمَاعَةُ الْأَشْرَافُ، فَإِنَّ الْمَلَأَ هُمُ الْأَشْرَافُ أَفْتَوْنِي فِي رُءْيَايَ أَى أَجِيبُوا عَن هَذِهِ الرُّؤْيَا وَ عَبَّرُوا لِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ أَى إِذَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ التَّعْبِيرَ. وَ سُمِّيَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا تَعْبِيرًا يَعْبُرُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ - وَ هُوَ جَانِبُ ظَاهِرِ الرُّؤْيَا - إِلَى ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ اذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥)

الجانب - و هو جانب باطنه و أوله - مأخوذ من «العبور» من شاطئ النهر إلى الشاطئ الآخر.

[٤٥] قَالُوا أَى قَالَ الْمَلَأُ فِي جَوَابِ الْمَلِكِ: إِنْ رُؤْيَاكَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ «أَضْغَاثُ» جَمَعَ «ضَغْثٌ»، وَ هِيَ قَبْضَةُ الْحَشِيشِ الْمَخْتَلِطِ رَطْبُهَا بِيَابِسِهَا، وَ «أَحْلَامٌ» جَمَعَ «حَلْمٌ» وَ هُوَ الْمَنَامُ، أَى إِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِنَّمَا هِيَ أَحْلَامٌ مَخْتَلِطَةٌ لَا يَعْرِفُ تَأْوِيلَهَا، فَكَأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ عَرَفَ التَّأْوِيلَ لَهَا، أَمَا إِذَا اخْتَلَطَتْ، سَمَانَ وَ عِجَافًا، حَيَوَانَ وَ نَبَاتًا، وَ تَغَلَّبَ الْأَضْعَفُ عَلَى الْأَقْوَى - بِعَكْسِ الْقَاعِدَةِ - فَلَا يَعْرِفُ تَأْوِيلَهَا وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ الَّتِي هِيَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ بِعَالَمِينَ وَ قَدْ كَانَ قَوْلُهُمْ: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» كَمُعْذَرَةٍ قَدَّمَهَا إِلَى الْمَلِكِ، نَسَبَهُ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِتَأْوِيلِهَا.

[٤٦] وَقَالَ السَّاقَى الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا مِنَ السَّجْنِ - كَلَا السَّاقَى وَ الْخَبَازَ، اللَّذِينَ سَجَنَا مَعَ يَوْسُفَ - وَ اذْكُرْ أَصْلَهُ «ذَكَرٌ» وَ لَمَّا جِئْنَا إِلَى بَابِ الْإِنْتِقَالِ، صَارَ «اذتكر»، فَأَبْدَلْتَ التَّاءَ دَالًا، فَصَارَ «اذدكر»، وَ أَدْغَمْتَ الذَّالَ فِي الدَّالِ لِقَرَبِ مَخْرَجِهِمَا، فَصَارَ «اذكر»، أَى: وَ تَذَكَّرْ

قصة يوسف عليه السلام بَعْدَ أُمَّهُ أَي بعد مدته، فإن «الأمه» بمعنى الجماعة، سواء كانت من الناس أو غيرهم أو من الزمان، أو نحوه، كأنه من «أم» بمعنى قصد، فكأن الجماعة يدخل بعضها في بعض و يقصد بعضها بعضاً أنا أُتْبِكُكُمْ أَي أخبركم بتأويله أَي تأويل هذه الرؤيا فَأَرْسَلُونِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٦ إلى ٤٧]

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)
أى: فأرسلوني إلى يوسف ليأتى و يخبركم هو بتأويل الرؤيا، أو:
فأرسلوني إلى يوسف لأسأله تعبيرها و أخبركم بالجواب.

فقد قال للملك: إن في الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير الطاعة، قد قصصت أنا و الخباز عليه منامين فذكر تأويلهما، فصدق في الكل و لم يخطئ، فإن أذنت مضيت إليه و جئتك بالجواب منه. فأذن له الملك، و جاء إلى يوسف عليه السلام ليخبره بتعبيرها، قائلا:
[٤٧] يا يوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ الكثير الصدق فيما تخبر به، و إنما وصفه بهذا الوصف لأنه رأى صدقه في تأويل رؤياه، و رؤيا زميله الخباز أَفْتِنَا أَي أعطنا الجواب في هذه الرؤيا سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ و كان تقديم السمان، مع أن مقتضى القاعدة أن يقول: «سبع بقرات عجاف يأكلن سبع سمان»، لأجل إفادة أنه رأى السمان قبل العجاف، كما أن التأويل أيضا كذلك، فقد تقدمت السنين الخصبه و سَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ تلتف عليها و تغلبها أُخَرَ يَابِسَاتٍ فما تأويل هذه الرؤيا لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ الملك و حاشية لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ التفسير، أو لعلهم يعلمون فضلك فينقدوك من السجن. و إنما قال: «لعلي» لأن الإنسان يحتمل حيولته الموت بينه و بين ما يقصده من المقاصد المستقبله.

[٤٨] قال يوسف عليه السلام في جواب الساقى: أما البقرات السبع العجاف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٤٨]

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨)

و السنابل اليابسات فهن السنون الجدبه، و أما البقرات السبع السمان و السنابل السبع الخضر فإنهن سبع سنين مخصبات ذوات نعمه.
أقول: كأن البقر و السنابل إشارتان إلى المأكَل، فإن الزرع و الضرع من البقر و السنبل و جنسهما، فقد أخبر عليه السلام بأن سبع سنين تكون مخصبه ثم تأتي سبع سنوات مجدبه يأكل الإنسان ما أَدخِر في المخصبه، و لذا التوت السنابل اليابسه على الخضر، و أكلت البقرات الهزال البقرات السمان.

ثم بين يوسف عليه السلام ما ينبغي لهم أن يعملوا تجاه هذا القحط الذى سيأتيهم بعد سبع سنين من الخصب، فقال: تَزْرَعُونَ «خبر في معنى الإنشاء»، أى ازرعوا سَبْعِ سِنِينَ دَأْبًا أَي متواليه بجهد وجد، أو بمعنى «على دأبكم و عادتكم فى الزراعة»، فإن «دأب» يأتى بالمعنيين فَمَا حَصَدْتُمْ من الزرع الذى هو أكثر من كفايتكم فَذَرُوهُ أَي دعوه فى سُنْبُلِهِ لا تدوسوه، بل اتركوه ليبقى أكثر، و لئلا يسرع إليه الفساد، فإن الحبوب فى سنبلها تبقى أكثر مدته إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ مما تحتاجون فى نفس السنه، فادخروه لأكلكم و حوائجكم.

[٤٩] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ السبع سنين الخصبه سَبْعٌ من السنين شِدَادٌ جمع «شديد»، أى سنوات قحط و جذب صعاب على الناس تشتد عليهم لعدم الأكل و الزرع و الضرع يَأْكُلْنَ أَي تلك السنوات الشدائد ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ما أبقيتم من الحبوب، لأجل تلك السنوات.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٤٩]

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ (٤٩)

و إنما قال: «يأكلن» ليطابق رؤيا الملك «يأكلهن سبع عجاف» و مثل هذا التعبير شائع في المجاز، قال: «أكل الدهر ما جمعت و مالي». حكى في المجمع: عن زيد بن أسلم أن يوسف عليه السّلام كان يصنع طعام اثنين فيقربه إلى رجل فيأكل نصفه، حتى كان ذات يوم قربه إليه فأكله كله، فقال: هذا أول يوم من السبع الشداد.

أقول: و لا بعد في ذلك، فإن الهواء من القحط- غير المصطنع- يتغير و يتطلب الجفاف و الفناء، فما يصيب الأرض، يصيب الحيوان و الإنسان.

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُخَصِّصُونَ استثناء من «يأكلن» أى أن السبع الشداد تنفق فيها جميع السنايل المحرزة إلا مقدار قليل مما أحصتكم و حفظتم فإنه يبقى ليكون بذرا للرخاء الذى يأتى بعد سنّ القحط السبع.

[٥٠] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الذى ذكرنا من الأعوام الشداد عامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ يمتطرون، فإن الغيث بمعنى المطر و فِيهِ أى فى ذلك العام يَعْرِضُونَ ما اعتادوا عصره من أنواع الفواكه فى أوقات الخصب و الرخاء كالعنب و غيره. و هذا يدل على شدة الخصب حتى أن الناس يتأنقون فى المأكل و المشرب. و لعل الإتيان بهذه اللفظة بمناسبة كون الرجل السائل كان الساقى العاصر للملك، و قد كان هذا إخبارا من يوسف عليه السّلام بعلم الغيب خارجا عن المنام، لأن رؤيا الملك اشتملت على السبع الشداد، أما ماذا يكون بعدها، فلم يكن فى الرؤيا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٥٠]

و قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسئَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)

[٥١] ثم أن الساقى بعد ما علم التعبير من يوسف جاء الملك و أخبره أن الرجل السجين يقول هكذا فى تعبير رؤياك و حينئذ قال المَلِكُ لمن حوالبه ائْتُونِي بِهِ جئوا إلى بالسجين الذى عبر الرؤيا فلَمَّا جَاءَهُ جاء يوسف الرَّسُولُ من قبل الملك ليخرجه من السجن، أبى يوسف عليه السّلام الخروج حتى تتبين براءته من التهمة التى قذفته بها زليخا و أنه أراد بها سوءا، ف قال يوسف للرسول: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ سيدك الملك فَسئَلُهُ أى اسأل منه ما بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ أى يتعرف الملك على حال تلك النسوة اللاتى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بالسكاكين لَمَّا رأينى. و إنما خصهن بالذكر لأنهن كن شاهدات على زليخا أنها دعت يوسف إلى الفاحشه، فقد سبق أنها قالت لهن: «وَلَكِنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَجَنَّ». و معنى «ما بال» أى ما شأنهن من تلك القصة.

فى بعض الأحاديث: إن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أظهر التعجب لأمرين من قصة يوسف، الأول: أنه عبر رؤيا الملك بدون أن يشترط ذلك على خروجه من السجن. الثانى: أنه لم يخرج من السجن بعد الأمر بإطلاقه حتى تظهر براءته.

أقول: لعل يوسف لم يذكر امرأه العزيز تأديبا، أو لأنه علم أنها لا تعترف بأنها صاحبة الجريمة، بخلاف سائر النساء، و كان ذكر «قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» لأنه خير مذكر لهن بالقصة.

إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فهو سبحانه العالم بأنهن قد كدن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٥١]

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِنَّ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)

و مكرن- و إنما سمي كيدا، لأن أمرهن كان فى خفاء- و إنى برىء من القذف و التهمة.

[٥٢] ثم إن الرسول رجع إلى الملك، و قال له ما طلبه يوسف عليه السّلام، فأرسل الملك إلى النسوة و دعاهن، و قال لهن: ما شأنكن مع يوسف؟ و ما تعلمون من قصته و قصة زليخا؟ قال الملك لهن:

ما حَطْبُكُنْ أَى ما شأنكن إذِ رَاوَدْتُنَّ يُوْسُفَ عَن نَفْسِهِ أَى طلبتن انتزاع نفس يوسف و دعوته إلى أنفسكن، فهل كان مائلا إلى ذلك؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ أَى تزئيهما لله، و أصله «حاشا» حذف الألف تخفيفا، و هى كلمة تقال فى موارد، منها: فى مقام تبرئة المتهم، كأنه تعجب من قدرة الله على خلق بشر عفيف و برىء مثله ما عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ فَإِنَّهُ بَرِيءٌ لَمْ يَكُنْ مَائِلا إِلَى الشَّهْوَةِ و إنما نحن كن مجرمات. و لفظ «عليه» كأنه بسبب أن السوء يركب على المجرم.

و كأن امرأة العزيز «زليخا» كانت من جملة النساء اللاتى استجوبهم الملك ف قالتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَى ظهر الحق، و هو براءة يوسف. قال بعضهم: «حصحص» اشتقاقه من «الحصصة» أى بانت حصصة الحق من حصصة الباطل، فظهر جليا واضحا لا لبس فيه و لا غموض أنا امرأة العزيز رَاوَدْتُهُ أَى راودت يوسف، راجعته و اختلفت إليه عَن نَفْسِهِ لِأَسْلَبِ نَفْسِهِ، و أفضى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٩

[سورة يوسف (١٢): آية ٥٢]

ذَلِكَ لِيُعَلِّمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

معه الشهوة و إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما قال «هِيَ رَاوَدْتَنِي عَن نَفْسِي» فأنا كاذبة فى التهمة، و هو صادق فى براءته و كونى أنا المجرمة.

[٥٣] و هنا عاد الرسول إلى يوسف من السجن و أخبره باستجواب الملك للنساء، و أنهن اعترفن ببراءته عليه السّلام و أنهن المجرمات. فقال يوسف:

ذَلِكَ الَّذِي طَلَبْتَ مِنَ التَّيْبِتِ فى أمرى لِيُعَلِّمَ الْمَلِكَ - أو العزيز، على تقدير كونه الوزير - أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ أَى لم أخن الملك فى غيابة بقصد السوء إلى زوجته، و ذكر «بالغيب» لبيان شدة وقع الخيانة إذا وقعت كذلك، إذ خيانه المؤمن أسوء من خيانه غيره وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ أَى لا ينقذه و لا يوصله إلى مقصده. و هذا تنبيه على أن الخائن إن ستر أمره مدّة، و هبّت الرياح نحوه أياما، فإنه سيفضح و إن كیده سيفشل. و هناك احتمال أن يكون هذا من كلام زليخا، تريد: إنما اعترفت ليظهر أنى لا أخون يوسف و هو غائب فى السجن بأن أنسب إليه الجريمة، و كذلك (وَ مَا أُبْرِيءُ نَفْسِي) «١»، من تمتة كلامها.

(١) يوسف: ٥٤.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرِ الْبِحَارِ - فى تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبى (صلواتُ الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السّلام) و بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشئته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشبَاب و عموم الناس إلى التحرّي الأدقّ للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المبتدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقوله) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعه جامعته ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللزومه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعه، و...

- منها العدالة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الايرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى.
- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي " القائمية " www.Ghaemiyeh.com و عدّه مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديّه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسه " الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركون في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيّه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسي: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع " پنج رمضان " و "مفتق و فاني/ " بنايه " القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسيه (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظه هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحالية و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الاعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً مترائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

